

البفاهيم القرآنية

رسالة في تفسير مفاهيم
القرآن الكريم

تأليف

أ. أحمد عبد الرزاق مريوش



التعريف بالمؤلف /

المحامي / احمد عبد الرزاق مريوش سلام العامري

تاريخ ومحل الميلاد / من مواليد ١٩٧٣م بمنطقة حرف الاعمور اعرواق حيفان محافظه تعز اليمن وبها درس الا
بتدائيه بمدرسه الشهيد عبد الرحمن مهيوب انعم بالعرين اعرواق ثم درس فى مدينه القاعده مديريه ذى سفال ثم
بمعهد مصعب بن عمير بالحديدة ثم درس بمعهد المعلمين العام (مدرسه سباء بمدينة القاعده) ثم التحق بكلية
الشريعة والقانون وعمل فى مجال المحاماه

الاقامه / ذى سفال اب الجمهوريه اليمنيه

العمل الحالى / محام مهتم بالفكر الاسلامى ودراسه القران الكريم وعلومه

المؤهل / ليسانس شريعته وقانون

الحاله الاجتماعيه متزوج من ثلاث نساء وله سبعة اولاد ثلاثه ذكور واربع بنات

بسم الله الرحمن الرحيم
إهداء الكتاب

إلى من استظلوا بظل «الكتاب المبين» في زمن تجمعت فيه الغيوم وزخرفت فيه السبل...

إلى نبي التوحيد وإمام الموحدين،
صاحب البراءة من كل زخرف وذهب وزينة تلهي عن الله،
الذي قال: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»،
فعاش فقيراً في الدنيا غنياً في القلب، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي،
ليعلمنا أن العزة في العبودية لا في الزخرف،
والشرف في الرسالة لا في القصور والمآكل.

فإليك يا رسول الله سلام الله عليك،
وإلى كتابك الذي جعله الله ذكراً لأمتك، ورفعته لقدرها، وميزاناً لحقها،
نهدي هذا الجهد المتواضع،
علّه يكون سبباً في ردّ أمة الإسلام إلى فهم كتابها فهماً ينقذها من غرقها في بحار المادية،
ويحصنها من الانبهار بزخرف الحضارات التي تملك الدراهم والدنانير وتخسر الأرواح والقيم.

وإلى أئمة الهدى والدعاة الصادقين،
الذين يقفون وحيدين في وجه طوفان الإغراء، ويهتفون في قلوب الغافلين:
«إن كانت هذه الدنيا كل شيء، فلماذا يموت الغني كما يموت الفقير؟!
وإن كان الزخرف هو الغاية، فلماذا يترك القيصر قصره ويحشر إلى الله؟!»

أنتم ورثة الأنبياء حقاً حين لا يخدعكم بريق العاجل،
وتعلمون أن «الدنيا متاعٌ لا يساوي عند الله جناح بعوضة»،
وأن «رحمة ربكم خير مما يجمعون».

وإلى شباب الأمة الذين سئموا التبعية والتقليد،
وبالحثين عن هوية لا تباع بملابس الموتى ولا تشتري بأكاذيب الإعلام،
هذا الكتاب بين أيديكم:
ليس تفسيراً يُقرأ ثم يُنسى،
بل عدة بناء لمن يريد أن يكون من «الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه».

وإلى كل مؤمن يريد أن ينتقل من قراءة القرآن للبركة إلى قراءة القرآن للبناء،
وإلى كل نفس حزينّة على حال الأمة، لا تملك إلا يقينها وبصيرتها وقلبها المعلق بالله،
أقول لك:
هذا الكتاب سيُرِيكم كيف أن الكلمة الباقية لا إله إلا الله (أقوى من كل قصور الدنيا،
وكيف أن الزخرف عندما يُقرأ بعين القرآن ينقلب إلى أداة عبادة،
وكيف أن المترفين على مر العصور مصيرهم واحد،
وكيف أن الراكب للسيارة أو الطائرة يمكن أن يتحول إلى مسبح عابر للآفاق،
إذا عرف قول: «سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون».

وأخيراً...

إلى روح كل مجاهد في ميدان الفكر والوعي،
وإلى كل من آثر أن يقرأ كتاب ربه ليصنع به نهضة لا يقرأها ليصنع به حكاية،
نهدي هذا العمل المتواضع،

سائلين الله أن يجعله ذكراً في الآخرين، وخلقاً في المتقين، وزاداً للمسلمين، وأن ينفع به كما نفع بسورة الزخرف قبل أربعة عشر قرناً.

«وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون»
صدق الله العظيم

كاتب هذه السطور
الفقير إلى عفو ربه
أحمد عبد الرزاق مريوش العامري
ذي سفال اب الجمهورية اليمنية
ت ٧٧٧٣٠٨٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم
مذكره تعريفية بكتاب المفاهيم القرآنية من سورة الزخرف»
 تأليف أحمد عبد الرزاق مريوش العامري
 مراجعه وتدقيق : الاستاذ منير عبده عثمان الصلوى
 أولا : نبذة تعريفية وأفق الكتاب

ليس هذا الكتاب مجرد تفسير عابر لسورة الزخرف، بل هو مشروع حضاري منهجي يهدف إلى استنطاق النص القرآني لا بصفته تراثاً يتلى، بل بوصفه نظاماً معرفياً حياً يبني الوعي ويدير حركة الحياة.

يأخذ المؤلف القارئ في رحلة تركيبية داخل «سورة الزخرف» لا تقف عند حدود الشرح اللغوي أو الإخباري التاريخي، وإنما تتعمق في الأبعاد الفكرية والنفسية والتربوية والحضارية، مع ربط عضوي بواقع الأمة المعاصر.

يمثل هذا الكتاب الحلقة الخامسة والأخيرة في "الدورة التأسيسية القيادية" التي تبدأ بسورة «ص»، ثم «الزمر»، فـ«غافر»، فـ«فصلت»، فـ«الشورى»، لتختتم بـ«الزخرف»، حيث تعالج كل سورة مرحلة منهجية في بناء الإنسان المؤهل لقيادة العالم.

ثانياً: منهجية العمل في الكتاب

يعتمد المؤلف على أسلوب فريد يسميه "الاستنطاق البنائي"، ويرتكز على أسس واضحة:

1. تجاوز التفسير الخطي التقليدي إلى قراءة السورة كنظام متكامل المقاصد، ترتبط أوائلها بخواتيمها.
2. الربط بين السور القرآنية بوصفها وحدات موضوعية، وليس مجرد سرد منفصل). يبرز الكتاب الرابط بين الحواميم وسورتي «ص» و«الزمر».
3. استخراج المفهوم ثم تحويله إلى طاقة بناء لا مجرد معلومة عقلية.
4. الحوارية مع القارئ عبر أسلوب الخطاب الحي) يا أيها القارئ، تأمل، اسأل نفسك (مما يحول القراءة إلى تفاعل وجداني.

وهو ما يظهر جلياً عبر تقسيم كل مقطع من السورة إلى: تفسير الآية، ثم الرسائل الفكرية، ثم التوجيهات النفسية، ثم الأبعاد التربوية، ثم تحويل ذلك إلى طاقة بناء للمجتمع والحضارة.

ثالثاً: أبرز المحاور والقضايا التي يعالجها الكتاب

يشغل الكتاب على معالجة إشكالات كبرى، من أبرزها:

- المحور الأساسي الأسئلة التي يجيب عنها
- الزخرف مفهوماً لا مادة ما الفرق بين الجمال المادي والزخرف الهدام؟ كيف نفرق بين المتاع الزائل و الغاية الباقية؟
- التوحيد العملي لا النظري لماذا كان اعتراف مشركي مكة بالخالق لا ينفعهم؟ ومتى يصبح إيمان العبد حقيقياً نافعاً؟
- الاستخلاف القيادي كيف يبني القرآن الإنسان القائد القادر على تحمل أمانة الأرض؟
- مقاومة الانبهار بالحضارة المادية كيف نحمي أنفسنا وأبناءنا من فتنة «الزخرف» المعاصرة بأنواعها (التقنية، الإعلام، الاستهلاك)؟
- معركة المصطلحات لماذا سميت السورة بـ«الزخرف» وكيف ينقلب الذهب والفضة في يد الكافر إلى حسرة وفي يد المؤمن إلى عبادة؟

رابعاً: ما يميز هذا الكتاب عن التفاسير التقليدية

التفاسير التقليدية	تفسير هذا الكتاب
تشرح المعنى اللغوي والإخباري	يستنبط المفاهيم ثم يحولها إلى منهج حياة
تقف عند سبب النزول	يتجاوز إلى دلالة النص على الواقع المعاصر
تقدم معرفة نظرية	نتج طاقة بناء للأمة (يسمى تحويل الآية إلى طاقة حضارية)
تكاد تكون معزولة عن السور الأخرى	يبني وحدة موضوعية بين سور الحواميم

خامساً: دور الكتاب في خدمة الأمة الإسلامية

1. تأهيل القيادة لا الوعظ الفردي
يُخرج الكتاب فهم الأمة من حالة "التلقي السلبي" إلى "التحضير القيادي"، حيث يعتبر أن السورة تدرّب المؤمن على تحمل المسؤولية في زمن المادة والترف.
2. تحصين الوعي الحضاري
يقدم الكتاب سلاحاً فكرياً لمواجهة «الإسراف المعاصر»، وتفكيك مفهوم "التقدم" الزائف الذي يقاس بالمادة وحدها، وإعادة تعريف القيمة الحقيقية بالتقوى والعمل الصالح.
3. بناء منهج تربوي متكامل
يمكن للمربي والداعية أن يستخلص من الكتاب مراحل متدرجة في تربية الأبناء: بدءاً من تعليم التمييز بين الجمال والزخرف، مروراً بتربية الإرادة، وصولاً إلى تحويل وسائل النقل الحديثة (السيارات والطائرات) إلى محاريب عبادة وذكر.
4. تأصيل منهج الجدل بالقرآن
يعلم الكتاب القارئ كيفية مناقشة المخالفين والماديّين بأسلوب "الإلزام" و"تسليط الحجة" دون عنت أو انهيار، معتمداً على المنطق والفطرة السليمة.

سادساً: ثمار قراءة هذا الكتاب

يخرج القارئ من هذا الكتاب وقد تمكن من:

- . امتلاك ميزان الحق الواضح في زمن اختلاط المفاهيم.
- . الطمأنينة النفسية بعدم الانهزام أمام فتن المادة والتقنية.
- . العزة الإيمانية التي تجعله يرى رحمة الله (الوحي والقرآن) خيراً مما تجمعها الحضارة المادية من زخرف.
- . القدرة على التحليل الموضوعي لأحداث الواقع بمنظور سنن الله في التاريخ.
- . الشعور بالمسؤولية تجاه حمل "الكلمة الباقية" وتسليمها للأجيال القادمة.

خلاصة

كتاب «المفاهيم القرآنية من سورة الزخرف» ليس تفسيراً، بل هو دليل إرشادي لبناء وعي أمة مؤهلة للقيادة في زخرف العصر. يجمع بين دقة التحليل اللغوي، وقوة الرؤية المقاصدية، وصدق مواجهة الواقع، وأصالة المنهج التربوي. هو أداة ضبط للوعي، ومفكرة عملية لمن أراد أن ينتقل من قراءة القرآن للبركة إلى قراءته للبناء والنهضة.

مذكرة تعريفية بسورة الزخرف

1/ ** عدد الآيات: **

تتكون السورة من ٨٩ آية.

2/ ** مكان نزول السورة: **

السورة مكية.

3/ ** الأجواء التي نزلت فيها السورة: **

تأتي سورة الزخرف في إطار "سلسلة الحواميم" التي تشكل وحدة موضوعية تهدف إلى بناء الشخصية القيادية للأمة المؤمنة، وهي مرحلة "التحصين". نزلت السورة في سياق مواجهة الجاهلية التي تعظم المادة والزخرف، حيث كانت الأمة المؤمنة تحتاج إلى درع يحميها من خطر الانهيار الداخلي الناجم عن الانهيار ببريق الحضارة المادية والترف.

4/ ** أسباب نزول السورة وبعض آياتها: **

نزلت السورة لتصحيح التصورات الجاهلية، ومن ذلك ردها على المشركين الذين أنكروا نزول القرآن على رجل من القريتين، في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّا نُنْزِلُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، وكذلك لنسف مقاييسهم المادية التي تقيس قيمة الناس بما يملكون من زخرف الحياة الدنيا، وتأكيد أن الحق هو الميزان لا المادة.

5/ ** أسماء السورة وسبب التسمية: **

سميت بسورة "الزخرف" لورود هذا اللفظ فيها في قوله تعالى: ﴿وَزَخْرَفًا وَإِنَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. والزخرف لفةٌ هو الذهب وما يتخذ للزينة، أما في السياق القرآني فهو رمز لكل طلاء لامع (مادي أو مذهبي) يوضع على فكرة خاوية ليخدع الناس ويوهمهم بأنها السعادة المطلقة.

6/ ** ترتيب السورة: **

*** في المصحف المرتل: ** هي السورة رقم ٤٣

*** من حيث النزول: ** تأتي ضمن سياق السور المفتوحة بـ "حم"، وهي تقع في نهاية "الدورة التأهيلية القيادية" بعد سورة الشورى.

7/ ** ما تفردت به السورة: **

تتفرد سورة الزخرف بكونها "الدرع الواقى" للأمة القائدة، فهي لا تكتفي ببيان الحق، بل تواجه "ركام الفكر الجاهلي" الذي قد يعاد إنتاجه في صور معاصرة كالعلمانية المادية، وتكشف زيف الانهيار بالمادة، وتوصل لمفهوم "التوحيد" ليس كاعتراف نظري بالخالق فحسب، بل كاستقامة عملية على المنهج في الشعائر والتشريع وحركات الحياة اليومية.

8/ خصائص السورة

ان "خصائص سورة الزخرف" تتجاوز مجرد سرد الميزات اللغوية إلى التميز في "الوظيفة التغيرية". السورة تمتلك خصائص تجعلها "وحدة بنائية" لا غنى عنها في تكوين العقل المسلم القائد. إليك أبرز خصائص السورة:

١. خاصية "التحصين ضد الانهيار المادي"

تتميز السورة بكونها "مصلًا وافيًا" ضد الفتنة المادية. بينما تركز سور أخرى على العقيدة المجردة، تنزل سورة الزخرف إلى "أرض الواقع" لتفكيك منظومة القيم المادية التي قد يغتر بها الإنسان، وتوضح بجلال أن الزخرف ليس معيارًا للكرامة عند الله.

٢. خاصية "المواجهة المباشرة للفكر الجاهلي"

تعد هذه السورة من السور التي تواجه "الجاهلية" في أكثر صورها رسوخًا (التقليد، قياس قيمة الإنسان بما يملك، التكبر بالسلطة). هي لا تكتفي ببيان الحق، بل تفصح "تزييف الباطل"، مما يجعلها متميزة في أسلوبها الحجاجي الذي يجمع بين التفكيك والبناء.

٣. خاصية "الاستعلاء الإيماني"

تتميز السورة ببناء "نفسية قوية" للمؤمن، فهي تربي فيه شعورًا بالاعتزاز بالحق، وتنزع من قلبه أي شعور بالدونية أمام أهل الدنيا، حتى لو كانوا في مراكز قوة أو غنى، لأنها تضع "الميزان السماوي" فوق "الميزان الأرضي".

٤. خاصية "التأصيل للتوحيد في حركات الحياة"

بخلاف السور التي قد تركز على جوانب التوحيد في الشعائر، تتميز الزخرف بتوسيع مفهوم التوحيد ليشمل "تحرير الإرادة" من التبعية للآباء، ومن التبعية للمظاهر المادية، ومن الانقياد للقيم التي تفرضها النظم الجاهلية.

٥. خاصية "تكامل السلسلة" (البناء القيادي)

تتتمي السورة إلى "سلسلة الحواميم" التي تمثل "الدورة التأهيلية للقيادة". وتتميز الزخرف داخل هذه السلسلة بأنها "سورة الضبط والتوازن"، فهي التي تمنع المؤمن من الانحراف نحو المادية المفرطة، وتضبط بوصلته ليظل موصولاً بالهدف الأسمى (الآخرة) أثناء سعيه في الحياة.

٦. خاصية "اللغة المبينة"

تمتاز السورة بأسلوبها القوي الذي يقرع العقل والقلب معًا. فهي تستخدم مصطلحات دقيقة (كـ

"الزخرف"، "المتاع"، "الاستخلاف") لترسيخ مفاهيم كبرى، مما يجعلها مرجعاً غنياً للمصطلحات التي يحتاجها "طالب العلم" في بناء جهازه المفاهيمي.

****ملاحظة للمدير****

هذه الخصائص تجعل من سورة الزخرف ****منهج عمل**** أكثر من كونها مجرد نص للقراءة. هي توفر لك "الأدوات الدفاعية" التي تحتاجها في عملك المهني والفكري للحفاظ على استقلاليته الفكرية أمام ضغوطات البيئة المادية.

٩/ أهداف وأغراض السورة

إن النظر في "أغراض وأهداف" السورة يقتضي تجاوز السطح إلى المنهج التكويني الذي ترسمه السورة. سورة الزخرف ليست مجرد خطاب وعظي، بل هي ****بناء عقلي ومنهجي**** يهدف إلى تحصين العقل المسلم من "التلوث المادي" الذي يغلف الحضارات الجاهلية. إليك تفصيل لأغراض السورة وأهدافها الجوهرية:

أولاً : الأغراض التأسيسية) بناء الوعي)

**** تفكيك "صنمية المادة": ****الغرض الرئيسي للسورة هو كشف حقيقة "الزخرف" (المظاهر المادية و الترف)، وبيان أنه "متاع" دنيوي زائل لا يصلح أن يكون معياراً لتفضيل الناس أو تقييم الحقائق.

**** تصحيح الموازين الاجتماعية: ****تهدف السورة إلى نفس المقاييس الجاهلية التي تحصر العظمة في "الغنى" أو "النسب" أو "السلطة"، وتستبدلها بمعيار "الإيمان والاتباع للوحي".

**** ترسيخ مبدأ "الاستعلاء الإيماني": ****السورة تغرس في نفس المؤمن شعوراً بالاعتزاز بالمنهج الرباني، حتى لو كان في موضع استضعاف مادي، وتجعله يرى بطلان الفلسفات التي تعبد المادة وتؤله الشهوات.

ثانياً: الأهداف المنهجية) التحصين العملي)

**** التحصين ضد "الانبهار الحضاري": ****تهدف السورة إلى سد الثغرات في نفس المؤمن التي قد تجعله يتأثر بـ "بريق" الحضارات التي لا تقوم على أساس إيماني، وتحذره من أن هذا البريق هو طلاء خارجي لا قيمة له في ميزان الحق.

**** التأصيل لمفهوم "التوحيد الوظيفي": ****لا تهدف السورة فقط إلى إثبات وجود الله، بل إلى ربط التوحيد بحركة الحياة اليومية، بحيث تصبح كل تصرفات المؤمن) من العمل إلى التفاعل مع المجتمع) نابعة من عبوديته لله لا من إغراءات الدنيا.

**** تثبيت المنهج القيادي: ****تهدف السورة إلى تأهيل الشخصية المؤمنة لتكون "قائدة" في مجتمعها؛ فالقائد هو من يملك "الرؤية الحقة" التي لا تغيبها زخارف الدنيا، وهو من يملك الشجاعة ليقول "لا" لكل ما يخالف منهج الله.

ثالثاً: الغرض السلوكي) التطبيق العملي)

**** تحرير العقل من "التبعية": ****الغرض السلوكي هو تحرير عقل المسلم من اتباع "آبائه" أو "تقاليد مجتمعه" لمجرد أنها شائعة أو معظمة، وتوجيهه نحو "التفكير" في آيات الله وشرعه.

**** الاستعداد للآخرة بـ "العمل": ****تهدف السورة إلى تحويل انشغال الإنسان من جمع "الزخرف" في الدنيا إلى استثمار العمر في بناء ما يبقى في الآخرة، فالسورة تؤكد أن الدنيا "متاع" وسيلة (وليست غاية).

****خلاصة للتدبر****

إن سورة الزخرف تعمل كـ ****مصفاة للفكر****؛ فهي تهدف إلى أن يخرج المؤمن منها وهو يرى العالم من حوله بوضوح، فلا تنخدع عينه بما يلمع من مظاهر، ولا يضطرب قلبه لما يراه من سطوة الماديين، بل يبقى ثابتاً على الحق، مدركاً أن الحقيقة الوحيدة التي تملك البقاء هي "منهج الله".

١٠/ أهم المواضيع التي تتحدث عنها سورة الزخرف

إن تتبع مواضيع سورة الزخرف يكشف عن نسيج متماسك يهدف إلى صياغة الشخصية المسلمة وتثبيتها. هذه المواضيع ليست متفرقة، بل هي حلقات في سلسلة واحدة تهدف إلى "التحصين العقدي والمنهجي".

إليك أبرز مواضيع السورة مرتبة وفقاً لبنائها الموضوعي:

١. موضوع "حجية الوحي" ومصدر التلقي

* تفتتح السورة بتأكيد قيمة القرآن الكريم ككتاب "مبين" (عربي، عال، محكم)، وتنتقد منطق المشركين الذين أرادوا إنزاله على "رجل عظيم" من مكة أو الطائف، موضحين أن اختيار الله لا يخضع لمقاييس الجاهلية.

٢. موضوع "الموقف من المادة" (الزخرف)

* هذا هو المحور الأخطر في السورة، حيث تكشف أن تقييم البشر بالمال والجاه هو "وهم جاهلي".

* تطرح السورة حقيقة أن الحياة الدنيا "متاع" زائل، وضربت مثلاً بالذهب والفضة (الزخرف) لتبين أنها لا ترفع قدر صاحبها عند الله، بل قد تكون سبباً في الطغيان والصد عن الحق.

٣. موضوع "المواجهة مع التقاليد الباطلة"

* تعالج السورة موضوع "التبعية للآباء" (الإرث الثقافي والاجتماعي)، حيث يعتمد المشركون على تقليد ما وجدوا عليه آباءهم دون إعمال للعقل أو اتباع للحجة، وتصف السورة هذا المسلك بالعمى الفكري.

٤. موضوع "القصص النبوي كنموذج للمواجهة"

* تعرض السورة نماذج من صراع الأنبياء مع قومهم لإثبات أن "الحق لا يحتاج إلى كثرة أو قوة مادية".

* ** قصة إبراهيم عليه السلام: ** ومواجهته لمبدأ التبعية بالتوحيد الخالص.
* ** قصة موسى عليه السلام مع فرعون: ** وهي النموذج الأبرز في السورة لمواجهة "السلطة و الزخرف" (ادعاء فرعون أنه يملك أنهار مصر وأنه الأفضل لأنه ليس "مهينا" أي فقيرا). السورة تبين كيف انتهى هذا الزخرف إلى الفرق والزوال.

٥. موضوع "التوحيد الخالص" وتصحيح التصورات

* تصحح السورة تصورات المشركين الذين نسبوا لله الولد أو جعلوا الملائكة إناثا، وتؤكد على تنزيه الله، وتدعو إلى التوحيد الذي يحرر الإنسان من العبودية لغير الله (بما في ذلك عبودية المادة أو الأصنام أو البشر).

٦. موضوع "الآخرة كمرجعية للقرار"

* تختتم السورة ببيان مصير المتقين والمكذبين في الدار الآخرة، لتكون هي "الميزان" الذي يحكم به المؤمن على أحداث الدنيا، فمن أراد النجاح الحقيقي عليه أن يزن حياته بميزان الآخرة لا بميزان الزخرف الدنيوي.

* ** تأمل منهجي: **

تلاحظ أن هذه المواضيع جميعها تصب في غرض واحد: ** "تجريد القلب من التعلق بالدنيا وتعلقه بالله" **. إذا تأملت في هذه المواضيع، ستجد أنها تمثل "نظام تشغيل" للعقل المسلم ليظل ثابتاً في مواجهة أي بيئة مادية يجد نفسه فيها.

١١/ أهم المفاهيم من سورة الزخرف

إن استخراج "المفاهيم" من سورة الزخرف يتطلب نظرة أعمق من مجرد سرد المواضيع؛ فهو يتطلب استخراج "المصطلحات المفتاحية" التي تشكل البنية الفكرية للسورة، والتي يمكنك الاعتماد عليها كأدوات تحليلية في بحثك وممارستك المهنية واليومية.

إليك أهم المفاهيم الجوهرية في سورة الزخرف:

١. مفهوم "الزخرف" (الأداة الخادعة)

ليس الزخرف في السورة مجرد "ذهب" أو "زينة"، بل هو ** مفهوم أوسع يرمز لكل "بريق مادي" يُستخدم لتزيين الباطل وجعله يبدو مقبولا " أو متفوقا. **

* ** تطبيق: ** هو كل ما يغري الإنسان بالانحراف عن الحق (مناصب، أموال، مفاخر اجتماعية) ليجعلها معياراً للقيمة بدلا " من التقوى.

٢. مفهوم "التبعية للآباء" النمطية الموروثة)

تركز السورة على مفهوم "الإنابة عن العقل" عبر التقليد الأعمى للموروثات الاجتماعية أو الفكرية، وهو ما تسميه السورة بـ { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ }.

* ** تطبيق: ** هو تحذير من "العقل الجمعي" الذي يفرض مفاهيمه على الفرد، وضرورة تحكيم الوحي لا العرف في المبادئ الأساسية.

٣. مفهوم "متاع الحياة الدنيا" المقياس الزمني)

السورة ترسخ مفهوماً دقيقاً للدنيا بأنها "متاع" أداة مؤقتة، وليس "مستقراً" غاية دائمة.)
* ** تطبيق: ** إعادة ضبط "أولويات المهنة والعمل"؛ فالعمل في نظرك كطالب علم وقانوني ليس للوصول إلى الغاية المادية، بل لاستخدام الأدوات الدنيوية لخدمة رسالة الحق.

٤. مفهوم "الاستعلاء الإيماني"

وهو المفهوم الذي يربط المؤمن بالخالق برابطة العزة، حتى لو كان في موضع ضعف مادي.
* ** تطبيق: ** رفض الخضوع للمنطق "الفرعوني" الذي يقيس حق الإنسان بملكه أو سطوته. فالمؤمن مستعل بإيمانه، مترفع عن صفائر الدنيا.

٥. مفهوم "الكتاب المبين" مرجعية التلقي)

تؤسس السورة لمفهوم أن القرآن هو "المرجع الأعلى" الذي تعرض عليه الأفكار والقيم.
* ** تطبيق: ** أن يكون الوحي هو "نظام التشغيل" (Operating System) الذي يضبط حركاتك اليومية وقراراتك المهنية، فهو الميزان الذي يخرجك من "التخبط" إلى "الوضوح".

٦. مفهوم "التوحيد الوظيفي"

ليس التوحيد في السورة مجرد كلمة تقال، بل هو "وظيفة" تقوم بها في حياتك؛ أي توحيد "الوجهة".
* ** تطبيق: ** أن تكون وجهتك واحدة) الله (في كل أعمالك، فلا تشتت نفسك بين إرضاء الناس (المجتمع (وبين إرضاء الله) الحق، مما يمنحك تركيزاً عالياً وطاقاً مستمرة.

****ملاحظة للمدبر****

هذه المفاهيم ليست مجرد نظريات، بل هي أدوات عمل **يمكنك استخدامها في "منهجيتك الشخصية" التي تعمل على تطويرها

١٢/مقاصد سورة الزخرف

إن مقاصد سورة الزخرف تدور حول محور مركزي واحد هو: **"تحصين الأمة المؤمنة من الانبهار بـ الزخرف المادي" **، ويمكن تفصيل هذه المقاصد في النقاط التالية:

١. ترسيخ معيار "الحق" مقابل "المادة"

تهدف السورة إلى إعادة صياغة ميزان القيم في نفوس المؤمنين، بحيث لا تقاس الأمور بمنطق "الزخرف" (المال، الجاه، المظاهر)، بل بمنطق "الحق" الذي نزل به الوحي. السورة توضح أن الانبهار بـ المادة هو "فخ جاهلي" يعمي البصيرة عن رؤية الحقائق المطلقة.

٢. مواجهة الفكر الجاهلي المعاصر

تتضمن السورة مقصدًا كشفيًا؛ فهي لا تواجه جاهلية الماضي فحسب، بل تكشف "آليات الفكر الجاهلي" الذي يقوم على تقديس المادة والترفع. السورة تعمل كدرع يقي العقل المسلم من الوقوع في شرك العلمانية المادية التي تجعل من "المتاع" غاية وجود الإنسان.

٣. إثبات التوحيد كمنهج حياة

لا يتوقف مقصد التوحيد في السورة عند حد الإيمان النظري بالخالق، بل يتجاوزه إلى "التوحيد العملي". فالسورة تؤسس لفكرة أن العبودية لله تعني تحرر الإنسان من عبادة "الأصنام المادية" و التقاليد الاجتماعية التي تفرضها النظرة الجاهلية للحياة.

٤. التأصيل لمفهوم "القيادة والاستخلاف"

باعتبار السورة جزءًا من سلسلة "الحواميم" التي تبني الشخصية القيادية، فإن مقصدها هو إعداد المؤمن ليصبح قائدًا في أرضه. والقيادة هنا لا تبنى على الزخرف، بل على "الاستقامة على المنهج"، وتذكير المؤمنين بأن الدنيا ليست دار استقرار، بل هي "متاع" زائل في مقابل "الدار الآخرة".

٥. تعزيز الثقة بالوحي

تقصد السورة دفع حالة الشك أو الاستضعاف التي قد تصيب المؤمنين أمام قوة "الماديين" وسطوتهم، وذلك من خلال عرض مشاهد من التاريخ (قصص الأنبياء مع قومهم)، لتثبت أن الغلبة في النهاية ليست لمن يملك الزخرف، بل لمن يملك الحجة واليقين.

****ملاحظة منهجية لطالب العلم****

يمكنك النظر إلى سورة الزخرف كـ **"ميزان توازن" **؛ فهي تمنع المؤمن من الانحراف نحو "الزهد السلبي" (الذي يترك الدنيا تمامًا)، ومن الانحراف نحو "الترف الجاهلي" (الذي يغرق في الدنيا). هي تضبط علاقة المؤمن بالمادة لتكون "وسيلة" لا "غاية".

بسم الله الرحمن الرحيم
قبل الخوض في تأويل سورة الزخرف سوف نعرض عليكم مذكرة تحليلية شاملة تربط فيها دور
سورة الزخرف وموقعها من جدلية الاستخلاف إلى حصانة الوعي الحضاري وفق منهجية سورة
ص وسور "الحواميم" في إعداد الأمة القائمة
ان هذا التحليل يعد دليل استرشادي لفهم دور القرآن في صناعة الأمة المؤهلة لقيادة العالم
مقدمة المذكرة

إن الناظر في كتاب الله تعالى بعين التدبر والاستنباط يلاحظ أن ترتيب سور القرآن الكريم ليس
عشوائياً، بل هو ترتيب توقيفي محكم يحمل في طياته أبعاداً تربوية وحضارية متكاملة. ومن أبرز
تجليات هذا الإعجاز في الترتيب القرآني ما نجده في التدرج المقصود الذي يصل إلى ذروة التأهيل
القيادي في السور المفتحة بـ) حم (وما سبقها من سورتي) ص (و) الزمر، حيث تشكل هذه السور
مجتمعة منهجاً متكاملًا لإعداد أمة مؤمنة قادرة على حمل أمانة الاستخلاف وقيادة البشرية جمعاء
وفق مراد الله تعالى.

تقوم هذه المذكرة على تحليل العلاقة العضوية بين هذه السور، وتتبع مسارها التربوي التصاعدي،
لتكون دليلاً استرشادياً يوضح كيف يصوغ القرآن الكريم الشخصية القيادية المسؤولة عن توجيه
العالم نحو الصراط المستقيم. وسوف نعتمد في هذا التحليل على منهجية تجمع بين التدبر النصي و
النظر المقاصدي، مع الربط المستمر بين المضامين التربوية وواقع الأمة المعاصر.

تقوم فرضية هذه المذكرة على أن هذه السور تشكل ما يمكن تسميته بـ "الدورة التأهيلية القيادية
المتكاملة"، حيث تبدأ بتأسيس قاعدة الصراع وشرط الاستخلاف في سورة) ص(، ثم تنتقل إلى فرز
الصفوف وتحديد الولاءات في سورة) الزمر(، فتبني الصلابة النفسية والروحانية للقائد في سورة) غافر(
)، ثم توضح الدليل الإجرائي العملي للبناء في سورة) فصلت(، فترسم النظام السياسي والاجتماعي للأمة
القائدة في سورة) الشورى(، وأخيراً تحصن العقل والقلب من السقوط في فخ المادية التي تهدم
الحضارات من الداخل في سورة) الزخرف(.

تمهيد مزدوج: السياق التأسيسي والمنهج التحليلي

لا يمكن فهم منهجية إعداد المؤمنين في سور الحواميم فهماً عميقاً دون العودة إلى المبتدأ التأسيسي
في سورة) ص(. إن هذه السورة الكريمة تضع حجر الأساس لكل ما سيأتي بعدها، وتكشف عن
الجذور العميقة للصراع الذي ستخوضه الأمة المؤمنة في رحلتها نحو قيادة العالم.

القصة المؤسّسة: استخلاف آدم وإعلان الصراع الأزلي

اختتمت سورة) ص (بقصة الصراع الأزلي بين الحق والباطل، متمثلاً في المشهد المهيّب الذي جرى
في الملأ الأعلى حين أعلن عن استخلاف آدم عليه السلام في الأرض. لم يكن هذا الاستخلاف تكليفاً
شرفياً أو تكريماً فارغاً من المضمون، بل هو "عقد التزام" متكامل الأركان، وعهد ثقيل يقتضي اتباع
منهج الله وإقامة الخلافة على التوحيد الخالص. فعندما اعترض إبليس على هذا الاستخلاف تكبراً
وحسداً، تحول المشهد من حوار في الملأ الأعلى إلى إعلان حرب كونية مستمرة بين معسكرين:
معسكر الهدى الممثل في آدم وذريته ممن يتبعون منهج الله، ومعسكر الضلال الممثل في إبليس ومن
يتبعه من الغاوين.

شرط الاستخلاف: اتباع المنهج لا مجرد التكريم

إن الآيات الكريمة في سورة) ص (توضح بجلاء أن الاستخلاف في الأرض ليس وراثته تنتقل بالدم و
النسب، ولا سلطة تكتسب بالقوة والغلبة، بل هو وظيفة ومسؤولية مشروطة باتباع منهج الله. وهذا
هو المبدأ الأول والأساس الذي ستبني عليه السور التالية صرح الإعداد القيادي: أن قيادة الأرض
ووراثتها مرهونة باتباع الهدى لا بالهوى والقوة المادية. فالله تعالى عندما أمر الملائكة بالسجود لآدم،
لم يكن ذلك تكريماً لشخصه فحسب، بل كان اعترافاً بأهلية النوع البشري لحمل الأمانة التي أشفقت
منها السموات والأرض والجبال، شريطة أن يسير هذا النوع البشري على منهج الله ويقيم الخلافة
على أساس التوحيد.

جذور الصراع: المكابرة والهوى

لقد أوضحت سورة) ص (أن طريق الاستخلاف محفوف بالمكابرة) كما جسدها إبليس في رفضه
السجود (وبالهوى) كما جسده في قوله: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ تَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}. (وهذا يعني

أن التحدي الأكبر الذي سيواجه الأمة المؤمنة في مسيرتها القيادية هو تحدي الكبر والهوى، سواء أتى هذا التحدي من الخارج أو من الداخل. وبالتالي، فإن الإعداد التربوي اللازم لمواجهة هذا التحدي هو ما ستقوم به السور التالية، بدءاً من سورة الزمر.

من الاستخلاف الفردي إلى الاستخلاف الجماعي

ما يلحظه المتدبر أن قصة آدم في سورة ص (تنتقل من الحديث عن الفرد إلى الحديث عن النوع، ومن الاستخلاف الشخصي إلى الاستخلاف الجماعي. فهذا التحول يمثل حجر الزاوية في فهم علاقة ص (بالحواميم، حيث إن الحواميم ستتولى مهمة تحويل "الفرد المستخلف" إلى "أمة مستخلفة"، وتحويل "الأمانة الشخصية" إلى "مشروع حضاري قيادي عالمي". وهذا هو جوهر العلاقة بين سورة ص (والسور التي تليها).

المحور الأول: قانون الفرز الكوني وحسم الولاء

سورة الزمر - أساس تقسيم الناس ونتائج الاختيار

التمهيد للسورة وموقعها من المنهج التربوي

إذا كانت سورة ص (قد أرست القاعدة التأسيسية للصراع وأعلنت عن شرط الاستخلاف، فإن سورة الزمر تأتي لتؤكد هذا الشرط مباشرة، وتنقله من حيز التنظير المجرد إلى حيز الواقع العملي، وتضع النقاط على الحروف في طبيعة المجتمع البشري وتقسيماته الحتمية. إن السورة باختصار تجيب عن السؤال الذي قد يغور في ذهن المؤمن بعد تدبر سورة ص: كيف يمكن فهم طبيعة الصراع بين الحق والباطل في الواقع البشري؟ وما هو المعيار الحقيقي الذي يفرز الناس ويقسمهم في هذه المعركة الكونية؟

الحقيقة الأولى: ثنائية الخير والشر سنة كونية

تبين سورة الزمر حقيقة كونية كبرى، وهي أن الله تعالى جعل للشر أهلاً " وأنصاراً كما جعل للخير أهلاً " وأنصاراً، وذلك منذ فجر البشرية وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. إن هذه الحقيقة تمثل نقلة نوعية في وعي المؤمن، إذ تخرجه من دائرة الوهم الذي يظن معه أن الحق سينتصر بسهولة، أو أن الباطل سيزول بسرعة. إن سنة الله في الخلق تقتضي وجود معسكرين متقابلين، يتجاذبان الناس، ويتصارعان على قيادة البشرية وتوجيه مسارها الحضاري. وهذا الصراع ليس طارئاً ولا عارضاً، بل هو أصل في بنية الوجود الإنساني منذ هبوط آدم إلى الأرض، وهو مستمر حتى قيام الساعة.

الحقيقة الثانية: معيار التصنيف هو الموقف من منهج الله

ثم تأتي السورة لتقرر الحقيقة الثانية التي هي أخطر ما في الأمر، وهي أن أساس تقسيم الناس إلى معسكر الخير ومعسكر الشر لا يقوم على العرق أو الطبقة أو الجنس أو اللغة، بل يقوم على موقفهم من منهج الله. إن هذا المعيار القرآني ينسف كل المقولات العنصرية والقومية والطبقية التي حاولت البشرية عبر تاريخها أن تصنف الناس على أساسها. فالمؤمنون هم {الذين يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ}، وأما المعرضون فهم الذين {إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}. (فهكذا يتحدد الولاء وهكذا تتم الفرقة، لا على أساس مصالح دنيوية عابرة، بل على أساس الموقف من التوحيد ومنهج الله في الحياة.

الحقيقة الثالثة: النتيجة الأخروية ثمرة السلوك الدنيوي

وإذا كانت السورة قد قسمت الناس في الدنيا إلى معسكرين، فإنها تختتم هذه الحقيقة ببيان أن النتيجة الأخروية هي الثمرة المباشرة والحتمية للسلوك الدنيوي. فمن تبع سبيل الشيطان وسار في ركاب الغواية فمصيره إلى الهلاك والنار، ومن سلك طريق الأنبياء واهتدى بهديهم فله النجاة والنجاح بالجنة. وهكذا تربط السورة بين الدنيا والآخرة برباط وثيق، وتجعل من السلوك الدنيوي والخيارات الحياتية معياراً موضوعياً للمصير الأخروي، فلا مجال للمحاباة ولا للوساطة ولا للشفاعة بدون إذن الله. وفي هذا التقرير تربوية للنفس المؤمنة على الجدية والمسؤولية، فهي تعلم أن اختيارها للمعسكر الحق ليس مجرد اختيار فكري أو نظري، بل هو اختيار يترتب عليه نتائج أبدية في الدار الآخرة.

الدلالة التربوية: الجدية والمسؤولية في حمل الرسالة

هذه الثنائية التي تقررها سورة الزمر تربى في المؤمن وعياً واضحاً بأنه في معركة مصيرية مستمرة، معركة لا هودة فيها ولا تراجع، معركة طرفاها الحق والباطل، وساحتها الأرض كلها، وثمنها الجنة أو النار. وهذا الوعي هو الذي يولد في نفس المؤمن الجدية والمسؤولية في حمل الرسالة، ويبعث فيه روح المبادرة والإقدام، ويدفعه إلى الثبات على المبدأ مهما كانت التحديات، لأنه يعلم أن المعركة التي يخوضها ليست معركة عابرة، بل هي المعركة الكبرى التي تتحدد على أساسها مصائر الخلق في الدنيا والآخرة.

المحور الثاني: التأهيل الروحي والنفسي للقائد المؤمن

سورة غافر - بناء الصلابة النفسية ومصادر القوة

موقع السورة من المنهج التربوي التصاعدي

بعد أن أرست سورة الزمر قانون الفرز والولاء، وحددت معسكر الحق الذي يجب أن ينتمي إليه المؤمن، تأتي سورة غافر لتنتقل بالرحلة التربوية إلى مرحلة جديدة: مرحلة بناء النفوس المؤهلة لحمل الأمانة، وتربية الذوات القادرة على الصمود في وجه العواصف. لأن مجرد معرفة أن هناك معسكرين، ومعرفة أن المؤمن في معسكر الحق، لا يكفيان لصناعة القائد الذي سيقود الأمة في صراعها المرير مع الباطل. لا بد من بناء نفسي وروحي عميق يزود المؤمن بالطاقات المعنوية والروحية التي تعينه على مواصلة المسير.

البعد الأول: الاتصال بالمبدأ والانتماء للكون المؤمن

تعنى سورة غافر في مطلعها ببيان أهمية الإيمان في تربية النفوس للوصول إلى الاطمئنان الروحي واتصال الأرواح بخالقها. إنها تربط العبد بربه ذلك الربط الذي يجعل القلب مطمئناً بذكر الله، وتصل روح المؤمن بالملأ الأعلى من الملائكة الذين {يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا}. (في هذا الاتصال الروحي العمودي) مع الله (والأفقي) مع الملائكة والمؤمنين عبر الزمان والمكان (يجد المؤمن سنده الحقيقي، ويشعر بأنه جزء من منظومة كونية مؤمنة هائلة، فيزول عنه شعور الغربة أو الضعف أو الوحدة الذي قد ينتابه وهو يواجه جحافل الباطل وحده. إنه ليس وحده في المعركة، بل معه الله وملائكته والمؤمنون جميعاً).

البعد الثاني: ثمن القيادة - التضحية والثبات عند التحولات

لكن السورة لا تكتفي بترسيخ هذا الاتصال الروحي، بل ترشدنا عبر النموذج العملي الحي الذي تجسده قصة "مؤمن آل فرعون" إلى حقيقة أخرى بالغة الأهمية: وهي أن طريق النجاة والنجاح هو طريق المؤمنين، وهو طريق يتطلب التضحية والثبات على المبادئ عند تحول الظروف. إن قصة هذا الرجل المؤمن الذي كتم إيمانه زمناً ثم جهر به في اللحظة الحاسمة عندما أراد فرعون قتل موسى، لهي نموذج فريد في الفداء والشجاعة والتضحية. لقد ضحى بموقعه وربما بحياته من أجل كلمة الحق، وقال كلمته المشهورة: {يَا قَوْمُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا}. (إن هذه القصة تغرس في نفس القائد المؤمن أن التضحية ليست خياراً من خيارات متعددة في طريق الدعوة، بل هي قدر لأبد منه، وثمر للقيادة لأبد أن يدفع.

البعد الثالث: القرآن دليل العمل والتعامل مع تحولات الحياة

ثم ترتقي السورة بالمؤمن إلى مستوى جديد من الوعي، حين تؤسس لفكرة أن الوحي (القرآن الكريم) هو الدليل التشغيلي والعملي للتعامل مع كافة تحولات الحياة. إن القرآن ليس مجرد نصوص للتعبد والتبرك، ولا هو كتاب وعظ وإرشاد فحسب، بل هو روح تستنبط منه كيفية مواجهة تقلبات الدهر ومتغيرات الزمان. إنه تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير. (هذه الصفات الإلهية التي افتتحت بها السورة توحى بأن الذي أنزل هذا الكتاب هو العليم بكل شيء، القادر على كل شيء، المحيط بكل شيء. وبالتالي فإن تعاليمه وتوجيهاته هي المنارة التي لا تخبو، والدليل الذي لا يضل.

البعد الرابع: السكينة النفسية اللازمة لاتخاذ القرارات القيادية

هذه المعرفة المتراكبة (الاتصال بالله، والثبات على المبدأ، والاهتداء بالقرآن (تمنح المؤمن "السكينة

النفسية" اللازمة لاتخاذ القرارات القيادية الصعبة في أوقات الأزمات والتحديات. فعندما يضطرب الناس وتتفرق بهم السبل، يقف القائد المؤمن ثابت الجنان، رابط الجأش، واضح الرؤية، لأنه يستمد سكنته من {الذي نزل السكينة في قلوب المؤمنين}. وهذه السكينة هي التي تعينه على التمييز بين الخيارات، والموازنة بين المصالح، والشجاعة في اتخاذ القرار، والتوكل على الله بعد المشورة والعزم.

المحور الثالث: الوضوح المنهجي ونبذ الغموض

سورة فصلت - شروط الانتفاع بالدليل الرباني المفصل

الانتقال من التأهيل إلى التفعيل

بعد أن اكتمل البناء النفسي والروحي في سورة غافر، تأتي سورة فصلت لنتقل بالأمة من مرحلة التأهيل الداخلي إلى مرحلة التفعيل الخارجي، ومن تلقي المبادئ العامة إلى التعامل مع الدليل التفصيلي. فحتى ينتفع المؤمن بهداية الوحي حق الانتفاع، ويجعله دليل عمل وتعامل في كل مناحي الحياة، لابد له من استعداد نفسي وذهني خاص، وهذا هو الموضوع الرئيس لهذه السورة العظيمة.

الحقيقة الأولى: القرآن مفصل لا غموض فيه

تبدأ السورة بتقرير حقيقة أساسية عن طبيعة القرآن، وهي أنه كتاب {قُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}. {إن تفصيل الآيات يعني وضوحها وبيانها، وشمولها لجوانب الحياة كافة. فالقرآن ليس لغزاً محيراً، ولا طلسم غامضاً، ولا نصوصاً مبهمه تحتاج إلى تأويلات متكلفة، بل هو كتاب واضح بين، مفصل في عقائده وشرائعه وأخلاقه وقصصه ومواعظه. وهذا الوضوح هو الذي يقطع الطريق على "الغموض الجاهلي" الذي كان سائداً في الجزيرة العربية، وعلى التفسيرات المنحرفة التي ظهرت عبر التاريخ والتي قد تعيق حركة النهضة والبناء. إن الأمة التي تريد أن تقود العالم لا يمكن أن يكون كتابها مهجوراً أو غامضاً، بل لابد أن يكون واضحاً شاملاً لكل ما تحتاجه في مسيرتها.

الحقيقة الثانية: جاهزية التلقي شرط الانتفاع

ولكن السورة لا تقف عند حد الثناء على وضوح القرآن، بل تبين حقيقة موازية في غاية الأهمية، وهي أن الانتفاع بهداية الوحي يتطلب استعداداً نفسياً وذهنياً خاصاً، قوامه الإيمان العميق والقبول المطلق بما فيه من تشريعات. وهذا هو المعنى الكامن في الآية: {لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}. {فالقرآن لا يبوح بأسراره وبركاته إلا لمن أقبل عليه بقلب موقن، غير معرض ولا مستكبر. أما المعرضون والمكابرون فإنهم يجدون فيه ما يزيدهم حيرة وضلالاً، كما قال تعالى: {قُلْ هُوَ الَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِقَاقَ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى}.

البعد التربوي: تزكية القلب شرط لتلقي الوحي

هنا يُرَبِّي القائد المؤمن على أن المصدر الوحيد للمعرفة التامة والهداية الكاملة هو الوحي الإلهي. لكن التلقي الفاعل لهذا الوحي يستلزم تزكية القلب والتجرد من العوائق النفسية، ليصبح القرآن هو المنطلق الفكري الذي يحكم كل مناحي الحياة. فلا يكفي أن يكون القرآن بين يدي القائد، بل لابد أن يكون القرآن في قلبه، نابضاً فيه، محركاً لمشاعره، موجهاً لقراراته. وهذا يتطلب تطهير القلب من الهوى، وتزكية النفس من الكبر، والتجرد من العادات الجاهلية والتقاليد البالية التي قد تحول بين المؤمن وبين الانقياد التام للوحي.

الإعراض عن الوحي: جريمة كبرى في حق القيادة

تحذر السورة من عاقبة الإعراض عن هذا الكتاب المفصل، وتصف المعرضين بأبشع الصفات: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ}. {وهذا التحذير ليس موجهاً للكفار فحسب، بل هو موجه للمؤمنين أنفسهم، لئلا يقعوا في فخ الإعراض العملي عن القرآن، فيتعاملوا معه ككثيرات مقدس لا كدليل عمل، أو ككتاب بركة لا كمنهج حياة. إن الأمة التي تريد قيادة العالم لابد أن تكون أمة قرآنية بكل ما في الكلمة من معنى، أمة تعيش بالقرآن وللقرآن، أمة تستنبط من آياته منهجها في السياسة والاقتصاد والاجتماع، لا أمة تكتفي بتلاوته في المناسبات والمآتم.

المحور الرابع: التشريع الكلي ونظام الحكم الراشد

سورة الشورى - تأسيس الدولة القائمة وتنظيم العلاقات

من بناء الفرد إلى إقامة الدولة

إذا كانت سورة فصلت قد أرست قواعد التعامل مع الدليل التفصيلي، فإن سورة الشورى ترتقي بالرحلة التربوية إلى أعلى مراحلها: مرحلة تأسيس "الدولة القائدة" التي ستحكم العالم. هنا ينتقل الخطاب القرآني من الحديث عن الفرد المؤمن وبنائه النفسي، إلى الحديث عن الأمة المؤمنة ونظامها السياسي والاجتماعي. إنها نقلة نوعية هائلة، تشبه الانتقال من مرحلة إعداد الجندي إلى مرحلة بناء الجيش وتنظيم القيادة العامة.

المبدأ الأول: شمولية المنهج الإلهي للحياة كلها

تبدأ السورة بتأكيد أن قيادة العالم تتطلب التمسك بمنهج الله وجعله الحاكم في الحياة كلها، بكل جوانبها وتفاصيلها. وهذا ما يمكن تسميته بمبدأ "شمولية المنهج الإلهي". فالآيات الكريمة لا تترك جانباً من جوانب الحياة إلا وتشمله بهديتها: السياسة، الاقتصاد، الاجتماع، الثقافة، شؤون الفرد والأسرة، العلاقات الداخلية والخارجية، نظام الحكم، وطرق التعامل. إن هذا الشمول هو الذي يؤهل المنهج الإلهي ليكون منهج قيادة عالمية، لأنه يمتلك الإجابة عن كل الأسئلة التي تواجهها البشرية في مسيرتها الحضارية، بينما المذاهب البشرية تظل قاصرة عن الإحاطة بكل جوانب الحياة.

المبدأ الثاني: شرعية القيادة المستمدة من المنهج

ثم تقرر السورة حقيقة سياسية كبرى، وهي أن قيادة المسلمين ليست قيادة أشخاص ولا قيادة أحزاب ولا قيادة طبقات، بل هي "قيادة منهج الله الحق". إن شرعية هذه القيادة لا تستمد من صناديق الاقتراع وحدها، ولا من القوة العسكرية، ولا من التوازنات الدولية، بل تستمد من التزامها بمنهج الله وتحقيقها للعدل المطلق. فليذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم. (فالاستقامة على المنهج هي مصدر الشرعية، وهي الضمانة الوحيدة لبقاء القيادة على طريق الحق. والقيادة القائمة على منهج الله هي قيادة تقوم على العدل المطلق، لا على مصالح الفئات أو الأفراد، وتحترم كرامة الإنسان أي إنسان بصرف النظر عن دينه أو عرقه أو لونه، وتضمن حريته التي وهبها الله إياه).

المبدأ الثالث: الشورى أساس الحكم ونظام الإدارة

ثم تأتي الآية الجامعة التي اختزلت السورة كلها، والتي صارت اسماً لها: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}. (إن هذه الآية تؤصل لمبدأ الشورى كمبدأ أساسي في نظام الحكم الإسلامي. فالحكم لا يقوم على الأهواء الشخصية ولا على النزعات الديكتاتورية ولا على التوريث السياسي، بل يقوم على التشاور وتبادل الرأي واحترام إرادة الأمة. إن الشورى ليست مجرد آلية لاتخاذ القرارات، بل هي روح النظام السياسي الإسلامي كله، وهي التي تضمن مشاركة الأمة في إدارة شؤونها، وتمنع الاستبداد والتسلط. وهذا المبدأ هو الذي يميز النظام السياسي الإسلامي عن الأنظمة الاستبدادية التي سادت عبر التاريخ، كما يميزه عن الديمقراطيات المعاصرة التي تجعل من الأهواء البشرية مصدراً للتشريع).

المبدأ الرابع: القرآن روح الأمة ودستورها

ثم تختتم السورة هذا البناء السياسي المتكامل بتأكيد أن القرآن هو روح الأمة ودستورها، وهو المحرك الفعلي لها، والطريق الذي تصير إليه الأمور في النهاية. وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا تهدي به من تشاء من عبادنا. (وصف القرآن بأنه "روح" يوحي بأن الأمة بدون قرآن تصبح جثة هامدة بلا حياة، وأن القرآن هو الذي ينفخ فيها روح الوجود والحضارة. والقرآن في السياق السياسي هو الدستور الأعلى الذي لا يعلو عليه دستور، وهو المرجعية المطلقة التي تحتكم إليها السلطات جميعاً).

الدلالة التربوية: تصنيع الأمة القائدة بالعدل والمشاركة

نتعلم من سورة الشورى أن القيادة العالمية لا تقوم على الجبروت ولا على القوة المادية الغاشمة، بل تقوم على العدل والمشاركة والالتزام الجماعي بوحى الله. وهذا هو النموذج الذي يصنع نظاماً محصناً ضد الاستبداد والانحراف، نظاماً تشارك فيه الأمة كلها في تحمل المسؤولية، وتشعر فيه بأنها صاحبة القرار وليست مجرد قطيع يساق. وهذا النظام هو الوحيد القادر على استقطاب شعوب الأرض، لأنه يقدم نموذجاً للحكم العادل الذي تبحث عنه البشرية عبر تاريخها.

المحور الخامس: حصانة الوعي الحضاري ضد فتنة المادية

سورة الزخرف - حماية المشروع القيادي من الانهيار الداخلي

أهمية هذه المرحلة في المنهج التربوي

بعد أن تسلم القائد المؤمن مبادئ النظام العادل المتكامل في سورة الشورى، كان لا بد من تحصينه ضد أعظم المخاطر التي قد تزيغ بها الأمم القائدة عبر التاريخ، وهو خطر الانهيار الحضاري الداخلي نتيجة الانهيار ببريق الحضارة المادية البحتة. وهنا تأتي سورة الزخرف لتكون خاتمة هذه المنظومة التربوية، ودرعها الواقعي، وسياجها الحامي. فالتاريخ يشهد أن أمماً كثيرة نهضت وقادت العالم، ثم ما لبثت أن انهارت وسقطت، لا بسبب هزيمة عسكرية من الخارج، ولكن بسبب الانحلال الداخلي والانهيار القيمي الناتج عن الترف والانغماس في المادية.

مفهوم الزخرف وأبعاده المعاصرة

الزخرف في اللغة هو الذهب، وما يتخذ للزينة من متاع البيت. وفي السياق القرآني، الزخرف هو كل طلاء لامع) تكنولوجيا، مادي، مذهبي (يوضع على فكرة خاوية أو حياة فارغة ليخدع الناس ويوهمهم بأنها هي السعادة المطلقة. إن مفهوم الزخرف أوسع بكثير من مجرد الذهب والفضة وزينة الحياة الدنيا بالمعنى التقليدي. إنه يشمل في عصرنا الحاضر: التقنية المتطورة التي تلهي الإنسان عن جوهر الحياة، والنظم السياسية الديمقراطية اللامعة التي تخفي تحتها استغلالاً وفساداً، والمنتجات الفنية والإعلامية المبهرة التي تفرغ الإنسان من محتواه الروحي والأخلاقي، وأنماط الحياة الاستهلاكية التي تجعل من الإنسان عبداً للمادة.

خطورة الانحراف: هدم القيم وتفريغ الحياة من روحها

لقد حذرت السورة من أن الانهيار بالزخرف يؤدي إلى هدم القيم وتحويل الإنسان إلى كائن مادي ينسى "الروح" و"اللب". وهذا التحذير يأتي في سياق الحديث عن قارون وفرعون وغيرهما من المترفين الذين ملكوا زخرف الدنيا، فاعتبروا به، وطغوا على الناس بسببه، وكانت عاقبتهم الهلاك. إن آيات الكريمة تلفت النظر إلى حقيقة أن التقدم المادي الهائل قد يصبح نقمة على صاحبه إذا لم يقترن بتقدم روحي وأخلاقي مواز. فالأمة التي تنهز بزخرف المدنية المعاصرة، وتلهث وراء استهلاك منتجاتها دون وعي، معرضة لأن تفقد شخصيتها وهويتها ورسالتها، وأن تتحول إلى مجرد سوق استهلاكية لمنتجات الحضارة الغربية المادية.

الوعي الحضاري: التمييز بين الجمال والزيف

لكن السورة وهي تحذر من الزخرف، لا تتبنى موقفاً معادياً للجمال أو للتحضر والعمران. إن الإسلام لا يعادي الجمال ولا الرفاهية في حد ذاتها، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق. إنما الذي يحذر منه الإسلام وتركز عليه سورة الزخرف هو أن يسجن الإنسان في "قشرة الحياة الدنيا"، فيصبح الزخرف هو الغاية في حد ذاته، وتصبح الحياة سباقاً محموماً نحو الاستهلاك والترف، وتفقد الأمة بوصلتها الحضارية التي توجهها نحو الآخرة. الصراط المستقيم في الزخرف يعلمنا أن الرفاهية وسيلة وليست غاية، وأن الجمال قيمة مضافة إلى الحياة وليس هدفاً أقصى لها.

تصحيح التصورات: التوحيد ليس مجرد اعتراف بالخالق

ومن أبرز ما يمتاز به سورة الزخرف في هذا السياق أنها تواجه ركام الفكر الجاهلي الذي أعيد إنتاجه اليوم في صورة العلمانية المعاصرة، ذلك الفكر الذي يظن أن التوحيد هو مجرد اعتراف بوجود الخالق، بينما الواقع أن التوحيد القرآني يتطلب استقامة المنهج في الشعائر والتشريع وحركات الحياة اليومية. ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله. فمجرد الاعتراف بوجود الله لا يكفي لإيمان، ولا ينجي صاحبه من عذاب الله، ما لم يقترن هذا الاعتراف باتباع المنهج الإلهي في الحياة كلها. وهذا هو الفرق الجوهرى بين التوحيد الإيماني الذي يحمله المؤمن، والتوحيد الشكلي الذي يعترف به المشركون.

الربط بين الافتتاحية والختام: الكتاب المبين والصراط المستقيم

إن الربط بين افتتاحية سورة الزخرف: حم والكتاب المبين وختام سورة الشورى الذي تكرر فيه ذكر الصراط المستقيم {وسورة الزخرف ذاتها التي تؤكد أن} وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم {هو

التأكيد النهائي على أن القرآن هو "خريطة الطريق" الوحيدة التي تخرج الناس من ظلمات الجهل و التبعية المادية إلى نور الإيمان والهداية القيادية الرشيدة. فالقرآن هو الكتاب المبين الذي لا غموض فيه ولا التباس، وهو في الوقت نفسه الصراط المستقيم الذي يوصل سالكه إلى الله. ومن تمسك به نجا من فتنة الزخرف، ومن أعرض عنه وقع في شرك المادية وأوهامها.

خلاصة المنهج المتكامل: دورة تأهيلية قيادية متدرجة

بعد هذا الاستعراض المفصل لمسيرة السور الكريمات، يمكننا أن نلخص المنهج المتكامل الذي شكلته هذه السور في النقاط التالية:

المرحلة الأولى: سورة ص

تأسيس قاعدة الصراع وتحديد شرط الاستخلاف

- . إعلان الصراع الأزلي بين الحق والباطل منذ فجر الخليقة
- . تحديد شرط الاستخلاف: اتباع منهج الله وإقامة الخلافة على التوحيد
- . الكشف عن جذور الانحراف: الكبر والهوى
- . الانتقال من الاستخلاف الفردي إلى الاستخلاف الجماعي

المرحلة الثانية: سورة الزمر

قانون الفرز وحسم الولاء

- . تقرير سنة التدافع بين معسكري الخير والشر
- . تحديد معيار التصنيف: الموقف من منهج الله
- . ربط النتائج الأخروية بالسلوك الدنيوي
- . غرس الجدية والمسؤولية في نفس المؤمن

المرحلة الثالثة: سورة غافر

التأهيل الروحي والنفسي للقائد

- . بناء الاتصال الروحي العمودي مع الله (والأفقي) مع الملائكة والمؤمنين)
- . تقديم نموذج التضحية والفداء مؤمن آل فرعون)
- . ترسيخ مفهوم القرآن كدليل عمل وتعامل مع الحياة
- . منح السكينة النفسية اللازمة للقرارات القيادية

المرحلة الرابعة: سورة فصلت

الوضوح المنهجي وشروط الانتفاع بالوحي

- . بيان شمولية القرآن وتفصيله لكل جوانب الحياة
- . تحديد شروط التلقي الفاعل: الاستعداد النفسي والقبول القلبي
- . التأكيد على ضرورة تزكية القلب لتلقي الهداية
- . التحذير من الإعراض العملي عن القرآن

المرحلة الخامسة: سورة الشورى

التشريع الكلي ونظام الحكم الراشد

- . تقرير مبدأ شمولية المنهج الإلهي للحياة كلها
- . تأسيس شرعية القيادة على الالتزام بالمنهج
- . ترسيخ مبدأ الشورى كأساس للحكم والإدارة
- . جعل القرآن روح الأمة ودستورها الأعلى

المرحلة السادسة: سورة الزخرف

الحصانة ضد فتنة المادية والزيف الحضاري

- تعريف مفهوم الزخرف بأبعاده المعاصرة
- كشف خطورة الانبهار بالمادة على القيم والهوية
- تأصيل الوعي الحضاري الواعي
- تصحيح مفهوم التوحيد من مجرد الاعتراف إلى الاستقامة على المنهج

خاتمة: من الفرد إلى الأمة ومن الأمة إلى العالم

وهكذا تتراصف هذه السور المباركات، بدءاً من سورة ص وانتهاءً بسورة الزخرف، لتشكل "دورة تأهيلية قيادية" متكاملة ومتدرجة، تبدأ بتأصيل العقيدة وتحديد شرط الاستخلاف، ثم تفرز الصفوف بناءً على الولاء للمنهج، ثم تبني الروح وتربطها بمصادر القوة الإلهية، ثم توضح الدليل الإجرائي و العملي للبناء، ثم تضع القواعد الكلية لإدارة المجتمع والعالم، وأخيراً تحصن العقل والقلب من السقوط في فخ المادية التي تهدم الحضارات من الداخل.

إن هذه المنهجية القرآنية الفريدة لتخرج في النهاية جيلاً مؤمناً مؤهلاً لحمل أمانة قيادة العالم وفق مراد الله تعالى. جيلاً يعرف طبيعة المعركة التي يخوضها، ويدرك أبعاد الصراع الذي هو طرفه الأساس، ويمتلك الصلابة النفسية والروحية التي تعينه على مواصلة الطريق، ويحمل في يده الدليل التفصيلي الذي لا يضل، ويقيم نظاماً سياسياً واجتماعياً عادلاً قائماً على الشورى والمشاركة، وهو مع ذلك كله محصن ضد فتنة المال والزخرف والترف التي أسقطت أمماً وحضارات من قبل.

إن الأمة التي تتربى على هذا المنهج، وتستوعب دروس هذه السور، وتطبق مبادئها في واقعها، فهي أمة الوحيدة القادرة على قيادة البشرية نحو الصراط المستقيم، وإخراجها من ظلمات المادية و الجاهلية المعاصرة إلى نور الإيمان والهداية الربانية. وهذا هو وعد الله الذي لا يتخلف: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا}.

المقطع الاول

--- القسم الاول
المبحث الأول

تفسير الآيتين (1-2) من سورة الزخرف

(حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ)

رحلة في أعماق افتتاحية النور والوضوح

تقدمة لا بد منها: موقع الآيتين من المنظومة القرآنية

قبل أن ندخل إلى رحاب هاتين الآيتين الكريمتين، وقبل أن نغوص في أعماقهما ودررهما، دعني أصحبك في جولة سريعة نرسم فيها الخريطة الكبرى التي تنتمي إليها هاتان الآيتان، لنفهم موقعهما من البناء القرآني المحكم.

لقد كنا في رحلة طويلة بدناها من سورة (ص) حيث أرست قاعدة الصراع وشرط الاستخلاف، ثم انتقلنا إلى سورة (الزمر) حيث فرزت الصفوف وحسمت الولاء، ثم إلى سورة (غافر) حيث بنيت النفوس وزودت بالطاقة الروحية، ثم إلى سورة (فصلت) حيث وُضِّحَ الدليل وقُصِّلَت الآيات، ثم بلغنا الذروة في سورة (الشورى) حيث أسس نظام الحكم وبُنيَت الدولة القائمة على مبدأ الشورى والعدل.

والآن... وقد اكتمل البناء، وأصبحت الأمة القائمة تملك النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي، يأتي الدور على أخطر مرحلة في المشروع كله: مرحلة الحماية والتحصين. فالأمة التي تفقد العالم معرضة لأعظم فتنة تسقط الأمم والحضارات، ألا وهي فتنة المادة والزخرف. وهنا تأتي سورة الزخرف لتكون درع الأمة الواقي وسياجها الحامي.

وفي هذا السياق المهيّب، تنطلق الآيتان الأوليان من السورة كإعلان هائل، كصيحة تنبيه، كجرس إنذار، كمصباح يشتعل في وجه العواصف: {حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ}.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيتين ومقاصدهما وأهدافهما

دعني أقف معك وقفة صريحة، واعلم أنني لا أريدك أن تقرأ كلماتي بعينيك فقط، بل أريد أن تشعر بها بقلبك، أن تجعل عقلك يتفاعل معها، أن تعمل وجدانك في استقبالها. فلن تسأل نفسك ما معنى هذه الآيات؟ بل ستسأل: ماذا تريد هذه الآيات مني؟ ماذا تفعل في؟ كيف تغيرني؟

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيتان:

1. إعلان عظمة المصدر: أن الذي سيلقي عليك الحديث هو الله العظيم، وأن الكلام الذي ستتلوه هو كلامه تعالى، لا كلام بشر ولا فلسفة فيلسوف ولا نظرية مفكر. إنه {حم} التي توقظ القلب، و{الكتاب} المبين الذي يربط العقل.
2. تأسيس قاعدة الوضوح: أن هذا الكتاب ليس غامضاً ولا مبهماً ولا يحتاج إلى وسائل خفية لفهمه، بل هو "مبين" أي واضح في ذاته، موضح لغيره، يزيل كل غبش وكل ضبابية وكل منطقة رمادية في العقيدة والتصور والسلوك.
3. نقض التصورات الجاهلية: أن الزخرف المادي الذي سيتحدث عنه السورة لا يمكن مواجهته إلا بـ الكتاب المبين، فالمادية تقوم على التموه والخداع والزيف، أما القرآن فيقوم على الوضوح والبيان والصدق.
4. إعلان التحدي والتعظيم معاً: فالحروف المقطعة تتحدى العرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن، والقسم بـ الكتاب يعظم شأنه ويرفع قدره، والوصف بأنه "مبين" يجعله في مواجهة مباشرة مع "زخرف القول" الذي يموه الحقائق.

مقاصد الآيتين وأهدافهما:

1. تحريك القلب وإيقاظه: قبل أن يدخل القارئ في تفاصيل السورة، توقظه {حم} {من سباته، وتهزه من غفلته، وتخرجه من دوامة الحياة اليومية إلى فضاء الوحي الربح.
2. تثبيت اليقين: أن هذا الكتاب هو الحق المبين، فلا مجال للشك فيه ولا للتردد في اتباعه، فهو المرجعية النهائية التي لا مرجعية بعدها.
3. بناء المنهجية الفكرية: تدريب العقل المسلم على التعامل مع القرآن كـ "كتاب مبين" أي كدليل واضح للتفكير والعمل، لا كمجرد نصوص للتبرك والتلاوة المجردة.
4. التهيئة لموضوع السورة: لما كان موضوع السورة هو مواجهة الزخرف والمادية، كان لا بد من مدخل يرسخ أن المصدر الوحيد للمعيارية والتقييم هو القرآن المبين، لا مقاييس المادة والزخرف.

والآن... دعنا نشرع في رحلتنا التفصيلية، متنقلين بين المحاور التي ستجعل هذه الآيات تنبض حياة في قلبك وفكرك وسلوكك.

المحور الأول

دلالة الافتتاح بالحروف المقطعة والقسم بالكتاب المبين

(حم . و{الكتاب} المبين)

رسائل نفسية وتربوية وفكرية من بوابة الدخول إلى السورة

أولاً : ماذا يعني هذا الافتتاح؟

قف معي لحظة. تأمل هذا المشهد: أنت تجلس في مكان ما، والناس من حولك في حديثهم الخاص، وفجأة يعلو صوت مختلف، صوت جهوري له رنين خاص، يقول: حم. ماذا يحدث لك؟ لا شك أن كل انتباهك سيتجه إلى هذا الصوت. عقلك سيتوقف عن التفكير فيما كان يشغله، وقلبك سيخفق متسائلاً : ما هذا؟ ماذا بعد هذه الحروف؟

هذا بالضبط ما تفعله هذه الحروف المقطعة في مستهل السورة. إنها صرخة إيقاظ، هزة عنيفة للغافل، جرس تنبيه للمستغرق في هموم الدنيا. إنها تقول لك: انتبه! توقف! استمع! الذي سيأتي بعد هذه الحروف ليس كلاماً عادياً، بل هو كلام رب العالمين.

ولكن لماذا نجد تكرار الافتتاح بالحروف المقطعة هنا في (حم) بالذات، وقد سبق أن بدأت بها سور أخرى كالبقرة وآل عمران والأعراف ويونس وهود والرعد وغيرها؟ السر هنا - والله أعلم - أن هذه

السورة هي الأولى في سلسلة الحواميم السبع التي تشكل وحدة موضوعية متكاملة كما بينا في المذكرات السابقة، فكان لا بد من افتتاحية خاصة تميز هذه المجموعة وتعلن عن بدء فصل جديد في الخطاب القرآني. إنها كما لو كانت عنواناً لكتاب جديد ضمن الموسوعة القرآنية الكبرى.

ثانياً: الرسائل والتوجيهات من هذا الافتتاح

دعني آخذك الآن في رحلة أعمق، إلى داخل نفسك، إلى أعماق قلبك وعقلك، لنستنبط معاً الرسائل التي تريد هذه الحروف أن توصلها إليك:

الرسالة الأولى: إثارة الانتباه والتشويق

تخيل معي أنك تريد أن تلقي خطاباً مهماً على جمع من الناس، لكنهم مشغولون عنك، منهم من يتحدث مع جاره، ومنهم من ينظر في هاتفه، ومنهم من يسرح في أحلام اليقظة. كيف تجذب انتباههم؟ ألن تبدأ كلامك بشيء مفاجئ يلفت الأنظار ويصمت الألسنة؟

هذا ما فعلته {حم} تماماً! إنها تقول لكل سامع وقارئ: "أيها الإنسان! هذا الكلام ليس شعراً ولا كهانة ولا فلسفة، إنه أمر جلال، فاجمع شتات قلبك، واصرف كل مشاغلك، وألقِ إليّ سمعك، فما سيُلقي عليك فيه نجاتك أو هلاكك، فيه سعادتك أو شقاؤك، فيه هدايتك أو ضلالك".

وهنا درس بالغ الأهمية لكل داعية ومعلم ومربي: عليك أن تبدأ حديثك بما يثير انتباه سامعك ويشوقهم لما ستقول. فلا تلقي الكلام إلقاءً باهتاً جافاً لا روح فيه، بل اجعل لهداياتك وقفاً خاصاً في النفوس، افتتح كلامك بآية مؤثرة، أو قصة مشوقة، أو سؤال محير، أو حقيقة صادمة، أو موقف مفاجئ. إن القرآن يعلمنا فن الإلقاء والتأثير، ويعلمنا أن أول الطريق إلى القلوب هو جذب انتباهها.

الرسالة الثانية: إدخال الهيبة والتعظيم للقرآن في القلب قبل العقل

تأمل معي حرف (ح) الذي يخرج من أقصى الحلق، وحرف (م) الذي يخرج من الشفتين. هذا التدرج الصوتي يجعل سامعه يشعر بشيء من الرهبة، وكأن الصوت يخرج من أعماق الكون ليدخل إلى أعماق النفس. إنها ليست مجرد حروف، بل هي إشارات إلى أن الكلام القادم ليس كلام بشر، بل هو تنزيل من حكيم حميد.

ويا له من درس بليغ! قبل أن تبدأ بقراءة القرآن، وقبل أن تغوص في معانيه، عليك أن تستشعر هيئته في قلبك. اجعل قلبك يخضع، واجعل نفسك تخضع، واعلم أنك مقبل على كلام ربك، ملك الملوك، جبار السموات والأرض. لا تقرأ القرآن كما تقرأ الجريدة أو كتاباً عادياً، بل اقبل عليه كما يقبل العبد الذليل على سيده العظيم، وكما يقف المذنب بين يدي غفور رحيم.

الرسالة الثالثة: التسليم المطلق بأن هذا الكلام من عند الله يقيناً

عندما تسمع هذه الحروف، ماذا يجب عليك؟ يجب عليك أن تقول بلسان حالك ومقالك: "آمنت بأن هذا من عند الله". إنها حروف لا يفهم البشر معناها المحدد، ومع ذلك فقد جعلها الله فاتحة لكتابه. وهذا يعلمنا أن في القرآن أموراً تعلو على إدراك العقل البشري المحدود، فلا ينبغي أن نقف منها موقف المتشكك أو المتردد، بل نسلم تسليماً مطلقاً لله عز وجل، ونؤمن بأن لهذا الكتاب من الأسرار والحكم ما لا يحيط به إلا علام الغيوب.

وهنا تأتي قضية إيمانية عميقة: الثقة المطلقة في مصدريّة القرآن. في زمن يريدون فيه أن يشككوك في كل شيء، في عقيدتك، في كتابك، في نبيك، تأتي هذه الحروف لترسخ في قلبك اليقين بأن هذا الكتاب منزل من عند الله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

الرسالة الرابعة: استشعار شرف الكتاب في حياتك اليومية

إن {حم} ليست مجرد أصوات، بل هي أوسمة شرف على صدر هذه السورة. فهل شعرت يوماً أنك عندما تحمل المصحف بيدك، إنما تحمل كتاباً شرفه الله بهذه الحروف النورانية؟ وهل تتعامل مع القرآن في حياتك اليومية على أنه كتاب عزيز كريم، أم أنه أصبح مجرد شيء مهمل على الرف يعلوه الغبار؟

إن استشعار شرف هذا الكتاب يغير علاقتك به تماماً. فتقرؤه بخشوع، وتتدبره بتأن، وتطبقه بحب

وشوق، وتغضب لانتهاك حرمانه، وتفرح عندما ترى الناس يقبلون عليه. ألا ترى كيف أننا نحفظ بالأشياء الثمينة في أماكن آمنة، ونصونها من الغبار والعبث؟ فكيف بكتاب الله الذي وصفه بأنه {كتاب عزيز} و{كتاب كريم} و{كتاب مبين}؟

المحور الثاني

دلالة الجمع بين الحروف المقطعة والقسم بالكتاب المبين

عندما يمتزج التحدي بالتعظيم في مشهد بلاغي فريد

أولاً: ما دلالة هذا الأسلوب البلاغي الفريد؟

الآن دعنا نتعمق أكثر. لقد بدأت الآية بحروف مقطعة {حم}، ثم أتبعها الله تعالى بالقسم فقال: {والكتاب المبين}. فما سر هذا الجمع بين أسلوبين مختلفين؟ ولماذا لم يكتب بأحدهما؟ ولماذا بدأ به التحدي ثم أتبعه بالقسم (التعظيم)؟

تأمل معي هذا التصوير: الحروف المقطعة تمثل التحدي. إنها تقول للعرب الذين بلغوا الذروة في الفصاحة والبلاغة: "هذا القرآن مكون من نفس الحروف التي تتكلمون بها: الحاء والميم، والألف واللام، والباء والتاء... فلماذا عجزتم عن الإتيان بمثله؟ لماذا لم تستطيعوا أن تؤلفوا سورة واحدة من مثله؟" إنه تحدٍ صارخ يهدم كل تكبر وادعاء، ويجعل المشرك يقف عاجزاً منكس الرأس.

أما القسم بالكتاب المبين فيمثل التعظيم. إنه يقول: "أقسم بكتابي العظيم، كتابي الذي أوضحت فيه الحق، وبيّنت فيه الهدى، وفصلت فيه الشرائع، هذا الكتاب الذي أنزله بعلمي على نبيي... أقسم بهذا الكتاب على أن ما فيه حق وصدق".

فانظر إلى هذا المزج البديع: التحدي يسكت المعاندين، والتعظيم يثبت الموقنين. التحدي يخرس الألسنة المتطاوله، والتعظيم يفتح القلوب المتطلعة. هذا هو الأسلوب القرآني الذي لا تجده في أي كتاب آخر، وهو الذي يجعل الآية مؤثرة في النفوس أيما تأثير.

ثانياً: دلالة ذلك على التمهيد لمقاصد السورة

ولكن... لماذا اختير هذا الأسلوب بالذات في افتتاحية سورة الزخرف؟ لماذا لا نراه بهذه الكيفية في سور أخرى؟ الجواب يكمن في موضوع السورة الرئيس.

إن سورة الزخرف ستهدم التصورات الجاهلية التي تقوم على تعظيم المادة والزخرف، وستواجهه الأتباع بالحضارة المادية البحتة التي تبهر العيون وتخضع العقول. وهذه المادية تقوم أساساً على الخداع والتمويه والزيف، فهي زخرف خارجي يخفي فراغاً داخلياً، وطلاء لامع يغطي فساداً مستشرياً.

فكيف تواجه هذا الزيف؟ إنك تواجهه بـ الكتاب المبين. فالزخرف يوهمك أنه الحقيقة، والكتاب المبين يكشف لك زيفه. والزخرف يخدعك ببريقه، والكتاب المبين ينير لك الطريق لترى ما وراء البريق. والزخرف يجعلك تخطئ في التقييم فتجعل التافه ثميناً والثمين تافهاً، فيأتي الكتاب المبين ليعطيك المقياس الصحيح الذي تزن به الأمور.

وهكذا فالتمهيد للسورة بهذا الافتتاح المهيّب (التحدي والتعظيم معاً) هو بمثابة إعلان أن المعركة القادمة – معركة مواجهة الزخرف – لا يخوضها إلا من تسلح بالكتاب المبين، ولا ينتصر فيها إلا من جعل القرآن مقياسه ومرجعيته.

ثالثاً: دروس ورسائل من هذا الجمع البديع

الدرس الأول: الحث على التمسك بالقرآن في زمن الفتن

يا من تعيش في زمن كثرت فيه الفتن، وتنوعت فيه سبل الغواية، وتزخرت فيه الدنيا بزینتها... أين ملاذك؟ أين حصنك الحصين؟ إنه الكتاب المبين. هذا الافتتاح البديع يصرخ في أذنك: "تمسك بالقرآن! تمسك به تمسك الغريق بطوق النجاة! فإن الموج من حولك عال، والظلمات متراكمة، والسبل مشتبهة، ولا منقذ لك إلا هذا الكتاب العظيم".

هل تشعر بهذا المعنى في قلبك؟ هل تحس أن القرآن هو ملاذك الآمن، ومرجعك الأعلى، وقاضيك الفصل، ودليلك الأمين؟ أم أنه أصبح مجرد كتاب تتلوه في المناسبات دون أن يكون له أثر في واقعك؟

الدرس الثاني: ضرورة تعظيم شأن القرآن في نفوسنا

إن الجمع بين التحدي والتعظيم في هذه الآية يعلمنا أن القرآن جدير بأن يُعظم. فهو ليس كتاباً عادياً، بل هو معجزة خالدة، وهو كلام الله رب العالمين. فهل عظمنا القرآن كما ينبغي؟ هل ربنا أبناءنا على تعظيم هذا الكتاب؟ هل يشب شبابنا وهم يرون في القرآن مرجعيتهم الأولى وقيمتهم العليا؟ أم أن القرآن عند الكثير منا أصبح مجرد تراث جميل نحتفظ به وننتبرك بتلاوته، دون أن نجعله حاكماً على حياتنا وتصرفاتنا؟

إن تعظيم القرآن يعني:

- . أن نقدمه على كل كتاب ومنهج وفكر.
- . أن نجعله مصدر معاييرنا في الحكم على الأشياء.
- . أن نحركه في واقعنا السياسي والاقتصادي والاجتماعي.
- . أن ندافع عنه إذا طعن فيه طاعن أو استهزأ به مستهزئ.
- . أن نغضب لغضبه ونرضى لرضاه.

المحور الثالث

دلالة وصف الكتاب بأنه "مبين"

قاعدة انطلاق فكرية ومنهجية لبناء الإنسان والمجتمع المسلم

أولاً: "المبين" ليس مجرد وصف... إنه إعلان عن منهج متكامل

وصلنا الآن إلى جوهرة الآية الكريمة. إن كلمة "المبين" هنا ليست مجرد صفة عابرة، ولا مجرد نعت جميل، بل هي قاعدة انطلاق فكرية ومنهجية لبناء الإنسان والمجتمع المسلم. اسمح لي أن أشرح لك هذا المفهوم الخطير الذي قد يغير نظرتك للقرآن بالكلية.

عندما يقسم الله تعالى بكتابه ويصفه بأنه "مبين"، فإنه لا يكتفي بتأكيد أن القرآن حق، ولا يكتفي بتأكيد أنه هدى، بل يضيف إلى ذلك كله أنه واضح ومظهر ومبين. إن "المبين" يعني:

- . أنه واضح في ذاته، لا غموض فيه ولا التباس.
- . أنه موضح لغيره، أي أنه يظهر الحق من الباطل، والحلال من الحرام، والهدى من الضلال، والخير من الشر.
- . أنه حجة على الناس، تقوم عليهم الحجة ببيانه، فلا عذر لأحد في الضلال بعد أن وضع السبيل.

وهذه الفكرة - فكرة أن القرآن مبين - هي التي ستواجه بها سورة الزخرف كل زيف الجاهلية وزخرفها. فبينما يعيش المشركون في ظلمات التصورات الفاسدة (عبادة الملائكة، عبادة الأصنام، التكبر بالمال والجاه)، يأتي القرآن ليبين لهم الحق، ويكشف لهم زيف ما هم فيه، ويوضح لهم أن ما عندهم من زخرف الحياة الدنيا إنما هو {مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}.

ثانياً: التناسب مع ختام سورة الشورى

هل لاحظت معي هذه اللطيفة؟ لقد انتهت سورة الشورى - التي هي آخر سورة قبل الزخرف - بـ الحديث عن القرآن الكريم مرات متعددة، فوصفته بأنه {رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا} وأنه {ثَوْرًا يُهْدِي بِهِ مَنْ تَشَاءُ} وكررت ذكر {الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ} مرات عديدة في أواخرها.

ثم تبدأ سورة الزخرف فتقول: {حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ}. وكأنها تكمل ما بدأت به الشورى، فبعد أن عرفت أن القرآن هو روح الأمة ونورها وصراطها المستقيم، يأتي الخطاب ليقول لك: "هذا الكتاب ليس غامضاً، بل هو مبين واضح، يقودك إلى الحق بوضوح، ويخرجك من المناطق الرمادية في العقيدة والسلوك".

الله عز وجل يريد منا أن نخرج من المناطق الرمادية. يريد منا الوضوح. يريد أن تكون عقيدتنا

واضحة لا شائبة فيها، وأن تكون معاملتنا واضحة لا غش فيها، وأن تكون أهدافنا واضحة لا تخطيط فيها. إنه يريد أمة تعيش بالكتاب المبين، فتكون حياتها كلها مبينة واضحة، لا ازدواجية فيها ولا غموض.

ثالثاً: لمسات بيانية وبلاغية في الآية

الآن دعنا نتوقف عند بعض اللمسات البلاغية والبيانية العجيبة في هذه الآية، والتي قد لا تنتبه لها عند القراءة العابرة:

اللمسة الأولى: التناسب الصوتي بين {حم} و{المبين}

تأمل معي حرف الحاء، إنه حرف مهموس رخو، يشعرك بشيء من الخفاء والغموض. ثم حرف الميم، وهو حرف جهوري يخرج من الشفتين، يشعرك بالظهور والوضوح. ألا ترى أن هذا التدرج من الغموض النسبي (في الحاء) إلى الوضوح (في الميم) يناسب تماماً الانتقال من الحروف المقطعة التي لا يعلم معناها إلا الله، إلى {الكتاب المبين} الذي هو في غاية الوضوح والبيان؟!

ثم تأمل كيف أن الميم تتكرر في "حم" و"الكتاب" و"المبين"، فتعطي جرساً موسيقياً واحداً يربط أجزاء الآية، ويجعل لها إيقاعاً واحداً يأسر القلب ويجذب السمع. إنه التناسق البديع الذي لا يصدر إلا عن حكيم خبير.

اللمسة الثانية: تعريف "الكتاب" بالآلف واللام

لم يقل "وكتاب مبين" بل قال: {وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ}. فالتعريف هنا يفيد العهد، أي أنه الكتاب المعهود المعلوم، الكتاب الذي تعرفونه، كتاب الله الذي أنزله على رسوله. ويفيد أيضاً الاستغراق، أي أنه الكتاب الكامل في بابه، فليس هناك كتاب يستحق أن يسمى "الكتاب" على الإطلاق إلا هذا القرآن الكريم.

اللمسة الثالثة: تقديم القسم على المقسم به

لاحظ أن الله تعالى قال: {وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ} فأقسم بالكتاب، ولم يذكر جواب القسم في هذه الآية مباشرة (وإن كان جواب القسم سيظهر في سياق السورة). وهذا الأسلوب يزيد التشويق، ويجعل السامع يتلهف لمعرفة: على ماذا أقسم الله بكتابه العظيم؟ ما هو الأمر الجلل الذي يستحق أن يقسم الله عليه بكتابه المبين؟ ثم تأتي الآيات التالية لتجيبك: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} . وإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ.

رابعاً: رسائل تربوية ونفسية وفكرية من وصف "المبين"

الرسالة الفكرية: القرآن مرجعيتك الوحيدة للوضوح

في زمن تلاطمت فيه الأفكار، وتضاربت فيه الفلسفات، وتنوعت فيه الأيديولوجيات، أين تبحث عن الوضوح؟ أفي الفلسفات البشرية المتقلبة؟ أفي النظريات الاقتصادية المتناقضة؟ أفي الأنظمة السياسية المتصارعة؟ أم في آراء الناس وأهوائهم؟

يأتي الجواب من الآية كالصاعقة: في الكتاب المبين وحده. ألا تشعر الآن أنك يجب أن تراجع علاقتك بالقرآن؟ ألا تشعر بأنك كنت تهدر وقتك في قراءة كتب البشر وتنسى الكتاب المبين؟ لا أقصد أن تهجر العلوم الدنيوية، فأنا أعلم أنها مطلوبة، ولكن أقصد أن تجعل من القرآن بوصلتك التي توجهك في هذه العلوم، ومقياسك الذي تزن به صحيحها من سقيمها، ونافعها من ضارها.

الرسالة التربوية: المنهج الواضح يصنع الإنسان الواضح

أيها المربي، أيها الأب، أيها المعلم، أيها الداعية، اسمع هذه القاعدة التربوية التي تسقطها عليك الآية: المنهج الواضح يصنع الإنسان الواضح. إن القرآن مبين واضح لا غموض فيه، والمربي الناجح هو الذي يجعل منهجه واضحاً لا غموض فيه، لا يخادع ولا يداري، صريح في توجيهاته، بين في أهدافه، واضح في مبادئه. وهكذا ينشأ الجيل على حب الوضوح وكره الغموض والازدواجية.

كثير من مشكلاتنا التربوية اليوم سببها أننا نعيش في حالة من الازدواجية القائلة: نقول لأبنائنا شيئاً ونفعل شيئاً آخر، نأمرهم بالصدق ونمارس الكذب، ننهاهم عن الحرام ونقترفه، نطلب منهم الالتزام بـ

الدين ونحن مقصرون. فكيف نبني جيلاً واضحاً إذا كنا نحن نعيش في المناطق الرمادية؟

الرسالة النفسية: الطمأنينة باليقين

أخبرني بربك... ألا تشعر أحياناً بقلق داخلي ينهش في صدرك؟ ألا تتنابك لحظات من الحيرة والتوتر؟ ألا تشعر بأنك تائه في مفازات الحياة وأوديتها؟

هذا القلق، وتلك الحيرة، وهذا التيه... أسبابه الرئيسية تعود إلى غموض الطريق وغياب المرجعية الواضحة. فعندما يكون الطريق واضحاً معلوماً، وعندما تكون المرجعية صلبة ثابتة لا تتغير بتغير الهواء، فإن النفس تطمئن ويستقر القلب وتهدأ الأعصاب.

إن وصف الله لكتابه بأنه "مبين" هو بلسم لقلبك القلق، ودواء لروحك الحائرة. إنه يقول لك: لا تقلق، فالطريق واضح، والسبيل معلوم، والحق بين، والباطل بين، وكل ما تحتاجه لتعيش حياة طيبة مطمئنة موجود في هذا الكتاب المبين. فلماذا القلق إذن؟ ولماذا الحيرة؟

المحور الرابع

ما تدعونا إليه الآية في الواقع المعاصر

من ركام الجاهلية القديمة إلى تصدعات الجاهلية المعاصرة

أولاً: مواجهة الجاهلية المعاصرة بنور الكتاب المبين

الآن سأخذك إلى قلب المعركة... إلى الواقع الذي تعيش فيه كل يوم... هل تدرك أننا نعيش جاهلية جديدة؟ نعم، جاهلية القرن الحادي والعشرين. إنها ليست جاهلية الشرك بالأصنام المنحوتة من الحجر، ولكنها جاهلية أشد خفاء وأعظم خطراً: إنها جاهلية المادة والتقنية والاستهلاك والعبودية للشهوات.

لقد كان القرآن في سورة الزخرف يواجه جاهلية العرب الذين قالوا: {لَوْلا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِيِّينَ عَظِيمٍ}، والذين عبدوا الملائكة وزعموا أنها بنات الله، والذين قاسوا قيمة الناس بما يملكون من زخرف الحياة الدنيا.

ونحن اليوم نواجه جاهلية جديدة تقول: القيمة في المال والمنصب، والسعادة في الاستهلاك والترفيه، والجمال في المظهر الخارجي، والنجاح في الشهرة والثروة، والعلم في الإلحاد والمادية، والتقدم في تقليد الغرب في كل شيء. هذه الجاهلية الحديثة تحتاج إلى "كتاب مبين" يكشف زيفها، ويظهر عوارها، ويفضح خواءها الروحي والأخلاقي.

مهمتك اليوم - أيها الذي تقرأ هذه الكلمات - هي أن تستخدم نور الكتاب المبين لتبديد ظلمات هذه الجاهلية المعاصرة. أن تكشف زيف تعظيم المادة، أن تفضح عبادة الهوى، أن تتصدى لتقديم القوانين الوضعية الجائرة على شرع الله، أن تبين للناس أن السعادة ليست في تراكم الأشياء بل في الاتصال بالله.

ثانياً: صناعة الوضوح في زمن السيولة

نحن نعيش في زمن يسميه المفكرون "زمن السيولة"، زمن تذوب فيه الحقائق، وتختلط فيه المفاهيم، وتضيع فيه الثوابت، ويصبح كل شيء نسبياً متغيراً، حتى صار الحق باطلاً والباطل حقاً عند كثير من الناس! في هذا الزمن العجيب، يأتي النداء القرآني: {وَالْكِتَابُ الْمُبِينُ}. إنه نداء الثبات في زمن التغير، نداء الوضوح في زمن الغموض، نداء اليقين في زمن الشك.

سورة الزخرف تبدأ بالقسم بوضوح المنهج، لتنبهك وتوقظك إلى حقيقة خطيرة: أن الصراط المستقيم لا يقبل الضبابية. فإما توحيد خالص يظهر أثره في عقيدتك وسلوكك وعلاقاتك ومعاملاتك، وإما جاهلية مغلفة بزخرف القول وطلاء الكلمات البراقة. ليس هناك حل وسط، ولا منطقة رمادية بين الإيمان والكفر، بين الحق والباطل، بين الهدى والضلال.

المحور الخامس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآية في حياتنا العملية

المفهوم الفكري: محاربة السيولة الفكرية بالمرجعية الصلبة

في عصر تتسارع فيه المعلومات، وتتضارب فيه الأفكار، وتتداخل فيه الثقافات، يصبح المؤمن عرضة لحالة من "التخبط الفكري" و"التذبذب العقائدي". تجده يوماً مع هذا الفكر، ويوماً مع ذاك، لا يستقر على رأي، ولا يثبت على مبدأ.

من أين يأتي العلاج؟ من {الكتاب المبين}. إنه يقدم لك معايير ثابتة لا تتغير بتغير الأهواء، ويضع لك أصولاً راسخة لا تتزعزع بالعواصف. إنه يحميك من تقليد التقاليد البالية، ومن الانسياق وراء الأفكار المستوردة المنحرفة، ومن التبعية العمياء للموضات الفكرية المعاصرة.

ألا ترى - يا أخي - كم من شاب مسلم انبهر بفلسفة غربية، أو نظرية اجتماعية، أو حركة فكرية، فانسلخ من دينه وهو لا يشعر؟ ولماذا حدث ذلك؟ لأنه لم يحصن نفسه بالكتاب المبين، ولم يجعل من آياته مرجعيته الأولى في الحكم على الأفكار والتصورات.

المفهوم التربوي: القدوة الصالحة والمنهج الواضح

أيها المربي الكريم، إن هذه الآية تضع أمامك نموذجاً تربوياً عظيماً. فالقرآن الكريم - وهو مربينا الأ ول - يتميز بأنه "كتاب مبين". فهل أنت كمربٍ منهجك واضح؟ هل أهدافك محددة؟ هل مبادئك ثابتة؟ هل توجيهاتك بينة لا غموض فيها؟

إن المربي الذي يضطرب في منهجه، ويتناقض في توجيهاته، ويتلون في مبادئه... لا يمكن أن يخرج جيلاً راسخاً ثابتاً. فكن كالكتاب المبين في وضوحك، وفي ثباتك، وفي صراحتك، وفي شموليتك. ليعرف منك تلاميذك وأبنائك أن الحق واحد لا يتعدى، وأن الطريق المستقيم واحد لا يتشعب، وأن المبادئ لا تتغير بتغير الظروف والأحوال.

المفهوم النفسي: الطمأنينة باليقين في زمن القلق

انظر حولك... كم من الناس يعيشون في قلق مزمن، واضطراب نفسي، وحيرة مستمرة؟ ما السبب؟ السبب الرئيس أنهم لا يملكون "كتاباً مبيناً" تستند إليه نفوسهم. إنهم يبحثون عن السعادة في المال ف لا يجدونها، وفي الشهرة فلا يظفرون بها، وفي العلاقات فلا يبلغونها. لماذا؟ لأنهم يبحثون في الأماكن الخاطئة.

أما المؤمن الذي يرتبط بالكتاب المبين، فإنه يجد في آياته سكيناً وطمأنينة لا توصف. إنه يعرف أن هناك إلهاً حكيماً رحيماً يدبر أمره، ويعرف أن لهذا الوجود غاية وهدفاً، ويعرف أن الحياة ليست عبثاً ولا لعباً، ويعرف المخرج من كل أزمة والمخرج من كل ضائقة... فيهدأ قلبه، وتسكن نفسه، ويطمئن به. ألا تشاق إلى هذه الطمأنينة؟ ألا تريد أن تنعم بهذا اليقين؟ إنه بين يديك... في الكتاب المبين.

المحور السادس

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآية؟

من الحيرة إلى اليقين ومن القراءة إلى الاستبانة

الإرادة الأولى: الانتقال من الحيرة إلى اليقين

الله عز وجل يريد منا في هذه الآية الكريمة أن ننتقل نقلة نوعية في حياتنا: من الحيرة إلى اليقين، ومن الشك إلى الثبات. إن وصف الكتاب بأنه "مبين" يعني أن الله لم يترك الإنسان سدى، لم يخلقه عبثاً، لم يتركه يتخبط في دياجير الظلمات بلا دليل. بل أعطاه مرجعية واضحة تزيح عنه ركام الجاهلية، وتصوراتها المشوهة، وشبهاتها المضللة.

هل تشعر بهذه النعمة العظيمة؟ إنك تملك كتاباً بيناً واضحاً... بينما الملايين من البشر يعيشون في حيرة من أمرهم، لا يدرون من أين جاؤوا ولا إلى أين يذهبون ولا لماذا يعيشون! ألا تحمد الله على هذه النعمة؟ ألا يدفعك هذا إلى أن تشكر الله بأن تقرأ هذا الكتاب وتندبره وتعمل به؟

الإرادة الثانية: عدم الاكتفاء بالقراءة إلى الاستبانة

انتبه إلى أمر في غاية الأهمية... الله تعالى لا يريد منا أن نكتفي بـ "قراءة" القرآن، بل يريد منا أن نرتقي إلى مستوى "الاستبانة". والاستبانة تعني أن تجعل القرآن كشافاً يسلط على كل فكرة تسمعها،

وكل عادة تراها، وكل تقليد ينشأ عليه مجتمعك، وكل فكر يرد إليك من الشرق أو الغرب. أن تعرض كل هذا على الكتاب المبين، فما وافق الحق أخذته، وما خالفه رفضته.

كم من فكرة باطلة تسلمت إلى مجتمعاتنا المسلمة بسبب أننا توقفنا عند "القراءة" ولم نصل إلى "الاستبانة"! كم من تقليد أعمى مورس باسم الدين وهو بعيد عن الدين! كم من موروث اجتماعي فاسد استمر بسبب أننا لم نعرضه على الكتاب المبين!

الإرادة الثالثة: التحول من المستوى النظري إلى المستوى العملي

الله يريد منا أن ننتقل من مجرد الإيمان النظري بأن القرآن مبين، إلى تفعيل هذا المفهوم في واقع حياتنا. أن نكون عمليين في تطبيقنا للقرآن، أن نجعله دليلاً في البيت والعمل والسوق والشارع، أن نحكمه في معاملتنا المالية، وفي علاقاتنا الاجتماعية، وفي أنظمتنا السياسية.

هل يكفي أن نقول: "أما بالكتاب المبين" ثم نعيش حياتنا كما لو أن هذا الكتاب غير موجود؟ هل يقبل الله منا هذا التناقض؟ إن الجواب ستجده في قوله تعالى: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}.
المحور السابع

أبعاد الآية وآفاقها

من البعد المعرفي إلى حماية العقل المسلم

البعد المعرفي: التأسيس على الوضوح الفكري

الهدف المعرفي لهذه الآية هو أن تقطع الطريق على التأويلات المنحرفة، والظنون الفاسدة، و التخرصات الباطلة. لقد عانى العرب في جاهليتهم من ظنون كثيرة: ظنهم أن الملائكة بنات الله، وظنهم أن الجن شركاء الله، وظنهم أن الأصنام تقربهم إلى الله زلفى. فجاء الكتاب المبين ليكشف زيف هذه الظنون، ويوضح الحق وضوحاً لا لبس فيه.

وفي عصرنا، ظهرت ظنون جديدة: ظن أن الإنسان أصله قرد، وظن أن الاقتصاد المادي هو الحل الوحيد لمشكلات البشرية، وظن أن الدين مجرد علاقة شخصية بين العبد وربّه لا علاقة لها بالحياة العامة. فوجب الكتاب المبين علينا أن نستخدمه في كشف زيف هذه الظنون المعاصرة، وبيان الحق فيها.

البعد المنهجي: تقديم النموذج البديل

بينما يعيش الجاهليون في "زخرف من القول والظن"، يقدم القرآن العظيم "الحق المبين". إن الآية تعلمنا أن واجبنا ليس فقط هدم الباطل، بل أيضاً تقديم البديل الصحيح. فإلّا لا يتركون الباطل إلا إذا رأوا البديل الحق، ولا يهجرون الظنون إلا إذا وجدوا اليقين.

فيا أيها الداعية، يا أيها المصلح، يا أيها المربي... حين تنتقد فكرة مادية، أو نظرية إلحادية، أو نظاماً فاسداً، لا تكتفِ بالنقد والهدم، بل قدم البديل من الكتاب المبين. أرهم كيف يعالج القرآن مشكلاتهم، ويرشدكم إلى حلول عملية ناجعة، ويجب عن تساؤلهم الوجودية الكبرى.

البعد الوقائي: حماية العقل المسلم من التبعية والتقليد الأعمى

إن من أعظم أهداف هذه الآية حماية العقل المسلم من آفتين خطيرتين:

- آفة التبعية: أن يتبع المسلمون ما عليه آبائهم وأجدادهم دون تفكير أو تدبر: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ}.
- آفة التقليد الأعمى: أن يقلد المسلمون الثقافة الغالبة أو الأفكار المستوردة التي تصادم الفطرة و التوحيد، دون أن يعرضوها على الكتاب المبين.

فالكتاب المبين يعطيك المناعة الفكرية التي تحميك من هاتين الآفتين. إنه يجعلك تنظر إلى الموروث والوافد بعين ناقدة، تزن كل شيء بميزان الوحي، فتأخذ ما وافق الحق وتترك ما خالفه.

المحور الثامن

تحويل الآية إلى طاقة لبناء الإنسان والمجتمع والحضارة

لكي تتحول هذه الآية العظيمة من مجرد نص نتلوه بألسنتنا إلى طاقة حضارية تبني الإنسان وتثيد المجتمع وتقيم الحضارة، يجب علينا أن نفعلها في ثلاثة مسارات رئيسة:

المسار الأول: بناء الإنسان الواضح مع نفسه ومع ربه

الحضارة لا تقوم على الأموال ولا على التقنية ولا على النظريات، بل تقوم على الإنسان. وأول مواصفات الإنسان الحضاري الذي نريده هو أن يكون واضحاً مع نفسه ومع ربه.

ماذا يعني الوضوح النفسي؟

- . أن يعرف الإنسان هدفه في الحياة: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }.
- . أن يعرف طريقه إلى الله فلا يتلون ولا يتنذب: { وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ }.
- . أن يتخلص من الصراعات الداخلية ومن الشرك الخفي (الرياء، حب الظهور، العجب...)...
- . أن تكون حياته كلها لله، فلا ازدواجية ولا نفاق: { قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَتَسَكَّيْتُ وَمَمَّاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }.

إن المؤمن الذي يعيش بهذا الوضوح يتحرر من كثير من الضغوط النفسية، ويوفر طاقاته الذهنية و العاطفية للإبداع والإنتاج والعمل، بدلاً من استهلاكها في الحيرة والتهيه والصراع الداخلي.

المسار الثاني: بناء المجتمع المسلم القائم على الشفافية والوضوح

المجتمع الحضاري هو مجتمع "مبين" في علاقاته، شفاف في معاملاته، واضح في أنظمتة. فعندما يعيش المجتمع بالكتاب المبين، فإنه:

- . يحارب الغموض والفساد والمحسوبية والوساطة الظالمة.
- . يقيم العلاقات على الوضوح والصراحة، لا على الكذب والنفاق والمداراة الفاسدة.
- . يواجه الموروثات الاجتماعية الفاسدة (مثل العنصرية، والتفاخر بالأنساب، وعادات الإنفاق المظهري، و التقاليد التي تخالف الشرع (بقوة الوضوح القرآني).
- . يبني نظاماً اقتصادياً شفافاً لا غش فيه ولا تدليس ولا احتكار ولا استغلال.

يا ترى... كم بيننا وبين هذا المجتمع الآن؟ وكما نحتاج أن نعود إلى الكتاب المبين ليبنى مجتمعاتنا من جديد؟

المسار الثالث: بناء الحضارة ذات المرجعية الصلبة

أي حضارة لا تمتلك "كتاباً مبيناً" دستوراً واضحاً وقاعدة صلبة، فإنها تسقط عاجلاً أم آجلاً. إن الحضارات المادية المعاصرة رغم ما بلغته في العمران والتقانة، تعاني من "سيولة أخلاقية" مرعبة، ومن تدهور في القيم، ومن ضياع في الهوية، ومن تفكك في الأسرة والمجتمع. لماذا؟ لأنه ليس لها كتاب مبين، بل تتخبط في دياجير الفلسفات الأرضية المتقلبة.

أما حضارتنا الإسلامية، فإنها تستمد قوتها وصلابتها من مرجعية الوحي: الكتاب المبين والسنة النبوية. وحين نعيد الاعتبار للقرآن كمصدر للمنظومة القيمية المتكاملة (العدل، الإتقان، العلم، الأمانة، الكرامة الإ نسانية)، فإننا نبني حضارة راسخة لا تهزها العواصف.

إن الحضارة الإسلامية تبني حقيقة حين يكون الوضوح هو المعيار في العلم والعمل والقضاء و السياسة والاقتصاد... وحين تصبح كلمة "المبين" هي الوصف الصادق لواقعنا لا مجرد وصف لكتابنا.

المحور التاسع

دور الآية في البناء والتنمية

اسمح لي الآن أن أربط لك الآية الكريمة بمفهوم البناء والتنمية ربطاً مباشراً، لترى كيف أن القرآن ليس كتاباً للعبادة المجردة فقط، بل هو كتاب بناء وتنمية وتعمير للأرض.

أولاً : البناء المعرفي والعلمي

{الكتاب المبين} يوجهنا إلى منهج معرفي متكامل:

- . الوضوح في طرح الأسئلة: العلم يبدأ بسؤال واضح، لا بغموض وتخبُّط.
- . الوضوح في المنهج: البحث العلمي الجاد يحتاج إلى منهجية واضحة، لا إلى العشوائية.
- . الوضوح في النتائج: العالم الصادق يعلن نتائجه بوضوح، ولا يخفي أو يزيّف.

وهكذا يكون القرآن المبين محفزاً للعقل المسلم على البحث والتفكير والإبداع، في إطار من الوضوح المنهجي والأخلاقي.

ثانياً: البناء الاقتصادي

عندما ننقل مفهوم "المبين" إلى الاقتصاد، فإننا نكون أمام نظام اقتصادي يقوم على:

- . الشفافية: لا غش ولا تدليس ولا تلاعب بالأسعار ولا احتكار.
- . الوضوح في العقود: {إِذَا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ}، فعقود التجارة واضحة بينة لا غموض فيها ولا جهالة تؤدي إلى النزاع.
- . المسؤولية الواضحة: كل فرد مسؤول عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه.

إن اقتصاداً مبنياً على هذه المبادئ لجدير بأن يكون اقتصاداً قوياً ناجحاً، لا تهزه الأزمات ولا تنهكه فضائح الفساد.

ثالثاً: البناء الاجتماعي والسياسي

في المجتمع الذي يحكمه "الكتاب المبين":

- . تكون القوانين واضحة معلومة للجميع، لا تخفي ولا استثناءات ظالمة.
- . تكون الحقوق والواجبات بينة، يعرفها الحاكم والمحكوم.
- . تكون الشورى هي الأساس، والشفافية هي القاعدة.
- . يكون العدل هو المعيار، والمساواة هي الأصل.

أليس هذا ما نبحث عنه في عالمنا المعاصر؟ أليست مجتمعاتنا تعاني من غياب الوضوح والشفافية في السياسة والإدارة والقضاء؟

المحور العاشر

كيف نحول الآلية إلى واقع معاش؟

خطوات عملية من التنظير إلى التطبيق

والآن وقد بلغنا نهاية هذه الرحلة، لا بد أن نسأل السؤال العملي: كيف نحول هذه الآلية إلى واقع معاش؟ كيف نعيش بالكتاب المبين حقاً؟ اسمح لي أن أضع بين يديك خريطة طريق عملية:

الخطوة الأولى: الوضوح في المعاملات الشخصية

كما أن الكتاب مبين، يجب أن تكون معاملتك المالية والاجتماعية "مبينة" واضحة لا تدليس فيها ولا غموض:

- . إذا بعت أو اشتريت، فبيّن العيوب، ولا تخفها.
- . إذا استدنت أو أقرضت، فاكتب العقد بوضوح: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ}.
- . إذا تحدثت مع الناس، فكن صريحاً واضحاً، لا تكن ممن يلوون ألسنتهم أو يخفون الحقائق.
- . إذا التزمت بأمر، فأوف به ولا تكن ممن ينقضون العهود.

الخطوة الثانية: تجديد التوحيد العملي

لا تكتفِ بالاعتراف النظري بأن الله هو الخالق الرازق، فهذا شيء تعترف به قريش ولم ينفعها إيمانها. بل ارتقِ إلى التوحيد العملي الذي يجعل مراد الله المبين في كتابه هو الحكم في بيتك وعملك وعلاقاتك وقراراتك.

اسأل نفسك بصدق: هل أحكم الكتاب المبين في:

- علاقاتي الأسرية؟
- قراري باختيار تخصصي أو وظيفتي؟
- إنفاقي للمال وكسبي له؟
- علاقاتي مع جيراني وزملائي؟
- موقفني من الأحداث السياسية والاجتماعية؟

الخطوة الثالثة: التحرر من ضغط المجتمع المنحرف

الجاهلية القديمة والحديثة تضغط عليك بالتقاليد والعادات والأعراف. والناس يخافون من كلام الناس أكثر مما يخافون من كلام الله! وهنا يأتي دور الكتاب المبين ليمنحك الشجاعة الأدبية والنفسية لتقول كلمة الحق ولو خالفت المألوف.

كم من شاب أراد أن يستقيم فمنعه ضغط المجتمع! وكم من فتاة أرادت أن تلتزم بالحجاب الشرعي فخافت من كلام الناس! وكم من رجل أراد أن يطلق ان يلتزم فأخرسته سخریات المحيطين به! إن التمسك بالكتاب المبين يمنحك الجرأة على أن تقول: "هذا هو الحق المبين، وهذا هو الصراط المستقيم ، وعليه أحيأ وعليه أموت، ولو كره الكافرون والمنافقون".

الخطوة الرابعة: دمج الكتاب المبين في كل مفاصل الحياة

لا تجعل للقرآن وقتاً خاصاً محدوداً تقرأه فيه ثم تطبقه بعد ذلك على زاوية ضيقة من حياتك. بل اجعله يخترق كل جوانب حياتك:

- في الصباح: ابدأ يومك بآية من الكتاب المبين تتدبرها وتجعلها نبراس يومك.
- في العمل: استحضر مبدأ الإتيقان {إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه}.
- في السوق: استحضر آيات الحلال والحرام في البيع والشراء.
- في الأسرة: اجعل القرآن دستوراً للتربية والأخلاق والعلاقات.
- في السياسة: قيم الأنظمة والقوانين بموازين الوحي المبين.
- في العلم: اربط دراستك واكتشافاتك بعظمة خالق الكون {وفي أنفسكم أفلا تبصرون}.

الخاتمة: كلمة أخيرة أخطب بها قلبك وعقلك

أيها القارئ الكريم...

لقد قطعنا رحلة طويلة معاً، من أعماق {حم} إلى آفاق {الكتاب المبين}، ومن ظلمات الجاهلية إلى نور الوحي، ومن حيرة التيه إلى يقين الهداية.

والآن أسألك سؤالاً واحداً أريدك أن تجيب عنه بصدق مع نفسك: هل تشعر الآن أن هذه الآية تخاطبك أنت بالذات؟ هل تشعر أن {حم} . {الكتاب المبين} هي رسالة موجهة إليك اليوم في هذا الزمن المضطرب، في مجتمعك الذي يعاني من الغموض والتيه، في حياتك التي قد تكون مليئة بالمناطق الرمادية؟

إذا كان جوابك نعم - وأنا على يقين أنه نعم - فماذا أنت فاعل؟

هل ستكتفي بقراءة هذه الكلمات وإغلاق هذه الصفحة ومتابعة حياتك كأن شيئاً لم يكن؟ أم ستعقد العزم من هذه اللحظة على أن تعيش بالكتاب المبين، وأن تنقل حياتك من الحيرة إلى اليقين، ومن الغموض إلى الوضوح، ومن السيولة إلى الثبات؟

إنني أدعوك دعوة صادقة مخلص... أن تجعل من هذه الآية شعاراً لك في الحياة، ونبراساً لخطواتك،

ومنهجاً لقراراتك. كن رجلاً ً أو امرأة تعيش بالكتاب المبين، فيفوح منك عطر الوضوح والصدق و
اليقين في زمن كثر فيه الغموض والكذب والشك.

أمنت بالكتاب المبين... وعليه أحياء... وعليه أموت... وعليه ألقى الله ربي.

وأنت؟

المبحث الثاني

تفسير الآيتين (3-4) من سورة الزخرف

(إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ)

رحلة إلى أعماق العقل والوحي والحكمة
تقدمة لا بد منها: موقع الآيتين من السورة ومن المنظومة القرآنية

قبل أن نلج إلى رحاب هاتين الآيتين الكريمتين، وقبل أن نبحر في أعماقهما، دعني أقف معك وقفة
نستذكر فيها أين كنا وأين صرنا، لنذكر السياق الذي نزلت فيه هاتان الآيتان، ولنفهم موقعهما من
البناء المحكم لسورة الزخرف خاصة، ومن المنظومة القرآنية الكبرى عامة.

لقد بدأت سورة الزخرف بذلك الافتتاح المهيّب: {حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ}. هناك أعلن التحدي، وهناك
عُظم الكتاب، وهناك رُسخ الوضوح. كان ذلك الإعلان الأولي بأن المعركة القادمة في السورة - معركة
مواجهة الزخرف والمادية والتصورات الجاهلية - تحتاج إلى سلاح "الكتاب المبين" وإلى مرجعيته
الصلبة.

والآن... بعد هذا الإعلان، يأتي الجواب المنتظر، يأتي الرد الذي تنتظره القلوب وتساءل عنه العقول: ما
هذا الكتاب المبين؟ ولماذا أنزل بالعربية؟ وما منزلته عند الله؟ وما حكمته؟ هاتان الآيتان تقدمان الإ
جابة الشافية الكافية، وتفتحان آفاقاً جديدة في فهم علاقتنا بالقرآن.

إنهما آيتان قصيرتان في مبناهما، لكنهما - كما ستري - عميقتان في معناهما، واسعتان في دلالاتهما،
ممتدتان في آثارهما على العقل والقلب والسلوك. فتعال معي نغوص فيهما معاً، لا لنقرأهما فقط، بل
لنعيشهما.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيتين ومقاصدهما وأهدافهما

أريدك أن تتوقف قليلاً ً قبل أن نبدأ الغوص التفصيلي، وتأمل معي في الرسالة الكبرى التي تحملها
هاتان الآيتان. إنني لا أريدك أن تستقبل هذه الكلمات استقبالا ً بارداً، بل أريد أن تجعل قلبك على
أهبة الاستعداد، وأن تفتح عقلك على اتساعه، وأن تهين روحك لتلقي هذه المعاني النورانية.

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيتان:

1. مصدرية القرآن وعلوه: {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا} تعلن أن القرآن ليس وليد الأرض، بل أصله في
السماء، في أم الكتاب، في اللوح المحفوظ، {لَدَيْنَا} أي عند الله. وهذا يعطيه علواً في الرتبة ورفعة
في المكانة.
2. الحكمة الإلهية في اختيار العربية: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} تعلن أن نزول القرآن بالعربية لم يكن
مصادفة ولا عشوائية، بل هو تدبير إلهي حكيم له غاية واضحة.
3. غاية التعقل والفهم: {لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} تبين الهدف الأسنى من إنزال القرآن عربياً مبيناً: أن يعقله
الناس، أي أن يربطوا بين أجزائه، ويفهموا مقاصده، ويدركوا مرامييه.
4. الوصف بالعلو والحكمة: {لَعَلِيَّ حَكِيمٌ} يجمع للقرآن صفتين عظيمتين: العلو المطلق، والحكمة البالغة .
فهو عال على كل كلام، وحكيم في كل ما فيه.

مقاصد الآيتين وأهدافهما:

1. ترسيخ الثقة بالقرآن: أن يشعر المؤمن بأنه يحمل بين يديه كتاباً أصله في السماء، ليس من صنع
بشر ولا من تأليف مخلوق.
2. إكرام الأمة التي نزل بلغتها: أن تعرف الأمة العربية - ومن ورائها كل من يتكلم العربية - فضل
الله عليها بأن جعل آخر كتبه وأعظمها بلغتها.
3. الدعوة إلى التعقل والتدبر: أن ينتقل المسلم من مرحلة التلاوة المجردة إلى مرحلة التعقل والفهم

والتدبر.
4. الربط بين الأرض والسماء: أن يستشعر المؤمن أنه عندما يقرأ القرآن فإنه يتصل بكتاب أصله في السماء، في اللوح المحفوظ عند الله.

والآن... هي بنا نشرع في رحلتنا التفصيلية، متنقلين بين المحاور التي ستجعل هاتين الآيتين تنبضان حياة في قلبك وفكرك وسلوكك، مستخدمين ذات الأسلوب الحوارية الحماسي الذي يجعلك تتفاعل مع كل كلمة، وتشاركني الوصول إلى النتائج، وكأن الآية تنزل عليك أنت الآن.
المحور الأول

{إنا جعلناه قرآنا عربيا}

عندما تنتزل الحكمة الإلهية في قالب اللغة العربية

دلالات الاختيار، ودروس الاصطفاء، ورسائل اليسر

وقفة مع الأسلوب: لماذا "إنا" ولماذا "جعلناه"؟

دعني أقف معك وقفة قصيرة عند بناء الجملة في صدر الآية: {إنا جعلناه قرآنا عربيا}.

انظر إلى كلمة {إنا}، إنها تفيد التوكيد، وتفيد التعظيم الذاتي لله جل جلاله. إن الله يعلن عن فعلته العظيمة بصيغة المؤكد المعظم لنفسه: "إنا" لا "إني"، إشارة إلى عظمة الفاعل، وإلى أهمية الفعل. فحين يتحدث العظيم عن فعله بصيغة التعظيم، فاعلم أن الفعل في غاية الأهمية وفي نهاية الجلال.

ثم تأمل كلمة {جعلناه}، ولم يقل "أنزلناه" أو "خلقناه" أو "أوحيناه". إن "جعل" في اللغة العربية تفيد التصيير والتحويل والتكوين بصورة محكمة. فكأن الله يقول: نحن - بعظمتنا وقدرتنا وحكمتنا - صيّرنا هذا الكتاب قرآنا عربيا، هيأناه بهذه الصورة الحكيمة، أعدناه بهذه الهيئة البديعة.

ألا تشعر - يا رعاك الله - أن في اختيار هاتين اللفظتين ما يجعل قلبك يخفق إجلالا ً وتعظيما، وما يجعلك تدرك أن نزول القرآن بالعربية لم يكن أمرا عاديا، بل هو حدث كوني عظيم، دبره الله بحكمته البالغة، وأنفذه بقدرته النافذة؟

لماذا العربية؟ أسرار الاختيار ولطائف الاصطفاء

والآن دعني أسألك سؤالا ً ، وأريدك أن تجيبني بقلبك قبل عقلك: لماذا اختار الله العربية لتكون وعاء القرآن، لسان الوحي الخاتم، لغة الكتاب المبين؟

هل كان ذلك مصادفة؟ حاشا لله! هل كان ذلك مجرد مجازاة للبيئة التي نزل فيها القرآن فحسب؟ إنها حكمة أعمق من ذلك بكثير. دعنا نستعرض بعض أسرار هذا الاختيار:

السر الأول: الطاقة التعبيرية الهائلة للعربية

العربية - يا صاحبي - لغة لا تشبهها لغة في طاقتها التعبيرية. إنها لغة المجاز والحقيقة، لغة الإيجاز والإطناب، لغة الكناية والتصريح، لغة الاشتقاق العجيب الذي يولد من الجذر الواحد عشرات الكلمات ذات المعاني المترابطة.

خذ مثلا ً: الجذر (ع-ق-ل). من هذا الجذر تتفجر المعاني: عقل (فهم وأدرك)، عقل (جوهر الإنسان)، عقّال (ما يربط به البعير لئلا يشرد)، معقل (الحصن والملجأ)، عاقل (الذي يضبط نفسه)، عقل (ثبّت وربط). ألا ترى كيف أن كل هذه المعاني تدور حول فكرة "الربط والضبط"؟ وكذلك العقل في القرآن: هو الذي يربطك بالحق ويضبطك عن الباطل.

هذه الطاقة الاشتقاقية تجعل العربية وعاء مثاليا للوحي، لأن الكلمة الواحدة تحمل طبقات من المعاني ، وتشتمل على أبعاد متعددة، مما يسمح للقرآن أن يكون: {متّاني} أي تثني فيه المعاني وتتعدد.

السر الثاني: الدقة المتناهية في التعبير

العربية لغة دقيقة، تضع لكل معنى لفظه الخاص، وتميز بين الدرجات الدقيقة للمعنى الواحد. تأمل

هذه الكلمات: الجلوس، القعود، الاضطجاع، الاتكاء، التربع، الاحتباء... كلها تدل على هيات للجلوس، ولكن لكل منها معناه الدقيق. وفي القرآن نجد من هذه الدقة ما يبهز العقول: {فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ} و{فَقَدَرْنَا} بالتشديد... لكل منهما معنى يختلف عن الآخر.

السر الثالث: الإيجاز المعجز

انظر إلى قوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ}. أربع كلمات فقط، لكنها تجمع ما لا تجمعه مجلدات القانون الوضعي. في "القصاص" (وهو القتل) "حياة" (وهي ضد الموت). أبلغ من هذا الإيجاز؟ إنها معادلة قرآنية بديعة: القتل العادل حياة للمجتمع.

السر الرابع: الموسيقى الداخلية والإيقاع العجيب

اللغة العربية موسيقى داخلية، تتأتى من توالي الحروف والحركات، ومن الفواصل والجناس والسجع غير المتكلف. تأمل سورة كالقمر أو الحاقة أو الواقعة... كيف تشعر بإيقاع يأخذ بقلبك قبل أذنك؟ إن هذا الإيقاع الصوتي لهو من أبلغ أسرار التأثير القرآني، وهو لا يمكن أن يتحقق في لغة أخرى بنفس الدرجة.

{لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}: الهدف الأسمى من الإنزال العربي

انظر كيف رتبت الآية: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} ثم جاء حرف الترجي {لَعَلَّ} ثم {تَعْقِلُونَ}. إنه ترتيب بديع: جعلناه عربياً لكي تعقلوا. فالعربية وسيلة إلى العقل، واللغة جسر إلى الفهم، والقرآن العربي أداة لإعمال العقل وتحريكه.

ولكن... ما هو "التعقل" الذي تريده الآية؟

التعقل في القرآن ليس مجرد الفهم المجرد، بل هو أعلى وأعمق. التعقل هو:

- . أن تربط بين الأسباب والمسببات.
- . أن تدرك الحكم والمقاصد.
- . أن تفهم الإشارات والدلالات.
- . أن تميز بين الخير والشر، بين النافع والضار.
- . أن تصل إلى اليقين الذي يحرك الجوارح للعمل.

فالآية تقول: إن هذا القرآن نزل بلغتكم يا معشر العرب، وبلغتكم بكل هذه الخصائص، لكي تتمكنوا من فهمه، وإدراك مرامييه، والوصول إلى حكمته. فليس لكم عذر في الإعراض عنه بحجة أنكم لا تفهمونه، فهو بلغتكم، نزل لتفهموه.

رسائل ودروس وتوجيهات من {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا}

الرسالة الأولى: فضل الله على العرب... ومسؤوليتهم

يا أمة العرب، يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم... هل تشعرون بعظم المنة عليكم؟ إن الله اختار لغتكم من بين كل لغات الأرض لتكون وعاء كتابه الخاتم. هذا تشریف لا يدانيه تشریف، وتكریم لا يماثله تکریم. ولكن... هذا التشریف يحمل في طياته مسؤولية هائلة.

إن الأمة التي نزل القرآن بلغتها مطالبة بأن تكون الأمة الأكثر فهماً للقرآن، والأكثر عملاً به، والأكثر دعوة إليه. فهل قمنا بهذه المسؤولية؟ هل نحن كما يريدنا الله أن نكون مع كتابه العربي المبين؟

الرسالة الثانية: يسر الشريعة وسماحتها

جعل الله القرآن عربياً مبيناً ليسهل على الناس فهمه. إن هذا يعكس أصلاً عظيماً من أصول الشريعة: اليسر ورفع الحرج. الله لم يجعل كتابه ألغازاً وأحاجي، ولم يجعله بلغة غامضة تحتاج إلى ترجمان خاص، بل جعله بلغة العرب الواضحة التي يفهمونها.

وهذا يعلمنا - معشر الدعاة والمربين - أن نخاطب الناس على قدر عقولهم، وأن نشرح لهم الدين بلغة يفهمونها، وألا نغلق عليهم أبواب الفهم بمصطلحات معقدة ولغة متقشرة لا يدركونها.

الرسالة الثالثة: أهمية اللغة العربية في الدين

إذا كان الله قد اختار العربية لتكون لغة كتابه، فإن لهذه اللغة قداسة وشرفاً لا ينبغي التفريط فيه. إن تعلم العربية ليس ترفاً ثقافياً، بل هو ضرورة دينية. كيف تريد أن تفهم كلام ربك وأنت لا تتقن لغته؟ كيف تريد أن تتدبر القرآن وأنت لا تفهم أسرار العربية وبلاغتها؟

وإن مما يحزن القلب - يا صاحبي - أن ترى شباباً مسلماً يتقنون لغات أجنبية ولا يكادون يقرؤون العربية قراءة صحيحة! ألسنا نتعامل مع كتاب الله وكأنه كتاب أجدادنا البعيدين، لا كتابنا الذي ينبغي أن يكون حاضراً في حياتنا كلها؟

الرسالة الرابعة: عالمية الإسلام رغم خصوصية اللغة

قد يقول قائل: إذا كان القرآن عربياً، فهل هو كتاب للعرب فقط؟ حاشا وكلا! إن عالمية الإسلام لا تنافي عربية القرآن. فالعربية هي اللغة التي اختارها الله لتكون وعاء الرسالة الخاتمة، ولكن هذه الرسالة موجهة للعالمين: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا}.

العربية هنا هي القناة التي تتدفق من خلالها الرسالة إلى العالمين، وهي الوعاء الذي يحمل النور الإلهي إلى البشرية جمعاء. وهذا يفرض على المسلمين جميعاً - عرباً وعجماً - أن يعتنوا بالعربية، فهي لغتهم الدينية مهما كانت لغاتهم القومية. المحور الثاني

{وإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا}

عندما يرتبط القرآن بالسماء... النبع الإلهي للمنهج الأرضي

جمالية الانتقال: من الأرض إلى السماء

تأمل معي هذا الانتقال العجيب في الآيتين: بدأت الأولى بالحديث عن القرآن في صورته الأرضية: {قُرْآنًا عَرَبِيًّا}، أي كتاباً مقروءاً بالعربية، يتلوه الناس بالسنتهم، ويدرسونه في محاربيهم، ويحملونه في صدورهم. إنه القرآن الذي بين أيدينا، الذي نلمسه ونقرؤه ونسمعه.

ثم تأتي الآية الثانية فترتفع بك فجأة إلى السماء، إلى عالم الغيب، إلى {أُمِّ الْكِتَابِ} وإلى {لَدَيْنَا} عند الله. وكأن الآية تقول لك: يا من تقرأ القرآن بلسانك، وتمسكه بيدك، وتضعه على رفك... هل تدري ما أصل هذا الكتاب؟ هل تدري من أين جاء؟ هل تدري ما منزلته عند الله؟

إنها نقلة عظيمة من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، ومن الأرض إلى السماء، ومن المصحف الذي بين يديك إلى اللوح المحفوظ الذي عند الله. وهذه النقلة لها أثر عظيم في قلبك، ستشعر به بعد قليل.

ما معنى "أم الكتاب"؟

دعنا نقف عند هذه العبارة العجيبة: {فِي أُمِّ الْكِتَابِ}. كلمة "أم" في اللغة العربية تدل على الأصل و المرجع والملجأ. فأم الشيء: أصله الذي يرجع إليه. ومنه سميت مكة "أم القرى" لأنها أصل القرى ومرجعها وقبلتها. وسميت الفاتحة "أم الكتاب" لأنها أصل القرآن، وفيها مجمل معانيه.

فـ "أم الكتاب" هي الأصل الذي منه نزل القرآن، وهي اللوح المحفوظ الذي فيه كتاب الله الأزلي. إن القرآن الذي بين أيدينا هو تنزيل من ذلك الأصل العلوي، هو نسخة من تلك الأم العظيمة، هو شعاع من ذلك النور الإلهي المخزون في السماء.

والآن... ألا تشعر بأن نظرتك إلى القرآن قد اختلفت؟ ألا تشعر بأن هذا الكتاب الذي تحمله بين يديك ليس مجرد ورق وحب، بل هو امتداد للكتاب المكنون في السماء، هو قطرة من بحر العلم الإلهي، هو نفحة من نور الله الأزلي؟

معنى {لَدَيْنَا}: القرب المكاني أم المكاني الرمزي؟

{لَدَيْنَا} كلمة تقشعر منها الأبدان، وتهتز لها القلوب، وتطمئن بها النفوس. إنها تفيد القرب والاختصاص والعندية. فالقرآن {لَدَيْنَا} أي عند الله، في حضرته، في مقام القرب والرفق.

ولكن ماذا يعني أن القرآن "عند الله"؟ هل يعني ذلك أنه في مكان قريب من ذات الله؟ هنا يجب أن نقف أدباً مع الله، فلا نكيف ولا نشبه ولا نمثل. نقول: إن القرآن عند الله، في حضرته، بمقام العزة والكرامة، دون أن نتصور كيفية ذلك أو نشبهها بشيء من أحوال المخلوقين. إنها "عندية" تليق بجلاله سبحانه، لا نعرف كيفيتها، ولكننا نستشعر أثرها في قلوبنا.

رسائل ودروس وتوجيهات من {وإته في أم الكتاب لدينا}

الرسالة الأولى: القرآن ليس من صنع البشر... إنه من عند الله

يا أيها المؤمن... أسمع؟ إن الكتاب الذي بين يديك ليس من صنع محمد صلى الله عليه وسلم، وليس من تأليف بشر، وليس من إبداع الخلق. إنه {تنزيل من حكيم حميد}. إن أصله في السماء، في أم الكتاب، في اللوح المحفوظ، عند الله. فكيف تسمح لنفسك أن تتعامل معه بفتور أو إهمال أو هجران؟!

وهذه الرسالة باللغة الأهمية في زمن يريد البعض أن يشككوا في مصدريّة القرآن، وأن يصفوه بأنه نتاج بيئته، أو انعكاس لثقافة عصره، أو تعبير عن عبقرية محمد الشخصية! يا سبحان الله! أليس في قوله {لدينا} ما يدمر هذه المزاعم كلها؟

الرسالة الثانية: علو منزلة القرآن وشرفه

إن القرآن ليس مجرد كتاب. إنه "علي" في محتواه، "علي" في مصدره، "علي" في أثره. وحين تشعر بهذا العلو، فإن هذا الشعور يورثك تعظيماً للقرآن في قلبك. فلا تقرأه كما تقرأ أي كتاب، ولا تمسه إلا وأنت على طهارة، ولا تتلوه إلا وأنت خاشع، ولا تحكمه في حياتك وأنت متردد أو متلكئ.

ألا ترى أننا نتعامل مع الملوك والرؤساء بتوقير وهيبة واحترام لمجرد أنهم أصحاب سلطة دنيوية زائلة؟ فكيف بكتاب ملك الملوك، رب العالمين، الذي هو عنده في الملأ الأعلى، في أم الكتاب، في اللوح المحفوظ؟!

الرسالة الثالثة: الصلة الحية بين الأرض والسماء

لم ينقطع الوحي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بمعنى انقطاع التكليف والتشريع، ولكن بقيت الصلة حية بين الأرض والسماء من خلال هذا الكتاب. إنك حين تفتح المصحف وتقرأ آياته، فإنك تتصل بذلك الأصل العلوي، وتستمد من ذلك النبع الإلهي، وتنزل عليك الرحمت من {لدينا}.

ألا تشعر - يا رعاك الله - بشيء من هذه الصلة الحية؟ ألا تحس وأنت تتلو كلام الله أنك لست وحدك، بل أنت موصول بالسماء، ممتد الجذور في عالم الغيب، مرتبط بأصل الكتاب عند الله؟!

الرسالة الرابعة: الثقة واليقين في زمن الشكوك

في زمن كثرت فيه الشبهات، وتناثرت فيه الشكوك، وتعددت فيه مصادر المعرفة، يأتي هذا الخطاب الرباني ليرسخ في قلبك الثقة واليقين: {وإته في أم الكتاب لدينا}. فتحق تماماً أن هذا القرآن حق، وأنه من عند الله يقيناً، وأنه محفوظ بحفظ الله، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وإن من أعظم أسباب القلق والاضطراب النفسي في عصرنا أن الناس تاهوا بين الفلسفات والنظريات والأفكار، فلا يدرون أيها الحق وأيها الباطل. ولكن المؤمن الذي استقر في قلبه أن القرآن من {لدينا} أي من عند الله، فإنه يسكن إلى هذه الحقيقة، ويطمئن بها، ولا تزغعه شبهات المشككين.

المحور الثالث

{لعلّي حكيم}

عندما يجتمع العلو والحكمة في وصف الكتاب المبين

جمالية الختم: {لعلّي حكيم}

بعد أن بينت الآية الكريمة علو مصدر القرآن (في أم الكتاب) وقربه من الله (لدينا)، ختمت بهذين

الوصفين البليغين: {لَعْلِيَّ حَكِيمٌ}. وتأمل معي جمال التعبير: {لَعْلِيَّ} وليس "علي" فقط، فاللام للتوكيد. إنه علي قطعاً وبقيناً وحتماً، ليس في ذلك أدنى شك أو تردد.

وتأمل أيضاً: لماذا قدم "علي" على "حكيم"؟ لأن العلو أولاً ، ثم الحكمة ثانياً. فالقرآن عال في ذاته، عال في مصدره، عال على كل كلام... ومن هذا العلو تتفجر حكمته. فالعلو هنا ليس علو تكبر وتجب، بل هو علو شرف ومنزلة تؤدي إلى الحكمة.

"علي": أبعاد العلو في القرآن

ما معنى أن القرآن "علي"؟ دعنا نستكشف معاً أبعاد هذا الوصف الجليل:

العلو في المصدر: من عند الله

وهذا ما أشارت إليه الآية نفسها: {فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا}. فهو عال في مصدره، لأنه من عند العلي الأعلى على سبحانه.

العلو في المضمون: حقائق إلهية

القرآن ليس كتاباً في الرياضيات أو الفيزياء أو الطب (وإن كان فيه إشارات إلى ذلك)، بل هو كتاب في الحقائق الكبرى: من أين جئنا؟ ولماذا نحيا؟ وإلى أين نذهب؟ وهذه هي الأسئلة العليا التي لا يجيب عنها إجابة شافية إلا الوحي.

العلو في البلاغة: إعجاز لا يضاهي

القرآن عال في بلاغته على كل كلام بشر. لقد تحدى العرب الذين بلغوا الذروة في الفصاحة أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة من مثله، فعجزوا. ولا يزال التحدي قائماً، ولا يزال العجز مستمراً.

العلو في القيمة: لا يعدله شيء

القرآن أغلى وأثمن من كل كنوز الأرض. إنه {خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}. إنه الكنز الذي لا يفنى، والنور الذي لا يخبو، والهدى الذي لا يضل من اتبعه.

"حكيم": أبعاد الحكمة في القرآن

والقرآن ليس عالياً فحسب، بل هو "حكيم" كذلك. وما معنى الحكيم؟

الحكيم بمعنى المُحْكَم المتقن

القرآن محكم في نظمه، محكم في آياته، محكم في تشريعاته. ليس فيه خلل ولا تناقض ولا اضطراب: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}.

الحكيم بمعنى ذي الحكمة

القرآن مشتمل على الحكمة، زاخر بها، مليء بمواضعها. و"الحكمة" هي: وضع الشيء في موضعه، ومعرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والفعل. والقرآن كله حكمة: عقائده حكمة، وشرائعه حكمة، وقصصه حكمة، وأخلاقه حكمة.

الحكيم بمعنى الحاكم

القرآن حكم بين الناس فيما اختلفوا فيه: {وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ}. فهو المرجع عند النزاع، والفيصل عند الاختلاف.

رسائل ودروس من {لَعْلِيَّ حَكِيمٌ}

الرسالة الأولى: التحرر من قيود المادة والزخرف

الآن يظهر لنا وجه الارتباط بين هذه الأوصاف وموضوع السورة الأساس. السورة اسمها "الزخرف"،

وهي تعالج الانهيار بالمادة، والتعلق بزيينة الحياة الدنيا. فكيف نواجه هذا الانهيار؟

الجواب: بأن ندرك أن ما عندنا من كتاب الله {لَعَلِّيْ حَكِيْمٌ}، هو أعلى قيمة وأعظم شأنًا من كل زخرف الدنيا. إن كان الماديون يتباهون بذهيهم وفضتهم وزخرفهم، فنحن نتباهى بكتاب الله العلي الحكيم. وإن كانوا يرون القيمة في الأموال والممتلكات، فنحن نرى القيمة الحقيقية في كلام رب الأرض والسموات.

الرسالة الثانية: الثقة بالقرآن كمرجعية عليا

إن وصف القرآن بأنه "علي" يعني أنه ليس هناك ما يعلو عليه. فكل فكر بشري، وكل فلسفة أرضية، وكل نظرية علمية، وكل قانون وضعي... كل ذلك أدنى مرتبة من القرآن. فكيف نقدم آراء البشر على كلام رب البشر؟ كيف نجعل القوانين الوضعية فوق شرع الله؟ كيف نقدم الموضات الفكرية على الحقائق القرآنية؟

إن استشعار علو القرآن يجعلك تضع كل شيء في موضعه الصحيح، فلا تقدم القوانين البشرية على الشرع، ولا الأفكار الفلسفية على الوحي، ولا الثقافات الدخيلة على الهدى القرآني. وهذا هو الطريق إلى الانعتاق من التبعية الفكرية والحضارية.

المحور الرابع

دروس وتوجيهات من الآيتين مجتمعتين

بعد أن غصنا في أعماق كل عبارة من عبارات الآيتين، دعنا الآن نستخلص الدروس والتوجيهات التي تقدمها لنا هاتان الآيتان الكريمات مجتمعتين.

الدرس الأول: التعقل هو الهدف... فهل عقلنا؟

{إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}. اسأل نفسك الآن - يا أخي - واسألها بصدق: هل أنا ممن يعقلون القرآن؟ هل أنا ممن يتجاوزون سطحية القراءة إلى عمق الفهم؟ هل أنا ممن يربطون بين الآيات، ويستنبطون الأحكام، ويدركون المقاصد؟

إن "لعل" هنا للترجي، والترجي من الله واجب الوقوع. فالله يريد منا أن نعقل القرآن، وهياً لنا كل الأسباب لذلك: كتاب عربي مبين، بلغة ذات طاقة تعبيرية هائلة، فيه تبيان لكل شيء. فهل نستجيب لإرادة الله فينا؟

الدرس الثاني: التفاعل الحي مع القرآن

إن هاتين الآيتين تدعواننا إلى علاقة جديدة مع القرآن، علاقة تتجاوز التلاوة السطحية إلى التفاعل الحي. كيف نتفاعل مع القرآن؟

1. تفاعل العقل: بأن تتدبر الآيات، وتسأل نفسك: ماذا تريد مني هذه الآية؟ كيف تغير من سلوكي؟ كيف توجه حياتي؟
2. تفاعل القلب: بأن تتأثر بالآيات، فتخضع للوعيد، وتشاق للوعيد، وتخضع للذكر، وتدفع للقصص.
3. تفاعل الجوارح: بأن يتحول فهمك إلى عمل، وعلمك إلى سلوك، وإيمانك إلى واقع معاش.

الدرس الثالث: القرآن كتاب علي... فتعامل معه بعلو

بما أن القرآن {لَعَلِّيْ}، فينبغي أن تتعامل معه بما يليق بعلوه:

- لا ترفع صوتك فوق صوت القرآن.
- لا تشغل عنه بمحادثة أو لهو.
- لا تقرأه في مكان نجس أو على غير طهارة.
- لا تجعله مجرد ديكور في بيتك أو سيارتك.
- لا تهجره هجرًا كليًا أو جزئيًا.

الدرس الرابع: القرآن كتاب حكيم... فاطلب الحكمة منه

وبما أن القرآن {حكيم}، فتعامل معه على هذا الأساس:

- اقرؤه لاستخراج الحكمة، لا لمجرد التلاوة.
 - ابحث فيه عن حلول لمشكلاتك، فهو الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه.
 - استخدمه كميزان تزن به كل فكر أو سلوك أو عادة.
 - رب أبنائك على أن القرآن هو مصدر الحكمة الأول.
- المحور الخامس

أبعاد الآيتين وأفاقهما في حياتنا المعاصرة

البعد المعرفي: العقلانية القرآنية مقابل العقلانية المادية

في عصرنا الحاضر، يتباهى الغرب بـ "العقلانية" التنويرية التي قطعت صلاتها بالوحي واعتمدت على العقل البشري وحده. ولكن انظر ماذا أنتجت هذه العقلانية: حروباً عالمية، وأزمات بيئية، وتفككاً أسرياً، وفراغاً روحياً، وتيهياً وجودياً...

أما "العقلانية القرآنية" التي تدعو إليها الآية {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} فهي عقلانية مختلفة تماماً: عقلانية تستند إلى الوحي، وتنطلق من الإيمان، وتستهدف سعادة الدارين. إنها ليست عقلانية ضد الدين، بل عقلانية مبنية من الدين، تجعل العقل يشتغل في فلك الوحي لا في فلك الهوى.

البعد المنهجي: الوضوح المنهجي في مواجهة غبش المعاصرة

إن هاتين الآيتين، وقد جاءتا بعد {وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ}، تؤكدان على منهجية الوضوح في الإسلام. القرآن مبين، وهو عربي لتدركه العقول، وهو عليّ لا غموض فيه ولا التباس. وهذه المنهجية الواضحة هي التي نواجه بها غبش الحضارة المعاصرة وضبابية أفكارها.

في زمن تتلاطم فيه الأفكار، وتتداخل فيه الثقافات، وتختلط فيه المفاهيم، يحتاج المسلم أن يكون واضحاً، صافي الرؤية، نقي العقيدة، مستنداً إلى كتاب مبين، عربي واضح، عليّ حكيم.

البعد الحضاري: قرآن عربي... وأمة عالمية

القرآن عربي اللغة، لكنه عالمي الرسالة. وهذه التركيبة الفريدة (خصوصية اللغة وعالمية الرسالة) هي التي تجعل من الإسلام ديناً قادراً على بناء حضارة إنسانية متنوعة الثقافات، متحدة القيم والمرجعية. فالعربية الفصحى كانت - عبر التاريخ - لغة العلم والحضارة لكل المسلمين على اختلاف ألسنتهم وألوانهم.

وإن إحياء هذا البعد الحضاري اليوم - بأن تستعيد العربية مكانتها كلغة علم وثقافة وحضارة - لهو من أعظم ما ينبغي أن نسعى إليه.

المحور السادس

كيف نحول هاتين الآيتين إلى واقع معاش؟

والآن، وبعد هذه الرحلة الطويلة في أعماق هاتين الآيتين الكريمتين، يأتي السؤال العملي: كيف نحول هذه المعاني إلى واقع معاش؟ كيف نجعل من هذه الآيات طاقة تبني الإنسان والمجتمع والحضارة؟

أولاً: على مستوى الفرد

1. جدد نيتك في قراءة القرآن: لا تقرأ القرآن لمجرد الثواب والأجر) وإن كان هذا مطلوباً، بل اقرؤه لتعقله وتفهمه وتطبيقه. استحضر قوله: {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} كلما فتحت المصحف.
2. تعلم العربية: إن كنت عربياً، فتعلم العربية الفصحى واغرس في أبنائك حبها. وإن كنت أعجمياً، فابذل جهداً لتعلم العربية لتتصل بالقرآن مباشرة، لا عبر الترجمة وحدها.
3. استشعر عظمة القرآن: كلما قرأت القرآن، تذكر أنه في أم الكتاب لديننا، وأنه {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، (هذا الاستشعار سيغير علاقتك بالقرآن تماماً).

ثانياً: على مستوى الأسرة

1. اجعل للقرآن مركزية في البيت: ليكن المصحف هو الكتاب الأول في بيتك، لا كتاباً على الرف يعلوه الغبار.
2. ربّ أبناءك على تعظيم القرآن: علمهم أن القرآن ليس كأي كتاب، بل هو كلام الله، وهو عليّ حكيم.
3. اربطهم بالعربية: علمهم العربية الفصحى، شوقهم إلى جمالها، اقرأ لهم الشعر العربي، اشرح لهم بلاغة القرآن.

ثالثاً: على مستوى المجتمع

1. نشر ثقافة التدبر: أن نتقل بالمجتمع من ثقافة "تلاوة القرآن" إلى ثقافة "تدبر القرآن".
2. إحياء اللغة العربية: دعم تعليم العربية، ونشر المحتوى العربي الجيد، ومواجهة تغول العاميات و اللغات الأجنبية على حساب العربية.
3. جعل القرآن مرجعية: أن نعود إلى القرآن كمصدر للتشريع والتوجيه في كل شؤون الحياة.

رابعاً: على مستوى الأمة والحضارة

1. استئناف المشروع الحضاري: إن أي مشروع حضاري إسلامي لا بد أن ينطلق من القرآن {لعلّيّ حكيم} ومنابعه.
2. مواجهة الحضارة المادية: التصدي لمشروع الحضارة المادية التي تريد أن تسحق قيمنا وهويتنا، ونحن مسلحون بالكتاب العليّ الحكيم.
3. تقديم البديل: أن نقدم للعالم البديل القرآني في السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق. المحور السابع

لمسات بيانية وبلاغية في الآيتين

لنقف معاً الآن عند بعض اللامسات البيانية والبلاغية في هاتين الآيتين، لنزداد إعجاباً بالقرآن، وليزداد يقيننا بأنه {لعلّيّ حكيم}.

اللمسة الأولى: الجمع بين الغيبة والتكلم

في الآية الأولى: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا، نَجِدُ ضَمِيرَ التَّكْلَمِ (إِنَّا). وفي الآية الثانية: {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّيّ حكيم}، نجد الجمع بين ضمير الغيبة (وإنه) وضمير التكلم (لدينا، إِنَّا). وهذا الانتقال من غيبة إلى تكلم هو من روائع الأسلوب القرآني: فالقرآن غائب عنا بذاته العلية (وإنه في أم الكتاب) ، لكن الله حاضر معنا بقدرته ورحمته (لدينا، إِنَّا). إنه أسلوب يجمع بين الهيبة والقرب، بين الجلال والأنس.

اللمسة الثانية: التأكيدات المتتالية

تأمل في هذه التأكيدات المتتالية:

- . {إِنَّا} للتوكيد.
- . اللام في {لَعَلَّكُمْ}.
- . {وَإِنَّهُ} والجملة الاسمية تفيد الثبات.
- . اللام في {لَدَيْنَا} للاختصاص.
- . اللام في {لَعَلِّيّ} للتوكيد.
- . الجملة الاسمية {لَعَلِّيّ حكيم} للدلالة على الثبات.

كل هذه المؤكدات تجعل المعنى يقر في القلب، ويثبت في العقل، ويرسخ في الوجدان. إن القرآن لا يعرض أفكاراً قابلة للنقاش، بل يفرض حقائق ثابتة مؤكدة، تستقر في النفس فتريحها وتسكنها.

اللمسة الثالثة: التناسب الصوتي

استمع إلى إيقاع الآيتين:

- . {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا}: المد في (إِنَّا) و(قرآناً) يعطي راحة للسمع.
- . {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}: التشديد في (لعل) ثم الإتيان بالفعل (تعقلون) يعطي قوة.

· {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا}: التدرج الصوتي من {إنه} إلى {لدينا} عجيب.
· {لَعَلِّيْ حَكِيمٌ}: الختم بالحكيم الذي ينتهي بحرف الميم، الذي هو ختام الآية الأولى {حم}، وكأن هناك رابطاً صوتياً بين أول السورة وهذا الوصف.
المحور الثامن

ربط الآيتين بما قبلهما وما بعدهما

لا يمكن فهم الآيتين بمعزل عن السياق. دعنا ننظر كيف ترتبط هاتان الآيتان بما قبلهما وما بعدهما.

الارتباط بما قبل: القسم بالكتاب المبين

الآية الأولى في السورة: {حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِين}. ثم تأتي هاتان الآيتان لتفسرا لنا: ما هذا الكتاب المبين؟ إنه قرآن عربي، أصله في أم الكتاب، عليّ حكيماً. وهكذا جاءت الآيتان لتفصيل ما أجمل في الافتتاح.

الارتباط بما بعد: مواجهة المشركين

الآية التي تليهما: {أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ}. وهنا يتضح وجه آخر من وجوه الربط: إن هذا القرآن العظيم - وهو بهذه الصفات الجليلة - هل نترككم ونعرض عن تذكيركم به ونحن نرى إعراضكم وإسرافكم؟ كلا! إنه سيمضي في تذكيركم وإنذاركم، لأن شأنه أعظم من أن يترك، ولأن مهمته أسمى من أن تهمل.
الخاتمة: ماذا تريد هاتان الآيتان منا؟

أيها الأخ الكريم، أيها القارئ المتفاعل... لقد أطلنا الوقوف مع هاتين الآيتين، ولكن - لعمر الحق - إنهما تستحقان أكثر من هذا وأكثر. إنهما آيتان تفتحان لك آفاقاً من الفهم، وتصنعان لك علاقة جديدة مع كتاب الله.

والآن... وقد أنهينا رحلتنا معهما، دعني أسألك مرة أخرى: ماذا تريد هاتان الآيتان منك؟

1. تريدان منك أن تعقل القرآن: لا أن تقرأه فقط. أن تفهمه، أن تتدبره، أن تجعله نبراس حياتك.
2. تريدان منك أن تعرف قدر هذا الكتاب: إنه ليس كأي كتاب، إنه {في أم الكتاب لدينا}، إنه {لعليّ حكيماً}.
3. تريدان منك أن تفخر بكتابك: في مواجهة زخرف الدنيا وبريق المادية، تريدان منك أن تقول: أنا عندي ما هو أعظم، أنا عندي كتاب الله العليّ الحكيماً.
4. تريدان منك أن تعتز بلغتك: العربية ليست مجرد لغة، إنها لغة الوحي، لغة القرآن، وعاء الحكمة الإلهية.
5. تريدان منك أن تحول الإيمان إلى عمل: أن تجعل من تعقلك للقرآن سلوكاً، ومن فهمك له تطبيقاً، ومن قراءتك له تغييراً في حياتك.

فهل أنت فاعل؟

المبحث الثالث

تفسير الآيات (5-8) من سورة الزخرف

{أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ . وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ . وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ}

حين يتحول الإعراض البشري إلى لحظة حسم إلهي

رحلة في أعماق الرحمة والإنذار وسنن التاريخ

تقدمة لا بد منها: موقع الآيات من السورة ومسارها التربوي

قف معي لحظة قبل أن تلج بنا إلى رحاب هذه الآيات الأربع الكريمة. لا تتعجل، ولا تدع الشوق وحده يدفعك، بل دعني أرسم لك الخريطة أولاً ، لتعرف أين تقف قدمك، وإلى أين نحن ذاهبون.

لقد كنا في الآيات الأولى من سورة الزخرف أمام إعلان عظيم: {حم . والكتاب المبين}، ثم جاءنا الجواب الشافي: {إنا جعلناه قرآنا عَرَبِيًّا لعلَّكُمْ تعقلونَ . وإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ}. وهكذا تكشفت لنا عظمة المصدر، وجلال المن-زل، وعلو المن-زل، ووضوح الغاية.

والآن وقد تقرر هذا كله، وقد ثبت أن هذا القرآن ليس كلام بشر بل هو تنزيل من حكيم حميد، يأتي السؤال المفاجئ، يأتي الاستفهام الذي يهز الوجدان: {أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ}؟!

إنه سؤال يتحول في مسامع المتدبر إلى صرخة يقظة، إلى هزة عنيفة للقلب الغافل، إلى إعلان أن القرآن لم ينزل ليكون مجرد نص مقدس نتلوه ونتبرك به، بل هو رسالة وبلاغ وإنذار، ولن تسكت عن المعرضين، ولن تتركهم في غفلتهم سدى.

وهكذا تنتقل بنا السورة الآن من بيان عظمة القرآن إلى بيان مهمة هذا القرآن، ومن إثبات مصدريته إلهية إلى إعلان فاعليته في مواجهة المعرضين والمكذبين. إنها نقلة من "الماهية" إلى "الوظيفة"، ومن "الصفات" إلى "المهمة".

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها

دعني الآن أستوقفك لأضع أمامك الأفكار المركزية التي تنبض بها هذه الآيات الكريمة. إنني لا أريدك أن تقرأ هذه الأفكار كما تقرأ أي قائمة جافة، بل أريد أن تجعل كل فكرة منها تطرق باب قلبك، وتساءلك: أين أنت مني؟

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيات الكريمة:

1. استحالة ترك المعرضين دون إنذار: {أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا} (هو استفهام إنكاري ينفي أن يكون الله قد ترك هؤلاء المعرضين دون تذكير وإنذار. إنها رحمة تقتحم جدران الإعراض، ونعمة تلاحق المدبرين).
2. الإسراف في الذنوب سبب للإعراض: {أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ} (يكشف عن العلة الحقيقية وراء إعراضهم: إنه الإسراف، أي تجاوز الحدود في المعاصي والذنوب، مما جعل قلوبهم تغلق أبوابها دون الحق).
3. سنة الابتلاء بالتكذيب والاستهزاء: وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ {تقرر قانوناً تاريخياً ثابتاً: أن طريق الأنبياء محفوف بالاستهزاء والتكذيب، وأن الأمة المؤمنة لا تخوض معركتها وحدها، بل هي جزء من موكب الأنبياء عبر العصور.
4. سنة الإهلاك للمكذبين: فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا {تعلن أن القوة المادية التي تبطر بها المكذبون لا تغني عنهم شيئاً حين يأتي أمر الله، فمن كان أشد منهم بطشاً قد أهلكوا.
5. استمرارية السنن الإلهية: وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ {يؤكد أن هذه السنن) التكذيب ثم الإهلاك (ماضية ثابتة، لا تحابي أحداً، ولا تتوقف عند جيل دون جيل.

مقاصد الآيات وأهدافها:

1. تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين: أن يشعروا بأنهم ليسوا بدعاً من الرسل، وأن ما يلقونه من تكذيب واستهزاء هو طريق الأنبياء قبله.
 2. إنذار المعرضين وتحذيرهم: أن يشعروا بأن إعراضهم واستهزاءهم لن يمنع عنهم عذاب الله، كما لم يمنع عن الأمم السابقة.
 3. ترسيخ سنن الله في التدافع: أن يفهم المؤمن أن لله سنناً لا تتبدل ولا تتحول، وأن قراءة التاريخ بهذه العين القرآنية تمنحه بصيرة وثباتاً.
 4. إعلان أن الرحمة تقتضي البيان: أن رحمة الله بالعباد تقتضي إقامة الحجة عليهم، وإنذارهم، لا تركهم في غفلتهم.
- المحور الأول

{أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ}

حين تقتحم الرحمة الإلهية جدران الإعراض

غوص في أعماق السؤال القرآني الذي يغير حياتك

وقفة مع الأسلوب: هكذا تسأل الرحمة!

انظر إلى صدر الآية: {أَفْتَضْرِبُ}. إنها تبدأ بهمزة الاستفهام، ثم فاء العطف، ثم الفعل المضارع "نضرب" المسند إلى ضمير الجمع "نا" الدال على التعظيم. إنه أسلوب فريد يجمع بين الاستفهام والعطف والتعظيم، فيخلق في النفس شعوراً معقداً مركباً من الرهبة والرجاء، من السؤال والجواب، من العتاب والرحمة.

ثم تأمل كلمة {صَفْحًا}... إنها تعني الإعراض والترك والانصراف. تقول: صفحت عن فلان، أي أعرضت عنه وتركته. ولكن "الصفح" في اللغة له ظلال أخرى: فالصفح هو الجانب، وصفحة الشيء هي سطحه. فكان الآية تقول: أفنعرض عنكم ونترككم جانباً، فلا نذكركم ولا ننذكركم ولا نقيم عليكم الحجة؟!

والآن... ألا تشعر بشيء يتحرك في قلبك؟ ألا تحس أن السؤال موجه حقاً؟ إنك تسمع ربك - نعم ربك الذي خلقك ورزقك - يقول: "أفترككم ونعرض عنكم من أجل أنكم أسرفتم؟!" إنه سؤال لو تدبرته حقاً لأحدث فيك زلزالاً.

دلالة الاستفهام: النفي المؤكد المشوب بالعتاب

لنقف معاً عند قوله {أَفْتَضْرِبُ}... هذا الاستفهام ليس استفهاماً حقيقياً يطلب الجواب، بل هو استفهام إنكاري، أي هو نفي مؤكد. فكان الآية تقول: "لن نضرب عنكم الذكر صفحاً، لن نترككم، لن نعرض عنكم". ولكن لماذا صيغ بصيغة الاستفهام؟ لماذا لم يقل: "لن نضرب عنكم الذكر صفحاً" مباشرة؟

لأن الاستفهام هنا يحمل عتاباً خفياً، وحثاً دقيقاً، وتنبهياً عميقاً. إنه يجعلك تسأل نفسك: "لماذا سأل هذا السؤال؟ هل يستحق إسرافي في الذنوب أن يتركني الله؟ هل من الممكن حقاً أن يضرب الله عني الذكر صفحاً؟" وهكذا يجعلك الاستفهام طرفاً في الحوار، شريكاً في التفكير، باحثاً عن الجواب بنفسك.

وهنا درس بالغ الأهمية لكل داعية ومعلم ومربي: استخدم أسلوب الاستفهام في خطابك! لا تلقن الناس إلقاءً، بل حاورهم ليسألوا هم أنفسهم! فالاستفهام يوقظ العقل، ويحرك الوجدان، ويجعل المتلقي يشارك في الوصول إلى الحقيقة. "الذكر": اسم جامع للقرآن ومعانٍ أعمق

الآن... ما هو "الذكر" الذي لا يضرب عنهم صفحاً؟ "الذكر" هو القرآن الكريم بلا شك، وقد وصف به في مواضع كثيرة: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}. ولكن لماذا سمي القرآن "ذكراً"؟

1. لأنه يذكر الناس بالله بعد أن أنستهم الدنيا إياه.
2. لأنه يذكر الناس بعهد الفطرة الذي نقش في أعماقهم.
3. لأنه يذكر الناس بالميعاد ويوم الحساب والجزاء.
4. لأنه ذكر وشرف للأمة التي تؤمن به: {وَأَنَّهُ لَذِكْرُ لَكَ وَلِقَوْمِكَ}.
5. لأنه ذكر بمعنى العظة والعبرة، فهو يعظ الناس ويذكرهم بعواقب الغفلة.

فإذا كان القرآن "ذكراً" بهذه المعاني كلها، فكيف يترك الله الناس دون هذا الذكر؟ كيف يحرمهم منه؟ إنها رحمة الله التي تأبى أن تترك العباد في غفلتهم، حتى وإن أسرفوا وطغوا وبغوا.

(أن كنتم قوماً مُسْرِفينَ): تشخيص الداء قبل وصف الدواء

انظر كيف ربطت الآية بين الإعراض عن الذكر وبين الإسراف: {أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفينَ}. إنه تشخيص دقيق للمشكلة. فالمعرضون عن الذكر ليسوا مجرد ناسين أو غافلين فحسب، بل هم "مسرفون"، أي متجاوزون للحدود، خارجون عن طور العبودية، غارقون في المعاصي والذنوب.

"الإسراف" في اللغة هو تجاوز الحد، ومجاوزة القصد. والمسرف هو الذي يفرط في الشيء، يتجاوز به حده. وفي السياق القرآني، الإسراف يشمل:

- الإسراف في المعاصي والذنوب.
- الإسراف في الكفر والضلال.
- الإسراف في الاستكبار والعتو.

· الإسراف في إيداء المؤمنين والاستهزاء بهم.

وهنا معنى دقيق: إن الآية تربط بين الحالة النفسية (الإسراف في الذنوب) وبين الحالة الفكرية (الإعراض عن الذكر). فالسرف في الشهوات والملذات يعرض عن الحق، لأن الحق يقيد شهواته، ويحد من إسرافه، ويكبل نزواته. وهذا يفسر لك - يا صاحبي - لماذا كان أكثر الناس إعراضاً عن دعوة الرسل هم المترفون المتنعمون المسرفون.

رسائل ودروس وتوجيهات من الآية الكريمة

الرسالة النفسية: لا تيأس من رحمة الله مهما أسرفت

يا من أثقلته الذنوب، يا من أسرف على نفسه بالمعاصي، يا من يظن أن الله قد تركه وطرده من رحمته... اسمع هذا النداء القرآني جيداً: {أَفَتَضْرَبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَحْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ}. إنه نداء يقول لك: "لن نتركك، لن نعرض عنك، حتى وإن أسرفت! بل سنمضي في تذكيرك، وفي إرسال الرسل إليك، وفي إنزال الكتب لأجلك، وفي فتح باب التوبة أمامك".

ألا تشعر بأن قلبك أخف الآن؟ ألا تشعر بأن حملاً ثقيلاً قد انزاح عن صدرك؟ إن إسرافك ليس سبباً ليأسك من رحمة الله، بل هو سبب لأن تسارع إلى التوبة والإنابة. إن الله لا يضرب عنك الذكر صفحاً، فهل تضرب أنت عن التوبة صفحاً؟!

الرسالة التربوية: المربي الذي لا ييأس

أيها المربي، أيها الأب، أيها المعلم... لقد رأيت أن الله لا يضرب عن المسرفين الذكر صفحاً، فهل تضرب أنت عن أبنائك وتلاميذك المخطئين صفحاً؟ هل تتركهم لأخطائهم وتيأس من إصلاحهم؟ كم من شاب ضل الطريق فتركه أهله ومعلموه حتى تردى في الهاوية! وكم من فتاة أخطأت فأداروا لها ظهورهم فغرقت في الضياع!

تعلم من هذه الآية أن دورك كمربي هو أن تواصل التذكير والتعليم والنصح، حتى وإن رأيت من تلا ميذك إسرافاً في الخطأ وتجاوزاً في التقصير. لا تضرب عنهم صفحاً، ولا تيأس من هدايتهم، فإن الذي خلقهم لم ييأس منهم، أفتبلى من اليأس ما لم يبلغه رب العالمين؟!

الرسالة الفكرية: الذنب يقود إلى الإعراض الفكري

لاحظ معي هذه القاعدة الفكرية التي تكشفها الآية: الإسراف في الذنوب يؤدي إلى الإعراض عن الحق. وهذا يعني أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين سلوك الإنسان العملي وقناعاته الفكرية. فالمنغمس في الشهوات سيجد أن الحقائق الدينية تزعجه وتقض مضجعه، ولذا فهو يختار الإعراض عنها بدل مواجهتها.

وهذا يعطينا تفسيراً لظاهرة الإلحاد والمادية في عصرنا. إنها ليست مجرد أزمة فكرية بحتة، بل هي أزمة روحية وأخلاقية كذلك. إن {أَفَتَضْرَبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَحْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ} تكشف عن جدلية الذنب والإعراض، وتفتح أمامنا أبواباً لفهم طبيعة المعركة الفكرية المعاصرة.

ماذا تريد هذه الآية منك أنت بالذات؟

والآن سأخرج من العموميات وأتوجه إليك أنت بالذات. أنت... نعم أنت أيها القارئ. هل تسمع نداء هذه الآية؟

هذه الآية تريد منك أن تدرك الآتي:

1. أن إسرافك ليس نهاية المطاف: مهما تكن ذنوبك، ومهما يبلغ إسرافك، فإن باب التذكير مفتوح، وباب التوبة مفتوح، وباب القرآن مفتوح. لا تجعل إسرافك يمنعك من العودة إلى الله.
2. أن إعراضك عن القرآن سببه إسرافك: أسأل نفسك بصدق: لماذا لا أقرأ القرآن؟ لماذا لا أتدبره؟ لماذا لا أطبقه في حياتي؟ ألعن ذلك لأني غارق في إسراف يمنعي من الاقتراب من نور الذكر؟!
3. أن الله يتابعك برحمته رغم إعراضك: ألا تشعر بالخجل وأنت تقرأ هذه الآية؟ الله يواصل تذكيرك، ويرسل إليك الآيات تلو الآيات، والكتب تلو الكتب، والدعاة تلو الدعاة... وأنت مستمر في إعراضك؟! أ لا تستحي من هذا الإله الرحيم؟!

المحور الثاني

{وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ . وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}

سنة الابتلاء بالاستهزاء... وسلوى المؤمنين في طريق الدعوة

{وَكَمْ أَرْسَلْنَا}: نظرة إحصائية تحمل في طياتها التثبيت

انتقل معي الآن من ذروة الاستفهام الإنكاري إلى الآية التالية: {وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ}. إنها تنقلك نقلة عجيبة: من عمق العتاب إلى رحابة التاريخ، ومن حرارة المواجهة إلى برودة الإحصاء والتأمل.

تأمل كلمة {كم}... إنها تفيد الكثرة، كأنه يقول: "كثيراً ما أرسلنا". وهذا الأسلوب - أسلوب الإخبار بكثرة الإرسال - يحمل في طياته تثبيتاً للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. إنه يقول لهم: انظروا كم أرسلنا من نبي قبلكم! إنكم لستم وحدكم في هذه المعركة! إن لكم سلفاً طويلاً من الأنبياء والمرسلين الذين ساروا على هذا الطريق، وقاسوا ما تقاسون، وصبروا كما تصبرون.

وهنا درس نفسي بالغ الأهمية لمن يحمل هم الدعوة والإصلاح: إن شعورك بأنك لست وحدك في هذه المعاناة كفيلاً بأن يخفف عنك ثقل الهم، ويهون عليك وطأة الطريق. لهذا يكثر القرآن من قصص الأنبياء، ليس للتسلية فحسب، بل لتثبيت قلب النبي والمؤمنين، ولإعطائهم شعوراً بأنهم جزء من موكب كريم ممتد عبر التاريخ.

(في الأولين): ارتباط بأمة الأنبياء الممتدة عبر الزمان

"الأولون" هم الأمم السابقة، والقرى الخالية، والأقوام البائدة. وهكذا يربط الله نبيه والمؤمنين بأولئك الرسل الكرام الذين سبقوهم، ويجعلهم حلقة في سلسلة الأنبياء الممتدة عبر التاريخ. فمحمد صلى الله عليه وسلم ليس بدعاً من الرسل، والمؤمنون ليسوا بدعاً من الأمم، وما يلقونه من تكذيب واستهزاء ليس ظاهرة جديدة، بل هو سنة ماضية في الأولين.

ألا تشعر - يا من تحمل هم الدعوة - بشيء من العزاء وأنت تقرأ هذه الآية؟ ألا تشعر بأنك تسير على درب إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام؟ ألا تشعر بأنك لست وحيداً في معركتك ضد الباطل، بل خلفك موكب من الأنبياء، وحولك جند من الملائكة، وفوقك رب العالمين؟

{وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}: سنة الابتلاء بالاستهزاء

والآن تأمل هذه الآية التي تكاد تكون قانوناً: {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}. أسلوب حصص: "وما يأتيتهم... إلا كانوا...". كأن الاستهزاء كان حتمياً، قدراً لازماً، نتيجة مضمونة كلما جاء قومهم نبي.

لماذا الاستهزاء بالذات؟ لماذا كان أكثر سلاح يستخدمه المكذبون هو الاستهزاء؟ لأن الاستهزاء هو أخطر أسلحة الحرب النفسية. إنه:

- يحطم الروح المعنوية: فحين يسخر الناس منك، تشعر بصغر نفسك، وتبدأ في الشك في قيمتك وقيمة ما تحمل.
- يشوه الصورة: فالاستهزاء يصور الداعية في صورة المهرج أو الأحمق، مما يبعد الناس عنه وعن دعوته.
- يخفي ضعف المستهزئ: فالكثير من المستهزئين يخفون خلف سخريتهم عجزاً عن المواجهة الفكرية، وجنباً عن الحوار الجاد.

وأنت... هل تعرضت للاستهزاء بسبب تمسكك بدينك؟ هل سخر منك زملاؤك بسبب تدينك؟ هل استهزأ بك أهلك بسبب التزامك؟ لا تحزن! إنها سنة ماضية، وطريق الأنبياء قبلك، ودليل على أنك على الحق. فالباطل لا يستطيع المواجهة الفكرية، فيلجأ إلى الحرب النفسية.

رسائل ودروس وتوجيهات من الآيتين الكريمتين

الرسالة الفكرية: فهم طبيعة المعركة وأسلحة الباطل

هاتان الآيتان تعطيانا درساً فكرياً عظيماً في فهم طبيعة المعركة بين الحق والباطل. الباطل لا يواجه الحق بالأدلة والبراهين - لأنه لا يملكها - بل يلجأ إلى سلاح الاستهزاء والتشويه. وهذا يعني أن أي دعوة إصلاحية جادة يجب أن تتوقع هذا النوع من المواجهة، وألا تنهار حين تتعرض له.

كم من داعية ومصلح صدمه الاستهزاء والسخرية في بداية طريقه، فتراجع وأحجم! وكم من شاب مستقيم انهزم أمام سخريات زملائه فخلع حجابيه أو أطلق لحيته! إن فهم هذه السنة يحصنك ضد هذا الأسلوب الحقير من المواجهة.

الرسالة التربوية: إعداد النفس لمواجهة الأذى

أيها المرابي، إن كنت تربّي جيلاً على حمل الدعوة، فلا تنس أن تعلمهم أن طريق الأنبياء محفوف بالأذى والاستهزاء. لا ترسم لهم صورة وردية للداعية المحبوب من الجميع، بل علمهم أن المؤمن مبتلى، وأن المصلح مستهدف، وأن العاملين للإسلام سيواجهون من الحرب النفسية أشدها.

وهكذا تعدّهم إعداداً واقعياً، فيثبتون حين تأتي العواصف، ويصبرون حين يشتد الأذى، لأنهم كانوا يتوقعون ذلك، بل كانوا يعدّون له عدته.

الرسالة النفسية: طمأنينة القلب بأنك على الحق

من أعظم ما يحدثه الاستهزاء في النفس البشرية أنه يثير الشك في قناعاتها. فالإنسان بطبيعته يحب أن يكون مقبولاً، ويكره أن يكون موضع سخرية. ولذا فإن كثرة الاستهزاء به قد تدفعه للتساؤل: "هل أنا على خطأ؟ لماذا يسخرون مني؟ هل في ما أحمله من أفكار ودعوة شيء يستحق السخرية؟".

وهنا تأتي الآية لترد على هذه الشكوك، وتقول للمؤمن: إن استهزاءهم بك ليس دليلاً على بطلان ما تحمله، بل هو دليل على صحته! أفهم المعادلة بالمقلوب: إنهم لم يستهزئوا بك لأنك على باطل، بل لأنهم على باطل، ولأن الباطل لا يملك إلا سلاح السخرية! الأنبياء كلهم استهزئ بهم، فهل فيهم من كان على باطل؟!

المحور الثالث

{فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ}

عاقبة المكذبين وسنة الله التي لا تتبدل

{فَأَهْلَكْنَا}: نهاية حتمية للمكذبين المستهزئين

بعد أن بينت الآيات السابقة سنة الاستهزاء بالأنبياء، تأتي الفاء في قوله {فَأَهْلَكْنَا} لترتب النتيجة على المقدمة. نعم، لقد استهزؤوا، نعم لقد كذبوا، نعم لقد أسرفوا في الإعراض... فأهلكناهم.

"فأهلكنا" كلمة موجزة، لكنها تحمل في طياتها قصصاً مروعة، وأحداثاً جساماً، وعذابات لا توصف. إنها كلمة تختزل تاريخ الأمم البائدة: قوم نوح أغرقوا، وعاد أهلكوا بالريح، وثمود أخذتهم الصيحة، وفرعون غرق هو وجنوده، وقوم لوط أمطرت عليهم حجارة من سجيل... هكذا وكما ترى، فإن سنة إهلاك ماضية، لا تحابي أحداً، ولا تجامل أمة.

{أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا}: معيار القوة ليس هو الحاسم

وتأمل الآن قوله: {أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا}. إن كفار قريش - وهم المخاطبون الأوائل بالآية - كانوا يرون في أنفسهم قوة ومنعة، وكانوا يغترون ببطشهم وأموالهم وأولادهم. فتأتي الآية لتقلب هذه الموازين، وتقول لهم: "من هم أشد منكم بطشاً قد أهلكوا، فماذا أنتم بفاعلين؟!".

إن البطش المادي، والقوة الاقتصادية، والمنعة السياسية... كل ذلك لا يغني شيئاً حين ينزل أمر الله. إن المعركة ليست معركة عضلات وأموال وقدرات مادية، بل هي معركة إرادات وسنن إلهية. وهذا يعطينا - معشر المؤمنين - طمأنينة عجيبة في عصر يتفوق فيه أعداء الحق علينا في القوة المادية. إنهم ليسوا بأشد بطشاً من عاد وثمود وفرعون... وقد أهلكهم الله.

(وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ): السنن الإلهية الماضية

"ومضى مثل الأولين" أي مضت قصتهم، ومضت سنتهم، ومضى عبرتهم. إن "المثل" هنا هو القصة و العبرة والموعظة. وقد مضت، أي أصبحت شيئاً ماضياً محفوظاً، يقرؤه الناس، ويعتبر به المعتبرون.

ولكن "مضى" لا يعني أنها انتهت وانقطعت، بل يعني أنها استقرت كنموذج ثابت، كقانون ماض في فعل الله في خلقه. فما حدث للأولين سيحدث للآخرين إن هم سلكوا سبيلهم. إنها سنن لا تتبدل ولا تتحول، يراها الناس في كتاب الله وفي صفحات التاريخ، ليأخذوا منها العبرة والعظة.

رسائل ودروس وتوجيهات من الآيتين الكريمتين

الرسالة الفكرية: فهم سنن الله في التاريخ

إن الآية تدعونا إلى قراءة التاريخ قراءة واعية، نستنبط منها السنن الإلهية. فالتاريخ ليس مجرد حوادث عشوائية، بل هو مسرح للسنن الربانية: سنة الاستدراج، سنة الإملاء، سنة الإهلاك، سنة النصر والتمكين... والتي فهم هذه السنن فقد امتلك مفاتيح فهم التاريخ، ومن جهلها فقد تخبط في ظلمات الحوادث.

الرسالة النفسية: لا تخف من قوة الباطل

كم مرة سيطر الخوف على قلبك حين رأيت قوة الظالمين وطغيانهم؟ كم مرة تساءلت: "كيف لنا أن نواجه هؤلاء وهم يملكون كل هذه القوة ونحن لا نملك شيئاً؟". اسمع الجواب من الآية: {فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا}. إن قوتهم لا تخيف الله، وإن بطشهم لا يمنع عنهم العذاب، وإن أموالهم لا تغني عنهم شيئاً. فلماذا تخافهم إذن؟! خف من الله، ولا تخف منهم، واستعن بالله، ولا تستضعف نفسك أمامهم.

المحور الرابع

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً: مواجهة الإسراف المعاصر بالذكر

الآية الأولى تحدثنا عن قوم مسرفين كانوا سبباً في إعراضهم عن الذكر. ونحن اليوم نعيش في عصر الإسراف الأعظم: إسراف في المادة والاستهلاك، إسراف في الشهوات والملذات، إسراف في الكفر والإلحاد، إسراف في حرب الدين والقيم. فماذا يفعل الذكر (القرآن) في مواجهة هذا الإسراف؟

مهمتنا اليوم هي أن نحمل القرآن إلى هذا الواقع المسرف، وألا نبأس من هداية الناس. نعم، إنهم مسرفون... ولكن الله لم يضرب عنهم الذكر صفحاً، بل أرسلنا وإياك وأمثالك لدعوتهم إلى الله. فهل أنت مستعد لتؤدي هذه المهمة؟

ثانياً: الصبر على الاستهزاء المعاصر

اليوم، استجدت وسائل جديدة للاستهزاء بالدين وأهله: الأفلام والمسلسلات، وبرامج التلفزة، ومواقع التواصل الاجتماعي، والنكات والرسوم الكاريكاتورية... المؤمنون يتعرضون لحملات تشويه واستهزاء غير مسبوق في حجمها وانتشارها. ولكن سنة الله واحدة لا تتغير: {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}. فلا تبتئس، ولا تحبط، واعلم أنك في موكب الأنبياء، وأن سخريتهم منك دليل على أنك تسير على الطريق الصحيح.

المحور الخامس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: جدلية الإسراف والإعراض

تفصح الآية عن مفهوم فكري خطير: أن الفساد الأخلاقي (الإسراف) يؤدي إلى الفساد الفكري (الإلحاد عن الحق). وهذا يفسر كثيراً من ظواهر الإلحاد واللا دينية في عصرنا. إنها ليست مجرد أزمة

أدلة وبراهين، بل هي أزمة شهوات وأهواء. وبالتالي فإن معالجتها لا تكون بالمنطق والفلسفة وحدها، بل بتزكية النفوس وتربية القلوب.

المفهوم النفسي: المناعة ضد الاستهزاء

إن فهم سنة الاستهزاء بالأنبياء يمنحك مناعة نفسية عجيبة. فحين تدرك أن الاستهزاء هو قدر الأنبياء، فإنك لن تنهار عندما تسخر منك الناس. ستبتسم في وجه السخرية، وتقول في نفسك: "مرحباً بسنة الأنبياء! مرحباً بالطريق الممتد من آدم إلى محمد!". إن هذا الفهم يحول الاستهزاء من مصدر ألم إلى مصدر فخر وعزة.

المفهوم التربوي: التربية على الصبر والتوقعات الواقعية

تربي الآيات المربين والدعاة على أن يكونوا واقعيين في توقعاتهم. ليس المطلوب أن يكون المجتمع كله طيعاً مستجيباً، ولا أن يكون الناس كلهم محبين مقدرين. هذه ليست سنة الله في الدعوات. المطلوب هو أن تصبر وتثبت، حتى يأتي نصر الله، وتكون النتيجة الحتمية: إهلاك المعاندين، ونصر المؤمنين.

المحور السادس

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: مواصلة التذكير مهما تكن الظروف

الله يريد منا أن نستمر في تذكير الناس، في دعوتهم، في نصحهم، وألا نياس مهما رأينا من إعراض وإسراف. فكما أنه لم يضرب عنهم الذكر صفحاً، فكذلك نحن يجب ألا نضرب عنهم النصح صفحاً.

الإرادة الثانية: الثقة المطلقة في سنن الله التي لا تحابي أحداً

الله يريد منا أن نثق أن له سنناً لا تتبدل: سنة للإعراض، وسنة للإهلاك، وسنة للنصر. وهذه السنن لا تحابي جيلاً "دون جيل"، ولا أمة دون أمة. فمن سلك طريق المعرضين ناله ما نالهم، ومن سلك طريق المؤمنين ناله ما نالهم.

الإرادة الثالثة: الانتقال من القراءة إلى الاعتاض

{وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ} ليس مجرد إخبار، بل هو دعوة للاعتاض. فهل اعتضنا نحن بمثل الأولين؟ هل قرأنا قصصهم واستخرجنا منها العبرة؟ أم أننا نقرأها كقصص تاريخية مجردة، لا علاقة لها بواقعنا؟!

المحور السابع

أبعاد الآيات وآفاقها

البعد المعرفي: بناء وعي تاريخي سنني

تعلمنا الآيات أن التاريخ ليس عبثاً، بل هو مسرح لسنن الله. ومن يفهم هذه السنن يمتلك رؤية واضحة للمستقبل، ويعرف أن العقوبة للمتقين مهما طال ليل الباطل.

البعد المنهجي: الجمع بين الترغيب والترهيب

الآيات تجمع في منهجية واحدة بين الترغيب (بإظهار رحمة الله التي لا تترك المسرفين) والترهيب (بذكر إهلاك المكذبين). وهذا المنهج هو الذي يبني الشخصية الإيمانية المتوازنة.

البعد الحضاري: حماية الأمة من الانهيار

إن وعي الأمة بهذه السنن يحميها من الانهيار. فحين تعلم أن الإسراف يؤدي إلى الإعراض، والإعراض يؤدي إلى الهلاك، فإنها تسارع إلى تزكية نفسها، وإصلاح مجتمعتها، والعودة إلى كتاب ربها.

المحور الثامن

تحويل الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

المسار الأول: بناء الإنسان الواثق بربه

- اجعل الآيات تمنحك ثقة بأن الله لن يتركك.
- اجعلها تمنحك مناعة ضد الاستهزاء.
- اجعلها تورثك طمأنينة بأن العاقبة للمتقين.

المسار الثاني: بناء المجتمع الصابر المحتسب

- ربّ المجتمع على الصبر على الأذى.
- انشر ثقافة التضحية والفداء المستندة إلى فهم السنن.
- حصن المجتمع ضد حرب الشائعات والاستهزاء بسنة الأنبياء.

المسار الثالث: بناء الحضارة القائمة على الوحي

- اجعل القرآن) الذكر (هو الأساس الذي تبني عليه الحضارة.
- استخدم السنن الإلهية كدليل إرشادي في مسيرة البناء الحضاري.
- لا تبهرق قوة المادة والباطل، فمن هو أشد بطشاً قد هلك.

المحور التاسع

دور الآيات في البناء والتنمية

دورها في البناء الفكري:

مدّ الأمة بفهم دقيق لطبيعة المعركة بين الحق والباطل، وبأسباب الإعراض عن الحق، وبسنن الله في الإهلاك والنصر.

دورها في البناء النفسي:

تثبيت قلوب المؤمنين، وتقوية عزائمهم، ومنحهم الثبات في وجه الاستهزاء والسخرية.

دورها في البناء الاجتماعي:

صناعة مجتمع واثق بربه، صابر على البلاء، واثق من العاقبة، لا ينهار أمام التحديات.

المحور العاشر

كيف تحول الآيات إلى واقع معاش؟

الخطوة الأولى: واصل التذكير ولا تيأس

في بيتك... مع زوجتك وأبنائك... في عملك... مع زملائك... كن مذكراً بالله، واعلم أن الإسراف ليس مبرراً لتركهم.

الخطوة الثانية: اصبر على السخرية

حين يسخر منك الآخرون، تذكر أنك في طريق الأنبياء، وابتسم، وادعُ الله لهم بالهداية.

الخطوة الثالثة: تأمل التاريخ

اقرأ قصص الأولين في القرآن، وتأمل كيف أهلك الله من هم أشد بطشاً، وازدد ثقة بأن العاقبة للفقوى.

الخطوة الرابعة: لا تنخدع بقوة الباطل

إذا رأيت بطش الظالمين، وجبروت المفسدين، فتذكر: {فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا}. إنها مجرد أيام وتمضي.

خاتمة: العودة إلى الذكر... طريق النجاة الوحيد

أيها القارئ الكريم...

لقد قطعنا رحلة عميقة مع هذه الآيات الأربع الكريمة، من أعماق الاستفهام الإلهي: {أَفَتَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا} إلى قمة القصص التاريخي: {فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا}. لقد عشنا معاً في رحاب الرحمة التي لا تترك المسرفين، ومع سنة الابتلاء بالاستهزاء، ومع قانون الإهلاك الذي لا يحابي أحداً.

والسؤال الذي أريد أن أتركك معه الآن هو: أين أنت من هذه الآيات؟ أين أنت من الذكر؟

هل أنت من المسرفين الذين يخاطبهم الله بقوله: {أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ}؟ إن كنت كذلك، فاعلم أن الله لم يضرب عنك الذكر صفحاً، وما زال يناديك لترجع إليه.

هل أنت من الدعاة الذين تعرضوا للاستهزاء والسخرية؟ إن كنت كذلك، فاعلم أنك في طريق الأنبياء، فاثبت ولا تهن.

هل أنت خائف من بطش الظالمين وقوة المفسدين؟ إن كنت كذلك، فتذكر: {فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا}. إنها سنة الله، وستنتصر إن شاء الله.

وأخيراً... عد إلى الذكر. تمسك بالقرآن. اجعله صاحبك في الخلوة والجلوة. إنه الذكر الذي لن يضرب عنك صفحاً، فهل تضرب أنت عنه صفحاً؟!

القسم الثاني

المبحث الأول

تفسير الآيات (11-9) من سورة الزخرف

{وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}

حين يتحول الاعتراف الفطري إلى حجة دامغة

رحلة في أعماق التوحيد والمصير والبعث

تقدمة لا بد منها: موقع الآيات من السورة ومن السياق القرآني

قف معي لحظة قبل أن تدخل إلى رحاب هذه الآيات الثلاث الكريمة. لا تتعجل الدخول قبل أن تتعرف على الخريطة، فمن عرف أين يقف هانت عليه المسيرة، ومن أدرك السياق أشرق في قلبه المعنى.

كنا في الآيات السابقة أمام مشهدين عظيمين:

المشهد الأول: إعلان عظمة القرآن ومصدريته الإلهية: {حم . وَالكِتَابِ الْمُبِين . إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ}. هناك ترسخت في القلب حقيقة أن هذا الكتاب من عند الله، وأنه عليّ حكيم، وأنه نزل ليعقله الناس.

المشهد الثاني: إعلان مهمة القرآن وموقف المعرضين: {أَفَتَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ . وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ . وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ}. وهناك تجلت رحمة الله التي لا تترك المسرفين، وتكشفت سنة الابتلاء بالاستهزاء، وظهر قانون الإهلاك للمكذابين.

والآن... وقد استقرت هذه الحقائق في الوجدان، يأتي دور المواجهة المباشرة مع المشركين. يأتي دور الحوار الذي يزلزل الوجدان. يأتي دور السؤال الذي لا يستطيعون الفرار من جوابه. إنها الآيات التي

تنتزع الاعتراف من أعماق الفطرة، ثم تبني على هذا الاعتراف بناء متيناً يصل إلى إثبات البعث و النشور.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها

دعني الآن - يا رعاك الله - أضع أمام عينيك وقلبك الأفكار المركزية التي تنبض بها هذه الآيات الكريمة. لا تقرأها قراءة عابرة، بل اجعل كل فكرة منها تقف على باب قلبك وتدقه، وتنظر في عين عقلك وتحديثه، وتخطب وجدانك وتسائله.

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيات الكريمة:

1. استثمار الفطرة الإنسانية في إثبات التوحيد: ولئن سألتهم مَن خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ { يكشف أن في أعماق كل إنسان بذرة توحيد، شهادة فطرية بالخالق، لا يستطيع حتى المشرك إنكارها.
2. وصف الله بالعزة والعلم: العزيز العليم {ليس وصفاً عابراً، بل هو تعريض بالمشركين: فالعزيز لا يغال به أحد، والعليم لا تخفى عليه خافية، فكيف تشركون به؟!
3. الامتنان بنعم الله في الأرض والسماء: الذي جعل لكم الأرض مهدياً {يستثير عاطفة الامتنان في القلوب، ليجعل الاعتراف الفطري بالخالق يتحول إلى عبادة وشكر.
4. إثبات البعث من خلال القياس على إحياء الأرض: {فأنشزنا به بلدة ميثاً كذلك تخرجون {هو الاستدلال المنطقي العجيب: الذي أحيا الأرض الميتة قادر على إحيائكم بعد موتكم.

مقاصد الآيات وأهدافها:

1. إقامة الحجة على المشركين من أقرب الطرق: أن ينتزع منهم الاعتراف بالخالق، ثم يبني على هذا الاعتراف بطلان الشرك ووجوب التوحيد.
 2. تحريك عاطفة الشكر والامتنان: أن يتذكر الإنسان نعم الله عليه في الأرض والسماء، فيستحي من كفرانها.
 3. إثبات عقيدة البعث: وهي العقيدة التي طالما أنكرها المشركون، بأن يربطها بمشهد محسوس يروونه بأعينهم كل عام: إحياء الأرض بعد موتها.
 4. تفعيل العقل في الإيمان: أن ينتقل الإنسان من الإيمان التقليدي الموروث إلى الإيمان القائم على التفكير والنظر والتدبر.
- المحور الأول

{ولئن سألتهم مَن خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}

تنويم مغناطيسي قرآني ينتزع الاعتراف من أعماق الفطرة

غوص في سيكولوجية السؤال وجبروت الجواب
وقفة مع الأسلوب: لماذا {ولئن سألتهم}؟

دعني أقف بك عند هذه الافتتاحية العجيبة: {ولئن سألتهم}. تأمل معي الحروف: الواو، ثم اللام، ثم "إن" الشرطية. إنها كما ترى ثلاثة أحرف متتالية، كل واحد منها يحمل دلالة ويرسم مشهداً.

الواو: هي واو العطف. إنها تعطف هذه الآية على ما سبقها، وتربطها بالسياق كله. كأنها تقول: "وبعد كل ما سبق... وبعد أن بينا لكم أن هذا الذكر مبين، وأننا لن نترككم سدى... أسألهم هذا السؤال".

اللام: هي لام القسم المقدرة. إن القسم مضمّن، والتقدير: "والله لئن سألتهم". إنه قسم من الله! إنه تأكيد إلهي على أن الجواب سيكون كذا حتماً وبقيناً. وهذا يمنح الآية قوة زلزالية، لأن الله يقسم على أن المشركين سيعترفون!

إن: هي إن الشرطية، تفيد التعليق والربط بين السؤال (الشرط) والجواب (الجواب). إنها تجعل السؤال اختباراً، والجواب نتيجة حتمية لهذا الاختبار.

ثم تأمل قوله: {لَيَقُولُنَّ}. إنها لام التوكيد، ونون التوكيد الثقيلة، وضمير الجمع. فاللام تؤكد، والنون تشدد التوكيد، وكل ذلك يصور لك أن اعترافهم قادم لا محالة، حتمي لا ريب فيه، واقع لا مفر منه. وكأن الله ينظر إليهم من عليائه، ويقول لرسوله صلى الله عليه وسلم: "اسألهم، واسمع ماذا يقولون، فلن يملكوا إلا أن يعترفوا".

وهنا - قبل أن نتقل - أقف معك لأستخرج أول درس من هذه الآية، درس لكل داعية ولكل محاور:

استخدم أسلوب السؤال الذي لا يملك المخاطب إلا أن يعترف معه بالحق! إن كثيراً من الناس يرفضون الحق عناداً واستكباراً، ولكنهم إذا سئلوا سؤالاً مباشراً لا مجال للمناورة فيه، اضطروا أن يعترفوا بما تنكره أفعالهم. وهذه هي طريقة القرآن في محاوره المشركين، وهكذا ينبغي أن تتعلم - أيها الداعية - فن صياغة الأسئلة التي تخترق جدران العناد لتصل إلى أعماق الفطرة.

"من خلق السماوات والأرض": لماذا هذا السؤال بالذات؟

تأمل معي: لماذا اختار الله هذا السؤال بالذات ليووجهه إلى المشركين؟ لماذا لم يسألهم: "من خلقكم؟" أو "من رزقكم؟" أو "من يملك الضر والنفع؟". لماذا {مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} تحديداً؟

السر هنا - والله أعلم - في أمور:

الأول: السماوات والأرض هما أعظم ما يشاهده الإنسان. إنهما المشهد الكوني الأكبر، المسرح الإلهي الذي لا يمكن لأحد أن يغفل عنه. فلا يستطيع أي إنسان على وجه الأرض أن ينظر إلى السماء المرفوعة والأرض المبسوطة ثم يدعي أن أحداً غير الله خلقهما.

الثاني: السماوات والأرض تذكران في القرآن مقترنتين في أكثر من مائتي موضع. إنهما آيتان كونيتان متقابلتان: العلو المطلق، والانخفاض المطلق. السماء في علوها المهيّب، والأرض في انبساطها العجيب. ومن يقدر على هذا إلا الله؟

الثالث: المشركون أنفسهم يعظمون السماوات والأرض، ويدركون أنهما لا يمكن أن يكونا من صنع الأصنام التي يعبدونها. فالأصنام محدودة حقيرة، فكيف تخلق هذا الكون العظيم؟! وهكذا يأتي السؤال ليضرب على وتر العظمة الكونية، الذي لا يستطيع المشرك إنكاره.

{لَيَقُولَنَّ خَلَقْنَهُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}: لحظة الصدق الإيجابي

والآن وصلنا إلى اللحظة الحاسمة، إلى المشهد الذي تتصّبب منه جباه المشركين عرقاً، وتتلعث منه ألسنتهم حياءً وخجلاً. {لَيَقُولَنَّ خَلَقْنَهُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}. إنهم سيعترفون! نعم... سيقولون: "خلقهن الله"، أو كما عبرت الآية: {خَلَقْنَهُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}.

انظر إلى دقة التعبير القرآني هنا. لم يقل: "ليقولن الله"، بل قال: {لَيَقُولَنَّ خَلَقْنَهُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}. لماذا؟

أولاً: لأن هذا ما كانوا يقولونه بالضبط عندما يسألون! لقد نقل لنا القرآن اعترافهم في موضع آخر: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ}. أما هنا في الزخرف فقد نقل اعترافهم مع الوصفين العظيمين: {الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}.

ثانياً: لأن هذين الوصفين (العزیز، العليم) يحملان تعريضاً لاذعاً بحالهم. فالعزیز هو الغالب الذي لا يغالب، والعليم هو الذي لا تخفى عليه خافية. فكيف تشركون بالعزیز العليم من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً؟! كيف تعبدون حجارة صماء بكماء لا تعلم ولا تقدر؟! إن الاعتراف بالله كخالق مع هذين الوصفين هو في حد ذاته إبطال للشرك. المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

المفهوم الفكري: حقيقة الفطرة الإنسانية

هذه الآية تكشف عن مفهوم فكري بالغ الأهمية، وهو أن التوحيد مركوز في فطرة الإنسان. إن المعرفة بالله ليست شيئاً مكتسباً من الخارج فحسب، بل هي شيء مطبوع في داخل كل إنسان. ولذلك فإن المشرك، رغم كل أصنامهم وأوثانهم، ورغم كل مبرراته وحججه الواهية، إذا واجهته بسؤال مباشر عن أصل الكون، فإن فطرته ستخرج من بين ركام الشرك لتعلن: "الله خلقهن!".

وهذا يعني أن مشكلة المشركين ليست مشكلة معرفية، بل هي مشكلة إرادية. إنهم يعرفون الحق، ولكنهم ينحرفون عنه. ولذلك فإن عمل الداعية ينبغي أن يركز ليس فقط على تقديم المعلومات، بل على إزالة العوائق الإرادية والنفسية التي تمنع الناس من الاستجابة للفطرة.

المفهوم النفسي: سيكولوجية الاعتراف القسري

الآية تعلمنا درساً نفسياً عظيماً عن الإنسان: أن الإنسان يمكن أن يكابر ويجادل طويلاً ، ولكن إذا سئل سؤالاً مباشراً في أمر لا مجال للمناورة فيه، فإنه سيضطر إلى الاعتراف بالحق.

وهذا ما نراه عملياً في حياتنا: كم من إنسان يعيش حياته غافلاً عن الله، فإذا مسه ضرر أو أحاط به خطر قال: "يا رب!". إنها الفطرة التي تنطق في لحظات الصدق الإجباري. وهكذا ينبغي للداعية أن يوقظ الفطرة في الناس، بأن يذكرهم بلحظات الصدق تلك، ويسألهم أسئلة مباشرة لا يستطيعون التملص منها.

المفهوم التربوي: التدرج في إقامة الحجة

لاحظ معي المنهج التربوي القرآني: لم يبدأ بدمهم وسبهم وتقبيح أفعالهم، بل بدأ بالسؤال الذي ينتزع منهم الاعتراف أولاً . وهذا تعليم لكل مربٍ: ابدأ بسؤال من يخالفك عن نقطة يتفق معك فيها، ثم ابن على هذا الاتفاق لتدفعه إلى مراجعة موقفه المخالف.

كم من أب حاور ابنه العاصي فبدأ بتقريبه وذمه، فأغلقت أبواب قلب الابن! وكم من معلمة واجهت تلميذتها المخطئة فبدأت بعتابها، فتصلبت الفتاة في خطئها! تعلم من القرآن: ابدأ بالسؤال الذي يجعله يعترف معك، ثم انطلق من هذا الاعتراف. رسائل ودروس وتوجيهات من الآية الكريمة

الرسالة الفكرية: التوحيد الذي لا ينفع

الآية تقرر حقيقة فكرية خطيرة: ليس كل اعتراف بالله ينفع صاحبه. هؤلاء المشركون اعترفوا بأن الله هو الخالق، ومع ذلك لم ينفعهم اعترافهم: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ}. فالتوحيد الحقيقي ليس مجرد الاعتراف بوجود الله، بل هو إفراجه بالعبادة، وعدم إشراك أحد معه في جانب من جوانب الحياة.

وهذه رسالة بالغة الأهمية للمسلمين في عصرنا: إياك أن تظن أن إيمانك بالله يغنيك إذا كنت تشرك في عبادته، أو تحتكم إلى غير شريعته، أو تقدم أهواءك على أمره! إن مجرد الاعتراف بوجود الله لا يصنع منك مؤمناً حقيقياً.

الرسالة النفسية: استحياء القلب من الاعتراف دون العمل

أخبرني بالله عليك... ألا تشعر بالخجل وأنت تقرأ هذه الآية؟ هؤلاء المشركون، مع كل ضلالهم، اعترفوا بأن الله هو الخالق. وأنت - يا من تقرأ القرآن - تعترف بأن الله هو الخالق، فهل عبادته حق عبادته؟ هل أطعته في أمره ونهيه؟ هل جعلت حياتك كلها وفق مراده؟

إن هذه الآية تولد في القلب خجلاً من الله... خجلاً من أن تكون مثل أولئك المشركين الذين يعترفون ولا يعملون، ويعلمون ولا يطبقون. إنها تدفعك إلى أن تراجع علاقتك العملية بالله، لا علاقتك النظرية به.

الرسالة التربوية: استثمار الاعترافات الفطرية في التغيير

أيها المربي، أيها الداعية... كم من الناس تعرف أنهم يعترفون في قرارة أنفسهم بالحق ولكنهم يخالفونه بأعمالهم! إن هؤلاء ليسوا في حاجة إلى أن تقنعهم بالحق نظرياً، بل هم في حاجة إلى أن تدفعهم إلى العمل بما يعترفون به. وهذه وظيفتك: أن تأخذ بأيديهم من الاعتراف النظري إلى العمل العملي، ومن العلم إلى التطبيق. المحور الثاني

{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}

استثارة عاطفة الامتنان لتحويل الاعتراف إلى عبادة

غوص في نعم الله في الأرض وجعلها صالحة للحياة

الانتقال من صفات الله إلى نعمه: نقلة عاطفية عجيبة

تأمل معي هذا الانتقال العجيب في مسار الآيات. بعد أن استخرجت الآية الأولى اعتراف المشركين بأن الله هو {العَزِيزُ الْعَلِيمُ} الذي خلق السماوات والأرض، تأتي هاتان الآيتان لتربطا هذا الاعتراف بنعم الله على الإنسان. {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا}.

لماذا هذا الانتقال؟ لماذا لم يسكت بعد الاعتراف فوراً ليبين تناقضهم؟ لأن الإنسان لا يكفيه أن يعرف الحق من الناحية النظرية المجردة. إنه يحتاج أيضاً إلى أن يشعر بهذا الحق، أن يتذوقه، أن يحبه. وهل هناك ما يجعل الإنسان يحب الله ويشعر بقربه أكثر من تعداد نعمه عليه؟!

إنها نقلة من العقل إلى القلب، ومن المعرفة إلى المحبة، ومن الاعتراف النظري إلى الشكر العملي.

"جعل": إشارة إلى التهيئة والقصد

دعني أقف بك عند كلمة {جَعَلَ}. إنها تكررت مرتين في الآية: {جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا} و{جَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا}. وكما قلت لك في تفسير الآيات السابقة، فإن "جعل" في اللغة العربية تفيد التصيير و التهيئة والتكوين على وجه محكم.

فالأرض لم تكن "مهداً" بالصدفة، ولم تكن مسالكها وطرقها أمراً عشوائياً. بل إن الله "جعلها" كذلك، أي هيأها وأعدّها وقصدها لتكون صالحة لحياة الإنسان. إنها صنعة إلهية محكمة، فيها من التدبير والحكمة ما يبهر العقول. وكلما تعمق الإنسان في دراسة الأرض وجيولوجيتها وجغرافيتها ومناخها، اكتشف المزيد من دلائل هذا "الجعل" الإلهي المحكم.

(لكم): لمسة الامتنان الخاص

وتأمل معي قوله: {لكم}. لم يقل: "جعل الأرض مهداً" فقط، بل قال: {جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا}. إنها لام الاختصاص، لام المنفعة، لام الامتنان. إن الله يقول لك - أنت أيها الإنسان - إن هذه الأرض بكل ما فيها من جبال ووديان وسهول وبحار وأنهار... كلها مسخرة لك، مهياة لأجلك، مذلة لراحتك.

ألا تشعر بشيء في أعماقك وأنت تقرأ هذه اللام؟ ألا تحس أن الله يخاطبك أنت بالذات، ويعدد عليك نعمه الخاصة بك؟ إنه خطاب فردي في ثنايا الخطاب الجمعي، يصلك مباشرة من رب العالمين إلى قلبك الصغير الضعيف: "جعلت لك الأرض مهداً... من أجلك أنت".

(مَهْدًا): لوحة فنية من وصف واحد

والآن تأمل كلمة {مَهْدًا}. إنها وصف واحد فقط، ولكن كم تحمل من معانٍ! وكم تثير من صور! وكم تبعث من مشاعراً!

المهد في اللغة هو الفراش الممهّد الوطيء الذي ينام فيه الطفل، فيهتز ويسكن ويطمئن. فإذا وصف الله الأرض بأنها "مهد"، فإنه يريد أن يقول لك: "ألم تجعل الأرض مستقراً مناسباً لحياتك؟ ألم نجعلها وطيفة تحت أقدامك، تهتز بخيراتها، وتسكن بثباتها؟ إنها كمهد الطفل: تحملك وترعاك وتمدك بما تحتاج".

ولكن هناك معنى أعمق من هذا: المهد هو أول مكان يستقبل الطفل ويحتويه. والأرض هي المكان الأول الذي استقبل الإنسان واحتواه منذ هبوط آدم عليه السلام. إنها "المهد" الأول للبشرية كلها، الأم الحنون التي تضم أبناءها وتغذوهم وترعاهم. {وَجَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا}: شريان الحياة على وجه الأرض

والأرض ليست قطعة واحدة مستوية، بل فيها من التضاريس والتعرجات والارتفاعات والانخفاضات ما يجعل السير فيها مستحيلاً "لولا أن الله {جَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا}. والسبل هي الطرق والمسالك التي يسهل السير فيها. انظر إلى الجبال الشاهقة، كيف جعل الله فيها فجاً وسبلاً "تعبها القوافل! وانظر إلى البحار والمحيطات، كيف جعل الله فيها مسالك للسفن والمراكب. وانظر إلى الغابات الكثيفة، كيف يسر الله للإنسان أن يشق طريقه فيها.

إن السبل في الأرض لا تقتصر على الطرق البرية وحدها، بل تشمل:

- السبل البرية: الطرق والدروب والفجاج والممرات.
- السبل البحرية: المسالك التي تسير فيها السفن.
- السبل الجوية: الطرق التي تسير فيها الطائرات.

كلها تدخل في قوله: {وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا}. وهكذا يتسع المعنى القرآني ليشمل كل أنواع السبل التي يسرها الله للإنسان عبر العصور.

{لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}: الهدف الأسنى من هذه النعم

والآن... لماذا جعل الله الأرض مهداً؟ لماذا جعل فيها سبلاً ؟ الآية تجيب: {لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}. وهنا تأتي اللمسة العجيبة. إن "لعل" للترجي، والترجي في كلام الله يفيد أن ما يترجاه واجب الوقوع. فالله خلق هذه النعم لتهتدوا.

ولكن... إلى ماذا؟ ما هذه الهداية التي أرادها الله؟

الهداية الأولى: الهداية في السير. أي لتهتدوا إلى مقاصدكم في أسفاركم. فبدون السبل تضيعون وتتيهون. وهذا هو المعنى الظاهري المباشر.

الهداية الثانية: الهداية إلى شكر المنعم. أي لتتفكروا في هذه النعم فتعرفوا قدر المنعم بها، فتشكروه وتعبدوه. إنها دعوة إلى تدبر آيات الله في الأرض.

الهداية الثالثة: الهداية إلى الله نفسه. أي لتعلموا أن الذي جعل لكم الأرض مهداً ويسر لكم فيها السبل، هو الإله الحق المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

انظر كيف أن الأرض بجبالها وطرقها وتضاريسها كلها تشير إلى الله، وكلها تدعو إلى عبادته، وكلها تهدي إليه. وإن المؤمن لينظر إلى الطريق الذي يسير فيه، فيرى فيه آية من آيات الله، ونعمة من نعمه، وبرهاناً على وحدانيته.

رسائل ودروس وتوجيهات من الآية الكريمة

الرسالة الفكرية: النعم دليل على المنعم

الآية تعلمنا قاعدة فكرية: النعمة تدل على المنعم، والإحسان يدل على المحسن. فالأرض وما فيها من تهئية وإعداد ليس أمراً عشوائياً، بل هو تدبير إلهي محكم، يوجب على العاقل أن يسأل: من وراء هذا التدبير؟ ثم إذا عرف المنعم، وجب عليه أن يشكره.

وهذا منهج قرآني في الاستدلال: الانتقال من النعمة إلى المنعم، ومن الأثر إلى المؤثر، ومن الصنعة إلى الصانع.

الرسالة النفسية: الامتنان يصنع السكينة

كم مرة خرجت إلى طريق تسير فيه فلم تلتفت إلى أنه نعمة من الله؟ كم مرة مشيت على الأرض الوطنية فلم تخطر ببالك آية {جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا}؟ إن إهمال تأمل النعم يورث في النفس جفافاً وقسوة.

ولكن حين تبدأ بتأمل النعم من حولك - الطريق الذي تسير فيه، والأرض التي تمشي عليها، والهواء الذي تنفسه - فإن قلبك يمتلئ امتناناً، ونفسك تفيض سكينة وطمأنينة. إن الامتنان هو أقصر طريق إلى السعادة النفسية، والقرآن يعلمنا إياه من خلال آيات النعم.

الرسالة التربوية: تربية النفس على رؤية النعمة

أيها المربي... علم أبنائك وتلاميذك أن ينظروا إلى ما حولهم نظرة المستبصر المتأمل. لا تمر بهم على طريق دون أن تذكرهم أن الله هو الذي يسره لهم. لا تسير بهم في الأرض دون أن تذكرهم أن الله هو الذي جعلها مهداً. وهكذا تنشئ جيلاً " يرى الله في كل شيء، ويعيش في حالة دائمة من الشكر والامتنان.

المحور الثالث

{وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تَخْرُجُونَ}

من نزول المطر إلى خروج الأموات... قفزة الإيمان الكبرى

كيف يصنع المشهد المحسوس اليقين بالبعث؟

{والذي نزل}: انتقال من جعل الأرض إلى إنزال الماء

تأمل كيف ينتقل السياق القرآني من الحديث عن الأرض إلى الحديث عن الماء: {والذي نزل من السماء ماء}. إنه إكمال للوحة الكونية. فالأرض وحدها مهد، ولكنها تحتاج إلى الماء لتحيي. الأرض وحدها فيها سبل، ولكنها تحتاج إلى الماء لتنبث وتثمر. وهكذا يكتمل المشهد الإلهي البديع: أرض ممهدة، وسبل مسهلة، وماء منزل من السماء، فإذا الأرض تحيا بعد موات.

وإن في هذا الانتقال تنبيهاً إلى أن النعم الإلهية مترابطة متكاملة، لا تستغني واحدة منها عن الأخرى. فالأرض بدون ماء صحراء قاحلة، والماء بدون أرض لا يستقر ولا ينفع. وهذا الترابط في الكون يدل على أن الخالق المدبر واحد أحد.

"نزل" بالتشديد: دقة القرآن في التعبير

لاحظ معي أن الآية قالت: {نزل} بالتشديد، ولم تقل "أنزل". والفرق معروف في اللغة: "نزل" بالتشديد تفيد التدريج والتنجيم، بينما "أنزل" تفيد الدفعة الواحدة. واختيار "نزل" هنا مناسب تماماً لنزول المطر ، لأنه ينزل متفرقاً متدرجاً لا دفعة واحدة.

ولكن - يا صاحبي - ألا ترى أن هذا القرآن الذي وصف بأنه {كِتَابٌ مُبِينٌ} لا يخطئ في اختيار لفظ مكان لفظ، ولا يرتج فيوصف بغير ما يناسبه؟ إن {نزل} في هذا الموضع أبلغ من "أنزل"، لأنها تصور لك المطر وهو يتساقط قطرة قطرة، دفعة بعد دفعة، برحمة ورفق لا بعنف وطغيان. {وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ}. {يَقْدِرُ}: نظام كوني دقيق لا عشوائية فيه

والآن تأمل هذه الكلمة العجيبة: {يَقْدِرُ}. إن الماء ينزل من السماء بقدر، أي بمقدار محدد، وبنظام دقيق ، لا عشوائية فيه ولا عبث. وكم في هذه الكلمة من معان لو يعلمها الإنسان!

فهو بقدر في كميته: لا ينزل أكثر مما تطيق الأرض، ولا أقل مما تحتاج. {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى تَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ}.

وهو بقدر في زمنه: ينزل في أوانه الذي يحتاجه الناس والزرع، لا يتقدم ولا يتأخر في العادة إلا لحكمة.

وهو بقدر في مكانه: ينزل على أرض دون أرض، وبلد دون بلد، بحسب مشيئة الله وتقديره.

وهو بقدر في حجم قطره: لو كانت قطرات المطر أكبر مما هي عليه لأهلك الحث والنسل، ولو كانت أصغر لما نفعت. إنه تصميم إلهي بديع يجعل قطرات الماء تنزل بحجم معين، لا يزيد ولا ينقص ، لتؤدي وظيفتها على أكمل وجه.

وهذا كله يدل على أن الذي أنزل الماء {يَقْدِرُ} هو الحكيم العليم، الذي يعلم حاجة عباده، ويقدر لهم أرزاقهم بتدبير محكم.

{فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا}: درس الموت والحياة في الطبيعة

جاء هذا الماء فماذا فعل؟ {فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا}. "أنشَرْنَا" أي أحيينا. والبلد الميت هو الأرض الجذباء القاحلة التي لا نبات فيها ولا خضرة. فبالماء تنشر، أي تحيا، فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج.

تأمل معي هذا الانتقال من الموت إلى الحياة، من الجذب إلى الخصب، من الصمت إلى الحركة. أليس هذا هو ما يحدث كل عام في فصول السنة؟ أليس هذا مشهداً يتكرر أمام أعيننا؟ ومع ذلك كم منا وقف عنده متأملاً "متدبراً؟! كم منا رأى في المطر القادم من السماء والربيع المزهر في الأرض درساً في قدرة الله على إحياء الموتى؟!

{كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}: القفزة الإيمانية الكبرى

وهنا تأتي اللحظة التي تتوج كل ما سبق: {كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}. بهذه الكلمات الثلاث، يربط القرآن بين المشهد المحسوس (إحياء الأرض بالماء) وبين الحقيقة الغيبية (البعث بعد الموت). و"كذلك" تفيد التشبيه: أي كما نحيا الأرض الميتة بالماء، كذلك نخرجكم من قبوركم أحياء بعد موتكم.

إنه استدلال منطقي باهر، لكنه ليس استدلالاً فلسفياً جافاً، بل هو استدلال يستند إلى مشهد حي يتحرك أمام الأعين، ويراه الناس بأم أعينهم كل عام. فمن رأى الأرض الميتة تحيا بالماء، ثم أنكر أن يحيي الله الموتى، فهو بين أمرين: إما أن يكون مكابراً معانداً، وإما أن يكون غافلاً غير متأمل.

وقد استخدم القرآن هذا الاستدلال في مواضع كثيرة، كلها تربط بين البعث ومشهد إحياء الأرض: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. وفي سورة يس: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}.

الالتفات من الغيبة إلى التكلم: {فَأَنْشَرْنَا} بعد {نَزَّلْ}

انظر معي إلى هذه اللمسة البيانية العجيبة. الآية بدأت باسم الموصول: {والذي نزل} بصيغة الغيبة، ثم قالت: {فَأَنْشَرْنَا} بصيغة التكلم. هذا الالتفات من الغيبة إلى التكلم له وقع خاص على الأذن السامعة و القلب المتدبر.

ففي أول الآية: الله غائب متكلم عنه باسم الموصول، وكأن الآية تريد أن تتركك مع المشهد الكوني (نزل المطر) لتتأمله وتتدبره بنفسك. ثم فجأة، وبعد أن يتم التأمل، يقفز الله إليك بصيغة التكلم: {فَأَنْشَرْنَا}! إنه يقول: "أنا الذي فعلت هذا! أنا الذي أحيت الأرض! أنا الذي أنشر الموتى!".

ألا تشعر برعشة في قلبك وأنت تسمع هذا التحول؟ إنه تحول من التأمل النظري إلى الخطاب المباشر، من التفكير في الأفعال إلى مقابلة الفاعل، من رؤية النعمة إلى لقاء المنعم رسائل ودروس وتوجيهات من الآية الكريمة

الرسالة الفكرية: القياس الأولى في القرآن

الآية تقدم نموذجاً للقياس المنطقي الذي يستخدمه القرآن: إذا كان الله قد أحيا الأرض الميتة، وهو ما ترونه بأعينكم، فكيف تنكرون قدرته على إحيائكم بعد موتكم، وهو القياس نفسه؟! وهذا ما يسميه علماء الكلام "القياس الأولى". لأن إعادة الشيء أهون من ابتدائه، فمن قدر على الابتداء فهو على الإعادة أقدر.

وهذا المنهج القرآني يعلمنا أن الإيمان ليس قفزاً في الظلام، بل هو استدلال منطقي منظم، ينطلق من المحسوس إلى المعقول، ومن الشاهد إلى الغائب، ومن المعلوم إلى المجهول.

الرسالة النفسية: اليقين بالبعث يورث السكينة

إن مجرد الإيمان النظري بالبعث لا يكفي لصنع الطمأنينة في النفس. ولكن حين ترى بأم عينيك مشهد الحياة بعد الموت يتكرر في الطبيعة كل عام، فإن إيمانك بالبعث يصبح شيئاً محسوساً، مرئياً، معاشاً.

تأمل في حديقة جافة في آخر الصيف، ممتة الأغصان صفراء الأوراق. ثم تأملها في الربيع بعد أمطار الشتاء، كيف تهتز وتخضر وتورق وتزهو. أليس هذا درساً عملياً في البعث؟ لهذا كان من هدي النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى الربيع قال: "اللهم أحى قلبي بالإيمان، وأحسن عاقبتني في الأمور كلها".

الرسالة التربوية: استخدام المشاهد الطبيعية في التعليم

لله در هذا القرآن كيف يعلم! إنه لا يلقي على الناس نظريات جافة في البعث والمعاد، بل يأخذهم إلى الطبيعة، يريهم المطر ينزل، والأرض تحيا، ثم يقول لهم: {كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}. وهكذا يتحول كل مشهد في الطبيعة إلى درس في الإيمان، وكل ظاهرة كونية إلى دليل على قدرة الله.

وهذا ينبغي أن يكون منهج المربين والدعاة: اربطوا تلاميذكم ومن تدعونهم بالطبيعة، واجعلوهم يتأملون آيات الله في الكون، واربطوا هذه الآيات بالحقائق الإيمانية الكبرى.

المحور الرابع

ما تدعوننا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً : العودة إلى دليل الفطرة في زمن الإلحاد

في عصرنا الحاضر، تنتشر موجة الإلحاد والتشكيك في وجود الله. ولكن الآية تقول: {وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ}. إن الفطرة البشرية السليمة تشهد بوجود خالق لهذا الكون، حتى في أعتى الملاحظة إذا صدقوا مع أنفسهم.

إن مهمتنا اليوم هي أن نوقظ هذه الفطرة في الناس، بأن نعيدهم إلى تأمل الكون من حولهم، ونخرجهم من دوامة الفلسفات المجردة إلى رحابة الآيات الكونية. إننا لا نحتاج إلى تعقيد الأدلة على وجود الله، فالفطرة البسيطة كافية، إذا نحن أزلنا عنها ركام الشبهات والشهوات.

ثانياً: استثمار العلوم الكونية في الدعوة إلى الله

{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا...} كم في هذه الآية من إشارات علمية تؤكد علوم الجيولوجيا والفلك والجغرافيا! إن الأرض مهياة للحياة تهيئة دقيقة مذهلة: بعدها عن الشمس، وغلافها الجوي، وميل محورها، ودورانها حول نفسها... كلها عوامل لو اختلفت قليلاً لاستحالت الحياة.

إن الدعاة إلى الله اليوم أحوج ما يكونون إلى توظيف العلوم الكونية في الدعوة إلى الله، وإراءة الناس كيف أن العلم الحديث يثبت ما أخبر به القرآن من قبل، وكيف أن {جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا} حقيقة علمية مبهرة تثبت الأبحاث الحديثة.

ثالثاً: البعث... الحقيقة التي تحتاج إلى تذكير

في عصر المادية الذي يعيش فيه الناس كأنهم لن يموتوا، وكأنهم لن يبعثوا، وكأنهم لن يسألوا... تأتي هذه الآيات لتذكركم بـ {كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}. إن الموت قادم، والبعث حق، والحساب واقع، {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ} . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}.

إن مهمة القرآن ووظيفة الذكر هي أن يوقظ الناس من غفلتهم، ويذكرهم بما ينتظرهم بعد الموت. وهذا هو دورنا اليوم: أن نذكر الناس بالبعث، ونربهم على الاستعداد له، في زمن كثرت فيه الملهييات والمغفلات.

المحور الخامس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: التوحيد الفطري أساس كل معرفة

الآيات ترسي مفهوماً فكرياً مركزياً: أن الإيمان بالله ليس فكرة مكتسبة من الخارج فحسب، بل هو شيء مركوز في أصل الفطرة الإنسانية. ومن هنا فإن إنكار وجود الله ليس موقفاً فكرياً بريئاً، بل هو تشويه للفطرة وانحراف عن الأصل. وهذا يعطينا موقفاً قوياً في مواجهة الإلحاد: أنت لا تطلب من الملحد أن "يؤمن" بشيء غريب عنه، بل أنت تطلب منه أن يعود إلى فطرته التي حجبها عنه كبره وهواه.

المفهوم النفسي: الشهود الحسي يورث اليقين النفسي

من أعظم ما يورث اليقين النفسي في قضية البعث هو ربطها بالمشاهد المحسوسة. فالذي يرى الأرض تحيا بعد موتها كل عام، لا يمكن أن يبقى في قلبه شك في قدرة الله على إحياء الموتى. إن اليقين النفسي لا يصنعه الدليل العقلي وحده، بل تحتاج النفس إلى ما هو أعمق من الدليل: إلى المشهد الحي الذي يتحرك أمامها، إلى التجربة المعاشة التي تلمسها بالحس.

المفهوم التربوي: تعليم الكبار من خلال البديهيات

الآيات تعلمنا منهجاً تربوياً فريداً في تعليم الكبار والمخالفين: ابدأ بما يعترف به، وابن عليه. فبدلاً من أن تبدأ بتخطئة المخالف وتقبيح معتقده، ابدأ بسؤاله عما يعترف به، ثم انطلق من هذا الاعتراف

لتبين له تناقضه. هذا ما فعله القرآن مع المشركين، وهذا ما ينبغي أن نفعله مع من نخالفهم في الرأي.
المحور السادس

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: التحرر من التقليد الأعمى إلى الإيمان الواعي

الله يريد منا ألا نكون مثل أولئك المشركين الذين يعترفون بالخالق نظرياً ثم يعبدون غيره عملياً. إنه يريد منا إيماناً واعياً، ينطلق من الفطرة، ويمر بالعقل، ويستقر في القلب، ويثمر في الجوارح عملاً وعبادة.

الإرادة الثانية: التفكير في آيات الله في الكون

الله يريد منا أن نتفكر في الأرض التي نمشي عليها، وفي السماء التي تظلنا، وفي المطر الذي ينزل علينا. إنه يريد أن نعيش في هذا الكون متأملين، متفكرين، شاكرين، لا غافلين سادرين.

الإرادة الثالثة: اليقين بالبعث والاستعداد له

الله يريد منا أن نوقن بالبعث يقين من يراه رأي العين، فيستقيم سلوكنا، وتصلح أعمالنا، ونستعد لذلك اليوم العظيم. إن الإيمان بالبعث ليس مجرد مسألة عقدية نظرية، بل هو محرك للسلوك، ودافع للعمل، وراصد عن المعصية.
المحور السابع

أبعاد الآيات وآفاقها

البعد المعرفي: تأسيس منهج الاستدلال القرآني

الآيات ترسي منهجاً معرفياً متكاملًا: الانطلاق من الفطرة والبديهيات، ثم الانتقال إلى التأمل في النعم والآيات الكونية، ثم الوصول إلى الحقائق الغيبية الكبرى كالبعث. هذا المنهج هو الذي يصنع المعرفة اليقينية الراسخة التي لا تزعزعها الشبهات.

البعد المنهجي: الجمع بين الأدلة الفطرية والحسية

الآيات تجمع بين نوعين من الأدلة: الدليل الفطري (الاعتراف بالخالق)، والدليل الحسي (إحياء الأرض بالمطر). وهذا الجمع يخاطب كل أصناف الناس: من كان يميل إلى التأمل الفطري وجد ضالته، ومن كان يميل إلى المشاهدة الحسية وجد ضالته.

البعد الحضاري: صناعة الإنسان المتأمل الشاكر

الحضارة التي يريد القرآن بناءها هي حضارة الإنسان المتأمل الشاكر، الذي يرى آيات الله في كل شيء من حوله، فيتحول كل مشهد كوني إلى محراب عبادة، وكل ظاهرة طبيعية إلى درس إيماني. وهكذا ترتبط الحضارة بالسماء، ويرتبط الإنسان بربه في كل حركاته وسكناته.
المحور الثامن

تحويل الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

لكي تتحول هذه الآيات من مجرد نصوص نتلوها إلى طاقة تبني الإنسان وتشيد المجتمع وتقيم الحضارة، يجب تفعيلها في ثلاثة مسارات:

المسار الأول: بناء الإنسان المتأمل الشاكر

الحضارة تبدأ بإنسان يرى نعم الله في كل شيء، ويشكر الله على كل نعمة، ويتفكر في آيات الله في كل مشهد. وهذا الإنسان هو الذي سيبنى الحضارة، لأنه يعيش في حالة دائمة من الوعي والامتنان وطمأنينة.

التطبيق العملي: درب نفسك على أن ترى نعم الله من حولك. لا تمر على مشهد كوني دون أن تقول: "الحمد لله الذي جعل لنا الأرض مهداً". لا تسمع صوت الرعد ورؤية المطر دون أن تقول: "اللهم صيباً نافعاً". لا تر الربيع دون أن تتذكر: {كَذَلِكَ تَخْرَجُونَ}.

المسار الثاني: بناء المجتمع القائم على شكر النعم

المجتمع الحضاري هو المجتمع الذي يعترف بنعم الله عليه، ويشكره عليها. ومجتمع لا يشكر الله على نعمه، ولا يراها، ولا يتأملها، هو مجتمع غافل، معرض للسلب والعذاب: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}.

التطبيق العملي: انشر ثقافة الشكر والامتنان في مجتمعك. علم أبنائك أن يشكروا الله على كل نعمة. كن نموذجاً عملياً في تذكر النعم وإرجاع الفضل فيها إلى الله.

المسار الثالث: بناء الحضارة المستندة إلى التوحيد الخالص

أي حضارة لا تستند إلى التوحيد الخالص - توحيد الاعتراف بالله الخالق، وتوحيد العبادة لله وحده، وتوحيد الحكم لشريعته - فهي حضارة مآلها إلى الزوال. إن أولئك المشركين اعترفوا بالله خالقاً، لكنهم أشركوا به في العبادة، فهلكوا. وكذلك الحضارة المعاصرة: قد تعترف بالله نظرياً، ولكنها تشرك به في الحكم والتشريع، وتجعل أهواء البشر حاكمة، فتعيش في تخبط وقلق وتيه.

التطبيق العملي: أعد بناء تصوراتك الحضارية على أساس التوحيد الكامل. لا تكتف بالاعتراف بأن الله هو الخالق، بل اجعل الله وحده هو الحاكم في حياتك، واجعل شريعته هي المرجعية العليا في كل شيء.
المحور التاسع

دور الآيات في البناء والتنمية

دورها في البناء الفكري:

- ترسيخ الإيمان بالله خالقاً ومديراً من خلال دليل الفطرة ودليل العناية.
- تأسيس منهج استدلاي يربط بين المشاهد المحسوسة والحقائق الغيبية.
- تقديم نموذج لمواجهة الإلحاد والشرك من خلال الأدلة الفطرية والحسية.

دورها في البناء النفسي:

- إيقاظ مشاعر الشكر والامتنان في القلب.
- ترويت الطمأنينة النفسية من خلال اليقين بالبعث.
- شعور الإنسان بقيمته عند الله حين يرى أن كل هذا الكون مسخر له.

دورها في البناء الاجتماعي:

- بناء مجتمع قائم على شكر النعم، مما يحفظها ويزيدها: {لئن شكرتم لأزيدنكم}.
 - تربية الأجيال على رؤية آيات الله في الكون، مما يصنع مجتمعاً متفائلاً مرتبطاً بربه.
 - تحصين المجتمع ضد الإلحاد والمادية من خلال ترسيخ الإيمان الفطري.
- المحور العاشر

كيف تحول الآيات إلى واقع معاش؟

الخطوة الأولى: تأمل يومي في نعم الله

اخرج كل يوم وتأمل شيئاً واحداً من نعم الله عليك: الأرض تمشي عليها، السماء فوقك، الهواء تننفسه، الماء تشربه، الطرق تسير فيها... وقل بقلبك ولسانك: "الحمد لله الذي جعل لي الأرض مهداً، وجعل لي فيها سبلاً"، وأنزل من السماء ماءً.

الخطوة الثانية: استثمار المشاهد الطبيعية في الإيمان

إذا رأيت المطر ينزل، فتذكر قوله: {فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}. إذا رأيت الربيع يكسو الأرض، فقل: "اللهم أحي قلبى بالإيمان، وأخرجني من ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة، كما أخرجت هذه الأرض من موتها إلى حياتها".

الخطوة الثالثة: نشر ثقافة الشهود الكوني

علم أبناءك وإخوانك وأصحابك أن ينظروا إلى الكون نظرة إيمانية. اشرح لهم كيف أن كل ظاهرة في الطبيعة تذكر بالله وتربط به. اجعل من كل نزهة في الطبيعة رحلة إيمانية، ومن كل تأمل في مشهد كوني صلاة خاشعة.

الخطوة الرابعة: العيش بالتوحيد الكامل

لا تكثف من التوحيد بأن تقول: "لا إله إلا الله" بلسانك. بل حقق معناها في حياتك: اجعل الله وحده هو الذي تخافه، فلا تخف مخلوقاً. اجعل الله وحده هو الذي ترجوه، فلا ترج مخلوقاً. اجعل الله وحده هو الذي تحبه أعظم الحب، فلا تقدم حب مخلوق على حب الله. اجعل الله وحده هو الحكم في حياتك، فلا تقدم حكم هوى أو قانون وضعي على حكم الله. الخاتمة: من الاعتراف إلى العبادة... الرحلة التي لا تنتهي

لقد قطعنا رحلة عميقة مع هذه الآيات الثلاث الكريمة. بدأنا مع سؤال ينتزع الاعتراف: {وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ}. ومررنا بمشاهد النعم الإلهية المتتالية: الأرض مهداً، والسبل مسهلة، والماء منزلاً. وانتهينا إلى قفزة الإيمان الكبرى: {كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}.

وعلى طول هذه الرحلة، كانت الآيات تصنع فينا شيئاً فشيئاً... تحرك الفطرة، وتوقظ العقل، وتستثير الوجدان، وتربط المشاهد الكونية بالحقائق الغيبية، وتأخذنا من الاعتراف النظري بالخالق إلى العبودية العملية له.

والسؤال الذي أتركك معه الآن - أيها القارئ الكريم - هو: أين موقعك من هذه الرحلة؟

هل أنت عند محطة الفطرة، تعترف بوجود الله ولكن لا تعبد حقه عبادته؟

هل أنت عند محطة الشكر، تتأمل نعم الله وتشكره عليها؟

هل أنت عند محطة اليقين بالبعث، تستعد ليوم تخرج فيه من قبرك فتحاسب على ما قدمت؟

أيضا كنت... فالقرآن يدعوك إلى أن تتقدم إلى الأمام، إلى أن تقطع الرحلة كاملة، من الفطرة إلى العبادة، ومن الشكر إلى الاستعداد للبعث.

إنه نداء الله لك: {وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ...}. إنه يسألك أنت الآن: ألسنت الذي خلقتك ورزقتك وجعلت لك الأرض مهداً؟ ألا تستحق أن تعبدني وحدي؟ ألا تستحق أن تستعد للقائي؟

فماذا ستجيب؟

المبحث الثاني

تفسير الآيات (12-14) من سورة الزخرف

{وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لَيْسْتَ تَوَدُّ عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ}

رحلة في أعماق التسخير والذكر والمآب

حين يتحول ركوب الدابة إلى محراب عبادة ومنازة تسبيح
تقدمة لا بد منها: موقع الآيات من السورة ومن مسار النعم الإلهية

قف معي لحظة - يا رعاك الله - قبل أن تخطو بقدميك إلى رحاب هذه الآيات الثلاث الكريمة. لا تستعجل الدخول قبل أن تعرف أين تقف في هذه المسيرة المباركة، فمن عرف موقعه في الخريطة هانت عليه الخطوات، ومن استبان له السياق انفتحت له أبواب المعاني.

لقد كنا في مطلع سورة الزخرف أمام الإعلان العظيم عن القرآن: {حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِين . إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ}. ثم انكشفت مهمة هذا القرآن وأنه لن يضرب عن المسرفين صفحا: {أَفَتَضْرَبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَحْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ}.

ثم بدأ الحوار الذي يزلزل الوجدان، ذلك الحوار الذي انتزع من المشركين اعترافهم الفطري بالخالق: {وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}. ثم انطلقت الآيات تعدد نعم الله التي تملأ حياة الإنسان: الأرض جعلت مهدا، وفيها سبل للاهتداء، والماء نزل من السماء بقدر فأحيا الأرض الميتة، وفي ذلك آية على البعث: {كَذَلِكَ تَخْرَجُونَ}.

والآن... وقد استقر في قلب السامع أن الله هو الخالق المدبر المنعم، يأتي دور تكميم تعداد النعم، والا نتقال من مشهد الأرض والماء إلى مشهد المراكب والمطايا، من النعم التي يبطؤها الإنسان بقدميه إلى النعم التي تحمله على ظهرها، من السبل التي يمشي فيها إلى الفلك والأنعام التي تركب.

ثم يأتي الأهم... لا يقف الخطاب عند تعداد النعمة فحسب، بل يرتقي بالإنسان إلى مقام ذكر النعمة وشكر المنعم عند ركوب المركب، ويجعل من لحظة الركوب تلك تسبيحة خاشعة، وتذكرة بالمسير إلى الله، وشهادة بالعجز الإنساني والقدرة الإلهية. إنها نقلة عجيبة من الإخبار بالنعم إلى تعليم كيفية استثمارها في العبادة والذكر. المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها

دعني الآن - يا أخي القارئ - أضع بين يديك وقلبك الأفكار المركزية التي تنبض بها هذه الآيات الكريمة. لا تقرأ هذه الأفكار كما تقرأ قائمة جامدة، بل اجعل كل فكرة منها تخاطب في نفسك شيئا، وتوقظ في وجدانك معنى، وتثير في عقلك تساؤلا .

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيات الكريمة:

1. تكملة مشهد النعم الإلهية المسخرة للإنسان: {وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا يَفْتَحُ بَابًا وَاسِعًا مِنْ التَّأَمُّلِ فِي قَانُونِ الْأَزْوَاجِ فِي الْوُجُودِ، ثُمَّ} وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ {يَتِمُّ تَعْدَادُ النِّعَمِ بِذِكْرِ مَا يَرْكَبُهُ الْإِنْسَانُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ.
2. بيان الغاية من تسخير المراكب: {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ} يبين أن غاية التسخير هي تذليل المركب للإنسان حتى يستوي على ظهره مستقرا مطمئنا، لا متعثرا ولا خائفا.
3. ربط النعمة بالمنعم من خلال الذكر والشكر: {ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ} يأمر بذكر النعمة عند ركوب المركب، فيتحول الركوب نفسه إلى عبادة وذكر لله.
4. إعلان العجز الإنساني والاعتراف بالقدرة الإلهية: {وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ} اعتراف صريح بأن الإنسان عاجز لولا تسخير الله له هذه المراكب، وأن الله هو الذي ذلها له.
5. ربط المسير الدنيوي بالمسير إلى الله: {وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ} يجعل من كل رحلة في الدنيا درسا في الرحلة الكبرى إلى الله، ومن كل عودة إلى البيت تذكرة بالعودة إلى الله.

مقاصد الآيات وأهدافها:

1. ترسيخ التوحيد من خلال شهود التسخير الإلهي: أن يرى الإنسان في كل مركب يركبه يد الله التي سخرته له، فيثبت التوحيد في قلبه.
 2. تعليم المسلم كيفية تحويل النعم إلى عبادات: أن يتعلم أن ذكر الله وشكره عند النعمة يحولها من مجرد متاع دنيوي إلى عبادة وقربة.
 3. ربط الإنسان بربه في كل حركاته وسكناته: أن يكون المؤمن على صلة دائمة بالله، حتى في أسفاره وركوبه وانتقاله.
 4. غرس الشعور بالمسؤولية والمراقبة: أن يتذكر الإنسان أنه راجع إلى الله، فتتضبط تصرفاته ويراقب سلوكه في كل رحلة وكل مسير.
- المحور الأول

{وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا}

قانون الزوجية في الكون... بوابة التأمل في عظمة الخالق

حين ينطق الوجود كله بأن الخالق واحد
وقفة مع الأسلوب: لماذا {والذي}؟

انظر إلى صدر الآية: {وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا}. إنها تبدأ باسم الموصول {الذي} معطوفاً بالواو على ما سبقه من أسماء الله وأفعاله: {العزیز العظیم} . الذي جعل لكم الأرض مهذا . والذي نزل من السماء ماءً بقدر . والذي خلق الأزواج كلها.

تأمل معي هذا التسلسل البديع: إنها كلها صفات للموصوف الواحد الذي اعترف به المشركون: {خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}. ثم تأتي هذه الصفات المتتابعة لتفصل صفات هذا الإله العظيم، وتعدد نعمه، وتذكر بآلاءه.

واختيار اسم الموصول {الذي} هنا دون غيره له سر: إن اسم الموصول يفيد العهد، أي أن الموصوف معهود معلوم معروف. فكان الآية تقول: "إن الذي تعرفونه، وتعترفون بأنه خلق السماوات والأرض... هو نفسه الذي جعل لكم الأرض مهذا... وهو نفسه الذي نزل من السماء ماء... وهو نفسه الذي خلق الأزواج كلها". إنه ربط بين المعترف به فطرياً (الخالق) وبين النعم التي قد يغفلون عن نسبتها إليه. وهذا أسلوب قرآني باهر في رد الناس إلى فطرتهم وإلى شكر المنعم الحقيقي.

"خلق الأزواج كلها": معنى الزوجية في القرآن

الآن نصل إلى قلب المعنى: {خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا}. ما هذه الأزواج؟ وما المراد بها؟

الأزواج في اللغة جمع "زوج"، والزوج هو النظير والمقابل، وهو ما لا يتم وجود الشيء إلا به. ومنه قيل للمرأة: زوج الرجل، لأنه لا يتم وجود الأسرة إلا بهما معاً. وفي القرآن الكريم ترد "الأزواج" بمعنى متعددة متداخلة:

المعنى الأول: الأزواج بمعنى الأصناف والأنواع. كل ما في الوجود له صنف ونظير: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}. فالليل والنهار زوجان ، والسماء والأرض زوجان، والشمس والقمر زوجان، والبر والبحر زوجان، والذكر والأنثى زوجان، و السعادة والشقاء زوجان، والحياة والموت زوجان... وهكذا يمتد القانون.

المعنى الثاني: الأزواج بمعنى الذكور والإناث. وهو أقرب إلى الذهن عند إطلاق الكلمة. فكل كائن حي منه ذكر وأنثى: {وَأُنثَى خَلَقَ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى}.

المعنى الثالث: الأزواج بمعنى المخلوقات المزدوجة في ذاتها. حتى الذرة فيها زوجية: الإلكترون والبروتون. وحتى النبات فيه زوجية: الطلع والمبيض. وحتى الجماد فيه زوجية: الموجب والسالب.

فإذا قال الله: {خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا}، فإنه يفتح أمام عقلك باباً واسعاً للتأمل في هذا القانون الكوني العجيب، قانون الزوجية الذي يسري في كل شيء. أفلا يدل هذا القانون الواحد في كل الأشياء على أن الخالق واحد؟! لماذا ذكرت الأزواج هنا؟ الربط الخفي بالركوب

ولكن دعني أسألك سؤالاً: لماذا ذكرت {الأزواج} هنا بالذات، قبل الحديث عن الفلك والأنعام؟

قد يبدو للوهلة الأولى أن لا ارتباط بين الأزواج والركوب. ولكن تأمل معي: إن أول ما يركبه الإنسان من الدواب هو من الأزواج: الخيل، والبغال، والحمير، والإبل... كلها أزواج فيها ذكور وإناث. بل إن الفلك (السفن) تسير بقانون الأزواج أيضاً: الريح والماء، الشراع والدفة، الرفع والجاذبية... كلها أزواج متقابلة تجتمع لتسير السفينة.

وهناك سر أعمق: إن الذي خلق الأزواج كلها فجعل فيها قانون التناسل والتكاثر، هو الذي سخر لك هذه الأزواج لتركبها وتتفجع بها. فلو لم يخلقها أزواجاً لانقرضت من الأرض، ولما وجدت ما تركبه. إنها دائرة النعمة المترابطة: الخلق، فالزواج، فالتناسل، فالبقاء، فالانتفاع. رسائل ودروس وتوجيهات من قوله: {وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا}

الرسالة الفكرية: وحدة الخالق من وحدة القانون

تأمل معي... ألا ترى أن قانون الزوجية يسري في الذرة كما يسري في المجرة؟ ألا ترى أن الذكر والأنثى موجودان في الفيل كما في النملة، وفي النخلة كما في الحبة الصغيرة؟ من الذي وضع هذا

القانون الواحد في كل هذه المخلوقات المتباينة؟

إنه الخالق الواحد. إن وحدة القانون الكوني دليل على وحدة المشرع الكوني. ولو كان هناك آلهة متعددون، لاختلت هذه القوانين، وتضاربت، ولما رأينا هذا الإحكام البديع. {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}.

الرسالة النفسية: التأمل في الزوجية يورث السكينة

إن من أعظم ما يورث السكينة في نفس المؤمن أن يتأمل في قانون الزوجية في الكون. فالعسر لا يدوم، بل يجيء بعده اليسر. والليل لا يطول، بل يعقبه النهار. والحزن لا يستمر، بل يخلفه الفرح. و المرض لا يستوطن، بل يشفع بالصحة. كلها أزواج متقابلة، تدل على أن الدنيا لا تستقر على حال، وأن قانون التبدل والتغيير هو سنة الله في الخلق.

فإذا ضاقت بك الدنيا - يا صاحبي - فتذكر: {خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا}. إن الضيق زوج السعة، والهم زوج الفرج، والعسر زوج اليسر. ثق ببرك الذي جعل لكل شيء زوجاً، وانتظر فرجه.

الرسالة التربوية: تعليم المتعلمين رؤية الوحدة في التنوع

أيها المربي، أيها المعلم... علم تلاميذك أن ينظروا إلى هذا الكون، فيروا كيف أن الكثرة الكاثرة فيه ترجع إلى أصل واحد، وكيف أن التنوع المبهر فيه تحكمه قوانين واحدة. علمهم أن ينتقلوا من تأمل الزوج والزوج في المخلوقات، إلى الإيمان بالخالق الواحد الأحد. هذه هي التربية الإيمانية التي تربط العلم بالإيمان، والمشاهدة باليقين.

المحور الثاني

{وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الظَّالِمِ الْأَنْعَامَ مَا تَرْكَبُونَ}

الملك والأنعام... نعم الله في البر والبحر

منحة التسخير التي تفوق كل تصور
{وَجَعَلَ}: فعل التسخير والتهيئة

تأمل معي هذه الكلمة: {جَعَلَ}. لقد تكررت في السورة مرة بعد مرة: {جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا}، {وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا}، {وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الظَّالِمِ الْأَنْعَامَ مَا تَرْكَبُونَ}. إنه التكرار المقصود الذي يريد أن يرسخ في قلبك حقيقة أن كل هذه النعم لم تأت صدفة، ولم توجد عبثاً، بل "جعلت" أي هيئت وأعدت وقصدت لتكون في خدمتك.

والملك والأنعام خصوصاً فيهما معنى الجعل العجيب. فالسفينة لم تكن لتصلح لركوب البحر لولا أن الله جعل في الماء خاصية الطفو، وجعل في الخشب خاصية الخفة، وجعل في الريح خاصية الدفع، وجعل في عقل الإنسان قدرة على الاستفادة من هذه الخواص. كلها "جعلت" أي هيئت بتدبير إلهي محكم. وكذلك الأنعام: الإبل والخيول والبغال والحمير... لولا أن الله جعل فيها القوة والاحتمال والطواعية، ولولا أنه جعل ظهورها مستوية ممهدة صالحة للركوب، ما استطاع الإنسان أن يركبها. {لَكُمْ}: لام المنفعة والامتنان

وتأمل - رعاك الله - هذه اللام الصغيرة: {لَكُمْ}. إنها لام الاختصاص، لام المنفعة، لام الامتنان. إنها تقول لك: "هذا كله من أجلك أنت، أيها الإنسان. الملك والأنعام لم تخلق لنفسها، بل خلقت وسخرت لخدمتك وراحتك".

ألا تشعر بشيء من الحياء وأنت تقرأ هذه اللام؟ إن الله يعدد عليك نعمه، ويخصك بها، ويقول لك: "من أجلك أنت جعلت الملك تجري في البحر، ومن أجلك أنت ذلت الأنعام لتركبها". فأين شكرك؟ أين حياؤك من هذا الإله المنعم؟!

منَ الملكِ والأنعامِ: النعم الجامعة للبر والبحر

وتأمل هذا الجمع البديع بين {الملك} و{الأنعام}. إن الملك هي مراكب البحر، والأنعام هي مراكب البر. وبينهما يجتمع للإنسان مراكب سفره وتنقله كلها.

الفلك (بضم الفاء وسكون اللام): هي السفن. والكلمة في العربية تستعمل للمفرد والجمع معاً. و"من" هنا للتبويض، أي جعل لكم بعض ما في الفلك والأنواع من منافع الركوب، فإن فيها منافع أخرى غير الركوب من اللحم واللبن والوبر والزينة.

والأنعام هي الإبل والبقر والغنم، ويدخل معها الخيل والبغال والحمير. قال تعالى في موضع آخر: {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً}. فتأمل كيف اختصرت الآية في الزخرف كل ذلك في كلمتي {الفلك والأنعام}.
{ما تَرْكَبُونَ}: صيغة العموم التي تشمل كل مركوب

وكلمة {ما} هنا من ألفاظ العموم. فتشمل كل ما يركبه الإنسان في البحر (من سفن ومراكب وبواخر وغواصات) وفي البر (من إبل وخيل وبغال وحمير، وفي عصرنا الطائرات والسيارات والقطارات). فـ "ما تركبون" تستوعب كل أنواع المراكب التي يخترعها الإنسان عبر العصور.

ألا تشعر - وأنت تقرأ هذه الكلمة - أن القرآن يخاطبك أنت اليوم بما تركب من سيارات وطائرات وقطارات؟ إنه يذكرك أن هذه المراكب الحديثة داخلية في قوله: {وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ}، وأن الله هو الذي يسر لك أسباب اختراعها، وهو الذي سخرها لك، وهو الذي يحفظها عليك. رسائل ودروس وتوجيهات من الآية

الرسالة الفكرية: التسخير لا يعني الاستغناء عن المسخر

الآية تقرر مفهوماً فكرياً خطيراً: إن تسخير المراكب للإنسان لا يعني أنه استغنى عن الله، بل يعني أنه ازداد حاجة إلى شكره. إن الإنسان المعاصر يركب الطائرة والقطار والسيارة الفارهة، فيظن أنه قد ملك زمام الأمور ولكنه ينسى أن الذي سخر له الفلك والأنعام هو الله، وأنه لو شاء لجعل هذه المراكب وبالاً عليه بدل أن تكون نعمة له.

كم من طائرة سقطت! وكم من سفينة غرقت! وكم من سيارة انقلبت! فإذا سلمت ووصلت، فاعلم أن الله هو الذي سخر لك هذا المركب، وهو الذي حفظك فيه، وهو الذي أوصلك إلى وجهتك.

الرسالة النفسية: الشعور بالامتنان يصنع السعادة

تأمل كم مرة ركب فيها سيارة أو طائرة أو قطاراً دون أن يخطر ببالك أن هذه نعمة من الله تستوجب الشكر! كم مرة جلست على مقعدك في الطائرة وأنت لا تشعر إلا بالضيق من ضيق المقعد أو التأخير أو الازدحام! ماذا لو غيرت نظرتك؟ ماذا لو تذكرت - وأنت في الطائرة - أنك محمول في الجو بين السماء والأرض، وأن الله هو الذي سخر لك هذا الطائر الحديدي الهائل؟ إن هذا التذكر يملأ قلبك امتناناً، والامتنان يصنع السعادة الحقيقية.

الرسالة التربوية: تربية الأبناء على رؤية النعم

أيها الأب، أيتها الأم... إذا ركبنا السيارة ومعك أبنائك، فلا تمرر هذه اللحظة مروراً عابراً. ذكرهم أن الله هو الذي سخر لنا هذه السيارة، وأننا لولا فضله ما استطعنا أن نركبها. علمهم دعاء الركوب، واذكر لهم أن هناك أناساً يمشون على أقدامهم مسافات طويلة، وأن هذه السيارة نعمة تستوجب الشكر. وهكذا تربيهم على رؤية النعم وشكر المنعم.

المحور الثالث

{لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِمْ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ}

غاية التسخير: من الانتفاع إلى الذكر والشكر

رحلة من المادة إلى الروح، ومن المركب إلى المنعم
{لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ}: غاية التسخير الجسدية

تأمل هذه اللام في {لِتَسْتَوُوا}. إنها لام التعليل، لام الغاية. تقول: جعلنا لكم المراكب كي تستووا على ظهورها. إن الاستواء على الظهر هو الجلوس مطمئناً مستقراً، بعد أن كان الركوب متعذباً أو شاقاً.

وانظر إلى دقة القرآن في التعبير: قال {ظُهُورِهِ} فأفرد الظهر، لأن المعنى: كل مركوب له ظهر تستوي عليه. وفي هذا الأفراد إشارة إلى أن ظهور الفلك والأنعام كلها صالحة للاستواء عليها، كلها ممهدة

مذلة.

ثم انظر كيف تبدأ الآية بالغاية الدنيوية المباشرة من التسخير: لتستووا على ظهوره. إنه اعتراف بأن الإنسان له حاجات مادية: يحتاج إلى أن ينتقل، ويسافر، ويقطع المسافات. والله لا يمن عليه بهذه النعم فحسب، بل يذكره بها ويطلب منه أن يستعملها فيما يرضيه. {ثم}: فاصل زمني ونفسي بين الغائيتين

والآن تأمل هذه الكلمة الصغيرة: {ثم}. إنها حرف عطف، ولكنها ليست كالواو ولا كالفاء. "ثم" تفيد الترتيب مع التراخي. تقول: جعلنا لكم المراكب لتستووا على ظهورها، وبعد أن تستووا وتستقروا وتطمئنوا... يأتي دور آخر، يأتي واجب آخر، يأتي مقام أعلى. إنها نقلة من المادة إلى المعنى، من المركب إلى المنعم، من النعمة إلى شكر النعمة.

إن "ثم" هنا تعلمك درساً بليغاً: لا تنس وأنت في رحلتك المادية أن لك هدفاً روحياً. لا تستغرق في وسيلة السفر حتى تنسى غايته. لا تستمتع بالنعمة حتى تنسى المنعم. بعد أن تستوي على ظهر المركب وتطمئن، تذكر أن هناك ما هو أعظم من مجرد الركوب: هناك ذكر الله وشكره. مفهوم "ذكر النعمة" وأبعاده

الآن نصل إلى الجوهرة: {تَذَكُّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ}. ما معنى "ذكر النعمة"؟

المعنى الأول: ذكرها بالقلب. بأن تستحضر في قلبك أن هذا المركب الذي تركبه، والسفر الذي تسافره، والوسيلة التي تنتقل بها... كلها نعم من الله. أن تشعر في أعماقك بالامتنان لله الذي سخر لك هذا كله.

المعنى الثاني: ذكرها باللسان. بأن تنطق بالحمد والشكر والتسبيح. وهذا ما أشارت إليه الآية التالية: {وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا}. إن ذكر النعمة يكون بالقلب ثم باللسان، وتواطؤ القلب واللسان هو الذكر الحقيقي.

المعنى الثالث: ذكرها بالجوارح. بأن تستخدم هذه النعمة فيما يرضي الله، لا فيما يسخطه. فالسيارة التي تركبها لا بد أن تستعملها في طاعة الله لا في معصيته. والطائرة التي تسافر بها اجعل سفرك لله وفي الله. وهكذا يكون ذكر النعمة عملياً أيضاً.

المعنى الرابع: ذكرها بالتحدث بها. {وَأَمَّا نِعْمَةُ رَبِّكَ فَحَدَّثَ}. بأن تخبر الناس بما أنعم الله به عليك، لا على سبيل الفخر والخيلاء، بل على سبيل الشكر والاعتراف بفضل الله. {نِعْمَةُ رَبِّكُمْ}: إضافة النعمة إلى الربوبية

وتأمل إضافة "النعمة" إلى "رب". قال: {نِعْمَةُ رَبِّكُمْ}، ولم يقل "نعمة الله" مع أن السياق في تعداد أسماء الله وأفعاله. لماذا؟

لأن "الرب" هو المربي والمراعي والمنعم. فذكر النعمة مع اسم "الرب" يذكرك بأن هذه النعمة ليست مجرد هبة عابرة، بل هي جزء من تربية الله لك، ورعايته لك، وتربيته لأمرك. إنه "ربك" الذي يربيك بنعمه، ويسوق إليك الخير من حيث لا تحتسب. ولذلك كان المناسب أن يذكر نعمته وهو يذكر ربوبيته.

{إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ}: ربط الذكر بالحال

والآن... {إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ}. إنها ظرف زمان، يربط ذكر النعمة بلحظة الاستواء على المركب. والأمر هنا ليس للوجوب فحسب، بل هو توجيه إلى أن أنسب الأوقات لذكر النعمة هو وقت الانتفاع بها. فإنسان حين يركب السيارة، أو يستقل الطائرة، أو يمتطي الدابة... عليه أن يذكر نعمة الله عليه في هذا الوقت بالذات.

وهذا يعلمنا - أيها المبارك - درساً عظيماً: لا تؤجل ذكر الله إلى وقت لاحق، بل اذكره في اللحظة التي تنتزل فيها النعمة عليك. لا تشغل بالنعمة عن المنعم، بل اجعل النعمة نفسها جسراً تعبر عليه إلى المنعم. رسائل ودروس وتوجيهات من الآية

الرسالة الفكرية: النعمة توجب الشكر

الآية تقرر مفهوماً فكرياً مركزياً: أن النعم الإلهية ليست مجرد متاع دنيوي، بل هي حقوق لله على عباده. إنه حق الشكر، وحق الذكر، وحسن الاستعمال. فالمركب الذي تركبه ليس مجرد وسيلة نقل، بل هو أمانة عندك، ونعمة عليك، ستسأل عنها يوم القيامة.

الرسالة النفسية: الشعور بالامتنان يحرر من القلق

إن أكثر الناس قلقاً هم أكثرهم نسياناً للنعم. إنهم يستخدمون النعم ولا يشعرون بها، فيعيشون في حالة من الجفاف النفسي والجوع العاطفي. أما المؤمن الذي يذكر نعم الله عليه، ويمتلئ قلبه امتناناً، فإنه يعيش في سكينه وطمأنينة ورضا. جرب وأنت راكب سيارتك أن تحمد الله وتسبحه، وانظر كيف يتغير مزاجك، وكيف يهدأ بالك.

الرسالة التربوية: تعليم النشء فن الشكر

أيها المربي، إن أعظم ما تورثه لمن تربيهم هو فن الشكر والامتنان. علمهم أن يقولوا "الحمد لله" على كل نعمة. دربهم على أن يذكروا نعم الله عليهم بالسنتهم وقلوبهم. اشرح لهم معاني الآيات التي تأمر بذكر النعمة. اجعلهم يعيشون في جو من الشكر الدائم لله. هذا هو التعليم الذي يصنع الإنسان السعيد حقاً.

المحور الرابع

{وتقولوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ}

ذروة العبودية عند ركوب المركب

حين يذوب العبد في تسبيحة التسخير
الدعاء المأثور: نص التسبيح والتعليم

والآن نصل إلى ذروة المشهد: {وتقولوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ}. إن هذا هو الذكر الذي أمر الله أن يقوله المؤمن عندما يستوي على مركبه. إنه تسبيح واعتراف وعبودية خالصة.

انظر إلى بدء هذا الذكر بـ "سبحان". إنها كلمة التنزيه والتعجب. إنك تسبح الله، أي تنزهه عن كل نقص وعن كل عجز، وتعجب من عظيم قدرته وجليل صنعته. وتسبيح الله عند النعم هو من أعظم مراتب الشكر، لأنك تشهد أن الله أعظم من كل نعمة، وأن النعمة لا تنسب إليه ولا تليق به إلا إذا تلقيتها بالتسبيح والتعظيم.

ثم تأمل صياغة الجملة: {سَخَّرَ لَنَا هَذَا}. إنها تشير إلى المركب الذي تركبه. أنت الآن في سيارتك، في طائرتك، في قطارك، على دابتك... فقل: "سبحان الذي سخر لنا هذا". هذه الإشارة تجعل الذكر حياً متصلاً بالواقع، لا مجرد كلمات تجري على اللسان دون استحضار.

{وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ}: ذروة الاعتراف بالعجز

والآن تأمل هذا الاعتراف العجيب: {وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ}. "مقرنين" من الإقران، وهو الإطاقة والقدرة على الشيء. تقول: "أقرن لهذا الأمر" أي أطيقه وأقوى عليه. وجاءت "ما كنا" بصيغة النفي مع الفعل الماضي، لتدل على أن عجزنا عن تسخير هذا المركب عجز مستمر، عجز أصيل فينا، ليس طارئاً ولا عارضاً.

إن الاعتراف بالعجز هو ذروة العبودية. إنك تقول لله: "يا رب، أنا أعترف أنني مهما بلغت من العلم والقوة والتكنولوجيا، فلن أستطيع تسخير هذه المراكب لولا أنت. أنت الذي سخرتها لي، أنت الذي دللتها لي، أنت الذي جعلتها تحت أمري. أنا العاجز، وأنت القادر. أنا الضعيف، وأنت القوي. لولاك ما ركبت ولا سافرت ولا انتقلت".

تأمل كيف يتحول ركوب الدابة أو السيارة أو الطائرة إلى مدرسة في التواضع. إن الحضارة المادية تعلمك الغرور والكبر، وتوهمك أنك بإنجازاتك التقنية قد ملكت زمام الكون. ولكن القرآن يعلمك أن تقول وأنت تركب هذه المخترعات الحديثة: {وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ}. لسنا قادرين على تسخيرها، لولا الله. إنها شهادة حق، واعتراف صدق، وتذكرة دائمة للعبد بضعفه أمام قوة الخالق. كيف تحول الآية الركوب إلى عبادة؟

والآن دعنا نستنتج معاً: كيف تحول هذه الآية الكريمة عملية "الركوب" المادية البحتة إلى "عبادة" روحانية خالصة؟

السر في أربعة أمور:

1. النية: أن تركب وأنت تنوي بذلك طاعة الله، وتستحضر أن ركوبك هذا يجب أن يقرن بشكر وذكر.
2. الذكر: أن تقول هذا الدعاء المأثور وأنت في مركبك، بقلب حاضر ولسان ذاك.
3. الاستشعار: أن تستشعر فعلاً " أن الله هو الذي سخر لك هذا المركب، وأنت عاجز عن تسخير نفسك.
4. المسؤولية: أن تستخدم هذا المركب في طاعة الله لا في معصيته، وأن تذكر أنك راجع إلى الله.

وهكذا يتحول ركوب الحافلة، أو قيادة السيارة، أو ركوب الطائرة، إلى محراب عبادة، وإلى تسبيحة عابرة للآفاق، وإلى تذكرة بالمسار إلى الله. رسائل ودروس وتوجيهات من الآية

الرسالة الفكرية: العلم والتقنية لا ينفيان الحاجة إلى الله

الآية توجه رسالة بالغة الأهمية للإنسان المعاصر: مهما بلغت من التقدم العلمي والتقني، فأنت ما زلت محتاجاً إلى الله. نعم، أنت اخترعت الطائرة، ولكن من الذي سخر لك قوانين الجاذبية والديناميكا الهوائية لتستفيد منها؟ من الذي أعطاك العقل الذي اخترع بهذه؟ من الذي يحفظ مركبك في الجو وفي البحر وفي البر؟ إن العلم لا يلغي الحاجة إلى الله، بل يزيدها، لأنك كلما ازدادت علماً، ازدادت معرفة بعظمة الخلق فازدادت معرفة بعظمة الخالق.

الرسالة النفسية: التحرر من الغرور التكنولوجي

الإنسان المعاصر يعيش في حالة من الغرور التكنولوجي، يشعر أنه قد امتلك الكون وقهر الطبيعة. هذا الغرور يولد القلق والخوف والاضطراب، لأنه غرور كاذب لا أساس له. لكن المؤمن الذي يقول في كل رحلة: {وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ} يتحرر من هذا الغرور، ويعيش في حالة من التواضع والسكينة. إنه يعرف أن الله هو المسخر، وهو الحافظ، وهو الموصول.

الرسالة التربوية: تعليم الأطفال الدعاء عند الركوب

أيها المربي، أيتها الأم... من أجمل ما تورثانه لأطفالكما أن تعلموهم أدعية الركوب. اجعلوا الطفل يردد معكم: "سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون". اشرحوا له المعنى بما يناسب عمره. قولوا له: "نحن نركب السيارة، والسيارة نعمة من الله، فلا بد أن نشكر الله". وهكذا ينشأ الطفل وفي قلبه تعلق بالله، وفي لسانه ذكر لله، وفي عقله وعي بنعم الله.

المحور الخامس

{وإنا إلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ}

من المسير الدنيوي إلى المسير الأخروي

خاتمة التسبيح وتذكرة السفر الأكبر

{وإنا إلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ}: البعد الغيبي في الذكر

والآن نصل إلى خاتمة هذا الذكر المبارك: {وإنا إلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ}. إنها الجملة التي تختم التسبيح، وتربط المسير الدنيوي بالمسير الأخروي، وتجعل من كل رحلة صغيرة في الدنيا تذكرة بالرحلة الكبرى إلى الله.

"منقلبون" من الانقلاب، وهو الرجوع والعودة. فكل إنسان ذاهب إلى وجهة ثم راجع إلى أهله، هو "منقلب". ولكن السياق هنا يريد أبعد من هذا: إنه يريد الانقلاب إلى الله يوم القيامة. فالمرء يخرج من بيته في الصباح، ثم يعود إليه في المساء. ويخرج إلى سفره ثم يعود إلى وطنه. ويولد في الدنيا ثم يموت ويعود إلى ربه. كلها رجعات، وكلها تذكر بالرجعة الكبرى: الرجعة إلى الله للحساب والجزاء.

دلالات الربط بين الركوب والانقلاب إلى الله

لماذا جاء ذكر الانقلاب إلى الله في سياق الركوب؟

الدلالة الأولى: لأن الركوب سفر. والسفر يذكرك بسفر الحياة كلها، ثم بسفر الموت، ثم بسفر البعث إلى الله. أنت الآن في هذه الحافلة أو الطائرة أو السيارة، ذاهب إلى مدينة أخرى، ثم ستعود إلى بيتك. ألا يذكرك هذا بأنك في سفر دائم في هذه الدنيا، وأنت عائد إلى الله؟!

الدلالة الثانية: لأن الركوب مصحوب بالخطر غالباً. في كل رحلة، هناك احتمال أن يصيب المركب مكروه، فيموت الراكب. وهذا الخطر يذكرك بقرب الموت، وقرب اللقاء بالله. ولذلك كان من المناسب جداً أن تذكر - وأنت في مركبك - أنك راجع إلى الله، لعل هذا يدفعك إلى الاستعداد لهذا اللقاء.

الدلالة الثالثة: لأن الركوب نعمة تستوجب الاستعداد للحساب. فالله الذي أنعم عليك بهذا المركب، سائلك عنه يوم القيامة: {تَمْ لِّتُسْأَلْنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}. فذكر الانقلا ب إلى الله يذكرك بهذا السؤال، ويدفعك إلى أن تستعمل النعمة فيما يرضي الله.

الدلالة الرابعة: ليكتمل مشهد العبودية. المؤمن يفتتح ركوبه بالتسبيح والاعتراف بالعجز، ويختتمه بالتذكرة بالعودة إلى الله. التسبيح في البداية، والاستسلام في النهاية. الحمد في الأولى، والإنابة في الأخيرة. وهكذا تكتمل دائرة العبودية لله.

التأكيدات المتتابعة في {وإنا إلى ربنا لمُنْقَلِبُونَ}

تأمل معي قوة التأكيد في هذه الجملة القصيرة: {وإنا إلى ربنا لمُنْقَلِبُونَ}.

أولاً: {إنا} فيها تأكيد بـ "إن".

ثانياً: {إلى ربنا} فيها إضافة الرب إليهم، مما يفيد القرب والاختصاص، فهو ربهم الذي رباهم بنعمه.

ثالثاً: {لمُنْقَلِبُونَ} اللام فيها لام التوكيد، والجملة اسمية تفيد الثبات.

فالمعنى إذن: نحن على يقين جازم، لا شك فيه ولا ريب، أننا عائدون إلى ربنا الذي ربانا، والذي أنعم علينا بهذه النعم كلها، والذي سخر لنا ما نركب. فكيف نكفر بهذه النعم؟ وكيف نغفل عن لقاءه؟ وكيف لا نستعد ليوم الحساب؟!

كيف يحول هذا الذكر حياتك العملية؟

اسأل نفسك الآن - أيها المبارك - لو أنك قلتها بقلبك ولسانك كل مرة ركبت فيها مركباً... كيف ستتغير حياتك؟

سيصبح كل ركوب تذكرة بالآخرة. لن تكون السيارة مجرد وسيلة نقل، بل ستكون وسيلة تذكير.

ستزداد مراقبتك لله. فإذا علمت أنك راجع إلى الله، راقبت سلوكك في سفرك، فلا تغش، ولا تكذب، ولا تؤذ أحداً.

ستخفف من ذنوبك. فمن كان في قلبه تذكرة العودة إلى الله، لم يطلق لنفسه العنان في المعاصي، بل كفها وردعها.

ستشعر بالطمأنينة. فأنت تعلم أنك في طريق عودة إلى رب كريم رحيم، لا إلى ملك جبار ظالم. رسائل ودروس وتوجيهات من الآية

الرسالة الفكرية: كل مسير في الدنيا هو درس في المسير إلى الله

الآية تقدم مفهوماً فكرياً عميقاً: إن رحلاتك الدنيوية كلها دروس عملية في رحلتك الكبرى إلى الله.

فكما أنك تخطط لسفرك، وتأخذ زادك، وتختار مركبك، وتسير في طريقك... فكذلك رحلتك إلى الله تحتاج إلى تخطيط وإعداد وزاد: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}.

الرسالة النفسية: اليقين بالرجوع إلى الله يورث السكينة

حين تستقر في نفسك حقيقة أنك راجع إلى الله، فإن هذا اليقين يمنحك سكينة عجيبة. فمهما تكن رحلتك الدنيوية شاقة ومتعبة، فأنت تعلم أن لها نهاية، وأن وراءها راحة. ومهما تكن سفرتك الدنيوية ممتعة ومثيرة، فأنت تعلم أنها ستنتقطع، وأن وراءها حساباً. هذا التوازن النفسي بين الخوف والرجاء، بين الأمل والحذر، هو الذي يصنع السكينة الحقيقية.

الرسالة التربوية: غرس عقيدة البعث في النفوس

من خلال هذا الدعاء اليومي، تترسخ عقيدة البعث والرجوع إلى الله في نفوس المؤمنين. إنهم يكررون في كل رحلة: {وَأَنَا إِلَى رَبِّي لَمُتَّقِلُونَ}. هذا التكرار اليومي يحول العقيدة من مجرد فكرة نظرية إلى حقيقة معاشة، وإلى شعور دائم، وإلى محرك للسلوك.

المحور السادس

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً: استعادة روحانية السفر والتنقل

في عصر السرعة والتقنية، تحول السفر من مغامرة روحانية إلى عملية آلية روتينية. ندخل السيارة، ندير المحرك، نحدد الوجهة على الملاح، وننطلق... دون أن يخطر ببالنا أن هذه نعمة تستوجب الشكر، وأن هذا السفر تذكرة بالسفر إلى الله.

الآيات تدعونا - اليوم - إلى أن نستعيد روحانية السفر، بأن نبدأ كل رحلة بذكر الله، ونمضيها في مراقبته، ونختتمها بشكره. إنها تدعونا إلى أن نحول وسائل النقل الحديثة من غفلة إلى يقظة، ومن روتين إلى عبادة.

ثانياً: مواجهة الغرور التكنولوجي بالاعتراف بالعجز

الإنسان المعاصر يركب طائرته، ويجلس في سيارته الفاخرة، وينظر إلى نفسه وكأنه قد قهر الطبيعة وامتلك الكون. هذا الغرور هو الذي أوقعه في الإلحاد والبعد عن الله. تأتي الآية: {وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ} لتصفه بيده! ليعرف أنه مهما اخترع فإنه عاجز لولا تسخير الله له. هذه الروح المتواضعة هي التي يحتاجها إنسان اليوم ليعود إلى ربه.

ثالثاً: تحويل التكنولوجيا إلى وسيلة للذكر لا للغفلة

التكنولوجيا في ذاتها ليست شراً ولا خيراً، بل هي أداة. تستطيع بها أن تغفل عن الله، وتستطيع بها أن تذكر الله. تستطيع أن تستخدم الطائرة لتعصي الله، وتستطيع أن تستخدمها لتطيعه. الآية تعلمنا كيف نحول التكنولوجيا (المراكب) إلى وسيلة للذكر والتسبيح والعبودية لله.

المحور السابع

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: التسخير مبدأ قرآني لفهم علاقة الإنسان بالكون

الآيات ترسخ مفهوماً فكرياً مركزياً في الرؤية القرآنية للكون: مبدأ التسخير. فكل ما في الكون من أرض وسماء وبحار وجبال وحيوان ونبات وجماد... كله مسخر للإنسان، يسخره الله له. والإنسان نفسه عبد لله، فالتسخير لا يعني التملك المطلق، بل هو انتفاع مشروط وموقت، سيسأل عنه الإنسان يوم القيامة.

هذا المفهوم يختلف تماماً عن المفهوم المادي الذي يرى الكون مادة عمياء، والإنسان سيدها المطلق. إنه مفهوم متوازن: الإنسان مكرم، والكون مسخر، والله هو المسخر والمالك.

المفهوم النفسي: الذكر عند النعم يصنع السعادة

الآيات تقدم مفهومًا نفسيًا بالغ الأهمية: أن دوام ذكر الله عند النعم هو السبيل إلى السعادة الحقيقية. فالإنسان الذي ينسى الله عند النعمة، تصبح النعمة وبالاً عليه، وتورثه الغرور والقلق والخوف من زوالها. أما الذي يذكر الله عند النعمة، فيشعر بالامتنان والسكينة، وتصبح النعمة جسراً إلى الله.

المفهوم التربوي: التعليم العملي للأطفال

الآيات تقدم نموذجاً للتربية العملية: تعليم الأطفال الأذكار والأدعية في مواضعها. فتعليم الطفل أن يقول عند ركوب السيارة: "سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين" هو تربية عملية على الذكر و الشكر والتوحيد، أفضل من ألف محاضرة نظرية في هذه المعاني.

المحور الثامن

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: أن نجعله حاضراً في كل حركاتنا

الله يريد منا أنه أن يكون حاضراً في حياتنا، لا فقط في المساجد والصلوات. إنه يريد أن نذكره في الطريق، وفي المركب، وفي السفر، وفي كل حال. إنه يريد عبودية شاملة للحياة كلها، لا عبودية للأوقات المخصصة وحدها.

الإرادة الثانية: أن نشهد عجزنا وفقره إليه

الله يريد منا أن نعترف - بقلوبنا وألسنتنا - أننا فقراء إليه، عاجزون بدون تسخير. إنه يريد أن نخلع رداء الكبر والغرور الذي يلبسه الإنسان المعاصر، ونلبس رداء التواضع والعبودية.

الإرادة الثالثة: أن نستعد للقائه في كل لحظة

الله يريد منا أن تظل تذكرة الرجوع إليه حية في قلوبنا. في كل رحلة نركبها، نذكر أننا عائدون إلى الله. في كل سفر، نتذكر السفر الأخير إلى الدار الآخرة. وهكذا نبقي مستعدين، متيقظين، متأهبين.

المحور التاسع

أبعاد الآيات وآفاقها

البعد المعرفي: الكون مسرح للاستدلال على الله

الآيات ترسخ بعداً معرفياً: أن هذا الكون كله آيات، والفلك والأنعام آيات، والتسخير آية. فمن أراد أن يعرف الله، فلا يحتاج إلى أدلة فلسفية معقدة، بل ينظر في المركب الذي يركبه، ويرى يد الله التي سخرته له.

البعد المنهجي: الجمع بين النظر والعمل

الآيات تقدم منهجاً متكاملًا يجمع بين التأمل النظري والعمل العملي. فالاعتراف بالعجز ليس مجرد فكرة في الذهن، بل هو قول باللسان، وعمل بالجوارح، وشعور بالقلب.

البعد الحضاري: التكنولوجيا في خدمة الإيمان

الآيات تفتح بعداً حضارياً مهماً: أن التكنولوجيا يمكن أن تتحول من وسيلة إحد إلى وسيلة إيمان. فإذا قال سائق الطائرة وراكبها: "سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين"، تحولت الطائرة إلى محراب تسبيح، وإلى آية من آيات الله.

المحور العاشر

تحويل الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

المسار الأول: بناء الإنسان المتواضع الشاكر

الحضارة تحتاج إلى إنسان متواضع، لا إلى إنسان مغرور. والآيات تبني هذا الإنسان من خلال الأ

اعتراف بالعجز: {وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ}. إنها تربي فيك التواضع، وتقتلع من قلبك جذور الكبر والغرور.

التطبيق العملي: درب نفسك على أن تقول هذا الدعاء في كل مرة تركب فيها مركباً. درب نفسك على أن تستشعر معنى العجز والفقر إلى الله. درب نفسك على أن تحول ذكرك باللسان إلى شعور بالقلب.

المسار الثاني: بناء المجتمع الشاكر الذاكر

المجتمع الحضاري هو المجتمع الذي يذكر الله في كل حركاته. مجتمع يركب الناس فيه سياراتهم وقطاراتهم وطائراتهم، وهم يسبحون الله ويحمدونه. هذا المجتمع دائم الصلة بالله، دائم الشكر لنعمه.

التطبيق العملي: علم أهلك وأبناءك هذا الدعاء. اجعله شعاراً لأسفار عائلتك. انشره بين أصدقائك وزملاءك. كلما ركبت مع أحد سيارة أو طائرة، ذكرهم بأن يقولوا هذا الدعاء.

المسار الثالث: بناء الحضارة المستندة إلى التسخير لا إلى الاستغناء

الحضارة المادية تبني نفسها على مفهوم "الاستغناء عن الله"، فتملاً الإنسان غروراً، ثم تتركه في النهاية فارغاً قلقاً. أما حضارة الإسلام فتبني على مفهوم "التسخير": أن كل ما في الكون مسخر من الله، فنحن نستخدم النعم ونحن شاكرون، لا كافرون.

التطبيق العملي: استخدم التقنية الحديثة وأنت تقول: "سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين". حول استخدامك للجوال والإنترنت والطائرة إلى ذكر لله. ذكر من حولك بهذه الآية، واربطهم بالله المحور الحادي عشر

دور الآيات في البناء والتنمية

دورها في البناء الفكري:

- ترسيخ مبدأ التسخير الإلهي في الفكر.
- ربط النعم بالمنعم في العقل والوجدان.
- تأكيد وحدة الخالق من خلال قانون الأزواج.

دورها في البناء النفسي:

- صنع الامتنان والسكينة من خلال ذكر النعم.
- تربية النفس على التواضع والاعتراف بالعجز.
- توريث الطمأنينة من خلال اليقين بالرجوع إلى الله.

دورها في البناء الاجتماعي:

- نشر ثقافة الشكر والذكر في المجتمع.
- ربط الناس بربهم في حركاتهم اليومية.
- تعليم الأجيال الناشئة أدعية السفر والركوب.

دورها في البناء الحضاري:

- تحويل التكنولوجيا إلى وسيلة للعبادة لا للغفلة.
 - بناء حضارة متواضعة شاكرة تقوم على التسخير لا الاستغناء.
 - تقديم نموذج للإنسان المتأله في حركاته وسكناته.
- المحور الثاني عشر

كيف تحول الآيات إلى واقع معاش؟

الخطوة الأولى: احفظ الدعاء وردده في كل ركوب

احفظ قوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ}. واجعله

ورداً لك في كل مرة تركب فيها سيارة أو طائرة أو قطاراً أو سفينة. ليكن هذا الدعاء هو أول ما يجري على لسانك وأنت تجلس في مقعدك.

الخطوة الثانية: درب قلبك على الاستشعار

لا تجعل الدعاء مجرد حركة لسان. درب قلبك على أن يستشعر المعنى. تذكر فعلاً " أن الله هو الذي سخر لك هذا المركب. استشعر عجزك وضعفك. استشعر رحمة الله بك إذ ذل لك هذا المركب. استشعر أنك إلى الله راجع.

الخطوة الثالثة: علمه من حولك

لا تحتفظ بهذه الكنوز لنفسك. علمها لزوجتك وأولادك وإخوانك وأصدقائك. اشرح لهم معاني الآيات، واقصص عليهم ما فهمته منها. كن داعية إلى الله في الطريق والمركب والسفر.

الخطوة الرابعة: اجعله درساً في التواضع لله

كلما شعرت بشيء من الغرور بسبب سيارتك الجديدة، أو طائرتك الخاصة، أو قطارك الفاخر... قل لنفسك: {وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ}. تذكر أنك عاجز، وأن الله هو الذي سخر لك هذا فاحمده. الخاتمة: من محراب المركب إلى لقاء الرب

أيها القارئ الكريم... لقد قطعنا معاً رحلة عميقة في أعماق هذه الآيات الثلاث الكريمة. بدأنا مع {وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا}، ففتحنا أعيننا على قانون الزوجية الذي يسري في الكون. ثم انتقلنا إلى {وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ}، فرأينا نعم الله في البر والبحر. ثم ارتقينا إلى {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ}، فعرفنا الغاية المادية من التسخير. ثم بلغنا الذروة: {ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ}، فتعلمنا فن تحويل النعم إلى ذكر وشكر. ثم هبطنا إلى الوادي المقدس: {سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ}، فتجرعنا كأس العجز والعبودية. ثم ختمنا المسير: {وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ}، فتذكرنا أن كل طريق في الدنيا ينتهي إلى طريق الآخرة.

والآن أسألك... وأنت تقرأ هذه الكلمات... هل شعرت بشيء قد تغير في داخلك؟ هل تحركت في قلبك مشاعر لم تكن تعرفها من قبل؟ هل عذمت على أن تجعل من رحلاتك محاريب تسبيح، ومن أسفارك مدارس تذكير، ومن مراكبك منابر عبودية؟

إن ربك ينتظر منك أن تذكر نعمته عليك. إنه ينتظر منك أن تسبحه في كل مركب تركب. إنه ينتظر منك أن تستشعر عجزك وفقره إليه. إنه ينتظر منك أن تذكر لقاءه فتستعد له.

فهل أنت فاعل؟

القسم الثالث

المبحث الأول

تفسير الآيتين (15-16) من سورة الزخرف

{وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ}. أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنيين)

حين يصبح الكفر منطقاً أعوج... وحين تتهاوى التصورات الجاهلية تحت مطرقة الوحي تقدمة لا بد منها: موقع الآيتين من السورة ومن مسار المواجهة العقدية

قف معي - يا رعاك الله - وقفة تأمل قبل أن تدخل إلى أعماق هاتين الآيتين الكريمتين. إنك الآن على أبواب مشهد من أشد مشاهد القرآن وأكثرها إيلافاً للنفس المؤمنة. إنه المشهد الذي تنكشف فيه أعماق الجاهلية، وتتعري فيه التصورات الفاسدة، ويسقط فيه كل قناع عن الوجه القبيح للشرك.

لقد كنا في الآيات السابقة في رحلة إيمانية شفيفة: رأينا الله يعدد نعمه على الإنسان، ورأينا كيف ينتزع الاعتراف من المشركين بأنه {العزيز العظيم}، ورأينا كيف يذكرهم بنعمه في الأرض مهدداً، وفيها سبلاً، والماء ينزل من السماء بقدر، والفلك والأنعام مسخرة للركوب. وكانت تلك النعم كلها تصب في قالب واحد، هو: إثبات التوحيد، وشكر المنعم، والاعتراف له بالعبودية.

ولكن... بعد كل هذا التذكير، وبعد كل هذا التعداد للنعم، يأتي الرد الصادم: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ

جُزءًا}. إنهم لم يشكروا! لم يوحّدوا! بل جعلوا لله شركاء، ونسبوا إليه ما لا يليق بجلاله، واخترعوا له "جزءًا" من عباده. يا للكفران! يا للجهود! يا للتناقض الذي لا يصدر إلا عن عقل معتم وقلب مظلم!

وهكذا تنتقل السورة بنا الآن من مقام تعداد النعم إلى مقام كشف التصورات الفاسدة. من مشهد الرحمة الإلهية إلى مشهد الجحود البشري. من صوت التسبيح في المراكب: {سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا} إلى صوت الكفران: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ}. إنها نقلة عنيفة، ولكنها ضرورية، لأن السورة تريد أن تضع يدك على موضع الداء، قبل أن تصف لك الدواء. المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيتين ومقاصدهما وأهدافهما

دعني الآن أضع بين يديك وقلبك الأفكار النابضة في هاتين الآيتين الكريمتين. لا تقرؤها كأني قائمة جافة، بل اجعل كل فكرة منها تقتحم أعماق نفسك، وتثير فيك التساؤلات، وتوقظ في قلبك عاطفة الغيرة على جناب الله.

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيتان الكريمتان:

1. كشف جحود المشركين وتناقضهم: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا} (هو بيان للفعل الشنيع الذي ارتكبه المشركون: إنهم جعلوا لله الذي اعترفوا بأنه الخالق {العزيز العظيم}، "جزءًا" من عباده، كأنهم يقتطعون له قطعة من خلقه، ويجعلونها له ولداً أو شريكاً).
2. تشخيص الداء ووصف حقيقة الإنسان الكفور: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ} (هو تعليل لجحودهم، وكشف لنفسية الإنسان حين ينحرف عن الفطرة. إنه "كفور"، أي جحود للنعم مبالغ في كفرانها، و"مبين" أي ظاهر الكفران، لا يستره ولا يخفيه).
3. الرد المنطقي الساحق على التصورات الجاهلية: {أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْنَاكُم بِالْبَنِينَ} (هو سؤال إنكاري يهدم مزاعم المشركين الذين نسبوا لله البنات) الملائكة إناثاً (وكرهوا البنات لأنفسهم، فكيف يجعلون له ما يكرهون لأنفسهم؟)

مقاصد الآيتين وأهدافهما:

1. تقبيح الشرك وإظهار بشاعته: أن يرى المؤمن كم هو قبيح أن ينسب الإنسان إلى الله ولداً أو شريكاً، وهو الخالق العظيم الذي بيده ملكوت كل شيء.
2. تحطيم منطق الجاهلية من داخله: أن ينسف التصورات الجاهلية بمحض المنطق والعقل، ليرى المشركون أنهم واقعون في تناقض صارخ.
3. بيان سبب الضلال: أن يعرف المؤمن أن سبب الضلال هو الكفران، أي جحود النعم، مما يؤدي إلى تعطيل العقل وانحراف الفطرة.
4. تثبيت المؤمنين على التوحيد الخالص: أن تزداد قلوب المؤمنين غيرة على التوحيد، وأن يستعظموا الشرك أيما استعظام، فلا يقربوه ولا يتسامحوا فيه.

المحور الأول

{وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا}

الصدمة المنطقية... كيف يقطعون من المخلوقين جزءاً للخالق؟!

غوص في أعماق التناقض الجاهلي الذي يصرخ في وجه العقل وقفة مع الأسلوب: الواو التي تحمل سيل العتاب

دعني أقف بك عند حرف الواو في صدر الآية: {وَجَعَلُوا}. إنها واو العطف، ولكنها هنا تحمل طعماً خاصاً. إنها تعطف هذه الجملة على جمل النعم السابقة التي سلختها الآيات قبل قليل. وكأنها تقول: "الله خلق السماوات والأرض... وجعل لكم الأرض مهدياً... ونزل من السماء ماء... وسخر لكم الفلك والأنعام... ومع كل هذا فقد جعلوا له من عباده جزءاً!".

ألا تشعر - يا صاحبي - بوقع هذه الواو على أذنك وقلبك؟ إنها تنشئ مقارنة صامتة بين فيض النعم الإلهية وجحود العباد. إنها تحمل عتاباً خفياً، وتأنيباً لاذعاً، وأسى عميقاً. إنها الواو التي تقول: "انظر كم أنعمنا عليهم، وكم كفروا بنا!". "جعلوا": فعل الاختلاق والافتراء

تأمل الآن كلمة {جَعَلُوا}. إنها فعل مبنى للفاعل. والفاعل هنا هم المشركون. لقد "جعلوا" هم من عند

أنفسهم، من محض أهوائهم، من غير دليل ولا برهان... جعلوا لله ما لم يجعل سبحانه لنفسه.

و"جعل" هنا لا تعني الخلق ولا الإيجاد، بل تعني الاختراع والافتراء والزعم الباطل. فالمشركون لم يخلقوا شيئاً حقيقياً، ولكنهم اخترعوا مقالة كاذبة، وزعموا لله أمراً ما أنزل به من سلطان. وهذا هو حال كل مفتر على الله: إنه "يجعل" لله ما لم يرد الله، ويقول عليه ما لا يعلم.

ألا ترى في هذا الكلمة تعرية كاملة لموقفهم؟ إنهم ليسوا على علم، ولا على برهان، ولا على هدى. إنهم فقط "جعلوا" أي اختلقوا وافتروا. وكم في هذا من تحذير لكل إنسان يتكلم في دين الله بغير علم، أو ينسب إلى الله ما لم يرد في كتابه أو على لسان رسوله! {له}: لام الاختصاص التي تقلب المعنى

انظر إلى هذه اللام الصغيرة: {له}. إنها لام الاختصاص والنسبة. "جعلوا له" أي جعلوا لله مختصاً به، مضافاً إليه، منسوباً إلى ذاته العلية. إنهم لم يقولوا: "هؤلاء الملائكة بنات الله" بشكل عابر، بل "جعلوها" جزءاً من عقيدتهم الراسخة، نسبوها إلى الله، وأثبتوها في تصورهم للرب جل جلاله.

وهنا يبلغ القبح منتهاه. إنهم ينسبون إلى الله ما لا يليق به، ويختصونه بما يتنزه عنه. إنهم يجعلون "له" أي للعزیز العليم، للخالق الجليل، للمنعم المتفضل... يجعلون له ولداً وشريكاً، ويختصونه بما لا يليق بجلاله. أليس هذا هو عين الكفران؟! {من عبادهم}: كلمة تكفي لهدم كل معبود من دون الله

الآن نصل إلى بيت القصيدة: {من عبادهم}. تأمل هذه الكلمة جيداً. "من عبادهم" أي من جملة عبيده ومخلوقيه. هل شعرت بشيء في أعماقك؟ إن الملائكة الذين زعم المشركون أنهم بنات الله، والجن الذين عبدوهم من دون الله، والأصنام التي نحتوها بأيديهم... كلهم "عباد" لله، مخلوقون له، مملوكون له.

فكيف يكون العبد إلهاً؟ كيف يكون المملوك خالقاً؟ كيف يكون المخلوق ولداً للخالق؟! هذه الكلمة وحدها: {من عبادهم} تكفي لهدم كل ألوهية مزعومة، ونسف كل شرك، وإبطال كل تصور جاهلي. إنهم عبادهم، وهو ربهم وخالقهم. فأنى يكون العبد جزءاً من الإله؟

تأمل كيف يضع القرآن يده على مكن الخلل في أقل عدد من الكلمات. ثلاث كلمات: {من عبادهم} جزءاً... هدمت كل بناء الشرك. هذا هو بيان القرآن، وهذه هي بلاغته التي تأخذ بالألباب.

{جزءاً}: كلمة التفتيت والتشظية

والآن وصلنا إلى الكلمة الأكثر غرابة وإثارة: {جزءاً}. ما هذا "الجزء" الذي جعله المشركون لله؟

"جزء" في اللغة هو القطعة من الشيء، البعض من الكل. فكأن المشركين جعلوا لله "قطعة" من عبادهم، أو "بعضاً" من خلقه، زعموه ولداً له. وهذا التعبير - كما ستري - يحمل من الدلالات ما يكاد القلب ينفطر لسماعه:

الدلالة الأولى: تصغير لله وتشبيهه له بالخلق. فالله أحد صمد، لا يتجزأ ولا يتبعض. وجعلهم له "جزءاً" يعني أنهم تصوره كائن متجزئاً له أبعاض وأجزاء، كما يتجزأ المخلوقون. وهذا تشبيه للخالق بالمخلوق، ونسبة للصاحبة والولد إليه.

الدلالة الثانية: تسوية بين الخالق والمخلوق. فإذا كان بعض العباد "جزءاً" من الله، فمعنى ذلك أنهم من طبيعته وجوهره. وهذا تسوية صارخة بين العبد والرب، والمخلوق والخالق، والضعيف والقوي.

الدلالة الثالثة: احتقار للعباد الذين عبدوهم. لقد جعلوهم مجرد "جزء"، أي قطعة صغيرة من الله! فبينما يعبدونهم ويتذللون لهم، هم في الواقع يحقرونهم ويجزئونهم! أي تناقض هذا؟! رسائل ودروس وتوجيهات من الآية

الرسالة الفكرية: الشرك لا منطق له

الآية تقرر مفهوماً فكرياً هائلاً: أن الشرك لا يستند إلى أي منطق أو عقل أو دليل. إنه مجرد "جعل"

، أي اختلاق وإفتراء. والمشركون حين ينسبون إلى الله ولداً أو شريكاً، فإنهم يقعون في تناقض صارخ: فمن جهة يعترفون بأن الله هو الخالق، ومن جهة أخرى يجعلون المخلوق "جزءاً" من الخالق!

وكم في هذا من درس للمسلمين اليوم: إن كثيراً من التصورات الفاسدة التي تروج في عصرنا - من علمانية وإلحاد وروبية وغيرها - لا تستند إلى منطق سليم، بل هي مجرد "جعل" وهوى. ولو تأملها أصحابها قليلاً بموضوعية، لتكشفت تناقضاتها.

الرسالة النفسية: غيرتك على جناب الله

ألا تشعر وأنت تقرأ هذه الآية بشيء من الغيرة على جناب الله؟ ألا تحس بغضب في قلبك على الذين ينسبون إلى الله ما لا يليق به؟ هذه الغيرة هي غيرة التوحيد، وهي علامة الإيمان الصحيح. و القرآن يوقظ هذه الغيرة في قلب المؤمن بهذه الآيات التي تظهر قباحة الشرك وتناقضه.

الرسالة التربوية: تحطيم التصورات الفاسدة بالمنطق

أيها المربي، أيها الداعية... انظر كيف هدم القرآن التصور الجاهلي بكلمة واحدة: {من عباده}. تعلم أن تحاور المبطلين بأن تظهر تناقضهم، وتكشف خواء ما هم عليه. فلا تحتاج إلى صراخ ولا إلى سب، بل إلى بيان يضع النقاط على الحروف، ويسقط دعوهم من داخلها.

المحور الثاني

{إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ}

حين يكون الجحود طبيعة ثانية للإنسان الغافل

تشريح نفسية الإنسان الكفور... وكيف يصل إلى هذا الدرك؟

{إن}: التأكيد الذي يقطع الشك

تأمل كيف بدأت جملة التعليل: {إِنَّ الْإِنْسَانَ}. "إن" هنا للتوكيد، لقطع الشك وإزالة التردد. إنها تقول لك: "اعلم علماً يقينياً، لا ريب فيه ولا شك، أن الإنسان لكفور مبين". هذه حقيقة واقعة، ليست ظناً ولا تخميناً.

وهذا التأكيد يشعرك - أيها القارئ - بخطورة ما سيأتي بعدها. إنها كالجرس الذي يدق قبل إعلان الخبر الجلل. وكان الآية تقول: "تنبه! اسمع! الذي سيأتي بعد هذا مهم وخطير!".

"الإنسان": أي إنسان؟ وما سر التعريف؟

{الإنسان} (بألف ولام الجنسية) أو الاستغراق. (فهل تعني كل إنسان؟ وهل كل إنسان كفور مبين؟!

إنها تعني الجنس البشري بصفة عامة، أي أن الإنسان في أصله وطبيعته، إذا ترك لهواه وشأنه دون توفيق من الله، يميل إلى الكفران والجحود. إن ضعف الإنسان، وقصوره، ومحدوديته، مع ما أغدق الله عليه من نعم... كل ذلك يجعله مهياً لأن يطفئ ويكفر، إذا لم يمسكه الله برحمته.

ولكن هناك إنسان آخر: الإنسان المؤمن. هذا الإنسان خرج من هذا الجنس الكفور، واستثناه الله برحمته، فصار شكوراً عابداً. قال تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ}. إنا الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وهكذا، فالآية تصف الجنس البشري الخارج عن هداية الوحي، وليس كل فرد من أفرادها. "كفور": جحود يبالغ في كفرانه

الآن... ما هو "الكفور"؟ وما الفرق بينه وبين "كافر"؟

"كفور" صيغة مبالغة على وزن "فعول". فالكفور هو المبالغ في الكفران، المكثّر من جحود النعم، الغريق في ستر الحق وتغطيته. إنها لا تصف مجرد كفر عادي، بل كفراً عريقاً متأصلاً، كفراً يملأ القلب و الجوارح، كفراً لا يترك للنعمة أثراً في النفس.

وهل تعلم لماذا كان المشركون "كفورا"؟ لأنهم قابلوا هذه النعم المتتالية - السماوات والأرض، والماء،

والمراكب - بالشرك بالله. هذا ليس مجرد تقصير في الشكر، بل هو جحود مطلق، وكفران صريح. إنهم يرون النعم بأعينهم، ويعترفون بأن الله هو الخالق، ومع ذلك يعبدون غيره! أليس هذا هو الكفران بعينه؟! "مبين": الكفران الذي لا يستر ولا يخفى

ثم تأتي كلمة {مبين} لتكمل الصورة. "مبين" أي ظاهر، واضح، بين. إن كفرانهم ليس خفياً مستوراً، بل هو ظاهر واضح، يشاهده كل ذي عينين. إنهم يجهرون بشركهم، ويتفاخرون بكفرهم، ويعلنون زعمهم الباطل دون موارد.

وهناك معنى آخر: إن كفرانهم "مبين" أي هو في نفسه دليل على كفرهم، لا يحتاج إلى مزيد برهان. فمن نظر في حالهم رأى الكفران بادياً على أفعالهم وأقوالهم وعقائدهم. إنهم لم يتركوا مجالاً للشك في أنهم كفورون.

ألا تشعر - يا أخي - بقشعريرة وأنت ترى هذه الصورة المتكاملة للإنسان حين ينحرف: كفور (مبالغ في الجحود)، مبين (ظاهر الكفران)؟! إنها الصورة التي يجب أن تدفعك إلى الله لتسأله أن يحفظك من هذه الصفة، وأن يجعلك من عباده الشكور.

الربط بين {جزء} و{كفور}: من التناقض إلى الجحود

تأمل معي هذا الربط العجيب بين الآيتين: هم جعلوا لله {جزءاً}، وذلك لأن الإنسان {لكفور مبين}. ف جعل الباطل (الافتراء على الله) هو نتيجة طبيعية للكفران. من جحد نعم الله، انحرفت فطرته، واضطربت تصورات، فصار ينسب إلى الله ما لا يليق به.

وهنا نصل إلى قانون قرآني مهم: انحراف العقيدة يبدأ من انحراف القلب. القلب الذي لا يشكر، ولا يتأمل النعم، ولا يستحي من المنعم... هذا القلب سيخترع لنفسه عقائد باطلة، لأنه لم يعد قادراً على رؤية الحق. إن الكفران هو أصل الضلال، ومنبع الشرك، وأساس كل تصور فاسد. رسائل ودروس وتوجيهات من الآية

الرسالة الفكرية: الجحود يورث الضلال العقدي والفكري

الآية تعطينا تفسيراً لظاهرة الانحراف العقدي والفكري: إنه الجحود والكفران. فالملحد الذي ينكر وجود الله، لم ينكر لأنه لم يجد دليلاً، بل لأن قلبه جحد النعم، فتمرد على المنعم. والمشرک الذي يعبد الحجر، لم يفعل ذلك لأنه مقتنع، بل لأن فطرته تشوهت بفعل الكفران.

وهذا يعني أن معالجة الانحراف لا تكون بالمنطق والعقل فحسب، بل بتزكية القلب وتربيته على الشكر والامتنان. فحين يشكر الإنسان، يرى الحق، وحين يكفر، يعمى عن الحق.

الرسالة النفسية: استشعار خطر الكفران في حياتك

اسأل نفسك الآن - يا رعاك الله - بصدق: كم مرة جحدت نعم الله عليك؟ كم مرة نسبت نجاحك إلى ذكائك وجهدك، ونسبت فضل الله؟ كم مرة تمتعت بنعمة ولم تشكر الله عليها؟ إن هذا كله من الكفران، وهو - إذا تجذر في القلب - قد يؤدي إلى ضلال أكبر.

إن هذه الآية تريد أن توقظ فيك الخوف من الكفران، وأن تحملك على كثرة الشكر والحمد. فلا تدع يوماً يمر عليك دون أن تحمد الله على نعمه الظاهرة والباطنة.

الرسالة التربوية: تربية النشء على الشكر لا على الجحود

أيها المرء، إن أعظم ما تحمي به أبناءك من الضلال أن تربيه على الشكر. الطفل الذي ينشأ على شكر الله على طعامه وشرابه ومسكنه، لن ينحرف إلى إنكار نعم الله أو جحودها. إنما تتسلل بذور الإلحاد والشرك إلى القلوب التي جفت من الشكر، وامتألت بالكفران.

المحور الثالث

{أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ}

المنطق الذي يزلزل عرش الجاهلية

كيف يفضح القرآن التناقض الصارخ في تصورات المشركين؟

{أم}: حرف الإضراب والانتقال إلى الحجة الأقوى

تأمل هذه الكلمة الصغيرة: {أم}. إنها حرف إضراب وانتقال. إنها تقول: "دعوا عنكم هذا كله... بل دعونا ننتقل إلى حجة أخرى أقوى وأوضح، إلى تناقض أكبر وأبين. دعونا نحصي زعمكم بأنفسكم، ونرى هل يصمد أمام المنطق؟".

وأصل معنى "أم" هنا أنها "أم المنقطعة"، وهي التي بمعنى "بل" والهمزة معاً. فكأن الآية تقول: "بل أيقولون هذا؟! أتخذ مما يخلق بنات؟!". إنها تحمل استفهاماً إنكارياً، وتعجباً من شدة قبح ما يقولون.

{اتخذ}: فعل الاختيار والاصطفاء

{اتخذ} تختلف عن "جعل". "اتخذ" تفيد التبني والاختيار بعد أن لم يكن. إن المشركين زعموا أن الله "اتخذ" البنات، أي اصطفاهن لنفسه، وجعلهن له دونكم! وهذا أشنع وأفطع، لأنهم ينسبون إلى الله فعل اختيار وإرادة في تفضيل البنات على البنين.

والهمزة الاستفهامية هنا - كما قلت - للإنكار والتعجب. إنها تقول: "أحقاً - يا أيها المشركون - تقولون هذا القول الشنيع؟! أتزعمون أن الله اختار لنفسه البنات؟!".
{مِمَّا يَخْلُقُ}: وضع اليد على مكن التناقض

{مِمَّا يَخْلُقُ} (أي من جملة ما يخلق). "ما" هنا موصولة بمعنى الذي، وهي تعم كل المخلوقات.

بالله عليك... هل رأيت كيف يضع القرآن يده على مكن التناقض في أقل الكلمات؟ إنهم يزعمون أن الله اتخذ لنفسه "مما يخلق"، أي أنه اتخذ ولداً من جملة مخلوقيه! وهل المولود يكون من جنس الوالد، أم من جنس المخلوق؟! إن الولد جزء من والده، وجزء من جنسه. فكيف يكون المخلوق (وهو من جنس الخلق) ابناً للخالق (وهو من جنس الخالق)؟!

إن هذا القول يعني أن المخلوق من طبيعة الخالق، وهذا هو التشبيه المحض، والتمثيل الصريح لله بخلقه، والكفر البواح. ولكنهم مع ذلك يزعمونه! أليس هذا هو الضلال المبين؟!
{بنات}: تفضيل على البنين... أم تفضيل البنين؟!

{بنات} جمع بنت. لقد زعم مشركو العرب أن الملائكة بنات الله. وهذا الزعم كان معروفاً فيهم، وقد كرره القرآن في مواضع كثيرة: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِناثًا} {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْغَزَىٰ . وَمِنَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَىٰ . أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ . تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ}.

فهم نسبوا إلى الله البنات... وهذا - في منطقهم - هو النقص بعينه. لأنهم كانوا يكرهون البنات لأفسههم، ويندونهن، ويروهن عاراً وسبة.
{وأصفاكم بالبنين}: قمة التناقض!

وهنا تأتي الضربة القاضية: {وأصفاكم بالبنين}. "أصفاكم" أي اختار لكم وأعطاكم البنين. فهم يزعمون أن الله اصطفى لنفسه البنات (اللواتي تحتقرونهن وتندونهن)، وأعطاكم أنتم البنين (الذين تفتخرون بهم). فأى منطق أعوج هذا؟!

كيف ترضون لله ما لا ترضونه لأنفسكم؟! كيف تنسبون إلى الله ما ترونه نقصاً وعاراً فيكم؟! كيف تجعلون لله "الأنثى" التي تكرهونها، وتجعلون لأنفسكم "الذكر" الذي تحبونه؟! أليس هذا هو الجهل والضلal والكفران؟!

وهذا الاستفهام: {أم اتخذ...} ليس للاستفسار، بل هو للتبكي والإفحام. إنه يريد أن يحرجهم، وأن يفضحهم على رؤوس الأشهاد، وأن يبين لكل ذي عقل أن الشرك قائم على التناقض الفاضح، والكفران الصريح، والمنطق الأعوج.

دلالات نفسية وتربوية من هذا المنطق القرآني

الدلالة النفسية: تحطيم الكبرياء بالمنطق

المشركون كانوا متكبرين معتدين بأنفسهم. وكانوا يظنون أنهم على شيء. فجاء القرآن بهذا المنطق الذي يلوي أعناقهم، ويحطم كبرياءهم، ويجعلهم يبدون كالحمقى أمام أنفسهم قبل غيرهم. إنه المنطق الذي يهدم التصور من داخله، ويجعل صاحبه يخجل من معتقده.

وهكذا ينبغي أن يكون الداعية: لا يكتفي بتقديم الأدلة الموضوعية، بل يجعل المبتل يرى تناقضه بنفسه، ويشعر بالخجل من تصورات.

الدلالة التربوية: تقبيح الباطل لا يكفي، بل إظهار تناقضه

أيها المربي... إن مجرد بيان خطأ التصورات الخاطئة لا يكفي. لا بد من إظهار تناقضها الداخلي، وتهافتها المنطقي. فحين يرى الإنسان أن فكرته لا تمسك مع بعضها، ولا تصمد أمام المنطق، فإنه يلفظها بنفسه، ويكتشف زيفها دون حاجة إلى إقناع خارجي.

وهذا منهج قرآني عظيم: {أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ}. جملة واحدة... لكنها كافية لجعل أي عاقل يعيد النظر في معتقده! رسائل ودروس وتوجيهات من الآية الكريمة

الرسالة الفكرية: بطلان كل عقيدة متناقضة

الآية تقدم قاعدة فكرية ذهبية: كل عقيدة متناقضة مع نفسها، هي عقيدة باطلة. فالحق لا يتناقض، والباطل يتناقض. {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}. فاسأل عن أي فكرة أو مذهب أو فلسفة: هل فيها تناقض مع نفسها؟ إن كان الجواب نعم، فاعلم أنها باطلة.

الرسالة النفسية: الاعتزاز بالتوحيد والتبرؤ من الشرك

إن من يقرأ هذه الآية بقلب حي، لا بد أن يمتلئ قلبه اعتزازاً بالتوحيد الخالص، وتبرؤاً من كل شرك. إنه يرى كيف أن الله يدافع عن توحيده، ويكشف عوار الشرك، ويفضح أهله... فيزداد يقيناً بأن التوحيد هو الحق الذي لا مربة فيه.

الرسالة التربوية: تعليم الناس محاكمة الأفكار بالمنطق

علم الناس - أيها الداعية - أن يحاكموا الأفكار بالمنطق والعقل. لا تطلب منهم أن يقبلوا الحق دون تفكير، بل شجعهم على التفكير النقدي الذي يكشف زيف الباطل. هذا هو المنهج القرآني: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ}. المحور الرابع

ما تدعونا إليه الآيتان في الواقع المعاصر

أولاً: مواجهة التصورات المعاصرة عن الله

إن عصرنا لم يخل من أمثال هؤلاء المشركين الذين يجعلون لله ما لا يليق به. هناك من يصورون الله في صورة "طاقة غامضة" أو "روح سارية في الكون" أو "محرك أول لا علاقة له بالحياة". كل هذه تصورات باطلة، تقوم على "جعل" وافتراء، لا على دليل أو وحي.

مهمة المؤمن اليوم أن يقدم التصور الصحيح عن الله كما ورد في القرآن: الله أحد، صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. وأن يبطل كل تصور يشبه الله بخلقه، أو يجعل له جزءاً أو ولداً أو شريكاً.

ثانياً: كشف ازدواجية المعايير في الفكر المعاصر

الآية تكشف تناقضاً صارخاً: أن ينسب الإنسان إلى الله ما يكرهه لنفسه. وهذا التناقض لا يزال موجوداً اليوم! كم من أناس ينسبون إلى الله الظلم والجور (تعالى الله)، بينما هم يستنكرون الظلم على أنفسهم. وكم من أناس ينتقدون الأديان باسم "الحرية"، بينما هم يرفضون حرية الآخرين في الدين.

إن الآية تدعونا إلى أن نمتلك اتساقاً فكرياً، فلا نقع في التناقض الذي وقع فيه المشركون: أن تكره

شيئاً لغيرك ثم تنسى أن تنزه عنه ربك.

ثالثاً: تربية النفس على الاتساق والصدق الفكري

الإنسان الصادق هو الذي لا يناقض نفسه، والذي تكون معاييره واحدة مطردة. هذه الآلية تبني فيك الاتساق الفكري: أن تنزه الله عن كل نقص، وألا تنسب إليه إلا ما يليق به، وألا تقبل لغيرك ما لا ترضاه لنفسك، وبالعكس.

المحور الخامس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيتين

المفهوم الفكري: الشرك اختلاق لا يستند إلى عقل

الآية ترسخ مفهومًا فكرياً جوهرياً: أن الشرك بكل صوره وأشكاله ليس ديناً ولا فلسفة ولا مذهباً فكرياً، بل هو محض "جعل" و"اختلاق"، لا يستند إلى عقل سليم ولا إلى فطرة نقية. إنه انحراف يصيب العقل والقلب معاً، نتيجة للكفران والجحود.

المفهوم النفسي: الجحود أصل الانحراف العقدي

الآية تقدم تحليلاً نفسياً عميقاً للانحراف: إن جذره هو الكفران. فالقلب الذي لا يشكر، يظلم، ويقسو، ويتشوه، فتتحرف تصوراتنا عن الله. وهكذا تعالج الآلية مشكلة الشرك من جذورها النفسية، لا من أعراضها الفكرية فحسب.

المفهوم التربوي: تهذيب الفطرة بالشكر

بما أن الكفران هو أصل الداء، فإن الشكر هو أصل الدواء. المربي الناجح هو الذي يربي النشء على كثرة الشكر والحمد لله. فالطفل الذي ينشأ في بيئة شاكرة، يظل قلبه نقياً، وتبقى فطرته سليمة، فهو أبعد ما يكون عن الانحراف العقدي والفكري.

المحور السادس

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هاتين الآيتين؟

الإرادة الأولى: الغيرة على التوحيد واستقباح الشرك

الله يريد منا أن نغار على توحيده، أن نشعر بقيح الشرك وبشاعته، أن نستعظم أن ينسب إلى الله ولد أو شريك أو مثيل. هذه الغيرة على جناب الله هي علامة الإيمان الحي، وهي التي تدفع المؤمن إلى الدعوة إلى التوحيد ونبد الشرك.

الإرادة الثانية: محاسبة النفس على جحودها

الله يريد منا أن نراجع أنفسنا: هل نحن من "الكفور المبين"؟ هل نجحد نعم الله علينا؟ هل ننسب فضل الله إلى غيره؟ هل نغفل عن شكره؟ إن الآلية تدعونا إلى محاسبة أنفسنا بصدق، وتطهير قلوبنا من الكفران.

الإرادة الثالثة: الاستقامة الفكرية والمنطقية

الله يريد منا أن نكون أصحاب منطق سليم، وفكر مستقيم، لا نقع في التناقض الفاضح الذي وقع فيه المشركون. يريد منا أن ننزهه عن كل نقص، وألا نقبل له إلا ما يليق بجلاله.

المحور السابع

أبعاد الآيتين وآفاقهما

البعد المعرفي: تأسيس منهج نقد الأفكار

الآيتان تؤسسان لمنهج معرفي في نقد الأفكار والمعتقدات: مقارنتها بالعقل والمنطق، وكشف تناقضاتها الداخلية، وردها إلى أصولها النفسية (الكفران والجحود). هذا المنهج هو الذي يمكن الأمة من مواجهة

الأفكار الوافدة وتقييمها.

البعد المنهجي: الجمع بين البيان العاطفي والحجة المنطقية

الآيتان تجمعان بين الإثارة العاطفية (تصوير قبح الشرك، وصف الإنسان بالكفور) وبين الحجة المنطقية (كشف التناقض في زعمهم). وهذا المنهج المتكامل هو الذي يخاطب الإنسان بكل مكوناته، ويؤثر فيه أعمق التأثير.

البعد الحضاري: صناعة إنسان متسق مع ذاته

الحضارة التي يصنعها القرآن هي حضارة الإنسان المتسق، الذي لا يناقض نفسه، ولا يكيل بمكيالين. إنها حضارة التوحيد الذي يورث صاحبه وضوحاً في الرؤية، واتساقاً في الفكر، واستقامة في السلوك. المحور الثامن

تحويل الآيتين إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

المسار الأول: بناء الإنسان الغيور على التوحيد

الآيتان تصنعان إنساناً يغار على توحيد ربه، ويغضب لما يسمعه من تصورات باطلة عن الله، ويشعر بالأسى لحال المشركين والضالين الذين ينسبون إلى الله ما لا يليق به.

التطبيق العملي: كلما سمعت كلاماً باطلاً عن الله أو رسله أو كتابه، فاشعر في قلبك بغيرة التوحيد، وادفع الباطل بالتّي هي أحسن، وبين الحق بمحض المنطق والبيان.

المسار الثاني: بناء المجتمع الشاكر لا الكفور

المجتمع الحضاري هو المجتمع الذي يفيض شكراً لله، لا المجتمع الذي يفيض كفراناً وجحوداً. إن الآيتين تدعوان إلى بناء ثقافة مجتمعية قوامها الشكر والامتنان، لا الجحود والنكران.

التطبيق العملي: انشر ثقافة الشكر في أهلك ومجتمعك. كن قدوة في شكر الله على كل النعم. اذكر نعم الله على من حولك، وحثهم على شكرها.

المسار الثالث: بناء الحضارة القائمة على التوحيد الخالص

أي حضارة لا تقوم على التوحيد الخالص، هي حضارة مبنية على التناقض والكفران، ومصيرها إلى الزوال. أما الحضارة الإسلامية، فهي حضارة التوحيد، التي تنزه الله عن كل نقص، وتعظمه حق تعظيمه.

التطبيق العملي: أعد بناء تصوراتك الحضارية على أساس التوحيد الكامل. لا تقبل في تصورك للكون والحياة والإنسان إلا ما جاء به الوحي المعصوم. الخاتمة: عودة إلى نقاء التوحيد وصفائه

أيها القارئ الكريم...

لقد كانت هذه الآيتان الكريمتان صفة قوية للجاهلية وتصوراتها الفاسدة. لقد كشفتنا الوجه القبيح للشرك، وأظهرنا تناقضه، ووضعتنا اليد على مصدره: الكفران والجحود. لقد بيننا أن المشرك - في قرارة نفسه - يعرف الحق، ولكنه يجحده، ويكفر به، فيتورط في التناقض تلو التناقض.

واليوم... ونحن نقرأ هذه الآيات، يجب أن نسأل أنفسنا بصدق: هل في تصوراتنا عن الله شيء من الجعل والافتراء؟ هل في قلوبنا شيء من الكفران والجحود؟ هل في مواقفنا شيء من التناقض والازدواجية التي كانت عند المشركين؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة بصدق هي بداية الطريق إلى نقاء التوحيد وصفائه. فلنطهر قلوبنا من الكفران، ولننزه ربنا عن كل ما لا يليق بجلاله، ولنشكره على نعمه الظاهرة والباطنة، ولنعبده وحده لا شريك له.

المبحث الثاني

تفسير الآيات (17-19) من سورة الزخرف

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . أَوْ مَن يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ . وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ۚ أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ۖ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ)

حين ينقلب المنطق الجاهلي على صاحبه

وحين توثق الملائكة شهادة الزور على أهلها

رحلة في أعماق التناقض والأنوثة المغتصبة والملائكة المظلومة

تقدمة لا بد منها: موقع الآيات من السورة ومن مسار الهدم والبناء

قف معي - يا رعاك الله - وقفة مطوّلة قبل أن تخطو إلى رحاب هذه الآيات الثلاث. إنك الآن في قلب المشهد الأكثر إيلاماً في السورة، المشهد الذي ينتقل من كشف تناقض المشركين إلى تصوير ردود أفعالهم النفسية، ثم إلى تسفيه منطقهم من جذوره، ثم إلى تهديدهم بالعذاب على شهاداتهم الكاذبة.

لقد رأينا في الآيتين السابقتين كيف قُضِحَ المشركون حين جعلوا لله "جزءاً" من عبادته، وكيف تبين أنهم كُفُور مبين. ورأينا كيف سألهم القرآن ذلك السؤال المنطقي الذي يدمغهم: {أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ}. لقد أفحموا، ولم يجدوا جواباً.

والآن... بعد أن أفحموا منطقياً، تأتي هذه الآيات لتهدمهم نفسياً واجتماعياً. إنها تنتقل بهم من قاعة المحاكمة المنطقية إلى مرآة النفس لتريهم وجوههم المسودة وصدورهم المملوءة غيظاً. إنها تقول لهم: "انظروا إلى أنفسكم! أنتم تكرهون البنات لأنفسكم حتى تسود وجوهكم إذا بُشِّرْتُمْ بهن... ثم تنسبونهن إلى الله؟! أي عقل هذا؟!".

ثم لا تكتفي الآيات بهذا، بل تمضي إلى وصف واقع الأنثى في المجتمع الجاهلي، لتزيد الحجة وضوحاً: هؤلاء اللواتي تزعمونهن بنات لله، هن في عرفكم "مَن يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ". فإذا كن كذلك عندكم، فكيف تجعلونهن لله؟! أليس هذا هو الجهل والضلال؟!

ثم تختتم الآيات بهذا التهديد المخيف، وهي توثق شهادتهم الكاذبة على الملائكة بأنهم إناث، وتقول لهم: {سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ}. إنها شهادة ستكتب في سجل الأعمال، وسيُسألون عنها يوم القيامة. فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما سيسألون!

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها

دعني الآن أستوقفك لأجمع لك الأفكار النابضة في هذه الآيات جمعاً يجعلك ترى الخيط الناظم، و البناء المحكم، والهدف الأسمى.

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيات الكريمة:

1. تصوير التناقض النفسي للمشركين: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ} يكشف أن ما ينسبونه إلى الله هو نفس الشيء الذي يكرهونه لأنفسهم ويخزون منه.
2. تسفيه المعيار الجاهلي في تقويم الأنثى: {أَوْ مَن يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ} يفضح نظرهم الدونية إلى الأنثى، ويجعل هذه النظرة حجة عليهم حين ينسبون هذه الأنثى - بمواصفاتها التي يزدرونها - إلى الله.
3. إبطال زعمهم بأن الملائكة إناث: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا} (هو إعلان لهذا الزعم الباطل والتشنيع على أصحابه).
4. التحدي بسؤال علم الغيب: {أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ} (يطالبهم بالدليل على دعواهم، ويكشف أنهم يقولون بلا علم).
5. التهديد بالعذاب على شهادة الزور: {سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ} (هو خاتمة تزرع الرعب في القلوب، وتذكر بيوم الحساب).

مقاصد الآيات وأهدافها:

1. إكمال هدم الشرك من جذوره: ليس فقط بإبطاله منطقيًا، بل بكشف آثاره النفسية والاجتماعية المناقضة للفطرة.
2. تحريك عاطفة الغيرة على الله: أن يشعر المؤمن بقبح ما ينسبه المشركون إلى الله، فتشتعل في قلبه الغيرة على التوحيد.
3. تقرير كرامة الملائكة وعبوديتهم لله: بإثبات أنهم "عباد الرحمن"، لا بناته ولا إناث.
4. بناء عقلية رافضة للظلم والازدواجية: في معاملة الإناث وفي الكلام على الله بلا علم.

المحور الأول

{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ}

الصورة التي لا تحتاج إلى تعليق... المشهد الذي يصرخ بالتناقض

حين يتحول وجه المشرك إلى مرآة فاضحة لعقيدته

وقفة مع الأسلوب: {وَإِذَا بُشِّرَ}... الواو التي تحمل المفاجأة

قف معي عند صدر الآية: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ}. إن الواو هنا واو عطف، ولكنها تحمل شيئاً أكثر من مجرد العطف... إنها واو المفاجأة والمقارنة. إنها تعطف هذا المشهد على ما سبقه: لقد زعمتم أن لله بنات، وجعلتم له من عباده جزءاً، واتخذ من خلقه إناثاً... وإليك الآن: هذا أحدكم، عندما يُبَشَّرُ هو شخصياً بما ينسبه إلى الله... ماذا يفعل؟ ماذا يكون رد فعله؟!

إنها صياغة تجعلك تنتظر المشهد بفارغ الصبر. إنها تخلق في نفسك ترقباً: "يا ترى ماذا سيحدث؟ كيف سيتصرف هذا المشرك إذا بُشِّرَ بالأنثى التي ينسبها إلى الله؟".

ثم تأتي الصدمة: {ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ}. يا الله! وجهه يسود! صدره يمتلئ غماً! إنه يكتن حزنه وغضبه! إنها الصورة النقيضة لما ينبغي أن يكون عليه من يزعم أن لله بنات. لو كانوا صادقين في زعمهم، لفرحوا بالأنثى، ولرأوا فيها كرامة وقرباً من الله. ولكنهم - بفطرتهم المدفونة - يعرفون أنها ليست بنات الله، وأن هذا الزعم فرية وضلال.

{بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا}: ما هو هذا المثل المضروب؟

الآن... ما هو {مَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا}؟

"ضرب مثلاً" يعني شبه وجعل نظيراً. و"ما" هنا موصولة، أي: بالذي ضربوه مثلاً للرحمن. لقد ضرب المشركون للرحمن مثلاً بالأنثى، أي جعلوا الأنثى نصيباً لله، وجعلوا الذكر نصيباً لأنفسهم: {الْكُفْرَ وَلَهُ الْأُنْثَى}. تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى.

فهذا "المثل" الذي ضربوه لله هو الأنثى. إنهم جعلوا لله نصيباً من الأنوثة، وزعموا أن الملائكة بناته. وهذا هو "المثل" الذي ضربوه للرحمن. والمثل هنا لا يعني الشبيه المطابق، بل يعني النصيب والحظ. فهم جعلوا للرحمن حظاً هو الأنثى، وجعلوا لأنفسهم حظاً هو الذكر.

والآن... {إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ} بهذا الحظ نفسه... بالأنثى... ماذا يفعل؟!

{ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا}: تشريح الوجه الكالج

"ظل وجهه مسوداً" أي صار أسود، متغيراً، عابساً، مكفهراً. إنها صورة فيزيولوجية دقيقة: الدم ينحسر عن الوجه، والعضلات تنقبض، والملامح تنكمش، فيصبح الوجه أسود كثيباً. إنه تعبير الجسد عن الصدمة النفسية.

والعرب تعرف أن "أسوداد الوجه" كناية عن الحزن والغم والعار. و"ظل" هنا تفيد الاستمرار، أي أن وجهه يبقى مسوداً طوال الوقت، لا يزول عنه السواد سريعاً، لأن الخبر كان صادماً، والمصيبة كانت عظيمة في نظره.

والآن تأمل: نفس هذا الوجه المسود... هو وجه رجل ينسب إلى الله البنات! أفلا ترى التناقض بأمر عينيك؟! إن نظرة واحدة إلى هذا الوجه المسود تقول لك: إن هذا الرجل لا يؤمن بما يقول. إنه يزعم أن لله بنات، ولكنه يكره البنات لنفسه. فأبي ازدواجية هذه؟! {وَهُوَ كَظِيمٌ}: الصدر المملوء بالغيظ المكتوم

"كظيم" صيغة مبالغة من "كظم". والكظم هو ملء الشيء مع شدة وربطه. تقول: كظمت القرية، أي مأتها وربطتها. والكظيم هو المملوء غماً وغضباً، الذي يمسك نفسه ويكتم ما في صدره، فيوشك أن ينفجر.

فالرجل ليس فقط حزينا، بل هو "كظيم": مملوء حزناً وغضباً إلى درجة الاختناق، يكاد ينفجر من شدة الكرب، ولكنه يكظم ويكتم. لماذا يكظم؟ لأنه يخجل. لأنه يعرف في قرارة نفسه أن زعمه باطل. لأنه يشعر أن هناك عيناً تراقبه وتفضح تناقضه.

وهكذا - يا صاحبي - يرسم القرآن شخصية المشرك في كلمتين فقط: {وَجْهَهُ مُسْوَدًّا} (الظاهر)، {وَهُوَ كَظِيمٌ} (الباطن). الظاهر وجه أسود، والباطن صدر مملوء غيظاً. يا له من تصوير! يا له من فضيحة!

*لماذا ذكر {الرَّحْمَنُ} هنا؟ لمسة بيانية عجيبة تأمل معي: لماذا قال: {يَمَّا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا}، ولم يقل: "لله" أو "للخالق" أو "للعزيز العليم" كما في الآيات السابقة؟

السّر هنا - والله أعلم - أن اسم "الرحمن" هو الاسم الذي أنكره المشركون، واستكبروا عنه. {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟} لقد أنكروا هذا الاسم، وفي نفس الوقت نسبوا إليه البنات! فيا لها من جرأة! تنكرون اسم "الرحمن" الذي يدل على سعة رحمته، ثم تنسبون إليه البنات اللواتي تكرهونهن؟! أي قلب هذا؟!

ثم إن "الرحمن" فيه إشارة خفية إلى أن الله أرحم بعباده من أن يكون له ولد أو بنات. فالرحمة الإلهية تنافي اتخاذ الولد؛ لأن المتخذ للولد إنما يفعله لحاجته وعجزه، والله غني حميد. فكيف تنسجم رحمانيته مع ما تقولون؟!

رسائل ودروس وتوجيهات من الآية

الرسالة الفكرية: الفطرة لا تكذب

الآية تقرر حقيقة فكرية عظيمة: أن الفطرة السليمة لا بد أن تنطق بالحق ولو بعد حين. هذا المشرك، بكل ضلاله، عندما يُبشّر بالأنثى التي نسبها إلى الله، تسود وجهه! فطرته تنتفض رافضة، وجسده يترجم رفض الفطرة إلى اسوداد في الوجه. إنها لحظة صدق إجباري يفضح فيها الجسد صاحبه. وهذا يعني أن الإنسان لا يمكن أن يظل على الباطل إلى الأبد دون أن تتور فطرته يوماً ما. والمربي الذكي هو الذي يصنع هذه اللحظات من الصدق الإجباري لمن يربيهم، بأن يضعهم أمام مرآة أنفسهم، فيروا تناقضهم.

الرسالة النفسية: ازدواجية المعايير تمزق النفس الآية تربيّا كيف أن المشرك يعيش ممزق النفس: يزعم شيئاً بلسانه، ويكرهه بقلبه وجوارحه. هذا التناقض يجعله "كظيماً"، أي مملوءاً غماً وكبتاً. وهكذا كل من يعيش بازدواجية: حياته مليئة بالصراع النفسي، لأنه يقول ما لا يفعل، ويعتقد ما لا يرتضيه قلبه. أما المؤمن الصادق، فإن قلبه ولسانه وجوارحه تتسق، فيحيا في طمأنينة وسلام.

الرسالة التربوية: فضح التناقض أسلوب قرآني في التغيير أيها المربي... انظر كيف فضح القرآن هذا المشرك دون أن يسبه أو يشتمه. لقد عرض المشهد أمامه وتركه يحكم على نفسه. لقد جعله يرى وجهه الأسود وصدره المكظوم، وكأنه يقول له: "ألا ترى حالك؟ ألا تستحي من هذا التناقض؟".

هذا هو أسلوب التربية بالمرأة: أن تجعل المخطئ يرى خطأه بنفسه، وألا تفرض عليه الحكم من الخارج. فالمرء لا يجادل نفسه، ولكنه يجادل غيره. فإذا جعلته يرى الحقيقة في مرآة نفسه، كان ذلك أسرع في تغييره.

المحور الثاني

{أَوْمَنَ يَنْشَأُ فِي الْحَيَةِ وَهُوَ فِي الْخَصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ}

وصف الجاهلية للأنثى يعود ليكون حجة عليهم

كيف قلب القرآن منطقهم رأساً على عقب؟

{أَوْمَنَ}: الاستفهام الإنكاري المدمغ

الآن... ألقِ سمعك إلى هذا الاستفهام القرآني العجيب: {أَوْمَنَ يَنْشَأُ}. الهمزة للإنكار والتعجب، والواو للعطف. "أو" مثل "أف"، وهي استفهام إنكاري أيضاً. فكأن الآية تقول: "أتجعلون لله من هذه صفته؟!

أتنسبون إليه من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين؟! بل تقول: "أتجعلون لله البنات؟!". وتأمل كيف أن الآية لا تقول: "أتجعلون لله البنات؟! بل تقول: {أَوْ مَن يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ}... إنها تذكر الصفة قبل الموصوف، وكأنها تريد أن تضع الصفة أولاً ، لتكون هي محور الإنكار. إنها تقول: "أيليق بجلال الله أن ينسب إليه من هذه صفاته التي تزدونها أنتم؟".

{يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ}: النشأة الأنثوية في أعين الجاهليين "ينشأ" أي يتربى وينمو. "في الحلية" أي في الزينة والحلي. هذا وصف من المشركين للأنثى بأنها تترعرع في الزينة والرفاهية، لا تخرج إلى ميادين القتال والعمل الشاق، ولا تكسب ولا تدافع عن نفسها. إنها - في منظورهم - كائن مترف منعم، محمول على الأكثاف، لا يباشر الصعاب. وهذا الوصف منهم - مع كونه احتقاراً للأنثى - سيرتد عليهم. فالقرآن يستخدم نفس وصفتهم لهم ليقول: "إذا كانت الأنثى بهذه الصفات التي تدمونها بها... فكيف تنسبونها إلى الله؟!". إنها استراتيجية الإلزام بما يلتزمون، أن تجعل الحجة من كلامهم هم. {وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ}: ضعف الحجة والبيان "الخصام" هو الجدل والمخاصمة. و"غير مبين" أي غير قادر على البيان والإفصاح عن حجته. وهذا أيضاً من أوصافهم للأنثى: أنها ضعيفة الحجة، قليلة البيان، لا تستطيع الدفاع عن نفسها في ميادين الجدل.

لاحظ كيف يصفونها: مترفة في نشأتها، ضعيفة في حجتها. والآن... هل تليق هذه الصفات بمن ينسب إلى الله؟! إنه إفحام لهم بمنطقهم هم، وإلزام لهم بما يعتقدونه هم. إنهم يصفون الأنثى بهذه الصفات، وهم يأنفون من هذه الصفات في حياتهم... ثم ينسبون إلى الله هذه الصفات؟! فأى عقل هذا؟!

كيف قلب القرآن منطقهم رأساً على عقب؟

تأمل معي هذه العبقرية القرآنية: المشركون يقولون عن الأنثى: إنها ضعيفة، مترفة، غير قادرة على البيان. والقرآن لا يناقشهم في صحة هذا التوصيف (رغم أنه توصيف جاهلي ظالم)، بل يقلب التوصيف نفسه ليكون حجة عليهم. يقول لهم: "إذا كان هذا حال الأنثى عندكم، فلماذا تنسبونها إلى الله؟!".

إنها طريقة في الحوار تسمى "الإلزام": أن تأخذ من الخصم مقدماته، ثم تبني عليها نتائج تدمغه. وهذا منهج ينبغي أن يتعلمه كل داعية ومحاور لا تناقش في المقدمات دائماً، بل خذ المقدمات التي يسلم بها الخصم، وأره كيف أن هذه المقدمات تلزمه بما ينكره. رسائل ودروس وتوجيهات من الآية

الرسالة الفكرية: الظلم في الأحكام على المرأة يعود وبالا على صاحبه

الآية تفضح العقلية الجاهلية التي تحتقر المرأة وتصفها بأوصاف النقص. وهم إذ يذمونها بهذه الصفات ، يظلمونها. ولكن القرآن استخدم ظلمهم هذا ليكون حجة عليهم. وهكذا فإن كل ظلم، وكل حكم جائر على الآخرين، سيعود على صاحبه، وسيكون وبالا على صاحبه في الدنيا قبل الآخرة.

الرسالة النفسية: الكبر يورث التناقض

إن سبب هذا التناقض الفاضح هو الكبر. إنهم يستكبرون عن الأنثى لأنفسهم، ثم ينسبونها إلى الله! والكبر هو الذي أعمى أبصارهم عن هذا التناقض. والمتكبر دائماً يقع في مثل هذه المهالك، لأنه لا يرى الحقيقة كما هي، بل كما يريدونها.

الرسالة التربوية: لا تناقش الناس في كل مقدماتهم

في دعوتك وتربيتك، ليس ضرورياً أن تناقش الناس في كل مقدماتهم. أحياناً خذ ما يعتقدونه هم، واستخدمه لإيصال الحق إليهم. هذا أقرب إلى نفوسهم، وأسهل في إقناعهم، وأبعد عن الجدل العقيم. المحور الثالث

{وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا} ٥٠ أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ٥١ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ}

الجريمة الكاملة... والتوثيق الإلهي للشهادة... والتهديد بالمساءلة

حين يصبح الكذب على الله جريمة موثقة لا تمحى

{وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ: فعل الافتراء العائد

الآن نصل إلى ذروة الآيات: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ}. ومرة أخرى تتكرر كلمة {جَعَلُوا}. إنه الفعل الذي يدل على الاختلاق والافتراء. إنهم "جعلوا" الملائكة إناثًا، أي اخترعوا هذا الزعم واختلقوه، لا عن دليل ولا عن برهان، بل عن هوى وكذب.

وقد "جعلوا" من قبلُ لله "جزءًا"، والآن "جعلوا" الملائكة إناثًا. إنها عمليات اختلاق متتابعة، ينسبون فيها إلى الله ما لا يليق، وإلى الملائكة ما ليس فيهم. إنهم يكذبون على الله وعلى الملائكة معًا.

{الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ: الجملة الاعتراضية التي تصحح التصور

وتأمل هذه الجملة الاعتراضية العظيمة: {الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ}. لماذا ذكر الله وصف الملائكة بـ "عباد الرحمن" في هذا الموضع؟

أولاً: لأنه يريد تصحيح التصور عن الملائكة. هم ليسوا بنات الله، بل هم عباد. وفي هذه التسمية تأنيب للمشركين: إنكم تزعمون أنهم بنات الله، ولكن الله يصفهم بأنهم عباد. فأني وصف أصدق: وصفكم أنتم أم وصف الخالق سبحانه؟!

ثانياً: لأن وصفهم بـ "عباد الرحمن" يتناسب مع اسم "الرحمن" الذي ورد في الآية السابقة. فالملائكة يعبدون الرحمن، ولا يمكن أن يكونوا بناته. فالعبودية لله تنافي البنوة.

ثالثاً: لأن في وصفهم بالعبودية تشريفاً لهم. فالعبودية لله هي أعلى مراتب الشرف، وخير ألقاب النبي صلى الله عليه وسلم "عبده ورسوله". فكان الله يقول: "الملائكة عباد لي، وهذا شرف لهم، فلا تزعموا فيهم باطلاً".

{إِناثًا: إعلان الجريمة الكبرى

"إِناثًا" جمع أنثى. هذا هو الزعم الذي جعلوه: أن الملائكة إناث. وقد رد القرآن هذا الزعم في مواضع كثيرة: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى}. {إنهم يسمون الملائكة باسم الأنثى، وهو كذب وفساد}.

ولماذا هم مصررون على هذا الزعم؟ قد يكون السبب أنهم رأوا الملائكة مجردة من المادة، لطيفة، فشبهوها بالإنثى في الرقة واللطافة. ولكن هذا جهل منهم؛ لأن اللطافة ليست مرتبطة بالأنوثة. وقد يكون السبب أن لهم أصناماً مؤنثة كانوا يعبدونها، فألحقوا بها الملائكة.

{أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ: سؤال التحدي والإفحام

الآن... {أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ}؟! هذا سؤال توبيخي إنكاري. "أشهدوا" أي أحضروا وشاهدوا. هل شاهدوا خلق الملائكة حتى يعرفوا أنهم إناث؟! إن علم الغيب لا يعلمه إلا الله. فمن أين لهم هذا العلم؟! إنهم يكذبون ويفترون بلا دليل ولا برهان.

وهذا السؤال يهدم دعواهم من أساسها. إنهم لم يشهدوا خلق الملائكة، فكيف يحكمون بأنهم إناث؟! إنه حكم بلا علم، وظن بلا برهان، وزعم بلا حجة. {وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يَصُدِّقُ مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا}. {سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ: التهديد الأعظم

وهنا تأتي خاتمة الآيات، بهذا التهديد الذي يقشعر منه البدن: {سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ}.

"ستكتب شهادتهم" أي ستكتب الملائكة الموكلون بكتابة الأعمال هذه الشهادة الكاذبة، وستسجلها في صحائفهم، وستكون حجة عليهم يوم القيامة. "ويسألون" أي يسألون عنها سؤال توبيخ وتعذيب: {وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ}.

تأمل... كلمة {سَتَكْتُبُ} بصيغة المبني للمجهول، لتفيد التهويل والتهديد. إنها لا تقول من سيكتب، بل تقول: "ستكتب" لتشعرك أن كتابتها أمر محتوم، لا راد له ولا مفر منه. وسيسألون عنها حتماً. فويل لهم من شهادة زور تظل مدونة عليهم إلى يوم الدين!

رسائل ودروس وتوجيهات من الآية

الرسالة الفكرية: الكلام على الله بغير علم جريمة موثقة

الآية تحذر من الكلام على الله وملائكته بغير علم. إن كل كلمة يقولها الإنسان في حق الله أو ملائكته أو رسله بغير علم، هي شهادة ستكتب، وسيُسأل عنها. فليحذر المسلم أن يتكلم في دين الله بما لا يعلم، أو أن ينسب إلى الله قولاً لم يقله.

الرسالة النفسية: الخوف من الشهادة المكتوبة

أن تعلم أن كلماتك كلها مكتوبة، وشهادتك كلها مسجلة... هذا يورث في النفس خوفاً ووجلاً من الله. إنه يجعلك تمسك لسانك عن الكذب، وتصون قلمك عن الباطل. ومن راقب الله في كلماته، حفظه الله في دنياه وآخرته.

الرسالة التربوية: تربية اللسان على الصدق

أيها المربي، علم أبناءك أن كل كلمة يقولونها ستكتب، وكل شهادة يشهدونها ستُسجل. دريهم على الصدق في الأقوال، والتثبت في الشهادات، وعدم الكلام بلا علم. هذا هو منهج القرآن في تربية الضمير الحي الذي يراقب الله قبل أن يراقب الناس.

المحور الرابع

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً: رفض الازدواجية في تقويم المرأة

الآيات تكشف عن عقلية جاهلية كانت تمقت الأنثى وتزدرينها، ثم تنسبها إلى الله. هذه الازدواجية لا تزال موجودة في واقعنا المعاصر بأشكال مختلفة: مجتمعات تحتقر المرأة وتذمها، وفي نفس الوقت تدعي احترامها وتكريمها. الإسلام - كما يظهر من الآيات - يرفض هذه الازدواجية، ويعطي المرأة كرامتها كإنسانة مكرمة، دون أن ينسبها إلى الله أو يجعلها ملاكاً.

ثانياً: الحذر من الكلام على الله بغير علم

في زمن السوشيال ميديا والفضاء المفتوح، صار الكلام على الله وملائكته وشريعته سهلاً على ألسنة كثيرين. كم من تغريدة وكم من منشور وكم من تصريح يحمل افتراء على الله ورسوله! هذه الآية تخاطب كل من يتكلم في دين الله: {سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ}. إنها شهادة ستكتب، وسيُسأل عنها صاحبها. فليتق الله من يطلق لسانه في دين الله بلا علم.

ثالثاً: تحرير المرأة من التصورات الجاهلية قديماً وحديثاً

الآية تعرض لنا التصور الجاهلي القديم عن المرأة: أنها تنشأ في الحلية، وهي في الخصام غير مبين. هذا التصور - وإن كان القرآن يسجله عليهم لا ليقرهم - هو تصور ظالم. وكذلك اليوم، هناك تصورات جاهلية جديدة عن المرأة، منها تصويرها كسلعة، أو كأداة للإثارة، أو ككائن غير قادر على البيان والفكر. مهمتنا أن نصح هذه التصورات في ضوء الوحي، ونعطي المرأة كرامتها التي أرادها الله لها: شقيقة الرجل، مكرمة مرفوعة القدر.

المحور الخامس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: علم الغيب لله وحده

الآيات ترسخ مفهوم "علم الغيب" لله وحده. لقد سأل الله المشركين: {أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ}. لا أحد شهد خلق الملائكة، فالغيب محجوب عن البشر. وهكذا فلا مجال للظن والتخمين في أمور الغيب. المرجع الوحيد فيها هو الوحي. وهذا المفهوم يحمي العقل المسلم من الخرافات والأوهام.

المفهوم النفسي: التناقض الداخلي يورث العذاب النفسي

رأينا كيف أن المشرك يعيش {كظيماً}، ممتلئاً غماً وكبتاً. هذا العذاب النفسي هو ثمرة التناقض الذي يعيشه. كل إنسان يعيش حياة مزدوجة، يقول ما لا يعتقد، ويفعل ما لا يرضى... سيكون نصيبه العذاب النفسي في الدنيا قبل الآخرة. وأما الصادق المتسق، فإنه ينعم بطمأنينة ولا يعرف الكظم.

المفهوم التربوي: تربية الأطفال على احترام الأنثى

من خلال تعرية التصور الجاهلي، تعلمنا الآيات أن نربي أبناءنا على احترام الأنثى وتقديرها، وألا نزرع في قلوبهم كراهية البنات أو احتقارهن. فالنظرة الدونية إلى الأنثى هي من رواسب الجاهلية التي يجب أن تمحى من المجتمع المسلم.

المحور السادس

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: تنزيه الله عن كل ما لا يليق

الله يريد منا أن ننزهه عن كل نقص، وعن كل شريك، وعن كل ولد. إن هذه الآيات تستفز المؤمن ليكون أشد غيرة على تنزيه الله. فلا تقبل أن يوصف الله بما لا يليق بجلاله.

الإرادة الثانية: التثبت قبل الشهادة

{سَتَكْتَبُ شَهَادَتَهُمْ وَيَسْأَلُونَ} {إنه تهديد لكل من يشهد بغير علم. الله يريد منا أن نتثبت، ولا نشهد إلا بما نعلم، وألا نقول على الله إلا الحق.

الإرادة الثالثة: نصرة المظلومين حتى ولو كانوا ملائكة

إن الملائكة الأطهار، عباد الرحمن، ظلمهم المشركون بأن جعلوهم إناثاً. والقرآن يدافع عنهم ويرد عنهم هذا الظلم. وهذا يعلمنا أن ننصر المظلومين، ونرد عنهم الظلم، حتى لو كانوا بعيدين عنا في عالم الغيب.

المحور السابع

أبعاد الآيات وآفاقها

البعد المعرفي: إبطال الخرافة والأسطورة

الآيات تبطل التصورات الخرافية التي كانت سائدة في الجاهلية عن الملائكة، وتضع المعرفة مكان الخرافة. وهذا البعد مهم جداً في عصرنا حيث تزوج الخرافات والأوهام.

البعد المنهجي: الإلزام بما يلتزم به الخصم

الآيات تعلمنا منهجاً حوارياً رفيعاً: أن نأخذ من الخصم مقدماته ونسلمه بها، ثم نبين له كيف أن هذه المقدمات تلزمه بالاعتراف بالحق. وهذا المنهج هو الذي يجعل الحجة قوية ومؤثرة.

البعد الحضاري: بناء مجتمع لا مكان فيه للازدواجية

الآيات تبني مجتمعاً متسقاً، لا يعرف الازدواجية في تعامله مع قضايا المرأة ولا في تعامله مع الغيب. مجتمعاً تكرم فيه المرأة ولا تحتقر، ويصان فيه الغيب عن الظنون والأوهام.

المحور الثامن

تحويل الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

المسار الأول: بناء الإنسان الغيور على التنزيه

الآيات تبني فيك إنساناً يغار على تنزيه الله، ويغضب لله إذا سمع عنه ما لا يليق به. هذه الغيرة هي سياج يحميك من الانحراف.

التطبيق العملي: كلما سمعت أو قرأت كلاماً باطلاً " عن الله، فاستشعر الغيرة في قلبك، ورد الباطل بالحق، وادع الله أن يهدي صاحبه أو يأخذه.

المسار الثاني: بناء المجتمع المنزه عن الخرافات

الآيات تدعو إلى مجتمع ينبذ الخرافات المتعلقة بالغيب، ويؤسس معرفته على الوحي والعلم. مجتمع لا يصدق الدجالين والمشعوذين، ولا يؤمن بالتنجيم وقراءة الطالع.

التطبيق العملي: حارب الخرافات في مجتمعك. لا تصدق العرافين والمنجمين، ولا تسمح لأبنائك بالذهاب إليهم. أزرع فيهم اليقين بأن الغيب لله وحده.

المسار الثالث: بناء الحضارة التي تكرم المرأة

الآيات تدبّن النظرة الدونية إلى المرأة التي كانت سائدة في الجاهلية. وبهذا تكون لبنة في بناء حضارة تكرم المرأة، وتجعلها شقيقة الرجل، ذات حقوق وعليها واجبات.

التطبيق العملي: انصر حقوق المرأة في ضوء الشرع. لا تظلم أختاً ولا زوجة ولا ابنة. أعطها حقها في الميراث، وحقها في الكرامة، وحقها في التعليم والعمل الصالح. الخاتمة: شهادة ستكتب... فأعد للسؤال جواباً

أيها القارئ الكريم...

لقد كان مشهداً قاسياً، هذا الذي رسمناه معاً في تفسير هذه الآيات. مشهد وجه يسود، وصدر مملوء كظلمة. مشهد منطق أعوج ينقلب على صاحبه. مشهد ملائكة أبرياء ينسب إليهم ما ليس فيهم. ومشهد تهديد إلهي يرن في أرجاء السماء والأرض: {سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ}.

فأسأل نفسك الآن - وأنت تغادر هذا التفسير - كم شهادة شهدتها في حياتك ستكتب عليك؟ كم كلمة قلتها في حق الله أو رسوله أو دينه بغير علم؟ كم حكماً أصدرته على أحد وأنت لا تدري؟ كم مرة ازدوجت معاييرك فظلمت بها الآخرين؟

إن هذه الآيات ليست مجرد قصة تاريخية عن مشركي قريش. إنها مرآة نرى فيها أنفسنا. فانظر في المرأة جيداً قبل أن تمضي. واسأل الله أن يظهر قلبك من كل نفاق، ولسانك من كل زور، وحياتك من كل ازدواجية.

المبحث الثالث

تفسير الآيات (20-22) من سورة الزخرف

(وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ۗ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ . أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ . بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ)

الاحتجاج بالقدر... التلاعب بالمشيئة الإلهية لتبرير الضلال

ومواجهة الوهم بالحقيقة... وكشف الجذور الحقيقية للتقليد الأعمى

رحلة في أعماق المغالطة والتبرير والهروب من المسؤولية
تقدمة لا بد منها: موقع الآيات من السورة ومن جدلية الاحتجاج والتقليد

قف معي - يا رعاك الله - وقفة مطولة قبل أن تلج بنا إلى أعماق هذه الآيات الثلاث الكريمة. إنك مقبل الآن على مشهد من أخطر المشاهد القرآنية وأكثرها كشفاً لأعماق النفس البشرية وهي تتلوى هرباً من المسؤولية. إنه المشهد الذي ينتقل من كشف تناقض المشركين في معتقداتهم، إلى كشف تناقضهم في حججهم ومبرراتهم، وإلى فضح آيات الهروب النفسي التي يستخدمونها ليتجنبوا مواجهة الحقيقة.

لقد رأينا في الآيات السابقة كيف انكشف زيف المشركين في نسبتهم البنات إلى الله وهم يكرهونهن لأنفسهم. ورأينا كيف جعلوا الملائكة إناثاً بلا علم ولا برهان. ورأينا التهديد الإلهي المخيف: {سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ}. لقد تم إفحامهم منطقياً، وفضحهم نفسياً، وتوثيق شهادتهم قانونياً في السجل الإلهي

إلهي.

والآن... وقد ضاقت بهم الحيل، وأغلقت في وجوههم أبواب الجدل، ولم يبق لهم منطق ولا حجة... ماذا بقي لهم؟ بقي لهم الاحتجاج بالقدر! بقي لهم التلاعب بمفهوم المشيئة الإلهية! بقي لهم تحويل الحقيقة المطلقة إلى ذريعة للضلال!

إنها اللحظة التي يلجأ فيها الإنسان إلى آخر ملاذاته حين يعجز عن الدفاع عن باطله: أن ينسب باطله إلى الله، وأن يقول: "لو شاء الله ما فعلناه". فيجعل من قدر الله - الذي هو سر غيبي لا يعلمه إلا هو - حجة على فعله الاختياري الذي هو مسؤول عنه.

وهكذا تنتقل السورة بنا من مشهد إلى مشهد أعمق، ومن طبقة إلى طبقة أكثر خفاء في النفس البشرية. إنها الآن لا تكشف ما يقولونه بالسنتهم فحسب، بل تكشف ما يخفونه في أعماق قلوبهم من مبررات واهية، وحيل نفسية، وآليات دفاعية يتقي بها العقل كبريائه الجريح.

ثم لا تكتفي الآيات بكشف هذه المغالطة، بل تمضي إلى كشف الجذر الأعماق للمشكلة: {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ}. إنها تكشف أن الحجة الحقيقية ليست "مشيئة الله" ولا "الكتاب السابق"، بل هي التقليد الأعمى للآباء! إنهم يختبئون وراء المشيئة الإلهية، بينما الحقيقة أنهم يتبعون آباءهم بلا عقل ولا تفكير. المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها

دعني الآن - أيها القارئ الكريم - أضع أمام ناظريك الأفكار المركزية التي تنبض بها هذه الآيات الكريمة. لا تمر عليها مروراً عابراً، بل قف عند كل فكرة واسأل نفسك: هل أنا أفعل مثلهم؟ هل لي نصيب من هذا الوصف القرآني؟ هل أحمي نفسي من هذه الآفات؟

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيات الكريمة:

1. كشف مغالطة الاحتجاج بالمشيئة الإلهية: {وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ} (هو تسجيل لمحاولة المشركين تبرير شركهم بإرادة الله، وهروب من المسؤولية بالاختباء وراء القدر).
2. الرد القاطع على هذه المغالطة: {مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} (هو تفنيد سريع وحاسم: إنهم لا يملكون علماً بمشيئة الله، بل هم يكذبون ويخمنون ويتبعون الظن).
3. الطعن في مصداقية دعواهم: {أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ} (هو سؤال استنكاري: هل لديهم كتاب من عند الله قبل القرآن يجيز لهم هذا الاحتجاج؟ كلا! إنهم مفترون).
4. الكشف عن العلة الحقيقية للضلال: {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ} (هو إعلان أن العلة الحقيقية ليست المشيئة ولا الكتاب، بل التقليد الأعمى للآباء والأجداد).
5. التفريق بين علم الغيب وعلم التكليف: الآيات ترسخ مفهوماً مركزياً في الإسلام: أن مشيئة الله الغيبية لا يصح أن تكون حجة على تعطيل التكليف والمسؤولية.

مقاصد الآيات وأهدافها:

1. تحرير العقل من التبريرات الواهية: أن يتحرر المؤمن من كل حجة باطلة تمنعه من تحمل مسؤولية أفعاله.
 2. إقامة التوازن بين الإيمان بالقدر والمسؤولية الإنسانية: أن يعرف المؤمن أن إيمانه بالقدر لا يعفيه من العمل والاختيار.
 3. كشف خطورة التقليد الأعمى: أن يرى المؤمن أن التقليد الأعمى للآباء والأجداد هو أصل الضلال في كل زمان ومكان.
 4. الدعوة إلى العلم واليقين عوضاً عن الخرص والظن: أن يطلب المؤمن العلم والبرهان، وألا يكتفي بـ الظنون والخرص.
- المحور الأول

{وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ}

المغالطة الكبرى... حين يتحول القدر الإلهي إلى ذريعة للمعصية

تشریح لأخطر آلية دفاعية في النفس البشرية

وقفة مع الأسلوب: {وَقَالُوا}... واو العطف التي تكشف التسلسل النفسي

دعني أقف بك عند هذه الواو في صدر الآية: {وَقَالُوا}. ما هذه الواو؟ إنها واو عطف، ولكنها هنا تحمل أكثر من مجرد العطف... إنها تكشف عن تسلسل نفسي في حوار المشركين.

لقد جادلوا أولاً، وزعموا أن لله بنات، وجعلوا الملائكة إناثاً. فلما أفضحوا بالحجة والمنطق، ولم يجدوا مفرّاً من الاعتراف بتناقضهم... ماذا فعلوا؟ قالوا هذه المقالة! لجأوا إلى الحل الأخير: الاحتجاج بالقدر!

إن الواو هنا ترسم خريطة نفسية: الجدل أولاً، ثم عند العجز... الاحتجاج بالمشيئة. وهكذا ترى كيف ينتقل الإنسان من حجة إلى أخرى أضعف منها، حتى يصل إلى الحجة التي لا يمكن دحضها بالمنطق الظاهري (لأنها متعلقة بالغيب)، فيختبئ وراءها كآخر ملاذ. {لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ: الجملة الشرطية التي تخفي فرية

الآن تأمل صياغة جملتهم: {لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ}. "لو" حرف شرط امتناعي، أي أنهم يقولون: "لو شاء الله ألا نعبد الأصنام والملائكة... لما عبدناهم". وهذا يعني أنهم ينسبون عبادتهم لغير الله إلى مشيئة الله!

إنها مغالطة خطيرة. هم لم يقولوا: "نحن مخطئون، ونسأل الله الهداية". بل قالوا: "الله شاء لنا هذا!" وكأنهم يبرئون أنفسهم ويلقون باللائمة على القدر الإلهي. إنهم يحولون الحقيقة (وهي أن الله لا يرضى الشرك) إلى عكسها (وهي أن الله شاءه)، ليجدوا مبرراً للبقاء على ضلالهم.

والأخطر من هذا كله: أنهم يستخدمون اسم {الرَّحْمَنُ} في هذا السياق! لقد كانوا ينكرون هذا الاسم ويكرهونه، وها هم يستخدمونه لتبرير شركهم! أليس هذا تناقضاً آخر؟ إنهم يقولون: "الرحمن - الذي وسعت رحمته كل شيء - شاء لنا أن نعبد غيره!". فأى رحمة هذه التي تأمر بالشرك؟ وأي منطق هذا الذي يزعم أن الرحمن يرضى بعبادة غيره؟ {مَا عَبَدْنَاهُمْ}: اعتراف ضمني بعبوديتهم المزيّفة

وتأمل أيضاً قولهم: {مَا عَبَدْنَاهُمْ}. إنه اعتراف ضمني بأنهم يعبدون هذه الأصنام والملائكة. ولكنهم لا يسمونها "عبادة" عادة في خطابهم، بل يسمونها "شفاعة" أو "تقرباً". أما هنا، وفي معرض الدفاع عن أنفسهم، فقد انزلق لسانهم فاعترفوا بأنها "عبادة" حقيقية.

وهكذا يفضحهم القرآن بألفاظهم هم. إنهم يسمونها عبادة، ثم يزعمون أن الله لو شاء لمنعهم منها! فأى إله هذا الذي يمنع عبادة غيره ثم لا يمنع؟! إن الإله الحق لا يرضى بعبادة غيره، ولا يشاء الشرك أبداً: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}.

مشكلة فلسفية أم حيلة نفسية؟ تحليل الدافع الحقيقي

والآن دعنا ننزل إلى أعماق النفس البشرية ونسأل: لماذا قال المشركون هذه المقالة؟ هل هي قناعة فلسفية عميقة؟ أم هي حيلة دفاعية نفسية؟

في الواقع، إنها آية دفاعية نفسية من الدرجة الأولى. إن الإنسان حين يجد نفسه محاصراً بالحجج، وحين يكتشف تناقضه، وحين يرى أن لا مفر من الاعتراف بالخطأ... يلجأ إلى آية "التبرير" الرخيصة: "هذا قدر، هذه مشيئة الله، لو شاء الله لغيرني!". إنه يهرب من مواجهة عيبه بإلقاء المسؤولية على الغيب!

وهذا ما يفعله كثير من الناس اليوم: المدمن الذي يقول: "هذا قدر، ولن أستطيع تركه". والمقصر في الصلاة الذي يقول: "لو شاء الله لهداني". والظالم الذي يقول: "هذا نصيبي وهذه مشيئة الله". كلهم يختبئون وراء هذه المغالطة نفسها التي اخترعها مشركو قريش! رسائل ودروس وتوجيهات من الآية

الرسالة الفكرية: التفريق بين المشيئة الكونية والمشيئة الشرعية

هذه الآية تفتح باباً من أهم أبواب الفكر الإسلامي: التفريق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية. ف الله قد يشاء كوناً (أي يسمح بوقوع) ما لا يرضاه شرعاً. إنه شاء كوناً ألا يمنعهم بالقهر عن عبادة الأصنام، لكنه لم يشأ شرعاً أن يعبدوها. فليس كل ما وقع فهو مرضي لله. وليست المشيئة الكونية (السماح بالوقوع) دليلاً على المشيئة الشرعية (الرضا والأمر).

وهذا التفریق - یا صاحبي - یحل إشکالات كثيرة، ویجیب عن أسئلة محيرة: لماذا یسمح الله بالظلم ؟ لماذا یقع الشر؟ لماذا یضل الکافر؟ کل هذا واقع بمشیئة الله الکونية (إذ لا یقع شیء فی الکن إلا بإذنه)، ولكنه لیس مرضیا له شرعاً. فافهم هذا جيداً؛ فإنه مفتاح من مفاتيح الفهم.

الرسالة النفسیة: التبریر یقتل الإرادة ویمیت الضمیر

أخطر ما فی هذه المغالطة أنها تریح الضمیر، فتقتل فی الإنسان إرادة التغبیر. فحين یوقن المدمن أن إدمانه "مشیئة الله"، فإنه لن یحاول التخلص منه! وحين یوقن المذنب أن ذنبه "قدر مكتوب"، فإنه لن یتوب! وهكذا تصبح هذه المغالطة سجنًا نفسيًا محکمًا، یمنع صاحبه من مراجعة نفسه، ویقضي على آخر بصيص من إرادة التغبیر.

فاحذر - یا أخي - أن تقع فی هذا الفخ. لا تقل: "هذا قدری" لتبرر عجزک وتقصیرک. بل قل: "أنا مذنب، وأستغفر الله، وأريد أن أتغبیر، وأطلب من الله العون على ذلك".

الرسالة التربویة: حماية النشء من هذه المغالطة

أيها المربی... احم أبناءک وطلابک من هذه المغالطة الخطيرة. علمهم أن الله لا یرضى الشر، وأن القدر لا یصح أن یكون حجة على المعصیة. علمهم أن الإنسان مخیر فی أفعاله، مسؤول عنها، محاسب علیها. وإن وجدت أحدهم یحتج بالقدر على تقصیره، فرده إلى هذه الآیة، وبین له کیف أن المشرکین فعلوا الشیء نفسه، وکیف أن القرآن فضحهم.

المحور الثاني

{مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ؕ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ}

الرد الإلهی الساق... من العلم إلى الخرص... ومن الیقین إلى الظن

کیف ینسف القرآن المغالطة فی أقل الکلمات؟

{مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ}: الرد الذی یکتسح کل ادعاء

والآن تأمل کیف یرد القرآن على هذه المغالطة. رد واحد، مباشر، قاطع، لا یتروک مجالاً للجدال: {مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ}. "ما لهم" نفی للاختصاص، "بذلك" أي بهذا القول (أن الله شاء لهم عبادة غیرهم)، "من علم" أي من أي علم کان، لا من کتاب ولا من وحي ولا من عقل.

إنه رد ینسف الدعوى من جذورها. هم زعموا أنهم یعلمون أن الله شاء لهم الشرک. فجاء الرد: "لا علم لکم بذلك!". إنه سؤال ضمینی: "من أخبرکم أن الله شاء لکم هذا؟ هل اطلعتم على الغیب؟ هل عندکم کتاب من الله؟ هل جاءکم رسول بهذا الخبر؟". کلا... إنهم لا یملکون شیئاً من ذلك. إنهم "لا یعلمون"!

وهذا الرد یرسخ قاعدة معرفیة مهمة: أن الکلام فی الغیب یحتاج إلى علم من الله، لا إلى ظن وتخمین. فما لا دلیل علیه من الوحي، لا یصح أن یكون جزءاً من عقيدة أو مبرراً لسلوک. وإنما یکتفی الإنسان فیہ بالتسلیم لله، دون أن یجعل منه حجة على فعله.

{إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ}: كلمة تکفی للقضاء على کل باطل

ثم تأتي الکلمة الفاصلة: {إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ}. "إن" نافیة، "إلا" للحصر. أي: "ما هم إلا یخرصون". و الخرص هو التخمین والظن والکذب. تقول: خرص فلان، أي کذب وخمن وقال بلا علم.

و"الخرص" له دلالات:

- . إنه الظن والتخمین بلا دلیل.
- . إنه الکذب وتقول ما لا یعلم.
- . إنه الحزر والتقدير العشوائی.

فهم "یخرصون": أي یکذبون ویخمنون ویقولون بلا علم. إنهم لا یعتمدون على وحي ولا على عقل، بل على الظن المحض. {وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا یُعْطِی مِنَ الْحَقِّ شَیئاً}.

فسبحان الله! في أقل من سطر، تم نسف الحجة كلها. لقد حولهم القرآن من محتجين إلى كاذبين، ومن مستدلين إلى خارصين، ومن علماء بمشيئة الله إلى جاهلين يخبطون خبط عشواء. رسائل ودروس وتوجيهات من الآية

الرسالة الفكرية: تحريم القول على الله بلا علم

الآية تقرر أصلاً "عظيماً من أصول الدين: أن القول على الله بلا علم محرم وكذب. فلا يحل لأحد أن يقول: "الله شاء كذا" أو "الله رضي بكذا" إلا بدليل من الوحي. وما أكثر الذين يخوضون في دين الله بلا علم، قائلين: "الله يريد كذا"، و"الله لا يريد كذا"، دون أن يكون لهم مستند من كتاب أو سنة. هؤلاء يخرضون كما خرص المشركون.

الرسالة النفسية: الفرق بين المؤمن والخارص في الطمأنينة

المؤمن الصادق يعيش في طمأنينة، لأنه يستند إلى علم من الله. أما الخارص فيعيش في قلق وشك، لأنه يبني على الظن. تأمل في حياتك: كم مرة بنيت فيها قراراتك على "الخرص" بدل "العلم"؟ كم مرة قلت: "أظن أن الله لا يريد لي هذا"، أو "أشعر أن الله غاضب علي" دون دليل؟ كن على علم ويقين في تعاملك مع الله، ولا تكن من الخارصين.

الرسالة التربوية: تعليم النشء أن يقول "لا أعلم" لما لا يعلم

علم أبناءك وطلابك أن يقولوا بصراحة: "لا أعلم" لما لا يعلمون. لا تجعلهم يتكلفون الإجابة عن كل سؤال، بل علمهم الأدب مع الله وألا يتكلموا في غيبه بغير دليل. هذه الشجاعة الأدبية - وهي قول "لا أعلم" - هي من علامات الورع والعلم الحقيقي. المحور الثالث

{أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ}

السؤال الذي يهدم الأساس المزعوم

هل لديهم مستند سماوي يجيز لهم هذا التلاعب بالمشيئة؟
{أَمْ:} الإضراب الانتقالي إلى حجة جديدة

تأمل هذه {أَمْ} في صدر الآية. إنها "أَمْ" المنقطعة التي بمعنى "بل" والهمزة. إنها إضراب وانتقال إلى حجة جديدة: "لقد قلنا لكم إنهم يخرضون، ولا علم لهم بما يقولون... بل دعونا نسألهم سؤالاً آخر: هل عندهم كتاب من السماء؟!"

وهكذا يمضي القرآن في تفنيد دعواهم من كل جانب. بعد أن أبطل حجتهم من جهة العلم والخرص، ينتقل الآن ليبطلها من جهة المستند الكتابي. إنها استراتيجية "تعدد طرق الإبطال": أن تبطل الدعوى من عدة وجوه، حتى لا يبقى لصاحبها أي مخرج.
{أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ:} السؤال الاستنكاري الساحق

والآن... {أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ:} الاستفهام هنا للإنكار. "أَمْ" بمعنى "بل" والهمزة: "بل أحقاً آتيناهم كتاباً من قبل هذا القرآن؟!". إنه سؤال استنكاري، معناه: "لم نؤتهم كتاباً!". فليس عندهم كتاب من الله قبل القرآن. ولو كان عندهم كتاب، لكانوا به "مستمسكين"، أي متمسكين به، معتمدين به، محتجين به.

وتأمل كلمة {مِّن قَبْلِهِ:} "من قبله" أي من قبل القرآن. إنهم لم يأتهم كتاب قبل القرآن يجيز لهم هذا الزعم. فكل الكتب السماوية قامت على التوحيد ونبذ الشرك. فمن أين لهم هذا الزعم إذن؟
{فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ:} إفحامهم بأصل ثابت

{فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ} (أي متمسكون به، معتمدون بحجته. "مستمسكون" صيغة مبالغة: أي في غاية التمسك. و"به" أي بذلك الكتاب المزعوم.

والمعنى: لو كانوا صادقين في أن لهم كتاباً من عند الله يجيز لهم هذا الزعم، لكانوا متمسكين بهذا الكتاب، ومحتجين به، ولن يتركوه ويحتجوا بمجرد الظن والخرص. لكنهم لم يفعلوا ذلك، فدل على كذبهم.

إنها طريقة في الإفحام: افترض أيها المخالف أنك صادق... وانظر كيف يجب أن يكون موقفك عندئذ. ثم قارن هذا الموقف بموقفك الفعلي لترى التناقض! فإذا كانوا صادقين، لكان لهم كتاب يتمسكون به، ولكنهم ليسوا متمسكين بكتاب بل بالظن والخرص، إذن هم كاذبون. رسائل ودروس وتوجيهات من الآية

الرسالة الفكرية: المرجعية الوحيدة هي الوحي

الآية تقرر أن المرجعية الصحيحة هي الوحي الإلهي (الكتاب). فمن لم يكن لديه كتاب من الله، فكلا مه في الغيب لا قيمة له. وهكذا ينبغي أن يكون تفكير المؤمن: أن يعود في كل أمور دينه إلى الوحي، وألا يقبل من الأقوال والآراء إلا ما استند إلى كتاب أو سنة.

الرسالة النفسية: التحرر من أوهام الامتلاك الفكري

كثير من الناس يتحدثون عن الله وعن الغيب وكأنهم يملكون كتاباً من السماء! إنهم يطلقون الأحكام، ويجزمون بالمسائل، ويفتون في العظائم... وهم في الحقيقة لا يملكون أي مستند من الوحي. هذه الـية تحرك من هذا الوهم، وتعلمك أن تقول: "لا أعلم" في كل ما لا دليل عليه.

الرسالة التربوية: بناء العقل النقدي للتراث

علم تلاميذك أن يسألوا عن كل قول ينسب إلى الدين: "أين الدليل؟ هل من كتاب؟ هل من سنة؟". لا تجعلهم يتلقفون كل ما يسمعون دون تمحيص. رب فيهم العقل النقدي الذي يفرق بين الحق والباطل، بين العلم والخرص، بين الوحي والظن. المحور الرابع

{بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ}

الجذر الحقيقي للضلال... حين يتكشف المستور

التقليد الأعمى... الوباء الذي أهلك الأمم وما يزال
{بَلْ}: حرف الإضراب الذي يعلن عن الحقيقة المخفية

الآن نصل إلى ذروة الآيات، إلى الجوهرة التي طالما غطوها بالمغالطات: {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ}.

تأمل هذه {بَلْ}... إنها حرف إضراب، يفيد الانتقال من كلام إلى آخر أهم منه. إنه إضراب عن كل ما سبق من حججهم: "دعوا عنكم هذا كله... لستم صادقين في احتجاجكم بالمشيئة، ولستم مستندين إلى كتاب... بل الحقيقة التي تخفونها هي هذه: أنكم وجدتم آباءكم على دين، وأنتم تقلدونهم!".

إن {بَلْ} هنا تشبه كشافاً ضوئياً يسلط على المخبأ، ويكشف المستور. بعد أن رد على كل حججهم الواهية، كشف الحقيقة التي كانوا يخفونها: إنهم ليسوا بأصحاب حجة ولا منطق ولا كتاب... بل هم مقلدون لأبائهم، سائرون على آثارهم، لا يملكون من أمرهم شيئاً.
{إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ}: منطق التقليد القديم

"إننا وجدنا آباءنا على أمة" أي وجدناهم على دين وملة وطريقة. و"الأمة" في العربية تطلق على الدين والملة والطريقة: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ} أي على دين. وهذا هو "منطق التقليد": أن يتبع الإنسان ما وجد عليه آباه، دون أن يسأل: هل هذا حق أم باطل؟

ولاحظ كلمة {وَجَدْنَا}. إنها تدل على أنهم لم يختاروا هذا الدين عن اقتناع، بل "وجدوا" أنفسهم فيه منذ الصغر، كما يجد الإنسان شيئاً موروثاً. فهي ليست عن بحث واختيار، بل عن توارث وتقليد.

وهذا هو حال أكثر الضالين عبر التاريخ: إنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن الحق. {قَالُوا بَلْ تَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} {وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ}: الادعاء بالهداية مع وضوح الضلال

ثم يضيفون: {وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ}. "الآثار" جمع أثر، وهي ما يتركه الماشي من علامات. و

"مهمدون" أي سالكون سبيل الهداية في زعمهم.

فهم لا يكتفون بأنهم وجدوا آباءهم على دين، بل يضيفون إلى ذلك أنهم مهمدون في اتباع آثارهم! وهذا أدهى وأمر. إنهم يقلدون، ثم يزعمون أن هذا التقليد هو عين الهداية! إنهم يرفعون التقليد الأعمى إلى مرتبة اليقين، ويساوون بين الاتباع بلا تفكير والاهتداء بالعقل والبرهان!

و"مهمدون" بصيغة اسم الفاعل تفيد الثبات: إنهم يعيشون في حالة دائمة من الشعور بأنهم على هدى، وهم في الحقيقة على ضلال. {الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا}.

ماذا تعني هذه الآية بالنسبة لنا اليوم؟

انظر حولك - يا رعاك الله - ألا ترى أن هذه الآية تصف حال كثير من المسلمين اليوم؟ كم من مسلم يمارس دينه بالتقليد المحض، دون أن يسأل عن الدليل، ودون أن يبحث عن الحق، ودون أن يعرف لماذا يصلي ولماذا يصوم؟! إنه "وجد آباءه على أمة"، فسار على آثارهم... وهذا وحده لا يكفي للنجاة!

نحن لا ننكر أن اتباع الآباء في الحق مطلوب. ولكن المحذور هو أن يكون هذا الاتباع هو الدليل الوحيد، وأن نجعله بديلاً عن البحث والاقتناع. إن الإسلام يريد منك أن تؤمن عن علم ويقين، لا عن تقليد ووراثته. {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ}. "على بصيرة" أي على علم ويقين، لا على تقليد أعمى. رسائل ودروس وتوجيهات من الآية

الرسالة الفكرية: التقليد الأعمى ليس دليلاً على الحق

الآية تقرر حقيقة فكرية مهمة: أن كون الشيء مألوفاً ومتوارثاً ليس دليلاً على صحته. الحق لا يعرف بكثره فاعليه ولا يقدم أتباعه، بل بموافقته للوحي وللعقل السليم. وإن أكثر الناس هلاكاً هم الذين يتبعون ما ألفوه دون تفكير. {وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}.

الرسالة النفسية: الخروج من منطقة الراحة الفكرية

التقليد مريح نفسياً، لأنه يغنيك عن عناء التفكير والبحث. ولكن هذا "الراحة" هي راحة مؤقتة، تليها ندامة طويلة. فأخرج من منطقة الراحة هذه، وابحث عن الحق بنفسك، واسأل عن الدليل، ولا تترك إلى ما وجدت عليه الناس.

الرسالة التربوية: تربية العقل المستقل

أيها المربي... لا ترب أبناءك على أن يكونوا نسخاً مكررة منك أو من المجتمع. ربهم على أن يفكروا بأنفسهم، وأن يسألوا عن الدليل، وأن يقتنعوا قبل أن يعملوا. هذا هو منهج القرآن في التربية: أن يربي عقولاً مستقلة، لا قطعاً من المقلدين.

المحور الخامس

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً: مواجهة ثقافة التبرير بالقدر

إن ثقافة التبرير بالقدر لا تزال منتشرة في مجتمعاتنا. المدخن يقول: "هذا قدرى"، والمقصر في حق أهله يقول: "هذا نصيبي"، والمفرط في حق الله يقول: "الله لم يشأ هدايتي". هذه الثقافة هي امتداد لمقالة المشركين الأولى. والآيات تدعونا إلى محاربة هذه الثقافة، وإلى ترسيخ ثقافة المسؤولية الشخصية: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ}.

ثانياً: كشف التلاعب بالنصوص الدينية

كثير من الناس اليوم يتلاعبون بالنصوص الدينية لتبرير أهوائهم، كما تلاعب المشركون بمفهوم المشيئة. إنهم يأخذون آيات القدر ويتركون آيات التكليف، ويأخذون آيات الرحمة ويتركون آيات العذاب. والآيات تعلمنا أن نأخذ الدين كله، وألا نتبع المتشابه تاركين المحكم.

ثالثاً: مواجهة التقليد الأعمى في العصر الحديث

إن التقليد الأعمى لم يعد مقتصرًا على الآباء والأجداد، بل صار يشمل تقليد الغرب، تقليد الموضة، تقليد المشاهير، تقليد كل ناعق. الآيات تدعونا إلى أن نكون أصحاب عقل مستقل، نختار ما نوافق عليه بعد تفكير واقتناع، لا ما يفرضه علينا المجتمع أو الإعلام أو الضغط الاجتماعي.

المحور السادس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: التفريق بين الغيب والتكليف

الآيات ترسخ مفهوماً فكرياً عظيماً: أن الغيبيات لا تصلح أن تكون حجة في التكليف. ما شاء الله في الغيب لا نعلمه، فلا يصح أن نحتج به. نحن مكلفون بما نعلم: بالوحي، وبالعقل الذي ميزنا الله به ، وبالاختيار الذي وهبنا إياه. وهذا المفهوم يحمي العقل من الوقوع في الحتمية المطلقة أو الجبرية.

المفهوم النفسي: التبرير يقتل الإرادة

الآيات تقدم تحليلاً نفسياً عميقاً: أن الإنسان حين يبرر خطأه، فإنه يريح ضميره مؤقتاً، ولكنه يقتل إرادته في التغيير. هذه الآلية الدفاعية وإن كانت تخفف الألم النفسي آنياً، إلا أنها تدمر قدرة الإنسان على مواجهة ذاته وإصلاحها.

المفهوم التربوي: بناء الإنسان الواعي المسؤول

الآيات تبني مفهوماً تربوياً للإنسان: إنساناً واعياً، مسؤولاً عن أفعاله، غير مبرر لتقصيره، وغير مقلد لغيره بلا وعي. هذا هو الإنسان الذي يصلح لعمارة الأرض وقيادة العالم.

المحور السابع

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: تحمل مسؤولية أفعالنا

الله يريد منا أن نتحمل مسؤولية أفعالنا، وألا نلقي باللوم على القدر أو على المجتمع أو على غيرنا. "نحن المذنبون، ونحن المقصرون، ونحن المحتاجون إلى التوبة". هذا هو منطق المؤمن. أما منطق المنافق والمشرک فهو: "هذا قدر الله، وهذه مشيئته".

الإرادة الثانية: التحرر من التقليد الأعمى

الله يريد منا أن نكون أصحاب عقل وبصيرة. أن نؤمن عن علم، ونعمل عن اقتناع. ألا نكون مجرد مقلدين للآباء أو للمجتمع أو للإعلام. يريد أمة تفكر، وتسأل، وتتدبر، وتصل إلى اليقين بنفسها.

الإرادة الثالثة: الاستناد إلى العلم لا إلى الخرص

الله يريد منا أن نبني عقائدنا وسلوكياتنا على علم ويقين، لا على ظن وخرص. أن نمتلك الأدلة و البراهين، لا أن نكتفي بالظنون والتخرصات. {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}.

المحور الثامن

أبعاد الآيات وآفاقها

البعد المعرفي: تأسيس منهج التفكير النقدي

الآيات تؤسس لمنهج معرفي متكامل هو "التفكير النقدي": أن تفحص الأفكار، وتطلب الأدلة، وترفض الخرص، وتكشف التناقضات، وترد الفرع إلى أصله. هذا المنهج هو الذي تحتاجه الأمة اليوم لمواجهة فيض الأفكار والمذاهب والتوجهات.

البعد المنهجي: البدء بالأهم فالأهم في الحوار

لاحظ كيف بدأ القرآن بالرد على أقوى حججهم (الاحتجاج بالمشيئة)، ثم انتقل إلى الأضعف (الكتاب المزعوم)، ثم كشف الجذر الحقيقي (التقليد). وهذا يعلمنا منهجاً في الحوار: أن نبدأ بمعالجة أقوى ما عند الخصم، ثم ننزل إلى الأضعف، ثم نكشف الجذر.

البعد الحضاري: صناعة مجتمع العقل والعلم

الآيات تبني حضارة تقوم على العقل والعلم، لا على التقليد والخرص. إنها حضارة الإنسان الواعي المسؤول عن أفعاله، الذي يبحث عن الحق ويلتزمه باقتناع. المحور التاسع

تحويل الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

المسار الأول: بناء الإنسان المسؤول

الآيات تبني إنساناً يتحمل مسؤولية أفعاله، لا يتهرب منها بالتقدير أو بالتقليد.

التطبيق العملي: راجع نفسك الآن. هل هناك تقصير في حياتك تبرره بـ "الظروف" أو "القدر" أو "المجتمع"؟ توقف عن هذه التبريرات، واعترف بتقصيرك، وابدأ في التغيير.

المسار الثاني: بناء المجتمع الواعي

الآيات تبني مجتمعاً لا يكتفي بالتقليد، بل يسأل ويفكر ويبحث عن الدليل. مجتمعاً يربي أبنائه على العقل النقدي والوعي والمسؤولية.

التطبيق العملي: كن داعية للوعي في مجتمعك. لا تكتف بأقل الناس، بل علمهم أن يبحثوا بأنفسهم، وقدم لهم الأدلة والحجج.

المسار الثالث: بناء الحضارة العلمية اليقينية

الآيات تبني حضارة تقوم على العلم واليقين، لا على الظن والخرص. حضارة تنتج المعرفة، وتنشر الوعي، وتحرر العقول.

التطبيق العملي: تعلم العلم الشرعي، وقدمه لغيرك. حارب الخرافات والأوهام. شجع على القراءة و البحث والتدبر. المحور العاشر

كيف تحول الآيات إلى واقع معاش؟

الخطوة الأولى: راجع تبريراتك

اجلس مع نفسك جلسة صدق. اسألها: "ما هي التبريرات التي أستخدمها لأغطي بها على تقصيري؟ هل أحتج بالقدر؟ هل ألقى باللوم على الآخرين؟ هل أقول: هذا ما وجدت عليه آبائي؟". اكشف هذه التبريرات، وتخلص منها، وابدأ في المواجهة.

الخطوة الثانية: اطلب العلم بدل الخرص

لا تكتف بالظنون والتخمينات في دينك وحياتك. اطلب العلم، واسأل عن الدليل، واقرأ، وتعلم. اجعل لك وقتاً لطلب العلم الشرعي، ولو كان يسيراً.

الخطوة الثالثة: كن واعياً لا مقلداً

في كل أمر من أمور دينك ودنياك، اسأل نفسك: "لماذا أفعل هذا؟ هل أفعله لأنني وجدت الناس يفعلونه، أم لأنني مقتنع به؟". لا بأس أن تتبع الناس في الحق، ولكن ليكن هذا عن قناعة لا عن تقليد أعمى.

الخاتمة: من الخرص إلى اليقين... رحلة العمر

أيها القارئ الكريم...

لقد قطعنا رحلة عميقة مع هذه الآيات الثلاث الكريمة. بدأناها مع المغالطة الكبرى: {لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ}. وانتقلنا إلى الرد الساحق: {مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ}. ثم إلى السؤال المفحم: {أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ}. ثم وصلنا إلى الجذر الحقيقي: {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ}.

والآن أسألك: أين أنت من هذه الأوصاف؟

هل أنت ممن يحتجون بالقدر على تقصيرهم؟
هل أنت ممن يكتفون بالظن والخرص دون العلم واليقين؟
هل أنت ممن ورثوا دينهم عن آبائهم دون أن يبحثوا عن الحق بأنفسهم؟

إذا كنت كذلك... فالقرآن يدعوك إلى تغيير مسارك. يدعوك إلى أن تكون صاحب علم لا صاحب خرص ، وصاحب يقين لا صاحب تقليد.

وأخيراً... تذكر أن هذه الآيات ليست مجرد قصة تاريخية عن مشركي قريش. إنها مرآة لك، ولنا جميعاً. فانظر في المرآة جيداً، واسأل الله أن يجعلك من أهل العلم واليقين، لا من أهل الخرص والتقليد.

المبحث الرابع

تفسير الآيات (23-25) من سورة الزخرف
{وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} . قَالَ أُولُو جُنُثِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} . فانتقمنا منهم ۖ فانتظر كيف كان عاقبة المكذابين

حين يتكرر المشهد عبر العصور... المترفون في مواجهة الحق

وحين يتحطم التقليد على صخرة الحقيقة... والعاقبة التي تنتظر المكذابين

رحلة في أعماق السنن التاريخية والمواجهة المصيرية والنهاية الحتمية
تقدمة لا بد منها: موقع الآيات من السورة ومن جدلية التاريخ والمواجهة
قف معي - يا رعاك الله - وقفة تأمل قبل أن ندخل إلى رحاب هذه الآيات الثلاث الكريمة. إنك الآن على أعتاب مشهد من أعظم المشاهد القرآنية في تحليل الظاهرة البشرية المتكررة. إنه المشهد الذي ينتقل بك من الحالة الخاصة (مشركو قريش) إلى القانون العام (سنة الله في الأمم). إنه المشهد الذي يقول لك: "ما يحدث معك الآن - أيها النبي - ليس جديداً، بل هو سنة ماضية، وقانون مطرد، تكرر مع كل رسول ومع كل أمة".

لقد رأينا في الآيات السابقة - آيات 20-22 - كيف كشف القرآن زيف حجج المشركين: احتجاجهم بـ المشيئة، وخرصهم بلا علم، وتقليدهم الأعمى للآباء. لقد صورهم وكأنهم يقولون: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ}.

والآن، في هذه الآيات، يأتي التعقيب الإلهي المزلزل: {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا...}. إنها نقلة من الخاص إلى العام، ومن الفرد إلى النوع، ومن قريش إلى كل القرى التي أرسل فيها نذير. إنها تربنا أن ما قالته قريش هو نفسه ما قاله المترفون في كل أمة عبر التاريخ. إنها تكشف عن سنة تاريخية ثابتة.

ثم تعرض الآيات الحوار الخالد بين النبي والمترفين: {قَالَ أُولُو جُنُثِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ}. هذا هو السؤال الذي طالما وجهه الأنبياء لأقوامهم: "أولو كان ما جئتمكم به أهدى وأفضل وأقرب إلى الحق والعقل... أتصرون على تقليد الآباء؟". ثم يأتي الجواب الصادم: {قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}. هذا هو الجواب! ليس جواباً عن السؤال، بل إعلان صريح بالكفر، وإصرار على الضلال.

ثم الخاتمة المخيفة: {فانتقمنا منهم} ۖ فانتظر كيف كان عاقبة المكذابين. سنة الانتقام من المكذابين سنة ماضية، وعاقبتهم عبرة لمن يعتبر.

وهكذا تنتقل بنا السورة من مشهد المشركين وهم يتلونون بالحجج، إلى مشهد التاريخ وهو يعيد نفسه، إلى مشهد المواجهة الحاسمة بين النبي وقومه، إلى مشهد العاقبة المحتومة. إنها رحلة في الزمن والمكان والنفس البشرية، تهدف إلى تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم، وتحذير الكافرين،

وتعليم المؤمنين.
المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها

دعني الآن - يا أخي القارئ - أضع بين يديك الأفكار المركزية النابضة في هذه الآيات. لا تمر عليها مروراً عابراً، بل تأملها، واجعلها تلامس قلبك وعقلك.

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيات الكريمة:

1. تثبيت سنة تاريخية ثابتة: التقليد الأعمى عقبة كل دعوة إصلاحية.
{ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَقُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا ... } إنها الكلمة نفسها تتكرر عبر العصور، على أسنة المترفين في كل أمة، في مواجهة كل نبي.
2. تحديد الفئة المعيقة للإصلاح: المترفون.
لم يقل "إلا قال كبراًؤها" أو "إلا قال عظماًؤها" فقط، بل قال: { مُتْرَقُوهَا }. والترف هو التمتع و الرفاهية الزائدة. إن "المترفين" هم الذين أفستهم النعمة، وأطغتهم الرفاهية، فهم يقفون في وجه الحق حفاظاً على مصالحهم.
3. عرض السؤال المصيري الذي طرحه كل نبي: { أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ ... } هل تتبعون الآباء ولو كان ما جئت به أفضل وأهدى؟
هذا السؤال يكشف أن المشكلة ليست مشكلة جهل بالحق، بل مشكلة عناد وإصرار على الباطل حتى بعد ظهور الحق.
4. تسجيل الجواب الصادم: الإعلان الصريح بالكفر.
{ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ. } (لم يقولوا: "ننظر ونتدبر"، بل أعلنوا الكفر فوراً وقطعاً. هذا هو إصرار على الباطل في أوضح صوره.
5. بيان العاقبة الحتمية: سنة الانتقام من المكذبين.
{ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ. } إنها سنة الله التي لا تبدل: المكذبون إلى هلاك، والمؤمنون إلى نجاة.

مقاصد الآيات وأهدافها:

1. تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين: أن يعلموا أن ما يلقونه من تكذيب وعناد هو قدر لأنبياء، وسنة الله في الخلق، فلا يهنوا ولا يحزنوا.
 2. تحذير المترفين والمقلدين: أن يفيقوا من غفلتهم قبل فوات الأوان، وقبل أن تحل بهم سنة الانتقام كما حلت بمن قبلهم.
 3. تقرير قانون التاريخ: أن الباطل إلى زوال، وأن العاقبة للمتقين.
 4. تعليم الأمة منهج التعامل مع التاريخ: أن نقرأ التاريخ بعين الوحي، فنستخرج منه السنن، ونأخذ منه العبر، ولا نكرر أخطاء السابقين.
- المحور الأول

{ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَقُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ }

سنة الله في مواجهة الدعوات... المترفون سدنة الباطل عبر العصور

تشريح الظاهرة المتكررة... لماذا يقف المترفون في وجه الحق دائماً؟
وقفة مع الأسلوب: { وَكَذَلِكَ }... تشبيه الحال بالحال

دعني أقف بك عند هذه الكلمة الافتتاحية العظيمة: { وَكَذَلِكَ }. الكاف هنا للتشبيه، و"ذلك" اسم إشارة. والمعنى: "ومثل ذلك الذي قلناه لك عن قومك... مثل ذلك حدث مع كل نبي قبلك". إنها أداة تشبيه تجعل من قصة النبي صلى الله عليه وسلم مع قومه نموذجاً مكرراً، وحالة خاصة من قانون عام.

وهذا الأسلوب - أسلوب تشبيه الحال بالحال - يمنح قلب النبي والمؤمنين سكينه عجيبة. فحين تعلم أن ما تمر به ليس استثناءً، بل هو القاعدة، يهدأ قلبك، وتطمئن نفسك. لست وحدك في هذه المعركة، بل لك سلف طويل من الأنبياء والمصلحين الذين مروا بنفس التجربة.
{ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ } عموم يشمل الجميع

تأمل هذا التعميم القرآني: {مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ...} "ما" نافية، و"من" زائدة للتوكيد، أي: "لم نرسل قبلك". {فِي قَرْيَةٍ} أي في أي قرية كانت، و"قرية" نكرة في سياق النفي فتعم كل القرى. {مَنْ تَذِيرٌ} أي من نبي منذر.

والمعنى: لم يحدث قط عبر التاريخ أن أرسل نبي إلى أمة، إلا واجهته الفئة المترفة بنفس الحجة: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ}. هذه هي الحجة الوحيدة التي يملكها المترفون عبر التاريخ! لا يملكون دليلاً "ولا برهاناً، بل يملكون هذه الكلمة الجوفاء: "وجدنا آباءنا على دين، ونحن على آثارهم سائرون!". {إِنَّا قَالِ مَثَرَقُوهُمَا}: تسليط الضوء على الفئة المعيقة

الآن نصل إلى جوهر الآية: {إِنَّا قَالِ مَثَرَقُوهُمَا}. "إلا" هنا أداة حصر، فكأن المعنى: "ما أرسلنا من نذير إلا لا وكان رد فعل المترفين كذا...". وهذا يعني أن المترفين هم دائماً طليعة المعارضين، وهم الذين يواجهون الدعوة أولاً "وقبل غيرهم".

ولكن: من هم المترفون؟

المترف في اللغة هو المنعم الذي أفسدته النعمة. من "الترف" وهو النعمة والرفاهية. والمترف هو الذي:

- . تنعم في حياته فتكبر واستغنى عن الله.
- . ألهته الدنيا وزينتها عن سماع الحق.
- . خاف على مصالحه وامتيازاته من تغيير النظام القائم.
- . رأى في الدعوة الجديدة تهديداً لمركزه الاجتماعي وثروته ومكانته.

ولهذا كانوا هم أول المعارضين، وأشدّهم عناداً، وأكثرهم تمسكاً بالقديم. إنهم لا يخافون على الدين، بل يخافون على مصالحهم. إن ثياب الدين التي يرتدونها هي غطاء لمصالحهم الدنيوية. لماذا المترفون بالذات؟ سر اختيار الوصف

تأمل معي: لماذا قال {مَثَرَقُوهُمَا} ولم يقل "أغنياؤها" أو "أقوياؤها" أو "كبراؤها"؟ مع أن كل هؤلاء معنيون بلا شك.

السر أن وصف "المترف" يشير إلى علة المعارضة الحقيقية: إنها الترف، أي التمتع الزائد الذي أطغاهم وأفسدهم. فالغنى وحده قد لا يكون سبباً للطغيان، فقد يكون الغني شاكراً متواضعاً. ولكن الترف (الغنى مع الترفع والاستكبار والانغماس في الملذات) هو الذي يعمي العين عن الحق، ويغلق الأذن عن الصدق.

وكم في هذا من عبرة للمسلمين اليوم! إن الترف هو العدو الأكبر للدين والدعوة. {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالِ مَثَرَقُوهُمَا}. إن الترف يصنع من الإنسان خصماً لله ورسوله بعد أن كان يمكن أن يكون عبداً شاكراً. فاحذر - يا صاحبي - أن يطغيك ترفك، أو أن ينسبك تنعمك واجبك تجاه ربك ودينك. {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ}: تكرار المقولة الواحدة عبر العصور

انظر كيف تكررت هذه الجملة بالحرف تقريباً في الآية السابقة (22): {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ}. والآن تكرر هنا على لسان المترفين من الأمم السابقة. إنه التطابق المذهل! نفس الكلمات، ونفس الحجة، ونفس المنطق الأعوج... عبر القرون والعصور!

وهذا التكرار له دلالة مهمة: إن الباطل واحد في أصوله وجذوره. إن الذين يعارضون الحق لا يبتكرون حججاً جديدة، بل يرددون الحجج نفسها التي ردها أسلافهم. لقد قال مشركو قريش ما قاله المترفون من قبلهم، وسيقول المتأخرون ما قاله المتقدمون. {تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ}. {وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ}: من الادعاء بالهداية إلى الاقتداء المحض

في الآية السابقة قالوا: {مُهْتَدُونَ} (أي مهتدون). أما هنا فعلى لسان المترفين السابقين قالوا: {مُقْتَدُونَ} (أي مقتدون). والتعبير هنا أدق في وصف حالهم: هم لا يكتفون بادعاء أنهم مهتدون، بل يعلنون صراحة أنهم "مقتدون" أي تابعون لآثار آبائهم خطوة بخطوة.

وهذا تطور في الكشف عن طبيعة موقفهم. إنهم في الحقيقة لا يبحثون عن الهداية، بل هم "مقتدون" بالآباء. هم لا يريدون معرفة الحق، بل يريدون البقاء على ما كان عليه الآباء. إن التقليد عندهم ليس وسيلة للوصول إلى الحق، بل هو غاية في حد ذاته.

فستان بين {مُهْتَدُونَ} (التي فيها ادعاء البحث عن الحق) و{مُقْتَدُونَ} (التي تعني التقليد الصرف). وكلاهما ورد في القرآن وصفاً للمعرضين، وكلاهما مذموم إذا كان على غير بصيرة. رسائل ودروس وتوجيهات من الآية

الرسالة الفكرية: سنن الله في التاريخ ثابتة لا تتبدل

الآية ترسخ مفهوماً فكرياً عظيماً: أن لله سنناً في التاريخ لا تتبدل ولا تتحول. ومن هذه السنن أن المترفين هم دائماً أول من يقف في وجه الحق. هذا القانون التاريخي يمكنك من قراءة الأحداث من حولك بعين ثاقبة: إذا رأيت المترفين يقفون ضد دعوة إصلاحية، فاعلم أن هذه سنة ماضية، وأن العقوبة ستكون كما كانت دائماً: انتصار الحق، وهلاك المعاندين.

الرسالة النفسية: تثبيت قلب الداعية والمصلح

أنت أيها الداعية، أيها المصلح... هل تشعر أحياناً بالوحدة؟ هل يهزك أن تقف ضدك الفئة المتنعة المترفة؟ اسمع هذه الآية جيداً: {وَكَلَّمَكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَقُوهَا...}. إن ما تمر به هو قدر الأنبياء قبلك. فاثبت ولا تحزن، وامض في طريقك، فإن الله معك.

الرسالة التربوية: التحذير من الترف في تربية النشء

أيها المربي... احذر أن تربي أبناءك في ترف زائد يفسدهم. إن الترف هو الذي أفسد المترفين وجعلهم يقفون في وجه الأنبياء. رب أبناءك على البذل والعطاء، لا على الأخذ والاستهلاك. ربهم على تحمل المسؤولية، لا على الترف والتنعم. وازرع في قلوبهم أن النعمة مسؤولية، لا متعة فحسب. المحور الثاني

{قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ}

سؤال الأنبياء الخالد... هل تتبعون الآباء ولو كان الحق غيرهم؟

لحظة الحقيقة حين يوضع المقلد أمام المرآة {قَالَ:} الفاعل الضمير المستتر... النبي في مواجهة المترفين

تأمل الآن: {قَالَ}. من القائل؟ في السياق، القائل هو النبي الذي أرسل إلى تلك القرية. إنه كل نبي، وفي مقدمتهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. إنه يقف الآن في مواجهة هؤلاء المترفين الذين احتجوا بالتقليد، ويوجه لهم السؤال المصيري.

تأمل الفرق بين "قال المترفون" و"قال" (النبي). إن الحوار قد بدأ. المترفون قالوا كلمتهم: "نحن على آثار آبائنا". والآن يأتي دور النبي، ليقول كلمته التي تزلزل كيانه: {أَوَلَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ}. إنه لا يتهرّب، ولا يسكت، بل يواجههم بالحجة التي تلزمهم. الهمة والواو: {أَوَلَوْ}... الاستفهام الإنكاري والتحدي

{أَوَلَوْ}... "الهمة" للاستفهام الإنكاري، و"الواو" للحال أو العطف، و"لو" للشرط. والمعنى: "أتفعلون ذلك ولو جئتم بدين أهدى مما وجدتم عليه آباءكم؟!"

إنها صياغة تجمع بين التعجب والإنكار والتحدي. إن النبي يقول لهم: "يا هؤلاء، هل تدركون ما تقولون؟ أنتم تقولون إنكم على آثار آبائكم مقتدون... ولكن ماذا لو كان ما جئتمكم به أفضل وأهدى وأقرب إلى الحق؟ هل ستظلون على تقليدكم الأعمى؟!"

وهذا السؤال يكشف عن ماهية المشكلة الحقيقية: إنها ليست مشكلة بحث عن الحق، بل مشكلة إصرار على التقليد حتى بعد ظهور الحق. إنهم لا يريدون أن يهتدوا، بل يريدون أن يبقوا على ما هم عليه. ولذلك قالوا في الآية التالية: {إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} دون أن يفكروا أو يتدبروا. {بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ}: معيار المقارنة العادل

انظر إلى كلمة {بِأَهْدَىٰ}. إنها اسم تفضيل من "الهدى". والنبي لا يقول: "بخير" أو "بأفضل" فقط، بل يقول: {بِأَهْدَىٰ} أي بأكثر هداية وإيصالا "إلى الحق".

وهذا يدل على أن ما جاء به الأنبياء هو أهدى مما كان عليه الآباء قطعاً ويقيناً. فشريعة الله أكمل وأعدل وأهدى من كل ما ابتدعه البشر. والأنبياء لا يدعون أن ما جاؤوا به "أهدى" فحسب، بل هو كذلك حقيقة. فمن اتبع الوحي اهتدى، ومن اتبع غير الوحي ضل.

ثم تأمل قوله: {مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ}. إنه يقرهم أولاً "على أنهم" وجدوا "آباءهم" على شيء، ثم يبين لهم أن ما جاءهم به هو أهدى مما وجدوا عليه آباءهم. إنه لا ينفي أن لهم آباءً على دين، بل يتجاوز ذلك إلى المقارنة بين الدينين: دين الآباء ودين الوحي. وأيهما أهدى؟! لماذا هذا السؤال؟ استراتيجية الإلزام بالمقارنة

سؤال النبي هنا ليس سؤالاً عادياً، بل هو استراتيجية حوارية عميقة: استراتيجية الإلزام بالمقارنة. إنه يقول لهم: "أنا لا أطلب منكم أن تتركوا دين آبائكم كلياً دون تفكير. أنا فقط أطلب منكم أن تقارنوا بين ما جئتمكم به وما كان عليه آبائكم. وأنا على يقين أنكم إذا فعلتم ذلك بصدق وإنصاف، فستكتشفون أن ما جئتمكم به أهدى".

وهكذا ينبغي أن يكون الداعية: لا يطلب من الناس نبذ كل ماضيهم دفعة واحدة، بل يطلب منهم المقارنة المنصفة. والناس حين يقارنون بين الحق والباطل بإنصاف، فسيختارون الحق لا محالة. رسائل ودروس وتوجيهات من الآية

الرسالة الفكرية: الحق لا يخشى المقارنة

إن سؤال النبي: {أَوَلَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَى} يعلمنا أن الحق لا يخشى المقارنة. إن صاحب الحق يثق في حجته، ويعلم أنها أهدى وأنفع للناس. ولذلك فهو لا يمنع الناس من مقارنتها بغيرها، بل يدعوهم إلى ذلك.

وهكذا ينبغي للمسلم اليوم: لا تخف من مقارنة دينك بغيره من الأديان والفلسفات. إن دينك هو الأهدى والأكمل، وسيظهر تفوقه في كل مقارنة منصفة. المشكلة ليست في المقارنة، بل في الإنصاف في المقارنة.

الرسالة النفسية: شجاعة المحق وارتباك المبطل

سؤال النبي يحمل شجاعة المحق. إنه يقف في وجه المترفين ولا يخافهم، ويواجههم بحجته ولا يتهيبهم. هذه الشجاعة نابعة من ثقته بربه، وبقينه بأن ما معه هو الحق. فكن - يا أخي - شجاعاً في الحق، ولا تخف من مواجهة المبطلين.

الرسالة التربوية: علم أبنائك المقارنة لا التقليد

أيها المربي... لا ترب أبنائك على التقليد الأعمى، بل علمهم أن يقارنوا بين الأقوال والأفعال، وأن يختاروا الأهدى والأفضل. علمهم أن ينتقدوا حتى ما أنت عليه، فإن كان حقاً قبلوه، وإن كان باطلاً نبذوه. هذه هي التربية التي تصنع عقولاً ناضجة، لا قطيعاً سائراً وراء كل ناعق. المحور الثالث

{قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}

الجواب الذي لم يجب عن السؤال... والإعلان الصريح بالكفر

حين ينتصر العناد على المنطق... وتتكشف الحقيقة عارية
{قَالُوا:} الفعل الذي يكشف عن رد الفعل الجمعي

والآن يأتي الرد: {قَالُوا}. لم يقل: "قال" واحد منهم، بل "قالوا" جميعاً. إنه رد جمعي، يكشف عن وحدة الموقف، وتطابق القلوب. هؤلاء المترفون متفقون فيما بينهم على رفض الحق، رغم أن النبي خاطبهم جميعاً. وهذا طبيعة الباطل: إن أهله يتحدثون في مواجهة الحق.

ثم تأمل أنهم لم يقولوا: "ننظر ونتدبر" أو "نقارن ونفكر" أو "نستشير ونتشاور". بل قالوا كلمة واحدة حاسمة قاطعة: {إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}. إنهم لم يتركوا لنفوسهم فرصة للتفكير، بل أعلنوا الرفض فوراً وقطعاً.

{إِنَّا}: تأكيد الجحود وتثبيت الكفر

{إِذَا...{إنها أداة تأكيد. هم لا يكتفون بمجرد الإخبار عن كفرهم، بل يؤكدونه. إنهم يريدون أن يقولوا للنبي: "لا تشك لحظة واحدة في موقفنا! نحن كافرون بما جئت به، وهذا موقف لا رجعة فيه!".

وهذا يدل على أنهم ليسوا باحثين عن الحق، بل هم رافضون له من البداية. إنهم لم يكفروا بعد تفكير وتدبر، بل كفروا فوراً بمجرد سماع الدعوة. {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ}.
{بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ}: الاعتراف الضمني بالإرسال

وتأمل قولهم: {بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ}. إنهم يقرون بأن النبي "أرسل" بشيء. و"أرسلتم" فعل مبني للمجهول، و الفاعل ضمناً هو الله. إنهم لا ينكرون أن النبي مرسل، بل يعلنون كفرهم بما أرسل به. وهذا تناقض فاضح: إنهم يعترفون بأنه مرسل، ثم يكفرون برسالته! فأبي منطق هذا؟!

وهذا هو حال كثير من المعرضين عن الحق: إنهم يعترفون بصدق الدعوة في قرارة أنفسهم، ولكنهم يكفرون بها بالسنتهم وأفعالهم. {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا}. لماذا قالوا {كافرون} ولم يقولوا "مكذبون"؟

تأمل اختيار كلمة {كافرون} بدلاً من "مكذبون" أو "منكرون" أو "رافضون". الكفر في اللغة هو التغطية والستر. والكافر هو الذي يغطي الحق ويستره بعد أن عرفه. فكأنهم يقولون: "نحن نعرف أن ما جئت به حق، ولكننا سنغطيه ونستره، ولن نعرف به!".

وهذا أشد من التكذيب المجرد. المكذب قد يكون مخطئاً، أما الكافر فهو متعمد للجحود. إنهم لا يكذبون فحسب، بل يكفرون، أي يخفون ما يعرفون أنه حق. وهذا هو الكفر في أشنع صورته: كفر عناد لا كفر جهل.
رسائل ودروس وتوجيهات من الآية

الرسالة الفكرية: الجواب الذي لا يجيب يكشف عن الإفلاس

إن جواب المترفين: {إِذَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} ليس جواباً عن سؤال النبي. النبي سألهم: {أَوَلَوْ جِئْتُمْكُمْ بِأَهْدَى}. وهذا سؤال يحتاج إلى جواب: "نعم تتبع" أو "لا تتبع". ولكنهم لم يجيبوا، بل أعلنوا الكفر. وهذا يكشف عن إفلاسهم الفكري، وعجزهم عن المواجهة المنطقية.

وكثير من الناس اليوم حين يُسألون سؤالاً "محرجاً" عن معتقداتهم، لا يجيبون بشكل مباشر، بل يتهربون بإعلان موقفهم المسبق. وهذا دليل على أنهم لا يملكون حجة، وأنهم مصرون على موقفهم دون تفكير.

الرسالة النفسية: الكبر يمنع من الاعتراف بالحق

لماذا أعلنوا الكفر فوراً؟ لأن الكبر يمنعهم من الاعتراف بالحق. إن الاعتراف بالحق يعني الاعتراف بأنهم كانوا على باطل، وهذا يهدم كبريائهم. فبدلاً من الاعتراف بالخطأ، اختاروا الإصرار على الباطل. هذا هو الكبر الذي أهلك الأمم.

الرسالة التربوية: علم أبناءك قبول الحق ولو كان مراراً

أيها المربي... درب أبناءك على قبول الحق ولو كان مراراً. درّبهم على أن يقولوا: "أخطأنا" إذا أخطأوا، وأن يعترفوا بالحق إذا ظهر لهم. لا تجعلهم يعتادون المكابرة والعناد، فيصبحوا مثل هؤلاء الذين فضحهم القرآن.
المحور الرابع

{فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ} ^ط فانتظر كيف كان عاقبة المكذّبين}

العدالة الإلهية التي لا تظلم أحداً... العاقبة المحتومة للمكذّبين

دعوة للتأمل والاعتبار قبل فوات الأوان
{فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ}: الفاء التي تفيد السرعة والحتمية

تأمل فاء التعقيب في {فانتقمنا}. إنها تفيد أن الانتقام جاء عقب تكذيبهم مباشرة، دون إبطاء. "انتقمنا" بصيغة الماضي، رغم أن الحديث عن المستقبل في سياق التهديد، وهذا يسمى في البلاغة "التعبير بـ الماضي عن المستقبل" للإشارة إلى تحقق الوقوع، فكأنه قد وقع فعلاً.

"انتقمنا" من النعمة، وهي العقوبة. والانتقام الإلهي ليس كالانتقام البشري الذي تحركه العاطفة و الغضب. إنه عقاب عادل من رب حكيم، يأتي بعد إقامة الحجة، وبعد إمهال المذنبين. وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا.

وتأمل أيضاً: لم يقل "فأهلكناهم" كما في بعض الآيات الأخرى، بل قال: {فانتقمنا}. في هذه الكلمة إشارة إلى أن ما حل بهم كان جزاءً وفاقاً لما فعلوه. إنه ليس مجرد إهلاك، بل انتقام، أي عقوبة مقابلة لجريمتهم. {فانظروا}: الأمر للنبي والأمة... رحلة التأمل والاعتبار

ثم يأتي الأمر: {فانظروا}. الخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم أولاً، ثم لكل من يسمع القرآن. "انظر" ليس بمعنى البصر فقط، بل بمعنى التأمل والتفكير والاعتبار. انظر بعين الفكر، وتأمل بعين العبرة، واستشعر بعين القلب.

وهذا الأمر القرآني المتكرر (فانظر) يدعو إلى قراءة التاريخ قراءة إيمانية. إن التاريخ ليس مجرد قصص وأحداث للتسلية، بل هو مدرسة للعبرة، ومعمل لاستخراج السنن، ودليل للسالكين إلى الله. {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}: السؤال المفتوح للعبرة

وآخر الآية: {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}. "كيف" سؤال عن الحال والكيفية، و"عاقبة" هي النهاية و المصير والمعنى: انظر وتأمل وتفكر، كيف كانت نهاية المكذبين؟ كيف صارت حالهم؟ كيف أهلكوا ودمروا وخربت ديارهم، وصاروا عبرة للمعتبرين؟

و"المكذبين" هنا هم كل من كذب الرسل عبر العصور. وهذا التعميم يخاطب مشركي قريش، ويقول لهم: "أنتم أيضاً مكذبون، فانظروا ماذا كانت عاقبة أمثالكم من الأمم السابقة، واعلموا أن مصيركم سيكون كمصيرهم، إن لم تؤمنوا". رسائل ودروس وتوجيهات من الآية

الرسالة الفكرية: سنة الانتقام من المكذبين سنة ماضية

الآية تقرر سنة إلهية: أن المكذبين للرسل، المعاندين للحق، المصيرين على الكفر... مصيرهم إلى هلاك ودمار. هذه السنة لا تحابي أحداً، ولا تجامل أمة، ولا تستثني فرداً. ومن ظن أنه سينجو من هذه السنة لأنه أقوى أو أغنى أو أكثر تكنولوجيا... فهو واهم. {أَفَأَمَّنُوا مَكَرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكَرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}.

الرسالة النفسية: الطمأنينة للمؤمنين والخوف للمكذبين

في هذه الآية طمأنينة لقلوب المؤمنين: إن الله منتقم من أعدائهم، وإن الباطل إلى زوال. وفيها من جهة أخرى تخويف للمكذبين: إن النعمة قادمة لا محالة، فبادروا بالتوبة قبل فوات الأوان.

ألا تشعر - يا أخي - بشيء من الطمأنينة وأنت تقرأ هذه الآية، وأنت ترى طغيان الباطل في عصرنا ؟ إن الله يمهل ولا يهمل. وإن الانتقام قادم، والعاقبة ستكون للمتقين.

الرسالة التربوية: ربط النشء بقصص الأولين

أيها المربي... علم أبنائك قصص الأولين، واربطهم بها. لا تقصها عليهم كما تقص الحكايات والأساطير، بل اجعلهم ينظرون فيها ويتأملون ويستخرجون العبر. "فانظر كيف كان عاقبة المكذبين" هو أمر لهم بأن يتأملوا ويتفكروا. المحور الخامس

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً: فهم صراع الحق والباطل فهماً تاريخياً سنينياً

الآيات تدعوننا إلى أن نفهم صراعنا مع الباطل في إطار السنن التاريخية. نحن لسنا أول من يواجه المترفين والمقلدين والمكذبين. هذا هو الصراع الأزلي بين الحق والباطل. وهذا الفهم يمنحنا صبراً وثباتاً وثقة في العاقبة.

ثانياً: التعرف على أدوات الباطل وأساليبه

الآيات تعرفنا بأدوات الباطل وأساليبه: الترف، والتقليد الأعمى، والعناد، والتكذيب. فإذا رأيت هذه الأساليب تستخدم ضد دعوة الحق اليوم، فاعلم أنها أدوات قديمة، وأنها ستنهزم كما انهزمت من قبل.

ثالثاً: تحذير الأمة من فتنة الترف

إن الآية: {إِذَا قَالُوا مَثَرُوهَا} تلفت أنظارنا إلى خطر الترف على الأمم. إن الأمة المترفة هي الأمة التي تفقد قدرتها على مواجهة التحديات، وتستسلم للشهوات، وتقف في وجه الإصلاح. فإذا أردنا النصر، فلنحذر من الترف، ولنرب أبناءنا على البذل والعطاء والجهاد.

المحور السادس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: الثبات السنني في عالم المتغيرات

الآيات ترسخ مفهوماً فكرياً في غاية الأهمية: أن لله سنناً في التاريخ. هذه السنن ثابتة لا تتغير، و الجهل بها يؤدي إلى الضياع، وفهمها يؤدي إلى النجاة. إنها تعطي المؤمن بوصلة يهتدي بها في خضم الأحداث.

المفهوم النفسي: التحرر من ضغط الأكثرية

حين تعلم أن المترفين عبر التاريخ وقفوا في وجه الأنبياء، تتحرر نفسياً من ضغط الأكثرية. فكون الأقلية مع الباطل لا يعني أنه حق، وكون الأقلية مع الحق لا يعني أنها باطلة. إن العبرة ليست بالأكثرية، بل بموافقة الوحي.

المفهوم التربوي: تربية الإنسان على الاستقلال الفكري

الآيات تبني إنساناً مستقلاً في فكره، لا تابعاً لغيره. إنها تحذر من التقليد الأعمى للآباء، وتدعو إلى التفكير والتدبر والمقارنة. وهذا هو مشروع التربية القرآنية: أن تربي عقولاً حرة، لا عبيداً للعادات والتقاليد.

المحور السابع

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: الثقة بوعده الله واليقين بنصره

الله يريد منا بعد قراءة هذه الآيات أن نثق به، وأن نوقن بنصره. إنه يقول لنا: "انظروا كيف انتقمنا من المكذبين، وكيف كانت عاقبتهم". إنه يدعونا إلى الثقة بأن ما حدث معهم سيحدث مع أعداء الدين في كل زمان.

الإرادة الثانية: الحذر من الترف ومهلكات الأمم

الله يريد منا أن نتعظ بموقف المترفين، وألا نكون مثلهم. يريد منا أن نتواضع له، وألا نفتر بأموالنا ونعمنا. يريد منا أن نستخدم النعمة في طاعته، لا في معصيته.

الإرادة الثالثة: اعتماد العقل والتفكير والتدبر

الله يريد منا ألا نكون مقلدين، بل أن نكون مفكرين متدبرين. إنه يريد أمة تعقل، لا أمة تقلد. يريد أن نختار الحق عن بينة واقتناع، لا عن وراثة وتقليد.

المحور الثامن

أبعاد الآيات وآفاقها

البعد المعرفي: علم السنن الإلهية

الآيات تفتح باباً معرفياً واسعاً هو "علم السنن الإلهية". هذا العلم يستخرج من القرآن والتاريخ، وهو يعطي المؤمن معرفة بقوانين التدافع بين الحق والباطل، وبسنن النصر والهزيمة، والتمكين والهلاك.

البعد المنهجي: منهج التعامل مع التاريخ

الآيات تقدم منهجاً للتعامل مع التاريخ: ليس لمجرد المعرفة أو التسلية، بل للعبرة والاتعاظ واستخراج السنن. وهذا المنهج هو الذي يجعل الأمة تستفيد من تاريخها وتاريخ غيرها.

البعد الحضاري: بناء حضارة تعي التاريخ

هذه الآيات تبني حضارة واعية بالتاريخ، مستفيدة من دروسه، لا تكرر أخطاء الماضين. إنها حضارة تتجنب أسباب الهلاك التي أهلكت الأمم السابقة، وتتمسك بأسباب النجاة التي نجت بها الأمم المؤمنة. المحور التاسع

تحويل الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

لكي تتحول هذه الآيات من مجرد نصوص إلى طاقة حضارية، يجب علينا تفعيلها في ثلاثة مسارات:

المسار الأول: بناء الإنسان الواعي بالتاريخ

الآيات تبني إنساناً يفهم التاريخ، ويستخلص منه العبر، ولا يكرر أخطائه. هذا الإنسان هو الذي يقود الأمة نحو مستقبل أفضل.

التطبيق العملي: اقرأ في التاريخ، وتأمل في قصص الأولين، واستخرج منها السنن والعبر. لا تكن أسير الحاضر، بل اجعل الماضي معلماً لك والمستقبل هدفاً.

المسار الثاني: بناء المجتمع المقاوم للترف

الآيات تبني مجتمعة لا يستسلم للترف، بل يقاومه، ويجعل النعمة وسيلة للطاعة لا للمعصية.

التطبيق العملي: حارب ثقافة الاستهلاك والترف في مجتمعك. ازهد في الدنيا، وارغب في الآخرة. كن قدوة في البذل والعطاء والتواضع.

المسار الثالث: بناء الحضارة القائمة على الوحي

الآيات تبني حضارة لا تقوم على التقليد الأعمى للأباء، بل تقوم على الوحي والعقل والتدبر. هذه الحضارة هي التي تستحق قيادة العالم.

التطبيق العملي: قدم الوحي مرجعية أولى في كل شيء. لا تقدم رأياً ولا تقليداً ولا هوىً على كتاب الله وسنة رسوله. وكن داعية إلى ذلك بلسانك وحالك. المحور العاشر

كيف تحول الآيات إلى واقع معاش؟

الخطوة الأولى: تأمل في التاريخ وخذ العبرة

خصص وقتاً لقراءة قصص الأنبياء والأمم السابقة في القرآن، وتأمل كيف انتقم الله من المكذبين. ليكن لك مع كل قصة وقفة تدبر، واسأل نفسك: "ماذا يمكن أن أتعلم من هذه القصة؟".

الخطوة الثانية: حاسب نفسك... هل أنت من المترفين؟

اسأل نفسك بصدق: "هل أفسدتني الترف؟ هل أبعدتني النعم عن الله؟". إن كنت كذلك، فتب إلى الله، وعد إلى رشدك، واجعل النعم وسيلة لشكر الله لا لمعصيته.

الخطوة الثالثة: تحرر من التقليد الأعمى

راجع معتقداتك وأفعالك: "هل أفعل هذا لأنني مقتنع به، أم لأنني وجدت أبائي عليه؟". إذا كان الجواب هو التقليد، فابحث عن الحق، واطلب الدليل، وكن ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه. الخاتمة: سنة الله الماضية... وعاقبة المكذبين المحتومة

أيها القارئ الكريم...

لقد انتهت رحلتنا مع هذه الآيات الثلاث، ولكن رسالتها ينبغي ألا تنتهي في قلبك. لقد رأينا فيها سنة الله الماضية: المترفون في مواجهة الحق، والمقلدون في مواجهة الدليل، والمكذبون في مواجهة العاقبة. ورأينا كيف أن الله يمهل ولا يهمل، وكيف أن الانتقام قادم لا محالة.

والسؤال الآن: أين موقعك أنت من هذه الآيات؟

هل أنت من الدعاة الذين يثبتون على الحق رغم عناد المترفين؟
هل أنت من المترفين الذين يمنعهم ترفهم من قبول الحق؟
هل أنت من المقلدين الذين يسرون وراء آبائهم دون تفكير؟

أجب عن هذا السؤال بصدق... وابدأ من الآن رحلة التغيير.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقطع الثاني

القسم الاول

المبحث الأول

تفسير الآيات (26-28) من سورة الزخرف

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِين . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

حين ينهض أبو الأنبياء لتحطيم الأصنام والأوهام

وحين تتكشف أعظم خديعة في التاريخ: زعم الانتساب لإبراهيم مع مخالفته

رحلة في أعماق البراءة والتوحيد والكلمة الباقية

تقدمة لا بد منها: لماذا إبراهيم هنا؟ ولماذا الآن؟

قف معي - يا رعاك الله - وقفة متأمل قبل أن تخطو إلى رحاب هذه الآيات الثلاث الكريمة. إنك الآن أمام واحد من أعظم المشاهد القرآنية وأكثرها دقة في كشف الزيف وتعرية التناقض. إنه المشهد الذي ينتقل بك نقلة استراتيجية عجيبة: من الحديث عن مشركي قريش وتقليدهم الأعمى لأبائهم... إلى الحديث عن أبيهم الذي يفخرون به! إنها نقلة من الأبناء الضالين إلى الأب المهتدي، لتكون الفضيحة مضاعفة، والحجة مدوية.

لنتذكر معا - قبل أن ندخل في تفاصيل الآيات - ماذا كان يقول مشركو قريش؟ لقد كانوا يقولون - كما حكى القرآن عنهم في الآيات السابقة -: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ} [الزخرف: 22]. وكانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم، وأنهم ورثوا دينه، وأن ما هم عليه من عبادة الأصنام هو امتداد لطريقه! وكانوا يفتخرون بإبراهيم، ويقولون: "نحن أبناء إبراهيم، وأهل حرمة، وسدنة بيته".

والآن يأتي القرآن ليفضح هذه الدعوى العريضة من جذورها. يأتي ليسألهم: "أحقاً تقولون إنكم على ملة إبراهيم؟! تعالوا إذن لنستمع إلى إبراهيم نفسه! تعالوا لنرى ماذا كان يقول لأبيه وقومه! تعالوا لنرى موقفه من عبادة الأصنام!". وهنا تنفجر المفاجأة المدوية: إن إبراهيم - الذي تزعمون الانتساب إليه - كان أول من تبرأ من آبائه وقومه! كان أول من أعلن الحرب على الأصنام! كان أول من قال: {إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ}!. فكيف تكونون على ملته وأنتم تقلدون آباءكم، وهو تبرأ من آبائه؟! كيف تزعمون اتباعه وأنتم تعبدون الأصنام، وهو حطم الأصنام؟!

إنها صدمة قرآنية عنيفة، تستهدف تحطيم أوثق عرى الباطل: عرى الانتساب الزائف إلى الأنبياء. إنها تقول لهم بكل وضوح: "إن إبراهيم ليس منكم في شيء، وإن دعواكم الانتساب إليه كاذبة، وإن حقيقتكم أنكم أعداء له ولطريقه، مادمتم على هذا الشرك وهذا التقليد الأعمى".

ثم لا تكتفي الآيات بهذا، بل تمضي إلى أبعد من ذلك: إلى بيان ثمرة هذا التوحيد الخالص الذي أعلنه إبراهيم. إنها تخبرنا أن الله {جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ}. كلمة التوحيد، كلمة البراءة من الشرك، كلمة "لا إله إلا الله"... بقيت في ذرية إبراهيم عبر العصور، لعلهم يرجعون إليها كلما ضلوا، ويهتدون بها كلما تاهوا.

وهكذا تكتمل دائرة الحجة: إبراهيم تبرأ من الشرك، وأعلن التوحيد الخالص، وجعل الله هذه الكلمة باقية في عقبه... فكيف ضللتكم أنتم الطريق؟! وكيف تمسكنم بالشرك وتركتم التوحيد، وأنتم تزعمون أنكم من عقب إبراهيم؟! إنها حجة دامغة، تزلزل القلوب، وتوقظ العقول، وتهدم كل أساس يقوم عليه الباطل.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها

اسمح لي الآن - أيها القارئ الكريم - أن أضع أمام ناظريك الأفكار المركزية التي تنبض بها هذه الآيات الكريمة. لا تقرأها كما تقرأ أي قائمة، بل اجعل كل فكرة تخترق قلبك، وكل مقصد يهز وجدانك، وكل هدف يوقظ في نفسك أسئلة المصير.

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيات الكريمة:

1. نموذج إبراهيم عليه السلام في التوحيد والبراءة من الشرك:
{إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ} هو إعلان مدو للبراءة من كل ما يعبد من دون الله، وهو أساس التوحيد الذي قامت عليه دعوة إبراهيم.
 2. أفراد الله وحده بالعبادة والتعبد:
{إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي} هو استثناء منقطع يفيد أفراد الله بالعبادة، مقروناً بوصف "الذي فطرني" الدال على أن الخالق وحده هو المستحق للعبادة.
 3. اليقين بالهداية الإلهية:
{فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ} هو إعلان ثقة مطلقة من إبراهيم بربه، بأنه سيهديه إلى الحق ويثبتته عليه. إنها ليست هداية عامة، بل هداية خاصة مستمرة.
 4. بقاء كلمة التوحيد في ذرية إبراهيم:
{وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ} هو بشارة بأن الله حفظ كلمة التوحيد في نسل إبراهيم، تتناقلها الأجيال، لتبقى حية نابضة أبداً.
 5. الرجوع إلى الله هو الغاية من بقاء الكلمة:
{لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} هو تعليل لجعل الكلمة باقية: لعل الضالين من ذريته يرجعون إلى هذه الكلمة، ويعودون إلى التوحيد إذا انحرفوا عنه.
- مقاصد الآيات وأهدافها:
1. نسف دعوى مشركي قريش أنهم على ملة إبراهيم:
 2. تقديم إبراهيم نموذجاً للمؤمن الصادق الذي لا تأخذه في الله لومة لائم:
 3. إثبات أن دين الأنبياء واحد: التوحيد والبراءة من الشرك:
 4. وأن إبراهيم - الذي ينتسب إليه العرب - كان على هذا الدين، لا على الشرك وعبادة الأصنام.
 4. بث الأمل في أن كلمة التوحيد باقية لا تموت:
- مهما طغى الباطل، ومهما كثر المشركون، فإن كلمة التوحيد باقية في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وفي ذرية إبراهيم جميعاً.

المحور الأول

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ}

لحظة المواجهة الكبرى... حين يعلن الابن الوحيد البراءة من الأب والقوم

في سبيل التوحيد... غوص في أعماق الكلمة التي زلزلت عرش الوثنية

وقفة مع الأسلوب: {وإذ}... اذكر ذلك الزمن يا محمد

دعني أقف بك عند هذه الكلمة الافتتاحية الصغيرة: {وإذ}. "إذ" ظرف للماضي من الزمان. والمعنى: "واذكر يا محمد إذ قال إبراهيم...". إنه أمر ضمني للنبي صلى الله عليه وسلم – ولنا تبعاً له – أن نذكر هذا الموقف، وأن نستحضره في أذهاننا وقلوبنا.

لماذا "اذكر"؟

لأن الذكر هنا ليس مجرد سرد تاريخي، بل هو استحضار للعبرة، واستدعاء للقدوة، واستنهاض للهمم. إنه يقول للنبي والمؤمنين: "تذكروا هذا الموقف، وتعلموا منه، واجعلوه نبزاً لكم في مواجهة الباطل".

ثم تأمل كيف أن الآية لم تقل: "وقال إبراهيم" فحسب، بل وضعت القول في إطار زمني محدد {وإذ قال}، لتجعل منه حدثاً تاريخياً ثابتاً، لا أسطورة ولا خرافة. إنه حدث وقع في زمن محدد، في مكان محدد، وله أبطال معروفون: إبراهيم، وأبوه (آزر)، وقومه.

إبراهيم... لماذا هو بالذات؟ السر الاستراتيجي

الآن دعنا نسأل السؤال المهم: لماذا اختار الله إبراهيم بالذات ليذكر قصته هنا، في هذا الموضع من سورة الزخرف؟

أولاً: لأن المشركين كانوا يزعمون أنهم على ملته.

إنهم يقولون: "نحن على دين إبراهيم". فيأتي القرآن بالحجة القاطعة: "إن كنتم صادقين، فاستمعوا إلى إبراهيم نفسه! اسمعوا ماذا كان يقول لأبيه وقومه! هل كان يقرهم على عبادة الأصنام؟ هل كان يقلد آباءه؟ هل كان يقول: {إنا وجدنا آباءنا على أمة}؟! كلا! بل كان يقول: {إني براء مما تعبّدون}".

ثانياً: لأن إبراهيم هو "أبو الأنبياء" و"أبو الملة".

فموقفه من الشرك هو الموقف المعياري الذي ينبغي أن يحتذى. فإذا كان إبراهيم – وهو الأب الأكبر – قد تبرأ من أبيه وقومه في سبيل التوحيد، فكيف يزعم هؤلاء أنهم على ملته وهم يقلدون آباءهم في الشرك؟!

ثالثاً: لأن إبراهيم يمثل نموذج "الثائر على التقاليد".

لقد كان قومه متشبعين بتقليد الآباء، وكان هو الوحيد الذي تجرأ على مخالفتهم. وهكذا أصبح نموذجاً لكل من يريد أن يكسر قيود التقليد الأعمى، وينطلق في رحاب التوحيد الخالص.

{لأبيه وقومه}: مواجهة السلطة الأبوية والسلطة الاجتماعية معاً

الآن تأمل فيمن وجه إليهم إبراهيم خطابه: {لأبيه وقومه}. إنه لم يوجه كلامه إلى قومه فحسب، بل بدأ بأبيه! إنه يواجه أقوى سلطتين في حياة الإنسان: سلطة الأب (الأسرة)، وسلطة القوم (المجتمع).

مواجهة الأب أصعب بكثير من مواجهة القوم. الأب هو المصدر الأول للحب والحنان والانتماء. الأب هو الذي رباه ونشأه. ومع ذلك، لما رأى إبراهيم أن أباه على ضلال، لم يسكت، ولم يجامل، بل واجهه بكلمة الحق! إنها شجاعة لا توصف، وصدق مع الله لا يضاهى.

ثم هو واجه القوم جميعاً، أي المجتمع بأسره، بعاداته وتقاليده وتراثه. إنه لم يخف من كثرتهم، ولم يهن أمام ضغطهم. {إني براء}... قالها للجميع: للأب والقوم، للقريب والبعيد.

وهكذا يتعلم كل مؤمن: أن الحق لا تجامله قرابة، ولا يمنعه ضغط اجتماعي. الحق يقال، ولو كان المستمع أباك، ولو كان المخاطب قومك أجمعين.

{إني براء}: وزن الكلمة... قوة الإعلان... شدة البراءة

والآن نصل إلى جوهر الآية: {إني براء مما تعبّدون}. تأمل معي هذه الجملة القصيرة، التي تحمل في طياتها زلزالا.

{إني}... تأكيد وتوكيد.

إنها "إن" المشددة، و"النون" للوقاية، و"الياء" ضمير المتكلم. ثلاث مؤكدات متتالية، تفيد أن إبراهيم لا يتكلم بكلام عابر، بل يعلن موقفاً راسخاً، مدعماً بالأدلة، مؤكداً باليقين.

{براء}... مصدر يستوي فيه الواحد والجمع.

والبراء هو التخلي والتبرؤ والتنصل. وإبراهيم لم يقل: "إني تارك" أو "إني مفارق"، بل قال: "إني براء"، أي إني متبرئ منكم ومن آلهتكم براءة تامة، لا رجعة فيها، ولا مواربة.

وكون الكلمة مصدراً (براء) لا صفة (بريء) يفيد المبالغة والثبات. فـ "براء" أبلغ من "بريء"، كما أن "عدل" أبلغ من "عادل". إنه يعلن أنه صار البراءة مجسدة، والتنصل متجسداً، فلا يبقى بينه وبين آلهتهم أي رابط.

{مما تعبّدون}: البراءة من المعبودات كلها

ثم تأمل قوله: {مما تعبّدون}. "ما" هنا موصولة بمعنى "الذي"، وهي عامة تشمل كل ما يعبد من دون الله: الأصنام، والملائكة، والجن، والكواكب، والبشر... كل ما عبد من دون الله يشمل هذا العموم.

إن إبراهيم لم يقل: "إني براء من آلهتكم" فحسب، بل قال: {مما تعبّدون}. فجاء بـ {ما} التي تعم كل معبود، وجاء بالفعل المضارع {تعبّدون} الذي يدل على الاستمرار والتجدد. فهو يتبرأ من كل معبود يعبدونه، في الماضي والحاضر والمستقبل.

ألا تشعر – يا صاحبي – وأنت تقرأ هذه الآية أن الشرك كله ينخلع من قلبك؟ ألا تشعر بشيء من روح إبراهيم تنتقل إليك، فتجعل منك موحداً خالصاً، لا يخاف في الله لومة لائم؟!

رسائل ودروس وتوجيهات من الآية

الرسالة الفكرية: التوحيد يبدأ بالبراءة من الشرك

الآية تعلمنا مبدأً فكرياً محورياً: أن التوحيد لا يكتمل إلا بالبراءة من الشرك. فلا يكفي أن تقول: "أمنت بالله"، بل لا بد أن تتبرأ من كل ما يعبد من دونه. وهذا هو معنى "لا إله إلا الله". نفي (لا إله) وإثبات (إلا الله). فكما أن إبراهيم بدأ بالبراءة: {إني براء مما تعبّدون}، ثم أتبعها بالإثبات: {إلا الذي فطرني}، فكذا ينبغي أن يكون إيماننا: براءة من كل باطل، وإثبات للحق وحده.

الرسالة النفسية: الشجاعة في إعلان الحق

هل تشعر – وأنت تقرأ قول إبراهيم – بشيء من الشجاعة يتسرب إلى قلبك؟ إن إبراهيم كان فرداً واحداً، في مواجهة أبيه وقومه. لو أنك كنت مكانه... هل كنت ستجرؤ على قول هذه الكلمة؟ هذه الآية تريد أن تزرع في قلبك الشجاعة الأدبية: أن تقول الحق ولو كان مرأى، ولو غضب منه القريب والبعيد.

الرسالة التربوية: بناء شخصية مستقلة غير تابعة

أيها المربي... من أعظم ما تعلمه لمن تربيهم أن يكونوا مستقلين في تفكيرهم، شجعاناً في إعلان الحق، كما

كان إبراهيم. لا تربهم على الخوف من الناس، ولا على المجاملة في الدين. ربهم على أن الحق أحب إليهم من الآباء والأمهات، إن دعوهم إلى غير التوحيد. هذا هو درس إبراهيم الأكبر.

المحور الثاني

{إِلا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ}

من البراءة إلى الإثبات... ومن نفي الباطل إلى إثبات الحق

حين ينتقل إبراهيم بالعقول من الأصنام إلى الخالق

{إِلا}: الاستثناء المنقطع... الانقطاع التام عن الشرك

الآن ننتقل إلى الشق الثاني من كلمة التوحيد: {إِلا الَّذِي فَطَرَنِي}. هذه {إِلا} هي أداة الاستثناء. ولكن الاستثناء هنا "منقطع"، أي أن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه. فـ "الذي فطرني" (الله) ليس من جنس "ما تعبدون" (الأصنام). وهذا الاستثناء المنقطع يفيد الانقطاع التام عن الشرك، وعدم وجود أي صلة بين الله والأصنام.

وتأمل كيف أنه بعد أن نفى وهدم (بـ {بَرَاءة})، بدأ في البناء والإثبات (بـ {إِلا الَّذِي فَطَرَنِي}). هذا هو المنهج السليم: هدم الباطل أولاً، ثم بناء الحق. تفرغ القلب من الشرك، ثم ملؤه بالتوحيد. {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى}.

{الَّذِي فَطَرَنِي}: لماذا اختار إبراهيم وصف "الذي فطرني"؟

لو قال إبراهيم: "إلا الله"، لكان هذا كافياً في الدلالة. ولكنه قال: {الَّذِي فَطَرَنِي}. لماذا اختار هذا الوصف بالذات ؟

"فطرني" أي خلقتني وأنشأني وأوجدني من العدم. والفطرة هي الخلق الأول. واختيار صفة "الذي فطرني" يحمل عدة رسائل:

الأولى: إقامة الحجة على المشركين.

إن الذي يستحق العبادة هو الذي خلقك. والأصنام لم تخلقكم، بل أنتم تنحتونها بأيديكم. {قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ}. واللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ. فكيف تعبدون ما صنعتوه، وتتركون الذي خلقكم؟!

الثانية: الإشارة إلى أن التوحيد فطرة.

إن الله فطرني، أي جبلني على التوحيد منذ الخلق الأول. {فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}. فعبادة الله وحده هي الأصل في الإنسان، والشرك طارئ منحرف. وهكذا يقول إبراهيم لقومه: "عودوا إلى فطرتكم!".

الثالثة: إثبات المحبة والارتباط الشخصي.

إن قول "الذي فطرني" يشعر بعلاقة شخصية حميمة بين إبراهيم وربّه. إنه ليس "خالق الناس" فحسب، بل هو "فاطرني" أنا بالذات، يعينني شخصياً، خلقتني فرداً، رعاني ورباني. وهذا يعمق الشعور بالعبودية والحب لله.

{فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ}: الثقة المطلقة بالله وحده

ثم يختم إبراهيم كلمته بهذا الإعلان: {فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ}. إنها جملة في غاية القوة والثقة واليقين. "فإنه" أي فإن الذي فطرني. "سيهديني" أي سيهديني في المستقبل، وسيثبتني على الهداية، وسيوفقني للحق ويرشدني إليه.

تأمل معي هذه الثقة المطلقة. إن سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يقل: "أرجو أن يهديني"، أو "لعله يهديني". بل

قال: {سَيَهْدِين} بتأكيد قاطع، وبقين جازم. إنه يعلم أن الله لن يتركه، ولن يضيعه، وسيهديه إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ما دام قد تبرأ من الشرك وأخلص له العبادة.

وثمة ملاحظة بلاغية عجيبة هنا: إنه قال: {سَيَهْدِين} بالمستقبل، مع أنه كان بالفعل على هدى (فهو نبي مرسل). وهذا يدل على أن الهداية ليست موقفاً واحداً تنالها ثم تنقطع، بل هي عملية مستمرة متجددة. إن العبد يطلب الهداية من ربه في كل لحظة: {اهدنا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}. فالنبي نفسه يحتاج إلى هداية ربه في كل آن، ويثق بأن الله سيهديه.

رسائل ودروس وتوجيهات من الآية

الرسالة الفكرية: التوحيد ليس مجرد كلمة، بل هو منظومة متكاملة

هذه الآية تكمل الصورة التي بدأتها الآية السابقة. هناك براءة من الشرك (سلب)، وهنا إثبات للتوحيد (إيجاب). وهناك استدلال بالخلق (الفطرة) على العبادة. وهناك إعلان ثقة مطلقة بالله. هذا هو التوحيد المتكامل، ليس مجرد لقلقة لسان بـ "لا إله إلا الله"، بل عقيدة راسخة، وبراءة من الشرك، وثقة بالله، واستسلام تام له.

الرسالة النفسية: الراحة في الاعتماد على الله وحده

حين تعلن - يا أخي - أنك تعتمد على الله وحده، وأنت واثق في هدايته، فإن قلبك يستريح من عناء الاعتماد على البشر. إن {فإنه سَيَهْدِين} تمنحك سكينه عجيبة: أن الله معك، يهديك، يسد خطاك، يحميك من الضلال. فلا تخف من ضلالهم، ولا ترهب ضغطهم، ولا تشك في طريقك. الله معك.

الرسالة التربوية: تربية النشء على الفطرة السليمة

أيها المربي... إن قول إبراهيم: {إنا الذي فطرني} يعلمك أن تغرس في أبنائك أن الله هو الذي خلقهم، وأن هذه الخلقة تستوجب العبادة. علمهم أن ينظروا في أنفسهم، فيرون قدرة الله، فيعبده. {وفي أنفسكم أفلا تبصرون}.

المحور الثالث

{وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}

البشارة الكبرى... كلمة التوحيد لن تموت

الذرية المباركة والكلمة الباقية... رحلة في أعماق الوعد الإلهي

{وَجَعَلَهَا}: فعل الجعل الإلهي... الصنع المتقن والتدبير المحكم

تأمل معي هذه الكلمة: {وَجَعَلَهَا}. من الفاعل؟ "جعل" عائد على الله سبحانه وتعالى. والفاعل هنا ضمير مستتر يعود على {الذي فطرني}. والمعنى: الله - الذي فطرني - جعل هذه الكلمة باقية.

وهذه الكلمة - {جَعَلَهَا} - تفيد القصد والتدبير والإحكام. إن الله لم يترك الكلمة لتضيع، بل "جعلها" أي صيرها وأوجدها وهبها بتدبير منه سبحانه، لتكون باقية. إنها عناية إلهية متعمدة، وتدبير رباني محكم، لحفظ التوحيد في الأرض.

{كَلِمَةً}: ما هي "الكلمة" هنا؟

ما هذه "الكلمة" التي جعلها الله باقية؟ الضمير {ها} في {جَعَلَهَا} يعود إلى ماذا؟ المفسرون على أقوال:

الأول: هي كلمة التوحيد: "لا إله إلا الله".

وهذا هو المشهور. إبراهيم قال: {إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِنَّا الَّذِي فُطِرْنَا}. وهذا هو معنى "لا إله إلا الله" بـ

الضبط: نفي (لا إله) وإثبات (إلا الله). فجعل الله هذه الكلمة باقية في ذرية إبراهيم، لا تنقطع أبداً. ففي كل زمان نبي أو رسول أو داعية أو مصلح من ذريته يدعو إلى "لا إله إلا الله".

الثاني: هي كلمة البراءة من الشرك.

أي أن إبراهيم قال: {إني براءٌ}، فجعل الله هذا الموقف - موقف البراءة من الباطل - باقية في عقبه، يتوارثونه خلفاً عن سلف.

الثالث: كلمة التوحيد الشاملة التي تتمثل في الإسلام.

فكل الأنبياء من ذرية إبراهيم جاؤوا بالتوحيد: إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، موسى، هارون، داود، سليمان، عيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام. كلهم دعوا إلى كلمة واحدة: "اعبدوا الله وحده". وهذه هي الكلمة الباقية.

{باقية}: التأييد الإلهي للتوحيد

والكلمة ليست باقية بفعل البشر، بل بفعل الله. {باقية} أي دائمة مستمرة، لا تنقطع ولا تزول. مهما طغى الشرك، ومهما كثر الكافرون، ومهما حارب الموحدون... تبقى كلمة التوحيد حية، يرفعها داعية، وينطق بها مؤمن، وتظل منارة للبشرية.

وكم في هذا من بشارة للمؤمنين! إن الباطل يبهرج ويزخرف، ولكنه إلى زوال. أما كلمة التوحيد فباقية ما بقي الدهر. {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُثَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ}.

{في عقبه}: الذرية الممتدة عبر العصور

"العقب" هو الولد وولد الولد، أي الذرية والنسل. {في عقبه} أي في ذريته من بعده. والمراد هنا ذرية إبراهيم من إسماعيل وإسحاق.

تأمل كيف أن الله استجاب دعاء إبراهيم: {وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ}. لقد جعل له لسان صدق، وجعل كلمة التوحيد باقية في عقبه إلى يوم القيامة. فلا يزال الموحدون في الأرض يلهجون بـ "لا إله إلا الله"، ويعلنون البراءة من الشرك، اقتداء بأبيهم إبراهيم.

وهذه الآية تحمل معنى ضمناً بالغ الأهمية: إن ذرية إبراهيم - ومنهم العرب - قد ورثوا التوحيد، ولكن بعضهم ضلوا عنه. فمشركو قريش من عقب إبراهيم، ولكنهم تركوا كلمة التوحيد واتبعوا الأصنام. ومع ذلك، فإن هذه الكلمة باقية في عقبه، وهناك دائماً من يرجع إليها ويدعو إليها. وفي النهاية، بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ليعيد الناس إلى كلمة إبراهيم.

{لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}: التعليل بالرجاء والأمل

أخيراً: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}. "لعل" للترجي، والترجي في كلام الله واجب الوقوع. فالمعنى: جعل الله هذه الكلمة باقية في عقب إبراهيم ليرجعوا إليها إذا ضلوا. ليعودوا إلى التوحيد إذا انحرفوا عنه. ليتوبوا من الشرك إذا تورطوا فيه.

وهذا هو الرجاء الذي أراده الله: أن تكون كلمة التوحيد حاضرة أبداً، كمنارة في ظلمات الشرك، وكعودة للنفس الضالة، وكملأ للتائهين. فإذا ضل أحد من ذرية إبراهيم، وجد الكلمة أمامه، يسمعه من داعية، أو يجدها في كتاب، فيرجع إلى رشده، ويعود إلى فطرته.

وفي هذا تعريض بمشركي قريش: أنتم من عقب إبراهيم، والكلمة باقية فيكم، وقد سمعتموها من محمد صلى الله عليه وسلم... فهل ترجعون؟! {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}... لعلهم يعودون إلى التوحيد بعد أن ضلوا في متاهات الشرك.

رسائل ودروس وتوجيهات من الآية

الرسالة الفكرية: بقاء الحق وفناء الباطل

الآية تقرر مبدأ فكرياً عظيماً: أن الحق باق، والباطل فان. إن كلمة التوحيد - التي هي أصل الحق - جعلها الله باقية، بينما الشرك والكفر إلى زوال. وهذا يعطي المؤمن ثقة مطلقة بأن المستقبل لهذا الدين، مهما طغى الباطل في بعض العصور.

الرسالة النفسية: الأمل في عودة الضالين

كم مؤمن يتمزق قلبه ألماً على من ضلوا من أهله وقومه! هذه الآية تمنحك أملاً: إن كلمة التوحيد باقية، وإن في ذرية إبراهيم خيراً إلى يوم القيامة. فلا تيأس من هداية أحد، وادعُ إلى الله وأنت موقن أنه سيستجيب، وأن {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} ليست مجرد أمنية، بل هي وعد إلهي.

الرسالة التربوية: الاستمرارية في الدعوة جيلاً بعد جيل

الآية تعلمنا أن الدعوة إلى الله ليست مهمة جيل واحد، بل هي مهمة متوارثة، تتناقلها الأجيال. "الكلمة الباقية في العقب" تعني أن كل جيل عليه أن يحمل هذه الكلمة ويسلمها للجيل الذي بعده. فكن أنت - أيها الداعية - حلقة في هذه السلسلة المباركة، تحمل الكلمة عن قبلك، وتسلمها لمن بعدك

المحور الرابع

كشف زيف دعوى المشركين أنهم على ملة إبراهيم

المواجهة القرآنية الكبرى بين الدعوى والحقيقة

الآن - وقد فهمنا الآيات - دعنا نقف وقفة تحليلية لنرى كيف تفضح هذه الآيات دعوى المشركين، وكيف تنسفها من جذورها.

الخطوة الأولى: دعوى المشركين.

كان المشركون يقولون: "نحن على ملة إبراهيم". ويزعمون أن عبادتهم للأصنام من دين إبراهيم. وكانوا يفتخرون بذلك، ويحتجون به على النبي صلى الله عليه وسلم.

الخطوة الثانية: تفنيد الدعوى من مصدرها.

بدلاً من أن يناقشهم النبي في دعواهم، يأتي القرآن بما هو أبلغ: "تعالوا نسمع من إبراهيم نفسه!". فيذكر قول إبراهيم: {إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ}. فإذا كان إبراهيم يتبرأ من عبادة الأصنام، فكيف تزعمون أن عبادتكم للأصنام هي من ملته؟! أليس هذا تناقضاً صارخاً؟!

الخطوة الثالثة: كشف حقيقة إبراهيم التوحيدية.

ثم يذكر القرآن توحيد إبراهيم الخالص: {إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي}. إن إبراهيم كان يعبد الله وحده، لا شريك له. فكيف تزعمون أنكم على ملته وأنتم تعبدون الأصنام من دون الله؟! إنكم بمخالفتكم لهذا الأصل، قد خرجتم عن ملته، وصرتم أبعد الناس عنه.

الخطوة الرابعة: تذكيرهم بأن كلمة التوحيد باقية فيهم.

{وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ}. أنتم من عقب إبراهيم، والكلمة باقية فيكم، وقد سمعتموها من محمد صلى الله عليه وسلم. فما عذرکم في عدم الرجوع إليها؟!

النتيجة: دعواهم كاذبة، وحجتهم داحضة.

إن إبراهيم بريء منهم ومن عبادتهم، وهم ليسوا على ملته، بل هم مخالفون له. وكل دعوى بالانتساب إلى إبراهيم مع مخالفة توحيده هي دعوى باطلة.

درس معاصر: الانتساب الزائف إلى الأنبياء

إن هذه الآيات لا تخاطب مشركي قريش فحسب، بل تخاطب كل من ينتسب إلى نبي أو إمام أو مصلح، ثم يخالف طريقه. كم من طائفة اليوم تنتسب إلى الإسلام، وتزعم أنها على طريق النبي، وهي في الحقيقة تخالف أصول الإسلام! وكم من فرد يزعم أنه مسلم، بينما أفعاله تناقض إيمانه!

القرآن يعلمنا ألا نكتفي بالانتساب الشكلي، بل لا بد من الموافقة الفعلية لمنهج أولئك الكرام. {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا}.

المحور الخامس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: ملة إبراهيم هي التوحيد الخالص

الآيات ترسخ مفهوماً فكرياً مركزياً: أن ملة إبراهيم التي ينبغي اتباعها هي التوحيد الخالص والبراءة من الشرك. لا علاقة لها بعبادة الأصنام، ولا بتقليد الآباء، ولا بالموروثات الجاهلية. فمن زعم أنه على ملة إبراهيم، فعليه أن يحقق التوحيد وينبذ الشرك.

المفهوم النفسي: الشجاعة الأدبية والاستقلال الفكري

إبراهيم - عليه السلام - يقدم نموذجاً نفسياً فريداً: الإنسان الذي يستقل بفكره عن مجتمعه، ويواجه أسرته وقومه بكلمة الحق دون خوف. هذا النموذج يحرر المؤمن من ضغط المجتمع، ويمنحه جرأة على إعلان ما يعتقد، ولو كان وحده.

المفهوم التربوي: استمرارية التربية الإيمانية في الأجيال

الآية: {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ} تعطينا مفهوماً تربوياً مهماً: أن التربية الإيمانية لا تقتصر على جيل واحد، بل هي مشروع ممتد عبر الأجيال. فعلياً أن نربي أبناءنا على التوحيد، وهم سيربون أبناءهم، وهكذا تبقى الكلمة باقية.

المحور السادس

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: تحقيق التوحيد الخالص والبراءة من الشرك

الله يريد منا أن نكون على ملة إبراهيم حقاً: أن نوحده الله، ونتبرأ من كل ما يعبد من دونه، في العقيدة، و العباد، والحكم، والتحاكم. لا توحيد جزئياً، بل توحيداً كاملاً.

الإرادة الثانية: الشجاعة في إعلان الحق

الله يريد منا أن نتعلم من إبراهيم الشجاعة في إعلان الحق، وألا نخاف في الله لومة لائم. يريدنا أن نواجه الباطل بالكلمة الصادقة، حتى لو أغضب ذلك الأقربين.

الإرادة الثالثة: حمل مشعل التوحيد وتسليمه للأجيال

الله يريد منا أن نكون من حفظة "الكلمة الباقية"، حملة "لا إله إلا الله"، نربي عليها أبناءنا، وندعو إليها الناس، ونسلمها للأجيال من بعدنا، كما حملها لنا آباؤنا.

المحور السابع

أبعاد الآيات وآفاقها

البعد المعرفي: الكشف عن التاريخ الحقيقي للتوحيد

الآيات تعيد كتابة التاريخ من منظور إيماني: إبراهيم لم يكن وثنيًا، ولم يكن على دين قومه، بل كان موحدًا تائراً. وهكذا تصحح الآيات ما زوره المشركون من تاريخ إبراهيم.

البعد المنهجي: مواجهة الدعاوى بالرجوع إلى الأصول

الآيات تعلمنا منهجاً في مواجهة الدعاوى الباطلة: أن نرجع إلى الأصول. إذا ادعى أحد أنه على ملة إبراهيم، فلنسمع ماذا قال إبراهيم. وإذا ادعى أنه على سنة محمد، فلنقرأ ماذا قال محمد. لا نكتفي بالمظاهر و الشعارات.

البعد الحضاري: بناء حضارة التوحيد المستمرة

الآيات تبشر بأن التوحيد باق، وأن الحضارة الإسلامية ستستمر، لأنها مؤسسة على الكلمة الباقية: "لا إله إلا الله". ما دامت هذه الكلمة ترفرف على الأمة، فستبقى حية، مهما انحرفت بعض أجيالها.

المحور الثامن

تحويل الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

المسار الأول: بناء الإنسان المتبرئ من الشرك

الآيات تبني إنساناً يبدأ حياته الإيمانية بـ "البراءة": يتبرأ من الشرك، ومن الخرافات، ومن التقاليد المخالفة للتوحيد. هذه البراءة هي نقطة الانطلاق نحو حياة إيمانية صحيحة.

التطبيق العملي: راجع عقائدك وعاداتك وتقاليديك. تبرأ من كل ما يخالف التوحيد، ولو كان متوارثاً. قل بلسانك وقلبك: "إني براء مما يعبدون إلا الذي فطرني".

المسار الثاني: بناء المجتمع الذي يربي أجيالاً على الكلمة الباقية

الآيات تبني مجتمعاً يعي أن مسؤوليته ليست فقط في الحاضر، بل هي ممتدة إلى المستقبل. إنه مجتمع يربي أبنائه على "لا إله إلا الله"، ويورثهم إياها نقية صافية.

التطبيق العملي: رب أبنائك على العقيدة الصحيحة. لا تدعهم يتلقونها من الشارع أو الإعلام. علمهم معنى "لا إله إلا الله"، وعلمهم أن يقولوا: "إني براء مما يعبدون".

المسار الثالث: بناء الحضارة الوارثة للتوحيد

الآيات تبني حضارة تشعر بأنها وريثة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ومحمد عليهم السلام. إنها حضارة تحمل راية التوحيد، وتعلم أنها باقية بوعد الله.

التطبيق العملي: افتخر بأنك وريث الأنبياء، حامل مشعل التوحيد. انظر إلى نفسك على أنك جزء من هذه السلسلة المباركة الممتدة عبر التاريخ. واعمل على أن تكون جديراً بهذا الشرف.

المحور التاسع

كيف تحول الآيات إلى واقع معاش؟

الخطوة الأولى: جدد براءتك من الشرك كل يوم

لا تجعل "براءة" لمرة واحدة في حياتك. جدد كل يوم تبرؤك من كل ما يعبد من دون الله. قل في دعائك: "الله م إنني أبرأ إليك من كل معبود سواك، وأسلم وجهي إليك".

الخطوة الثانية: تعلم سيرة إبراهيم وأبنائه

اقرأ في القرآن قصة إبراهيم بتدبر. واستخرج منها دروساً في التوحيد، والشجاعة، والثقة بالله. واجعل إبراهيم قدوتك في مواجهة الباطل.

الخطوة الثالثة: سلم الكلمة لمن بعدك

كلما كبر أبنائك، حدثهم عن "الكلمة الباقية". علمهم أنها أمانة في أعناقهم، وأنهم سيسلمونها بدورهم لمن بعدهم. وبهذا تكون جزءاً من تحقيق قوله: {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ}.

الخاتمة: هل أنت من عقب إبراهيم حقاً؟

أيها القارئ الكريم... لقد انتهت رحلتنا مع هذه الآيات الثلاث الكريمة. بدأنا مع إبراهيم وهو يعلنها صريحة مدوية: {إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ}. وانتقلنا معه إلى الإثبات: {إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي}. وختمنا بالبشارة الكبرى: {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ}.

والسؤال الآن: هل أنت من عقب إبراهيم؟ هل ترث كلمة التوحيد حقاً؟

إن النسب وحده لا يكفي. إبراهيم يتبرأ ممن ينحرف عن التوحيد، ولو كان من صلبه. {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ}. فالانتساب الحقيقي هو انتساب العقيدة والعمل، لا انتساب الدم والنسب.

فانظر إلى نفسك: هل تتبرأ من الشرك كما تبرأ إبراهيم؟ هل تعلن التوحيد كما أعلن إبراهيم؟ هل تحمل الكلمة الباقية وتسلمها للأجيال؟

إن أجبت بنعم... فأبشر فإنك من عقب إبراهيم حقاً، وستكون معه في جنات النعيم. وإن أجبت بغير ذلك... فبادر إلى تصحيح إيمانك، ودد توبتك، وارجع إلى الكلمة الباقية قبل فوات الأوان.

المبحث الثاني

تفسير الآيات (29-31) من سورة الزخرف

(بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ. وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ. وَقَالُوا لَوْ لَّا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِ لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ عَظِيمٌ)

المتاع الزائل في مواجهة الحق الباقي... والاعتراض الأعوج على الحكمة الإلهية

رحلة في أعماق سنة الاستدراج، وصدمة الحق، وعبادة العظمة الزائفة

تقدمة لا بد منها: موقع الآيات من السورة ومن قصة الصراع بين المتاع والرسالة

قف معي - يا رعاك الله - وقفة تأمل مطولة قبل أن تدخل إلى أعماق هذه الآيات الثلاث الكريمة. إنك الآن على أعتاب مشهد جديد بالكلية، مشهد ينتقل بك من قفم التوحيد مع إبراهيم عليه السلام إلى وهاد المتاع الدنيوي مع مشركي قريش. إنها نقلة عنيفة مقصودة، تهدف إلى أن ترى الفرق بين من آثر الله على الدنيا (إبراهيم)، ومن آثر الدنيا على الله (قريش).

لقد كنا في الآيات السابقة في رحاب إبراهيم عليه السلام، ذلك النبي الكريم الذي أعلنها صريحة مدوية: {إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ. إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي}. لقد رأينا يخلع عباءة القومية والعشيرة والأبوة، ويقف وحده في وجه العالم، متمسكاً بكلمة التوحيد. ورأينا كيف جعل الله تلك الكلمة باقية في عقبه، تنوارتها الأجيال، وتبقى منارة

لل بشرية.

والآن، تنزل بنا الآيات من ذلك الأفق العلوي الناصع، إلى الواقع الأرضي الموحد. تنزل بنا من إبراهيم الذي تبرأ من أبيه في سبيل الله، إلى قريش التي اعترضت على اختيار الله لنبيه! تنزل بنا من إبراهيم الذي قال: {إِلاّ الذي فطرنى}، إلى قريش التي قالت: {لوّثا نزلَ هَذَا القرآنُ على رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}

أي سقوط هذا؟! وأي فرق بين من يصعد إلى السماء بالتوحيد، ومن يهبط إلى الأرض بالاعتراض على حكمة الله؟!

ثم تأمل معي هذا التركيب العجيب: {بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَأَبَاءَهُمْ}. هذه {بَلْ} هي حرف الإضراب الذي يضرب عن كل ما سبق صفحا، ليفتح بابا جديدا من الحديث. كأن السياق يقول: "دعوا الحديث عن إبراهيم وكلمته الباقية... ولننظر الآن إلى هؤلاء الذين زعموا أنهم على ملته وهم يكذبون! لقد تمتعتهم وأبأهم بالحياة الدنيا، فآغثروا، وظنوا أن هذا المتاع هو كل شيء، حتى جاءهم الحق... فماذا كان موقفهم؟!"

وهكذا تكشف الآيات عن سنة الاستدراج الإلهي، تلك السنة التي تجعل الكافرين يفترون بطول العمر وطول المتاع، فيظنون أنهم على شيء، بينما هم يستدرجون إلى مهاوي الردى. قال تعالى: {سَتَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}.

ثم تصدمهم الآيات بالوصف الحقيقي للقرآن ولمن جاء به: {حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ}. إنه الحق، ليس شعرا، ليس سحرا، ليس كهانة... إنه الحق الذي لا مزية فيه. ومن جاء به هو {رَسُولٌ مُّبِينٌ}، واضح الرسالة، بين الدعوة، صادق البلاغ. ولكنهم - وقد أعمى أبصارهم المتاع الزائل - قالوا: {هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ}!

ثم ينتقلون من تكذيب الحق إلى الاعتراض على حامل الحق: {وَقَالُوا لَوْثَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}. لماذا محمد؟ لماذا ليس غيره؟ لماذا ليس أحد عظماء مكة أو الطائف؟! إنهم يقيسون بالمقاييس المادية: المال، الجاه، المنصب. أما مقاييس الله فشيء آخر: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}.

وهكذا تفضح هذه الآيات - بما لا يدع مجالا للشك - أنهم لم يكونوا باحثين عن الحق، بل كانوا باحثين عن مصالحهم، وعن شهواتهم، وعن تقاليدهم. وكل اعتراضاتهم لم تكن إلا غطاء لهذه الحقيقة المرة. إنهم يريدون ديناً يصنعونه على مقاساتهم، لا ديناً ينزل من السماء فيسلمون له.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها

اسمح لي الآن - أيها القارئ الكريم - أن أضع بين يديك وقلبك الأفكار المركزية التي تنبض بها هذه الآيات. لا تمر عليها مروراً عابراً، بل تأملها، واجعلها تخترق حجب نفسك، وتصل إلى أعماق كيائك.

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيات الكريمة:

1. بيان حقيقة المتاع الدنيوي الذي غر المشركين:

{بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَأَبَاءَهُمْ} يكشف أن ما هم فيه ليس دليل رضا من الله، بل هو مجرد متاع مؤقت، استدريجهم الله به، وسيقطعه عنهم حين يشاء.

2. إقامة الحجة ببلوغ الحق إليهم:

{حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ} يؤكد أنهم لم يبقوا في جهل، بل جاءهم الحق الكامل، والرسول المبين. فلم يعد لهم أي عذر.

3. وصف القرآن والرسول بأعلى الصفات:

{الْحَقُّ} و{رَسُولٌ مُّبِينٌ} هما وصفان يقطعان كل شك، ويقيمان الحجة على صدق الرسالة.

4. كشف الموقف الحقيقي للمشركين: التكذيب والكفر:

{قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ} هو ردهم على الحق المبين: تكذيب صريح، واتهام باطل، وإعلان كفر.

5. فضح معاييرهم المادية في تقييم الحق:

{وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} يكشف أنهم يقيسون قيمة الحق بقيمة حامله المادية، لا بذات الحق.

مقاصد الآيات وأهدافها:

1. تبكيث المشركين على موقفهم من الحق بعد أن جاءهم:

كيف كذبوا الحق بعد وضوحه، وكيف كفروا به بعد بيانه، وكيف اعترضوا على حامله بعد علمهم بصدقه.

2. كشف الأسباب الحقيقية للكفر: المتاع الدنيوي والاعتیاد عليه:

أن طول المتاع جعلهم يألفون الضلال، ويكرهون الانتقال إلى الحق.

3. تعليم الأمة ألا تقيس الحق بالرجال، بل تقيس الرجال بالحق:

فليس المهم أن يكون حامل الرسالة "عظيماً" في أعين الناس، بل المهم أن تكون الرسالة حقاً.

4. تنبیت النبي صلى الله عليه وسلم على ما يلقاه من استهزاء واعتراض:

أن اعتراضهم ليس لعله في الرسالة، بل لعله في نفوسهم المريضة.

المحور الأول

{بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ}

حين يكون طول العمر وطول النعمة استدراجاً لا إكراماً

غوص في أعماق سنة الإملاء والاستدراج... الفرق بين العطاء والرضا

وقفة مع الأسلوب: {بَلْ}... الإضراب الذي يكشف الحقيقة الأخرى

دعني أقف بك عند أول كلمة في الآية: {بَلْ}. ما هذه {بَلْ}؟

إنها حرف إضراب، والإضراب هو الانتقال من كلام إلى آخر أهم منه، مع إبطال الأول أو تصحيحه. فهي تقول: "دعوا الكلام عن إبراهيم وتوحيده وكلمته الباقية... ولنأت الآن إلى بيت القصيد، إلى هؤلاء المشركين المعاندين، ولنكشف حقيقتهم!".

وهي أيضاً تحمل معنى المضاربة والإبطال لما سبق. فكأنها تقول: "لستم على ملة إبراهيم كما زعمتم... بل أنتم قوم آخرون، قوم متعهم الله بالدنيا فاغثروا".

ولاحظ كيف أن {بَلْ} هنا تأتي بعد الحديث عن إبراهيم وطريقه في التوحيد والتجرد. فإبراهيم تجرد من الدنيا ومتاعها، وتبرأ من أبيه وقومه في سبيل الله. أما هؤلاء فقد غرقوا في متاع الدنيا، ورفضوا الحق حفاظاً على مكانتهم ومصالحهم. ألا ترى الفرق الشاسع بين النموذجين؟!

{مَتَّعْتُ}: الفعل الذي يفضح حقيقة النعمة عند الكافرين

الآن تأمل هذه الكلمة: {مَتَّعْتُ}. لم يقل: "أنعمت" ولا "أكرمت" ولا "وهبت". بل قال: {مَتَّعْتُ}. ما الفرق؟

"متعت" من المتاع، والمتاع هو الشيء الذي يتمتع به الإنسان، ولكنه ليس له أصل ثابت ولا بقاء دائم. إنه مؤقت، محدود، زائل. ومنه سميت أمتعة البيت، لأنها تستعمل وتبلى، ولا تدوم.

فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول: "ما أعطيتهم من مال وبنين وطول عمر وصحة... ليس إكراماً، وليس دليل رضا عنهم، بل هو متاع، يتمتعون به قليلاً"، ثم يزول، ويبقى العذاب!". {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}.

والفعل {مَتَّعْتُ} مسند إلى الله تعالى بصيغة التكلم، وهذا له وقع خاص. إن الله بنفسه يتحدث ويقول: "أنا متعتهم". إنه إعلان مباشر، يحمل في طياته تهديداً مبطناً: "أنا الذي أعطيتهم، وأنا الذي سأسلبهم!".

{هُؤُلَاءِ وَآبَاءُهُمْ}: جيلان غارقان في المتاع

وتأمل قوله: {هُؤُلَاءِ وَآبَاءُهُمْ}. لم يكتف بذكر الجيل الحاضر من المشركين، بل أضاف إليهم آباءهم! لماذا؟

أولاً: ليؤكد أن هذه ليست حالة طارئة، بل هي سلسلة ممتدة من التمتع الديني الذي أوصلهم إلى الاغترار. الآباء عاشوا في متاع، والأبناء عاشوا في متاع، وطال عليهم الأمد، فنسوا الله، وقست قلوبهم.

ثانياً: ليقطع حجتهم في الاحتجاج بالآباء. فقد كانوا يقولون: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ}. فيأتي الرد: "هؤلاء الآباء الذين تحتجون بهم، إنما تمتعتهم بالدنيا، ولم يكونوا على هدى". فليس كل من عاش طويلاً ومتع بالدنيا كان على حق.

ثالثاً: ليشعرهم بأن العذاب قادم عليهم جميعاً، كما عمهم المتاع. فليس الآباء بمنجيين من العذاب، وليس الأبناء بمفلتين من العقاب. {كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ}.

{حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ}: نهاية المهلة وقيام الحجة

{حَتَّىٰ} هنا حرف غاية. أي أن هذا المتاع استمر "حتى" بلوغ هذه الغاية: مجيء الحق والرسول المبين. فلم يبق لهم حجة، ولم يعد لهم عذر.

{الْحَقُّ}: هو القرآن الكريم، وهو الحق المطلق. ليس فيه باطل، ولا ريب، ولا شك، ولا تناقض. وفيه وصف للقرآن بأنه "الحق" ذاته: فهو جوهر الحق، ومنبعه، ومعياره.

{وَرَسُولٌ مُّبِينٌ}: "رسول" هو محمد صلى الله عليه وسلم. و"مبين" أي واضح البيان، بين الرسالة، مظهر للحق، لا يلتبس أمره على أحد. فهو مفعول من "أبان"، أي أوضح وأظهر. فرسالته واضحة، ودعوته بيّنة، وحجته نيرة.

وتأمل الجمع بين {الْحَقُّ} و{وَرَسُولٌ مُّبِينٌ}. الحق (القرآن) هو الرسالة، والرسول المبين هو حامل الرسالة. كلاهما من عند الله، وكلاهما حق مبين. فإذا كان المرسل حقاً، والرسالة حقاً، والرسول مبيناً... فما عذر من يكفر؟

رسائل ودروس وتوجيهات من الآية

الرسالة الفكرية: الفرق بين الاستدراج والإكرام

الآية تقدم مفهوماً فكرياً بالغ الأهمية: أن إمهال الله للكافرين، وإطالة أعمارهم، وإدراج النعم عليهم... ليس دليلاً على رضاه عنهم، بل قد يكون استدراجاً. إن العبرة ليست بكثرة ما عندك، بل برضا الله عنك. فكم من غني ممقوت عند الله، وكم من فقير حبيب إلى الله! لا تنظر إلى المتاع، بل انظر إلى المنعم، وإلى موقفك منه.

الرسالة النفسية: لا تغتر بطول المهلة

قد يعيش الإنسان في معصية، ويرى أن الله قد أمهله، ولم يعاجله بالعقوبة. فيظن أنه على خير، وأن الله راض عنه. هذه مغالطة نفسية خطيرة! تأمل هؤلاء المشركين: تمتعهم الله طويلاً، حتى ظنوا أنهم على حق، وجاءهم الحق فكذبوا به. فاحذر أن تكون منهم. لا تجعل إمهال الله لك سبباً للاغترار، بل اجعله سبباً للتوبة.

الرسالة التربوية: لا تجعل أبنائك يغترون بالمتاع

أيها المربي... لا تمنح أبنائك متاعاً بلا حدود. خفف عنهم من زخرف الدنيا. امنعهم من الترف المفسد. علمهم أن المتاع الحقيقي في الآخرة، وأن ما في الدنيا ظل زائل. لا تجعلهم يتربون على أنهم "أبناء آبائهم"، بل اجعلهم يتربون على أنهم عباد الله

المحور الثاني

{وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ}

الصدمة حين يصطدم المتاع بالحق... والتهمة الجاهزة لكل نبي

تشريح نفسية المشرك وهو يرفض الحق

{وَلَمَّا}: ظرف الزمان الحرج

الآن تأمل هذه الكلمة: {وَلَمَّا}. إنها ظرف زمان بمعنى "حين". ولكن "لَمَّا" تختلف عن "لم" النافية، وعن "لما" الحينية. إنها هنا تفيد التوقيت الدقيق: "وحين جاءهم الحق". إنها تحدد اللحظة الفارقة، اللحظة التي انقسم فيها الناس إلى شقي وسعيد، إلى مؤمن وكافر.

وتأمل كيف أنها معطوفة بالواو على ما قبلها: {بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ... وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ}. إنه تكرار مؤكد لمجيء الحق. مرة بـ "حتى" ومرة بـ "لما". هذا التكرار يريد أن يقرع أسماعهم ويوقظ قلوبهم: "لقد جاءكم الحق! لقد جاءكم الحق! فما أنتم فاعلون؟!".

لماذا قالوا {هَذَا سِحْرٌ}؟

الآن السؤال العميق: لماذا وصفوا القرآن بأنه "سحر"؟ لماذا لم يقولوا: "هذا شعر" (كما قال بعضهم) أو "هذا كهانة" (كما قال آخرون)؟

قولهم {هَذَا سِحْرٌ} هو من أخطر الأوصاف وأشدّها. السحر عندهم هو الشيء الذي:

• يأسر العقول ويسحرها: فالقرآن بهرهم ببلاغته، وأخذ ألبابهم ببيانه، فأحسوا أنهم مسحورون.

• يفرق بين المرء وأبيه وأخيه: فالقرآن فرق بين المؤمن والكافر، وجعل الابن يترك دين أبيه، والزوجة تفارق زوجها في العقيدة.

• لا يمكن مقاومته بالوسائل العادية: فبلاغة القرآن تحدثهم فعجزوا، فلم يجدوا إلا أن يسموه سحراً.

إن اختيارهم لكلمة "سحر" يكشف عن أمرين:

• اعتراف ضمني بعظمة القرآن: فهم لم يقولوا "هذا هذيان" أو "هذا سخافة"، بل قالوا "سحر". والسحر عندهم شيء قوي خارق. فهذا اعتراف منهم بأن القرآن فوق طاقتهم.

• خوفهم من تأثيره على الناس: فالسحر يخاف منه، ويتقى. وهم أرادوا أن يخوفوا الناس من القرآن، ومن تأثيره على قلوبهم، حتى يصدوهم عنه.

{وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ}: الحسم الجمعي بالكفر

ثم يضيفون كلمة أخطر: {وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ}. هذه هي الكلمة التي لا رجعة بعدها. إنهم لا يكتفون باتهامه بالسحر، بل يعلنون – بكل صراحة وقوة – أنهم كفارون به.

تأمل الصياغة: {إِنَّا} تفيد التوكيد والجمعية. إنهم يتحدثون بصوت واحد، وبقرار حاسم، وبإعلان رسمي. ليس

بينهم متردد، ولا متحير. كلهم متفقون على الكفر بهذا القرآن.

ثم تأمل الفعل {كافروُن}. الكفر ليس مجرد التكذيب، بل هو التغطية والستر. إنهم يعلنون أنهم سيغطون هذا الحق، ويخفونه عن الناس، ولن يدعوه ينتشر. إنهم يعرفون أنه حق، ولكنهم - كما قال تعالى عنهم - {جَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}.

وهنا تظهر حقيقة مرة: إن موقفهم هذا لم يصدر عن جهل، بل عن علم وعناد. ولو كانوا جاهلين لسألوا واستفسروا، ولكنهم {كافروُن} أي جاحدون معاندون. وهذا هو الكفر في أسوأ صوره.

رسائل ودروس وتوجيهات من الآية

الرسالة الفكرية: الحق لا يحتاج إلى شهادة الناس له

الآية تعلمنا أن الحق له ذاتيته المستقلة عن شهادة الناس أو تكذيبهم. إن هؤلاء قالوا: {هَذَا سِحْرٌ}... والله يقول: {الْحَقُّ}. فهل اختلف الحق باختلاف كلامهم؟ كلا! إن الحق حق، شهد به الناس أم كذبوه. فلا يهزك تكذيب المكذبين، ولا يضعف من عزيمتهم.

الرسالة النفسية: لا تنهار أمام الاتهامات الباطلة

النبي صلى الله عليه وسلم اتهم بالسحر، واتهم بالجنون، واتهم بالكهانة... ومع ذلك مضى في طريقه. وأنت - أيها الداعية، أيها الملتزم - كم من التهم والشتائم توجه إليك؟ لا تنكسرا! إنها سنة المكذبين عبر العصور. اثبت، وامض، واعلم أن العاقبة للمتقين.

الرسالة التربوية: علم أبناءك الثبات على الحق رغم الاتهامات

رب أبناءك على أن الحق لا يتزعزع أمام الباطل. إذا اتهمهم أحد بأنهم "متطرفون" أو "متشددون" أو "رجعيون"... فلا يهنوا ولا يحزنوا. ذكرهم أن هذا هو طريق الأنبياء من قبلهم.

المحور الثالث

{وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}

اعتراضهم على حكمة الله في اختيار نبيه... مرض القلوب المتكبرة

العظمة الزائفة في أعينهم... والموازن الحقيقية للعظمة عند الله

وقفة مع الأسلوب: {لَوْلَا}... أداة الاعتراض والتحكم

دعني أقف بك عند هذه الكلمة: {لَوْلَا}. إنها حرف تحضيض بمعنى "هلا"، وتفيد الاعتراض والاقتراح. والمعنى: "هلا نزل هذا القرآن على أحد عظماء مكة أو الطائف!". إنها تعبر عن روح ناقمة، متحكمة، تريد أن تفرض شروطها على الله. كأنهم يقولون: "إذا كان الله يريد أن يرسل رسولا، فليختر من نشاء نحن، لا من يشاء هو!". يا للاستكبار! ويا للجهل بحكمة الله!

{رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}: من هم هؤلاء العظماء؟

"القريتان" هما مكة والطائف. وكان العرب يرون أن العظمة في هاتين القريتين محصورة في رجال معينين:

في مكة: الوليد بن المغيرة المخزومي. وكان يُلقب بـ "ريحانة قريش"، وكان غنياً صاحب مال وولد وجاه. ولما سمع القرآن قال كلمته المشهورة عن القرآن: {إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ}.

في الطائف: عروة بن مسعود الثقفي، أو حبيب بن عمرو. وكانوا من سادات ثقيف وعظمائهم.

كان المشركون يرون أن هؤلاء هم "العظماء"، لأنهم يملكون المال والجاه والسلطة والنفوذ. وفي منطقهم المادي ، لا يمكن أن يتنزل الوحي على رجل "فقير" مثل محمد صلى الله عليه وسلم! لا بد أن يتنزل على رجل "عظيم" في الدنيا!

تفنيدهم معاييرهم المادية في العظمة

وهنا يظهر الداء العضال: الموازين المعكوسة. إنهم يقيسون العظمة بالمال والجاه والسلطان. والله يقيس العظمة بالتقوى والعمل الصالح: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}.

إن هذا المعيار المادي هو نفسه الذي يستخدمه الناس اليوم! كم من إنسان يحتقر داعية أو عالماً لأنه ليس غنياً! وكم من إنسان يبجل غنياً فاجراً! لأنه يملك المال! لقد تكرر المشهد: الوحي يخاطب العقول والقلوب، وهم يتطلعون إلى الجيوب والأرصدة!

ولكن ليتأملوا: هل النبوة منصب دنيوي يمنح لذوي الجاه والسلطان؟! إنها تكليف، لا تشريف دنيوي. إنها حمل ثقيل، لا كرسي وثير. ولذلك اختار الله لها أذكى الناس نفساً، لا أكثرهم مالا. اختار لها من عرف بالصادق الأمين، لا من عرف بالغنى والسلطان.

رسائل ودروس وتوجيهات من الآية

الرسالة الفكرية: العظمة الحقيقية عند الله لا عند الناس

الآية تصحح الموازين: لا تنظروا إلى "العظمة" بنظارات الدنيا. العظمة ليست في المال والجاه والسلطان. العظمة في {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}. العظمة في {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ}. لا تخلط بين القيمة المادية والقيمة المعنوية، فكم من غني حقير عند الله، وكم من فقير عظيم عند الله.

الرسالة النفسية: التحرر من ضغط النظرة المادية

حين ترى الناس يبجلون الأغنياء والأقوياء، ويهملون الصالحين والأتقياء... لا تحزن، ولا تشعر بالدونية. إنها سنة الجاهلية، قديماً وحديثاً. تذكر أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن "عظيماً" في أعينهم، فهل نقص ذلك من قدره عند الله؟!

الرسالة التربوية: لا ترب أبنائك على عبادة المال والجاه

أيها المربي... إياك أن تزرع في أبنائك عبادة المال والجاه. لا تقل لهم: "فلان عظيم لأنه غني"، ولا "فلان لا قيمة له لأنه فقير". علمهم أن العظمة بالتقوى، وأن الشرف بالدين. وإلا أخرجت جيلاً مثل جيل المشركين، يقيسون كل شيء بالدرهم والدينار!

المحور الرابع

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً: الانتباه لسنة الاستدراج

إننا نعيش في عصر المتاع الزائل بامتياز: الأموال، القصور، السيارات، التكنولوجيا... كلها متاع. وهي قد تكون استدراجاً لنا إن شغلنا عن الله. أفلا نتعظ بقوله: {بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَأَبَاءَهُمْ} ونحن نرى أنفسنا في متاع متزايد؟

ثانياً: التثبت من معايير التقييم

في زمن يروج فيه "العظماء" بالإعلام والمال والإثارة... علينا أن نراجع معاييرنا. من العظيم حقاً عند الله؟ ومن العظيم في أعين الناس؟ قد يختلف الجوابان كثيراً. فلتكن موازيننا قرآنية، لا مادية.

ثالثاً: الصبر على الاتهامات والسخریات

كل من حمل حقاً، أو دعا إلى فضيلة، أو نادى بإصلاح... سيواجه من يتهمة بالسحر تارة، وبالجنون تارة، وبالتطرف تارة. هذه هي اللعبة القديمة المتجددة. فلا تنهزم، ولا تنكسر.

المحور الخامس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: التفريق بين العطاء والرضا

الآيات ترسخ مفهوماً فكرياً: أن إعطاء الله ليس دليلاً على رضاه. فقد يعطي وهو ساخط، وقد يمنع وهو راضٍ. العبرة ليست بالعطاء، بل بالمنهج الذي تسير عليه. فمن أعطاه الله على معصيته، فذلك استدراج لا إكرام.

المفهوم النفسي: "الكفر" في الآية أعلى من "التكذيب"

استخدام كلمة {كافرون} بدلاً من "مكذبون" يكشف عن حالة نفسية متقدمة من الجحود والعناد. إنهم لا يكذبون عن جهل، بل يكفرون عن علم. هذه الحالة هي أخطر ما يمكن أن يصل إليه الإنسان.

المفهوم التربوي: تنشئة جيل يقيس بالوحي لا بالمادة

الآيات تعلم المري أن يبنى في النشء معايير صحيحة: أن العظمة بالدين والتقوى، لا بالمال والجاه. وأن النبوة تكليف لا تشريف دنيوي. وأن الحق لا يوزن بحامله، بل حامل الحق هو الذي يوزن بالحق.

المحور السادس

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: التنبه لخطر الاغترار بالمتاع

الله يريد منا ألا نغتر بما في أيدينا من متاع الدنيا، وألا نظن أن طول المتاع دليل رضا الله. يريدنا أن نسأل دائماً: "هل أنا أعيش في طاعة أم في معصية؟" لا "كم عندي من المال؟".

الإرادة الثانية: التسليم لحكمة الله في اختياراته

الله يريد منا أن نسلم لحكمته في كل ما يختار: في اختيار الأنبياء، وفي توزيع الأرزاق، وفي تدبير الأمور. وألا نكون مثل المشركين الذين اعترضوا: {لَوْ لَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}.

الإرادة الثالثة: قبول الحق لمجرد أنه حق

الله يريد منا ألا نرفض الحق لأن حامله ليس "عظيماً" في أعين الناس. يريدنا أن ننظر إلى ما يقال، لا إلى من يقوله. فالحق هو الحق، ولو جاء به عبد حبشي.

المحور السابع

أبعاد الآيات وآفاقها

البعد المعرفي: إعادة تعريف العظمة

الآيات تهدم المفهوم المادي للعظمة، وتبني مكانه مفهوماً إيمانياً. العظيم هو من عظم عند الله، لا من عظم عند الناس. وهذا البعد المعرفي يحتاج أن ينتشر في الأمة لتصحيح أوضاعها.

البعد المنهجي: التعامل مع الحق بغض النظر عن حامله

الآيات تقدم منهجاً: لا ترفض الحق لأن صاحبه فقير، ولا تقبل الباطل لأن صاحبه غني. {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}. الحق هو ميزان نفسه.

البعد الحضاري: حضارة لا تقدس المال ولا الجاه

الحضارة التي تبنيها هذه الآيات هي حضارة لا تقدس الأغنياء لمجرد غناهم، ولا تحتقر الفقراء لمجرد فقرهم. إنها حضارة التقوى والعمل الصالح، حيث القيمة للإنسان بعمله لا بماله.

المحور الثامن

تحويل الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

المسار الأول: بناء الإنسان الذي لا يغتر بالمتاع

الآيات تبني إنساناً واعياً، يعرف أن المتاع الدنيوي زائل، وأن العبرة بالآخرة. هذا الإنسان لا يغتر بما في يده، و لا يحزن على ما فاتته، بل يسعى للباقيات الصالحات.

المسار الثاني: بناء المجتمع العادل في تقييمه للناس

الآيات تبني مجتمعاً يقيم الناس بإيمانهم وأعمالهم، لا بأموالهم وأنسابهم. لا يقدم الغني على الفقير في المجالس، ولا يجعل المال معياراً للزواج والصدقة والقيادة.

المسار الثالث: بناء الحضارة التي تزن بالقسطاس المستقيم

الآيات تبني حضارة لا تحكمها الأهواء والمصالح، بل تحكمها مبادئ الحق والعدل. {وَتَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ}. فالموازين قائمة في الدنيا كما في الآخرة.

الخاتمة: الحق باق... والمتاع زائل

أيها القارئ الكريم...

لقد وصلنا إلى نهاية الرحلة مع هذه الآيات الثلاث الكريمة. رأينا فيها كيف أن الله يمتع الكافرين بالدنيا، ثم يبعث إليهم الحق، فيكفرون به ويعترضون على حامله. رأينا كيف أنهم يقيسون العظمة بالمال والجاه، فيعمون عن عظمة الحق وعظمة من حمله.

والآن أسألك: أين أنت من هذه الصور؟

هل أنت ممن يمتنعهم الله فيغترون ويطفون، أم ممن يمتنعهم الله فيشكرون ويتواضعون؟

هل أنت ممن يقبل الحق لذاته، أم ممن يرفضه لأنه لم يأت على هواه؟

هل أنت ممن يقيس العظمة بالتقوى، أم ممن يقيسها بالمال والجاه؟

أجب عن هذه الأسئلة بصدق... وابدأ من الآن في تصحيح موازينك، وتجديد علاقتك بالحق، وطرح الدنيا من قلبك، واستقبال الحق أيّاً كان حامله.

المبحث الثالث

تفسير الآية (32) من سورة الزخرف

{أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ؕ تَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ؕ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ

دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحِمْتُ رِبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ

حين يقف الإنسان بين يدي قسمة الله... وحين تنهار كل الاعتراضات البشرية
معركة العقل مع الحكمة الإلهية... ورحلة من التكبر إلى التسليم

تقدمة لا بد منها: موقع الآية من السياق ومن عمارة السورة

قف معي - يا رعاك الله - وقفة التأمل المتبصر قبل أن تخطو إلى رحاب هذه الآية العظيمة. إنك تقف الآن أمام واحدة من أعمق الآيات القرآنية في تصحيح علاقة الإنسان بربه، وفي إعادة ترتيب موازين التفكير، وفي كسر كبرياء العقل البشري الذي يتناول على حكمة الله.

لقد كنا قبل هذه الآية في مواجهة حامية مع مشركي قريش. لقد سمعناهم وهم يعترضون على اختيار الله لنبيه: {وَقَالُوا لَوْلَا هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِ عَظِيمٍ}. لقد طالبوا - بكل صلف واستكبار - بأن تكون النبوة في واحد من عظمائهم، في واحد من أثريائهم، في واحد من أصحاب الجاه والسلطان. لقد أرادوا أن يفرضوا شروطهم على الله، وأن يختاروا هم - لا الله - من يكون نبيا!

وهنا... تنزل هذه الآية كالصاعقة على رؤوسهم. تنزل لتعيد الأمور إلى نصابها، ولتضع النقاط على الحروف، ولتسألهم سؤالاً ١ لا يملكون معه إلا الصمت: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحِمْتَ رَبِّكَ؟}

تأمل هذا السؤال! إنه لا يسألهم عن اعتراضهم فقط، بل يقرعهم على أصل المشكلة: "هل أنتم - أيها البشر الضعفاء المحدودون - تملكون توزيع رحمة الله؟! هل أصبحتم شركاء لله في تدبيره؟! هل فوضكم الله في توزيع النبوة والرسالة؟".

ثم لا تكتفي الآية بهذا السؤال المفحم، بل تأخذهم إلى ميدان آخر، ميدان لا يستطيعون إنكاره، لتردهم إلى رشدهم: "انظروا إلى أرزاقكم! انظروا إلى معايشتكم! من قسمها بينكم؟ من جعلكم متفاوتين في الغنى والفقير، في القوة والضعف، في العلم والجهل؟ أليس هو الله؟! {تَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}. فإذا كنتم لا تملكون قسمة أرزاقكم، ولا تستطيعون تغيير ما قسمه الله لكم من معيشة... فكيف تتناولون إلى قسمة رحمته الكبرى (النبوة والوحي)؟!"

ثم تأخذهم الآية إلى حكمة أعمق: "ألا تدرون لماذا فاوتنا بينكم في الأرزاق؟ لماذا جعلنا بعضكم غنياً وبعضكم فقيراً، بعضكم قوياً وبعضكم ضعيفاً؟" وتجييبهم: {لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا}. إنه قانون التسخير الاجتماعي: ليعخدم بعضكم بعضاً، وليحتج بعضكم إلى بعض، ولتتنظم الحياة بالتعاون والتكامل، لا بالتنافس والتقاتل.

ثم تختتم الآية بضربة الحق الموجهة لكل من تعلق قلبه بزخرف الدنيا: {وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}. رحمة الله - وفي مقدمتها النبوة والوحي والقرآن - خير من كل ما تجمعون من أموال وقصور وذهب وفضة. إنها خير في ذاتها، وخير في عاقبتها، وخير في أثرها. وما تجمعونه أنتم من حطام الدنيا... إلى زوال، وإلى هلاك، وإلى عذاب إن كان سبباً في كفركم وطغيانكم.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآية ومقاصدها وأهدافها

اسمح لي الآن - أيها القارئ المتفاعل - أن أضع أمام عينيك وقلبك الأفكار المركزية التي تنبض بها هذه الآية العظيمة. لا تقرأ هذه الأفكار كما تقرأ أي سطور، بل اجعلها تنقش في ذاكرتك، وتستقر في وجدانك.

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآية الكريمة:

1. توبيخ المشركين على تناولهم على مقام الربوبية:

{أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحِمْتَ رَبِّكَ} هو استفهام إنكاري توبيخي، يقرعهم على اعتراضهم على اختيار الله لنبيه. إنه

يذكرهم بأنهم بشر محدودون، لا يملكون حق توزيع فضل الله.

2. إقامة الدليل من واقع حياتهم على عجزهم:

{تَحْنُ قَسْمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ} يلفت أنظارهم إلى أنهم حتى في أرزاقهم المادية لا يملكون القسمة، فكيف يتناولون إلى ما هو أعظم؟

3. بيان حكمة التفاوت بين الناس في الأرزاق:

{وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ} يقرر حقيقة التفاوت البشري، و{لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا} يكشف عن الحكمة الإلهية فيه: قيام الحياة بالتعاون والتكامل.

4. بيان أن رحمة الله (النبوة والوحي) خير من كل متاع الدنيا:

{وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} هو المقياس الحقيقي للقيمة: رحمة الله أعلى من كل ما في الدنيا. فمن حصل على هذه الرحمة فهو الغني حقاً، ولو كان فقيراً في أعين الناس.

مقاصد الآية وأهدافها:

1. تحطيم كبرياء المشركين وردهم إلى حجمهم الطبيعي:

أن يشعروا بضآلتهم، وأن يدركوا أنهم ليسوا شركاء لله في تدبيره.

2. تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم على ما يلقاه من اعتراضات:

بأن يعلم أن المعارضين لا يملكون شيئاً، وأن الذي اختاره هو الله، وهو حسبه وكافيه.

3. ترسيخ الإيمان بالحكمة الإلهية في التوزيع والتفاوت:

أن يرضى المؤمن بما قسمه الله له، وألا ينظر إلى غيره بعين الحسد، بل بعين التكامل والتسخير.

4. توجيه الأنظار إلى القيمة الحقيقية: رحمة الله لا متاع الدنيا:

أن يدرك الناس أن ما عند الله خير وأبقى، فلا يبيعوا دينهم بعرض من الدنيا.

المحور الأول

النداء الافتتاحي: من سورة الشورى إلى سورة الزخرف... من نور الوحي إلى ظلمات الاعتراض

{أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ}... السؤال الذي يسقط كل الأقنعة

وقفة مع الأسلوب: همزة الاستفهام وضمير "هم"

دعني أقف بك - يا صاحبي - عند فاتحة هذه الآية الكريمة: {أَهُمْ}. الهمزة هنا هي همزة الاستفهام الإنكاري التوبيخي. إنها ليست استفهاماً حقيقياً يطلب الجواب، بل هي استفهام يراد به التوبيخ والتقريع والإنكار. فكأن الآية تقول: "أحقاً هؤلاء هم الذين يقسمون رحمة ربك؟! أبلغ بهم الجهل أن يظنوا أنهم شركاء في تدبير شؤون الوحي والرسالة؟!".

ثم تأمل ضمير {هُم}. لماذا الضمير هنا؟ لماذا لم يقل: "أيقسمون رحمة ربك"؟ إن إبراز الضمير {هُم} يفيد التخصيص، وفيه معنى التعجب والإنكار: "أهم - هؤلاء الحقيرون المحدودون - يملكون قسمة رحمتي؟!". إن فيه تحقيراً لشأنهم، وتصغيراً لقدرهم، وتسفيهاً لعقولهم. إنهم ليسوا أهلاً لهذه المهمة العظيمة.

{يَقْسِمُونَ}: فعل القسمة... ومحاولة مصادرة الحق الإلهي

الآن تأمل معي الفعل {يَقْسِمُونَ}. القسمة هي التوزيع والتخصيص. والمشركون - باعتراضهم هذا - قد نصبوا أنفسهم مقسمين لرحمة الله، وموزعين لفضله، وكأن الأمر مفوض إليهم! إنهم لم يقولوا: "نقترح" أو "نرى من المناسب"، بل أرادوا أن يفرضوا شروطهم، وأن يختاروا هم من يكون نبيا.

وهذا هو عين الطغيان: أن يتجاوز الإنسان حده، وأن يتطاول إلى مقام الربوبية. فالله وحده هو الذي يقسم، وهو الذي يعطي ويمنع، ويرفع ويخفض. {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدَأُ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. فكيف لهؤلاء البشر الضعاف أن ينصبوا أنفسهم مقامين مقام الله؟!

{رَحِمْتَ رَبِّكَ}: ما هي هذه الرحمة هنا؟

والآن... ما هي {رَحِمْتَ رَبِّكَ} التي يريد المشركون أن يقسموها؟ وما المراد بها هنا؟

الرحمة في الأصل صفة من صفات الله، وهي تشمل كل خير وكل فضل وكل نعمة. ولكن المراد بها هنا - وفي هذا السياق - هو أعظم رحمة: النبوة والرسالة والوحي. إنها الرحمة التي تميز بها نبي عن غيره، والتي يختص بها الله من يشاء من عباده.

والدليل على أن المراد بها النبوة هو السياق: فالمشركون اعترضوا على نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم، وطالبوا بنزوله على رجل عظيم من القريتين. فالاعتراض كان على {رَحِمْتَ رَبِّكَ} التي هي النبوة.

وتأمل إضافة {رَحِمْتَ} إلى {رَبِّكَ}. لم يقل: "رحمة الله"، بل قال: {رَحِمْتَ رَبِّكَ}. وفي هذا الإضافة إلى "ربك" (يا محمد) تطيب ل خاطر النبي صلى الله عليه وسلم، وتشريف له. فكأنه يقول: "هم يعترضون على رحمتي بك. ولكنها رحمتي بك، وهي لك، ولك وحدك. فلا تحزن لاعتراضهم".

رسائل ودروس وتوجيهات من النداء الافتتاحي

الرسالة الفكرية: ملكية التدبير لله وحده

الآية تقرر مفهوماً فكرياً أساسياً: أن الله وحده هو مالك التدبير، وهو الذي يقسم الأرزاق والفضائل والمهام. لا يحق لأحد أن يتسخط على قسمة الله، ولا أن يتطاول فيقترح على الله ما يريد. هذه عقيدة المسلم: {وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ}.

الرسالة النفسية: لا تحزن على اعتراض الناس على فضل الله فيك

كم من إنسان أنعم الله عليه بنعمة - علماً أو جاهاً أو موهبة أو مالا - فاعترض الناس، وقالوا: "لماذا هو؟ لماذا ليس فلان؟". هذه الآية تقول لك: لا تحزن. إنها قسمة الله، وهو أعلم حيث يجعل فضله. وكما أن المشركين اعترضوا على النبي صلى الله عليه وسلم، فسينكر الحاسدون فضل الله عليك أبداً. فامض في طريقك، ولا تلتفت إلى اعتراضهم.

الرسالة التربوية: علم أبنائك ألا يعترضوا على قسمة الله

أيها المربي... درب من ترعاهم على الرضا بقسمة الله. إذا رأى أحدهم متفوقاً عليه، فلا يقل: "لماذا هو وليس أنا؟". بل يعلم أن هذه قسمة الله، وأن عليه أن يسعى ويجتهد دون أن يعترض على ما وهبه الله لغيره. دربهم على قول: "الحمد لله على ما أعطى، وله الحمد على ما منع".

المحور الثاني

{تَحْنُ قَسْمَنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}

من قسمة الرزق إلى قسمة الرحمة... الدليل من واقع الحياة

إفحامهم بما لا يقدرّون على إنكاره

{تَحْنُ}: ضمير الجلالة والتعظيم... من المتكلم؟

تأمل معي هذه الكلمة الجليّة: {تَحْنُ}. إنه ضمير الجمع الذي تستخدمه العرب للتعظيم. ولكن من المتكلم هنا؟ إنه الله سبحانه وتعالى. {تَحْنُ} بصيغة العظمة، تليق بجلاله وكبريائه. إنه يعلن بذاته العلية أنه هو - لا غيره - الذي قسم المعاييش بين البشر.

وهذا الإعلان المباشر من الله، بضمير {تَحْنُ}، له وقع خاص في النفوس. إنه لا يوكل الإعلان إلى ملك، ولا إلى رسول، بل يتولاه بنفسه، ليكون أبلغ في التذكير، وأوقع في النفوس. "نحن" الذي لا يعجزنا شيء، "نحن" الذي بيدنا ملكوت كل شيء، "نحن" قسمنا بينكم معاشكم.

{قَسْمَنَا}: إعلان ملكية التوزيع لله

{قَسْمَنَا} هو الفعل الماضي الذي يفيد التحقق والثبات. "قسمنا" أي نحن الذين وزعنا وخصصنا وقدرنا. إنها ليست قسمة عشوائية، بل قسمة عن علم وحكمة وتدبير. {وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ}.

والقسمة الإلهية تختلف عن قسمة البشر:

• قسمة البشر تقوم على المحاباة أو الجهل أو الظلم.

• قسمة الله تقوم على العلم والحكمة والمصلحة.

فالغني ليس غنياً لأن الله يحاييه، والفقير ليس فقيراً لأن الله يظلمه. بل هي حكمة بالغة، قد ندرك بعضها، وقد يغيب عنا كثيرها.

{يَبْنِيهِمْ}: شمول القسمة للجميع

{يَبْنِيهِمْ} أي بين جميع الناس. لم يهمل الله أحداً، ولم ينس أحداً. كل إنسان له نصيبه الذي قسمه الله له: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا}. فالمعيشة موزعة بين الجميع بقدر معلوم.

وهذا يرد على المشركين الذين اعترضوا على اختيار الله لنبيه. فكأن الآية تقول لهم: "إذا كان الله هو الذي قسم بينكم أرزاقكم، وجعل بعضكم غنياً وبعضكم فقيراً، بعضكم قوياً وبعضكم ضعيفاً... ألا يحق له وحده أن يقسم رحمته أيضاً؟ ألا يحق له أن يختار من يشاء للرسالة؟".

{مَعِيشَتَهُمْ}: كل ما يعاش به

{مَعِيشَتَهُمْ} هي كل ما يعيش به الإنسان ويحيا: الطعام، الشراب، المسكن، الملبس، المال، الأولاد، الصحة... كل ما تقوم به الحياة. هذه المعيشة بقسمة من الله، لا يملك أحد تغييرها. {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}.

فإذا كانوا لا يملكون تغيير أرزاقهم، ولا يستطيعون أن يصيروا أغنياء بقوتهم الذاتية... فكيف يريدون أن يتحكموا في أمر النبوة والرسالة؟! إن الذي يملك القسمة في الأدنى (المعيشة) هو الذي يملك القسمة في الأعلى (النبوة). وهذا قياس أولى: {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى}.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع

الرسالة الفكرية: الرزق بيد الله لا بيد البشر

الآية تقرر حقيقة غائبة عن أذهان كثير من الناس: أن الأرزاق بيد الله وحده. فلا تذلل نفسك لأحد لتطلب الرزق ، ولا تخف من أحد على رزقك. {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}. إنها عقيدة كفيفة بتحرير الإنسان من الخوف والذل والقلق.

الرسالة النفسية: الرضا بقسمة الله

كم من إنسان ينظر إلى غيره ويقول: "لماذا فلان يملك وأنا لا أملك؟ لماذا هو ناجح وأنا فاشل؟". هذه الآية تقدم العلاج: {تَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ}. القسمة من الله، وأنت لا تدري أين الخير. كم من غني ماله سبب شقائه! وكم من فقير فقره سبب نجاته! فارض بما قسمه الله لك، واجتهد في سعيك، واترك النتائج لله.

الرسالة التربوية: علم أبناءك أن يسعوا ولا يحزنوا

درب أبناءك على السعي والاجتهاد، وعلى الرضا مع ذلك بما قسمه الله. لا تجعلهم ينشؤون على الحسد والا عراض والجزع مما في أيدي الآخرين. قل لهم: "اسعوا، واجتهدوا، واطلبوا من الله، وارضوا بما يأتي".

المحور الثالث

{وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا}

حكمة التفاوت الخفية... قانون التسخير الإلهي

لماذا لم يجعلنا الله سواءً في الأرزاق والقدرات؟

{رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ}: تقرير التفاوت

الآن تنتقل الآية إلى بيان جانب من جوانب حكمة الله في هذا التفاوت: {وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ}. لقد خلق الله الناس متفاوتين: في العلم، في المال، في القوة، في الذكاء، في الجمال، في المكانة الاجتماعية... كل هذه درجات رفع الله فيها بعض الناس فوق بعض.

لماذا؟ هل هو تحكم؟ هل هو ظلم؟ كلا! إنها حكمة بالغة قد لا تدركها العقول القاصرة بادئ ذي بدء. ولكن الآية تفتح لنا نافذة صغيرة على هذه الحكمة، فتقول: {لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا}.

وهنا تظهر عبقرية النظام الاجتماعي الذي أراده الله. التفاوت بين الناس ليس للتنافس والحسد والصراع، بل للتسخير والتكامل والتعاون. ليستخدم بعضكم بعضاً، وليخدم بعضكم بعضاً، وليحتج بعضكم إلى بعض.

{لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا}: سر التسخير الإلهي

ما معنى {سُخْرِيًّا}؟

"سُخْرِيًّا" من التسخير، وهو التذليل والتسخير للخدمة. والمعنى: ليجعل بعضكم بعضاً مسخراً له، فيستخدمه في حاجاته، ويقدم له خدماته.

تأمل معي كيف تنتظم الحياة بهذا التسخير:

• الغني يحتاج إلى الفقير، فيوظفه في أعماله، ويستأجره في خدماته.

• الفقير يحتاج إلى الغني، فيكسب منه رزقه، ويحصل على ما يحتاجه من مال.

• القوي يحتاج إلى الضعيف، فيستخدمه في أعماله.

• العالم يحتاج إلى الجاهل، فيعلمه ويأخذ الأجر.

• الحاكم يحتاج إلى المحكوم، فيدير شؤونه.

• الطبيب يحتاج إلى المريض... والمهندس إلى المستفيد... والتاجر إلى المشتري... وهكذا في كل مناحي الحياة.

ولو كان الناس كلهم سواسية في كل شيء، لما قامت للحياة قائمة. لو كان الجميع أغنياء، فمن يؤدي الأعمال و الخدمات؟! ولو كان الجميع علماء، فمن يحمل الحطب ويحرق الأرض؟! ولو كان الجميع حكاما، فمن يحكمون؟! إن التفاوت هو الذي يجعل الحياة ممكنة، وهو الذي يخلق التكامل والتعاون بين البشر.

رد على فلسفة المساواة المطلقة

وهذا فيه رد على الفلسفات التي تنادي بالمساواة المطلقة بين الناس، وتريد أن تجعل الجميع سواسية في المال والجاه وكل شيء. هذه الفلسفات لا تدرك حكمة الله في خلقه، وفطرته التي فطر الناس عليها. إن المساواة المطلقة مستحيلة، وهي مخالفة للفطرة.

إن الإسلام لا يدعو إلى إلغاء الفوارق، بل يدعو إلى:

• توجيه الفوارق نحو الخير لا نحو الشر.

• سد أبواب الظلم التي قد تنشأ من سوء استخدام هذه الفوارق.

• جعل التكامل هو الهدف، لا الصراع.

فالغني مطالب بالزكاة والإحسان، والفقير مطالب بالصبر والعفة والعمل. والقوي مطالب بعدم الظلم، والضعيف مطالب بعدم الذل. وهكذا تنتظم الحياة.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع

الرسالة الفكرية: نظام التكامل هو نظام الفطرة

الآية ترسخ مفهوماً فكرياً عظيماً: أن المجتمع الإنساني مبني على التكامل، لا على التطابق. فكما أن الجسد الواحد فيه أعضاء مختلفة الوظائف، كذلك المجتمع فيه أفراد مختلفون. هذا الاختلاف ليس عيباً، بل هو قوام الحياة. {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ}.

الرسالة النفسية: السلام الداخلي من الحسد والغيرة

حين تفهم – يا صاحبي – أن هذا التفاوت من الله، وأنه لحكمة بالغة، فإنك ستسلم من شر الحسد والغيرة. لن تنظر إلى من فوقك بعين الحقد، بل ستنظر إليه بعين التكامل: "هو غني، وسأعمل عنده فأكسب رزقي. هو عالم، وسأتعلم منه فأرتقي". الحسد ينشأ من سوء فهم الحكمة الإلهية، وفهمها يورث السلام الداخلي.

الرسالة التربوية: علم أبنائك فن التكامل لا فن التنافس

درب أبنائك على أن يروا الحياة من منظور "التسخير" و"التكامل"، لا من منظور "التنافس" و"الصراع". إذا رأى أحدهم طفلاً "متفوقاً" في المدرسة، فلا يغار منه، بل يسأله ويتعلم منه. إذا رأى غنياً، فلا يحسده، بل يفكر: "كيف أستفيد من خبرته؟". هذا هو المنهج الرباني.

المحور الرابع

{وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}

ختام الموازين... حين توضع رحمة الله في كفة... ومتاع الدنيا في كفة

لمن العلو؟ لمن البقاء؟ لمن الغلبة؟!

{وَرَحْمَتُ رَبِّكَ}: العودة إلى رحمة النبوة والقرآن

بعد أن بينت الآية حكمة التفاوت في الأرزاق المادية، تعود الآن إلى الموضوع الأصلي: رحمة الله. {وَرَحْمَتُ رَبِّكَ} هي التي بدأت بها الآية: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ}. وهنا تختتم الآية بتقييم هذه الرحمة: {خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}.

والمراد بـ {وَرَحْمَتُ رَبِّكَ} هنا - كما في بداية الآية - هو الوحي والنبوة والقرآن والإسلام. هذه الرحمة هي أعظم نعمة أنعم الله بها على البشرية. إنها رحمة للعالمين: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}.

{خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}: الموازين الحقة

{خَيْرٌ} هنا اسم تفضيل. أي أن رحمة الله (النبوة والقرآن) هي أفضل وأعظم وأنفع وأبقى من كل ما يجمعه المشركون من أموال وذهب وفضة ومتاع الدنيا.

لماذا هي خير؟

أولا : لأنها أصل الخير ومصدره.

فرحمة الوحي هي التي تهدي الإنسان إلى كل خير في الدنيا والآخرة. بينما الأموال التي يجمعها المشركون قد تكون سبباً لهلاكهم: {فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}.

ثانياً: لأنها باقية وهم إلى زوال.

رحمة الله (القرآن والإيمان) باقية في قلب المؤمن، تصحبه إلى قبره، وتشفع له عند ربه، وتدخله الجنة. أما أموال المشركين فإنها تذهب وتنفى، وتصير هباءً: {مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ}.

ثالثاً: لأنها زكاة وطمهور وبركة.

رحمة الله (الوحي) تحمل في طياتها البركة والتزكية: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}. أما أموال المشركين فتحمل في طياتها الشقاء والعذاب.

رسائل ودروس وتوجيهات من ختام الآية

الرسالة الفكرية: لا تقارن متاع الدنيا برحمة الله

الآية تصحح المفهوم المقلوب عند أكثر الناس. الناس يقارنون بين متاع الدنيا ومتاع الدنيا: "هذا أغنى من هذا"، "هذا أفقر من هذا". أما القرآن فيرفع الأنظار إلى المقارنة الحقيقية: رحمة الله (الوحي والإيمان) في كفة، ومتاع الدنيا كله في كفة... ورحمة الله خير وأبقى.

الرسالة النفسية: السعادة ليست في المال

أنت - أيها الإنسان - تبحث عن السعادة في المال، في الجاه، في الشهرة. كل هذه زائلة. لكن السعادة الحقيقية في {وَرَحْمَتُ رَبِّكَ}... في إيمانك، في صلتك بالله، في الطمأنينة التي يمنحك إياها القرآن. {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}.

الرسالة التربوية: علم أبنائك ألا ينبهروا بزخرف الدنيا

انظر حولك: كم من الأبناء ينبهرون بأغنياء وقادة الكفر والإلحاد، ويحسبون أنهم "ناجحون" و"عظماء"! علمهم أن النجاح الحقيقي هو {رَحِمْتُ رَّبَّكَ}... هو الإيمان والعمل الصالح. وأن ما يجمعه الكافرون من مال وذهب وجاه... إلى هلاك، إن لم يهتدوا.

المحور الخامس

ما تدعونا إليه الآية في الواقع المعاصر

أولا : تصحيح نظرة الناس للغنى والفقر

في عصر المادية، يظن كثير من الناس أن الغنى دليل محبة الله، والفقر دليل بغضه. الآية تصحح هذا المفهوم: الغنى والفقر قسمة من الله، لحكمة يعلمها. ورحمة الله الحقيقية ليست في المال، بل في الإيمان والقرآن.

ثانياً: مواجهة ثقافة "العظمة" الزائفة

إن وسائل الإعلام تصنع "عظماء" من الممثلين والمغنيين والرياضيين وأصحاب المليارات... وتجعلهم قدوة للشباب. الآية تقول: {وَرَحِمْتُ رَّبَّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}. العظمة الحقيقية في الإيمان والعمل الصالح، لا في المال والشهرة.

ثالثاً: إعادة بناء العلاقات الاجتماعية على التكامل لا الصراع

النظام الرأسمالي يبني العلاقات على التنافس والصراع. والنظام الاشتراكي يبنيها على الصراع الطبقي. أما الإسلام فيبنيها على التكامل والتسخير: {لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سُخْرِيًا}. الغنى يحتاج إلى الفقير، والفقير يحتاج إلى الغنى، وكلاهما متكاملان.

المحور السادس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

المفهوم الفكري: ملكية التدبير لله وحده

الآية ترسخ مفهوماً مركزياً: أن الله هو المالك المدبر، وهو الذي يقسم الأرزاق والنعم والفضائل. وهذا المفهوم يحرر الإنسان من التعلق بالأسباب، ويجعله يتعلق بالمسبب.

المفهوم النفسي: التسليم والرضا

الآية تبني في النفس مفهوماً نفسياً عميقاً: الرضا بقسمة الله. فالرضا يورث الطمأنينة والسكينة، بينما الاعتراض يورث القلق والاضطراب.

المفهوم التربوي: تعليم التكامل وقبول التفاوت

الآية تعطي المربي مفتاحاً لتربية النشء على قبول التفاوت، وفهم حكمته، والعمل في إطار التكامل، لا في إطار الحسد والصراع.

المحور السابع

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآية؟

الإرادة الأولى: التسليم بقسمة الله

اللَّهُ يريد منا أن نسلم له في كل ما قسم: في أرزاقنا، في قدراتنا، في شكلنا، في أهلنا، في كل شيء. وألا نعترض عليه، بل نرضى ونحمد.

الإرادة الثانية: معرفة قيمة رحمة الله

اللَّهُ يريد منا أن ندرك أن رحمة الله (الإسلام، القرآن، الإيمان) هي أغلى ما نملك، وألا نستبدل بها شيئاً من متاع الدنيا.

الإرادة الثالثة: تجسيد قانون التسخير في حياتنا

اللَّهُ يريد منا أن نعيش متكاملين، لا متصارعين. أن يخدم بعضنا بعضاً، وأن يحتاج بعضنا إلى بعض، وأن نشكل جسداً واحداً.

الخاتمة: قسمة ضيزى أم حكمة بالغة؟

أيها القارئ الكريم...

لقد بدأت الآية بسؤال زلزل المشركين: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ}. وانتهت بتقرير الحقيقة الأبدية: {وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}. وبين هذين القطبين، رسمت الآية خريطة الحياة: الله هو الموزع، والتفاوت لحكمة التكامل، والرحمة الحققة في الدين لا في الدنيا.

فأين أنت من هذه الحقائق؟

هل ما زلت تعترض على قسمة الله لك في رزقك أو قدراتك أو مكانتك؟

هل ما زلت تظن أن "العظمة" في المال والجاه، وتغفل عن رحمة الله التي هي خير؟

هل ما زلت تنظر إلى الناس بعين التنافس والحسد، أم بعين التكامل والتسخير؟

أسئلة أتركك معها، لتراجع نفسك، وتصحح علاقتك بربك، وترضى بقسمته، وتعلم أن رحمته خير من كل شيء.

المبحث الرابع .

تفسير الآيات (33-35) من سورة الزخرف

(وَلَوْ أَنَّهُ يَكُونُ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ . وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ . وَزَخْرَفًا ۚ وَإِنَّ كُلَّ لَمَّا مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ)

حين يكون الحرمان نعمة والعطاء نقمة

كشف القيمة الحقيقية للدنيا في الميزان الإلهي

رحلة من زخرف الفضة إلى ذهب التقوى

تقدمة لا بد منها: موقع الآيات من السياق ومن جدلية الغنى والاختيار

قف معي - يا رعاك الله - وقفة المتأمل الواعي قبل أن تخطو إلى رحاب هذه الآيات الثلاث الكريمة. إنك تقف الآن على أعقاب واحدة من أعمق الآيات القرآنية في كشف حقيقة الدنيا، وفي تصحيح النظرة إلى النعم والمحن، وفي الإجابة عن سؤال ظل يتردد في الأذهان: لماذا يرى المؤمن الكافر في سعة من العيش، بينما قد يضيق عليه هو رزقه؟

لقد انتهت الآية السابقة (32) بهذا التقرير الإلهي العظيم: {وَرَحِمْتُ رَّبَّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}. لقد أثبتت الآية أن رحمة الله (النبوة والقرآن والإيمان) هي الخير الأعظم، وأن كل ما يجمعه الكافرون من أموال ومتاع فهو أقل وأدنى. إنها معادلة قلبت الموازين: لا تنظروا إلى ما في أيدي الكافرين من متاع، بل انظروا إلى ما في أيديكم من رحمة.

ولكن الشيطان لا يهدأ، والنفس البشرية قلقة، والعين تنظر إلى زخرف الدنيا فتنبهر. قد يقول قائل – أو تهمس به نفسه –: "ولكننا نرى الكافرين في سعة من العيش، في قصور شاهقة، ومراكب فارهة، وزينة مبهرة... أليس هذا دليل محبة الله لهم؟ أليس هذا إكراماً؟".

وهنا يأتي الجواب القرآني المدوي في هذه الآيات الثلاث. إنها تأتي لتقول بكل وضوح وصراحة: "إن ما يراه الناس من سعة الكافرين ليس إكراماً، بل هو أحقر من أن يكون إكراماً. إنه أمر تافه إلى حد أننا لو لم نخش فتنة الناس وافتتانهم بالدنيا، لجعلنا بيوت الكافرين كلها من فضة وذهب وزخرف. إن الله قادر على أن يغدق على الكافرين كل هذه المتع، ولكنه لم يفعل رحمة بالمؤمنين!".

نعم... رحمة بالمؤمنين! لأن الدنيا حقيرة. لأن زخرفها غثاء. لأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة. فهي أهون من أن تكون جزاء مؤمن، وأحقر من أن تكون دليل رضا. إنما تعطى للكافر استدراجاً، أو تمنع عن المؤمن صيانة له.

وهكذا تهدم هذه الآيات المنطق المادي الذي يقيس قيمة الإنسان بما يملك. وتؤسس منطقاً إيمانياً جديداً: {وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}. هناك... في الآخرة... هناك الغنى الحقيقي، والنعيم المقيم، والفوز العظيم. أما الدنيا فـ {مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}... لا تستحق أن توزن بها الناس، ولا أن تبذل لأجلها الأديان.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها

دعني الآن – أيها القارئ الكريم – أضع أمام عينيك وقلبك الأفكار المركزية النابضة في هذه الآيات. لا تمر عليها مروراً عابراً، بل تأملها طويلاً.

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيات الكريمة:

1. كشف حقيقة الدنيا وهوانها على الله:

الدنيا أحقر من أن تكون جزاء مؤمن أو عقاب كافر. إنها {مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، متعة زائلة مؤقتة.

2. بيان أن سعة الرزق على الكافر ليست إكراماً:

{لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ} يشير إلى أن إعطاء الدنيا يكون للكافر أحياناً، لا لكرامته، بل لخستها.

3. رحمة الله بالمؤمنين حين يمنعهم زخرف الدنيا:

{وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ} لولا خوف الفتنة وافتتان الناس بالدنيا لأعطينا الكافرين كل هذا، ولكن رحمة بالمؤمنين لم نفعل.

4. رسم لوحة مبهرة لزخرف الدنيا:

سقف من فضة، معارج يظهرون عليها، أبواب من فضة، سرر متكئة، وزخرف... إنها لوحة فنية بديعة، تمثل القمة المادية التي يحلم بها أي إنسان.

5. ختام اللوحة بالحقيقة المرة: {وَأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}:

كل هذا الذي تروونه عظيماً... هو مجرد متاع. يزول ويفنى. لا يغني عن الله شيئاً.

6. إعلان الحقيقة الكبرى: {وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}:

القيمة الحقيقية في الآخرة، وهي للمتقين، لا للكافرين. هذا هو الموعد، وهذا هو الميعاد، وهذه هي المواساة.
مقاصد الآيات وأهدافها:

1. تثبيت قلوب المؤمنين الفقراء، ومواساتهم على ما يرونه من سعة الكفار.
2. تحقيق شأن الدنيا في أعين المؤمنين، وتصغير كل ما يملكه الكافرون.
3. كشف فلسفة التوزيع الإلهي: ليس كل غني محبوب، ولا كل فقير ممقوت.
4. ربط القلوب بالآخرة، وجعلها محط الأنظار، لا الدنيا الفانية.
5. الرد على شبهة "لماذا يعطي الله الكافر ويحرم المؤمن".

المحور الأول

{وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً}

لولا خوف الفتنة... رحمة الله الخفية في منع زخرف الدنيا

غوص في معنى الشرط الامتناعي ودلالته النفسية

وقفة مع الأسلوب: {وَلَوْ لَا}... الأداة الشرطية العجيبة

دعني أقف بك عند هذه الأداة اللغوية العظيمة: {وَلَوْ لَا}. إنها حرف امتناع لوجود. أي أن الجواب (وهو ما بعد الـ لام) ممتنع لوجود الشرط (وهو ما بعد لولا). والمعنى: لولا أن يكون الناس أمة واحدة، لجعلنا للكافرين من زخرف الدنيا كذا وكذا. ولكننا لم نفعل، لوجود هذا المانع.

فهذه الآية تكشف عن مانع إلهي منع وقوع الشيء. والمانع هنا ليس عجزاً (تعالى الله)، بل رحمة وحكمة. فأصل العطاء ممكن ويسير على الله، ولكن الحكمة اقتضت المنع.

وهذا الأسلوب – أسلوب {وَلَوْ لَا} – يحمل في طياته رسالة تربوية عميقة: أن ما تراه من متاع الكافرين لا يكاد يذكر، وأن الذي منعه الله عنهم من الدنيا أكثر بكثير مما أعطاهم. فلو أراد الله أن يغرقهم في الدنيا لفعل، ولكنه أمسك. فلماذا يغترون بما أوتوا وهم محرومون من الأكثر؟!

{أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً}: المانع الإلهي من الإغراق الدنيوي

الآن... ما هو هذا المانع؟ ما معنى {أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً}؟

"أمة واحدة" أي جماعة متحدة. والمعنى: لولا أن الناس سيجتمعون على الكفر إذا رأوا الكافرين في هذا النعيم، وسيفتنون بالدنيا فيرتدون عن دينهم، لأعطينا الكافرين من زخرف الدنيا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت. ولكن رحمة بالمؤمنين – ولئلا تضعف قلوبهم ويفتنوا – جعلنا الدنيا حقيرة، وجعلنا الكافرين فيها على قدر محدود.

تأمل هذه الرحمة الخفية! إن كثيراً من المؤمنين يتمنون سعة الرزق التي يراها الكافرون، وهم لا يعلمون أن الله بحكمته قد أمسك عنهم هذا حماية لهم من الفتنة. {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}. إن الله يعلم أنك لو أوتيت مثل ما أوتي الكافر، لربما ضعفت نفسك، وانحرفت عن الحق. فكان منعه عنك رحمة بك.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع

الرسالة الفكرية: حكمة الله في التوزيع فوق إدراكنا

الآية ترسخ مفهوماً فكرياً مهماً: أن توزيع الأرزاق في الدنيا ليس عشوائياً، وليس دائماً على قدر الكرامة. إنه توزيع تقتضيه حكمة بالغة، قد لا يدركها الإنسان لأول وهلة. فلا تغتر بغنى الكافر، ولا تحزن لفقر المؤمن. إن في كل حكمة.

الرسالة النفسية: الرضا بعدم سعة الرزق

كم من مؤمن يتألم حين يرى الكافر يملك الملايين وهو يكدر للقتل! هذه الآية تخاطب قلبه وتقول: "لا تحزن! إن الذي أعطاهم هو أحقر شيء عنده. إنما أعطاهم الحق لخصتهم. ولو كان هذا العطاء كرامة، لصبه الله عليهم صبا. ولكن رحمة بك لم يفعل!". ألا تشعر بالراحة والرضا الآن؟

الرسالة التربوية: علم أبنائك ألا ينبهروا بالغنى

درب أبنائك على أن يروا المال والمتاع بمنظار القرآن، لا بمنظار الدنيا. إذا رأوا قصراً فارهاً لرجل كافر، فلا يبهروا. ذكرهم أن الله قادر على أن يجعل قصور الدنيا كلها من ذهب، ولكنه لم يفعل لحكمة. وذكرهم أن الآخرة خير وأبقى.

المحور الثاني

{لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقْقًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ}

اللوحة الكونية... حين تتحول الفضة إلى سقوف... وحين يصعد الكافرون في معارج من معدن

تصغير الدنيا وهي في أبهى صورها

{لَجَعَلْنَا}: إعلان القدرة المطلقة

تأمل هذه اللام في {لَجَعَلْنَا}. إنها لام جواب {لَوْلا}. إنها تفيد أن الجواب كان سيقع حتماً لولا المانع. والمعنى: "لولا المانع، لجعلنا قطعاً وبقينا". الله قادر على هذا، وهو يسير عليه: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَثَا فِي الْأَرْضِ}.

وتأمل كلمة {لَجَعَلْنَا} مرة أخرى. كما تكررت في السورة من قبل. "جعلنا" أي صيرنا وهياًنا. هي فعل خلق وتصيير وإيجاد عن حكمة وتدبير. إنه يخبر أنه قادر على تحويل المعادن النفيسة إلى مواد بناء للكافرين، لا لتكون كرامة لهم، بل لتكون استدراجاً أو حقارة للدنيا.

{لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ}: تحديد المستحق لهذا العطاء

انظر إلى الوصف: {لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ}. لم يقل: "للأغنياء"، ولا "للمترفين"، ولا "للطغاة". بل قال: {لِمَن يَكْفُرُ}. إنه يربط هذا العطاء الدنيوي بالكفر! فكأن الدنيا – بطبيعتها – مناسبة للكافرين، وليست مناسبة للمؤمنين. المؤمن له الآخرة، والكافر له الدنيا. {مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ثَوَفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ}.

ثم تأمل الوصف مرة أخرى: {بِالرَّحْمَنِ}. إنهم يكفرون بالرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء. وهم مع ذلك ينعمون في الدنيا! أليس هذا هو الاستدراج بعينه؟! إنهم يكفرون بالرحمن، ومع ذلك يدر عليهم الأرزاق. ولو كانوا يعقلون، لخافوا أن يكون هذا استدراجاً.

{لِيُؤْتِيَهُمْ}: اللام... لام الاختصاص والتملك

{لَبِئُوتُهُمْ} أي جعلنا بيوتهم بهذه الصفة. اللام تفيد الاختصاص والملكية. إن هذه النعم الفاخرة تكون "لبيوتهم" خاصة بهم، يتمتعون بها مؤقتاً، ثم يذهبون عنها إلى النار إن ماتوا على كفرهم.

فيا لها من حسرة! بيوت من فضة، وأبواب من فضة، وسرر يتكئون عليها... ثم المصير إلى النار! {فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ}. إن نعمهم نقم، وقصورهم قبور، وزخرفهم وقود للنار.

{سَقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ}: البداية من أعلى... سقف البيت من فضة!

تأمل معي أول مفردة في هذه اللوحة: {سَقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ}. إنه يبدأ بأعلى الشيء: السقف. والسقف هو الذي يظل البيت. فأول ما يراه الداخل هو السقف اللامع من الفضة الخالصة!

ما أبهى هذا المشهد! سقف من فضة... يتلألأ لأول وهلة. هذا وحده يكفي لإبهار أي إنسان. ولكن المشكلة أنه لو كان هذا إكراماً من الله، لفعله الله لأنبيائه وعباده الصالحين. ولكنه لم يفعل. فدل على أنه ليس إكراماً.

{وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ}: الصعود إلى السطح بدرج من فضة!

{مَعَارِجَ} أي درج ومصاعد. {عَلَيْهَا} أي على السقف. {يَظْهَرُونَ} أي يصعدون ويعلمون. فالبيت ليس فقط سقفه من فضة، بل درج الصعود إلى سطحه أيضاً من فضة!

تأمل هذا الوصف: إن الله يصف بيوتاً خيالية، لا يكاد يوجد مثلها في عصرنا ولا في أعتى عصور الترف. إنه يقول للكافرين: "حتى لو ملكتم هذه القصور الخيالية، فما قيمتها؟ إنها دنيا. وكل ما فيها زائل. وإنما لم نعطيها لكم رحمة بالمؤمنين!".

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع

الرسالة الفكرية: قدرة الله المطلقة لا حدود لها

الآية تبين أن الله قادر على أن يجعل حفنة من تراب الدنيا جنة للمكذبين، ولكنه لا يفعل، لأن الدنيا لا تساوي هذا. فـ {إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ} ولكن حكمته منعت. وهذا يعلم المؤمن أن قدرة الله فوق كل تصور: {إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

الرسالة النفسية: تحقير الدنيا في أعين المؤمنين

هذه الأوصاف الفخمة (سقف من فضة، معارج... إلخ) تريد أن تثير في نفس المؤمن شيئاً واحداً: "إذا كان الله يصف هذا كله بأنه {مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}... فما أتفه الدنيا وما فيها!". إنها استراتيجية نفسية عكسية: بدلاً من أن يبهرك، يريدك أن تحتقر كل هذا.

الرسالة التربوية: تدريب الأبناء على رؤية البهجة بعين الناقد

درب أبنائك على أن يروا الإعلانات، والقصور الفارهة، واليخوت الفاخرة... ثم يقولوا: "هذا والله هو الذي قال الله فيه: {لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ}... ولو أراد الله لأعطانا مثله، ولكنه اختار لنا الآخرة".

المحور الثالث

{وَلَبِئُوتُهُمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكئونَ . وَزُخْرَفًا}

استكمال اللوحة... من الأبواب إلى السرر إلى الزخرف

الحياة المثالية... التي لا تصمد أمام تقلبات الدهر

{وَلَبِئُوتُهُمْ أَبْوَابًا}: حتى المداخل من فضة!

بعد أن وصف السقف والمعارض، ينتقل إلى الأبواب: {وَلْيُبَيِّنْهُمْ أَبْوَابًا}. الأبواب التي يدخلون منها، والتي يغلقونها على أنفسهم... من فضة! إنها الرفاهية القصوى. المنزل من أعلاه إلى مداخله... فضي لامع.

ولكن... هل هذه الأبواب الفضية تمنع عنهم الموت؟! هل تمنع عنهم ملك الموت إذا جاء؟! كلا! إنهم يموتون كما يموت الفقراء، وتصير قصورهم قبوراً لهم.

{وَسُرُّرًا عَلَيْهَا يَتَكئونُ}: مجالس الراحة والدعة

{سُرُّرًا} أي أسرة، جمع سرير. وهي مكان الاتكاء والراحة. {عَلَيْهَا يَتَكئونُ} أي يتكئون عليها في جلسات راحة ودعة وطمأنينة. إنه مشهد المترفين: جالسون على سرر من فضة (أو من ذهب؟ بل هي أعم من هذا)، يأكلون ويشربون ويتمتعون، وقد اطمأنوا إلى دنياهم.

وهذا المشهد – مشهد الاتكاء على السرر – هو نفسه الذي وعد الله به المتقين في الجنة: {مُتَكئينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْقُوفَةٍ}. ولكنه هنا للكافرين في الدنيا، وهناك للمؤمنين في الآخرة. الفرق: أن هنا إلى زوال، وهناك إلى خلود. هنا متاع الغرور، وهناك نعيم لا يفنى.

{وَزُخْرَفًا}: الكلمة الجامعة لكل زينة وكل بريق

وأخيراً: {وَزُخْرَفًا}. ما هذا الزخرف؟

الزخرف في اللغة: الذهب. وقيل: الزينة عموماً. وكل شيء يزين ويحسن ويبهج يسمى زخرفاً. والنقوش و التزويق والرسوم... كلها زخرف. وهذه الكلمة – وهي اسم السورة – هي الجامعة لكل ما سبق: السقف من فضة زخرف، والمعارض زخرف، والأبواب زخرف، والسرر زخرف. كل شيء مزخرف مزين مبهج.

وهنا تكتمل اللوحة. بيت مثالي: من الخارج فضة، ومن الداخل فضة، وكل ما فيه زخرف وزينة. أليس هذا هو حلم كل إنسان على وجه الأرض؟! إنها الصورة التي تبيعها شركات العقارات والأفلام والدعايات... وقد رسمها القرآن هنا في كلمات قليلة، ليقول للناس: "هذا كل ما تحلمون به؟ هذا هو غاية أمانيتكم؟ إنه لا شيء عند الله!".

لماذا التفضيل في الوصف؟ استراتيجية "الترفيه عن النفس المؤمنة"

قد تسأل: لماذا فصل القرآن هذه الأوصاف وذكرها واحدة واحدة (سقف، معارج، أبواب، سرر، زخرف) بدلاً من الإجمال في كلمة واحدة؟ الجواب: إنه يريد من المؤمن أن يستغرق في تخيل المشهد، أن يرسم في خياله هذه البيوت الفارهة بكل تفاصيلها... ثم يسمع الحكم عليها: {مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}.

إنها صدمة نفسية! أن تستغرق في تخيل شيء، ثم تكتشف فجأة أنه لا قيمة له! هذا الأسلوب أبلغ في تحقير الدنيا من أن يقول: "الدنيا حقيرة" بشكل مجرد. إنه يريك الدنيا في أبهى حللها، ثم يصفعك بالحقيقة.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع

الرسالة الفكرية: لا تنخدع بالمظاهر

إن المظهر الخارجي – مهما كان براقاً – لا يدل على القيمة الحقيقية. فالبيت الموصوف أنفاً يبدو رائعاً، ولكنه في الميزان الإلهي لا شيء. فتعلم يا صاحبي ألا تنخدع بالمظاهر، وانظر إلى ما وراءها.

الرسالة النفسية: التحرر من عبودية "الأشياء"

كم من إنسان صار عبداً لبيته، لسيارته، لزخرف حياته! إنه يجري ليل نهار ليحصل على هذه "الأشياء" التي هي متاع زائل. هذه الآلية تحررك من عبودية الأشياء، وتقول لك: "كل هذا لا يساوي شيئاً، فلماذا تبيع دينك وآخرتك لأجله؟!"

الرسالة التربوية: علم أبنائك حقيقة "الزخرف"

لا تجعل بيوتنا ومدارسنا تربي أبنائنا على حب الزخرف والتعلق به. علمهم أن الزخرف (كما قال الله) {متاع الحَيَاة الدُّنْيَا}، وأنه خادع، وأنهم إن أحبوه أكثر من الله ضلوا.

المحور الرابع

{وإن كل ذلك لما متاع الحَيَاة الدُّنْيَا}

كلمة الحق التي تنسف كل زيف... الحكم القاطع على كل متاع

من أعلى درجات الترف... إلى حضيض التفاهة

{وإن}: التأكيد الذي لا شك فيه

تأمل هذه {إن}. إنها مخففة من الثقيلة، وتفيد التوكيد. والمعنى: "وإنه - أي والحال والشأن - كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا". إن الخبر مؤكد، لا شك فيه ولا ريب.

وهنا تصل الآية إلى ذروتها. بعد أن أمعنت في وصف البيوت الفخمة، والقصور المنيفة، والأثاث الفاخر... تضع كل هذا تحت مجهر الحقيقة، وتعلن: "ليس شيئاً! لا قيمة له! إنه مجرد متاع!"

{كل ذلك}: إشارة إلى كل ما سبق

{كل ذلك} تشير إلى كل ما تقدم ذكره من فضة وزخرف وأبواب وسرر... كل هذا بجملته، وكل ما يمكن أن يتخيله الإنسان من متاع الدنيا. لا يستثنى منه شيء. كله داخل تحت هذه الإشارة.

{لما}: الحصر وتأكيد الحقيقة

{لما} (بتشديد الميم) بمعنى "إلا". والمعنى: "وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا". إنه حصر: لا يتجاوز كونه متاعاً. ليس أكثر من ذلك. ليس كرامة، ليس دليل محبة، ليس جزاء... إنه فقط "متاع".

{متاع الحَيَاة الدُّنْيَا}: لماذا وصفه بالمتاع؟

الآن... لماذا وصف الله هذا كله بأنه "متاع"؟

• المتاع هو الشيء الذي يتمتع به، ثم يزول.

• المتاع هو ما يستعمل قليلاً ثم يبلى.

• المتاع هو أداة وليس غاية.

فإذا قال الله عن كل زخرف الدنيا إنه "متاع"، فمعنى ذلك:

1. أنه زائل لا محالة.

2. أنه مؤقت بفترة الحياة الدنيا القصيرة.

3. أنه مبتذل لا قيمة ذاتية له.

4. أنه وسيلة إلى غاية أكبر، فمن جعله غاية خسر.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع

الرسالة الفكرية: النظرة القرآنية للعالم

الآية ترسخ "النظرة القرآنية" للعالم: أن الدنيا دار ممر، لا دار مقر. وأن متاعها زائل. وأن التعلق بها هو عين الخسران. هذه النظرة هي التي تحمي المؤمن من الاغترار بالحضارة المادية المعاصرة.

الرسالة النفسية: السكينة بالقناعة

حين تعلم أن كل هذا الزخرف لا يساوي شيئاً، فإنك تهدأ وتسكن. لن تجري وراءه، ولن تحزن على فواته. ستجري وراء ما هو أعظم: {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}. ستشعر بالقناعة والرضا.

الرسالة التربوية: منهج التربية على أولويات القيم

علم أبناءك أن الدنيا "متاع". لا تجعلها في قلوبهم أكبر من حجمها. علمهم أن يلعبوا ويتمتعوا، ولكن في حدود، وليعلموا أن الأهم هو ما عند الله. هذا هو منهج القرآن.

المحور الخامس

{وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}

الإعلان الأخير... توزيع الأدوار النهائي

الدنيا للجميع... والآخرة للمتقين وحدهم

{وَالْآخِرَةُ} في مقابل {الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}

تأمل التناقض البديع: {مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} يقابله {الْآخِرَةُ}. الدنيا متاع زائل، والآخرة نعيم باق. الدنيا للكافر و المؤمن، والآخرة {لِلْمُتَّقِينَ}. هذا هو التقسيم الإلهي العادل: الدنيا دار امتحان، يعطى فيها البر والفاجر. والآخرة دار جزاء، وتختص بالمتقين.

{عِنْدَ رَبِّكَ}: القيمة من المصدر

{عِنْدَ رَبِّكَ} أي في حضرة الرب، في جواره، في جنته. هذا هو مصدر القيمة. ليس "عند الناس"، ولا "في سوق المال"، بل "عند ربك". فما كان عند الله باق، وما كان عند الناس فان. {مَا عِنْدَكُمْ يَنْقَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٌ}.

{لِلْمُتَّقِينَ}: شرط الفوز بالآخرة

الآخرة ليست لكل أحد. الآية تختتم: {لِلْمُتَّقِينَ}. التقوى هي الشرط. فمن أراد الآخرة فعليه بالتقوى، لا بجمع المال. من أراد الجنة فعليه بطاعة الله، لا بزخرف الدنيا. إنه نداء لجميع الناس: "إن كنتم تريدون الآخرة... فهي موقوفة على المتقين. فاتقوا الله!".

المواساة الكبرى للمؤمنين

هنا تصل المواساة إلى ذروتها. أيها المؤمن الفقير... أنت المتقي؟ لك الآخرة عند ربك. هذا الكنز الذي لا يفنى. أولئك الكافرون لهم الدنيا (وقد تكون حقيرة جداً بالنسبة لما وصفه الله)، والموعود الجنة. فارض واطمئن.

رسائل ودروس وتوجيهات من الخاتمة

الرسالة الفكرية: غاية الوجود هي الآخرة

الآية توجه العقول إلى أن الهدف الأسمى للإنسان ليس الدنيا، بل الآخرة. من عاش للدنيا وحدها فقد أضاع عمره. {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}.

الرسالة النفسية: السعادة في رجاء الآخرة

ما أجمل أن ينام المؤمن وفي قلبه رجاء الآخرة! إن آلام الدنيا وهمومها تذوب عندما تتذكر: {وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}. هذا الرجاء هو مصدر السعادة الحقيقية.

الرسالة التربوية: ازرع في أبنائك حب الآخرة

اجعل كلمة {وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} شعاراً في بيتك. ذكرهم دائماً أن الذي يستحق السعي هو الآخرة، لا الدنيا. وأن الجنة غالية، ولا تنال بالتمني.

المحور السادس

ما تدعوننا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً: مواجهة الحضارة المادية

في عصر تحولت فيه الدنيا إلى صنم يعبد، تعلن هذه الآيات بكل وضوح: {وإن كلَّ ثَلَاثَ لَمَّا مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} إنها كفيفة بأن تحطم صنم المادة في قلوبنا، وتحررنا من عبودية الاستهلاك.

ثانياً: فهم حقيقة الابتلاء بالغنى والفقر

تعلمنا الآيات ألا نفخر بغنى الكافر، فهو متاع حقير واستدراج، وألا نياس من فقر المؤمن، فهو تكريم وتطهير وادخار للآخرة.

ثالثاً: إعادة تعريف "النجاح"

النجاح في الميزان القرآني ليس بكثرة المال، بل بالتقوى. {وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}. هذا هو النجاح.

المحور السابع

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: تحقيق الدنيا

الآيات تعطينا مفهوماً فكرياً واضحاً: الدنيا حقيرة، وزخرفها غناء. لا يصح أن تكون هدفاً، ولا مقياساً للقيمة.

المفهوم النفسي: القناعة والرضا

حين يعيش الإنسان بهذا المفهوم، يتحرر من القلق والحسد، ويشعر بالقناعة والرضا. {رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا}.

المفهوم التربوي: أولويات التربية

الآيات تقدم للمربي أولويات واضحة: ربّ أبنائك على حب الآخرة، وازدهم في الدنيا. لا على جمع المال و التفاخر بالزخرف.

المحور الثامن

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: الزهد في الدنيا

الله يريد منا أن نزهد في الدنيا، وألا نجعلها أكبر همنا. {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ}.

الإرادة الثانية: السعي للآخرة

يريدنا أن نجعل الآخرة محط أنظارنا، وهدف سعينا. {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}.

الإرادة الثالثة: ألا نفتر بالكافرين

يريدنا ألا ننظر إلى ما أوتي الكافرون من متاع، بعين الإعجاب والغيرة. {لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}.

المحور التاسع

تحويل الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

لكي تتحول هذه الآيات إلى طاقة حضارية، يجب تفعيلها في ثلاثة مسارات:

المسار الأول: بناء الإنسان الزاهد

الآيات تبني إنساناً زاهداً في الدنيا، راغباً في الآخرة. التطبيق العملي: قلل من استهلاكك الترفيهي، وادخر لا خرتك. تصدق، أنفق، ولا تبخل.

المسار الثاني: بناء المجتمع القانع

الآيات تبني مجتمعاً لا يلهث وراء المادة، ولا يقدر الأغنياء، ولا يحقر الفقراء. مجتمعاً قانعاً راضياً. التطبيق العملي: كن داعية للقناعة، وحارب ثقافة الاستهلاك.

المسار الثالث: بناء الحضارة المتوازنة

الآيات تبني حضارة لا ترفض الدنيا كلياً، ولا تغرق فيها، بل تستخدمها كوسيلة للآخرة. التطبيق العملي: طور حياتك المادية، ولكن دون أن تجعلها هدفاً. استخدم التقنية في طاعة الله.

خاتمة: ماذا بقي من زخرف الدنيا في قلبك؟

أيها القارئ الكريم...

لقد رسمنا معاً لوحة الدنيا في أبهى حللها: سقف من فضة، معارج من فضة، أبواب من فضة، سرر للاتكاء، وزخرف يبهر الأبصار. ثم وضعنا هذه اللوحة كلها في كفة، ووضعنا كلمة الله في الكفة الأخرى: {مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}... فطاشت كفة الدنيا!

والآن أسألك: بعد هذه الرحلة... هل ما زال في قلبك مكان للزخرف؟

هل ما زلت تحسد الكافرين على ما أوتوا من متاع، بعد أن علمت أنه استدراج، وأنه لا يساوي عند الله جناح بعوضة؟

هل ما زلت تتعلق بالدنيا، بعد أن رأيت حقيقتها في كتاب الله؟

هل ما زلت تلهث خلف المال والجاه والشهرة، أم صرت تلهث خلف {وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}؟
أجب عن هذه الأسئلة بصدق... واجعل هذه الآيات شعاراً لك: {وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}.

القسم الثاني

المبحث الأول

ها هو تفسير الآية (36) من سورة الزخرف، بأسلوب يحاكي الطريقة الواردة في ملفك:

تقدمة لا بد منها: موقع الآية من السياق ومن جدلية الإعراض والقرين

قف معي - يا رعاك الله - وقفه من يدرك أن آيات القرآن الكريم ليست جزراً منعزلة، بل هي بناء محكم يشد بعضه بعضاً. لقد انتهت الآيات السابقة (33-35) بتلك الحقيقة المدوية: {وَأِنْ كُلُّ ذِكْرٍ لَّمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}. لقد وُضعت الدنيا في كفة، والآخرة في كفة، وترجحت كفة الآخرة للمتقين.

والآن... يأتي سؤال فطري: "حسناً، لقد عرفنا أن الدنيا حقيرة، وأن الآخرة للمتقين. ولكن ماذا عن الذي يُعرض عن هذا الذكر؟ ماذا عن الذي لا يريد أن يسمع؟ ماذا عن الذي تغره الدنيا فلا يرى هذه الحقائق؟".

وهنا تأتي الآية السادسة والثلاثون لتكشف عن قانون إلهي رهيب في التعامل مع المعرضين. إنها تنقلك من الحديث عن "متاع الدنيا" إلى الحديث عن "قرين الشيطان". إنها تقول لك: الإعراض عن ذكر الرحمن ليس مجرد اختيار فكري بسيط، بل هو بداية لسلسلة من العقوبات المعنوية التي تبدأ بشيطان يلزمك كظلك.

إنها آية مخيفة ومبصرة في آن واحد. مخيفة لأنها تكشف عن مصير من يعيش عن ذكر الله، ومبصرة لأنها تحذرك قبل فوات الأوان. إنها تنتقل من كشف حقيقة الدنيا إلى كشف حقيقة من انغمس فيها وأعرض عن ربه.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآية ومقاصدها وأهدافها

دعني الآن - أيها القارئ الكريم - أضع أمام عينيك وقلبك الأفكار المركزية النابضة في هذه الآية الكريمة.

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآية:

1. بيان خطورة الإعراض عن ذكر الله: ليس مجرد تقصير عابر، بل جريمة تستوجب عقوبة فورية.

2. تقييض الشيطان عقوبة لا قدر: {ثَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا} ليس ابتداءً، بل نتيجة حتمية للإعراض.

3. القرين الشيطاني يلزم المعرض ملازمة الظل: {فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} أي لا يفارقه أبداً.

4. العلاقة بين الإعراض والتسويل: الشيطان يزين للمعرض طريق الغي.

5. الغشاوة البصرية والبصيرية: {يَعْشُ} تُوحي بعمى تدريجي يبدأ من العين وينتهي بالقلب.

مقاصد الآية وأهدافها:

1. تحذير المؤمنين من فتور الذكر: لئلا يقعوا في مصيدة الإعراض.
2. إثارة الخوف من عاقبة التولي عن القرآن والموعظة.
3. كشف آلية عمل الشيطان مع المعرضين.
4. دفع المؤمن إلى التمسك بالذكر كحبل نجاة من القرين.
5. ربط القلب بالله خوفاً من هذا المصير الأسود.

المحور الأول

{وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ}

حين يتحول الإعراض إلى عَمَى... الكلمة الحرجة: "يعِشْ"

فتح في المعنى اللغوي والدلالة القرآنية

دعني أقف بك عند هذه الكلمة العجيبة: {يعِشْ}. إنها ليست مجرد "يعرض" أو "يبتعد". إنها تحمل في طياتها صورة حسية بليغة.

العشا في اللغة: هو ضعف البصر، أو النظر في ظلام فلا ترى بوضوح. والرجل الأعشى: هو الذي لا يرى بالليل ويرى بالنهار، أو الذي يبصر نهاراً ويعمى ليلاً. وقيل: هو الذي يغمض عينيه متعامياً.

فالمعنى هنا: ومن يتعام عن ذكر الرحمن، ومن يغمض عينيه وبصيرته عنه، ومن يتظاهر بعدم رؤية الحق. إنه ليس جاهلاً، لم يبلغه الذكر، بل هو متعام، متجاهل، معرض إعراض من يغمض عينيه لئلا يرى الشمس!

{عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ}: موضوع الإعراض... وماذا يخسر المعرض؟

تأمل معي متعلق الإعراض: {ذِكْرُ الرَّحْمَنِ}. الذكر هنا يشمل:

• القرآن الكريم: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ}

• الموعظة والتذكير: {فَذَكِّرْ إِن تَقَعْتَ الذِّكْرَى}

• اسم "الرحمن" نفسه: الذي وسعت رحمته كل شيء.

فمن يعرض عن ذكر من هذا شأنه – الرحمن الذي تفيض رحمته – فقد أخطأ الطريق كله. وكما قالوا: "من أَعْرَضَ عن الرحمن، قَيَّضَ له الشيطان". إنها مقابلة دقيقة: الإعراض عن اسم الرحمن يقابله الاقتران بالشيطان.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع

الرسالة الفكرية: الإعراض ليس حياداً

الآية تعلمنا أن الإعراض عن الحق ليس موقفاً حيادياً. من يظن أنه يستطيع أن يكون "محايداً" تجاه ذكر الله فهو واهم. الإعراض نفسه جريمة تستدعي عقوبة. لا يوجد فراغ: إما أن تملأ قلبك بذكر الرحمن، أو يملؤه الشيطان.

الرسالة النفسية: راقب قلبك من التعامي

كم من إنسان يعرف الحق، ولكنه يتعamy عنه! يغمض عينيه متعمداً لئلا يرى. هذه الآية تحذرك من هذا التعامي. لا تكن كالأعشى الذي يرى ولا يرى. افتح عينيك وبصيرتك.

الرسالة التربوية: علم أبنائك خطورة التغافل عن الحق

الأبناء قد يعرفون الصواب، ولكنهم – تحت ضغط الأقران أو الشهوات – يتغافلون ويتعامون. ربهم على أن التغافل عن الحق هو أول خطوة نحو الضياع. ذكرهم بهذه الآية.

المحور الثاني

{ثَقِيْضٌ لَهُ شَيْطَانًا}

العقوبة الإلهية من جنس العمل... إرسال الشيطان تسليطاً وإغواءً

{ثَقِيْضٌ}: القضاء النافذ والعقوبة الحتمية

تأمل معي هذا الفعل: {تَقِيْضُ}. إنه مضارع يفيد الاستقبال، ولكنه يفيد - في هذا السياق - الحتمية واليقين. "نقيض" أي نسب ونيسر ونرسل. من معاني التقييض: التهينة والإرسال والتسليط.

إنها عقوبة إلهية: نحن - بصيغة العظمة - نرسل لهذا المعرض شيطانا خصبًا! ليس أي شيطان، بل شيطان موكل به، مخصص له، يلزمه ويغويه.

وهذا من باب المشاكلة والعقوبة من جنس العمل. فلما أعرض بوجهه عن الذكر، قيض الله له شيطانًا يقوده إلى الضلال. {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}. وكما في الحديث: "إن العبد إذا أذنب ذنبًا نكت في قلبه نكتة سوداء..."

{شَيْطَانًا}: طبيعة هذا القرين ومهمته

الشيطان هنا نكرة. يحتمل أن يكون شيطانًا من الجن، أو شيطانًا من الإنس (كما في قوله: {شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ}). والمعنى: نهى له - بسبب إعراضه - من يوسوس له، ويزين له، ويصده عن الحق.

وهذا الشيطان المرسل له خصائص:

1. موكل به خصوصًا.
2. لا يفارقه.
3. يزين له الضلال.
4. يحسب أنه على هدى) كما ستأتي الإشارة في الآيات التالية).

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع

الرسالة الفكرية: قانون التقييض الإلهي

الآية تكشف عن قانون: من أعرض عن الهدى، أرسل الله إليه من يضلّه. إنه ليس قدرًا جبريًا، بل نتيجة طبيعية للإعراض. فاحذر أن تبدأ بالإعراض، فإن العاقبة وخيمة. {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}، والمقابل: و الذين أعرضوا عنا لنقيضن لهم الشياطين.

الرسالة النفسية: الخوف من الخذلان

هذه الآلية تثير في نفس المؤمن خوفاً من خذلان الله. أن يتخلى الله عنك، فيرسل إليك شيطاناً يضلّك... ما أُرهب هذا! ليكن هذا الخوف دافعاً لك للتمسك بالذكر أشد التمسك.

الرسالة التربوية: حذر أبناءك من مصاحبة شياطين الإنس

جزء من التقييـض قد يكون رفيق سوء. ذكر أبناءك بأن اختيار الصديق ليس مسألة بسيطة. ربما يكون رفيق السوء هو "الشيطان المقيـض" الذي يبعده عن الله.

المحور الثالث

{فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}

ملازمة لا انفكاك عنها... أقرب من الصديق وألزم من الظل

{فَهُوَ}: الفاء للتعقيب والسببية

الفاء هنا تفيد التعقيب والترتيب: فتكون النتيجة المباشرة لتقييـض الشيطان أن يصير قريباً. إنها نتيجة حتمية وسريعة.

{لَهُ قَرِينٌ}: تحليل العلاقة بين المعرض والشيطان

القـرين: هو المصاحب الملازم الذي لا يفارق. من معاني القـرين في اللغة: الصاحب، والزوج، والنظير، والمقترن الذي اقترن بك ولازمك.

فهذا الشيطان الذي قيضه الله للمعرض يصبح:

1. قريباً له في الدنيا: يوسوس له، ويزين له الباطل.

2. قريباً له في الآخرة: يورده النار معه. {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْكَ آيَاتُ رَبِّكَ فَتَرَىٰ الْوَسْوَاسَ الْكَافِرَ}

إن هذه القـرينية عقوبة أليمة. يتصور الإنسان أن الإعراض عن ذكر الله "حرية"، فيفاجأ بأنه صار أسيراً لشيطان لا يفارقه! إنها العبودية الحقيقية تحت ستار الحرية المزعومة.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع

الرسالة الفكرية: وهم الحرية في الإعراض

الآية تكشف زيف فكرة "التحرر من الدين". من يظن أنه بالإعراض عن ذكر الله يصير حرًا، هو في الحقيقة يوقع نفسه في أسر الشيطان. لا حرية إلا في طاعة الرحمن، ولا عبودية إلا في طاعة الشيطان.

الرسالة النفسية: اشعر بخطورة الوحدة مع الشيطان

تأمل قوله: {فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}. إنها علاقة خاصة، شيطان مخصص لك وحدك. إنه كابوس! ليكن هذا الخوف دافعًا للاستكثار من ذكر الله، فإن ذكر الله طارد للشياطين.

الرسالة التربوية: علم أبناءك أن الوحدة مدعاة للقرين

الأبناء حين ينزلون، حين يغلقون أبوابهم على أنفسهم بالساعات مع الأجهزة... قد يكون هذا مدعاة لتسلط الشياطين. ربهم على الصلابة، وعلى ملء أوقاتهم بالذكر والطاعة.

المحور الرابع

الترابط بين خاتمة الآيات السابقة وبداية هذه الآية

من "للمتقين" إلى "ومن يعيش" - المساران المتوازيان

هنا - يا رعاك الله - تظهر عبقرية النظم القرآني. لقد انتهت الآية (35) بقوله: {وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}. فذكرت مآل المتقين: الجنة والآخرة والنعيم.

ثم تبدأ هذه الآية (36): {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ثَقِيَصْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}. فذكرت مآل المعرضين: شيطان وقرين وضلال.

إنهما طريقان:

• طريق المتقين: آخرة عند الله.

• طريق المعرضين: شيطان قرين في الدنيا، وعذاب في الآخرة.

فاختر لنفسك أي الطريقين تسلك.

رسالة الوصل بين الآيات

الذي جعل الدنيا حقيرة، وآثر الآخرة، واتقى الله... هذا هو المتقي الذي له الآخرة.
والذي أعرض عن الذكر، واغتر بالدنيا، ولم يتق... هذا هو المعرض الذي له الشيطان قرين.

فالمسألة ليست مجرد رفاهية فكرية، إنها مصيرية وجودية.

المحور الخامس

ما تدعوننا إليه الآية في الواقع المعاصر

أولاً: "مواجهة وباء "التعامي" المعاصر

في عصر تتزاحم فيه الشاشات والمغريات، صار "التعامي" عن ذكر الله أسهل من أي وقت مضى. الآية تصرخ
فيينا: لا تكن أعشى! لا تغمض عينيك عن الحق والإعلانات والمسلسلات تملأ أذنيك!

ثانياً: فهم العلاقة بين الإعراض والاكتمال

كم من معرض عن ذكر الله يعيش في ضيق وقلق! إنه لا يدري أن "القرين" - الذي قيس له - هو سبب ضيقه.
{وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا}.

ثالثاً: إعادة تعريف "الصديق" في زمن السوشيال ميديا

"القرين" قد يكون صديق سوء افتراضي، أو متابعاً يزين لك الباطل. انظر فيمن تقتن بهم، فإنهم إما أن يكونوا
قراء خيبر، أو قراء سوء.

المحور السادس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

المفهوم الفكري: قانون الإعراض والعقوبة

الآية تؤسس مفهوماً: أن الله لا يعاقب المعرضين ابتداءً، بل يخلي بينهم وبين اختيارهم، فيقيض لهم من يضلهم. إنها عدالة إلهية: أنت اخترت الإعراض، فذق عاقبته.

المفهوم النفسي: الاستعاذة بالله من القرين

الآية تربى في المؤمن حاجة دائمة للاستعاذة من الشيطان. {وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ}. فلنكثر من: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم".

المفهوم التربوي: التربية على رفض التعامي

ربّ أبنائك على "شجاعة مواجهة الحق". لا تجعلهم يتعامون عن الخطأ. لا تجعلهم يغمضون أعينهم عن الصواب. التعامي أول خطوة للقرين.

المحور السابع

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآية؟

الإرادة الأولى: الخوف من الإعراض

الله يريد أن تخاف من الإعراض عن ذكره. أن ترتجف من أن يقيض لك شيطاناً. أن تحذر من أن تتحول من عبد للرحمن إلى أسير للشيطان.

الإرادة الثانية: التمسك بالذكر

يريدك أن تتمسك بـ "ذكر الرحمن": القرآن، الصلاة، الأذكار، مجالس العلم. إنها حبل النجاة من القرين.

الإرادة الثالثة: التيقظ للقرناء

يريدك أن تراقب من تقترب بهم. من هم أصدقاؤك؟ من هم متابعوك؟ هل هم أعوان على ذكر الله، أم شياطين مقضيون؟

المحور الثامن

تحويل الآية إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

المسار الأول: بناء الإنسان الذاكر

الآية تدفعك لتكون إنسانًا ذاكرًا لله في كل حال. لا تعش عن الذكر، بل عش في الذكر. اجعل لسانك رطبًا من ذكر الله، يبعد عنك الشياطين.

المسار الثاني: بناء المجتمع المتعاون على الذكر

مجتمعنا يحتاج أن يكون "مجتمع ذكر". بيوتنا بالذكر، مدارسنا بالذكر، أسواقنا لا تخلو من ذكر الله. مجتمع الذكر لا تقربه الشياطين.

المسار الثالث: بناء الحضارة المتصلة بالوحي

حضارة تعشو عن ذكر الرحمن... مصيرها الخراب. حضارة قامت على الذكر... تنعم بالبركة. {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}.

خاتمة: من قريبك الآن؟

أيها القارئ الكريم...

لقد وقفنا معًا عند هذه الآية المخيفة المبصرة. ورأينا ذلك القانون الإلهي: من يعيش عن ذكر الرحمن، نقيض له شيطانًا، فيصير له قريبًا لا يفارقه.

والآن أسألك بكل محبة وصدق:

- من هو قريبك الآن؟ هل هو ملك يلهمك الخير، أم شيطان يزين لك الشر؟
- هل ما زلت تسمح لنفسك أن "تعشو" عن ذكر الله، أم أنك ممسك بالذكر كحبل نجاة؟
- في أوقات وحدتك... من يؤنسك؟ القرآن والذكر، أم الوسواس والهواجيس؟

اجعل هذه الآية نصب عينيك:

{وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ثَقِيَضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}.

واختر الآن... قبل فوات الأوان...

أن تكون من الذاكرين، المتقين، الذين أعد الله لهم الآخرة...

ولا تكن من المعرضين، الذين قبيض لهم الشيطان فكان لهم قريبًا.

المبحث الثاني .

هذا تفسير الآيات (37-39) من سورة الزخرف، بأسلوب الملف الذي أرسلته، مع الالتزام الكامل بكل فقراته دون حذف:

تقدمة لا بد منها: موقع الآيات من السياق ومن جدلية الضلال والمصير

قف معي - يا رعاك الله - وقفة المتأمل الذي استقر في قلبه أن آيات القرآن تمسك بعضها ببعض كحلقات سلسلة ذهبية، كل حلقة تمهد للأخرى وتكملها. لقد وقفنا في الآية (36) على ذلك القانون الإلهي الرهيب: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ تَقْيِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}. لقد عرفنا أن الإعراض عن الذكر لا يمر دون عقوبة، بل يستتبع فوراً تقييض شيطان يلزم المعرض ملازمة القرين الذي لا يفارق.

وهنا - في الآيات (37-39) - ينكشف المشهد أكثر. تنفتح الستارة لتريك ما يفعله هذا القرين بضحيته في الدنيا، ثم تنقل فجأة إلى مشهد الآخرة حين يقف الإثنان بين يدي الله. إنها آيات تحمل في طياتها صورة مربعة لخاتمة من استهوته الشياطين، وخاتمة من ظن أنه على هدى وهو في ضلال.

تأمل معي هذا التصاعد الدرامي: بدأ الأمر بإعراض بسيط (يعش)، فتقييض شيطان (نقيض له)، فقريية دائمة (فهو له قرين)، فصد عن السبيل مع وهم الاهتداء (ليصدونهم... ويحسبون)، ثم لقاء الله والتفجع على هذه الصعبة (يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين)، ثم القضاء الإلهي النهائي (ولن ينفعكم اليوم...). إنها رحلة من العمى إلى الحسرة الأبدية، ترسمها هذه الآيات الثلاث ببراعة تصويرية أخاذة.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها

دعني الآن - أيها القارئ الكريم - أضع أمام عينيك وقلبك الأفكار المركزية النابضة في هذه الآيات الكريمة. تأملها ملياً، ولا تجعلها تمر عليك مرور الكرام.

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيات الكريمة:

1. كشف عمل القرين الشيطاني: إنه يصد عن سبيل الله باستمرار وإصرار.
2. أخطر أنواع الضلال: أن يحسب الإنسان أنه على هدى وهو في ضلال مبين.
3. الصدمة الكبرى عند لقاء الله: حين ينكشف الغطاء ويعرف الإنسان حقيقة قرينه.
4. تفجع الكافر على صعبة السوء: {يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ} أمنية لا تتحقق.
5. الحكم النهائي: الاشتراك في العذاب لا ينفع ولا يخفف، بل يزيد الحسرة.
6. عدالة الله المطلقة: {إِذْ ظَلَمْتُمْ} أنتم الظالمون، فأنتم المستحقون للعذاب.

مقاصد الآيات وأهدافها:

1. تحذير المؤمنين من قرناء السوء الذين يزينون الباطل ويهونونه.

2. بيان خطورة "وهم الاهتداء" حيث يظن الإنسان أنه على حق وهو على باطل.

3. إثارة الخوف من مشهد الوقوف بين يدي الله مع قرناء السوء.

4. دعوة المؤمنين إلى مراجعة صحبتهم واختياراتهم قبل فوات الأوان.

5. ترسيخ الثقة بعدالة الله وأنه لا يظلم أحداً.

المحور الأول

{وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون}

آية عمل القرين: صد عن الحق، وهم بالهدى

غوص في معنى الصد: {ليصدونهم}

دعني أقف بك عند هذه العبارة: {ليصدونهم}. ما أشد وقعها وما أثقل معناها!

اللام في {ليصدونهم}: لام التوكيد، تفيد القسم. والله إنهم ليصدونهم عن السبيل. إنه تأكيد قاطع من الله. و الصد: هو المنع والصرف بشدة، مع الإبعاد والإضلال. إنه ليس مجرد تثبيط عابر، بل هو عمل دؤوب مستمر لمنعهم عن سبيل الله.

والضمير "هم" يعود على الشياطين المقيضين. والمعنى: إن هؤلاء الشياطين ليصدون هؤلاء المعرضين عن سبيل الله، عن دينه، عن طاعته، عن رحمته. يمنعونهم من كل خير، ويحولون بينهم وبين الهدى. وكلما هم أحدهم بتوبة أو أوبة، زين له شيطانه الباطل وثبطه.

{عن السبيل}: ما هذا السبيل الذي يصدون عنه؟

السبيل هنا معرف بـ "أل". إنه السبيل الأوحد، سبيل الله الحق. ليس مجرد سبيل من سبل، بل هو "السبيل" الذي من سلكه نجا، ومن حاد عنه هلك. إنه الإسلام، الإيمان، القرآن، طريق الأنبياء، الصراط المستقيم.

فالقريين الشيطاني مهمته الأولى والأساسية: أن يبعدك عن هذا السبيل. أن يغريك بطرق أخرى، أن يريك الباطل حقًا والحق باطلاً. أن يلهيك، أن يشغلك، أن ينسيك. إنها حرب لا تهدأ على قلبك ودينك.

{وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ}: الطامة الكبرى... وهم الاهتداء

وهنا - يا رعاك الله - تصل الآية إلى ذروة خطورتها. هذه الجملة هي الأخطر في الآية كلها: {وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ}.

"يحسبون" أي يظنون ظنًا خاطئًا. إنهم ليسوا مهتدين، ولكنهم يظنون أنهم مهتدون. وهذا هو أشد أنواع الضلال: أن تكون ضالاً وتحسب أنك مهتدي. فالضال الذي يعرف أنه ضال قد يبحث عن الهدى، أما الذي يحسب أنه مهتدي فلا يبحث أبداً، لأنه مقتنع بأنه على حق!

تأمل من الذي يحسب أنه مهتدي؟ الضمير في "يحسبون" يحتمل:

1. أنه يعود على الشياطين: أي الشياطين أنفسهم يحسبون أنهم مهتدون. فتكون مصيبتهم مضاعفة: صادون عن الحق، ومع ذلك يحسبون أنهم على صواب.
2. أنه يعود على المعرضين: أي الكافرين المعرضين يحسبون أنهم مهتدون. وقد ضلوا ضلالاً بعيداً.
3. أنه يعود على الجميع: الشياطين وأتباعهم، الكل في وهم الاهتداء.

وكل هذه المعاني صحيحة ومتحققة. فالقريين وضحيته كلاهما في ضلال، وكلاهما يحسب أنه مهتدي. إنه غرور الشيطان يمتد إلى أتباعه.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع

الرسالة الفكرية: وهم الاهتداء هو أخطر الأمراض

الآية تنبه إلى أن مجرد اعتقادك أنك على صواب لا يكفي. كم من إنسان متدين يحسب أنه مهتدي وهو في ضلال في بعض جوانب حياته! لا بد من دائم المراجعة، ودوام سؤال الله الهداية. {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}.

الرسالة النفسية: راقب نفسك من الغرور

هذه الآية دواء للغرور. لا تعجب بنفسك، ولا تقطع بأنك على الحق المطلق، واسأل الله دائماً أن يريك الحق حقاً ويرزقك اتباعه، والباطل باطلاً. ويرزقك اجتنابه. فالقريين يزين لك الباطل، وقد تكون أنت الضحية دون أن

تدري.

الرسالة التربوية: علم أبناءك الفرق بين الحق والظن

الأبناء يمرون بمراحل يشكلون فيها آراءهم. علمهم ألا يبنوا حياتهم على "الحسبان" والظن. علمهم أن يبحثوا عن الحق، ويسألوا الله الهداية. وذكرهم أن الشيطان يزين الباطل حتى يحسبه الإنسان حقًا.

المحور الثاني

{حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْكَ قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ}

المشهد المهيّب... حين يلتقي القرينان بين يدي الله

{حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْكَ}: الغاية من العمر كله... لحظة القدوم على الله

دعني أقف بك عند هذه الغاية: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْكَ}. إنها تفيد نهاية المطاف. "حتى" هنا للغاية، أي يستمر الحال بهم - يصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون - إلى أن يبلغوا هذه اللحظة: لحظة المجيء إلى الله.

{جَاءَتْكَ} أي جاءونا للحساب، جاؤوا إلى ساحة القضاء، جاؤوا إلى حيث لا مفر ولا هرب. إنها لحظة الموت و البعث والوقوف بين يدي الله. هناك... هناك تنتهي كل الأوهام، وتنكشف كل الحقائق. هناك يعلم الإنسان - يقينًا لا شك فيه - أنه كان في ضلال، وأن قرينه كان عدوه لا صديقه.

تأمل تحول المشهد: في الدنيا كان القرين ملازمًا، صديقًا حميمًا، مزيّنًا، مسوقًا، مطمئنًا... فإذا به في الآخرة ألد الأعداء! {الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِنَّ الْمُتَّقِينَ}.

{قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ}: صرخة الحسرة والألم

وهنا تنطلق الصرخة المدوية: {يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ}.

"يا ليت": أداة تمن. إنها أمنية، ولكنها أمنية لا تتحقق أبدًا. إنها كقوله: {يَا لَيْتَنِي كُنْتُ ثَرَاةً}. آمنيات في وقت لا ينفع فيه الندم.

{بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ}: أي بعد ما بين المشرق والمغرب. وقيل: بعد مشرق الشتاء ومشرق الصيف. و المعنى: أبعد ما يكون من مسافة. إنه يتمنى لو كان بينه وبين قريبه أقصى بعد ممكن، لو لم يره قط، لو لم يجتمعا أبدًا.

لماذا؟ لأنه أدرك - متأخرًا - أن هذا القرين هو سبب هلاكه. هو الذي صده عن سبيل الله، هو الذي زين له الباطل، هو الذي أضله. فإذا به في هذا الموقف الرهيب يتمنى لو كان بينهما بعد المشرقين، ولكن هيهات!

والقائل هنا: هو الكافر المعرض. وقيل: هو الكافر وقربنه الشيطاني معًا، كل منهما يتمنى لو ابتعد عن الآخر.

{فَيْئُسَ الْقَرَيْنِ}: حكم الله على هذه الصلبة

ثم يأتي التعقيب الإلهي: {فَيْئُسَ الْقَرَيْنِ}. "بئس": فعل ذم، أي قبح هذا القرين وبئس المصاحب. إنه حكم عام: كل قرين يصد عن سبيل الله، ويزين الباطل، ويوقع في المعصية... فهو بئس القرين، في الدنيا والآخرة.

تأمل هذا الذم الإلهي. الله تعالى - الذي وسعت رحمته كل شيء - يذم هذا القرين. إنه دليل على عظم جرمه، وسوء عاقبته، وخبت صنيعه.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع

الرسالة الفكرية: صلبة الدنيا تتحول إلى عداوة في الآخرة

الآية تعلمنا أن كل صداقة بنيت على غير طاعة الله، وكل قرين قاد إلى معصية الله... ستتحوّل إلى عداوة وحسرة يوم القيامة. فاختر قرناءك اليوم، قبل أن تصرخ غداً: {يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ}.

الرسالة النفسية: عش اليوم مستحضراً مشهد القدوم على الله

حين تعيش وفي ذهنك أنك ستقف بين يدي الله، وتلتقي بكل من صاحبت في الدنيا... فإن هذا يستحثك أن تراقب صحبتك، وتراقب أثرهم فيك. ستحسن الاختيار، وستكون أكثر حرصاً على دينك.

الرسالة التربوية: درب أبنائك على معيار "ماذا سيكون هذا الصديق يوم القيامة؟"

علم أبنائك أن يسألوا أنفسهم: "هل سأتمنى يوم القيامة أن أبتعد عن هذا الصديق مسافة المشرقين؟ أم سأكون معه في ظل العرش؟". هذا السؤال وحده كافٍ لتصفية قائمة الأصدقاء!

المحور الثالث

{وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ}

القضاء الإلهي النهائي... حين لا ينفع الاشتراك ولا التأسّي

{وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ}: نفي قاطع لكل نفع

تأمل هذا الحسم: {وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ}. "لن" تفيد النفي المؤبد. واليوم: يوم القيامة. والمعنى: لا ينفعكم اليوم شيء، لا قرين ولا صديق ولا مال ولا جاه. كما قال تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}.

والخطاب هنا موجه - على الراجح - للكافرين وقرنائهم معاً. وقيل: للكافرين وحدهم. والمعنى الجامع: أن اشتراككم في العذاب، ومجيء قرنائكم معكم، لا ينفعكم شيئاً. لن يخفف عنكم، ولن يحملوا عنكم من أوزاركم شيئاً. بل هو يزيدكم حسرة وألماً.

{إِذْ ظَلَمْتُمْ}: التذكير بالسبب الحقيقي للعذاب

وهنا تبرز عدالة الله المطلقة: {إِذْ ظَلَمْتُمْ}. "إذ" للتعليل. والمعنى: لن ينفعكم اشتراككم في العذاب حين ظلمتم أنفسكم بالكفر والإعراض. أنتم الذين اخترتم بأنفسكم، أنتم الذين أعرضتم عن الذكر، أنتم الذين اتبعتم الشياطين. فالذنب ذنبكم، والظلم كان منكم.

فليس لأحد أن يلوم إلا نفسه. لقد زين له الشيطان، نعم. لقد صده قرينه عن السبيل، نعم. ولكن الإرادة كانت إرادته، والاختيار كان اختياره. {وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي}.

{أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ}: الاشتراك الذي لا يواسي ولا يخفف

الاشتراك في المصيبة عادة ما يواسي. الناس في الدنيا إذا اشتركوا في بلاء، هان عليهم بعض الشيء. ولكن يوم القيامة... لا يواسي أحد أحداً. كل إنسان في شأن يغنيه. اشتراككم في العذاب لن ينفعكم، بل سيكون وبا لا عليكم: كل منكم يلعن الآخر، ويتبرأ منه، ويتمنى لو لم يره.

تأمل: في الدنيا تشاركوا المعصية، وفي الآخرة تشاركوا العذاب. عدالة من الله: {جَزَاءٌ وَفَاقًا}. ولكن هذا الاشتراك لن يخفف عن أحد، بل هو عذاب فوق عذاب، وحسرة فوق حسرة.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع

الرسالة الفكرية: عدالة الله فوق كل تصور

الآية تثبت عدالة الله: أنتم ظلمتم، فأنتم تعذبون. لا يظلم ربك أحدًا. لا يحمل أحد وزر أحد. الكل مجزي بعمله.

الرسالة النفسية: لا تعتمد على شفاعاة الخلق في الآخرة

الآية تقطع الأمل في أن ينفعك أحد يوم القيامة. اشتراككم في العذاب لن ينفعكم. فليكن اعتمادك على رحمة الله وحده، وليكن سعيك لمرضاته وحده.

الرسالة التربوية: التنشئة على تحمل المسؤولية الفردية

علم أبناءك ألا يعلقوا أخطاءهم على غيرهم. كثيرًا ما يقول الابن: "صديقي هو الذي أضلني!". صحيح أن الصديق أثر فيه، لكن القرار كان قراره. علمهم أن يتحملوا مسؤولية اختياراتهم، وذكرهم بقوله: {إذ ظلمتُمْ}.

المحور الرابع

الأبعاد والآفاق من الآيات: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

هذه الآيات الثلاث ليست مجرد سرد لقصة فردية، بل هي تحمل في طياتها أبعادًا وآفاقًا واسعة تشمل الفرد و المجتمع والأمة. دعني - يا رعاك الله - أبسط لك هذه الأبعاد:

البعد الأول: البعد الفردي - كل إنسان معرض لهذا المصير

الآيات تخاطب كل فرد: أنت أيها الإنسان! إنك إن أعرضت عن ذكر الله، فسيقضي لك شيطان، وسيظل يصدك عن الحق حتى تلقى الله، وحينها ستندم ولن ينفعك الندم. إنها دعوة فردية لكل إنسان أن ينتبه لنفسه قبل فوات الأوان.

البعد الثاني: البعد الاجتماعي - كيف تنتج المجتمعات "قرناء السوء"؟

الآية تكشف آلية إنتاج قرناء السوء في المجتمع. حين يعم الإعراض عن ذكر الله، وتفشو الغفلة، تكثر الشياطين المقضية، ويكثر الذين يصدون عن السبيل. فيتحول المجتمع إلى بيئة طاردة للهدى، جاذبة للضلال.

البعد الثالث: البعد الحضاري - انهيار الحضارات بسبب "وهم الاهتداء"

أخطر ما في الآية قوله: {وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ}. هذا هو داء الحضارات حين تحسب أنها على هدى وهي في ضلال. حضارة تفصل الدين عن الحياة وتحسب أنها تتقدم... هي في الحقيقة في وهم الاهتداء. وحين يأتيها أمر الله، تكتشف الحقيقة كالحضارات السابقة.

البعد الرابع: البعد المصيري – الآخرة هي الفصل

الآيات تفتح نافذة على الآخرة، وتذكرنا أن هناك يومًا سيأتي، وسيندم فيه الضالون. هذا البعد المصيري يعطي للحياة الدنيا معنى وقيمة. إننا نعيش للقاء الله، إما جنة وإما نار.

البعد الخامس: البعد الإيماني – اليقين بعدالة الله

الآيات ترسخ يقينًا عظيمًا: أن الله لا يظلم أحدًا. {إِذْ ظَلَمْتُمْ}. نحن الذين نظلم أنفسنا. والله أرحم بنا من أنفسنا، يرسل إلينا الذكر، وينصب لنا الأدلة، ويدعونا للهدى. فإن أبيتم، فهذا جزاؤكم.

المحور الخامس

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً: مواجهة ظاهرة "الشلل" التي تصد عن الدين

في عصر "الشلل" ومجموعات الأصدقاء، كم من شاب صُد عن دينه بسبب أصدقائه! الآيات تدعونا لتقييم علاقاتنا: هل أصدقائي يصدوني عن السبيل، أم يقربوني إليه؟ إن كانوا يصدونك، فهم قرناء سوء، وستندم عليهم يوم القيامة.

ثانيًا: التصدي لوهم "الحداثة" و"التقدم"

كثير من المجتمعات اليوم تحسب أنها مهتدية، وهي في الحقيقة ضالة. حضارة مبنية على الإلحاد، أو على فصل الدين عن الدولة، أو على استباحة المحرمات... ويحسبون أنهم مهتدون! هذه الآية تكشف هذا الوهم وتفضحه.

ثالثًا: محاربة ثقافة "التبرير"

في واقعنا المعاصر، صار الناس يبررون أخطاءهم: "المجتمع هو السبب"، "الظروف أجبرتني". الآية تقول لك بوضوح: {إِذْ ظَلَمْتُمْ}. أنت المسؤول. قف مع نفسك، واعترف بذنبك، وتب إلى الله.

رابعًا: التحذير من "المؤثرين" الذين يضلون الشباب

في عصر السوشيال ميديا، صار "المؤثرون" قرناء افتراضيين. كم من مؤثر يصد الشباب عن الدين، ويزين لهم

الباطل، وهم يحسبون أنهم مهتدون! الآيات تدعونا لوعي خطورة هؤلاء القراء الجدد.

المحور السادس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: الصد عن السبيل - نظرية قرآنية في الإضلال

الآيات تؤسس مفهوماً فكرياً متكاملًا: الإعراض عن الذكر يؤدي إلى تقييض الشيطان، الذي يصد عن السبيل، ويوهم بالاهتداء. هذه نظرية قرآنية في آليات الضلال، يمكن أن تبني عليها دراسات نفسية واجتماعية عميقة.

المفهوم النفسي: وهم الاهتداء - مرض نفسي خطير

الآيات تكشف عن أخطر مرض نفسي: أن يعيش الإنسان في وهم أنه على صواب. هذا المرض يمنعه من المراجعة والتوبة. علاج هذا المرض في القرآن: دوام سؤال الله الهداية، ومحاسبة النفس، وقبول النصيحة.

المفهوم التربوي: التربية على المسؤولية الفردية

الآيات تبني مفهوماً تربوياً: لا تعلق أخطاءك على شناعة "الصاحب" أو "المجتمع". أنت صاحب القرار. {إذ ظلمتكم}. التربية على هذا المفهوم تنتج جيلاً واعياً يتحمل مسؤولية أفعاله.

المفهوم الاجتماعي: خطورة "عدوى" الضلال في المجتمعات

الآيات تكشف كيف تنتقل عدوى الضلال من القرين إلى مصاحبه. مجتمع فيه قراء سوء كثيرون، سينتج ضالين كثيرين. لذا وجب على المجتمع أن يحارب هؤلاء القراء، ويحمي أفرادهم منهم.

المفهوم الإيماني: استحضار الآخرة يغير سلوك الدنيا

الآيات تغرس في المؤمن استحضار لحظة القدوم على الله. هذا الاستحضار يغير كل شيء في حياته: اختياراته، علاقاته، أولوياته.

المحور السابع

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: مراجعة صحبتنا وعلاقاتنا

الله يريد منا - بعد تلاوة هذه الآيات - أن نراجع قائمة أصدقائنا. من هم قرناؤنا؟ هل هم مما يقربونا من

السبيل، أم يصدوننا عنه؟ إن كانوا من النوع الثاني، فقد آن الأوان لتركهم قبل فوات الأوان.

الإرادة الثانية: الخوف من وهم الاهتداء

يريدنا الله أن نخاف من أن نكون ضالين ونحن نحسب أننا مهتدون. هذه الخشية تجعلنا نديم سؤال الله: {اهدنا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}. ونداوم على محاسبة أنفسنا، ونتهمها دائماً بالتقصير.

الإرادة الثالثة: استحضار الآخرة في كل خياراتنا

يريدنا أن نعيش والآخرة أمام أعيننا. قبل كل علاقة: هل سأندم على هذه العلاقة يوم القيامة؟ قبل كل قرار: هل سأتمنى لو لم أفعله حين أقف بين يدي الله؟ هذا الاستحضار يعصمنا من الزلل.

الإرادة الرابعة: تحمل مسؤولية اختياراتنا

يريدنا أن نكون كباراً في أعين أنفسنا، نتحمل مسؤولية أفعالنا. لا نعلق فشلنا على شماعنا الآخرين. بل نعترف بذنوبنا، ونتوب منها، ونصلح.

الإرادة الخامسة: الدعوة إلى السبيل وإبعاد الناس عن قرناء سوء

يريدنا - بعد أن ننجو بأنفسنا - أن ننقذ غيرنا. أن نكون دعاة إلى السبيل تقربهم إليه، لا شياطين نصدهم عنه. وأن نحذر الناس من قرناء سوء بكل صورهم.

المحور الثامن

تحويل مفاهيم الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

لكي تتحول هذه الآيات من مجرد كلمات نتلوها إلى طاقة فاعلة في بناء الذات والمجتمع والحضارة، فلا بد من تفعيلها في ثلاثة مسارات رئيسية:

المسار الأول: بناء الإنسان المثقن لعلاقاته، المسؤول عن اختياراته

الآيات تبني إنساناً يعي خطورة قرناء سوء، فينتقي صحبته بعناية. إنساناً لا يبرر أخطائه بالظروف والأصدقاء، بل يحمل نفسه مسؤولية اختياراته. إنساناً دائم المراجعة لنفسه، لا يغتر بهدايته، بل يسأل الله الغبات. إنه إنسان يعيش في الدنيا بجسد، ولكن روحه معلقة بالآخرة.

التطبيق العملي:

• راجع قائمة أصدقائك اليوم.

• اسأل نفسك عن كل صديق: هل يذكرني بالله؟ هل يقربني من طاعة الله؟ أم يبعدني؟

• لا تتردد في ترك صديق السوء فوراً، قبل أن تصرخ غداً: {يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ}.

المسار الثاني: بناء المجتمع الواعي بآليات الضلال

الآيات تمدنا بفهم دقيق لكيفية انتشار الضلال في المجتمعات: إعراض عن الذكر، ثم تقييض الشياطين، ثم الصد عن السبيل، ثم وهم الاهتداء. المجتمع الواعي بهذه الآليات سيحاربها من جذورها. سيحرص على إشاعة الذكر في كل مكان (المساجد، البيوت، وسائل الإعلام). سيحمي أفرادها من "قرناء السوء" من خلال التوعية و التربية. سيشتيع ثقافة "محاسبة النفس" بدلا من ثقافة "التبرير".

التطبيق العملي:

• كن داعية ذكر في مجتمعك.

• شارك في نشر ثقافة "اختيار الصديق" بين الشباب.

• حارب ثقافة التبرير في محيطك.

المسار الثالث: بناء الحضارة الإسلامية التي لا تغتر باهتدائها المزعوم

الحضارة الإسلامية الحققة لا تحسب أنها مهتدية بمجرد انتسابها للإسلام، بل تديم سؤال الله الهداية، وتراجع مسارها باستمرار. إنها حضارة تبني إنجازاتها على أساس من التقوى والذكر، لا على الغرور والادعاء. إنها حضارة تستحضر الآخرة في كل تخطيطاتها، فتعمر الدنيا بالعدل، استعداداً للقاء الله.

التطبيق العملي:

• شارك في المشاريع التي تذكر الأمة بدورها الحضاري القائم على الذكر والتقوى.

• ناقش مع المثقفين خطر "وهم الاهتداء الحضاري" الذي تعاني منه الحضارة المعاصرة.

• أزرع في الجيل الصاعد أن الحضارة الحققة هي التي تقوم على: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}.

خاتمة: قريبك... أهو مطية إلى الجنة أم قائد إلى النار؟

أيها القارئ الكريم...

لقد أبحرنا معاً في هذه الآيات الثلاث التي تكمل بناء السورة العظيم. بدأنا من مشهد الصد عن السبيل، ومررنا على صرخة الحسرة: {يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ}، وانتهينا إلى القضاء الإلهي النهائي: {وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ}.

والآن أسألك - وأنت الذي عرفت هذا كله - أسئلة أخيرة:

- من هو قريبك؟ من هو صاحبك الأقرب؟ أهو رجل صالح يقربك من السبيل، أم هو شيطان مقيض يصدك عنه؟
- هل تراجع نفسك دائماً خشية أن تكون - والعباذ بالله - ممن يحسبون أنهم مهتدون وهم في الضلال؟
- هل تعيش اليوم مستحضراً مشهد القدوم على الله، حين يلتقي القراء ويتبرأ بعضهم من بعض؟
- هل علمت أبناءك وبناتك هذه المعاني العظيمة في زمن كثرت فيه قرناء السوء الافتراضيون والحقيقيون؟

أجب عن هذه الأسئلة بصدق مع نفسك... وانظر فيمن حولك. فإن كان فيهم من يصدك عن سبيل الله، فاهجره قبل يوم لا ينفع فيه الندم. وإن كنت في صحبة صالحة، فاحمد الله، واثبت، وادع غيرك إليها.

القسم الثالث

المبحث الأول

ها هو تفسير الآية (40) من سورة الزخرف

تقدمة لا بد منها: موقع الآية من السياق ومن جدلية الهداية والإعراض

قف معي - يا رعاك الله - وقفة من أيقن أن كتاب الله نسيج واحد، يشد بعضه بعضاً. لقد خضنا في الآيات السابقة (36-39) في مشاهد الإعراض والقرين: كيف يُقَيِّضُ للمعرض شيطان، وكيف يصدّه عن السبيل وهو يحسب أنه مهتدي، وكيف يلتقيان يوم القيامة وتكون الحسرة والندامة. مشاهد مرعبة تخلخل القلب.

وهنا... بعد هذا المشهد الطويل عن المعرضين ومصيرهم... يأتي خطاب الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم - وهو الذي يذوب قلبه حزناً على قومه، ويود لو اهتدوا جميعاً - يأتي هذا الخطاب تسليّة له، وتقريراً لحقيقة غيبية، وتحريراً له من عبء نفسي ثقل: {أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمْ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}.

إنها آية تفيض رحمة بالنبي صلى الله عليه وسلم، وترسم حدود المسؤولية. لقد كان صلى الله عليه وسلم يكاد يخضع نفسه ألا يكونوا مؤمنين، وكأنه يحمل في داخله شعوراً بأنه لو بذل جهداً أكثر لاهتدوا. فتأتي هذه الآية كبلسم على قلبه الشريف: "لست مسؤولاً" عن هدايتهم. هذه أعين عميت، وهذه أذان صُمّت عن الحق باختيارها. أنت رسول، والهداية بيد الله وحده".

وفي الوقت ذاته... هي تحذير لنا نحن. إنها تفتح أعيننا على حقيقة: أن استمرار الإنسان في الإعراض يحوله إلى أصم حقيقي لا يسمع، وأعمى حقيقي لا يبصر. إنه ليس عجزًا خلقيًا، بل عقوبة إلهية لإعراضه المتكرر.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآية ومقاصدها وأهدافها

دعني الآن – أيها القارئ الكريم – أضع أمامك الأفكار المركزية النابضة في هذه الآية الكريمة. تأملها بعين البصيرة.

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآية الكريمة:

1. تقرير حقيقة أن الهداية ملك لله وحده: ليست للنبي ولا لأي داعية، بل هي إرادة الله.
2. تسلية النبي صلى الله عليه وسلم: تخفيف حزنه على عدم إيمان قومه.
3. وصف المعرضين بأوصاف حسية تعكس حقيقة حالتهم القلبية: الصمم والعمى والضلal.
4. العلاقة بين الإعراض المتكرر وفقدان القدرة على السمع والبصر: العقوبة من جنس العمل.
5. الاستفهام الإنكاري: {أفأنت} فيه تأكيد على أن هذا غير ممكن لأحد إلا الله.

مقاصد الآية وأهدافها:

1. تثبيت قلب الداعية حين لا يرى استجابة، وتذكيره بأن مهمته البلاغ لا النتائج.
2. تحرير المصلحين من وهم "المسيح المخلص" الذي يظن أنه قادر على تغيير الناس جميعًا.
3. إيقاظ الناس من غفلتهم قبل أن يصلوا إلى مرحلة الصمم والعمى القلبي.
4. ترسيخ عقيدة الإيمان بالقدر في باب الهداية.
5. الدعوة إلى التوازن النفسي للدعاة والمربين.

المحور الأول

{أفأنت تسمعُ الصمّ}

حين تتعطل آلة السمع... الهمزة والخطاب والتشبيه

غوص في معنى الاستفهام: {أأنت؟}

دعني أقف بك عند هذه الهمزة والفاء والضمير: {أأنت؟}.

الهمزة: للاستفهام الإنكاري، أي أنكاري واستبعادي. إنه يقول: "أليس الأمر كذلك؟ إذاً فهل أنت...؟". إنه ينفي بطريقة الاستفهام.

والفاء: للترتيب والتفريع على ما سبق. فبعد أن ذكر أنواع المعرضين وأحوالهم، جاء هذا الاستفهام مترتباً عليه. "إذا كان الأمر كما ذكرنا، فهل أنت...؟".

و{أنت؟}: خطاب مباشر للنبي صلى الله عليه وسلم. وفيه خصوصية: إنه يخاطب أحب الخلق إليه، وأقربهم إليه، ليقول له: "حتى أنت يا محمد لا تستطيع!". إنها طريقة في غاية اللطف والرحمة، تريح قلبه الشريف من ثقل المسؤولية.

مثال تقريبي:

تخيل مديرًا يحاسب موظفًا على عدم تحقيق مبيعات، ثم يأتيه تقرير يكشف أن السوق كله معطل، وأن أحدًا لم يبع شيئًا. فيقول له: "وهل أنت تستطيع أن تباع في سوق معطل؟!". هنا لا يلومه، بل يرفع عنه اللوم. هذا هو معنى الآية بالضبط.

{تسمع؟}: الفعل المنفي ضمناً... لا السمع بل الإسماع

تأمل الفعل: {تسمع؟}. "أسمعه" أي جعله يسمع ويفهم ويعي. ليس المقصود مجرد إيصال الصوت، بل إيصال المعنى مع الفهم والانتفاع. فأنت يا محمد تبلغهم، وتوصل إليهم الصوت، وتقرأ عليهم القرآن، لكنهم لا يسمعون سمع قبول وانتفاع. فهل تستطيع أنت أن تجعلهم يسمعون سمع هداية؟!

إنه فرق دقيق بين "السمع" و"الإسماع". السماع هو البلاغ، وهذا قدرة للرسول. أما الإسماع فهو خلق الهداية في القلب، وهذا لا يقدر عليه إلا الله.

مثال تقريبي:

تخيل أبًا يحدث ابنه المراهق عن مخاطر التدخين. الأب يتكلم، والصوت يصل، ولكن الابن لا "يسمع" بمعنى

يقتنع ويتغير. الابن يهز رأسه فقط لينتهي النقاش. هنا الأب بلغ وأسمع الصوت، لكن الله وحده هو الذي يجعل هذا الكلام يدخل القلب فيثمر هداية. الأب دوره البلاغ، أما الهداية فبيد الله.

{الصُم}: التشبيه البليغ... من صمم الأذن إلى صمم القلب

"الصم": جمع أصم، وهو من لا يسمع. ولكن المقصود هنا ليس صمم الأذن الحسي، بل الصمم المعنوي. إنهم صم عن سماع الحق، صم عن قبول الهدى، صم عن الانتفاع بالموعظة.

ووصفهم بالصمم مع أنهم يسمعون بأذانهم... هذا تشبيه بليغ يلحقهم بالصمم حقيقة، لأن سمع الأذن بغير انتفاع كالعدم. {صُمُّكُمْ عَمِيَ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}.

مثال تقريبي:

رأيت رجلاً في محاضرة دينية، جالساً طوال الوقت، وكل شيء حوله واضح، ولكنه مشغول بهاتفه يتصفح مواقع التواصل. بعد المحاضرة سألته: "ماذا فهمت؟" قال: "لم أسمع شيئاً". هو هنا لم يكن أصم حسيًا، لكنه كان أصم باختياريه. هذا هو حال من أعرض عن الحق، صمم اختياري يتحول إلى صمم حقيقي في القلب.

المحور الثاني

{أو تهدي العمي}

الانتقال من السمع إلى البصر... وصف ثانٍ للمعرضين

{أو}: التنويع وليس التخيير

تأمل {أو}. هنا ليست للتخيير، بل للتنويع. أي: "أفأنت تسمع الصم، أو تهدي العمي؟". فالمعرضون بعضهم كالصم، وبعضهم كالعمي، وبعضهم جمعوا بين الصفتين. إنها أوصاف متنوعة لهم.

{تهدي}: أعمق من الإسماع... إنها قيادة الروح إلى بر الأمان

"الهداية" أبلغ من "الإسماع". الإسماع قد يكون مجرد دخول الكلام إلى الأذن. أما الهداية فهي قيادة الشخص وسوقه إلى الوجهة الصحيحة. أن تهدي إنساناً يعني أن تمسك بيده وتوصله إلى الطريق الصحيح، بل وتضمن سيره فيه حتى النهاية.

فالآية تنتقل من مجرد الإسماع إلى الهداية الكاملة. تقول للنبي: "أنت لا تستطيع أن تجعلهم يسمعون، فكيف تهديهم هداية كاملة؟!".

مثال تقريبي:

تخيل راعي غنم يريد أن ينقل قطيعه من وادٍ إلى آخر. هو يصيح بهم، ويشير بالعصا، ويفعل كل شيء. لكن الغنم لا تتحرك. هنا يقول له آخر: "هل تستطيع أن تسمعهم صوتك؟ ربما يسمعون ولا يطيعون. فكيف تجعلهم يتبعونك ويصلون إلى الوادي الجديد؟!". هذا هو الفرق بين الإسماع والهداية. النبي صلى الله عليه وسلم أسمع قومه، بل وأكثر، لكن الهداية التي توصل إلى الجنة... هذه بيد الله وحده.

{العمى}: الصورة الحسية للعمى القلبي

"العمى": جمع أعمى، وهو من لا يبصر. والمقصود هنا: العمى المعنوي، عمى القلب والبصيرة. إنهم لا يرون الحق، ولا يدركون الأدلة، ولا يبصرون آيات الله في الأنفس والأفاق.

ووصفهم بـ "العمى" مع أن أعينهم مفتوحة... هو أبلغ وصف لانغلاق بصيرتهم. إنهم يرون الشمس والقمر والأرض والجبال، ولكنهم لا يرون الخالق. يرون المصائب ولكنهم لا يرون الحكمة. يرون الآيات ولكنهم لا يرون دلائلها.

مثال تقريبي:

شخص يدخل متحمًا فيه لوحات بديعة، ويقف أمام لوحة فنية رائعة، ولكنه ينظر فقط إلى الإطار والزجاج، ولا يرى اللوحة نفسها! فتقول له: "هل أنت أعمى؟!" وهو ليس أعمى حسيًا، لكنه لا يبصر الجمال. هذا هو حال الكافر، يرى الكون كله ولا يبصر خالقه. {وَكَايُنَ مَنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ}.

المحور الثالث

{وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}

الوصف الجامع: التيه في وادٍ لا معالم له

{وَمَنْ}: إضافة فئة ثالثة أو وصف جامع

تأمل {وَمَنْ}. الواو للعطف، و"من" اسم موصول بمعنى "الذي". المعنى: أفأنت تسمع الصم، أو تهدي العمي، أو تهدي من كان في ضلال مبين؟! فهذه فئة ثالثة، أو وصف جامع للفئتين السابقتين.

{في ضلال}: صورة التيه والغرق في الظلام

"الضلال": هو التيه والضياع. "في ضلال" أي غارق في الضلال، محاط به من كل جهة. استعمال "في" الظرفية هنا بليغ، كأن الضلال بحر وهو غريق فيه، أو غابة وهو تائه فيها.

مثال تقريبي:

تخيل رجلاً في صحراء واسعة، في ليلة شديدة الظلمة، لا يدري أين الشمال وأين الجنوب، ولا يملك بوصلة ولا خريطة، ومعه هاتف لكن لا إشارة. هذا هو "الضلال". وهنا يأتي السؤال: "هل تستطيع أنت أن تهدي هذا الرجل وأنت بعيد عنه لا تستطيع الوصول إليه؟!". هذا هو المعنى: أنت يا محمد لا تستطيع أن تخرجهم من هذا التيه، لأنهم اختاروا التيه، وأغلقوا على أنفسهم. الهداية تحتاج أن يمدوا أيديهم أولاً.

{مبين}: وصف الضلال... إنه ضلال واضح لا شبهة فيه

"مبين": أي واضح ظاهر بَيِّن. فهو ضلال واضح لا خفاء فيه، لم يقع فيه صاحبه عن شبهة معذورة، بل هو إعراض متعمد عن الحق الواضح.

تأمل: قد يكون في الضلال الخفي بعض العذر، لكن هذا الضلال "مبين". إنهم يرون الحق ويعرفونه، ومع ذلك يرفضونه. فهؤلاء أبعد ما يكونون عن الهداية. فكيف تهديهم يا محمد؟!

مثال تقريبي:

تخيل طالباً أمامه كتاب مفتوح وفيه الإجابات كلها، والسؤال مكتوب: "ما عاصمة مصر؟" وهو ينظر إلى الصفحة ويرى الجواب (القاهرة)، ثم يكتب في ورقة الإجابة: "الخرطوم"! هذا ليس خطأ ناتجاً عن جهل، بل عن عناد أو استهتار. هذا هو "الضلال المبين": ضلال مع وضوح الحق وقيام الأدلة.

المحور الرابع

تسليية النبي صلى الله عليه وسلم... وراحة للدعاة والمربين إلى يوم الدين

هذه الآية نزلت تسلياً لقلب النبي صلى الله عليه وسلم. لقد كان يحمل همًا عظيمًا لإيمان قومه، حتى كاد يقتله الحزن: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ مُّقَصِّدٌ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا}. فجاء هذا الخطاب القرآني يمسح على قلبه، ويقول له: "أرح نفسك يا محمد. إن مهمتك البلاغ، لا الهداية. هدايتهم بيد الله وحده".

وفي هذا تسلياً لكل داعية، ولكل أب، ولكل معلم، ولكل مربٍ، ولكل مصلح إلى يوم الدين. كم من أب بكى الليالي حزناً على ابنه! وكم من داعية أرهاق نفسه وهو يرى المدعوين يعرضون! هذه الآية بلسم: أنت لا تملك القلوب، إنما تملك البلاغ. والذي يملك القلوب هو الله.

مثال تقريبي:

معلمة في مدرسة، تحاول جاهدة أن توصل المعلومة لطالب كسول لا يبالي. تعطيه دروساً إضافية، تكلمه على انفراد، تتصل بأهله. لكنه لا يتغير. تحزن وتلوم نفسها. هنا نقول لها: "هل تسمعين الصم؟ هل تهدين العمي؟ افعلي ما عليك، ودعي النتائج على الله". هذا ليس تبريراً للتقصير، بل هو ضبط للمسؤولية، يمنع الانهيار النفسي للمصلحين.

المحور الخامس

الأبعاد والآفاق من الآية: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد الأول: البعد العقدي – توحيد الله في الهداية

الآية ترسخ عقيدة أن الهداية بيد الله وحده. هذا التوحيد العملي يجعل المؤمن لا يتعلق قلبه بالأسباب، بل يعلق قلبه بالله. يبذل الأسباب (الدعوة، التربية، البلاغ) ثم يفوض النتائج لله. {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}.

البعد الثاني: البعد النفسي – راحة الدعاة من وهم المسؤولية المطلقة

الآية تمنح الدعاة راحة نفسية عميقة، وتحررهم من عقدة الشعور بالذنب حين لا يستجيب المدعوون. هذا لا يعني ترك الدعوة، بل يعني ترك التعلق بالنتائج.

البعد الثالث: البعد التربوي – فهم مراحل انغلاق القلب

الآية تكشف عن قانون تربوي: حين يصر الإنسان على الإعراض، ينتقل من مجرد "عدم سماع" إلى "صمم"، ومن "عدم رؤية" إلى "عمى". هذا التدرج مهم للمربي: تنبه له كي لا يصل المتربي إلى هذه المرحلة.

البعد الرابع: البعد الدعوي – لا تحكم على نفسك بالفشل

الداعية الذي يظن أنه فاشل لأن الناس لا تستجيب له، هو في وهم. البلاغ نجاح بحد ذاته. نوح عليه السلام

لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، فما آمن معه إلا قليل، ولم يكن فاشلاً ، بل كان ناجحًا في البلاغ.

البعد الخامس: البعد الحضاري - خطورة وصول الأمة إلى مرحلة "الصمم والعمى الجماعي"

حين تصل أمة كاملة إلى حالة الصمم والعمى عن الحق، فهي على وشك الهلاك. القرآن يصف أقوامًا سابقة بهذه الأوصاف قبل دمارهم. فعلينا أن نحذر أن نصل إلى هذه الحالة كأمة.

المحور السادس

ما تدعوننا إليه الآية في الواقع المعاصر

أولاً : تحرير الدعاة والمربين من الضغط النفسي

في عصر الماديات والإحصائيات، صار الدعاة والمربون يقيسون نجاحهم بعدد المستجيبين. الآية تقول: ليس هذا مقياسك! أنت لست مسؤولاً عن النتائج. هذا يعطي الدعاة حرية نفسية للإبداع في البلاغ دون خوف من "الفشل" الإحصائي.

مثال تقريبي:

صانع محتوى إسلامي على يوتيوب يشعر بالإحباط لأن مقاطعه لا تحقق مشاهدات عالية، بينما مقاطع تافهة تحقق ملايين المشاهدات. نقول له: "هل أنت تسمع الصم؟! مهمتك البلاغ والإتقان، أما الهداية والقبول فبيد الله". هذا يحرره من عبودية الإحصاءات.

ثانيًا: التعامل مع الأبناء والطلاب المعرضين

بدلاً من أن يحطم الآباء والمعلمون أنفسهم على صخرة عناد الأبناء، ليتذكروا هذه الآية. ليبدلوا الأسباب (دعاء، قدوة، حوار، صبر)، ثم ليفوضوا الأمر لله. هذا لا يعني الاستسلام، بل يعني الراحة النفسية أثناء بذل المجهود.

مثال تقريبي:

أب لديه ابن مراهق عنيد، يرفض الصلاة مهما نصحه. الأب يصلي بخشوع أمامه، ويدعو له في السجود، ويتحدث معه بلطف عن الله، ويصبر. لكن الابن لا يتغير. هنا نقول للأب: "دورك البلاغ والتربية والقدوة، فافعلها. أما الهداية فبيد الله. لا تدمر نفسك، واستمر".

ثالثًا: التعامل مع الهجوم على الإسلام والمسلمين

حين نرى إعلامًا يهاجم الإسلام، وناسًا يصدقونه ويروجون له، قد نشعر بالغضب والعجز. الآية تذكرنا بأن هؤلاء

اء {صُمْ بِكُمْ عُمْيٌ}، وأن الله هو الذي سيتولى الحساب. فعلينا بالبلاغ، لا بالانتصار.

مثال تقريبي:

حين تتابع تعليقات مسيئة عن الإسلام في فيسبوك، وتريد أن ترد على كل واحد، وتدخل في جدالات لا تنتهي، تذكر هذه الآية. "هل تسمع الصم؟". اختر مواضعك بحكمة، ولا تظن أنك ستهدي الجميع.

المحور السابع

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

المفهوم الفكري: حدود قدرة البشر وشمول قدرة الله

الآية تؤسس مفهوماً فكرياً واضحاً: هناك أمور في قدرة البشر (البلاغ، التعليم، النصح)، وأمور في قدرة الله وحده (الهداية، شرح الصدر، تغيير القلوب). الخلط بينهما يوقع في الكفر (بالقدر) أو في الإحباط (النفسي).

مثال تقريبي:

الطبيب يعالج المريض ويعطيه الدواء، لكن الشفاء بيد الله. لو ظن الطبيب أنه هو الذي يشفي، فهذا كفر. ولو أصيب بالإحباط لأن مريضاً لم يشف رغم علاجه، فهذا جهل بحقيقة قدرته. المعلم والداعية مثل الطبيب تماماً.

المفهوم النفسي: التحرر من عقدة "المسيح المخلص"

كثير من الدعاة والمربين يحملون في داخلهم شعوراً بأنهم "المسيح المخلص" الذي يجب أن ينقذ الجميع. هذه العقدة تدمرهم نفسياً. الآية تحررهم منها، وتذكرهم بأن المسيح المخلص الحقيقي هو الله وحده.

مثال تقريبي:

أم تشعر بالذنب لأن ابنها لم يصبح حافظاً للقرآن رغم أنها حاولت معه. هي تفعل ما بوسعها، لكن النتيجة بيد الله. شعورها بالذنب هنا غير صحي، وهو ناتج عن عقدة المسيح المخلص. لتريح نفسها بالآية.

المفهوم التربوي: الإعراض المتكرر يؤدي إلى العمى والصمم

هذا مفهوم تربوي خطير: حين يصر الإنسان على الإعراض، فإن قدرته على السمع والبصر المعنويين تضمحل تدريجياً حتى ينطبق عليه وصف "الصم" و"العمي" حقيقة. هذا تحذير للمربين من ترك المتربي يفرق في إعراضه دون محاولة إنقاذ مبكرة.

مثال تقريبي:

طفل صغير اعتاد أن يغلق أذنيه بيديه حين تنصحه أمه، ويقول: "لا أسمعك! لا أسمعك!". في البداية كان يمزح ، لكنه مع الوقت أصبح لا يسمع النصيحة حقًا، قلبه أصبح صلبًا. هذا هو التحول من الصمم المؤقت إلى الصمم الدائم. انتبه لهذا في أبنائك.

المفهوم الاجتماعي: مسؤولية الأمة في البلاغ دون إكراه

الأمة مسؤولة عن البلاغ، لا عن الإكراه. {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}. هذا المفهوم من الآية يبني مجتمعًا يقوم على الإقناع لا الإكراه، وعلى احترام حرية الإنسان.

مثال تقريبي:

دولة إسلامية تمنع الخمر، لكن ليس من مهمتها أن تدخل قلوب الناس فتجبرهم على حب الصلاة. هي تمنع الفساد العلني وتبلغ بالدين، أما القلوب فإلى الله. هذا يجعل الدولة متوازنة بين الأمر بالمعروف واحترام حرية الضمير.

المحور الثامن

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآية؟

الإرادة الأولى: الراحة النفسية للدعاة والمربين

الله يريد منا أن نستريح. أن نؤدي ما علينا بلا قلق مرَضِي على النتائج. أن نوقن أن الهداية بيده، وأننا لسنا إلا أسبابًا.

الإرادة الثانية: التوحيد العملي لله في باب الهداية

يريدنا ألا نعتمد على حولنا وقوتنا، بل نعتمد عليه وحده. ندعوه أن يهدي من نحب، ولا نظن أننا بهدينا من نحب. {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}.

الإرادة الثالثة: الخوف من بلوغ مرحلة الصمم والعمى

يريدنا أن نخاف على أنفسنا من أن نصل – بإعراضنا المتكرر – إلى أن نكون من الصم والعمى. هذه الخشية تجعلنا نسارع إلى قبول الحق كلما سمعناه.

الإرادة الرابعة: البلاغ بلا يأس

يريدنا أن نبليغ الدعوة، ونصبر، ولا نياس أبدًا، مهما طال الزمن وقل المستجيبون. {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ

عليهم بمصيطر}.

الإرادة الخامسة: التوازن بين الشفقة على الخلق والرضا بقدر الله

يريدنا أن نرحم الضالين ونشفق عليهم وندعوهم، ولكن في نفس الوقت أن نرضى بقدر الله فيهم، فلا نحزن حزناً يقتلنا.

المحور التاسع

تحويل مفاهيم الآية إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

لكي تتحول هذه الآية من مجرد آية نتلوها إلى طاقة فاعلة، فلا بد من تفعيلها في ثلاثة مسارات:

المسار الأول: بناء الإنسان المتوكل، الباذغ للأسباب، المفوض للنتائج

الآية تبني إنساناً يعرف حدوده: هو يبذل الأسباب بكل طاقته (يتعلم البلاغ، يتقن التربية، يطور أدواته)، لكنه لا يتعلق قلبه بالنتائج. إنه إنسان متحرر نفسياً، لا يدمره الفشل الإحصائي، ولا يغتره النجاح العددي.

التطبيق العملي:

• كلما دعوت أحداً، ارفع يديك إلى الله وقل: "اللهم هذه بضاعتي المزجاة، وهذا جهدي، والهداية منك وحدك".
• استخدم الجهد الذي تبذله لابنك العاق كمادة للتقرب إلى الله (صبر، دعاء، قدوة)، ولا تجعله مصدراً لتعاستك إن لم يهتد.

• مثال تقريبي: معلمة قرآن تعبت مع طالباتها. طالبة واحدة حفظت، والباقيات لم يحفظن. لا تقولي: "أنا فاشلة"، بل قولي: "الحمد لله، هذه طالبة هداها الله. وسأستمر مع الباقيات".

المسار الثاني: بناء المجتمع الداعي بالحكمة، المتوازن بين الشفقة والرضا

الآية تبني مجتمعاً يفيض رحمة بالخلق، فيدعوهم إلى الله بالحسنى، ولا يكرههم، ولا يحزن عليهم حزناً معطلاً. مجتمعاً يبذل الدعوة، وفي نفس الوقت يرضى بقدر الله فيمن أبى.

التطبيق العملي:

• نادر في مجتمعك بأن مهمة المساجد والمراكز الإسلامية هي البلاغ والإتاحة، لا تحصيل النتائج.

- علم الشباب الدعاة أن عدم استجابة الناس ليس دليلاً على فشلهم، بل هو واقع أخبر عنه القرآن.
- مثال تقريبي: مركز إسلامي في حي غير مسلم، يدعو الناس ويعرض الإسلام، ولا يدخل في العام إلا شخص واحد. المركز ناجح وليس فاشلاً، لأنه بلغ.

المسار الثالث: بناء الحضارة التي تزكي النفوس بالبلاغ، ولا تقوم على الإكراه

الآية تقوم عليها حضارة راقية: تحترم عقل الإنسان واختياره، تبلغه بالحكمة والموعظة الحسنة، وتترك له حرية الاختيار. لا تقوم هذه الحضارة على إرهاب الفكر ولا على الإكراه، بل على الإقناع.

التطبيق العملي:

- انشر ثقافة: "نحن نتيح لك الخير، ونحب لك الهداية، ولكنك حر".
- في تربية الأبناء: "أنا أرييك وأدلك على الخير، لكن القرار الأخير لك إذا كبرت، وأنت المسؤول عنه أمام الله".
- مثال تقريبي: أب يعطي ابنه هاتفًا ويقول: "هذا هاتف، تستطيع أن تستخدمه في الخير أو الشر. أنا علمتك، وبيت لك، راقبتك في صغرك، والآن أنت كبير. أنت حر، والله يراك".
- خاتمة: هل أنت من الصم والعمي؟ أم أنت ممن يسمعون ويبصرون؟
- أيها القارئ الكريم...

لقد جلسنا مع هذه الآية العظيمة، التي بدأت باستفهام إنكاري: {أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}، واكتشفنا فيها معاني تسليية النبي، وراحة الدعاة، وقانون الصمم والعمى، وحدود المسؤولية.

والآن... أسألك أنت نفسك بصدق، لا تسأل غيرك:

- هل أنت من الذين يسمعون الحق وينتفعون به، أم أنك بدأت تدخل في مرحلة "الصمم" مع كثرة الإعراض؟
- هل أنت من الذين يبصرون آيات الله في الكون والقرآن، أم أن بصيرتك بدأت "تعمى"؟
- هل تعيش مستريحاً نفسياً، تبذل البلاغ وتفوض النتائج لله؟ أم أنك معذب تحمل هم الدنيا كلها؟
- هل أنت مبصر لهذه الآية في حياتك؟ هل طبقتها في تعاملك مع أبنائك، ومع طلابك، ومع المدعويين من حولك؟

أجب عن هذه الأسئلة في صمتك... وانظر في نفسك قبل أن تنظر في غيرك.

المبحث الثاني

تفسير الآيتين (41-42) من سورة الزخرف، :

تقدمة لا بد منها: موقع الآيتين من السياق ومن منظومة التسلية والوعيد

قف معي - يا رعاك الله - وقفة من أدرك أن هذا القرآن العظيم ليس مجرد آيات متناثرة، بل هو كيان حي، روح متصلة، ينتقل بالنفوس من مقام إلى مقام، ليملاً القلب إيماناً و يقيناً.

لقد مررنا في الآيات الماضية بمشاهد متتابعة: حقيقة الدنيا (33-35)، الإعراض عن الذكر والقرين الشيطاني (36-39)، تقرير أن الهداية بيد الله وحده وتسليته لنبيه (40). لقد سمعنا قوله: {أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}، فرأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في موقف البلاغ، وقد حيل بينه وبين هداية من أحب.

هنا - عند هذا المشهد الوقفي - قد يثور سؤال في النفس، أو قد تلتفت مشاعر النبي الكريم وأصحابه رضي الله عنهم إلى شيء من الاستعجال: "يا رب، لقد أعرضوا، وقد بلغنا، وقد كذبوا وأصروا... فمتى تأخذهم؟ متى تنتقم؟ متى نرى فيهم وعدك؟".

وهنا... يأتي الجواب الإلهي المباشر، يأتي كالسيف القاطع، وكالبلمسم الشافي، في آيتين اثنتين فقط! إنهما يحم لان خيارين لا ثالث لهما، وفي كلا الخيارين جزاء واحد لا يتخلف: الانتقام من المكذبين. إنهما آيات تقول للنبي: "لا يهم أن ترى عذابهم أو لا تراهم. فإما أن نقبضك إلينا قبل أن نريك هذا العذاب، فإنا منتقمون منهم بعدك، وإما أن نريك هذا العذاب في حياتك، فإنا عليهم مقتدرون. في كلا الحالتين: العذاب آت، والنصر آت، وا لانتقام واقع. فطمئن قلبك، واسكن".

إنها آيات تطوي الزمان، وتختصر المسافات، وتجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق الحسابات الضيقة. إنها تقول له: "راحتك في ألا تكون عبداً للنتائج التي تراها بعينيك. لكنك عبد لله الذي لا يفوته ظالم".

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها

دعني - أيها القارئ الكريم - أوجز لك ما تنطوي عليه هاتان الآيتان الكريمتان من الأفكار العظام:

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيتان الكريمتان:

1. خياران إلهيان محتومان: إما قبض النبي قبل رؤية العذاب، وإما إراءته العذاب في حياتهم.

2. حتمية الانتقام من المكذبين في كلتا الحالتين: لا مفر لهم، والنتيجة واحدة.

3. تسلية النبي وتثبيته: لئلا يحزن إن لم ير العذاب في حياته، فالانتقام آت بعده.
4. إعلان صفة الانتقام الإلهي: {فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ} - انتقام عادل من الجبارين.
5. إعلان صفة الاقتدار الإلهي: {فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ} - قدرة تامة لا يعجزها شيء.
6. ربط قلب النبي والمؤمنين بالآخرة وقدر الله المطلق لا بما يحدث في أعمارهم المحدودة.

مقاصد الآيات وأهدافها:

1. طمأنة قلب النبي صلى الله عليه وسلم على مصير أعدائه ووعده بالنصر.
2. إشعاره بأن مهمته قد انتهت بالبلاغ، وأما الحساب فمفوض لله.
3. تحذير المكذابين بأن تأخير العذاب ليس عجزاً من الله، بل هو إمهال.
4. تثبيت المؤمنين وإذكاء ثقتهم بعدالة الله التي لا تغفل عن الظالمين.
5. تعليمنا نحن درس الصبر وعدم استعجال النتائج، وتفويض الحساب لله.

المحور الأول

{فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ}

الخيار الأول: القبض قبل الرؤية ... والانتقام بعدها

غوص في معنى {فَإِنَّمَا}: الشرط والتوكيد معاً

دعني أقف بك عند هذه الصيغة العجيبة: {فَإِنَّمَا}. إنها مركبة من حروف ثلاثة: "إن" الشرطية، و"ما" الزائدة للتوكيد، والفاء التي تربط الآية بما قبلها. فكان المعنى: "أما بعد ما تقدم، فإن قبضناك قبل أن نريك ما وعدناهم ، فاعلم أننا منتقمون منهم لا محالة".

وهذه الصيغة - {فَإِنَّمَا} - تحمل نبرة إلهية فريدة. كأنها تقول: "الأمر محسوم، فلا تشغل بالك بالتفاصيل". إنها تقفل باب السؤال عن "متى؟" وتفتح باب اليقين بـ "إن".

مثال تقريبي:

تخيل قاضياً يقول لرجل اشتكى من عصابة مؤذية: "إما أن تموت قبل أن ترى الحكم، فسنعدمهم بعدك. أو

تعيش حتى ترى تنفيذ الحكم. في الحالتين: العصابة ستعدم". بهذا يريح القاضي قلب الرجل من خوف ألا يرى العدالة.

{نَذْهَبَنَّ بِكَ}: القبض والوفاة... تعبير لطيف عن الموت

تأمل هذا التعبير: {نَذْهَبَنَّ بِكَ}. إنه تعبير لطيف عن الوفاة. "ذهب به" أي ذهب مصحوبًا، كأنه أخذ برفق إلى الله. إنها كناية قرآنية راقية عن الموت، توحى بالعناية والإكرام. أنت لست مجرد ميت، بل أنت "مذهوب بك" إلى الله.

"نذهبن" فيها نون التوكيد الثقيلة، مما يفيد التوكيد البليغ: هذا الذهاب حتمي، كائن لا محالة. كل نفس ذائقة الموت، وأنت يا محمد داخل في هذا القانون الإلهي.

مثال تقريبي:

رئيس يكرم موظفًا مخلصًا بنقله من فرع بعيد إلى الإدارة العامة القريبة من بيته. يقول له: "سنذهب بك إلى المركز". هنا "الذهاب به" ليس طردًا، بل إكرام. هذا تعبير الله لنبيه عند وفاته: إكرام برفقته سبحانه.

{فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ}: جواب الشرط... الانتقام الموعود

هذا هو الجواب: {فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ}. "إنا" بصيغة الجمع للعظمة. "منتقمون" بصيغة الجمع الاسمية التي تفيد الثبوت والاستمرار. فالله لم يقل: "فإننا سننتقم منهم" حتى لا يكون في المستقبل احتمال، بل قال: {مُنْتَقِمُونَ} أي أن الانتقام ثابت الآن وفي كل وقت. هم في قبضة المنتقم حتى لو تأخر الأجل.

الانتقام هنا ليس انتقام غضب، بل انتقام عدل. وهو موجه لمن؟ {لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ} (كما سبق). هم كفروا بالرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، فاستوجبوا الانتقام.

مثال تقريبي:

شرطي مرور يسجل مخالفات للسيارات المسرعة. السائقون يظنون أنهم أفلتوا لأن الشرطي لم يوقفهم في الحال. لكن المخالفة مسجلة، والغرامة ستصلهم إلى بيوتهم بعد شهر. الشرطي هنا "منتقم" منهم فعلا، حتى وإن تأخر الإشعار. هذا هو حال الكفار: الذنب مسجل، والمنتقم هو الله، والعذاب آت.

المحور الثاني

{أَوْ ثَرِيَّتَكَ الَّذِي وَعَدْتَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ}

الخيار الثاني: رؤية العذاب... والقدرة المطلقة

{أَوْ}: التنويع لا الشك

تأمل {أَوْ}. هي للتنويع، أي أحد الأمرين: إما القبض، وإما الإراءة. ليس فيها شك في وقوع أحدهما، ولا شك في قدرة الله على كليهما. بل كلا الأمرين واقع بأمر الله.

{ثَرِيَّتَكَ الَّذِي وَعَدْتَاهُمْ}: تحقيق الوعد أمام عينيه

{ثَرِيَّتَكَ} أي نجعلك ترى بأم عينك، لا إخبارًا ولا سماعًا، بل رؤية عيان. وفيها نون التوكيد الثقيلة: توكيد على وقوعها.

{الَّذِي وَعَدْتَاهُمْ} أي العذاب الذي وعدهم الله به. وقد تكرر في القرآن وصف العذاب بأنه "وعد": {وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا}. والله لا يخلف الميعاد. فما دام قد وعد، فالوعد واقع.

مثال تقريبي:

أم وعدت ابنها المشاغب بأنه إن لم يدرس سيعاقب عند عودة الأب. الأب يتأخر في العمل، والابن يظن أن العقاب نسي. لكن الأم تقول لأختها: "إما أن ينام الابن قبل أن يأتي أبوه، فسيعاقبه أبوه غدًا. وإما أن يأتي أبوه الآن، فيراه يعاقب". الابن لن يفلت في الحالتين. هذا هو معنى الآية تمامًا.

{إِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ}: أبلغ من "قادرين"

وهنا - يا رعاك الله - تصل الآية إلى ذروتها: {إِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ}.

"مقتدرون" أبلغ من "قادرين". صيغة "مقتدر" تفيد المبالغة والقدرة التامة الكاملة التي لا يعجزها شيء. و"عليهم" تفيد الاستعلاء: هم تحت القدرة، مهوون، لا يستطيعون هربًا ولا امتناعًا.

ففي الخيار الأول: {مُنتَقِمُونَ} - تأكيد على وقوع الفعل (الانتقام). وفي الخيار الثاني: {مُقْتَدِرُونَ} - تأكيد على صفة الاقتدار التي توجب الانتقام وتحققه. فاجتمع في الخيارين الوصف والفعل معاً.

مثال تقريبي:

تخيل أسداً جاثماً على فريسته. هو "قادر" عليها حين يقبض بمخلبه. لكنه "مقتدر" عليها حين تكون تحت قدميه وقد أحاط بها من كل جانب، لا تستطيع حراكاً. هذا هو الفرق بين قادر ومقتدر. الله ليس فقط قادراً على الانتقام، بل هو مقتدر: الكافرون تحت قدرته تماماً.

المحور الثالث

التكامل بين الآيتين: الانتقام والاقتدار - الفعل والصفة

دعني - يا رعاك الله - أقف بك على سر بديع في الجمع بين الآيتين.

في الآية الأولى: {فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ}. ذكر الله الفعل: الانتقام.

في الآية الثانية: {فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ}. ذكر الله الصفة: الاقتدار.

فكأنه يقول لنبیه:

• إن أنت متّ قبل أن ترى عذابهم، فلا تحزن، فإن انتقامنا واقع بهم، فثق بوقوع الفعل.
• وإن أنت عشت حتى ترى عذابهم، فستعلم حينها أن قدرتنا محيطّة بهم، فتيقن بالصفة التي أوجبت هذا الفعل.

وفي كلا الحالين: أنت مطمئن، وأعداؤك هالكون. أي طمأنة بعد هذه الطمأنة؟!

رسائل ودروس وتوجيهات من الآيتين:

الرسالة الفكرية: النتائج ليست محصورة في عمر الداعية

الآيتان تعلمان الدعاة أن النتائج ليست محصورة فيما يرونه في حياتهم. انتصار الحق قد يأتي بعد موت الداعية. فلا تيأس إن لم تر الثمرة في حياتك. {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} والباقي هو الله.

الرسالة النفسية: راحة البال من استعجال العقاب

كم من مؤمن يستعجل هلاك الظالمين! وكم من داعية يتألم لطول إمهالهم! الآية تقول: "لا تستعجل. أنت في أحد خيارين: إما أن تموت، وسنتقم منهم بعدك، وإما أن ترى ذلك في حياتك. فارح بالك".

الرسالة التربوية: علم أبنائك ألا يستعجلوا ثمرة الصواب

الأبناء يستعجلون النتائج: "أنا صادق، فلماذا فلان الكاذب ناجح؟". علمهم من هذه الآية أن العاقبة للمتقين، وأن الانتقام من الظالمين آت، ولكن في وقته. ليس بالضرورة أن يروه هم بأعينهم.

المحور الرابع

الأبعاد والآفاق من الآيات: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد الأول: البعد العقدي – الإيمان بحتمية الانتقام الإلهي

الآيات ترسخ عقيدة أن الله لا يهمل الظالمين، بل ينتقم منهم، ولو بعد حين. هذا ركن من أركان العدل الإلهي. {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}.

البعد الثاني: البعد التاريخي – سنة الله في الدعوات

الآيات تشير إلى سنة ماضية: أن الرسل يموتون، ثم ينتقم الله من مكذبيهم. نوح مات بعد ألف سنة إلا خمسين، ثم أغرق الله قومه. هود وصالح ماتا، ودمر الله عادًا وثمود. إنها سنة الله التي لا تتبدل.

البعد الثالث: البعد النفسي – تحرير الداعية من عقدة "رؤية النصر"

كثير من الدعاة يربطون نجاحهم برؤية النصر في حياتهم. فإن ماتوا قبل رؤيته، شعر من بعدهم بأنهم "فشلوا". الآية تحرر الدعاة من هذه العقدة. النجاح هو في البلاغ، لا في رؤية العذاب على المكذبين.

البعد الرابع: البعد المصيري – الآخرة هي ساحة العدالة المطلقة

الآيات تذكرنا أن الحياة الدنيا ليست ساحة العدالة الكاملة. العدالة الكاملة في الآخرة. فمن مات من المؤمنين قبل أن يرى نصرًا، فسيكمل الله له النصر هناك، وسيريه انتقامه من الظالمين.

البعد الخامس: البعد الإيماني – اليقين باسمي "المنتقم" و"المقتدر"

الآيات تعرفنا باسمين من أسماء الله وصفاته: "المنتقم" و"المقتدر". هذا يعمق في القلب خشية الله ومراقبته.

من يظلم ويعتدي، فليتذكر أن المنتقم المقتدر له بالمرصاد.

المحور الخامس

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً : الصبر في وجه المكذبين والمستهزئين

في عصر انتشر فيه التكذيب والاستهزاء بالدين وأهله، تريحنا هاتان الآيتان: "لا تحزن، ولا تستعجل. الانتقام آت. إما أن تموت أنت قبل أن تراه وتراه ذريتك، وإما أن تراه بعينيك. وعد الله حق".

مثال تقريبي:

ترى بعينيك أناساً يسخرون من الحجاب، ويسخرون من الصلاة، ويحاربون الدين بكل وسيلة، وهم في سعة من العيش. يضيق صدرك. هنا تأتي الآية: {فَإِذَا تَدَهَّيْنَا بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ}. فتهداً نفسك، وتوكل الأمر لله.

ثانياً: فهم حكمة إمهال الظالمين

في واقعنا المعاصر، نرى ظالمين كباراً يموتون دون عقاب ظاهر. الآية تفسر هذا: الانتقام لم يحدث في حياتهم، ولكنه سيحدث في الآخرة، وهذا أشد وأبقى.

مثال تقريبي:

طاغية قتل الملايين، ثم مات على فراشه دون محاكمة. نقول: أين الله من هذا؟! الآية تجيب: {فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ}. انتقام الآخرة أفظع، فاطمئن.

ثالثاً: العمل للدعوة دون اشتراط رؤية الثمرة

في عصر السرعة والنتائج الفورية، حيث يريد الناس أن يروا ثمرة عملهم فوراً، تأتي الآية لتعلمنا أن الثمرة قد تتأخر، وقد لا نراها نحن، وهذا لا ينقص من أجرنا شيئاً.

مثال تقريبي:

شاب متطوع في جمعية لتحفيظ القرآن في حي فقير. يعلم الأطفال، ويصبر على شقاوتهم، لكنه لا يرى أي طفل منهم يحفظ القرآن كاملاً. يحبط. نقول له: "أكمل أنت. ربما لن ترى أنت بأم عينك حافظاً كاملاً" منهم، لكن أجرك عند الله، والنتيجة التي لم ترها قد يراها غيرك، أو يراها الله في الآخرة ويكرمك بها".

المحور السادس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: لا تعليق لنتائج الحق على أعمار الأشخاص

الحق لا يقاس بأعمار البشر. أن تموت قبل أن ترى نصر الحق لا يعني أن الحق لم ينتصر. المعادلة الفكرية هنا: عمر النبي محدود، والانتقام الإلهي آت في موعده، سواء في حياته أو بعد موته. لا ربط شرطياً بينهما.

مثال تقريبي:

مهندس يزرع شجرة بلوط، ويعرف أن هذه الشجرة لا تثمر قبل 50 سنة. عمره هو 40 سنة، وقد لا يعيش ليراهما تثمر. لكنه يزرعها وهو سعيد، لأنه يعرف أنها ستثمر، وسيأكل الناس ثمرها، ويكون له أجرها. هذا هو فكر المؤمن.

المفهوم النفسي: التحرر من عقدة "الانتقام الشخصي"

الآية تعلمك ألا تجعل الانتقام لنفسك همًا يشغلك. لا تقل: "لابد أن أراهم بأمر عيني يعذبون". قد تموت قبل أن ترى، ولكن الانتقام سيقع. ركز أنت على مهمتك، ولا تشغل بالك بالنتائج التي ليست من شأنك.

مثال تقريبي:

شخص اعتدى على حقك، وأخذ مالك ظلماً. أنت رفعت أمرك للمحكمة. المحكمة أبطأت في الحكم. أنت خائف أن تموت قبل أن تسترد مالك. هنا تقول لك هذه الآية: "حتى لو مت قبل استرداده، فالله منتقم من الظالم، وسيرد لك حقك في الآخرة أضعافاً". هذا يريح قلبك من القلق.

المفهوم التربوي: التربية على طول النفس وترك النتائج لله

التربية على هذه الآية تنتج جيلاً لا يستعجل الثمار، ولا يحكم على الأعمال بنتائجها الفورية. جيل يفعل الصواب، ويدع النتائج على الله، واثقاً بالعدالة الإلهية.

مثال تقريبي:

أب يربي ابنه على الصلاة منذ الصغر. الابن يبلغ 18 سنة، ويترك الصلاة. الأب يحزن ويقول: "ضاع تعبي!". ليس صحيحاً. تعبك لم يضع. ربما تعود ابنك للصلاة بعد موتك، وربما لا تعود، ولكن أجرك عند الله محفوظ، وهذا الابن سيحاسب بين يدي الله. أنت قمت بواجبك، والباقي على الله.

المفهوم الاجتماعي: ثقة المجتمع بعدالة السماء

حين تنتشر هذه الآيات في مجتمع مؤمن، فإنها تبث فيه ثقة عظيمة بالعدالة السماوية. فلا يتحول المجتمع إلى مجتمع ثأر وانتقام شخصي، بل مجتمع مفوض لله، مطمئن إلى أن الحق سيأخذ مجراه.

المحور السابع

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: طمأنينة القلب بمصير الظالمين

الله يريد منا – بعد تلاوة هذه الآيات – أن يطمئن قلبنا. ألا نشك لحظة في أن الظالمين سيلقون جزاءهم. "أما أن للقلب أن يسكن؟ سيسكن حين يفوض لله".

الإرادة الثانية: الإيمان بأن الله لا يعجزه شيء

يريدنا أن نؤمن باسميه "المنتقم" و"المقتدر". أن نستشعر أنهما صفتان فعالتان، وأنه لا يفلت من عقابه أحد.

الإرادة الثالثة: العمل للإسلام دون قلق على النتائج

يريدنا أن ندفع في العمل للدين، ولا نربط حماسنا برؤية الثمار العاجلة. هو يريد منا البلاغ، وهو يتولى الانتقام.

الإرادة الرابعة: الشعور بالراحة النفسية للمظلومين

يريد الله لكل مظلوم أن يسمع هذه الآية فيهدأ. إن كنت مظلوماً، فالله يقول لك: "أنا منتقم من ظالمك، ومقتدر عليه. إن لم تر أنت الانتقام في حياتك، فراه غيرك، أو يراه الجميع يوم القيامة".

الإرادة الخامسة: تحذير الظالمين من الاغترار بالإمهال

وفي المقابل، يريد الله من الظالمين الذين يسمعون هذه الآية أن يرتعدوا. أن يعرفوا أن تأخير العذاب ليس عجزاً، بل هو إمهال واستدراج. {وَأْمُرْهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}.

المحور الثامن

تحويل مفاهيم الآيتين إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

المسار الأول: بناء الإنسان المطمئن، المفوض، الصابر

الآيتان تبنيان إنساناً مطمئناً القلب، لا يستعجل العقوبة لنفسه، ولا يربط نجاحه برؤية النتائج الفورية. إنساناً

يعمل ويصبر، مؤقتاً أن الله لن يضيع عمله، وأن الانتقام من الظالمين آت في موعده المحدد.

التطبيق العملي:

- كلما رأيت ظالماً يصول ويجول، قل في نفسك: {فإنا منهم مُنتَقِمُونَ}. وكلما ضاق صدرك من استهزاء ساخر، قل: {فإنا عليهم مُقْتَدِرُونَ}.
- توقف عن احتساب النتائج بالأيام. ازرع الخير، واترك الحصاد لله.
- مثال تقريبي: تكتب منشوراً تدافع فيه عن الإسلام، فلا ترى إلا تعليقات مستهزئة. تقول في نفسك: "أنا بلغت، والله منتقم، ولن أضيع وقتي في حرب تعليقات".

المسار الثاني: بناء المجتمع الواثق في عدالة الله، التارك للثأر

الآيتان تبنيان مجتمعاً لا يلهث وراء الثأر الشخصي، ولا يملؤه الغيظ من الظالمين إلى حد التدمير الذاتي. مجتمعاً يعمل للإصلاح، ويبلغ بالدعوة، ويفوز الحساب لله. هذا يغلق باب الفتن والثارات، ويفتح باب الصبر والبناء.

التطبيق العملي:

- في خلافات المجتمع، ذكر الناس بأن "المحكمة" العليا هي عند الله، فلنسامح ولنتسامح في حقوقنا الشخصية، ولنفوض حق الانتقام لله إن شئنا، فهو أرحم بنا وبهم.
- مثال تقريبي: قبيلتان بينهما ثأر قديم. يريد الشباب الانتقام بأيديهم. تقول لهم الآية: "اتركوا الانتقام لله. الله أحكم وأقدر. اشغلوا شبابكم ببناء مستقبلكم، لا بهدم حاضرهم".

المسار الثالث: بناء الحضارة العاملة، المتوازنة بين الجد والتفويض

الحضارة الإسلامية لا تقوم على التواكل بحجة تفويض الانتقام لله. ولا تقوم على حرق الأعصاب بحجة استعجال النصر. بل تقوم على الجد في العمل، وتفويض النتائج لله. إنها حضارة الداعية الذي يزرع الشجرة ولا يشترط أن يأكل ثمرها. هذا يعطي الحضارة استمرارية مذهلة، حيث يعمل كل جيل للجيل الذي بعده، وليس لنفسه فقط.

التطبيق العملي:

- زرع الأوقاف: الواقف يبني مسجداً أو مدرسة، ويعلم أنه سيموت قبل أن يرى كل ثمرتها، لكنه يثق أن الله

مقتدر على إيصال الثمرة وحفظها.

• مثال تقريبي: عالم مسلم يؤسس جامعة إسلامية. يموت قبل أن يتخرج أول فوج منها. لكن الجامعة تظل تعمل، وتخرج آلاف الطلاب. هنا تحقق معنى: {فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ} في صورة إيجابية: "إما أن نقبضك قبل أن ترى الثمرة، فإننا سنتمها من بعدك، وسيبقى أجرك جاريًا".

خاتمة: أين أنت من "المنتقم" و"المقتدر"؟

أيها القارئ الكريم...

لقد جلسنا مع هاتين الآيتين الجليلتين، وشربنا من معينهما السلوى واليقين. رأينا كيف طمأن الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأن الأمر كله بيده، وأن العاقبة لأوليائه، والهلاك لأعدائه، سواء رآها النبي في حياته أو بعد مماته.

والآن... أسألك - وأنت الذي تعيش في زمن كثر فيه الظلم والظالمون - أسئلة صدق:

• هل أنت ممن أحرقوا أعصابهم باستعجال الانتقام من كل ظالم، أم أنك فوضت الأمر للمنتقم المقتدر فارتحت ؟

• هل أنت ممن يربط نجاحهم برؤية الثمار، فيصيبهم الإحباط إن لم يروها، أم أنك تزرع ثقتك في وعد الله: {فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ} فتعمل ولا تبالي متى تكون الثمرة؟

• هل تشعر الآن - وأنت تقرأ هذه الأسطر - بشيء من السكينة، بعد أن علمت أن الظالمين لن يفوتوا الله أبدًا؟

• هل ستنتقل هذه الطمأنينة إلى قلب حزين، أو إلى داعية محبط، أو إلى مظلوم فقد الأمل؟

أجب عن هذه الأسئلة بصمت... ثم اصنع قرارًا.

المبحث الثالث

تفسير الآيتين (43-44) من سورة الزخرف،

تقدمة لا بد منها: موقع الآيتين من السياق ومن لحظة التثبيت بعد التسلية

قف معي - يا رعاك الله - وقفة من أيقن أن هذا القرآن العظيم حلقات ذهبية متصلة، تنتقل بالنفوس من مشهد إلى مشهد، لتبني في القلب يقيئًا راسخًا لا تزعه العواصف.

لقد مررنا في الآيات الماضية بمشاهد عظام: حقيقة الدنيا وزخرفها (33-35)، الإعراض عن الذكر وقربين الشيطان (36-39)، تقرير أن الهداية بيد الله وحده وتسليته لنبيه (40)، ثم طمأنته بأن الانتقام من المكذبين

آتٍ لا محالة، سواء رآه في حياته أو بعد مماته (41-42).

تأمل معي هذا المسار: النبي صلى الله عليه وسلم يواجه تكذيباً وإعراضاً، فيأتيه من ربه تسليّة وتثبيت، ويأتيه وعد بالانتقام من أعدائه. وهنا... بعد كل هذا... يأتي الأمر الإلهي المباشر، يأتي كالوصية الجامعة، كالخلاصة المركزة لكل ما سبق: {فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ}.

كأن الله يقول لنبيه: "يا محمد، لقد عرفت حقيقة الدنيا، وعرفت مصير المعرضين، وعرفت أن الهداية بيدي، وعرفت أنني منتقم من المكذبين... فماذا بقي؟ بقي أن تستمسك أنت بما أوحيت إليك. هذا هو طريق النجاة، وهذا هو الصراط المستقيم. فلا تلتفت، ولا تضعف، ولا تنشغل بما عندهم".

ثم يمتد الخطاب ليشمل النبي وأمنته معاً: هذا الذكر شرف لكم، وسوف تسألون عنه. إنها آيتان قصيرتان في المبنى، عظيमतان في المعنى، تجمعان التثبيت والتشريف والتحذير في آن واحد.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها

دعني – أيها القارئ الكريم – أوجز لك ما تنطوي عليه هاتان الآيتان من الأفكار العظام:

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيتان الكريمتان:

1. أمر إلهي مباشر بالاستمسك بالوحي: {فَاسْتَمْسِكْ} (أمر يفيد التمسك الشديد والقوي).
2. تحديد محل الاستمسك: {بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ} – القرآن والوحي المعصوم.
3. إشارة للنبي بأنه على الحق المطلق: {إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.
4. تشريف للنبي ولقومه بالقرآن: {وإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ} – القرآن رفعة وشرف.
5. إعلان المسؤولية والجزاء: {وَسَوْفَ تَسْأَلُونَ} – سؤال عن هذا الذكر، وهل قمتم بحقه؟

مقاصد الآيات وأهدافها:

1. تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وتوجيهه إلى مصدر الثبات الوحيد: الوحي.
2. طمأننته بأنه على الحق مهما كثر المكذبون والمعرضون.
3. إشعار قريش بشرف القرآن الذي جاءهم، وحثهم على الاهتمام به.

4. تحذير الجميع من التقصير في حق هذا الذكر، فالله سائلهم عنه.

5. تعليم المؤمنين أن الاستمسك بالقرآن هو حبل النجاة في كل زمان ومكان.

المحور الأول

{فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ}

الأمر الإلهي الجامع... الاستمسك الذي لا فكاك منه

غوص في معنى {فَاسْتَمْسِكْ}: الفاء وصيغة الاستفعال

دعني أقف بك عند هذه الكلمة العظيمة: {فَاسْتَمْسِكْ}.

الفاء هنا للتفريع والترتيب. إنها تقول: "بما أن الأمر كما سبق، وبما أن الدنيا متاع زائل، وبما أن المعرضين لهم قرناء شياطين، وبما أن الهداية بيد الله، وبما أن الانتقام من المكذبين آت... إذا فاستمسك أنت بما أوحى إليك".

أما كلمة "استمسك" فهي صيغة استفعال من "مسك". وصيغة الاستفعال هنا تفيد الطلب والمبالغة. فلا ستمسك ليس مجرد إمساك عادي، بل هو:

• إمساك بقوة وشدة: كمن يمسك بحبل النجاة في عاصفة هوجاء.

• طلب دوام الإمساك: أي لا تفلته أبداً.

• إمساك مع بذل الجهد: أي أنت مطالب بأن تبذل جهدك للتمسك به، واسأل الله الثبات.

إنها كلمة تفيض بالجد والاجتهاد واليقظة الدائمة. إنها تقول للنبي صلى الله عليه وسلم: "الدنيا تموج، والناس يضطربون، والمعرضون كثير، والكائدون كثر... وأنت واحد. فماذا تفعل؟ استمسك بالوحي!".

مثال تقريبي:

تخيل رجلاً " في سفينة تتقاذفها الأمواج في ليلة عاصفة. القبطان يصيح به: "استمسك بحبل النجاة!". هنا ليس وقت التأمل ولا السؤال، بل وقت الإمساك بكل قوة. هذا هو معنى {فَاسْتَمْسِكْ}. النبي في محيط من التكذيب والعداء، والله يأمره أن يمسك بالوحي كحبل النجاة الوحيد.

{بالذي أوحى إليك}: تعيين محل الاستمساك

الباء هنا للإصاق. أي ألصق نفسك بالذي أوحى إليك. لا تبتعد عنه، لا تنشغل بغيره.

{الذي أوحى إليك} هو القرآن الكريم. وصفه بـ "أوحى" يذكر بمصدره: إنه وحي من الله، ليس من عند محمد، وليس من كلام البشر. وفيه تعريض بأن ما عنده هو الحق، وما عند غيره هو الباطل. فاستمسك بالحق، ولا تلتفت للباطل.

و"إليك" خطاب خاص للنبي، وفيه تكريم له: أنت الذي اصطفاك الله لتلقي وحيه. وهذا الاصطفاء يستوجب منك الاستمساك الأشد.

مثال تقريبي:

طبيب عظيم يعطي تلميذه النجيب وصفة علاج لمرض معقد، ويقول له: "استمسك بهذه الوصفة، فهي خلاصة علمي وخبرتي. لا تلتفت لغيرها". التلميذ هنا يعرف قيمة ما في يده، فيتمسك به. هذا هو النبي مع الوحي: هو أعلم الناس بقيمته، فكان أحق الناس بالاستمساك به.

لماذا الأمر بالاستمساك بعد كل ما سبق؟ الربط العضوي

السر البديع هنا: لماذا جاء الأمر بـ "فاستمسك" بعد تلك الآيات عن الدنيا والإعراض والقرين والانتقام؟

الجواب: لأن الاستمساك بالوحي هو الضمان الوحيد لئلا تفتن بالدنيا (التي تحدثت عنها الآيات 33-35)، ولئلا تعرض عن الذكر فتقيض لك الشياطين (36-39)، ولئلا تصاب باليأس من إعراض الناس (40)، ولئلا تستعجل الانتقام (41-42).

فالاستمساك بالوحي هو الجواب الشافي لكل تلك التحديات! إنه المفتاح الذي يغلق كل أبواب الفتنة والخوف.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: الوحي هو حبل النجاة الوحيد

الآية تؤسس قاعدة كبرى: في زمن الفتن والاضطراب، وفي وجه التكذيب والإعراض، لا ملجأ ولا منجى إلا بالتمسك بالوحي. كل الحلول البشرية قاصرة، وكل البدائل واهية.

الرسالة النفسية: الثبات ليس شعورًا، بل قرار واستمساك

كثير من الناس ينتظر أن "يشعر" بالثبات. لكن الآية تعلمنا أن الثبات فعل إرادة: {فَاسْتَمْسِكْ}. تمسك حتى يأتي الثبات. أمسك الحبل بقوة، ولا تنتظر أن تهدأ العاصفة أولاً .

الرسالة التربوية: علم أبنائك الاستمساك بالقرآن منذ الصغر

لا تنتظر حتى يكبر أبنائك وتأتيهم الشبهات. علمهم الاستمساك بالقرآن منذ نعومة أظفارهم. علمهم أن يمسكوا به كحبل النجاة، في حفظه وتلاوته والعمل به، قبل أن تهب العواصف.

المحور الثاني

{إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}

البشارة العظمى في قلب الأمر... أنت على الحق المطلق

غوص في معنى الجملة: التأكيد والتشريف معًا

تأمل معي هذا التركيب: {إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.

{إِنْ}: للتوكيد. إنها تقطع الشك. ليس "ربما"، ولا "لعلك"، بل "إنك" أي أنت يقيئًا وحتماً.

{عَلَىٰ صِرَاطٍ}: "على" تفيد الاستعلاء والتمكن. فكأنه ليس مجرد سالك للطريق، بل هو متمكن منه، مستعل عليه، ثابت فيه.

{صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}: "صراط" هو الطريق الواضح الواسع. و"مستقيم" أي لا عوج فيه ولا التواء. إنه الطريق الموصل إلى الله، دين الإسلام، القرآن، الهدى.

فالمعنى: "إنك أيها النبي، رغم كل ما تسمع وترى، رغم التكذيب والإعراض، رغم إغواء الشياطين وصداهم... إنك على الحق اليقيني الذي لا يتزعزع. أنت على الصراط المستقيم، وما عداك على الضلال المبين".

مثال تقريبي:

تخيل مسافرًا في طريق صحراوي طويل، والناس من حوله يقولون له: "أنت ضائع! هذا الطريق لا يؤدي إلى شيء!". لكنه يحمل خريطة رسمية وبوصلة دقيقة تقول له: "أنت على الطريق الصحيح". فيطمئن. هذا هو حال النبي: الناس يقولون له أنت مخطئ، والله يقول له: {إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.

لماذا جاءت هذه الجملة في هذا الموضع؟ التثبيت في وجه التكذيب

لقد كذبه قومه، وقالوا عنه ساحر وشاعر ومجنون. وها هي الآية تأتي لتقول له: "لا يهم ما يقولون. الحكم الفصل من الله: أنك على صراط مستقيم. فاثبت ولا تبال".

وهي أيضًا بشارة: أن هذا الاستمسك بالوحي هو نفسه الصراط المستقيم. فأنت مادمت مستمسكًا بالوحي، فأنت على الصراط المستقيم. الوثيقة بينهما محكمة.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: اليقين بالحق لا يأتي من كثرة الموافقين

الآية تكسر منطق "إذا كان الجميع ضدي، فأنا مخطئ". النبي كان وحده في بداية الدعوة، والله يقول له: {إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}. فاليقين بالحق لا يتوقف على كثرة المصنفين، بل على وضوح الدليل.

الرسالة النفسية: ثقة المؤمن بطريقه

حين تعلم أنك على صراط مستقيم لأنك تستمسك بالوحي، تشعر بطمأنينة عظيمة. لا تخذشك كلمات المشككين، ولا تنال منك سخرية المستهزئين.

الرسالة التربوية: ربّ أبنائك على الثقة بهويتهم ودينهم

في زمن تهاجم فيه الهوية الإسلامية، علم أبنائك أن يقولوا: "نحن على صراط مستقيم، هذا ما يقوله الله لنا". هذه الثقة تحميهم من الشعور بالنقص والدونية أمام الحضارات الأخرى.

المحور الثالث

{وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ}

التشريف الإلهي... الذكر الذي يرفع الأقدار

غوص في معنى {لذكر}: الذكر والشرف والموعظة

تأمل هذه الكلمة: {لذكر}. اللام للتوكيد. "ذكر" تحمل عدة معان متداخلة:

1. شرف ورفع: أي أن هذا القرآن شرف لك ولقومك {وإنه لذكر لك ولقومك} أي لشرف لكم تذكرون به بين الأمم. وقد صدق الله: فلولا القرآن، ما ذكرت قريش ولا العرب في تاريخ البشرية. لقد كانوا أمة أمية مغمورة، فلما نزل القرآن، صاروا أمة معلمة شاهدة على الناس.

2. موعظة وتذكير: أي أنه تذكرة وموعظة لك ولقومك، تذكركم بالله والدار الآخرة، وتنبهكم من الغفلة.

3. ذكر دائم: أي أن ذكرك وذكر قومك سيظل خالدًا ما دام هذا القرآن. ألم تسمع قول الشاعر: "ذكرنا مع النيل و الأهرام"؟ بل هو أبقي من النيل والأهرام.

مثال تقريبي:

تخيل أسرة بسيطة مغمورة، يولد فيها عالم عظيم يكتشف دواء ينقذ البشرية. فجأة، صارت هذه الأسرة تذكر في كل مكان، لأن منها خرج هذا الخير. هذا هو حال العرب: كانوا مغمورين، فلما نزل فيهم القرآن، صاروا يذكرون إلى يوم الدين.

{وَلِقَوْمِكَ}: من هم القوم هنا؟

قوم النبي صلى الله عليه وسلم: هم قريش أولا ، ثم العرب ثانيًا، ثم أمته جميعًا ثالثًا. فكل من اتبع النبي من أمته، فالقرآن شرف له وموعظة. {لقد أنزلنا إليكم كتابًا فيه ذكركم} أفلا تعقلون.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: مصدر الشرف الحقيقي هو الوحي

الآية تقلب موازين الشرف. الناس يطلبون الشرف في المال والنسب والسلطان، والله يقول: الشرف في الوحي. فالقرآن هو مصدر شرفك أيها المسلم، لا جنسيتك ولا مال قارون.

الرسالة النفسية: الشعور بالعزة بالانتماء للقرآن

حين تشعر أنك من أمة القرآن، وأن هذا الكتاب هو شرفك، يمتلئ قلبك عزة. لا تحتاج أن تنتسب لغير هذا الكتاب. قرآنك يكفيك شرفاً.

الرسالة التربوية: ازرع في أبنائك الاعتزاز بالقرآن

لا تجعل أبنائك يعتزون بأبطال الرياضة والفنانين، ويهملون الاعتزاز بالقرآن. قل لهم: "نحن أمة القرآن. هذا شرفنا الذي لا يدانيه شرف".

المحور الرابع

{وَسَوْفَ تَسْأَلُونَ}

السؤال الآتي... والمسؤولية الملقاة على العاتق

غوص في معنى {وَسَوْفَ تَسْأَلُونَ}: السين والجمع والتأني

تأمل هذه العبارة: {وَسَوْفَ تَسْأَلُونَ}.

"سوف" تفيد الاستقبال البعيد، لكنها هنا تفيد التحقيق والتوكيد. إنها تقول: "سيأتينكم سؤال لا شك فيه". إنها توحى بالرهبة والاستعداد.

"تسألون" فعل مبني للمجهول. من السائل؟ الله. حذف الفاعل للتعظيم، وليكون أبلغ في الرهبة. ستسألون من العظيم الجبار.

والواو في "تسألون" للجماعة. فهي تشمل النبي وقومه والمسلمين جميعاً. فالجميع سيسأل عن هذا الذكر.

مثال تقريبي:

مدير شركة يعطي موظفيه أمانة ثمينة ويقول لهم: "احفظوها، وسوف تسألون عنها يوم الحساب". هذا يجعلهم في غاية الحرص. هذا هو معنى الآية: القرآن أمانة في أعناقنا، وستسأل عنه يوم القيامة.

علامَ يُسألون؟ السؤال عن الذكر

يسألون عن هذا الذكر: هل آمنوا به؟ هل تمسكوا به؟ هل عملوا بما فيه؟ هل بلغوه؟

• النبي يُسأل: هل بلغت؟ وقد بلغ صلى الله عليه وسلم.

• قريش تسأل: هل آمنتم واتبعتم؟

• الأمة تسأل: هل عملتم بالقرآن؟ هل حكمتموه في حياتكم؟

{وَقَفَّوهُمْ} ^ط{إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ}، {فَلْتَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ}.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: الشرف يقابله تكليف ومسؤولية

الشرف الذي أعطاه الله لنا بالقرآن ليس شرقاً مجانياً، بل يقابله سؤال وحساب. فمن شرف بالقرآن ولم يعمل به ، كان وبالاً عليه.

الرسالة النفسية: عش بين الخوف والرجاء

أنت مشرف بالقرآن، فافرح. لكنك ستسأل عنه، فخف. هذا التوازن بين الرجاء والخوف هو الذي يبقي النفس مستقيمة.

الرسالة التربوية: علم أبنائك أنهم مسؤولون عن القرآن

لا يكفي أن يتعلم الابن القرآن، بل يجب أن يعلم أنه سيسأل عنه. هذا يغرس فيه الشعور بالمسؤولية، فيعمل بما تعلم.

المحور الخامس

الأبعاد والآفاق من الآيات: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد الأول: البعد العقدي – الاتصال بالوحي مصدر العصمة

الآيات ترسخ عقيدة أن العصمة من الفتن والضلال إنما تكون بالاستمسك بالوحي. لا عصمة لأحد بدون قرآن.

{فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مَّيِّ هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى}.

البعد الثاني: البعد النفسي – الثبات في زمن العواصف

الآية تقدم وصفة نفسية للثبات: استمسك بالقرآن تؤت طمأنينة أنك على صراط مستقيم، وتشعر بشرف الانتماء للذكر، وتستعد لحساب الله.

البعد الثالث: البعد الاجتماعي – بناء المجتمع الذكور

الآيات تدعوا إلى بناء مجتمع يستمسك بالقرآن، فيكون شرفه في دينه لا في ماله، ويكون همه العمل بالذكر والاستعداد للسؤال عنه.

البعد الرابع: البعد الحضاري – القرآن مصدر النهضة

الآيات تشير إلى أن القرآن هو ذكر الأمة وشرفها. ولا تنهض أمة الإسلام إلا إذا عادت إلى الاستمسك بهذا الذكر. حضارة بلا قرآن هي جسد بلا روح.

البعد الخامس: البعد المصيري – يوم السؤال

الآية تفتح نافذة على يوم القيامة: {وَسَوْفَ تَسْأَلُونَ}. هذا يعطي للحياة كلها جدية. نحن لا نعيش عبثًا، بل نحن مكلفون محاسبون.

المحور السادس

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً : العودة إلى القرآن في زمن التيه

في عصر كثرت فيه الفلسفات والمذاهب والأفكار، وضاع الشباب بين الشرق والغرب، تدعونا الآية إلى العودة إلى القرآن. استمسك به! فهو حبل الله المتين.

مثال تقريبي:

شاب مسلم يدرس في جامعة غربية، ويسمع يوميًا نظريات تشككه في دينه. هنا نقول له: "استمسك بالذي أوحى إليك! هذا هو مرساة النجاة. تمسك بالقرآن، تعرف أنك على صراط مستقيم، وتشعر بشرف الانتماء له، وتذكر أنك ستسأل عنه".

ثانيًا: مواجهة أزمة الهوية

كثير من المسلمين اليوم يعانون من أزمة هوية: هل نحن متخلفون لأننا مسلمون؟ هل ديننا هو سبب تأخرنا؟ لاية تجيب: {وإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ}. القرآن شرفنا ورفعتنا، لا سبب تخلفنا. سبب تخلفنا هو تركنا للقرآن لا تمسكنا به.

ثالثًا: استشعار المسؤولية تجاه القرآن

في عصر صار فيه القرآن يُتلى ولا يُعمل به، تذكرنا الآية: {وَسَوْفَ تَسْأَلُونَ}. نحن مسؤولون عن هذا القرآن. هل اكتفينا بتلاوته؟ أم عملنا بأحكامه؟ هل حفظناه في الصدور أم أهملناه في الرفوف؟

مثال تقريبي:

رجل يملك مصحفًا جميلًا يضعه في واجهة بيته للزينة، ولا يفتحه إلا في رمضان. هذا الرجل يقال له يوم القيامة: {وَسَوْفَ تَسْأَلُونَ}. القرآن لم ينزل ليزين الرفوف، بل ليهذب النفوس.

المحور السابع

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: الثبات بالوحي لا بالبشر

الآيات تؤسس مفهومًا فكريًا: أنت لن تثبت بكثرة الأتباع ولا بتصفيق الجمهور، بل ثبت باستمساكك بالوحي. حتى لو كنت وحدك، فأنت على صراط مستقيم إن استمسكت بالقرآن. هذا يحركك من عبودية الجماهير.

مثال تقريبي:

تاجر صادق في سوق كله غش. الناس يسخرون منه ويقولون: "لماذا لا تغش مثلنا؟". هو يردد في نفسه: {إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}. هذا ما يثبتته.

المفهوم النفسي: الاستمساك بعلاج للقلق والاضطراب

في زمن القلق النفسي، يبحث الناس عن الطمأنينة في التأمل والفلسفات. القرآن يعطيك الطمأنينة الحقة: استمسك بالوحي، أيقن أنك على الحق، اشعر بشرف الانتماء لله، واستعد للقائه.

المفهوم التربوي: التربية على تحمل مسؤولية القرآن

التربية القرآنية تربي الفرد على أنه صاحب أمانة. القرآن أمانة في عنقك. ستسأل عنه. هذا ينتج جيلاً جادًا، يشعر بالمسؤولية تجاه دينه وأمته.

مثال تقريبي:

معلم قرآن يذكر طلابه كل يوم: "أنتم تحفظون كلام الله. أنتم تحملون أمانة. سوف تسألون عنها. فلا تخونها". فينشأ الطلاب وهم يشعرون بثقل الأمانة وجلالها.

المحور الثامن

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: الاستمسك بالقرآن علمًا وعملاً ً ودعوة

الله يريد منا أن نستمسك بالقرآن. ليس مجرد تلاوة، بل علمًا وعملاً ً ودعوة. نتعلمه، ونعمل به، وندعو إليه.

الإرادة الثانية: اليقين بأننا على الحق

يريدنا أن نوقن بأننا – ما دمنا على القرآن – فنحن على صراط مستقيم. هذه اليقين هو سلاحنا في وجه المشككين.

الإرادة الثالثة: الاعتزاز بالقرآن والانتماء له

يريدنا أن نشعر بالشرف العظيم الذي أعطانا إياه بالقرآن. هذا الشرف هو أساس عزة المسلم.

الإرادة الرابعة: استحضار المسؤولية يوم القيامة

يريدنا أن نعيش وفي أذهاننا أننا سئسأل عن هذا الذكر. هذا الاستحضار يدفعنا للعمل والتطبيق.

المحور التاسع

تحويل مفاهيم الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

المسار الأول: بناء الإنسان المستمسك بالقرآن، الواصل بطريقه

الآيات تبني إنساناً محور حياته القرآن. إذا اضطربت الدنيا من حوله، ثبت هو. لأنه استمسك بحبل الله. هذا الإنسان لا تهزه الشبهات، ولا تزغزه الشهوات، لأنه على صراط مستقيم، ويشعر بشرف الانتماء لله، ويستعد للسؤال غداً.

التطبيق العملي:

• اجعل لنفسك وردًا يوميًا من القرآن بتدبر، لا تقطعه مهما كنت مشغولاً . هذا وردك هو حبل الاستمسك العملي.

• كلما مررت بموقف تشكيك أو سخرية، رد على نفسك: {إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.

• مثال تقريبي: شاب مستقيم وحيد في عائلته المنحرفة. يشعر بالغربة. نقول له: "استمسك بالقرآن، أنت على صراط مستقيم، وهذا شرفك، وستكون خصيمهم يوم القيامة حين تسألون جميعاً".

المسار الثاني: بناء المجتمع القرآني

الآيات تبني مجتمعًا يعتز بالقرآن، ويجعله دستور حياته. مجتمع يربي أبنائه على أن شرفهم في دينهم، لا في تقليد غيرهم. مجتمع يشعر أن القرآن أمانة، وأنه مسؤول عنه أمام الله.

التطبيق العملي:

• حوّل بيتك إلى بيت قرآني: مدارس أسبوعية، تلاوة جماعية، تطبيق عملي للأحكام.

• في مسجدك أو حيك: اجعل للقرآن حضورًا في النقاشات العامة. اربط المشكلات بالحلول القرآنية.

• مثال تقريبي: حي يعاني من مشكلة المخدرات. بدلا "من المحاضرات التوعوية الجافة، يقيم الشباب حلقة قرآنية يخرجون منها بأن {الخَفَرُ وَالْمَيْسِرُ} رفس، وبتوب المدمنون. القرآن يبني المجتمع بنفسه.

المسار الثالث: بناء الحضارة القائمة على الذكر

الآيات تشير إلى أن القرآن "ذكر" أي شرف. الحضارة الإسلامية حين قامت، قامت على القرآن. وحين نعود إلى القرآن، نعود إلى بناء الحضارة. هذه الحضارة ليست مجرد ماديات، بل هي حضارة إنسان يعبد الله، ويعمر الأرض، ويستعد للحساب.

التطبيق العملي:

• دعم المؤسسات التي تعتني بالقرآن: طباعته، ترجمته، تعليمه، تطوير برامجه.

• انشر ثقافة أن "الحضارة" هي الاستمسك بالقرآن، لا التخلي عنه.

• مثال تقريبي: مخترع مسلم يخترع تقنية جديدة. قبل أن يعلن عنها، يكتب في عرضه: {فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ}. هذا الاختراع هو ثمرة الاستمسك بالقرآن الذي دعاه لتعمير الأرض. هذه هي الحضارة.

خاتمة: هل استمسكتَ بالذكر الذي ستسأل عنه؟

أيها القارئ الكريم...

لقد جلسنا مع هاتين الآيتين الكريمتين، اللتين جمعتا الوصية والتشريف والتحذير. سمعنا أمر الله: {فَاسْتَمْسِكْ}. وسمعنا البشارة: {إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}. وسمعنا التشريف: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ}. وسمعنا السؤال: {وَسَوْفَ تَسْأَلُونِ}.

والآن... أسألك بصدق:

- كيف حال استمسائك بالقرآن؟ هل أمسكت به في خلواتك كما تمسك به في جلواتك؟
- هل تشعر حقًا بالشرف الذي أنعم الله به عليك حين جعلك من أمة القرآن؟ أم أنك تبحث عن شرف آخر؟
- هل تذكر – وأنت تقرأ هذه الأسطر – أنك ستسأل عن هذا القرآن؟ عن آياته التي مرت عليك؟ عن أوامره التي قرأتها ولم تعمل بها؟

أجب عن هذه الأسئلة بصمت... ثم جدد عهدك مع القرآن.

المبحث الرابع

تفسير الآية (45) من سورة الزخرف

تقدمة لا بد منها: موقع الآية من السياق ومن جدلية الحجة على المكذبين

قف معي – يا رعاك الله – وقفة من أيقن أن آيات هذا القرآن المجيد تبني في القلب صرحًا من اليقين، حجرًا فوق حجر، لا يترك ثغرة لنفاذ الشك ولا منفذًا لتسلل الوهن.

لقد خضنا قبل هذه الآية في مشاهد متلاحقة: حقيقة الدنيا وزخرفها، والإعراض عن الذكر وما يتبعه من قرناء الشياطين، وتسليّة النبي بأن الهداية بيد الله لا بيده، ووعده بأن الانتقام من المكذبين آتٍ لا ريب فيه، ثم أمره الحاسم بالاستمسك بالوحي، وتشريفه بأنه على صراط مستقيم، وتبشيريه بأن القرآن ذكر وشرف له ولقومه، مع تذكير الجميع بأنهم سيسألون عنه.

وهنا... بعد أن ثبت الله نبيه وأمره بالاستمسك بما أوحى إليه... يأتي سلاح جديد، ودليل جديد، وحجة دامغة جديدة. لم يعد الأمر مجرد تسليّة وتثبيت، بل انتقل إلى مرحلة الهجوم! إنها آية تقلب الطاولة على المكذبين. إنها تقول للنبي صلى الله عليه وسلم: "لا تكتفِ بالاستمسك والثبات... بل واجههم! أسألهم! حرك عقولهم! افتح

أعينهم على حقيقة تاريخية لا يمكن أن ينكروها: كل الرسل من قبلك جاؤوا بالتوحيد الخالص. أين الشرك الذي هم فيه؟ أين الأصنام التي يعبدونها؟ هل أمر الله بها من قبل؟".

إنها آية جامعة بين التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وإقامة الحجة على المكذبين. سلاحها العلم والمعرفة، وساحتها التاريخ والمنطق، وهدفها إفحام المشركين بأن الإسلام ليس بدعاً جديداً، بل هو امتداد لرسالات السماء كلها. فعلام يكذبون؟ وعلى أي أساس يشركون؟

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآية ومقاصدها وأهدافها

دعني - أيها القارئ الكريم - أوجز لك ما تنطوي عليه هذه الآية الكريمة من الأفكار العظام:

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآية الكريمة:

1. أمر النبي بالسؤال: {وَأَسْأَلُ} أمر لتقرير حقيقة وإقامة حجة، لا لطلب علم مجهول.
2. تحديد المسؤولين: {مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا} - كل الرسل السابقين.
3. مضمون السؤال الجوهرية: {أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} - استفهام تقرير نفياً.
4. إثبات وحدة الرسالات السماوية: جميعها قامت على التوحيد، لا على الشرك.
5. إفحام المشركين المعاصرين للنبي: بأن دينهم مخالف لدين كل الأنبياء.

مقاصد الآية وأهدافها:

1. تنبيه النبي بأن ما جاء به هو الحق الذي اتفقت عليه النبوات كلها.
2. إقامة الحجة على المشركين بأن شركهم بدعة ما أنزل الله بها من سلطان.
3. دعوة المشركين للتفكير: هل كان أحد من الأنبياء يأمر بعبادة غير الله؟
4. إظهار أن التوحيد هو أصل الدين القويم منذ آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم.
5. تعليم الأمة أن تراث الأنبياء كله يشهد للإسلام.

المحور الأول

{وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا}

الأمر بالسؤال... من يسأل؟ وكيف؟ ولماذا؟

غوص في معنى {وَأَسْأَلُ}: الواو والأمر وحقيقته

دعني أقف بك عند فاتحة هذه الآية: {وَأَسْأَلُ}.

الواو: واو العطف. إنها تربط هذه الآية بما قبلها من أمر الاستمسك. فكأن الله يقول لنبيه: "استمسك بما أوحى إليك، وأسأل عن هذا الذي استمسكت به. سل عنه من تعرف أنهم على الحق، وستجد أنهم جميعًا معك".

الأمر: {أَسْأَلُ} أمر ظاهره طلب الفعل، ولكن ليس المقصود به هنا أن النبي صلى الله عليه وسلم يجهل الجواب فيسأل ليتعلم. حاشاه! بل المقصود:

• التقرير: أي أقرر هذه الحقيقة وأسأل عنها سؤال تقرير وإثبات.

• الاحتجاج: أي اجعل هذا السؤال حجة على المكذبين.

• التذكير: أي ذكر الناس بما يعرفونه عن الأنبياء من قبل.

فالسؤال هنا ليس استفهامًا حقيقيًا، بل هو استفهام تقريرى إنكارى، يراد به إثبات أن الجواب قطعي لا يحتمل غير النفي: "لم نجعل من دون الرحمن آلهة تعبد". لم يسأل الله أنبياءه حقيقة ليجعل الجواب، بل السؤال لإظهار الجواب للناس.

مثال تقريبي:

معلم في فصل يريد أن يثبت لتلاميذه حقيقة. يسألهم: "هل في القمر أناس يعيشون؟" وهو يعرف أن الإجابة: لا. يريدهم أن يعترفوا بهذه الحقيقة. هذا هو معنى الآية تمامًا.

{مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا}: من هم المسؤولون؟

تأمل هذا التعبير العظيم: {مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا}.

• {مَنْ}: اسم موصول بمعنى "الذين".

• {أَرْسَلْنَا}: أرسلناهم بالرسالة. الإرسال مهمة إلهية عظيمة.

· {من قبلك}: في الزمن الماضي، من لدن آدم إلى عيسى عليهم السلام.

· {من رسلنا}: إضافة تشريف، فهم رسل الله المنتجبون.

فالمسؤولون هم جميع أنبياء الله ورسله السابقين. وهذا يشمل نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى وكل نبي مرسل.

وكيف يسألهم النبي صلى الله عليه وسلم وهم ليسوا حاضرين؟

الجواب من وجوه:

1. بالوحي: فالوحي الذي نزل عليه يخبره عنهم، فهو يسألهم بسؤال العلم والتحقق من خلال الوحي القرآني الذي يخبره بأخبارهم.

2. بسؤال أتباعهم: أي أسأل يا محمد الذين آمنوا من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأشباهه، فإنهم يخبرونك بأن رسلهم لم تأمرهم بعبادة غير الله.

3. بسؤال كتبهم: أي انظر في الباقي من كتبهم، واسأل ما فيها، أوجد فيها أمرًا بعبادة غير الله؟

4. السؤال التقريري: أي قل للمشركين: "سلوني أنا، سلوني عن الرسل من قبلي، أكان فيهم من أمر بعبادة غير الله؟!"

والمعنى الجامع: أن حقيقة رسالات السماء كلها محفوظة عند الله، وقد أوحى بها إلى نبيه. فالسؤال هنا سؤال اختبار وتحذير للمشركين: "انظروا في تاريخ الرسل، هل تجدون بينهم من دعا لغير التوحيد؟".

مثال تقريبي:

محام في محكمة يقول للقاضي: "اسألوا كل القوانين السابقة، هل فيها ما يبيح هذه الجريمة؟". هو لا يطلب من القاضي أن يتصل بكل مشرع مات، بل يطلب منه أن يرجع إلى نصوص القوانين المدونة. هذا هو السؤال هنا: راجعوا ما جاء به الرسل السابقون من كتب ومنقولات، هل تجدون فيها شركًا؟!

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: الإسلام ليس بدعة، بل هو دين الأنبياء كلهم

الآية ترسخ مفهومًا فكريًا عظيمًا: الإسلام ليس دينًا جديدًا، بل هو الدين القويم الذي بعث به كل نبي. فالمسلم حين يدافع عن دينه، لا يدافع عن خصوصية قومية، بل عن إرث النبوات جمعاء.

الرسالة النفسية: طمأنينة النبي والمؤمنين بأنهم على دين الرسل أجمعين

شعر النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه بالغربة حين كذبهم قومهم. فجاءت هذه الآية تطمئنهم: "أنتم لستم وحدكم. أنتم على طريق إبراهيم وموسى وعيسى ونوح... فاثبتوا".

الرسالة التربوية: علم أبناءك أن ديننا هو دين الأسرة النبوية كلها

بدلاً من أن يتشتت أبناءنا بين "أنا مسلم"، "وهو مسيحي"، "وهو يهودي" بطريقة نزاعية، نقول لهم: "نحن نتبع محمداً صلى الله عليه وسلم، وهو خاتم إخوته الأنبياء، ودينه هو الدين الحق. أما الموجود من أديان محرقة، ففيها بقايا حق، لكن الحق الكامل في الإسلام".

المحور الثاني

{أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}

مضمون السؤال... الاستفهام التقريبي النافي للشرك

غوص في معنى {أَجْعَلْنَا}: الهمزة والجعل والاستنكار

تأمل معي هذه الصيغة العجيبة: {أَجْعَلْنَا}.

الهمزة: للاستفهام الإنكاري التقريبي. أي: "أيعقل أننا جعلنا؟ كلا!".

{جَعَلْنَا}: فعل "جعل" الذي يفيد التصيير والتشريع. أي هل شرعنا لعبادنا أن يعبدوا آلهة من دوننا؟ هل أمرنا بهذا؟ هل أنزلنا به كتاباً؟ هل أرسلنا به رسولا ؟

والجواب الضمني الذي تؤكد الآية: كلا. لم نجعل. ما أنزلنا به من سلطان. ما أمرنا به. ما شرعناه لأحد.

والاستنكار هنا استنكار شديد: "كيف تزعمون أنكم على دين، وكل الأنبياء جاؤوا بالتوحيد، وأنتم تشركون؟!".

{مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ}: العبادة المزورة لغير الرحمن

تأمل وصف الله نفسه هنا بـ {الرَّحْمَنُ}. لماذا هذا الاسم بالذات؟

الرحمن هو الذي وسعت رحمته كل شيء. هذا الاسم يذكرهم بأنهم يعبدون غيره، مع أنه هو الذي يرحمهم وينعم عليهم. فكأن الآية تقول: "كيف تعبدون أرباباً من دون الذي يرحمكم؟! كيف تستبدلون الذي رحمته وسعت كل شيء بآلهة لا ترحم ولا تنفع؟! إنها خيانة للرحمة قبل أن تكون خيانة للألوهية".

مثال تقريبي:

ابن له أب ينفق عليه ويرعاه ويعلمه ويشفق عليه. ثم يذهب هذا الابن إلى غريب في الشارع ويقول له: "أنت أبي!". ماذا نقول لهذا الابن؟ نقول له: "كيف تستبدل هذا الأب الرحيم بهذا الغريب؟!". هذا هو حال المشركين: يستبدلون الرحمن بالأصنام.

{آلِهَةٌ يُعْبَدُونَ}: الجمع والوصف بالفعل

تأمل: {آلِهَةٌ} نكرة. أي أي آلهة كانت، حجراً أو بشراً أو شمساً أو قمراً أو صنماً. كلها داخلية في هذا النفي.

{يُعْبَدُونَ}: فعل مبني للمجهول، أي يعبدهم عابدون. ووصف الآلهة بالفعل "يعبدون" فيه إشارة إلى أنهم ليسوا بذاتهم آلهة، بل هم منحوتات يعبدها من لا عقل له.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: التوحيد هو الأصل، والشرك هو الانحراف

الآية تقطع بأن التوحيد هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهو أصل الرسالات كلها. والشرك طارئ وانحراف، لا أصل له في وحي ولا عقل.

الرسالة النفسية: الاقتناع العقلي بأن الشرك لا مستند له

المؤمن الذي يفهم هذه الآية يشعر بقناعة عقلية تامة: دينه مدعوم بكل رسالات السماء. أما الشرك فمدعوم به الهوى والتقليد الأعمى. هذه القناعة تريحه وتزيده يقيناً.

الرسالة التربوية: تحذير الأبناء من عبادة غير الله بأي صورة

الالهة المعاصرة ليست أصنام حجر فقط، بل قد تكون شهوة، أو مالا ، أو شهرة، أو شخصاً. علم أبنائك أن كل ما عُبد من دون الرحمن فهو باطل، لم يأمر به الله، ولم تدع إليه رسالة سماوية قط.

المحور الثالث

الترابط بين هذه الآية وما قبلها: من الاستمسك إلى السؤال

دعني - يا رعاك الله - أربط لك الآية بما سبقها من السياق.

في الآية (43): {فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ} ^ط {إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}. تثبيت وتشريف.

في الآية (44): {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ} ^ط {وَسَوْفَ تَسْأَلُونُ}. تشريف ومسؤولية.

في الآية (45): {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا...}. حجة وبرهان.

الربط: كأن الله يقول لنبيه: "استمسكت بما أوحى إليك، وعلمت أنك على صراط مستقيم، وشعرت بشرف هذا الذكر، وتذكرت أنك ستسأل عنه... والآن: واجه قومك! أسألهم! قل لهم: سلوا التاريخ، سلوا الكتب، سلوا أهل العلم من الأمم السابقة... هل أمر الله بعبادة غيره؟!".

فبعد بناء الذات (الاستمسك)، يأتي دور مواجهة الآخر (السؤال). إنها استراتيجية قرآنية: ثبت نفسك أولاً ، ثم واجه خصمك.

المحور الرابع

الأبعاد والآفاق من الآية: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد الأول: البعد العقدي - وحدة الدين الإلهي عبر التاريخ

الآية ترسخ عقيدة أن الدين عند الله واحد: هو الإسلام بمعناه العام (التوحيد والاستسلام لله). {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}. وهذا يريح القلب: نحن لسنا أتباع دين جديد مختلف، بل أتباع دين الأنبياء كلهم.

البعد الثاني: البعد التاريخي - معرفة تاريخ الأنبياء حصن للمؤمن

الآية تدعونا ضمناً إلى معرفة أخبار الأنبياء ودراسة التاريخ النبوي. فمن عرف تاريخ الرسل، ازداد يقيناً بصحة دينه، وأصبح قادراً على محاجة المكذبيين. {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ}.

مثال تقريبي:

شاب مسلم يقرأ قصة إبراهيم عليه السلام في القرآن، ثم يقرأ ما تقوله التوراة عن إبراهيم. يجد الاتفاق على التوحيد. هذا يزيده ثقة بأن الإسلام هو امتداد لدين إبراهيم، لا بدعة جديدة.

البعد الثالث: البعد المنطقي – الاستدلال بالاتفاق على الحق

الآية تستخدم منطقاً قوياً: "إذا كان كل الأنبياء من قبل قد اتفقوا على التوحيد، فمن أين أتيتم أنتم بالشرك؟". هذا المنطق يسمى في علم الجدل: "الإجماع التاريخي". وهو دليل قوي في وجه المبتدعين.

مثال تقريبي:

لو ادعى شخص أن رياضة كرة القدم أصلها من الصين القديمة، فقلنا له: "اسأل كل كتب تاريخ الرياضة، هل ذكرت هذا؟". الجواب: لا. إذا دعواه باطلة. هذا هو منطق الآية.

البعد الرابع: البعد الجدلي – نقل المعركة إلى أرض الخصم

بدلاً من أن يظل النبي في موقف الدفاع، تأمره الآية أن ينتقل للهجوم ويسألهم هم: "أروني دليلكم! أروني رسولا واحداً أمر بالشرك!". هذا الأسلوب الجدلي يربك الخصم ويكشف باطله.

مثال تقريبي:

في نقاش بين مسلم وملحد، يقول الملحد: "الكون أزلّي". فيرد المسلم: "اسأل كل العلماء، هل قال أحد أن شيئاً وجد من عدم بدون موجد؟". السؤال هنا ينقض دعوى الملحد بالزامه بما يعترف به العقلاء. هذه هي طريقة الآية.

البعد الخامس: البعد الإيماني – توحيد المصدر والتشريع

الآية تعمق الإيمان بأن مصدر التشريع هو الله وحده. فإله لم يجعل من دونه آلهة تعبد. فمن ادعى أن لله شريكاً في الألوهية أو التشريع، فقد افتري على الله كذباً. وهذا يبني في النفس رفضاً لكل طاغوت يشرع بغير ما أنزل الله.

المحور الخامس

ما تدعونا إليه الآية في الواقع المعاصر

أولاً : مواجهة الشبهات حول أصل الإسلام

في عصر يروج فيه أعداء الإسلام لفكرة أن الإسلام دين "اخترعه" محمد صلى الله عليه وسلم، تأتي هذه الآية كسلاح حاسم: "الإسلام ليس اختراعاً، بل هو دين كل الرسل. فاسألوا التاريخ!".

مثال تقريبي:

مستشرق يكتب مقالا " يزعم فيه أن محمداً صلى الله عليه وسلم اقتبس الإسلام من اليهودية والنصرانية. نرد عليه بهذه الآية: "الإسلام لم يقتبس شيئاً، بل هو التصحيح للتحريفات. دين الأنبياء كلهم واحد: التوحيد. فاسأل كتبكم أنتم، هل أمر موسى أو عيسى بعبادة غير الله؟".

ثانياً: تعزيز وحدة الأديان السماوية في أصلها الحق

في زمن "حوار الأديان"، تعلمنا الآية أن أصل الوحدة بين أتباع الأنبياء هو التوحيد. {أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} هو سؤال يوجه لأهل الكتاب أيضاً: "هل أمركم أنبياءكم بعبادة غير الله؟". إن قالوا: لا، قلنا: "فلم لا تتبعون النبي الذي جاء بالتوحيد الخالص؟".

مثال تقريبي:

في لقاء حوار مع قسيس، تقول له: "نحن نؤمن بموسى وعيسى عليهما السلام، ونعرف أنهما ما أمرا بعبادة غير الله. ومحمد صلى الله عليه وسلم جاء بالتوحيد الذي جاء به. فلماذا ترفضونه؟".

ثالثاً: التصدي لظاهرة "الآلهة المعاصرة"

الآية لا تقتصر على الأصنام الحجرية. في عصرنا، هناك آلهة من دون الرحمن تعبد: الهوى، المال، الشهرة، الأهواء السياسية، الفنانين، الرياضيين. الآية تقول: "هل أمر الله بهذه العبودية؟ كلا! فاسألوا!".

مثال تقريبي:

شاب يعبد "مشاهير السوشيال ميديا" ويسير على خطاهم في كل شيء، حتى لو خالفوا شرع الله. نقول له: "هل أمر الله باتباع هؤلاء؟ اسأل نفسك: هل جعل الله فلائناً إلهاً يطاع من دون الله؟".

المحور السادس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

المفهوم الفكري: دين الله واحد، والأنبياء إخوة يدعون إلى أب واحد

الآية تؤسس مفهوماً فكرياً: الإسلام ليس مجرد دين ظهر في القرن السابع الميلادي، بل هو الدين القويم الذي ظهر مع آدم واكمل بمحمد صلى الله عليه وسلم. الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم (شرائعهم) مختلفة، ودينهم (التوحيد) واحد.

مثال تقريبي:

تخيل بيتاً كبيراً، الأب واحد، والأبناء عشرة. كل ابن يعمل في مجال مختلف عن أخيه، لكنهم جميعاً يعرفون أباهم ويسيروا على وصيته. هذه هي الأنبياء: مهنهم وشرائعهم مختلفة، لكن عقيدتهم واحدة، وأبوهم الروحي هو التوحيد.

المفهوم النفسي: طمأنينة الانتماء إلى سلسلة النبوات

الشعور بأنك جزء من سلسلة طويلة من الأنبياء والصالحين الذين عبدوا الله وحده... يمنحك طمأنينة نفسية هائلة. أنت لست وحيداً في هذا الطريق، بل معك ركب الأنبياء جميعاً. {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ} اقتده.

المفهوم التربوي: تعليم الأبناء أن الإسلام هو الإطار الجامع للخير كله

حين يفهم الأبناء أن الإسلام ليس ديناً محلياً ولا طائفيّاً، بل هو الإطار الجامع لكل خير جاء به الأنبياء، ينشأون على الانفتاح الإيجابي على العالم، مع الاعتزاز بهويتهم.

المحور السابع

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآية؟

الإرادة الأولى: أن نعتز بأن ديننا هو دين الأنبياء كلهم

الله يريد منا أن نشعر بالفخر والاعتزاز: نحن على دين إبراهيم وموسى وعيسى ونوح... ونحن أتباع محمد خاتمهم. هذه العزة تملأ القلب وتدفع للثبات.

الإرادة الثانية: أن نتعلم كيف نحاجج المكذبين بالمنطق والعقل

الله يريد منا أن نتعلم فن الحوار والمحااجة، كما علم نبيه: انقل المعركة إلى أرض الخصم، واسأله سؤالاً لا يملك إلا أن يعترف فيه بالحق.

الإرادة الثالثة: أن نراجع أنفسنا: هل نعبد غير الله؟

في كل عصر صور للشرك. الله يريد أن نسأل أنفسنا: هل في حياتنا آلهة من دون الرحمن نطيعها في معصيته؟

هواك قد يكون إلهًا، مالك قد يكون إلهًا، منصبك قد يكون إلهًا. اسأل نفسك: هل جعل الله هذه آلهة تعبد؟!

المحور الثامن

تحويل مفاهيم الآية إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

المسار الأول: بناء الإنسان الواثق بدينه، المحاور بالحجة

الآية تبني إنسانًا لا يهتز حين يشككه أحد في دينه، لأنه يعرف أن دينه هو دين التاريخ كله. وإذا حاوره أحد، لم يفعل ولم يغضب، بل قال: "اسأل! ارجع للتاريخ! انظر في الكتب!".

التطبيق العملي:

- ادرس قصص الأنبياء في القرآن واربطها في ذهنك بقضية التوحيد.
- حين تناقش أحدًا عن الإسلام، لا تبدأ بالدفاع، بل ابدأ بالسؤال: "هل تعرف نبيًا أمر بعبادة غير الله؟".
- مثال تقريبي: شاب جامعي يسمع أن الإسلام دين رجعي. يتسم ويسأل زميله: "هل تعرف نبيًا واحدًا قال لا تعبدوا الله؟". هذا السؤال يربك الخصم ويجبره على التفكير.

المسار الثاني: بناء المجتمع المتوحد على أصل الدين، المتسامح في فروع

حين يعي المجتمع أن أصل الدين واحد عند كل الأنبياء، يسهل عليه أن يتسامح في الفروع والاختلافات المذهبية. الأمة التي تعرف أن وحدتها في التوحيد، لا تفرقها الفروع.

التطبيق العملي:

- في حوارات المذاهب والطوائف، ذكر الناس بقوله: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ}، فكلنا على دين واحد في أصله.
- مثال تقريبي: خطيب جمعة ينهى عن التعصب المذهبي، ويقول: "إخواننا من المذاهب الأخرى يعبدون الله وحده، ويتبعون النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم. نحن متفقون على الأصل، والخلاف في الفروع سعة ورحمة".

المسار الثالث: بناء الحضارة القائمة على الحجة والبرهان

الآية تنهج نهج "السؤال" و"البرهان" في مواجهة الباطل. الحضارة الإسلامية قامت على العلم والنظر والاستدلال

ال. {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ}. هذه الآية تمدنا بطاقة حضارية: لا نواجه الأفكار بالقمع، بل بالحجة والإفحام العقلي.

التطبيق العملي:

- شجّع وسائل الإعلام الإسلامية على تقديم محتوى حوارى يطرح الأسئلة على المشككين، بدل الصراخ والافعال.
- في الجامعات والمدارس، علم الطلاب فن "السؤال التقريبي" الذي يفهم المبطلين.
- مثال تقريبي: برنامج تلفزيوني يستضيف ملحدًا، فلا يسبه ولا يصرخ عليه، بل يسأله بهدوء: "هل تستطيع أن تسمي لنا نبيا واحدا قال لقومه: لا تؤمنوا بالله؟". هذا السؤال الهادئ أبلغ ألف مرة من الصراخ.
- خاتمة: سل نفسك... أين أنت من دين الأنبياء جميعًا؟

أيها القارئ الكريم...

لقد جلسنا مع هذه الآية البديعة التي قلبت الموازين، وجعلت النبي صلى الله عليه وسلم من المدافع إلى المهاجم، ومن المتهم إلى السائل. سمعنا أمر الله: {وَأَسْأَلْ}. وتأملنا السؤال المدوي: {أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}.

والآن... أسألك - أنت الذي آمنت برسالات السماء - أسئلة صدق:

- هل أنت واثق بأن دينك هو دين إبراهيم وموسى وعيسى ونوح، أم أنك تشعر أحيانا أن الإسلام غريب في خريطة الأديان؟
- حين يهاجم أحد دينك، هل تلجأ إلى أسلوب السؤال القرآني: "أسأل!"، أم تلجأ للغضب والانفعال؟
- هل في حياتك "آلهة" من دون الرحمن تعبدتها بطاعتك وانقيادك، مع أنها لم يأذن بها الله؟

أجب عن هذه الأسئلة بصمت... ثم اسأل نفسك: "أنا... بم أجيب ربي يوم القيامة حين يسألني عن هذا السؤال: {أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}؟".

بسم الله الرحمن الرحيم

المقطع الثالث

المبحث الاول

تفسير الآيات (46) - (48) من سورة الزخرف،

-تقدمة لا بد منها: موقع الآيات من السياق ومن جدلية الاستعلاء بالحق في وجه الكبر والغرور

قف معي - يا رعاك الله - وقفة المتأمل الواعي الذي يدرك أن هذا القرآن العظيم ليس مجرد سرد تاريخي متناثر، بل هو كيان حي نابض، كتاب بناء وتثبيت، ينتقل بالنفس من مقام إلى مقام ليغرس فيها اليقين، وليصنع منها أمة تعتز بالحق لا بالباطل.

لقد انتهت الآيات السابقة (43) - (45) بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالاستمسك بما أوحى إليه، وتشريفه بأنه على صراط مستقيم، وتذكيره بأن القرآن ذكر وشرف له ولقومه، ثم جاء السؤال المدوي الذي يفحم المشركين: {وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}. سؤال يستنهض التاريخ كله شاهداً للتوحيد، ويجعل المشركين في موقف الخصم المنعزل عن إجماع النبوات.

وهنا - يا رعاك الله - يأتي الانتقال العظيم إلى قصة موسى مع فرعون. قد يتبادر إلى الذهن: "ما الرابط؟ لماذا قصة موسى هنا؟ ما شأن فرعون بقریش؟". هنا تكمن عبقرية النظم القرآني!

إن قريشاً هي التي تعرف جيداً قصة موسى وفرعون، وقد سمعوها من اليهود والنصارى، وسمعوها من القرآن. وهم يعرفون أن فرعون طغى وتجبر وقال: {أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى}، وأن موسى كان رجلاً فقيراً مستضعفاً جاءه الوحي، وأن فرعون سخر منه ومن آياته، وقال: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّاعٌ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، ثم كانت العاقبة أن أغرق الله فرعون وجنوده ونجى موسى ومن معه.

والآن... قريش تفعل الشيء نفسه مع محمد صلى الله عليه وسلم! إنها تعترض على نزول القرآن على محمد اليتيم الفقير، وتقول: {لَوْ أَنَّا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}. {إنهم يريدون الوحي أن ينزل على الوليد بن المغيرة في مكة، أو على عروة بن مسعود في الطائف. أعظمهم مالا وجاهاً! وهم ينظرون إلى محمد صلى الله عليه وسلم نظرة استصغار واستهانة: رجل فقير، ليس له مال ولا سلطان... أينزل عليه القرآن؟!

إنه الكبر. إنه الغرور. إنه تقديس المال والسلطان. إنه المنطق نفسه الذي قال به فرعون: {وَتَادِيَ فِرْعَوْنَ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي} ^١ أَفَلَا تَنْصَرُونَ. أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين. فلو أن ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين.}

فجاءت هذه الآيات لتوقظ قريشاً من غفلتها، وتقول لهم: "أنتم أيها القرشيون المغرورون بأموالكم... هل أنتم أشد من فرعون قوة؟ هل أنتم أكثر منه مالا؟ وسلطاناً وجاهاً؟ هذا فرعون الذي ملك مصر والأنهار، جاءه موسى عليه السلام بآيات الله، فكذب واستكبر، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. فماذا تملكون أنتم؟!".

إنه انتقال من منهج التسفيه للدينيا) في الآيات 33 - (35 إلى تقديم نموذج تاريخي حي) قصة فرعون (لتأكيد أن القوة المادية لا تغني شيئاً أمام عذاب الله، وأن العبرة بالرسالة لا بالمرسل إليه! إنها صفحة قرآنية مدوية لكبرياء قريش، تذكهم بالمصير الأسود الذي ينتظر كل من تكبر على الحق واستصغر أهله.

فالآيات هنا ليست مجرد سرد قصة، بل هي توظيف للقصة في معركة الحق والباطل المعاصرة للنبي صلى الله عليه وسلم. إنها تقول لقريش: "انظروا ماذا فعل الله بمن كان أعظم منكم. فلماذا تغترون؟ وبماذا تكذبون؟".

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها

دعني - أيها القارئ الكريم - أوجز لك ما تنطوي عليه هذه الآيات الكريمات من الأفكار العظام:

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيات الكريمة:

1. إثبات رسالة موسى عليه السلام: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا}.
2. فرعون وملؤه يمثلون نموذج الطغيان المستكبر: {إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ}.
3. ادعاء فرعون الرسالة كذباً: {فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.
4. موقف فرعون من الآيات: من التكذيب إلى السخرية إلى الاستفزاز إلى الاستكبار.
5. تدرج العذاب الإلهي: {وَمَا ثَرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا}.
6. غاية العذاب: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} - إهمال مع إقامة الحجة.

مقاصد الآيات وأهدافها:

1. تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بأن ما يفعله به قومه فعله فرعون بموسى من قبل.
2. تحذير قريش من مصير يشبه مصير فرعون إن استمروا في الكبر والتكذيب.
3. إثبات أن القوة المادية لا تغني شيئاً أمام آيات الله وعذابه.
4. بيان سنة الله في أخذ الطغاة بعد استدراجهم بالآيات.
5. تثبيت المؤمنين المستضعفين بأن العقوبة للمتقين مهما طال الزمن.
6. كشف منطق الكبر عند الطغاة: ازدياد الحق وأهله، والاعتزاز بالمال والسلطان.
7. إظهار رحمة الله في إرسال الآيات المتتابعة لعلهم يرجعون.

القضايا الكبرى التي تناقشها الآيات:

القضية الأولى: قضية الكبر والغرور بالمال والسلطان
إن قريشاً - وهم سادة العرب وأغنيائهم - رأوا أن القرآن نزل على رجل فقير، فاستكبروا. فجاءت قصة فرعون لتذكرهم بأن من كان أعظم منهم سلطاناً ومالاً قد أهلكه الله. فالمال والجاه ليسا مقياس الكرامة عند الله.

القضية الثانية: قضية الاستهانة بأهل الحق
فرعون قال عن موسى إنه {مَهِينٌ} وثا يَكَاذُ يُبِينُ. {وقريش قالت عن النبي: فقير يتيم مسحور. الآيات ترد على هذه العقلية بأن الله يختار لرسالته من يشاء، لا من يختاره المأل.

القضية الثالثة: قضية الآيات والاستدراج
الله يرسل الآيات للطغاة، لا ليهلكهم فوراً، بل لعلهم يرجعون. ولكنهم يزدادون كفراً، فيأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر. هذه سنة الله في كل طاغية.

القضية الرابعة: قضية العقوبة والمصير
نهاية القصة المذكورة في الآيات التالية) آية 55 وما بعدها: {فَلَمَّا أَسْتَفْتَا أَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ}. وهذا هو ما ينتظر كل طاغية متكبر، ومنه قريش إن لم تؤمن.
المحور الأول

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ}.

افتتاحية القصة... التأكيد والعظمة وصورة الصراع

غوص في معنى {وَلَقَدْ}: الواو واللام وقد... ثلاثية التوكيد

دعني أقف بك عند فاتحة هذه القصة: {وَلَقَدْ}.

الواو: للعطف، تربط القصة بما سبق. فبعد أن أمر الله نبيه بالاستمسك، وبعد أن أمره أن يسأل أهل العلم من الأمم السابقة عن رسالات السماء، يأتي هذا المثال التاريخي العظيم مكملًا للصورة: "ولقد أرسلنا موسى..."

اللام: لام القسم، أي أقسم الله على هذا الخبر. إنه خبر موثوق به لا شك فيه.

"قد": حرف تحقيق وتوكيد. أي أن هذا الإرسال حدث بالفعل، وتحقق يقيناً لا ريب فيه.

فاتجمع في هذا المقطع ثلاثة مؤكدات: الواو العاطفة الرابطة، واللام المقسمة، وقد المحققة. إنه افتتاح عظيم لقصة عظيمة!

مثال تقريبي:
محام في مرافعته الختامية يقول للقاضي: "ولقد أخبرتك - وأقسم على ذلك - أن القضية قد حُسمت من قبل في سابقة تاريخية مماثلة!". فيجذب انتباه القاضي. هذا هو أسلوب القرآن مع مشركي قريش: "ولقد أرسلنا موسى ... فانظروا ماذا حدث لفرعون!".

{أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا}: الإرسال والتأييد الإلهي

{أَرْسَلْنَا}: إرسال مهمة واصطفاء. موسى نبي مرسل من الله، لا مدع ولا متقول.

{بِآيَاتِنَا}: تعدية الإرسال بـ "الباء" تفيد المصاحبة. أي أن موسى لم يذهب وحده، بل أرسلناه مصحوبًا بآياتنا. الآيات هي المعجزات الحسية (العصا، اليد البيضاء، الطوفان، الجراد، القمل، الضفادع، الدم...). وهي في الوقت نفسه آيات تشريعية (التوراة).

ووصف الآيات بأنها {آيَاتِنَا} بإضافتها إلى الله: تشريف لها، ودلالة على أنها من عنده قطعًا.

{إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ}: بيان الخصوم وطبيعة الصراع

{فِرْعَوْنَ}: علم على ملك مصر الطاغوي. وهو الذي قال: {أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ}. {إنه يمثل رأس الكفر و الطغيان.

{وَمَلَأَتْهُ}: أي أشرف قومه وعلية القوم وأصحاب الرأي والمشورة. وهم الذين يزينون له الباطل، ويثبتونه على الطغيان.

وإرسال موسى إلى فرعون وملئه تحديدًا يشبه إرسال محمد صلى الله عليه وسلم إلى قريش وملئها (أبي جهل، أبي لهب، الوليد بن المغيرة، عتبة، شيبة...). فالقصة مرآة تعكس حال النبي مع قومه.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: القصة وسيلة إقناع وتثبيت
الآيات تعلمنا أن ضرب الأمثال بالقصص التاريخية هو من أقوى أساليب الإقناع. فحين تريد أن تثبت مظلومًا أو تحذر ظالمًا، فذكره بتاريخ من سبق.

الرسالة النفسية: طمأنينة النبي بأنه ليس أول رسول يُكذَّب
النبي صلى الله عليه وسلم يرى قومه يكذبونه ويستهزئون به، فيأتيه المثل بموسى: لقد أرسل بآيات إلى فرعون وملئه. وهذا يخفف عنه، فما هو إلا حلقة في سلسلة الأنبياء المكرمين.

الرسالة التربوية: استخدام القصص في تربية الأبناء
استخدم القصص القرآني مع أبنائك. حين تراهم يتأثرون بموقف الكبر أو الغرور، قص عليهم قصة فرعون وملئه، ليتعظوا.
المحور الثاني

{فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}

إعلان الحق في وجه الباطل... كلمة التوحيد الأولى

غوص في معنى {فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}

تأمل هذه الجملة بكل ما فيها:

{فَقَالَ}: الفاء للتعقيب. أي فور أن دخل على فرعون وملئه، قالها صريحة واضحة، لا تردد ولا خوف. هذا هو شأن الأنبياء: يبلغون الحق ولا يخشون في الله لومة لائم.

{إِنِّي رَسُولُ}: "إنني" بدل "أنا"، فيها تأكيد وتشريف للمقام. "رسول" أي مرسل من عند الله، لست أنا الذي جئت من تلقاء نفسي.

{رَبِّ الْعَالَمِينَ}: رب العالمين هو الله، خالق كل شيء ومالكة. وهذه الصفة تحديداً هي التي تصدم عرش فرعون، لأنه كان يدعي أنه "رب العالمين" أو "ربكم الأعلى". فكأن موسى يقول له: "أنا رسول رب العالمين الحق، لا رب العالمين المزيف) أي أنت(!".

ففي هذا الإعلان: تأكيد للحق، وتحذير للباطل، ورفع لراية التوحيد في عقر دار الطاغوت.

مثال تقريبي:

موظف صغير في شركة كبيرة يطلب مقابلة المدير العام المتكبر، فإذا حضر قال له: "أنا مبعوث من رئيس الدولة إليك!". هنا المدير يرتجف، لأنه يعرف أنه مهما علا شأنه، فهو دون الرئيس. هذا هو حال موسى حين قال لفرعون: {إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

موقف فرعون من هذا الإعلان: استكبار وسخرية

الآيات التالية) في سور أخرى (تذكر رد فرعون على موسى. لكن الآية هنا تقتصر على ذكر قول موسى لتركز على الموقف: الحق أعلن، والباطل مدعو للاستماع. أما فرعون فقد استكبر وقال: {أَلَيْسَ لِي مَلِكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي}، وسخر من موسى قائلاً: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ}.

وهذا هو نفسه موقف قريش من النبي صلى الله عليه وسلم: {وَقَالُوا لَوْثَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ}. {كبر وغرور وازدراء للرسول بسبب فقره!

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: الداعية لا يتردد في إعلان الحق مهما كان الطاغية عظيماً، ومهما كان الداعية فقيراً، فإن الحق يجب أن يعلن بقوة ووضوح. فقال {إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

الرسالة النفسية: لا تخف من العظمة الزائفة فرعون كان عظيماً في أعين الناس، لكنه كان حقيراً في ميزان الله. فلا ترهب عظمة الطغاة، فهم إلى زوال.

الرسالة التربوية: علم أبناءك الصدع بالحق درب أبناءك على أن يقولوا كلمة الحق ولو أمام الأقوياء. فمن تعود الصدع بالحق منذ الصغر، صار بطلاً في الكبر.

المحور الثالث

{فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ}

موقف السخرية والاستهزاء... الجريمة الثانية بعد الكفر

غوص في معنى {فَلَمَّا جَاءَهُمْ}: المجيء والمواجهة

{فَلَمَّا}: الفاء للترتيب والتعقيب. "لما" تفيد التوقيت بحدوث الشيء. أي أن موسى بعد أن أعلن رسالته، واجههم بالآيات البينات.

{جَاءَهُمْ}: جاءهم بها وعرضها عليهم. لم يخفها، ولم يستح منها، بل واجههم بها مواجهة.

{بِآيَاتِنَا}: الآيات نفسها المذكورة سابقاً: العصا، اليد، الآيات التسع. آيات واضحة لا تدفع.

{إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ}: استقبال السخرية بدل الإيمان

{إِذَا}: فجائية. أي فجأة، وبدون تردد، كان رد فعلهم هو الضحك والسخرية! لم يتأملوا، لم يتفكروا، لم يخافوا. بل ضحكوا!!

{يَضْحَكُونَ}: فعل مضارع يفيد الاستمرار. أي جعلوا الآيات موضع سخرية دائمة. لم يكتفوا بالضحك

مرة، بل صار ديدنهم الضحك على آيات الله.

مثال تقريبي:

عالم فيزياء عظيم يدخل على جماعة من الجهلة المتكبرين، ويعرض عليهم تجارب مذهلة تثبت كروية الأرض. بدل أن يتأملوا، يضحكون منه ويقولون: "الأرض مسطحة، وأنت مجنون!". هذا هو حال فرعون وملئه مع آيات موسى.

علاقة هذا بموقف قريش من القرآن:

قريش فعلت الشيء نفسه مع النبي صلى الله عليه وسلم حين قرأ عليهم القرآن. بدل أن يتأملوا آياته، قالوا: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَقْلُبُونَ}، وسخروا منه ومن أتباعه. إنه التاريخ يعيد نفسه!

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: السخرية من الحق ليست دليلاً على الباطل. أن يضحك الناس من الحق لا يعني أنه باطل. السخرية سلاح العاجزين عن المواجهة بالعقل. فرعون سخر، وقريش سخرت، والحق انتصر في النهاية.

الرسالة النفسية: لا تهتز ثققتك إذا سخروا من دينك حين يسخر الناس من دينك أو من التزامك، تذكر موسى عليه السلام. لقد جاؤوا بآيات بينات، فسخروا. فاصبر واثبت، فالعاقبة للمتقين.

الرسالة التربوية: علم أبنائك ألا يكونوا سخرين السخرية من الآخرين وأفكارهم خلق فرعوني. رب أبنائك على احترام الرأي الآخر، حتى لو خالفهم، وأن يناقشوا بالحجة لا بالاستهزاء.

المحور الرابع

{وَمَا ثَرِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا}

تدرج الآيات الإلهية... من الصغرى إلى الكبرى

غوص في معنى {وَمَا ثَرِيهِمْ}: الاستدراج والإمهال

{وَمَا}: نافية. {ثَرِيهِمْ}: من الإراءة، أي نطلعهم ونبصرهم. والمعنى: أن الله أرسل لفرعون وملئه آيات متتابعة، آية بعد آية.

{مِّنْ آيَةٍ}: "من" للاستغراق. أي كل آية أريهموها.

{إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا}: "إلا" للحصر. والمعنى: أن كل آية تأتي بعد سابقتها تكون أعظم منها وأشد. فالآية الأولى عظيمة، والتي تليها أعظم، ثم التي تليها أعظم... وهكذا تتصاعد.

ما الحكمة في تدرج الآيات من الأصغر إلى الأكبر؟

1. إقامة الحجة بالتدرج: فلو أتهم الآية الكبرى أولاً، لربما قالوا: "لو أتانا بغيرها لآمنّا". فأتاهم بالآيات تدريجياً، لتقطع أعدائهم.

2. الاستدراج: ليظهروا عنادهم وإصرارهم على الكفر، فيستحقوا الهلاك.

3. الرحمة: لعلمهم إذا رأوا آية آمنوا، ثم إذا رأوا ما هو أعظم ازدادوا إيماناً.

مثال تقريبي:

طبيب يعالج مريضاً بداء مزمن. يبدأ بالدواء الخفيف، ثم المتوسط، ثم القوي. لماذا؟ ليعطي الجسم فرصة للاستجابة، وليقيم الحجة على المرض إن استعصى. هذا هو حال الله مع فرعون: أعطاه فرصاً متتابعة، فلما استعصى، أهلكه.

عظمة الآيات التسع التي أعطيت لموسى:

العصا) تنقلب ثعباناً، اليد البيضاء، الطوفان، الجراد، القمل، الضفادع، الدم، نقص الثمرات، الطمس على الأموال. كل آية أشد من سابقتها. ومع ذلك: {إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ}!

الربط مع قريش:

قريش رأت آيات النبي صلى الله عليه وسلم: القرآن، انشقاق القمر، الإسراء والمعراج... ومع ذلك كذبت وسخرت. فما أشبه الليلة بالبارحة!

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: سنة التدرج في الدعوة والتربية
الله يعلمنا أن التدرج سنة في التغيير. لا تستعجل النتائج، بل قدم الحجج بالتدريج، لعل القلوب تلين.

الرسالة النفسية: لا تيأس من تكرار المحاولة
حين ترى أن الناس لا يستجيبون، لا تيأس. كرر المحاولة بأساليب مختلفة، وبين لهم الأدلة الأكبر فأكبر. لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً.

الرسالة التربوية: التدرج في تربية الأبناء
لا تطلب من ابنك أن يصبح ملتزماً كاملاً في يوم وليلة. درجه في العبادات والآداب. اليوم صلاة، غداً قرآن، بعد غد صيام... هذا هو المنهج القرآني.

المحور الخامس

{وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}

العذاب الذي هو رحمة قبل أن يكون نقمة

غوص في معنى {وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ}: الأخذ والإمساك

{وَأَخَذْنَاهُمْ}: أخذه بمعنى عاقبه وعذبه. و"أخذناهم" بصيغة الجمع للعظمة. الله نفسه هو الذي أخذهم، فلا منجى لهم.

{بِالْعَذَابِ}: العذاب هنا هو الآيات السابقة نفسها) الطوفان، الجراد، القمل، الضفادع، الدم. (فهي آيات معجزة، ولكنها في الوقت نفسه عذاب أليم). وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسَّيِّئِ وَنَقَصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ.}

{لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}: غاية العذاب المؤقتة

{لَعَلَّهُمْ}: لعل هنا للتعليل، أي ليكون العذاب سبباً في رجوعهم.

{يَرْجِعُونَ}: أي يرجعون عن كفرهم، وعن تكذيبهم، وعن استهزائهم، وعن طغيانهم. يرجعون إلى الله.

فالعذاب هنا ليس انتقاماً خالصاً، بل هو تأديب وزجر، عسى أن يفيقوا من غفلتهم. إنها رحمة في صورة نقمة! {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمَلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

مثال تقريبي:

أب حكيم يرى ابنه يلعب بالنار. ينهاه، فلا ينتهي. فيقترب الإبن من النار حتى تحرق طرف إصبعه. فيصرخ الابن ويبيكي ويرجع إلى أبيه تائباً. الأب لم يرد إحراق ابنه، بل أراد أن يذوق عاقبة فعله ليرجع. هذا هو معنى {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

لكن... هل رجعوا؟

للأسف، لم يرجعوا. بل ازدادوا طغياناً. قالوا لموسى: {مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنُسْحَرَتَا بِهَا فَمَا تَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}. (فلما استنفدوا كل الفرص، جاءت النهاية الحتمية: {فَلَمَّا أَسْقَوْا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ}).

الربط مع قريش:

الله أرسل لقريش آيات كثيرة) القرآن، الجذب، القحط، آيات الأنفس والآفاق (...، وأمهلهم {لَعَلَّهُمْ

يَرْجِعُونَ. {لكنهم أصروا. فهل ينتظرون إلا مثل أيام الأولين؟!}

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: المصائب قد تكون نعمًا مقنعة
المصائب والعذاب في الدنيا قد تكون رحمة من الله، توقظ الغافل، وترد الشارد. فلا تستبطن رحمة الله حين ترى عذابًا، فلعل فيه خيرًا خفيًا.

الرسالة النفسية: خذ من المصائب فرصة للرجوع
حين تنزل بك مصيبة أو عذاب، لا تقل: "لماذا يا رب؟"، بل قل: "لعلها تذكرة منك يا رب لأرجع إليك". وانظر: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

الرسالة التربوية: استخدم أسلوب "العقاب التأديبي" مع الأبناء
لا تعاقب ابنك لتنتقم منه، بل عاقبه ليرجع عن خطئه. وذكره أن هذا العقاب لعله يرجع. وقل له: "أنا لا أكرهك، بل أحبك وأريدك أن ترجع عن هذا الخطأ".
المحور السادس

الأبعاد والآفاق من الآيات: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد الأول: البعد التاريخي - سنة الله في الأمم المكذبة
الآيات تفتح نافذة على التاريخ، ليرى كل ظالم ومتكبر مصيره المحتوم. وتلك الأيام ثداولها بين الناس. {والسنة لا تتبدل: من تكبر على الحق أهلكه الله ولو كان فرعون مصر.

البعد الثاني: البعد الاجتماعي - نقد ثقافة تقديس المال والجاه
الآيات - في سياقها مع قريش - تنقد المجتمع الذي يقدر المال والجاه، ويحتقر الفقراء وأهل الحق. فرعون سخر من موسى لأنه فقير. وقريش سخرت من محمد لأنه فقير. والقرآن يرد عليهم: العبرة ليست بالمال، بل بالحق.

البعد الثالث: البعد الدعوي - استراتيجية مواجهة الطغاة
الآيات ترسم استراتيجية للدعاة في مواجهة الطغاة: أعلن الحق بوضوح، لا تراوغ ولا تهادن، استخدم الآيات والحجج المتدرجة، ولا تيأس من عدم الاستجابة، واعلم أن العذاب آتيهم إن لم يرجعوا.

البعد الرابع: البعد التربوي - منهج التدرج في العقاب
الله لم يهلك فرعون فورًا، بل أرسل له موسى، ثم الآيات، ثم العذاب المؤقت، ثم العذاب الأكبر. هذا المنهج يعلم المربين والآباء والقادة ألا يستعجلوا العقاب الأكبر، بل يتدرجوا لعل المخطئ يرجع.

البعد الخامس: البعد الإيماني - الثقة بعدالة الله
الآيات تعطى المؤمن ثقة مطلقة بعدالة الله. الطاغية مهما علا شأنه، والمؤمن مهما استضعف... فإن العقاب للمتقين. {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}.

المحور السابع

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً: مواجهة عقلية "الاستكبار المادي"
في عصرنا، كثير من الناس ينظرون إلى الأغنياء وأصحاب السلطان نظرة تقديس، ويحتقرون الفقراء وأهل الدين. الآيات تدعونا لمواجهة هذه العقلية: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ فِرْعَوْنَ!}

مثال تقريبي:
شاب يستهزئ به زملاؤه لأنه يصلي ويلتزم، ويقولون له: "أنت فقير ومتخلف!". نقول لهذا الشاب: "ثق بأن الله معك. فرعون سخر من موسى وكان فرعون أغنى أهل الأرض. أين فرعون الآن؟ وغداً في الجنة ترى مكانك ومكانهم!".

ثانياً: التعامل مع السخرية من الدين وأهله

في عصر السوشيال ميديا، كثر الساخرون من الدين. هذه الآية تقول: هذا ليس جديدًا! إذا هم منْهَا يَضْحَكُونَ {هو موقف كل طاغية عبر التاريخ. فلا تحزن، ولا تنفعل، بل استمر في طريقك.

ثالثًا: فهم حكمة الابتلاءات والمصائب
في زمن الأوبئة والكوارث، يتساءل الناس: "لماذا؟". الآية تجيب: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}. {المصائب رسائل من الله لندرج إليه. فهل تنبهنا؟

المحور الثامن

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: المال والسلطان ليسا مقياس الحق
الآيات تؤسس مفهومًا فكريًا خطيرًا في وجه ثقافة الاستهلاك والمعاصرة: المال والجاه ليسا دليلًا على الحق. فرعون كان أقوى أهل الأرض، وكذلك قريش كانوا أغنياء العرب. ومع ذلك، كان الحق مع موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، وهما الفقيران المعذبان.

المفهوم النفسي: الثبات في وجه السخرية
الآية تعطي درسًا نفسيًا بليغًا: إذا هم منْهَا يَضْحَكُونَ {سخرُوا، لكن موسى استمر. لم ينهزم نفسيًا، ولم يتراجع. هذا هو الثبات النفسي الذي نتعلمه.

المفهوم التربوي: العقاب للتأديب لا للانتقام
{لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} {تعلمنا أن الهدف من العقاب هو الإصلاح والرجوع، لا مجرد الإيذاء والانتقام. هذه قاعدة تربوية ذهبية.

المحور التاسع

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: أن نتعظ بتاريخ الطغاة
الله يريد أن نعتبر بفرعون وملئه، وألا نكون مثلهم في الكبر والغرور. من قرأ هذه الآيات فليحاسب نفسه: هل في شيء من كبر فرعون؟

الإرادة الثانية: ألا نبالي بسخرية المكذبين
يريدنا أن نثبت، وألا نلتفت لضحك الساخرين واستهزائهم. {فاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ}.

الإرادة الثالثة: أن نستفيد من المصائب للتوبة
يريدنا أن نفهم أن المصائب والعذاب هي رسائل إلهية: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}. {فحين نمر بمحنة، لنرجع إلى الله.

الإرادة الرابعة: أن نثق بعدالة الله ونهايته للظالمين
يريدنا أن نوقن بأن كل طاغية سيهلك، وكل متكبر سيذل، وكل ظالم سيندم.

المحور العاشر

تحويل مفاهيم الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

المسار الأول: بناء الإنسان الثابت، الواثق بالحق، غير المكترث بسخرية المبطلين
الآيات تبني إنسانًا لا تزعجه سخريتهم، ولا يهزه استهزاؤهم. إنسانًا يمضي في طريق الحق كما مضى موسى، ويقول: {فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {بكل ثبات.

التطبيق العملي:

. كلما سخر أحد من تدينك، تذكر موسى وفرعون. وقل في نفسك: "هذه سنة الأقوياء المتكبرين مع الضعفاء المؤمنين. والعاقبة لي".
. مثال تقريبي: فتاة محجبة تتعرض للسخرية في الجامعة. بدل أن تنزعج، تبتمس وتقول لنفسها:

"فرعون سخر من موسى. أنا مع موسى".

المسار الثاني: بناء المجتمع الذي لا يقدر المال والسلطان
الآيات تهدم أسطورة "الغني القوي هو المحق". المجتمع القرآني يحترم أصحاب الحق ولو كانوا فقراء،
ويحتقر الطغاة ولو كانوا أغنياء.

التطبيق العملي:

. ربّ أبنائك على احترام الناس بالتقوى لا بالمال. امدح أمامهم الرجل الصالح الفقير، وذم الطاغية الغني.
. مثال تقريبي: أب يرى ابنه معجباً بشخصية غنية فاسدة. يقول له: "يا بني، اقرأ عن فرعون. كان أغنى الناس. أين هو الآن؟".

المسار الثالث: بناء الحضارة التي تستلهم التاريخ
الحضارة الإسلامية تستمد دروسها من التاريخ. لا تكرر أخطاء الماضين. تقرأ قصة فرعون فلا تتجبر،
وتعرف عاقبة الطغاة فلا تطفئ.

التطبيق العملي:

. في مناهجنا التعليمية، لا نسرد قصة فرعون كحكاية تاريخية، بل نستخرج منها سنن قيام الحضارات وسقوطها.
. مثال تقريبي: أستاذ تاريخ يحلل سقوط الحضارة الفرعونية، ويربط بين تجبر فرعون واستحقاقه الهلاك، وبين الدول المعاصرة التي تتجبر فتنتهار.

خاتمة: أين أنت من موسى؟ وأين أنت من فرعون؟

أيها القارئ الكريم...

لقد جلسنا مع هذه الآيات التي نقلتنا إلى مصر القديمة، إلى ساحة الصراع بين الحق والباطل، بين الكبر والتواضع، بين المال والإيمان. رأينا موسى يعلن كلمة الحق: {إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}. ورأينا فرعون وملاه: {إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ}. ورأينا رحمة الله في إمهالهم: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

والآن... أسألك بصدق:

. مع من أنت؟ مع موسى أم مع فرعون؟ مع المتواضع للحق ولو كان فقيراً، أم مع المتكبر على الحق ولو كان غنياً؟
. هل في قلبك ذرة من كبر فرعون تحتقر بها فقيراً أو تزدرى متديناً أو تسخر من داعية؟
. هل استفتدت من مصائبك ومحنتك لترجع إلى الله، أم أنك كفرعون: كلما زادك الله آية زدت كفرًا وسخرية؟

أجب عن هذه الأسئلة في صمت... ثم اختر: أن تكون من حزب موسى، لا من حزب فرعون.

المبحث الثاني

تفسير الآيتين (49-50) من سورة الزخرف،

تقدمة لا بد منها: موقع الآيتين من السياق ومن مشهد المحنة التي تكشف معادن القلوب

قف معي - يا رعاك الله - وقفة التأمل الذي يرى أن القرآن لا يسرد التاريخ سرداً بارداً، بل ينقله حياً نابضاً، كأنك تراه رأي العين. لقد كنا في الآيات السابقة (46-48) أمام مشهد المواجهة: موسى يعلنها صريحة: {إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، وآيات الله تتوالى عليهم أكبر فأكبر، وفرعون وملؤه يضحكون ويسخرون، والله يأخذهم بالعذاب {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

وهنا - في هاتين الآيتين - تنتقل الكاميرا القرآنية إلى مشهد جديد، مشهد يكشف الأعماق، ويصور الطبيعة البشرية حين تمسها الضراء. إنه مشهد البلاء وقد نزل بهم، والضيق وقد أحاطهم، والعذاب وقد أخذهم... فإذا بالجبابرة المستكبرين يتحولون إلى متوسلين متذللين، وإذا بالساحرين من موسى بـ

الأمس يأتون إليه اليوم يستشفعون!

إن الآيتين ترسمان لوحة متحركة حية، تريك فرعون وملأه وقد جاؤوا إلى موسى مكسورين، لا بسلطانهم ولا بمالهم ولا بجبروتهم، بل بذل وانكسار، ينادونه بذلك القلب الذي طالما استخدموه سخرية: {يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ}، وهنا يبرز السؤال: أهو تشريف منهم لهذه الصفة (لأن السحر كان علماً عندهم) أم هو سخرية مستمرة حتى في الذل؟ وإيا كان، فهم قد جاؤوا إليه طالبين أن يدعو لهم ربه ليكشف العذاب... وهنا يطلقون الوعد الأكبر: {إِنَّا لَمُهْتَدُونَ}.

ولكن... ما إن يكشف الله عنهم العذاب، حتى يعودوا إلى ما كانوا عليه، وإذا هم ينكثون العهد! قلنا كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون. ما السر؟ لماذا هذا النكث المستمر للعهود؟ لماذا تصلب القلوب وهي ترى الآيات البينات؟

إن الآيتين تجيبان إجابة نفسية عميقة: القلوب التي امتلأت بالجاه والمال والسلطان والكبر والغرور، وصارت عبداً لزخرف الدنيا، لا تنفعها الخوارق، ولا تؤثر فيها الآيات، ولا تهزها النذر. إنها قلوب بحاجة إلى تطهير جذري لا إلى آيات خارجية فحسب! إن قضيتهم ليست قضية أدلة وبراهين، بل قضيتهم مرض القلوب واستحواذ حب الدنيا عليها. هذه القلوب المريضة، حتى لو رأت كل آية، فإنها متى انفرجت الأزمة عادت إلى طبيعتها، لأن الإيمان لم يجد طريقاً إلى القلب، بل علق في العين فقط.

وهذا هو التشخيص القرآني العجيب لداء قريش أيضاً. إنهم ليسوا محتاجين إلى آيات حسية إضافية، بل هم محتاجون إلى تنظيف قلوبهم من أوساخ الكبر والغرور والاستعلاء بالمظاهر الخادعة. هذه القلوب إن لم تتطهر، فلن ينفعها ألف موسى ولا ألف آية. الكبر والغرور والاستعلاء يجعل صاحبه يتماهى ويتناول، ويتصور أنه في منأى عن غضب الله وقدرته، وأن ماله وسلطانه سيحميه من بأس الله. وهنا يكمن الوهم القاتل.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها والقضايا التي تناقشها

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيتان الكريمتان:

1. انقلاب الطغاة عند الشدة: {وَتَادَوْا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ} {بعد أن كانوا يسخرون منه}.
2. إطلاق الوعود الكبرى عند البلاء: {إِنَّا لَمُهْتَدُونَ}.
3. نكث العهود فور زوال البلاء: {إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ}.
4. عبودية الإنسان للوقت والأزمة، لا لله والحق.
5. العلاقة بين تعلق القلب بالدنيا ونكث العهود مع الله.

مقاصد الآيات وأهدافها:

1. كشف الطبيعة الإنسانية المريضة التي لا ترجع إلى الله إلا عند الشدة، ثم سرعان ما تنقلب على عقبيها.
2. تحذير قريش من أن حالهم مع محمد صلى الله عليه وسلم يشبه حال فرعون وقومه مع موسى، وأن العذاب إن جاءهم فلن ينفعهم وعد ولا عهد.
3. تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم بأن هؤلاء القوم ليسوا بدعاً في البشر، بل هم نموذج تكرر في التاريخ، فلا يحزن عليهم.
4. تعليم المؤمنين أن الإيمان الحقيقي لا يظهر في الشدة ويختفي في الرخاء، وأن الإيمان المبني على الخوارق وحدها إيمان منهار.

القضايا التي تناقشها الآيات:

القضية الأولى: قضية طبيعة الكفار النفسية وعدم استجابة قلوبهم للخوارق

الآيات تناقش قضية كبرى: لماذا لا تنفع الخوارق والمعجزات بعض الناس؟ والجواب: لأن المشكلة ليست في قلة الأدلة، بل في حالة القلب. القلب المتعلق بالدنيا، المملوء بالكبر والغرور، لا ينفعه برهان ولا دليل. إنه قلب أغلق نوافذه من الداخل.

القضية الثانية: قضية نكث العهود والمواثيق

الآيات تكشف ظاهرة النكت المتكرر للعهود الإلهية. إنهم كلما مسهم ضر دعوا الله مخلصين له الدين، فلما نجاهم إذا هم يشركون. هذا النمط ليس خاصاً بفرعون، بل هو طبيعة بشرية لدى من لم يصل إلى إيمان إلى شغاف قلبه.

القضية الثالثة: قضية الكبر والغرور والاستعلاء بالمظاهر الخادعة

الآيات تشير إلى أن سبب كل هذا هو الكبر والغرور. فرعون وملؤه اغتروا بالمال والسلطان والجاه، فاستعلوا على الحق، واستخفوا بموسى، واستهانوا بآيات الله. هذا الكبر يولد وهماً قاتلاً بأن صاحبه في منأى عن غضب الله.

القضية الرابعة: قضية تطهير القلوب قبل طلب الآيات

الآيات تشير إلى أن الحل ليس في مزيد من الآيات، بل في تطهير القلوب من أوساخ الشهوات والكبر والغرور. فالقلب النظيف يرى الآية الواحدة فيهندي، والقلب الوسخ يرى ألف آية فلا يزداد إلا ضلالاً.

المحور الأول

{وتَادُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُتُّدُونَ}

اللوحة المتحركة الأولى... مشهد الذل بعد العز، والتوسل بعد السخرية

غوص في معنى {وتَادُوا}: المشهد الحي للاستغاثة

دعني أضحك في قلب هذا المشهد الحي الذي ترسمه الآية.

تصور معي: فرعون، ذلك الطاغية الذي قال: {أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى}، وملؤه الذين أيده وشفقوا له... لقد نزل بهم العذاب. الطوفان يغمرهم، أو الجراد يأكل زرعهم، أو القمل يفتك بهم، أو الضفادع تملأ بيوتهم وأطعمتهم، أو الدم يغير أنهارهم... وها هم الآن مذعورون مضطربون. ذهب الكبر، وتبخرت العظمة، واختفت السخرية. لم يبق إلا الذل والخوف.

{وتَادُوا}: الواو للعطف على ما سبق من أخذهم بالعذاب. "نادوا" أي صاحوا واستغاثوا ورفعوا أصواتهم. والنداء فيه إيذان بالشدة والفرع. إنهم لم يقولوا كلاماً عادياً، بل نادوا بصوت عال من شدة الكرب.

مثال تقريبي:

تخيل رجلاً متكبراً يقول للناس: "أنا الغني عنكم وعن الله". ثم فجأة يقع من شاق، فيتعلق بصخرة ويصرخ: "يا فلان! أنقذني!". هذا هو فرعون: كان يقول {أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى}، فلما نزل به العذاب صاح بموسى مستغيثاً!

{يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ}: إشكالية النداء... تعظيم أم سخرية أم اعتراف مقنع؟

وهنا - يا رعاك الله - ندخل في بلاغة قرآنية ساحرة. هذا النداء: {يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ} يحتمل ثلاثة أوجه، وكلها مرادة ومتحققة:

الوجه الأول: أنه تعظيم وإقرار بعلم موسى عليه السلام

لقد كان السحر في مصر القديمة علماً رفيعاً، وكان السحرة هم العلماء وأهل المكانة. وكان المصريون يجلون السحرة ويهابونهم. فعندما نزل بهم العذاب، تذكروا أن موسى عليه السلام - في نظرهم - هو أعظم ساحر عرفوه، لأنه غلب سحرتهم العظام. فنادوه بهذا الوصف لا للسخرية، بل لأنهم في تلك اللحظة رأوا فيه القوة والعلم القادر على كشف الضر. إنه لقب تعظيم في سياقهم الثقافي!

الوجه الثاني: أنه سخرية متأصلة حتى في الذل

في المقابل، قد يكونون - حتى في هذا الموقف المهين - مصريين على السخرية والاستهزاء. لقد كانوا ينادونه بهذا اللقب احتقاراً قبل العذاب (كما ورد في آيات أخرى: {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ، وتكرر منهم هذا النداء، وكأنهم لا يستطيعون أن يتجاوزوا عن كبريائهم فيعترفوا له بالنبوة. حتى وهم

يستغيثون به، لم يقولوا "يا أيها النبي" أو "يا أيها الرسول"! بل قالوا: {يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ}! إنه كبر متجذر، يرفض أن ينطق بكلمة الحق ولو في ساعة الحرج.

الوجه الثالث: أنه اعتراف مقنع بعظمة موسى مع بقاء الكبر ظاهريًا

وهذا وجه بديع: هم في قرارة أنفسهم يعرفون أن موسى نبي صادق، وأن السحر برئ منه، لكن كبرياءهم يمنعهم من الاعتراف. فجمعوا بين أمرين: أرادوا الاستغاثة به، فأظهروا له تعظيمًا (بوصف الساحر العالم)، وأرادوا ألا يعترفوا بنبوته، فلم يستخدموا ألفاظ النبوة والرسالة. إنها ازدواجية المنافقين والمستكبرين!

مثال تقريبي:

تخيل رجلاً يخاصم أخاه الأكبر، ويعرف أنه على حق، لكنه لا يريد أن يقول له: "أنت على حق". فإذا احتاج إلى مساعدته، قال له: "يا صاحب الخبرة... ساعدي!". لم يعترف بالحق كاملاً، لكنه أقر بشيء من فضله مغلًا. هذا هو حال فرعون وملئه مع موسى.

{ادْعُ لَنَا رَبَّنَا}: الدال المطلق والاعتراف الضمني بالربوبية

تأمل الجملة: {ادْعُ لَنَا رَبَّنَا}.

كلمة {رَبَّنَا} فيها اعتراف ضمني بأن لموسى ربًا خاصًا به، يسمع دعاءه ويستجيب له. وهذا اعتراف خطير من فرعون! إنه - دون أن يشعر - يعترف بأن رب موسى هو الإله الحق القادر على كشف الضرر. لقد قالها في ساعة الشدة، فسقط قناع الألوهية المزعومة!

ولكنهم لم يقولوا: "ادع لنا ربنا"، ولا "ادع لنا الله"، بل قالوا: {رَبَّنَا}. إنها أنانية المستكبرين: حتى في الدعاء لا ينسبون أنفسهم إلى الله! هم يريدون النجاة بوساطة موسى، دون أن يدخلوا هم في دينه. يريدون المنفعة دون الانتماء!

{بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ}: الاستشفاع بما أعطاه الله لموسى من نعمة النبوة

{بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ} أي بالعهد الذي عهده الله إليك، وبالمنزلة التي جعلها لك عنده. والمعنى: "توسل إلى الله بحق ما عهد إليك من النبوة والرسالة". هذا اعتراف آخر بأن لموسى عهدًا خاصًا عند الله لا يناله كل أحد.

إنهم في ساعة الشدة يعترفون بكل شيء كانوا ينكرونه! يعترفون بأن لموسى ربًا، وأن له عهدًا خاصًا عند هذا الرب، وأن دعاءه مستجاب. إنها شهادة حق تخرج من قلوبهم تحت وطأة العذاب، ولكن هل ستدوم؟

{إِنَّا لَمُهْتَدُونَ}: الوعد الأعظم الذي تكرر وثكت

وهنا - يا رعاك الله - يصل المشهد إلى ذروته. بعد الاستغاثة والتوسل، يطلقون الرصاصة الأخيرة، الوعد الأكبر: {إِنَّا لَمُهْتَدُونَ}.

تأمل صيغة التوكيد: {إِنَّا}. إنها إن والضمير ونون التوكيد! جمعوا فيها ضمير الجمع مع التوكيد البليغ. إنهم يحلفون ويؤكدون بكل ما أوتوا من قوة.

{لَمُهْتَدُونَ}: اللام للتوكيد. "مهتدون" أي سنؤمن، سنتبعك، سنسلم لربك، سنكون على الهدى. إنه وعد شامل كامل بالإيمان والتسليم.

ولكن... أين هي قلوبهم؟ هل قالت هذا من صميمها، أم أن لسانها قالته تحت سوط العذاب؟

مثال تقريبي:

تخيل تاجرًا محتالًا أو شك على الإفلاس، فذهب إلى رجل صالح يستقرضه مالا. قال له: "والله العظيم، إن أعطيتني لأصلحن حالي، ولأدفعن الحقوق، ولأتركن الغش!". هذا هو وعد فرعون: {إِنَّا لَمُهْتَدُونَ}. لكن هل هذا الوعد نابع من القلب حقًا، أم هو وعد المصلحة المؤقتة؟

الرسائل والدروس والتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: الإنسان بلا إيمان يتقلب بين الكبر والذل
الآية ترينا أن فرعون الذي قال: {أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى} هو نفسه الذي قال: {ادْعُ لَنَا رَبَّكَ}. هذا هو الإنسان بـ
لا إيمان! في الرخاء متكبر جبار، وفي الشدة ذليل منكسر. لا توازن ولا استقامة. أما المؤمن فهو عبد
لله في الحالين: شاكر في الرخاء، صابر في البلاء.

الرسالة النفسية: لا تغتر بوعود المصلحة المؤقتة
حين ترى الناس يتقربون إليك عند الشدة ويعدونك بالصلاح، فاعلم أن منهم من يصدق، ومنهم من
يكذب. لا تغتر بالوعود المؤقتة، بل انظر إلى حالهم في الرخاء بعد الشدة.

الرسالة التربوية: ربّ أبنائك على الصدق في الرخاء والشدة
علمهم ألا يكونوا كفرعون، يذكرون الله عند الحاجة وينسونه عند النعمة. علمهم أن الله يُعبد في
السراء والضراء.

المحور الثاني

{فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ}

اللوحة المتحركة الثانية... الانقلاب الفوري بعد زوال البلاء

غوص في معنى {فَلَمَّا كَشَفْنَا}: الفاء وسرعة الانقلاب

تأمل الفاء: {فَلَمَّا}. إنها تدل على سرعة الانقلاب والتعقيب الفوري. لم تمر أيام، ولا أسابيع، ولا تأملوا
ولا تفكروا. بل بمجرد أن كشف الله عنهم العذاب، في اللحظة نفسها تقريباً، إذا هم ينكثون.

{كَشَفْنَا}: بضمير الجمع للعظمة. الله هو الذي كشف عنهم. لم يكشفه موسى، ولا السحر، ولا الصدفة.
الله وحده هو الذي كشف. وكان يجب أن يكون هذا الكشف سبباً للإيمان، لا للنكث.

{عَنْهُمْ}: الكشف عنهم يشعر أن العذاب كان قد أحاط بهم إحاطة الغطاء بالمتغطي. فلما كشفه الله،
صاروا في سعة بعد ضيق، وفي نور بعد ظلمة.

{إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ}: الفجائية وصورة النكث المتجدد

{إِذَا}: فجائية. أي فاجأوا موسى وفاجأوا الله وفاجأوا أنفسهم بهذا النكث السريع! لم يترثوا، لم
يتأملوا، لم يشكروا. بل فوراً نكثوا.

{يَنْكُثُونَ}: فعل مضارع يفيد الاستمرار والتجدد. أي أن النكث صار عادة متأصلة فيهم. كلما نزل بهم
عذاب وعدوا، وكلما كشف عنهم نكثوا. إنه نمط متكرر، وسلوك راسخ، وطبع متأصل.

مثال تقريبي:

تخيل مريضاً ذهب إلى الطبيب وهو يتألم من حصوة في الكلى. قال للطبيب: "والله لئن شفيتني لأ
ترك التدخين والأكل المضراً". فأعطاه الطبيب دواء، فتعافى. خرج من العيادة، فرأى صديقاً له، فقال
له: "هيا بنا إلى المطعم!". هذا هو النكث الفوري. هذا هو حال فرعون وملئه تماماً.

لماذا ينكثون؟ تشريح الأسباب الجذرية:

الآية هنا لا تذكر السبب؛ لأن السياق كله شرحه في مواضع أخرى. ولنجمع الأسباب من القرآن:

السبب الأول: الإيمان لم يجد طريقاً إلى القلب، بل كان إيمان لسان فقط

هؤلاء رأوا الآيات بأعينهم، لكن قلوبهم لم تتأثر. القلوب كانت مشغولة بأمر آخر: مشغولة بالدنيا، بـ
المال، بالسلطان، بالجاه، بالكبر. فالإيمان إن لم يستقر في القلب، نكث صاحبه العهد فور زوال المحنة.

السبب الثاني: عبودية الدنيا وزخرفها

{وَقَرَعُونَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَاثُوا خَاطِئِينَ}. الخطيئة هنا هي عبودية الدنيا. فرعون كان يملك مصر، والأثهار تجري من تحته، والكنوز تحت قدميه. فكيف يترك هذا كله ليؤمن بموسى؟! إن الإيمان يكلفه: أن يترك عرشه، أن يعترف بأنه ليس رباً، أن يخضع لموسى الفقير. هذا ثمن لا يستطيع أن يدفعه!

السبب الثالث: الكبر والغرور والاستعلاء بالمظاهر الخادعة

القلب المملوء بالكبر لا يسعه إيمان. الكبر هو الذي جعل فرعون يقول: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ}. وهذا الكبر نفسه منعه من الاهتداء حتى بعد أن رأى كل الآيات.

السبب الرابع: وهم الأمان من غضب الله

المتكبر يتصور أنه في منأى عن غضب الله. فرعون قال: {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً}، وقال: {أَلَيْسَ لِي مَلَكٌ مُّصْرٌ}. بهذا الوهم، يتصور أن عذاب الله بعيد، وأن سلطانه سيحميه. وهم قاتل!

السبب الخامس: نقض العهود صار طبعاً متأصلاً

{يَنْكُثُونَ} بالفعل المضارع. أي أنهم احترقوا النكت وصار طبيعة ثابتة فيهم. فكما يتنفسون، ينكثون! لأنهم تعودوا الكذب، حتى صار سجية.

الرسائل والدروس والتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: الإيمان المبني على الخوارق وحدها إيمان متزلزل
الآية ترينا أن رؤية الخوارق لا تصنع إيماناً حقيقياً إن لم يكن القلب طاهراً. الإيمان الحقيقي هو إيمان القلب مطمئن بالله، لا إيمان العين التي رأت معجزة ثم انصرفت.

الرسالة النفسية: احذر أن تكون من "عباد الوقت"
كثير من الناس يعبد الله وقت الشدة، وينساه وقت الرخاء. هذا مرض نفسي روحاني. تشخصه الآية وتعالجه: كن عبداً لله في الحالين.

الرسالة التربوية: علم أبناءك أن العهد مع الله ليس للمساومة
لا تجعل أبناءك يربطون التزامهم الديني بالمصالح. لا تقل لهم: "صلّ تنجح". بل قل: "صلّ لأن الله يستحق العبادة، والنجاح تفضل منه". الإيمان المقايضة يزول بزوال المحنة.
المحور الثالث

العلاقة الجوهرية: لماذا لا تنفع الخوارق مع القلوب الممتلئة بزخرف الدنيا؟

هنا - يا رعاك الله - ندخل في صلب التشخيص القرآني. الآيتان تثيران سؤالاً "محورياً": لماذا لم يؤمنوا وقد رأوا كل هذه الآيات؟ لماذا نكثوا العهد؟

والجواب القرآني - الذي ينطق به سياق السورة كلها - هو:

أولاً: القلوب المشغولة بالدنيا لا تجد فيها الرسالة الإلهية موضعاً

مثل القلب كمثّل إناء. إن كان الإناء مليئاً بالماء، فلن تستطيع أن تضع فيه زيتاً. القلب الذي امتلأ بحب الدنيا، وامتلاً بالجاه والمال والسلطان والكبر، لا يجد الإيمان فيه مكاناً! {كَلَّا بَلْ رَأَنَّا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}. الرين: هو الغطاء الذي يغلف القلب فلا ينفذ إليه نور.

فرعون وملؤه امتلأت قلوبهم بمصر وكنوزها وأنهارها وعرشها. فكيف يفرغون هذا كله ليملاؤه بالإيمان؟

ثانياً: الكبر والغرور حجاب أغلظ من الحديد

الكبر هو رأس كل خطيئة. إبليس كفر بسبب الكبر، وقال: {أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ}. وفرعون قال: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ}. إنها الكلمة نفسها: "أنا خير منه". الكبر يجعل صاحبه يرى الحق في نفسه، و الباطل في غيره. يرى الناس دونه، فيرفض أن يكون تابعاً لأحد منهم.

إن فرعون - في وهمه المتكبر - يرى أن الإيمان بموسى يعني الخضوع لرجل فقير، وهذا لا يليق بمنصب "الرب الأعلى" فالكبر منعه من رؤية الحق حتى لو كان الشمس.

ثالثًا: الاستعلاء بالمظاهر الخادعة وهم قاتل

فرعون وملؤه اغتروا بالمظاهر: {أَلَيْسَ لِي مَلِكٌ مِّثْلُ مِثْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي}. هذه المظاهر الخادعة جعلتهم يتصورون أنهم في منأى عن غضب الله. من كان يملك مصر كلها والأنهار تجري من تحته... أ يخاف من عذاب الله؟!

وهذا هو نفسه داء قريش. لقد قالوا: {تَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا تَحْنُ بِمُعَدِّيْنِ}. المال والولد جعلاهم يستعلون ويستكبرون، ويتوهمون أنهم فوق قدرة الله!

رابعًا: الخوارق تفيد إن كان القلب طاهرًا، وإن كان وسخًا لم تنفع

إن الله لم يعط فرعون وملؤه آية واحدة، ولا آيتين، بل تسع آيات بينات! ومع ذلك: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}. لقد استيقنت أنفسهم أنها حق من عند الله، لكنهم جحدوا بها! لماذا؟ {ظُلْمًا وَعُلُوًّا} أي بسبب الظلم والعلو والكبر.

فالمشكلة إذن ليست في الخوارق ولا في كثرتها، بل المشكلة في القلب الذي يرى الحق ويعرفه، لكنه يرفضه للحفاظ على مصالحه ومكانته. هذا القلب يحتاج أولاً "إلى تطهير من الأمراض الباطنة: الكبر، حب الدنيا، الغرور، حب الرياسة. إنه يحتاج إلى "غسيل" لا إلى "آية" جديدة!

مثال تقريبي:

تخيل امرأة يعلوها غبار كثيف. أنت تضع أمامها أجمل صورة في العالم، لكنها لا تعكس شيئًا. هل المشكلة في الصورة؟ كلا! المشكلة في المرأة. امسح الغبار أولاً، ثم انظر في المرأة ترى الصورة. القلوب المريضة المتعلقة بالدنيا هي امرأة متربة. والآيات هي صور الحق. ولا تنفع الصورة مهما كانت جميلة إن كانت المرأة لا تعكس.

المحور الرابع

الأبعاد والآفاق من الآيات: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد الأول: البعد النفسي - طبيعة النفس البشرية بين الشدة والرخاء

الآيات تكشف البعد النفسي العميق للإنسان. الإنسان - بلا إيمان راسخ - يتقلب بين الخوف والطمع، بين التذلل والتكبر، بين التوبة والمعصية. هذه الطبيعة لا تستقيم إلا بالإيمان الحقيقي.

البعد الثاني: البعد الاجتماعي - المجتمعات المادية لا تصنع إيمانًا

مجتمع فرعون كان مجتمعًا ماديًا بامتياز: يقدس المال، ويعبد السلطان، ويزدري الفقراء. هذا المجتمع لا يمكن أن ينتج إيمانًا، لأن الإيمان يتطلب تواضعًا، والمجتمع المادي ينتج كبرًا. الآيات تحذر من بناء مجتمع على الماديات وحدها.

البعد الثالث: البعد التربوي - تربية القلب على الصدق مع الله

الآيات تعلم المربين أن الهدف الأسمى هو بناء قلب صادق مع الله، لا مجرد سلوك ظاهري. الأبناء إن تعودوا الالتزام في الشدة فقط، سينكثون في الرخاء. فعليًا أن نربيهم على عبادة الله لأنه يستحق العبادة، لا لمصلحة.

البعد الرابع: البعد الحضاري - سقوط الحضارات يبدأ من فساد القلب

حضارة فرعون سقطت لأنها قامت على الكبر والغرور والظلم، لا على التوحيد والتواضع والعدل. الحضارة المادية التي لا روح فيها، والتي تنكر الآخرة، مصيرها إلى زوال مهما بلغت من القوة.

البعد الخامس: البعد الإيماني - حقيقة الإيمان أنه طمأنينة القلب بالله، لا تصديق العين للخوارق

الإيمان الحقيقي هو إيمان القلب. {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا} قل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}. الإيمان ليس مجرد رؤية آية أو النطق بالشهادة عند الخوف. الإيمان هو رسوخ العقيدة في القلب حتى لا تزعزعها الشدائد ولا تغيرها النعم.

المحور الخامس

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً: محاربة ظاهرة "الإيمان الموسمي"

في عصرنا، كثير من الناس يصلي ويدعو ويتضرع وقت الامتحانات أو الأمراض أو الأزمات المالية. فإذا انفرجت الأزمة، عاد إلى الغفلة. الآيات تدعونا إلى أن نكون عبيداً لله في الحالين، لا عبيداً للوقت.

مثال تقريبي:

شاب لا يصلي إلا وهو مريض أو خائف من رسوب. نقول له: "أنت تشبه فرعون في هذه الصفة: {إِنَّا لَمُهْتَدُونَ} وقت الخوف، {يَنْكُثُونَ} وقت الأمان. كن عبداً لله في كل حال".

ثانياً: نقد ثقافة "المصلحة" في التدين

كثير من الممارسات الدينية في عصرنا صارت مرتبطة بالمصلحة الدنيوية: "صلّ لتنجح، تصدق لتغنم". هذه الثقافة تهدم الإيمان الحقيقي، وتجعل صاحبها عرضة للنكث إذا لم تتحقق المصلحة.

ثالثاً: الاهتمام بتطهير القلوب لا بطلب الخوارق

في عصر يطلب فيه الناس الكرامات والخوارق والمظاهر الخارقة، تدعونا الآيات إلى أن ننشغل بتطهير قلوبنا من الكبر والغرور وحب الدنيا، فهذا هو الأساس. {قَدْ أَقْلَحَ مِنْ زُكَاهَا}. المحور السادس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: الخوارق لا تصنع إيماناً إن غاب القلب الطاهر

الآيات تؤسس مفهوماً فكرياً: أن الإيمان ليس مجرد قناعة ذهنية تنشأ عن مشاهدة خارق، بل هو فعل قلب، يحتاج إلى تربة صالحة.

المفهوم النفسي: الإنسان بلا إيمان كالقشة في مهب الريح

إذا كان الإيمان سطحياً ومصدره المصلحة، فإن صاحبه يتقلب: في الشدة ذليل أواب، وفي الرخاء مستكبر نكاث. أما الإيمان العميق فيمنح النفس استقراراً وثباتاً.

المفهوم التربوي: التربية على العبادة لله لا للمصلحة

الآيات تشكل أساساً صلباً للتربية. إياك أن تربط طاعة الله بالمصالح الدنيوية في عقل الطفل، بل اجعل الله هو الغاية، وهو وحده المستحق للعبادة.

المحور السابع

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: أن نعالج قلوبنا من الكبر والغرور

الله يريد أن ننظر إلى قلوبنا، فنتفقد منها مرض الكبر، ومرض حب الدنيا، ومرض الاغترار بالمظاهر. هذه الأمراض هي التي تجعلنا كفرعون، نرى الحق ثم ننكث.

الإرادة الثانية: أن نكون أصحاب عهد لا ننكث

يريدنا أن نكون {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ}، لا مثل فرعون وملئه: يعاهدون وينكثون.

الإرادة الثالثة: ألا نكون من "عباد الوقت والمصلحة"

يريدنا أن نعبد في السراء والضراء، في الرخاء والشدة. وألا نجعل علاقتنا به علاقة منفعة وقتية.

الإرادة الرابعة: أن نثق بأن الله يمهّل ولا يهمل

فرعون نكث مراراً، والله أمهله. لكن لما جاء الأجل، جاء بغتة. يريدنا الله أن نثق بعدالته، فلا نغتر بإمهاله، ولا نياس من نصره.

المحور الثامن

تحويل مفاهيم الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

المسار الأول: بناء الإنسان الصادق العهد مع الله، الثابت في السراء والضراء

الآيات تبني إنساناً لا يتغير بتغير الظروف. إنساناً يعاهد الله فيفي، ويثبت في كل حال، لأنه يعبد الله لا المصلحة. هذا الإنسان هو نواة كل خير.

التطبيق العملي:

- . تفقد قلبك. اسأل نفسك: هل عبادتي ودعائي يزداد في الشدة وينقص في الرخاء؟ عدل مسارك.
- . إذا عاهدت الله على طاعة، اكتبها، وذكر نفسك بها، ولا تكن من الناكثين.
- . مثال تقريبي: كلما نجحت في أمر وفرج همك، اسجد لله شكراً، وتصدق بشيء، كي تربط الرخاء بالعبادة كما كنت تربط الشدة بها.

المسار الثاني: بناء المجتمع الذي يزيك القلوب لا الذي يكس الماديات

المجتمع الذي يعيش أفرادُه قصة فرعون، متنقلين بين الخوف والرجاء، لا يمكنه أن يبني حضارة. الآيات تبني مجتمعاً يهتم بتزكية النفوس، وتربية القلوب على الصدق والوفاء والثبات.

التطبيق العملي:

- . في مسجدك أو حيك: أقم حلقات لدراسة "أمراض القلوب" (الكبر، الرياء، حب الدنيا) (وعلاجها، فذلك أنفع من ألف محاضرة فقهية سطحية).
- . مثال تقريبي: مجتمع يعاني من ظاهرة "صلاة الجمعة فقط طوال الأسبوع". بدلاً من توبيخهم، أقم لهم درساً عن "الصدق مع الله"، وكيف أن المنافقين يذكرون الله قليلاً.

المسار الثالث: بناء الحضارة القائمة على التوحيد، لا الحضارة القائمة على الخوارق والماديات

الحضارة الإسلامية لم تقم على السيف ولا على الخوارق، بل قامت على قلوب زكية آمنت بالله فأحبت الله وأخلصت له. هذه هي الطاقة التي نبني بها حضارتنا اليوم.

التطبيق العملي:

- . لا تنخدع بحضارة المادة، ولا تطلب كرامات وخوارق لتقوية إيمانك. اطلب من الله قلباً سليماً، فهو أغلى ما في الوجود.
- . مثال تقريبي: أصحاب شركة ناشئة يريدون النجاح. بدلاً من الاعتماد على الحيل التسويقية الرخيصة، يبنون شركتهم على الصدق والأمانة وتقوى الله، واضعين هذه الآيات نصب أعينهم.

خاتمة: أين أنت من صورة فرعون الغارق في وادي النكث؟

أيها القارئ الكريم...

لقد جلسنا معاً أمام هذه اللوحة القرآنية الحية التي صورت لنا مشهداً يتكرر كل يوم في دنيا الناس: مشهد الإنسان الذي يحاصره البلاء فيتضرع، فإذا أنجلي البلاء نكت وولى مدبراً. رأينا فرعون وملاه يصيحون: {يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ}، ويحلفون: {إِنَّا لَمُهْتَدُونَ}، ثم ما أن تنفجر الأزمة حتى ينقلبوا: {إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ}.

والآن... أسألك بصدق من قلبي إلى قلبك:

- كم مرة في حياتك ناديت ربك وقت الشدة، وأعطيته عهداً ومواثيق بأنك ستستقيم، وتستقيم، ثم كشف الله عنك الضر... فماذا كان موقفك؟ هل كنت من الصادقين، أم من الناكثين؟
- هل في قلبك ذرة من كبر فرعون، تمنعك من قبول الحق لأن صاحب الحق ليس من طبقتك أو مستواك؟
- هل اغتررت يوماً بمالك أو جاهك أو منصبك فتوهمت أنك في منأى عن قدرة الله؟
- هل عرفت الآن - بعد هذا الشرح - أن الحل ليس في رؤية المزيد من آيات الله، بل في تطهير قلبك من أوساخه، وتنظيفه من غروره وكبره، ليصبح أهلاً لاستقبال نور الله؟

أجب عن هذه الأسئلة في سريرتك... وادع الله أن يظهر قلبك، ويثبتك على العهد.

المبحث الثالث

ها هو تفسير الآيتين (51-52) من سورة الزخرف تقدمه لا بد منها: موقع الآيتين من السياق ومن مشهد الخوف والهزيمة عند المتكبر

قف معي - يا رعاك الله - وقفة التأمل الذي يرى أن هذا القرآن العظيم يعرِّينا أمام أنفسنا، ويكشف لنا خبايا النفوس وأعماقها، ويرينا صراع الحق والباطل ماثلاً كأننا نراه رأي العين.

لقد كنا في الآيتين السابقتين (49-50) أمام مشهد فرعون وقد نزل به العذاب، فانقلب من الجبروت إلى الذل، ومن السخرية إلى الاستغاثة: {وَتَادُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ}. رأينا مكسوراً يستشفع بموسى، ويطلق وعود الإيمان العظام: {إِنَّا لَمُهْتَدُونَ}. ثم شهدنا الانقلاب الفوري: {فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ}.

وهنا - بعد هذا المشهد - تعود الكاميرا القرآنية لتكشف لنا ما حدث بين فرعون وملكه بعد أن عاد إلى عافيته، وبعد أن نكت عهده. إنه مشهد جديد، يكشف لنا الحالة النفسية للمتكبر المغرور الذي أصيب بهزيمة داخلية مما جاء به موسى من آيات.

إن فرعون لم يكن مجرد طاغية غبي؛ لقد كان ذكياً يدرك خطر ما حدث. لقد رأى الآيات، ورأى سحرته يسجدون لموسى، ورأى شعبه يضج تحت وطأة العذاب ويلجأ إلى موسى. لقد رأى كل هذا... وهو يعلم - في قرارة نفسه - أن موسى على حق. لكنه خائف! خائف على ملكه، خائف على سلطانه، خائف أن يتبعه قومه ويتركوه.

وهنا، بدل أن يتوب ويسلم، لجأ إلى حيلة الطغاة في كل زمان ومكان: التودد للجماهير، استعطافهم، إظهار نفسه بمظهر الأب الرحيم والزعيم القريب، محاولاً أن يصرف أنظارهم عن الحقائق التي يقدمها موسى، وأن يلفتهم إلى الماديات التي يملكها هو، وإلى فقر موسى وضعفه. إنه المشهد نفسه الذي يتكرر اليوم: حكام ومشايخ ورؤساء عشائر، إذا شعروا أن شعوبهم تنفض عنهم وتلتف حول دعاة الحق؛ فماذا يفعلون؟ يلجأون إلى التودد لهم، ويستعملون أدوات التعبير اللطيفة، ويظهرون بمظهر "أهل العطف والبر"، فإذا انتهت الفترة الحرجة، عادوا إلى القمع والاستبداد والتجويع!

هكذا ترسم لنا الآيتان مشهداً حياً متحركاً: فرعون يستعلي بالمال والجاه والسلطان، ويستعطف قومه بحمية العصبية والقبيلة، ويقلل من شأن موسى وهارون، وينسج شبكة من الحجج الواهية ليحول بين قومه وبين الإيمان.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها والقضايا التي تناقشها

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيتان الكريمتان:

1. تودد فرعون لقومه خوفاً على ملكه: {وَتَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ - استنجد بالعصبية.
2. الاستعلاء بالمال والسلطان: {أَيُّسَ لِي مَلِكٌ مِصْرَ} - تفاخر بالماديات.

3. التقليل من شأن الدعاة الفقراء: { وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ. }
4. الاستهانة بالمؤمنين بسبب ضعفهم المادي: { أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ. }
5. الطعن في قدرات الداعية اللغوية والنفسية: { وَلَا يَكَادُ يُبِينُ. }
6. تأليه المال والذهب وجعله مقياساً للقيمة: { قُلُوا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ. }
7. منطق الماديين في اشتراط القوة المادية للرئاسة والقيادة: { أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ. }

مقاصد الآيات وأهدافها:

1. كشف طبيعة الطغاة المتكبرين وكيفية تعاملهم مع الجماهير وقت الخطر.
2. تحذير النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من أساليب الطغاة الملتوية في صرف الناس عن الحق.
3. إثبات أن الاستعلاء الحقيقي بالحق والإيمان، لا بالمال والجاه.
4. بيان أن فقر الداعية وضعفه المادي ليس دليلاً على بطلان دعوته.
5. تعليم المؤمنين أن يقفوا شامخين بالحق كما وقف موسى، فلا يخافوا الطغاة.

القضايا الكبرى التي تناقشها الآيات:

القضية الأولى: نفسية الطاغية وقت الخوف - التودد والتقرب بعد التكبر

الآية ترسم صورة حية لفرعون وهو ينادي قومه: {يَا قَوْمُ}. هذا النداء ليس عبثاً! إنه يعكس خوفاً وقلقاً دفيناً. إنه يستنجد بحمية العصبية والقبيلة، ويذكرهم بأنه منهم وهم منه، لعلهم لا يتخلون عنه. هذه هي طبيعة كل طاغية في كل زمان: وقت الحاجة يتودد ويلين، وفي الرخاء يستبد ويجوع.

القضية الثانية: الاستعلاء بالمال والجاه في مواجهة الاستعلاء بالحق

فرعون استعلى بماله وملكه: {أَلَيْسَ لِي مَلِكُ مِصْرَ}. موسى استعلى بالحق وبالعبودية لله. والصراع بينهما هو صراع الماديات والإيمان. والآيات تقول لنا: الاستعلاء الحقيقي هو الاستعلاء بالحق، لا الاستعلاء بالذهب والقصور.

القضية الثالثة: لماذا كان الأنبياء ضعفاء مادياً؟

لقد كان موسى فقيراً لا يملك إلا عصاه ووثاباً من الصوف. وكان النبي محمد صلى الله عليه وسلم فقيراً أيضاً. لماذا؟ لأن الله لو جعل الأنبياء أصحاب كنوز وأسورة من ذهب وملائكة تقترب بهم، لآمن الناس إيماناً اضطرارياً لا قيمة له عند الله. الإيمان الحقيقي هو إيمان العقل والقلب حين يرى الحق فيقبله، لا إيمان الجسد الذي يخضع للقوة المادية. {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ}.

القضية الرابعة: سخف العقول التي تتأثر بالمظاهر المادية

الآيات تكشف سخف العقول التي تنظر إلى المظاهر فتنبهر. فرعون يظن أن ملك مصر والأنهار تجري من تحته سيجعل الناس لا يبصرون الحق. والمؤمنون العقلاء هم الذين ينظرون بعقولهم لا بعيونهم. المحور الأول

{وَتَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمُ}

النداء المستعطف... الخوف المقنع بالتودد

غوص في معنى {وَتَادَىٰ}: المشهد الحي والنداء العلني

دعني أضعك في قلب المشهد الذي ترسمه هذه الآية الكريمة. إنها لوحة متحركة، تراها بعين خيالك وكأن القرآن عدسة سينمائية تنقلك إلى قصر فرعون.

تصور: فرعون بعد أن كشف عنه العذاب، وبعد أن نكث العهد، عاد إلى عافيته وغطرسته... لكن هناك شيئاً تغير! هو يعلم أن شيئاً قد كسر في نفسه، وأن قومه قد رأوا آيات موسى، وقد يقتنعون بها. الخوف يسري في عروقه، لكنه لا يستطيع أن يظهره. فيفكر: "كيف أستعيدهم؟ كيف أمنعهم من الإيمان بموسى؟".

فماذا يفعل؟ يلجأ إلى وسيلة الطغاة الأبلية: ينادي فيهم!

{وتأدي}: الواو للعطف. "نادى" أي صاح ورفع صوته. لكن ندائه ليس نداء أمر ونهي كعادة الطغاة، بل هو نداء استعطاف وتودد! إنه نادى فيهم ليجمعهم حوله، لا ليأمرهم، بل ليستميلهم.

{في قومهم}: التأكيد على الانتماء والعصبية

تأمل: {في قومهم}. لم يرسل إليهم رسولا، بل ذهب هو بنفسه ونادى فيهم. وفيه نكتة بلاغية: إنه ينادي "في قومهم" أي وسطهم، بينهم، معهم. إنه يذكرهم بأنه منهم، من دمهم، من قبيلتهم. إنه يستنجد بحمية العصبية والقبيلة ليخلق حاجزاً نفسياً بينهم وبين موسى الذي ليس منهم.

{قال يا قوم}: النداء اللين بعد الاستكبار

وهنا الذروة! {يا قوم}. هذا الخطاب اللين العطوف! أين هو فرعون الذي قال: {أنا ربكم الأعلى}؟ أين الذي قال: {ما علمت لكم من إله غيري}؟ لقد تبخرت كل تلك العنجهية، وحضر خطاب "يا قومي" الحبيب القريب! لماذا؟ لأنه خائف! لأنه يدرك أنهم قد يفلتوا من يده، فيلجأ إلى الحيلة الأبلية: التودد.

مثال تقريبي - من واقعنا المعاصر:

لاحظتم كيف أن بعض الحكام والمشايخ ورؤساء العشائر في بلداننا، طوال فترة حكمهم، لا تكاد تسمع منهم خطاباً رقيقاً، ولا يرون الشعب إلا بالتهميش والإذلال. لكن... ليلة الانتخابات! إذا بهم يخرجون في وسائل الإعلام بخطابات يملؤها العطف والبر والاحترام، ويستخدمون أدوات التعبير اللطيفة! يقولون: "يا شعبي العظيم! أنتم أهلنا! أنتم إخواننا! نحن منكم وأنتم منا!". فإذا انتهت الانتخابات وانتهت المصلحة... عادوا إلى تجريح الشعب أقصى أنواع الاستبداد والتجويع!

هذا هو فرعون! تلك الليلة التي شعر فيها أن "الانتخابات" قد ينقلب فيها القوم إلى موسى... نادى فيهم وتودد إليهم: {يا قوم}!

الرسائل والدروس والتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: تودد الطغاة وقت الخوف مكشوف لا يخدع العقلاء
الآية تعلمنا أن الطغاة حين يتوددون، فهم يفعلون ذلك خوفاً على مصالحهم، لا حباً في شعوبهم.
وس يظهر حقيقتهم فور زوال الخطر.

الرسالة النفسية: لا تنخدع بمعسول الكلام وقت المصلحة
حين يتودد إليك من كان يحتقرك، فاعرف أن هناك مصلحة يريد بها. كن ذكياً ولا تنخدع.

الرسالة التربوية: علم أبناءك كشف النفاق السياسي والاجتماعي
درب أبناءك على قراءة ما وراء الكلمات، ليفهموا متى يكون التودد حقيقياً ومتى يكون زائفاً.
المحور الثاني

{أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي} ^ط أفلا تبصرون}

الاستعلاء بالمال والجاه... وإعماء العيون عن الحق

غوص في معنى {أليس لي ملك مصر}: الاستفهام التقريري للتفاخر

تأمل معي هذا الاستفهام: {أليس لي ملك مصر}. إنه استفهام تقريري للتفاخر! إنه يقول لهم: "أنتم تعرفون أن لي ملك مصر. أليس كذلك؟ اعترفوا!". إنه يريد أن يبني طاغوته على اعترافهم هم، ليجعلهم شركاء في طاغوته.

ثم تأمل: لم يقل "ملك مصر" فقط، بل أضاف: {وهذه الأنهار تجري من تحتي}. إنه ينتقل من المجرّد إلى المحسوس! "الأنهار تجري من تحتي" صورة مرئية مذهلة. إنه يقول لهم: "انظروا! الأنهار تحت قصري! من منكم يملك هذا؟ موسى هل تجري الأنهار من تحته؟!".

مثال تقريبي:
تاجر كبير ينافسه تاجر صغير نزيه. الكبير يجمع الناس ويقول لهم: "أليس لي هذه المحلات الضخمة؟ أليس لي هذه السيارات الفارهة؟ انظروا إليّ وإلى هذا الفقير!". هذا هو فرعون: يستعلي بماله وجاهه، يظن أن هذا دليل على أنه على حق.

{أَفَلَا تَبْصِرُونَ}: استنهاض العين وإعلاء العقل

ثم يختم جملته بـ {أَفَلَا تَبْصِرُونَ}. إنه ينادي عيونهم، لا عقولهم! "انظروا بأعينكم!". لم يقل: "أفلا تعقلون؟" لأن العقل سيأخذهم إلى الحق. بل قال: "أفلا تبصرون؟" ليبقيهم في دائرة المظهر والمادة، لا دائرة الجوهر والمعنى.

إنه منطق الماديين دائماً: "انظر إلى ما أملك، ولا تنظر إلى ما أقول!". إنه يريد أن يشغل أبصارهم بالأ نهار والملك عن أن يبصروا الحق الذي في كلام موسى.

الرسائل والدروس والتوجيهات:

الرسالة الفكرية: المال ليس دليلاً على الحق
الآية تنسف منطق فرعون: امتلاك المال والسلطان ليس دليلاً على صحة الموقف. فرعون يملك مصر، لكنه على باطل. وموسى لا يملك عصا إلا، وهو على حق.

الرسالة النفسية: لا تبهرك المظاهر
الناس يربطون - دون شعور - بين الثراء والصواب. هذه الآية تفك هذا الرباط النفسي.

الرسالة التربوية: علم أبناءك أن "القيمة" ليست في "القيمة المالية"
لا تربط في عقل ابنك بين احترام الشخص وماله. الفقير قد يكون أعظم عند الله من الغني.
المحور الثالث

{أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ}

التقليل من شأن صاحب الحق... والطعن في شخصه

غوص في معنى {أَمْ}: الترقّي في الاستفهام والانتقال إلى المقارنة المهيئة

تأمل {أَمْ}. هي "أَمْ" المنقطعة. لقد انتقل فرعون من وصف نفسه ومدحها إلى مقارنة نفسه بموسى وتحقّق موسى. "أنا خير من هذا... أم لا؟ أيهما خير؟ أنا أم هو؟". إنه استفهام ينتظر من قومه أن يجيبوا: "بل أنت!".

{أَنَا خَيْرٌ}: وهم الخيرية المبني على المادية

{أَنَا خَيْرٌ}: كلمة مركزة. لم يقل: "أنا أكثر مالا"، ولا "أنا أقوى سلطاً" ... بل قال: {أَنَا خَيْرٌ} أي أفضل وأعلى قيمة وأجدر بالاتباع. وقد بنى هذه الخيرية على ماذا؟ على المال والملك والأنهار! إنه مقياس فرعون للخيرية: المادة!

{هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ}: التحقير والازدراء بالفقير

وهنا نصل إلى حقيقة الكبر. إنه يصف موسى بأنه {مَهِينٌ}. المهين: هو الحقير الضعيف الذي لا قوة له ولا مال ولا جاه. وعند فرعون، من لا يملك المال والملك... هو مهين!

تأمل تعبيره: {هَٰذَا} بدلاً من اسمه. إنه لا يريد حتى أن ينطق باسم "موسى" احتراماً أو اعتراقاً! لقد قالوا أيضاً للنبي محمد صلى الله عليه وسلم: {هَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رُسُلًا}. إنه الكبر! رفض أن ينطق باسمه، فاستخدم اسم الإشارة كأنه يشير إلى شيء قذر.

مثال تقريبي:

رجل ثري في مجلس، دخل عليه رجل فقير صالح فقال: "أنتم يا جماعة! أهذا... أهذا الذي تسمعون كلامه؟". امتناعه عن ذكر اسمه هو علامة الكبر. هذا هو فرعون.

{وَلَا يَكَادُ يُبَيِّنُ}: الطعن في القدرات اللغوية والبيانية

ثم يضيف طعنة أخرى: {وَلَا يَكَادُ يُبَيِّنُ} أي لا يكاد يُفصح عن كلامه بوضوح، أو أن في لسانه ثقلاً أو عيباً (كما قال بعض المفسرين: إن موسى كان في لسانه عقدة من أثر الجمرة التي وضعها في فمه وهو صغير). فرعون - بدل أن يسمع لما يقوله موسى - ركز على طريقة نطقه! لم يناقش الفكرة، بل شخصن المسألة!

وهذا هو حال كل عاجز عن مواجهة الحجة: يلجأ إلى الطعن في شخص صاحب الحجة بدلاً من مناقشة الحجة ذاتها. إنه منطق: "لا تعجبكم حجته، فانظروا إلى لسانه!".

الرسائل والدروس والتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: الحجة لا ترد بالطعن الشخصي
الآية تعلمنا أن من لا يملك أن يرد على الفكرة يلجأ إلى الطعن في الشخص. وهذا دليل إفلاس، لا دليل قوة.

الرسالة النفسية: لا تهتز ثقتك بنفسك إن طعن في شكلك أو مظهرك
كثير من الدعاة والمصلحين يطعن في مظهرهم أو قدراتهم. هذه الآية تعلمهم أن هذا هو طريق الطغاة، فلا يهتزوا.

الرسالة التربوية: علم أبنائك مناقشة الأفكار لا شخصنة الأمور
درب أبنائك على أن يقولوا: "هذه الفكرة خطأ"، لا أن يقولوا: "أنت غبي"! فينشأوا على الاحترام وقوة الحجة.
المحور الرابع

{قُلُوا لِّأَقْبَىٰ عَلَيْهِ أَسْوَرَةٌ مِّنْ ذَّهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ}

منطق الماديين في اشتراط القوة للقيادة والرئاسة

غوص في معنى {قُلُوا}: التحضيض والاستفهام الإنكاري

{قُلُوا}: للتحضيض والعرض. إنه يقول: "لو كان هذا صادقا، لألقي عليه أسورة من ذهب! فأين هي؟".

{أَلْقَىٰ عَلَيْهِ أَسْوَرَةٌ مِّنْ ذَّهَبٍ}: تأليه الذهب والمظهر

هنا منطق فرعون المادي بأوضح صورة. إنه يظن أن النبي يجب أن يأتي محلي بالذهب، لابساً الأسورة (جمع سوار)، متزيئاً بالثروة! لماذا؟ لأن "القيادة" عند فرعون تحتاج إلى الذهب ليخضع الناس! إنه لا يدرك أن الناس تخضع للقلب والعقل، لا للذهب.

وهنا ملاحظة دقيقة: فرعون ذكر {من ذهب}، وموسى كان لابساً ثياباً من الصوف. إنها مقارنة بين الذهب والصوف! إنه يهزأ بموسى: "انظروا! نبي الصوف! أين ذهبه؟!".

مثال تقريبي:

موظف بسيط يأتي بفكرة عظيمة تنقذ الشركة. المدير المتكبر يقول للموظفين: "لماذا نسمع لهذا المسكين؟ أين بدلتها الفاخرة؟ أين ساعته الثمينة؟ لو كان صادقا لألبسه الله بدلة غالية!". هذا هو فرعون!

{أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ}: القوة الخارجية شرط للإيمان

ثم يضيف: {أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ} أي متتابعين، متقارنين، يسيرون معه كالحرس والجنود. إنه يطلب القوة الظاهرة! "لو كان نبياً حقاً، لأرسل الله معه جنوداً من الملائكة ليفرضوا الإيمان بالقوة!".

وهنا تكمن علة عميقة: إن الله لم يجعل الأنبياء أصحاب قوة مادية قاهرة، لأنه لو فعل ذلك لآمن الناس إيماناً اضطرارياً لا قيمة له. الناس ستخضع للملائكة لا لله! لكن الله أراد أن يؤمنوا بقلوبهم وعقولهم، لا بخوفهم من الذهب والجنود.

لماذا كان الأنبياء ضعفاء مادياً؟

هنا - يا رعاك الله - سؤال عظيم: لماذا لم يجعل الله أنبياءه ملوكاً أقوياء؟ لماذا كان موسى فقيراً، ومحمد صلى الله عليه وسلم فقيراً، وسائر الأنبياء فقراء؟

الجواب القرآني: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ}. لو أراد الله أن يجعل الناس كلهم مؤمنين لجعلهم مؤمنين، وجعل الأنبياء ملوكاً ذوي أسورة من ذهب وملائكة تقترب بهم، فيؤمن الناس خوفاً وطمعاً. لكن هذا الإيمان لا قيمة له في ميزان الله! الإيمان الحقيقي هو إيمان القلب والعقل الحر، الذي يرى الحق فيختاره، لا إيمان الجسد الذي يساق بالخوف والطمع.

وقد ذكر بعض المفسرين أن الله عرض على النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل له جبال مكة ذهباً، فقال: "لا يا رب! بل أجوع يوماً فأصبر، وأشبع يوماً فأحمد". اختار أن يكون عبداً فقيراً صابراً، لا ملكاً غنياً!

فالمؤمن الحقيقي يستعلي بالحق، لا بالذهب. والمتكبرون هم الذين ينظرون إلى الذهب والقوة و السلطان على أنها علامة الاصطفاء. وسخفاء العقول هم الذين يتأثرون بتلك المظاهر. أما العقلاء، فيدركون أن الله لو أراد لأنبيائه كنوز الدنيا لفعل، لكنه اختار لهم الفقر والضعف ليظهر إيمانهم وإيمان أتباعهم.

الرسائل والدروس والتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: الإيمان الحقيقي لا يقاس بالثروة ولا يحتاج إلى القوة القاهرة
الله أراد أن يؤمن الناس بقلوبهم، لا أن يخضعوا للقوة. وهذا هو الفرق بين الإيمان والإنعان.

الرسالة النفسية: لا تستحقر نفسك ولا عملك لضيق ذات يدك
أنت أيها الداعية، إن كنت فقيراً، فاثبت. موسى ومحمد كانا فقيرين. المال ليس دليلاً على الحق، و الفقر ليس دليلاً على الباطل.

الرسالة التربوية: لا تربط التزامك الديني بغناه أو فقره
لا تجعل ابنك يتصور أن أهل الدين يجب أن يكونوا أغنياء. بل علمه أن المؤمن الحقيقي هو التقى، ولو كان فقيراً، وأن الكافر قد يكون غنياً.
المحور الخامس

الترابط بين الآيتين وسياق السورة: لماذا هذه القصة هنا؟

الآن - يا رعاك الله - نفهم لماذا ساق الله قصة فرعون في هذا الموضع من سورة الزخرف.

لقد تقدمت آيات كثيرة عن قريش: كيف أنهم استكبروا على القرآن، وطلبوا أن ينزل على رجل من القريتين عظيم. لقد استصغروا محمداً صلى الله عليه وسلم لأنه فقير لا يملك مالا ولا جاهاً، واستصغروا المؤمنين لأنهم فقراء وضعفاء. وقالوا كما قال فرعون: {لَوْ لَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}. أي غني! ذي مال وجاه!

فجاءت قصة فرعون لترد عليهم: "أيها القرشيون، لستم أول من استكبر على الحق بسبب فقر الداعية. هذا فرعون كان أملك منكم، وأقوى منكم، وأغنى منكم، ومع ذلك جاءه موسى فقيراً فاستكبر. فماذا كانت عاقبته؟!"

إن الله يذكر قريشاً بقصة يعرفونها ويسمعونها، ليوظفهم من غفلتهم. ويقول لهم: "إن العبرة ليست بـ المال والذهب والأثوار، بل بالإيمان والتوحيد. فمن استكبر على الحق بسبب فقر الداعي إليه، فمصيره كمصير فرعون!"

المحور السادس

الأبعاد والآفاق من الآيات: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد الأول: البعد السياسي - تحليل سلوك الطغاة مع الجماهير
الآية تكشف آلية سياسية خطيرة: الطغاة إذا خافوا على عروشهم توددوا للشعوب واستعطفوهم. وهذه الآلية تتكرر اليوم في كثير من بلدان العالم الإسلامي.

البعد الثاني: البعد الاقتصادي - نقد المنطق المادي
الآية تنسف المنطق المادي الذي يقدر الأغنياء ويحقر الفقراء. هذا المنطق هو الذي يحكم العالم اليوم، والقرآن يهدمه من جذوره.

البعد الثالث: البعد النفسي - تحليل نفسية المتكبر
الآية تشخص نفسية المتكبر: يبدأ بالخوف، فيتودد، ثم يستعلي بالماديات، ثم يقلل من شأن خصمه، ثم يطعن في شخصه. هذه مراحل نفسية مضبوطة.

البعد الرابع: البعد الإيماني - حقيقة الإيمان وعلاقته بالمادة
الآية تعلمنا أن الإيمان الحقيقي هو إيمان القلب الحر، لا الخضوع للمادة والقوة.

البعد الخامس: البعد التاريخي - درس من التاريخ لقريش وللأمة
الآية تستدعي التاريخ ليكون مرآة للحاضر. درس فرعون لقريش، ودرس قريش للمسلمين إلى يوم الدين.
المحور السابع

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً: كشف استبداد الحكام الذين يتلونون بين التودد والقمع
في بلدان كثيرة، نرى الحكام يضغطون على شعوبهم ويجوعونهم. فإذا اقتربت انتخابات أو ثورة، إذا بهم يخرجون في إعلامهم يتوددون للشعب ويستخدمون ألفاظاً لطيفة. وبمجرد أن تستقر أوضاعهم، يعودون إلى الاستبداد. هذه الآلية تفضحهم.

ثانياً: نقد ثقافة "الغني هو المحق"
في إعلامنا المعاصر، يمجّد الأغنياء، ويحتقر الفقراء. الآلة تقول لنا: "لا تنظروا إلى ما في أيديهم من ذهب، بل انظروا إلى ما في قلوبهم من إيمان".

ثالثاً: الثبات في وجه الطعن الشخصي
الدعاة والمصلحون في عصرنا يتعرضون لحمولات تشويه شخصي وطعن في أشكالهم وكلامهم. هذه الآلية تعلمهم أن هذا هو طريق فرعون، وأن الواجب هو الاستمرار في الدعوة.
المحور الثامن

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: المال ليس مقياس الكرامة عند الله
الآيات تهدم أسطورة "المال دليل رضا الله". فرعون كان أغنى أهل الأرض، وكان كافراً. موسى كان فقيراً، وكان نبياً.

المفهوم النفسي: إيمان الكبر يمنع رؤية الحق
فرعون لم يستطع أن يرى الحق لأنه كان مدمناً للكبر. لو ترك الكبر لرأى الحق واضحاً كالشمس.

المفهوم التربوي: تربية العقل على رؤية الحق لا رؤية الأشخاص
الآيات تدعونا لتربية أبنائنا على قياس الأفكار بالحق والباطل، لا قياسها بمنظر أصحابها.
المحور التاسع

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: أن نكون مستعقلين بالحق لا بالدنيا
يريدنا الله أن نقف شامخين كوقفه موسى أمام فرعون. نستعلي بالحق والإيمان، لا بالذهب والسلطان.

الإرادة الثانية: ألا ننخدع بتودد الظالمين وقت المصلحة

يريدنا أن نكون أذكاء، نميز بين التودد الحقيقي والتودد المؤقت من الطغاة.

الإرادة الثالثة: ألا نستصغر أحدًا بسبب فقره
يريدنا أن ننظر إلى الناس بأعمالهم وتقواهم، لا بذهبهم وأموالهم.

الإرادة الرابعة: أن نصبر على الفقر والضعف في سبيل الدعوة
يريدنا أن نعلم أن طريق الأنبياء هو طريق الفقر والصبر، لا طريق الذهب والرفاهية.
المحور العاشر

تحويل مفاهيم الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

المسار الأول: بناء الإنسان الشامخ بالحق، الذي لا تهزه الماديات
الآيات تبني إنسانًا واثقًا بالحق الذي معه، لا ترهبه عظمة الطغاة، ولا تغريه أبهة الماديين. إنسانًا يقول
بلسان حاله: "أنا مع الحق، والحق يكفيني".

التطبيق العملي:

. حين تسمع خطابًا سياسيًا معسولًا، قارنه بالأفعال، لا بالأقوال. هذا يعلمك كشف الزيف.
. حين يطعن الناس في شكك أو قدراتك، تذكر موسى وفرعون، واثبت.

المسار الثاني: بناء المجتمع الذي يحترم الناس بتقواهم لا بأموالهم
الآيات تبني مجتمعًا يوقر الفقير التقى، ولا يبالي بالغني الفاسق. مجتمعًا فيه ميزان القيم هو الإيمان
والعمل الصالح.

التطبيق العملي:

. في مسجدك، لا تجعل الإمامة والوجاهة للأغنياء فقط. قدم الفقيه الفقير على الجاهل الغني.
. مثال تقريبي: شيخ قبيلة غني لكنه ظالم، وفقير تقى. الآيات تقول لك: لا تنظر إلى ماله، بل انظر
إلى دينه.

المسار الثالث: بناء الحضارة التي تقوم على الإيمان لا على الذهب
الحضارة التي بناها الإسلام قامت على الإيمان العميق، لا على الذهب والكنوز. هذا هو الدرس لقادة
أمة اليوم: لن تنهضوا بالذهب وحده، بل بتقوى الله والاستمسك بالحق.

التطبيق العملي:

. خطط لمشروعك الاقتصادي أو الاجتماعي نابغًا من إيمانك بالله، لا من رغبتك في جمع المال
فقط.

خاتمة: مع من أنت؟ مع استعلاء فرعون أم استعلاء موسى؟

أيها القارئ الكريم...

لقد وقفنا معًا أمام هذه اللوحة القرآنية البديعة، ورأينا فرعون وقد تحول من الجبروت إلى التودد،
ومن السخرية إلى الاستعطاف. رأينا يستعلي بماله ويحقر موسى، وسمعناه يقول: {أَلَيْسَ لِي مَلِكُ
مِصْرَ}، و{أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ}.

والآن أسألك بصدق:

. أين تقف أنت في هذا المشهد؟ مع استعلاء فرعون أم مع استعلاء موسى؟
. هل تفضل في قرارة نفسك الغني ولو كان كافرًا على الفقير التقى؟
. إذا تودد إليك حاكم ظالم وابتسم لك، هل تتخدد بابتسامته، أم تتذكر فرعون و{يَا قَوْمُ؟}
. هل تستطيع أن تقف شامخًا بالحق كما وقف موسى، ولو كنت فقيرًا لا تملك إلا إيمانك؟

أجب عن هذه الأسئلة في صمتك... واختر لنفسك أن تكون مع موسى.

المبحث الرابع

ها هو تفسير الآية (54) من سورة الزخرف

تقدمة لا بد منها: موقع الآية من السياق ومن كشف اللحظة الحاسمة في الصراع

قف معي - يا رعاك الله - وقفة التأمل الذي يرى أن القرآن الكريم لا يكتفي بسرد الأحداث، بل ينفذ إلى أعماقها ليكشف القوانين النفسية والاجتماعية التي تحركها.

لقد كنا في الآيات السابقة (51-53) أمام ذلك المشهد الحي الذي صورته القرآن بدقة مذهلة: فرعون وقد أحس بالخطر على عرشه، فارتدى قناع الأب الحنون، ونادى في قومه بذلك النداء المستعطف: {يَا قَوْمُ} ثم ألقى عليهم شبابه: الاستعلاء بالمال ((أَلَيْسَ لِي مِثْلُ مِصْرَ))، والازدراء لموسى ((أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ))، والتهكم على فقره ((فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ)).

لقد رسمت تلك الآيات ملامح وجه الطاغية وهو يستعمل كل أسلحته: المال، السلطان، العصبية، السخرية، التلبيس. لكن السؤال الذي يبقى معلقاً في ذهن القارئ بعد هذا المشهد هو: وماذا كانت النتيجة؟ هل صدقه قومه؟ هل انتصر منطق الباطل على آيات الله البينات التي رأوها بأعينهم؟

وهنا - في هذه الآية الجامعة المكثفة - يأتي الجواب الصاعق في كلمات قليلة: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ}. إنه تقرير موجز بليغ يحمل في طياته كل أبعاد المأساة.

إنها آية تكشف لنا أخطر آلية في الصراع بين الحق والباطل: آلية "استخفاف العقول". إن الطاغية لا ينتصر بقوة الجيش وحده، بل ينتصر أولاً بقدرته على "استخفاف" أتباعه، أي جعلهم خفيفي العقول، سطحيي التفكير، سريعى الانقياد، لا يتأملون ولا يتفكرون ولا يبصرون الحق ولو كانوا يرونه بأعينهم.

ثم تأتي خاتمة الآية لتقدم لنا التشخيص النهائي والعلّة الجذرية: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}. الفسق هو العلة. الفسق هو الذي جعلهم قابلين للاستخفاف. الفسق هو التربة الخصبة التي تنمو فيها بذور الاستبداد. لو كانوا قوماً صالحين، ما استطاع فرعون أن يستخفهم، ولما أطاعوه. لكن قلوبهم الفاسقة جعلتهم يفضلون العبودية للطاغية على الحرية في الإيمان.

هذه الآية ليست مجرد تقرير تاريخي، بل هي مرآة لكل عصر، وقانون اجتماعي ثابت: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ} ° {إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآية ومقاصدها وأهدافها والقضايا التي تناقشها

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآية الكريمة:

1. إعلان نتيجة الصراع: فرعون نجح في مهمته مع قومه، لا بقوة السيف، بل بقوة "الاستخفاف".
2. كشف قانون "الاستخفاف": الطغاة يسيطرون على الشعوب بتحويلهم إلى أقوام خفيفي العقول، سطحيين، لا يتفكرون.
3. بيان نتيجة الاستخفاف: الطاعة العمياء {فَأَطَاعُوهُ} (رغم وضوح آيات موسى عليه السلام.
4. تشخيص العلة الجذرية: العلة ليست في ذكاء فرعون الخارق، بل في فسق القوم وخروجهم عن طاعة الله {إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}.

مقاصد الآية وأهدافها:

1. تحذير المؤمنين من خطر "الاستخفاف" الذي يمارسه الطغاة والمفسدون في كل زمان.
2. بيان أن الشعوب تستعبد متى تخلت عن رسلها ودينها وعقلها.
3. ربط الفسق بالاستبداد: الفاسقون ينتجون مستبداً، والمستبد ينتج فاسقين. إنها علاقة تبادلية.
4. تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن طاعة الكفار لقادتهم ليست عن حق، بل عن استخفاف وفسق.
5. تعليم الأمة أن الحصن من الاستخفاف هو التقوى واليقظة والعلم.

القضايا الكبرى التي تناقشها الآية:

القضية الأولى: آلية "الاستخفاف" - كيف يسرق الطغاة عقول الشعوب؟

الآية تناقش أعظم سلاح لدى الطغاة: لا يشهرونه في وجه الجيوش، بل يشهرونه في وجه العقول. إنه سلاح "الاستخفاف" الذي يجعل الإنسان لا يفكر، لا يتأمل، لا يناقش، بل يتبع ويطيع.

القضية الثانية: العلاقة بين فسق الشعوب واستبداد الحكام

الآية تطرح معادلة خطيرة: الفسق ينتج الاستبداد. {إِثْمُ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} يعني أن فسقهم هو الذي أطلق فرعون عليهم. ولو كانوا صالحين متقين، لما استطاع فرعون أن يستخفهم.

القضية الثالثة: مسؤولية الأتباع أمام الله

الآية لا تعفي الأتباع من المسؤولية بحجة أنهم "مستخفون" أو "مخدوعون". بل تقول: إنهم فاسقون أصلاً، ولذلك استخفوا. إنها مسؤولية فردية أمام الله. المحور الأول

{فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ}

سلاح الطاغية الأعظم... سرقة العقول قبل سرقة الأموال

غوص في معنى {فَاسْتَخَفَّ}: الفاء والفعل ودلالته العميقة

دعني - يا رعاك الله - أقف بك ملياً عند هذه الكلمة المركزية: {فَاسْتَخَفَّ}. إنها مفتاح الآية، ولب المعنى، وسر المأساة.

الفاء: للترتيب والتعقيب. إنها تفيد أن هذا الاستخفاف كان نتيجة مباشرة لذلك الخطاب الذي ألقاه فرعون. لقد قال: {يَا قَوْمُ}، {أَلَيْسَ لِي مَلِكُ مِصْرَ}، {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ}... فماذا كانت النتيجة؟ {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ}! إنها فاء السببية: خطاب الخداع أدى إلى استخفاف العقول.

{اسْتَخَفَّ}: هي صيغة استفعال من الفعل "خَفَّ". وصيغة الاستفعال هنا تفيد الطلب والسعي. أي أن فرعون "طلب منهم أن يخفوا" و"سعى لأن يجعلهم خفاً" و"استعمل الخفة فيهم" حتى نجح. ليست مجرد "خفة" عرضية، بل هي خفة مقصودة تم التخطيط لها والعمل على إنتاجها!

وما هي هذه "الخفة"؟ وما ضدها؟

الخفة في القرآن واللغة تأتي أحياناً بمعنى الطيش والجهل وعدم الرزانة. وتقابلها "الرزانة" و"الحلم" و"الوقار". {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا} فالمشي مرحاً هو نوع من الخفة. والنبات على الأرض، والتفكر، والتأمل، والتروي... هذه هي الرزانة.

ففرعون "استخفهم" أي:

- جعلهم خفيفي العقول: لا يتفكرون في آيات موسى، ولا يتأملون في حججه.
- جعلهم سطحيين: ينظرون إلى الظاهر (الذهب والأنهار) ولا ينظرون إلى الجوهر (الحق والصدق).
- جعلهم سريع الانقياد: يتبعون دون تفكير، يطيعون دون سؤال، يصدقون دون برهان.
- جعلهم مستهينين بالأمر: لا يرون خطورة الكفر، ولا يرون عاقبة التكذيب.

مثال تقريبي من عصرنا:

تأملوا كيف تستخف وسائل الإعلام الحديثة بعقول الجماهير! برامج تافهة، وأخبار سطحية، وإعلانات مغرية، وأغان صاخبة... كلها تهدف إلى جعل الناس "خفاً" لا يتفكرون في مصيرهم، ولا يناقشون حكاهم، ولا يتساءلون عن الحق. هذا هو "الاستخفاف" الحديث! إنه مشروع فرعوني متجدد.

{قَوْمَهُ}: مفعول الاستخفاف ... القوم المستهدفون

{قَوْمَهُ} (أي المصريين الذين كانوا تحت حكمه). إنهم قومه، ينتسبون إليه، وهو ينتسب إليهم. وهذه النسبة (قومه) تجعل استخفافه بهم أكثر ألماً! إنه يستخف بأهله وعشيرته وناسه، لا بأعدائه! وهذا

يبين أن الطاغية مستعد لأن يدمر عقول أقرب الناس إليه في سبيل بقائه في السلطة.

كيف استفهم؟ أدوات الاستخفاف التي استعملها فرعون:

لقد مرت بنا في الآيات السابقة أدوات فرعون في الاستخفاف:

1. استعمال العصبية والقلبية: {يَا قَوْمُ {ليجعلهم يشعرون أنه منهم، فيتبعوه دون تفكير.
2. الاستعلاء بالمال والملك: {أَلَيْسَ لِي مَلِكُ مِصْرَ {ليجعلهم يشعرون بالصغر أمامه، فيخضعوا له.
3. التقليل من شأن الخصم: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ {ليجعلهم يحتقرون موسى.
4. التركيز على المظاهر: {أَفَلَا تَبْصُرُونَ {بدل} أفلا تعقلون، {ليجعلهم ينظرون بعيونهم لا بعقولهم.
5. السخرية من الحق: {قُلُوا أَلْقِيْ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَّهَبٍ {ليجعلهم يضحكون على موسى.

كل هذه الأدوات اجتمعت فأمرت: {فَاسْتَخَفْ قَوْمَهُ}.

المحور الثاني

{فَأَطَاعُوهُ}

النتيجة المحزومة... الطاعة العمياء ثمرة الاستخفاف

غوص في معنى {فَأَطَاعُوهُ}: الفاء والجملة الفعلية

{فَأَطَاعُوهُ}: الفاء للترتيب والتعقيب. إنها تفيد أن الطاعة كانت نتيجة مباشرة للاستخفاف. أولا : استفهم. ثانيًا: فورًا، أطاعوه.

{أَطَاعُوهُ}: أطاعوه في كل ما قال، في تكذيب موسى، في الاستمرار في الكفر، في البقاء تحت عبوديته. إنها طاعة مطلقة عمياء.

طبيعة هذه الطاعة: ليست طاعة عن اقتناع بل عن خفة

هنا دقة قرآنية بديعة: لم يقل الله: "فأمّنوا به" ولا "فاقتنعوا بكلامه"، بل قال: {فَأَطَاعُوهُ}. الطاعة قد تكون مع عدم الاقتناع. إنهم أطاعوه بأجسادهم وسلوكهم وإن كانت عقولهم - لو فكرت - لرأت الحق. لكنهم - وقد استفهم - لم يعودوا يفكرون. صاروا كالقطيع الذي يتبع الراعي إلى حيث يقود ، حتى لو كان في قيادته هلاكهم.

مثال تقريبي:

في شركة، مدير يستخف بعقول موظفيه، يمنعهم من القراءة، يشغلهم بسفاسف الأمور، يخوفهم من المستقبل، يربط مصالحهم به. فإذا بهم بطيعونه في كل شيء، مع أنهم لو فكروا قليلا " لعرفوا أنه يقودهم إلى الإفلاس. هذه هي طاعة {فَأَطَاعُوهُ}.

ماذا أطاعوه فيه؟

أطاعوه في أشياء محددة وردت في السياق:

1. في تكذيب موسى عليه السلام: بعد أن رأوا الآيات بأعينهم، أطاعوه في جحدها.
2. في البقاء على الكفر: لم يتحول أحد منهم إلى الإيمان) إلا القليل ممن آمن كالسحرة).
3. في الاستمرار تحت عبوديته: لم يثوروا عليه، لم يخرجوا عن طاعته.

إنهم أطاعوه في كل ما يريده، مع أن في هذه الطاعة هلاكهم في الدنيا والآخرة. {فَأَطَاعُوهُ} هي الشاهد على عمق المأساة.

المحور الثالث

{إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}

التشخيص الرباني للعة... الفسق هو التربة التي تنمو فيها شجرة الاستبداد

غوص في معنى {إِنَّهُمْ}: التأكيد على الحقيقة العميقة

تأمل {إِنَّهُمْ}: إِنَّ تفييد التوكيد. إنها تأكيد من الله عز وجل على أن هؤلاء القوم الذين استخفهم فرعون فأطاعوه... لم يكونوا مجرد مساكين مخدوعين! بل كانوا هم أنفسهم فاسقين. هذا هو التشخيص الحاسم.

{كانوا}: الفعل الماضي المستمر وليس مجرد وصف طارئ

{كانوا}: فعل ماض يفيد الاستمرار. أي أن فسقهم هذا لم يكن طارئاً، بل كان طبعاً متأصلاً فيهم، وسجية راسخة، وصفة متأصلة. لقد كانوا فاسقين قبل أن يأتيهم موسى، وأثناء وجوده، وبعد أن رأوا الآيات. الفسق حالة دائمة لا حالة عارضة.

{قَوْمًا فاسقين}: تحليل الوصف

{قَوْمًا}: خبر "كان". إنه يصفهم بأنهم قوم، أي أن صفة الفسق لم تكن صفة أفراد منهم، بل صارت صفة للأمة جمعاء.

{فاسقين}: اسم فاعل من "فسق". والفسق في اللغة: الخروج. يقال: فسقت الرطبة عن قشرها أي خرجت. فالفسق هو الخروج عن طاعة الله، عن الدين، عن الفطرة، عن العقل.

فالمعنى: هؤلاء القوم كانوا خارجين عن طاعة الله، خارجين عن دينه، خارجين عن الفطرة السليمة، خارجين عن مقتضى العقل. إنهم قوم "خارجون" على الله!

العلاقة الجدلية بين الفسق والاستخفاف:

هنا - يا رعاك الله - نصل إلى أعمق معاني هذه الآية. هناك علاقة جدلية بين الفسق والاستخفاف:

1. الفسق هو الذي جعلهم قابلين للاستخفاف: لو كانوا قوماً صالحين، رزينين، متقين، لما استطاع فرعون أن يستخفهم. وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَّقُونَ اللَّهَ لَزَكَّيْنَهُمْ وَأَلْزَمْنَا الصَّالِحِينَ. (فرعون كان سبباً قريباً، لكن السبب البعيد هو فسقهم. القلوب الفاسقة هي أرض خصبة للاستخفاف).
2. الاستخفاف زادهم فسقاً: لما استخفهم فرعون، سهل عليهم الفسق أكثر، وزينه لهم، وجعلهم يستمرئونه. إنها حلقة مفرغة: الفسق يورث الاستخفاف، والاستخفاف يعمق الفسق.
3. لو صلحت قلوبهم لما ضرهم استخفاف فرعون: كم من قوم جاءهم طاغية مستخف، فلم يستخفهم لأن قلوبهم كانت عامرة بالإيمان؟! السحرة أنفسهم، رأوا آية واحدة) العصا تلقف ما يأفكون (فأمّنوا، لأن قلوبهم لم تكن فاسقة. أما الملائكة، فلم تنفعهم كل الآيات.

مثال تقريبي:

تخيل أرضاً بورًا مليئة بالأشواك (هذا هو الفسق). ثم يأتي فلاح يزرع فيها بذور العوسج (هذا هو الاستخفاف). البذور تنمو، والأرض تنتج شوكا أكثر. لو كانت الأرض نقيّة، لما أنهت العوسج. هذا هو حال القوم الفاسقين مع فرعون.

الرسائل والدروس والتوجيهات من مجمل الآية:

الرسالة الفكرية الأولى: الاستخفاف هو أخطر أسلحة الطغاة
الآية تكشف لنا أن الطغاة لا يخافون من الجيوش وحدها، بل يخافون من العقول الرزينة. فاستراتيجيتهم الأولى هي "استخفاف" هذه العقول حتى لا تفكر، ولا تناقش، ولا تتور. فاحذر أن تكون مستخفاً!

الرسالة الفكرية الثانية: الفسق هو بوابة الاستبداد
الآية تقول لنا بوضوح: إن كنتم تريدون أن تتحرروا من طغيان الطغاة، فطهروا أنفسكم من الفسق. {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ}. الاستبداد الذي نعاني منه اليوم هو ثمرة فسقنا وغفلتنا.

الرسالة النفسية: لا تكن خفيف العقل سريع الانقياد
كم منا يصدق كل ما يقال له في وسائل الإعلام دون تحقيق! يتبع كل موضة دون تفكير! يطيع كل

رئيس دون مساءلة! هذه هي "الخفة" التي يعالجها القرآن. كن رزينًا، متأملًا ، مفكرًا، ناقدًا. كن صعب القياد إلا للحق.

الرسالة التربوية: تربية الجيل على الرزانة وعدم الطاعة العمياء
علموا أبناءكم أن يسألوا: "لماذا؟". علموهم ألا يطيعوا أحدًا في معصية الله. علموهم أن يكونوا رزينين لا يستخفهم أحد. {وَلَا تَطْعُ مَنْ أَغْلَقْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قَرْطًا}.

المحور الرابع

الأبعاد والآفاق من الآية: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد الأول: البعد الاجتماعي - بناء الشخصية الناقدة الواعية
الآية تطرح رؤية اجتماعية متكاملة: المجتمع الذي ينجو من الاستبداد هو المجتمع الذي يربي أفرادها على "الرزانة" و"النقد" و"المساءلة"، لا على "الطاعة العمياء" و"الخفة".

البعد الثاني: البعد السياسي - تحليل ظاهرة الاستبداد
الآية تقدم أعمق تحليل لظاهرة الاستبداد: إنه حاكم يستخف، وشعب فاسق يطيع. ما لم تتغير طبيعة الشعب (بالتقوى والعلم)، سيبقى الاستبداد يتجدد بأشكال مختلفة.

البعد الثالث: البعد الإعلامي - الإعلام المستخف
الآية تفتح أعيننا على خطر الإعلام الذي يستخف بالعقول، ويشغلها بالسفاسف، ويبعدها عن القضايا المركزية. هذا الإعلام هو امتداد لخطاب فرعون.

البعد الرابع: البعد التربوي - بناء العقل الرزين المتدبر
التربية القرآنية تهدف إلى بناء "العقل الرزين" الذي لا يستخفه أحد. العقل الذي يتدبر آيات الله، ويتفكر في خلقه، ولا ينساق خلف كل ناعق.

البعد الخامس: البعد الإيماني - التقوى حصن من الاستخفاف
الآية تؤكد أن التقوى هي الحصن الحقيقي. المتقي لا يُستخف به؛ لأنه يرى بعين القلب، ويسمع بأذن البصيرة، ويعقل بالعقل النوراني. {إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا}.

المحور الخامس

ما تدعونا إليه الآية في الواقع المعاصر

أولاً : محاربة وسائل الإعلام المستخفة للعقول
في عصرنا، هناك إعلام متخصص في "استخفاف العقول": برامج تافهة، مسلسلات مدمرة، إعلانات تخديرية. الآية تدعونا إلى مقاطعة هذا الإعلام، وتوعية الناس بخطرهما.

مثال تقريبي:

شاب يقضي ساعات على وسائل التواصل، يتنقل بين مقاطع تافهة. بعد ساعات، يسأل نفسه: "ماذا تعلمت اليوم؟ ماذا أفدت؟". لا شيء. هذا هو الاستخفاف بعينه.

ثانياً: بناء شخصية ناقدة لا تنقاد بسهولة
درب نفسك وأبناءك على ألا تصدق كل ما يقال، وألا تتبع كل ما يملى. اسأل دائماً: "هل هذا حق؟ ما الدليل؟ ماذا وراءه؟".

ثالثاً: تطهير المجتمع من الفسق الذي يورث الاستبداد
إذا أردنا أن نتحرر من طغيان الحكام، فلنبداً بتطهير أنفسنا ومجتمعنا من الفسق. مجتمع عادل، متق، عالم... لا يمكن أن يحكمه طاغية طويلاً .

المحور السادس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

المفهوم الفكري: "الاستخفاف" مفهوم قرآني مركزي لفهم الاستبداد
الآية تقدم لنا مصطلحاً فكرياً فريداً: "الاستخفاف". هذا المفهوم يمكن أن يبني عليه تحليل شامل للا

استبداد السياسي والإعلامي والاقتصادي.

المفهوم النفسي: "الخفة" مرض نفسي اجتماعي
الآية تشخص "الخفة" (خفة العقل، خفة الإرادة، خفة الانقياد) على أنها مرض نفسي واجتماعي. وعلا
جه بالرزانة والتفكر والعلم والتقوى.

المفهوم التربوي: التربية على الرزانة والمساءلة
التربية الصحيحة هي التي تنتج إنساناً "ثقيلًا" بالمعنى القرآني: رزين العقل، عميق التفكير، صعب
لإنقياد للباطل، سهل الانقياد للحق.
المحور السابع

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآية؟

الإرادة الأولى: أن نفيق من غفلتنا
يريدنا الله أن نفيق من الاستخفاف الذي نمارسه على أنفسنا أو يمارسه علينا الآخرون. يريدنا أن
نكون "ثقلاً" لا "خفلاً".

الإرادة الثانية: أن نطهر مجتمعنا من الفسق
يريدنا أن نبدأ بأنفسنا، فنصلحها، ثم نصلح مجتمعنا، لئلا نكون قومًا فاسقين يستخف بنا كل طاغية.

الإرادة الثالثة: ألا نطيع أحدًا في معصيته
يريدنا ألا نكون ممن قال الله فيهم: {فَأَطَاعُوهُ}. طاعة فرعون في معصية الله هي عين الهلاك.

الإرادة الرابعة: أن نتعقل ونتفكر ونتدبر
يريدنا أن نستعمل عقولنا التي وهبنا إياها. {أَفَلَا تَعْقِلُونَ}، {أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ}، {أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ القرآن}.
المحور الثامن

تحويل مفاهيم الآية إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

المسار الأول: بناء الإنسان الرزين، المتقن لعقله، الواعي لما يراد به
الآية تبني إنساناً لا يُستخف به. إنساناً رزيناً متأملاً، يرى ما وراء الكلمات، ويدرك ما خلف الستائر.
هذا الإنسان هو لبنة المجتمع الحر.

التطبيق العملي:

- قلل من استهلاكك لوسائل الإعلام المستخفة. اجعل وقت فراغك للقرآن والكتب ومجالس العلم.
- حين تسمع خبراً، توقف واسأل: "من وراءه؟ لماذا ينشر الآن؟ ما الذي يخفى عني؟".

المسار الثاني: بناء المجتمع الذي لا يستخف به أحد
الآية تبني مجتمعاً عميق التفكير، ناقدًا للسلطة، مسائلًا للحكام. مجتمعاً تتعطل فيه أدوات الاستخفاف.

التطبيق العملي:

- شجع ثقافة النقاش والحوار في محيطك. لا تقمع السائلين والمستفسرين.
- علم أبنائك أن يقولوا: "لا"، ويسألوا: "لماذا؟"، ويناقشوا بالحجة.

المسار الثالث: بناء الحضارة التي تقوم على العقل والعلم والتقوى
الحضارة الإسلامية قامت على العقل والتفكير، لا على الاستخفاف والطاعة العمياء. {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}.

التطبيق العملي:

- اجعل من القرآن مصدرًا لبناء عقلك وفكرك. اقرأه بتدبر، وتفكر في معانيه.
- شارك في نشر محتوى يدعو للتفكير والعلم، لا للخفة والطيش.

خاتمة: هل استخف بك فرعون عصرك؟

أيها القارئ الكريم...

لقد حللنا معاً هذه الآية المعجزة: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ} ٥ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}. رأينا فرعون يستعمل كل أسلحته في استخفاف قومه. ورأينا القوم يطيعونه طاعة عمياء. ورأينا أن العلة هي فسقهم وخروجهم عن طاعة الله.

والآن أسألك - في ختام هذه الرحلة - أسئلة الصدق:

- من هو فرعونك؟ هل هو إعلام يلهيك ويسطح عقلك؟ هل هو حاكم يستخف بك لتبقى في الطابور؟ هل هو أصدقاء يسحبونك إلى التفاهة؟
- هل أنت من الذين يُستخفون فيستجيبون، أم من الذين يتفكرون فيعقلون؟
- هل تريد أن تكون حراً؟ طهر قلبك من الفسق، وعقلك من الخفة، وكن عبداً لله وحده، تكن حراً حقاً.

أجب عن هذه الأسئلة في صمتك... واتخذ قرارك.

المبحث الخامس

تفسير الآيتين (55-56) من سورة الزخرف

تقدمة لا بد منها: موقع الآيتين من السياق ومن مشهد الختام المهيب للصراع

قف معي - يا رعاك الله - وقفة المتأمل الذي يقرأ القصة القرآنية ليراها عبرة وموعظة، لا مجرد سرد تاريخي بارد. لقد طوفا بنا سورة الزخرف في مشاهد متصلة من الصراع بين موسى وفرعون: بداية من إعلان موسى برسالته {إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، مروراً بسخرية فرعون وملئه من الآيات البيّنات {إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ}، ثم أخذه لهم بالعذاب {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، فإذا بهم يتبدلون ويستغيثون {ادْعُ لَنَا رَبَّكَ}، ثم لا يلبثون أن ينكثوا {إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ}.

ثم تجلت ذروة الكبر في ذلك المشهد الذي فضح نوايا فرعون وهو يستعلي بالمال والجاه {أَلَيْسَ لِي مَلِكُ مِصْرَ}، ويحقّر موسى {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ}. ثم انتهى ذلك المشهد بالنتيجة الصادمة: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ}، حيث تمكن فرعون من استخفاف عقولهم فساروا وراءه كالقطيع.

وهنا يأتي السؤال الذي يفرض نفسه: ثم ماذا بعد ذلك؟ هل يستمر هذا الطغيان إلى ما لا نهاية؟ هل يفلت فرعون وجنوده من العقاب وهم يرون الآيات ويكفرون بها جحوداً واستكباراً؟ هل تذهب دماء المستضعفين هدراً؟

وهنا يأتي الجواب الإلهي الحاسم في هاتين الآيتين. قلم القدر الذي لا يخطئ يكتب السطر الأخير في قصة فرعون وقومه. كلمتان لا ثالث لهما، لكنهما كفتان بهز الجبال: {فَلَمَّا أَسْقَوْا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ}. إنه الإعلان عن نهاية الطغاة. لقد وصلوا إلى نقطة اللاعودة، حيث أغضبوا الله غضباً استوجب معه الانتقام الذي لا يرد. واستمع كيف ينتهي المشهد: {فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ}. لقد انتهى كل شيء.

ثم يأتي التعقيب الإلهي بعد نهاية القصة مباشرة ليكشف لنا الحكمة من سردها: {فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ}. لم يمت فرعون وقومه عبثاً، بل صاروا عبرة للأولين والآخرين. وهنا يتجه الخطاب إلى قريش وإلى كل من يقرأ القرآن: انظروا وتأملوا.. أتريدون أن تكونوا مثلهم؟ المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيتان الكريمتان:

1. إعلان بلوغ فرعون وقومه حد الغضب الإلهي: {فَلَمَّا أَسْقَوْا} إعلان بإغلاق باب التوبة وبلوغ مرحلة الانتقام.
2. حتمية الانتقام الإلهي: {انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ} - جملة فعلية تفيد التحقيق واليقين.
3. مشهد الإغراق العظيم: {فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ} - نهاية مادية مرعبة للمتكبرين.
4. تحويلهم إلى درس تاريخي: {فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا} - قصة تتناولها الأجيال.
5. جعلهم نموذجاً تحذيرياً: {وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ} - عبرة لمن يأتي بعدهم.

مقاصد الآيات وأهدافها:

1. ترسيخ اليقين بأن الطغيان لا يدوم، وأن العاقبة لله وللمؤمنين.
2. تسليية النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن فرعون الطاغية لم يفلت، وكذلك لن يفلت طغاة قريش.
3. تخويف الكفار بمصير فرعون وتحذيرهم من الإصرار على الكفر والتكذيب.
4. بيان سنة الله في أخذ الطغاة بعد استدراجهم وإمهالهم.
5. تعليم الأمة أن التاريخ ليس للتسليية، بل هو مخزون عبر ودروس.

المحور الأول

{فَلَمَّا آسَفُونَا}

غضب الله الأعظم.. اللحظة التي تنقطع فيها كل حبال النجاة

دعني - يا رعاك الله - أقف بك عند هذه الكلمة المربعة: {آسَفُونَا}. إنها الكلمة التي تفسر لنا لماذا تحول الله من الإمهال إلى الانتقام.

معنى {فَلَمَّا}: أداة الشرط والتوقيت

تأمل {فَلَمَّا}. الفاء لترتيب ما بعدها على ما سبق. "لما" تفيد الشرط والتوقيت. والمعنى: أن الله ظل يمهلهم ويعطيهم الفرصة تلو الأخرى.. فلما وصلوا إلى هذه النقطة (نقطة الإسفاف)، تغير الموقف وتقرر الانتقام. إنها اللحظة الفارقة التي أغلق بعدها باب الرحمة وفتح باب الانتقام.

معنى {آسَفُونَا}: بلوغ حد إغضاب الله

نصل الآن - يا رعاك الله - إلى جوهر الآية. ما معنى {آسَفُونَا}؟

"آسَفُونَا" مشتقة من "الأسف". والأسف في اللغة: شدة الحزن والغضب معاً. وقيل: هو أشد الغضب وأبلغه. وقيل: هو الغضب الممزوج بالحزن. فالمعنى: أن فرعون وقومه أغضبوا الله غضباً شديداً، غضباً لم يعد معه إمهال، غضباً استوجب معه الانتقام العاجل.

وهذا الغضب الإلهي ليس كغضب البشر. إنه غضب الجبار الذي إذا غضب لم يقم لغضبه شيء. وهنا يبرز سؤال مهم: ما الذي أوصل فرعون وقومه إلى هذه المرحلة من إغضاب الله؟

أسباب بلوغهم لهذه المرحلة - تجميع من السياق:

1. تكذيبهم بآيات الله مع يقينهم بصحتها: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}.
2. استهزاؤهم بموسى عليه السلام: {إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ}.
3. نكثهم للعهد المتكررة: {إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ}.
4. استكبارهم عن الإيمان: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ}.
5. استخفافهم بعقول قومهم: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فُطَاغُوهُ}.

هذه كلها تجمعت لتشكيل "الإسفاف" العظيم. إنها ليست خطيئة واحدة، بل تراكم خطايا، وإصرار على الكفر، واستهانة بآيات الله.

مثال تقريبي:

تخيل أباً حكيماً مع ابنه. يخطئ الابن، فينصحه الأب ويعفو عنه. ثم يخطئ مرة أخرى، فيمهله ويعفو. وهكذا مرة بعد مرة. وفجأة، يفعل الابن خطيئة عظيمة جداً مع استهانة واستكبار. هنا يمتلئ قلب الأب بالغضب، ويقرر أن يعاقب العقاب الذي لن يفلت منه الابن. هذا تماماً هو {فَلَمَّا آسَفُونَا}. لقد أغلقوا على أنفسهم باب التوبة باختيارهم.

المحور الثاني

{انتقمنا منهم}

الانتقام الإلهي الحتمي.. فعل القدر الذي لا يرد

معنى {انتقمنا}: القوة والجلال والتنفيذ

تأمل هذه الجملة الفعلية القصيرة المدوية: {انتقمنا منهم}. إنها تحمل في طياتها أبعاداً رهيبية:

{انتقمنا}: فعل ماض بصيغة الجمع للتعظيم. الله سبحانه هو الذي انتقم بنفسه. لم يرسل ملائكة فقط، بل الله المنتقم قال: انتقمنا.

والانتقام: هو العقاب على الذنب. لكن انتقام الله ليس كأى انتقام. إنه انتقام من جبار السموات والأرض. إنه انتقام القوي الذي لا يعجزه شيء، العزيز الذي لا يغلب، القهار الذي لا يمانع.

مثال تقريبي:

في محكمة، قاض يحكم على مجرم بالإعدام. لكن بين الحكم والتنفيذ قد يمر زمن. أما هنا، فالله يقول: "فلما أغضبونا، نفذنا الحكم بأنفسنا". لا استئناف، لا نقض، لا تأجيل.

{منهم}: شمول الانتقام للجميع

"منهم" أي من فرعون وملئه وجنوده وأتباعه الذين ساروا في ركابه. لم ينتقم الله من فرعون فقط، بل انتقم من الجميع. لماذا؟ لأنهم رضوا بفعله، وأطاعوه، وساروا وراءه. فاستخف قومه فأطاعوه. فكانوا شركاء في الجريمة، فكانوا شركاء في العقاب.

وهذا درس لكل أتباع الطغاة: أنتم شركاؤهم في الجريمة، وستكونون شركاءهم في العقاب، إلا أن تتوبوا وتنبأوا منهم وتوبوا إلى الله. المحور الثالث

{فأغرقناهم أجمعين}

تفاصيل النهاية.. الإغراق العظيم الذي طهر الأرض منهم

معنى {فأغرقناهم}: الفاء السببية وطريقة العقاب

الفاء هنا سببية تعقيبية. والمعنى: أن الانتقام تمثل في الإغراق. والإغراق هو إهلاكهم بالماء. إنه مشهد مهيب: الماء يحيط بهم من كل مكان، يعلو فوق رؤوسهم، يملأ أفواههم وأنوفهم، يقذف بهم الأمواج، فإذا بهم جثث طافية بعد أن كانوا جبابرة.

وهذه النهاية بالذات لها دلالة خاصة. فرعون افتخر بالأنهار التي تجري من تحته: {وهذه الأنهار تجري من تحتي}. فكانت وسيلة هلاكه هي الماء نفسه! إنها عدالة إلهية ساخرة: الشيء الذي افتخرت به وتجبرت به، صار سبب هلاكك. لتتعظ قريش، التي تفتخر بمالها وتجاريتها وأموالها، أن ما يفتخرون به قد يكون سبب هلاكهم.

مثال تقريبي:

تخيل رجل أعمال كان يفتخر ببرجه العالي الذي يملكه، وأنه لا يستطيع أحد أن ينافسه. ثم يحدث زلزال، فيهوي البرج عليه ويدفنه تحت أنقاضه. هذا ما حدث لفرعون: افتخر بالأنهار، فكانت الأنهار سبب هلاكه.

{أجمعين}: تأكيد الإحاطة والشمول

كلمة {أجمعين} تؤكد. لم يفلت منهم أحد. لا فرعون، ولا هامان، ولا قارون، ولا جندي واحد. كلهم أغرقوا. {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ}. الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين. المحور الرابع

{فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ}

الحكمة من حفظ القصة.. التاريخ عبرة لا حكاية

معنى {فَجَعَلْنَاهُمْ}: الجعل القدري

الفاء للترتيب. "جعلناهم" أي صيرناهم، حولناهم، بدلناهم. والجعل هنا جعل قدري، أي أن الله كتب عليهم أن يكونوا هذا ويكونوا ذاك. لم يمت فرعون وقومه عبثًا، بل جعلهم الله شيئًا له قيمة تاريخية: قيمة العبرة والعظة.

معنى {سَلَفًا}: القوم السابقون الذين صاروا قدوة في الهلاك

"سَلَفًا" أي قومًا متقدمين مضوا إلى الهلاك، وصاروا عبرة لمن بعدهم. كلمة "سلف" تشعر بأنهم صاروا شيئًا من الماضي، شيئًا قد انتهى، لكن أثره باقٍ في العقول والقلوب.

مثال تقريبي:

عندما ترى لافتة على طريق جبلي وعر مكتوبًا عليها: "هنا مات فلان بحادث بسبب السرعة". هذا "الف لادن" صار سَلَفًا. قصته صارت تحذيرًا لكل من يمر من هنا. هذا هو معنى {سَلَفًا}.

معنى {وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ}: العبرة المتجددة

"مثلاً" أي عبرة وعظة. والمثل: هو القصة التي تذكر فيحصل بها الاعتبار. وقوله: {لِلْآخِرِينَ} (أي لمن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة). وهنا تنجلي عظمة القرآن: قصة فرعون ليست للتاريخ فقط، بل هي "مثل" حي لكل ظالم، ولكل طاغية، ولكل أمة طاعية. ولهذا جاءت في القرآن تتلى إلى يوم القيامة.

المحور الخامس

الترابط بين الآيتين وسياق السورة: لماذا هذه القصة هنا؟

لقد نزلت هذه الآيات تسليّة للنبي صلى الله عليه وسلم وتثبيتًا له، وتخويفًا لقريش، وتأسيسًا لعقيدة المؤمنين عبر الزمان.

أولاً: ارتباط القصة بما قبلها من تسفيه الدنيا وزخرفها

في مطلع السورة (الآيات 33-35) حُقِّرت الدنيا ووصفت بأنها {مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}. وهنا في نهاية القصة، رأينا كيف أن متاع الدنيا الذي اغتر به فرعون (الأنهار والملك والذهب) لم ينفعه شيئًا، بل أغرقه الله، وصار هو وما ملك متاعًا زائلًا.

ثانيًا: ارتباط القصة بما قبلها من وصف المعرضين والمكذبين

قبل هذه القصة مباشرة، كان الحديث عن المعرضين عن ذكر الله، وأنهم يقيض لهم الشياطين فيصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. ثم جاء الوعيد بحتمية الانتقام (الآيات 41-42). ثم جاءت هذه القصة نموذجًا حيًا، وشاهدًا تاريخيًا على صدق هذا الوعيد. فمن يكذب اليوم، فعاقبته كعاقبة فرعون.

ثالثًا: ارتباط القصة بموقف قريش من النبي صلى الله عليه وسلم

قريش فعلت كما فعل فرعون تمامًا: كذبت، وسخرت، واستكبرت، وازدرت النبي صلى الله عليه وسلم لأنه فقير، وقالوا: {لَوْ أَنَّا نُرَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ}. فجاءت قصة فرعون لتحذرهم وتقول لهم: "إنكم لن تكونوا أقوى من فرعون، فارتدعوا".

المحور السادس

الأبعاد والآفاق من الآيات: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد الأول: البعد العقدي - الثقة بعدالة الله المطلقة
الآيات ترسخ في القلب عقيدة أن الله لا يهمل الظالمين ولا ينسى المستضعفين. قد يمهلهم، لكنه لا يمهلهم. {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ}.

البعد الثاني: البعد التاريخي - قراءة التاريخ بعين العبرة لا بعين التسلية
الآيات تعلمنا أن التاريخ ليس مجرد حكايات، بل هو مخزون من السنن الإلهية. من فهمها أفلح، ومن أعرض عنها كرر أخطاء الماضين فحل به ما حل بهم.

البعد الثالث: البعد النفسي - طمأنينة المؤمنين ورعب الظالمين
الآية تمنح المؤمنين طمأنينة عظيمة، وترسل في نفس الوقت رعدة من الخوف في قلوب الظالمين و المتكبرين.

البعد الرابع: البعد التربوي - استعمال القصص في التربية
الآيات ترسخ منهجاً تربوياً: استعملوا القصص لتربية الأبناء على القيم والمبادئ.

المحور السابع

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً: الثقة بأن الله سينتقم لأوليائه ولو بعد حين
في عصرنا هذا، حيث يرى المؤمنون الطغاة يتجبرون والظالمين يستبدون، تأتي هذه الآية لتزرع في القلب الطمأنينة: {فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ}.

ثانياً: أخذ العبرة من التاريخ
الآية تدعونا إلى ألا نقرأ التاريخ لمجرد المعرفة، بل للعظة والاعتبار. فهل نحن نقرأ قصة فرعون لتكون لنا {سَلْطًا وَمَثَلًا} حقاً؟ أم نقرأها كحكاية؟

ثالثاً: الحذر من أن نكون مثل قوم فرعون في طاعة الطغاة
الآية تحذرننا من أن نكون أتباعاً للطغاة، فنستخف فنطيع، فنغرق معهم. {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ} ثم كانت النتيجة: {فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ}.

المحور الثامن

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: سنة الله في أخذ الظالمين
الآيات تؤسس مفهوماً فكرياً: أن لله سنة في أخذ الظالمين، وهذه السنة لا تتبدل ولا تتحول.

المفهوم النفسي: الخوف من غضب الله والرجاء في رحمته
الآية تربي في قلب المؤمن الخوف من أن يكون ممن يغضب الله، والرجاء في أن يكون ممن يرحمهم.

المفهوم التربوي: أهمية التأريخ للصلاح
الآية تعلمنا أن نترك أثراً طيباً يُذكر به، لا سيرة سيئة تكون {سَلْطًا} سيئاً.

المحور التاسع

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: أن نوقن بعدله
يريدنا الله أن نتيقن أن الظالمين لن يفلتوا منه أبداً، وأنه لا يعجل لعجلة أحد، بل يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر.

الإرادة الثانية: أن نعتبر بالتاريخ
يريدنا أن ننظر في قصص الماضين لنأخذ منها العبر، لا أن نقرأها للتسلية.

الإرادة الثالثة: ألا نستخف بالمعصية

يريدنا أن نخاف من تراكم الذنوب، ومن الإصرار على الصفائر، فإنها قد تؤدي بنا إلى {آسَقُونَا}.

الإرادة الرابعة: أن نحسن الختام
يريدنا أن نخاف من سوء الختام، وأن نحرص على حسن الختام، فإن فرعون لم ينفعه إيمانه وقت الفرق.
المحور العاشر

تحويل مفاهيم الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

المسار الأول: بناء الإنسان الواثق بعدالة الله، الصابر على الظلم
الآيات تبني إنساناً لا يهزم نفسياً أمام جبروت الطغاة، لأنه يوقن أن الله سينتقم لهم.

التطبيق العملي:
كلما رأيت ظالماً يتجبر، قل بقلبك ولسانك: {قَلِمًا آسَقُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ}. وتسَلِّ بهذه الكلمات، وادع الله أن ينتقم منه أو يهديه.

المسار الثاني: بناء المجتمع الذي يقرأ التاريخ فيتعظ
الآيات تبني مجتمعاً حياً، يقرأ قصص الأولين، فيستلهم منها العبر، ويبني عليها سياساته واقتصادياته واجتماعياته.

التطبيق العملي:
في المدارس، يستخرج الطلاب من قصة فرعون الدروس المستفادة: الكبر يؤدي إلى الهلاك، الاستخفاف بالعقول جريمة، طاعة الطغاة هلاك. هذا هو المنهج القرآني.

المسار الثالث: بناء الحضارة التي تخاف من غضب الله
الحضارة الإسلامية قامت على الخوف من الله، لا على الأمن من مكره. {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}.

التطبيق العملي:
اجعل لنفسك وقفات تحاسب فيها نفسك: هل أفعل شيئاً يغضب الله؟ وأنت في قمة نجاحك تذكر فرعون وهو يغرق.
خاتمة: أين أنت من قصة فرعون؟

أيها القارئ الكريم..

لقد طفنا معاً في قصة فرعون، منذ أن أعلن موسى رسالته، إلى أن قال فرعون: {أَنَا رَبِّكُمْ الْأَعْلَى}، إلى أن استخف قومه فأطاعوه، إلى أن جاءت النهاية المرعبة: {فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ}.

فهل انتفعت بهذه القصة؟ هل صارت لك {سَلَفًا وَمَثَلًا} كما أراد الله؟ أم مرت عليك مرور الكرام؟

بسم الله الرحمن الرحيم

المقطع الرابع

القسم الاول

المبحث الاول

تفسير الآيتين (57) - (58) من سورة الزخرف

تقدمة لا بد منها: موقع الآيتين من السياق ومن كشف طبيعة المعاندين المجادلين بالباطل

قف معي - يا رعاك الله - وقفة المتأمل الذي يرى في آيات القرآن بناءً محكمًا يشد بعضه بعضًا، ويكشف طبائع النفوس وأسرار القلوب.

لقد انتهت الآيات السابقة (55) - (56) بمشهد النهاية الحاسمة لفرعون وقومه: {فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ . فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخَرِينَ .} انتهى المشهد، وطويت صفحة فرعون، وبقيت العبرة ماثلة لكل من يأتي بعده. ثم تعود الآيات إلى الواقع المعاصر للنبي صلى الله عليه وسلم، إلى قريش التي تسير على نهج فرعون في التكذيب والصد والجدل بالباطل.

وهنا - في هاتين الآيتين - تنكشف لنا طبيعة المشركين المعاندين، وطريقة تفكيرهم المريضة، وكيف أنهم لا يبحثون عن الحق أبدًا، بل يبحثون عن أي مدخل للجدل والمراء والعنت. إن الآيتين ترسمان لوحة حية لنفسية المعاند المجادل بالباطل، وتكشف عن داء عضال: داء العناد والعنت والجدل العقيم.

لقد وقعت حادثة كانت مادة خصبة لهؤلاء المعاندين. حين نزل قول الله تعالى: {إِنكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} - في سورة الأنبياء - تحدث النبي صلى الله عليه وسلم مع النصارى في شأن عيسى عليه السلام، وبين لهم أنه عبد الله ورسوله، ليس إلهًا ولا ابن إله. فلما سمع المشركون هذا، انتهزوا الفرصة! لماذا؟ ليس لأنهم يبحثون عن الحق، ولا لأن عندهم شبهة حقيقية في شأن عيسى... بل لأن طباعهم المريضة بالعنت والجدل وجدت مادة تثير بها ضجة إعلامية، وتشغل بها الناس، وتظهر بها قوتها الجدلية الزائفة!

فانظروا ماذا قالوا! قاسوا عيسى عليه السلام - ذلك النبي الكريم - على أصنامهم الحجرية! قالوا: "إذا كان عيسى في النار كما تقولون، فنحن راضون أن تكون آلهتنا في النار! أليست آلهتنا خيرًا من عيسى؟!". إنه قياس فاسد، وجدل عقيم، وعنت مقصود.

وهنا ينزل الوحي ليكشف حقيقة ما يفعلون، وليفضح دوافعهم، وليبين أن هذا ليس بحثًا عن الحق، بل هو عناد وجدل بالباطل، تولد من طبيعة متأصلة فيهم: طبيعة الخصومة بالباطل، والجدل بغير دليل، والتعامي عن الحق الواضح.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها والقضايا التي تناقشها

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيتان الكريمتان:

1. بيان طبيعة المشركين في الجدل والعناد: {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ}.
2. كشف منطقهم الفاسد في القياس: {وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ}.
3. تشخيص العلة الحقيقية: {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ}.
4. بيان أن الجدل بالباطل يولد العمى عن الحق، وفقدان العلم، ودخول متاهة الشك، والتسلط الشيطاني.

مقاصد الآيات وأهدافها:

1. فضح طبيعة المعاندين المجادلين بالباطل وأنهم لا يبحثون عن الحق أبدًا.
2. تحذير المؤمنين من الدخول في جدل عقيم مع من لا يريد الحق.
3. بيان أن العناد والجدل بالباطل يفقدان العلم ويولدان العمى.
4. تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم بأن قومه ليسوا جادين في البحث عن الحق، بل هم قوم خصمون معاندون.
5. تعليم الأمة عدم الانجرار وراء المثيرين للجدل العقيم.

القضايا الكبرى التي تناقشها الآيات:

القضية الأولى: العناد والجدل والعنت من دعائم الكفر

الآيات تبين أن المشركين لم يكن هدفهم الوصول إلى الحق، بل كانوا يريدون الجدل للجدل، والعنت لعنت هذه الصفات هي التي أعمت أبصارهم عن رؤية الحقيقة.

القضية الثانية: تحريف المفاهيم والدلالات لغرض الجدل العقيم
المشركون استغلوا مثلاً "ضرب لتقريب الصورة وتوضيح الحق، فحرفوا دلالة، وقلبوا مفهومه، ليجعلوا منه مادة للجدل.

القضية الثالثة: القياس الفاسد الناتج عن الجهل والعناد
إن قياسهم عيسى عليه السلام على أصنامهم قياس فاسد، لم ينشأ عن غموض في الحقائق، بل عن عناد متعمد وإرادة إثارة الجدل.

القضية الرابعة: الجدل العقيم يولد العمى عن الحق وفقدان القدرة على التمييز
حين يستمر الإنسان في الجدل بالباطل، يفقد نور البصيرة، فيصبح لا يميز بين الحسن والقبيح، ويعيش في ظلمات الشك، وتتسلط عليه الشياطين.
المحور الأول

{وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ}

المشهد الحي لاستغلال الجدل... ضرب المثل وإثارة الضجة

غوص في معنى {وَلَمَّا}: التوقيت وربط السياق

دعني أقف بك عند {وَلَمَّا}. "لما" ظرفية شرطية غير جازمة، تفيد التوقيت. إنها تقول: حين حدث هذا الأمر، في ذلك الوقت، كان رد فعلهم الفوري هو كذا. فـ "لما" تربط الحدث بالنتيجة مباشرة، وتظهر سرعة استجابتهم الجدلية، وكأنهم كانوا يتربصون بأي كلمة يطلقها النبي صلى الله عليه وسلم ليبنوا عليها جدلهم العقيم.

{ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا}: سياق ضرب المثل بعيسى عليه السلام

{ضُرِبَ} أي جعل وذكر. والمثل: هو القصة أو الصفة أو الوصف الذي يذكر للاعتبار والاتعاظ. والمعنى: لما جعل عيسى ابن مريم مثلاً "يُضْرَب، وذكر حاله وقصته مع قومه، وأنه عبد الله ورسوله، وأنه ليس إلهًا ولا ابن إله.

وسبب نزول هذه الآية معروف: لما نزل قوله تعالى في سورة الأنبياء: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ}، فهم المشركون أن معبوداتهم (الأصنام (ومعبودات النصارى) عيسى عليه السلام (سيكونون حصب جهنم. فانتهزها المشركون فرصة للجدل، وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: "أليس عيسى يعبد من دون الله؟ وقد زعمت أنه في النار! فنحن راضون أن تكون آلهتنا مع عيسى في النار!".

وفي رواية أخرى أن ابن الزبيري - وكان من أشد المجادلين - هو الذي أثار هذه الشبهة، فقال: "أليس تزعمون أن عيسى في النار؟ فإن كان كذلك فنحن راضون أن تكون آلهتنا معه!".

{إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ}: رد الفعل الفوري

{إِذَا}: فجائية. أي فاجأوا بهذا الصد والضجيج والجدل! لم يتريثوا، لم يتفكروا، لم يسألوا عن المعنى الحقيقي، بل فوراً أثاروا الضجة.

{قَوْمُكَ}: أي قومك يا محمد، وهم قريش. والتعبير بـ "قومك" فيه تذكير للنبي صلى الله عليه وسلم بقربهم منه نسباً، ومع ذلك يفعلون هذا! إنه تسلية له: هم قومك وأنت حريص عليهم، لكنهم معاندون.

{مِنْهُ يَصِدُّونَ}: "منه" أي من هذا المثل المضروب. "يصدون" أي يضجون ويعترضون ويثيرون الجدل. وقيل: يضحكون فرحين بأنهم وجدوا مدخلا "للنيل من الدعوة. وهو من الصد عن الحق، أي يعرضون عنه ويصدون غيرهم.

مثال تقريبي من عصرنا:

تخيل عالماً فاضلاً "قال كلمة حق في محاضرة يبين فيها أن كل من عبد من دون الله فهو في

النار. فيأتي شخص معاند، فيقول للعالم: "إذا أنت تقول إن فلاثا العابد الزاهد في النار؟!" ثم ينشر هذا الكلام في وسائل التواصل، ويضج به، ويثير جدلاً واسعاً. هذا الشخص لا يريد الحق، بل يريد الجدل وإثارة البلبلة. هذا هو حال المشركين تماماً.
المحور الثاني

{وَقَالُوا أَلَهْتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ}

القياس الفاسد... منطق المعاندين المقلوب

غوص في معنى {وَقَالُوا أَلَهْتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ}: الاستفهام الإنكاري الفاسد

تأمل معي هذا الاستفهام: {أَلَهْتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ}.

الهمزة: للاستفهام التقريري. هم يسألون سؤالاً يقصدون به تقرير معنى في أنفسهم. والمعنى: "أخبرنا محمد أن عيسى في النار؟ إذا فآلهتنا خير من عيسى؟! أليس كذلك؟!"

إنه قياس فاسد من وجوه:
أولاً: قاسوا عيسى عليه السلام - وهو نبي كريم، عبد الله ورسوله، لم يرض بعبادة الناس له - على أصنامهم الحجرية التي لا تنفع ولا تضر ولا تعقل. فأين هذا من ذلك؟!
ثانياً: هم يعلمون يقيناً أن عيسى ليس إلهاً، ولكنهم يتجاهلون ذلك ليجادلوا.
ثالثاً: هم لا يبحثون عن جواب حقيقي، بل يريدون إحراج النبي صلى الله عليه وسلم وإثارة البلبلة.

لماذا فعلوا هذا؟ هل حقاً التبس عليهم الأمر؟

الجواب: كلا! لم يلتبس عليهم الأمر. إنهم يعرفون أن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله، وأنه لم يدع الألوهية، وأن النصارى غلوا فيه من عند أنفسهم. ولكنهم - وقد أصيبوا بداء العنت والعناد و الجدل - استغلوا هذه النقطة لإثارة الجدل، لا لطلب الحق.

مثال تقريبي:
تخيل طالباً مشاغباً في فصل. المعلم يشرح درساً عن التوحيد، ويقول: "كل من يُعبد من دون الله، و الله لم يأمر بعبادته، فعبادته باطلة". فيقوم الطالب المشاغب ويقول بصوت عالٍ: "إذا أنت تقول إن العالم الفلاني - الذي يحترمه الناس - في النار؟!" هو لا يريد أن يفهم، ولا يريد أن يتعلم، بل يريد أن يثير الفوضى في الفصل. هذا هو حال المشركين.
المحور الثالث

{مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ}

التشخيص الإلهي للداء... جدل عقيم، وخصومة بالباطل

غوص في معنى {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا}: الحصر والقصر

{مَا}: نافية. {إِلَّا}: للحصر. والمعنى: ما ضربوا لك هذا المثل، وما أثاروا هذه الضجة، وما جاءوا بهذا القياس... إلا من أجل الجدل فحسب! ليس من أجل طلب الحق، ولا من أجل المعرفة، ولا من أجل الوصول إلى اليقين. بل غرضهم الوحيد هو الجدل وإظهار البراعة فيه!

{ضَرَبُوهُ}: أي ذكروه وأوردوه. والضمير يعود إلى المثل.

{لَكَ}: اللام هنا للتعليل أو للتبليغ. أي أنهم ضربوا هذا المثل موجّهين كلامهم لك يا محمد، بقصد إحراجك وإثارة الجدل معك.

{إِلَّا جَدَلًا}: حصراً وقصرًا. الجدل هو المخاصمة والمنازعة بالكلام، مع التعنت وعدم الرغبة في الوصول إلى الحق. إنه الحوار العقيم الذي لا يبحث عن حقيقة، بل يبحث عن انتصار وهمي.

{بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ}: الانتقال إلى التشخيص الأعمق

{بَلْ}: للإضراب والانتقال إلى ما هو أعمق. إنها تقول: ليس الأمر مجرد جدل عابر، بل هم -

بطبيعتهم وجبلتهم - قوم خصمون!

{قَوْمٌ خَصْمُونَ}: صيغة مبالغة من "خصم". "خصمون" أي شديدو الخصومة، محترفوها، مولعون بها. إنها طبيعة متأصلة فيهم، وليست حالة طارئة. إنهم لا يعرفون إلا الخصومة، ولا يتقنون إلا الجدل بالباطل ، ولا يبحثون عن حق أبداً.

ما الفرق بين الجدل المحمود والجدل المذموم؟

الجدل المحمود: هو ما كان لإظهار الحق وإقامة الحجة، ويكون بالحسنى وبالحكمة. {وَجَادِلْهُمْ بَالْتِي هِيَ أَحْسَنُ}.
الجدل المذموم: هو ما كان للعت والخصومة وإظهار القوة الجدلية، دون رغبة في الوصول إلى الحق. وهذا هو حال المشركين: {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا}.
المحور الرابع

كيف أن الجدل بالباطل يولد العمى عن الحق والتخبط في الظلمات

أولاً: الجدل يفقد العلم ويورث الجهل

حين يكون هدف الإنسان الجدل وإظهار البراعة الكلامية، لا الوصول إلى الحق، فإن هذا الجدل يفقده العلم شيئاً فشيئاً، ويطمس على قلبه، فيصبح لا يميز بين الحق والباطل. {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}. {إنهم يعرفون الحق، ولكن الجدل والعناد أعماهم عنه.

ثانياً: الجدل يولد الخصومة المستندة إلى العصبية الجاهلية

المشركون لم يستندوا في جدالهم إلى دليل، بل استندوا إلى حمية وعصبية قبلية جاهلية. هم يريدون أن ينتصروا لآلهتهم وآبائهم، لا أن يعرفوا الحق. وهذه العصبية تجعلهم يرون القبيح حسناً و الحسن قبيحاً.

ثالثاً: الجدل يعمي الأبصار عن نور الحقيقة

الإنسان المجادل بالباطل يعيش في ظلمات الشك، يتخبط فلا يرى اليقين، ولا يستطيع الخروج من متاهة الضلال. {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نَّورٍ}. {إن الجدل العقيم يغلق نوافذ القلب، فلا يدخلها نور الإيمان.

رابعاً: التسلط الشيطاني على المجادل بالباطل

حين يصير الإنسان على الجدل بالباطل والعناد، يقبض الله له شيطاناً يتسلط عليه، فيزين له الباطل، ويريه القبيح حسناً والحسن قبيحاً. {وَمَنْ يَغْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ثَقْيَضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}. {وَأَنَّهُمْ لِيَصْنَدُوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ}. {إنه يظل يجادل ويخاصم حتى يهلك، ولا يخرج من دائرة الضلال.

مثال تقريبي:

شاب دخل في حوارات دينية على الإنترنت، وكان هدفه هزيمة الآخرين وإظهار براعته الجدلية. مع الوقت، صار لا يستمع للحق، ولا يقرأ القرآن بتدبر، بل يقرأ ليجد نقاطاً يجادل فيها. شيئاً فشيئاً، فقد الإيمان، وصار يعيش في دوامة من الشكوك، وانتهى به الحال إلى الإلحاد - والعياذ بالله - بسبب الجدل العقيم. هذا هو مصير من يجعل الجدل غاية لا وسيلة.
المحور الخامس

الأبعاد والآفاق من الآيات: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد الأول: البعد النفسي - نفسية المعاند المجادل
الآيات تشخص نفسية المعاند: إنه لا يبحث عن الحق، بل يبحث عن أي مدخل للجدل. وهو يفرح حين يجد ثغرة يثير بها ضجة، لأنه يريد أن يظهر بمظهر القوي المجادل.

البعد الثاني: البعد الفكري - الجدل العقيم يفقد العلم ويولد الجهل
الآيات تبين أن الجدل بالباطل ليس مجرد سلوك سيئ، بل هو مرض يفقد صاحبه القدرة على التمييز

بين الحق والباطل، ويورثه العمى.

البعد الثالث: البعد الاجتماعي - تأثير المجادلين على المجتمع
المجادلون بالباطل يثيرون البلبلة في المجتمع، ويصرفون الناس عن الحق، ويزرعون الشكوك. وواجب العلماء والمصلحين كشف حقيقتهم وعدم الانجرار وراءهم.

البعد الرابع: البعد الإيماني - خطر الجدل على الإيمان
الآيات تحذر من أن الجدل العقيم قد يؤدي بصاحبه إلى الهلاك، لأنه يفتح أبواب الشك، ويغلق أبواب اليقين، ويسلم صاحبه للشيطان.
المحور السادس

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً: الحذر من الجدل العقيم على وسائل التواصل
في عصر السوشيال ميديا، كثر المجادلون الذين يثيرون القضايا للجدل لا للوصول إلى الحق. الآيات تدعونا إلى عدم الانجرار وراءهم، فإنهم { قَوْمٌ خَصِمُونَ }.

مثال تقريبي:
تقرأ منشوراً على فيسبوك يثير سؤالاً ساخراً عن الإسلام. تجد تحت المنشور مئات التعليقات من مسلمين يدخلون في جدال مع الكاتب. الكاتب لا يريد الحق، بل يريد التفاعل والجدل. الآية تقول لك: لا تجادله، فهو يضرب الأمثال جدلاً، وهو قوم خصمون.

ثانياً: التمييز بين السائل الصادق والمجادل المعاند
الآيات تعلمنا أن هناك فرقاً بين السائل الذي يريد الحق، والمجادل الذي يريد الجدل. السائل الصادق نجيب عنه بالحسنى، والمجادل المعاند نعرض عنه ولا نضيعه وقتنا معه.

ثالثاً: عدم استغلال النصوص والمفاهيم لتحريفها للجدل
الآيات تحذر من فعل المشركين: استغلوا مثلاً " صحيحاً وحرفوه للجدل. فعلينا الحذر من هذا السلوك، وأن نكون أمناء في فهمنا للنصوص وفي حواراتنا.

رابعاً: علاج مرض الجدل والعناد في النفس
الآيات تدعونا إلى أن نتفقد أنفسنا: هل نحن من الذين يجادلون لإظهار الحق، أم لإظهار القوة؟ هل نقبل الحق إذا ظهر، أم نستمر في الجدل عناداً؟
المحور السابع

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: الجدل العقيم دليل الإفلاس الفكري
الآيات ترسخ مفهوماً فكرياً: أن المجادل بالباطل الذي لا يبحث عن الحق هو مفلس فكرياً، لأنه لا يملك حجة ولا برهاناً، فيلجأ إلى التحريف والقياس الفاسد والضجة.

المفهوم النفسي: العناد مرض نفسي يمنع من رؤية الحق
العناد والتعنت ليسا قوة، بل هما مرض نفسي يحجب صاحبه عن رؤية الحقيقة، ويجعله يعيش في ظلمات الشك والضلال.

المفهوم التربوي: تربية الأبناء على قبول الحق وعدم العناد
الآيات تدعو المربين إلى تربية الأبناء على قبول الحق، وعلى الحوار البناء، واجتناب الجدل العقيم الذي لا فائدة منه.
المحور الثامن

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: معرفة طبيعة المعاندين المجادلين بالباطل
يريدنا الله أن نعرف طبيعة هؤلاء القوم، فلا ننخدع بهم، ولا نظن أنهم يبحثون عن الحق.

الإرادة الثانية: اجتناب الجدل العقيم

يريدنا ألا نضيع أوقاتنا وجهودنا في جدال من لا يريد الحق}. وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا.}

الإرادة الثالثة: الحرص على سلامة القلب من مرض العناد
يريدنا أن نتفقد قلوبنا، ونسأل أنفسنا: هل نقبل الحق إذا جاءنا؟ أم نجادل بالباطل عنادًا وكبرًا؟

الإرادة الرابعة: طلب العلم والحق بالحوار البناء
يريدنا أن نطلب الحق، وأن نتحاور بالحسنى، وأن نجعل الحق غايتنا، لا الجدال والخصومة.
المحور التاسع

تحويل مفاهيم الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

المسار الأول: بناء الإنسان الصادق في طلب الحق، البعيد عن الجدال العقيم
الآيات تبني إنسانًا هدفه الحق لا الجدال. إنسانًا يحاور بالحسنى، ويقبل الحق أنى جاءه، ويبتعد عن الخصومة والعنت.

التطبيق العملي:

- . قبل أن تدخل في أي حوار، اسأل نفسك: "ما هدفي من هذا الحوار؟ هل هو الوصول إلى الحق، أم إظهار براعتي الجدلية؟".
- . إذا دخلت حوارًا ووجدت الطرف الآخر معاندًا لا يريد الحق، فأنه الحوار بسلام ووفر وقتك.
- . مثال تقريبي: شاب مسلم يحاور ملحدًا. بعد جولتين، يكتشف أن الملحد لا يريد الحق، بل يريد إثبات ذاته. فيقول له: "هداك الله، أنا اكتفيت من الحوار"، وينصرف.

المسار الثاني: بناء المجتمع الذي يفرق بين السائل والمجادل
الآيات تبني مجتمعًا واعيًا، يعرف كيف يفرق بين السائل الصادق الذي يريد أن يفهم، والمجادل المعاند الذي يريد أن يثير البلبلة. فيجيب الأول بالحسنى، ويعرض عن الثاني.

التطبيق العملي:

- . في منتديات الإنترنت، لا تنخدع بكل من يثير سؤالًا " . انظر: هل هو جاد حقًا؟ أم هو فقط يريد الجدال؟ واستجب على هذا الأساس.
- . مثال تقريبي: في مسجد، يأتي رجل ويسأل إمامًا سؤالًا " محررًا بطريقة استفزازية. الإمام الحكيم يعرف أنه يريد الجدال، فيقول له: "تعال نتحاور على انفراد"، فيفشل مخطط الجدال العلي.

المسار الثالث: بناء الحضارة التي تقوم على العلم والحوار البناء لا على الجدال العقيم
الحضارة الإسلامية قامت على الحوار البناء الذي يطلب الحق، لا على الجدال العقيم الذي يطلب الخصومة. فعلينا أن نعيد هذه القيمة إلى واقعنا.

التطبيق العملي:

- . شجع المدارس والجامعات على تعليم الطلاب "أدب الحوار" وفن المناظرة الهادفة إلى الحق، لا إلى الانتصار الشخصي.
- . مثال تقريبي: مسابقة في مدرسة بين فريقين في الحوار. المعلم يمنح الجائزة للفريق الذي التزم بأدب الحوار وقبل الحق حين ظهر، لا للفريق الذي كان أكثر جدلًا " ومراءً.
- خاتمة: هل أنت من المجادلين بالباطل أم من الباحثين عن الحق؟

أيها القارئ الكريم...

لقد جلسنا مع هاتين الآيتين الكريمتين اللتين كشفتنا لنا طبيعة المعاندين المجادلين بالباطل. رأينا كيف استغلوا قصة عيسى عليه السلام للجدل والعنت، وكيف قاسوا قياسًا فاسدًا، وكيف كان كل همهم إثارة الضجة والنيل من الدعوة. وسمعنا تشخيص الله لهم: { مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ.}

والآن أسألك بصدق:

- . هل جادلت يومًا وأنت لا تريد الحق، بل تريد فقط أن تنتصر لنفسك أو لرأيك؟

- هل عندك استعداد لقبول الحق إذا ظهر، أم أن العناد يمنعك؟
- هل تعرف أشخاصاً في محيطك هم "قوم خصمون" لا يعيشون إلا في جو الجدل العقيم؟ وكيف ستتعامل معهم بعد اليوم؟
- هل ستحرص - بعد هذا الدرس - على أن تجعل الحق غاية جدالك لا وسيلة لإثبات الذات؟

أجب عن هذه الأسئلة بصمت... واجعل الحق إمامك، لا الجدل.

المبحث الثاني

تفسير الآيات (59-62) من سورة الزخرف

تقدمة لا بد منها: موقع الآيات من السياق ومن كشف حقيقة عيسى عليه السلام ودفع شبهات المجادلين

قف معي - يا رعاك الله - وقفة التأمل الذي يرى أن القرآن العظيم حين يرد على المبطلين لا يكتفي بهدم شبهاتهم، بل يبني في القلب صرحاً من اليقين والحق.

لقد كنا في الآيتين السابقتين (57-58) أمام مشهد المشركين وهم يستغلون ذكر عيسى عليه السلام للجدل والعت، ويسيرون قياساً فاسداً: {أَلَهْنَّا خَيْرٌ أَمْ هُوَ}. ورأينا كيف كشف الله حقيقتهم: {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ}. لقد كانوا لا يريدون الحق، بل يريدون إثارة الضجة وإظهار البراعة الجدلية.

وهنا - بعد أن فضح الله نواياهم وكشف عوار منطقهم - تأتي هذه الآيات الأربع لتضع الأمور في نصابها، ولترفع الحجاب عن حقيقة عيسى عليه السلام التي حاول المجادلون تغطيتها بضجيجهم. إنها آيات تنتقل من الهدم إلى البناء، ومن تفنيد الشبهة إلى تقديم العقيدة الصحيحة.

يأتي البيان الإلهي واضحاً جلياً: عيسى عليه السلام ليس كما زعم النصارى (إله أو ابن إله)، وليس كما استغله المشركون للجدل، بل هو {عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ}. إنه عبد الله اصطفاؤه وفضله، وجعله آية وعبرة. ثم يكشف الله عن سر آخر: إن عيسى عليه السلام وأمه ونزوله في آخر الزمان إنما هو {عِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ} أي علامة من علاماتها. ثم يدعو الله عباده إلى اتباع ما يوحيه إليهم، لا إلى اتباع خطوات الشيطان، ذلك العدو المبين.

إنها آيات محكمة ترد كل باطل، وتثبت كل حق، وتجلو الحقيقة التي حاول المعاندون طمسها. من فهمها فقد عصم من فتنة النصارى ومن جدل المشركين.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها والقضايا التي تناقشها

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيات الكريمة:

1. إثبات حقيقة عيسى عليه السلام: {إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ} - نفي الألوهية وإثبات العبودية و التكريم.
2. جعله مثلاً وعبرة لبني إسرائيل: {وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ} - بيان حكمته ومكانته.
3. الرد على شبهة المشركين الذين جادلوا بالباطل واستغلوا ذكر عيسى للعت.
4. بيان علاقة عيسى عليه السلام بالساعة: {وَأَنَّهُ لَعَلَّمُ لِّلسَّاعَةِ} - نزوله علامة كبرى على قربها.
5. الحث على طمأنينة القلب باليقين: {فَلَا تَمْتَرْنَ بِهَا} - سد باب الشك والجدل.
6. الأمر باتباع الوحي لا الشيطان: {وَإَتَّبِعُوا هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}.
7. التحذير من الشيطان: {وَلَا يَصْنَعُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُبِينٌ}.

مقاصد الآيات وأهدافها:

1. تصحيح العقيدة في عيسى عليه السلام بعد أن حاول المشركون استغلالها للجدل.
2. قطع الطريق على المجادلين الذين يقيسون قياساً فاسداً لخدمة جدلهم العقيم.
3. إثبات أن عيسى عليه السلام عبد مكرم، اختاره الله وجعله آية.
4. ربط قصة عيسى عليه السلام بعلامات الساعة لتأكيد أهمية الإيمان به.
5. تثبيت المؤمنين على الحق وأمرهم باتباع صراط الله المستقيم.
6. تحذير الأمة من كيد الشيطان الذي يصد عن الحق ويثير الجدل والمراء.

القضايا الكبرى التي تناقشها الآيات:

القضية الأولى: حقيقة عيسى عليه السلام بين الغلو والجحود
الآيات تناقش القضية المركزية في شأن عيسى عليه السلام: هو ليس إلهًا كما غلا النصارى، وليس موضع جدل كما فعل المشركون، بل هو عبد أنعم الله عليه بالنبوة والكرامة.

القضية الثانية: الرد على القياس الفاسد للمجادلين
المشركون قاسوا آلهتهم على عيسى عليه السلام قياسًا فاسدًا. الآيات ترد هذا القياس بإثبات أن عيسى عبد مكرم، بينما آلهتهم حجارة لا تنفع ولا تضر. فلا وجه للقياس أبدًا.

القضية الثالثة: عيسى عليه السلام وعلاقته بالساعة
الآيات تبين أن نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان هو علامة من علامات الساعة، مما يستدعي اليقين بها وعدم الشك.

القضية الرابعة: الصراط المستقيم في مقابل طرق الشيطان
الآيات تضع المؤمن أمام خيارين: إما اتباع صراط الله المستقيم، وإما الوقوع في شرك الشيطان الذي يصد عن الحق.
المحور الأول

{إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ}

حقيقة عيسى عليه السلام... نفي الإلهية وإثبات العبودية والتكريم

غوص في معنى {إِنْ هُوَ}: القصر والحصر وتفنيده الزيف

دعني أقف بك عند هذا الأسلوب القرآني الحاسم: {إِنْ هُوَ إِلَّا}. إنها أداة القصر والحصر. "إن" النافية تفيد النفي، و"إلا" للحصر. والمعنى: "ما هو إلا عبد". ليس إلهًا، ولا ابن إله، ولا ربًا، ولا شريكًا. هو مقصور على هذه الصفة: العبودية لله.

هذا الأسلوب القاطع ينسف كل الأقاويل التي قيلت في عيسى عليه السلام:

- . نسف قول النصارى الذين قالوا: هو الله! فقال: {إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ}.
- . نسف قول النصارى الذين قالوا: هو ابن الله! فقال: {إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ}.
- . نسف استغلال المشركين له في الجدل! فقال: {إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ}.

إنه تفنيده جذري، وحسم قاطع، وبيان لا يحتمل التأويل.

مثال تقريبي:

في نقاش حاد حول شخصية مشهورة، يقول قائل: "فلان ليس إلا موظفًا بسيطًا! ليس وزيرًا، ولا ملكًا، ولا زعيمًا. هو موظف فحسب". هذا الأسلوب يحسم كل المبالغات ويرد الأمور إلى نصابها. هذا هو معنى الآية تمامًا.

{عَبْدٌ}: الكلمة المركزية الجامعة

تأمل كلمة {عَبْدٌ}. لم يقل: "إلا رسول"، ولا "إلا نبي"، رغم أنه رسول ونبي. بل قال: {عَبْدٌ}. لماذا؟

لأن "العبد" هي أرفع صفة يمكن أن يوصف بها إنسان عند الله. العبودية هي شرف الأنبياء قاطبة. ولأن الكلام هنا في سياق الرد على من زعم ألوهيته، فكان الأنسب أن يوصف بالعبودية المحضة التي هي نقيض الألوهية.

ولاحظ أن الكلمة نكرة: {عَبْدٌ} لا "العبد". والتذكير هنا للتعظيم والتفخيم. فهو عبد عظيم الشأن، جليل القدر، رفيع المنزلة عند الله.

{أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ}: العبودية مع الإنعام والتكريم الإلهي

ثم يأتي البيان أنه ليس مجرد عبد عادي، بل هو عبد خصه الله بإنعامه. {أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ} أي بالنبوة و الرسالة، وبالمعجزات (إحياء الموتى، إبراء الأكهم والأبرص)، ورفعه إلى السماء، وبجعله أحد أولي

العزم من الرسل.

فتجتمع في الآلة العبودية مع التكريم. هو عبد لا رب، ولكنه عبد معظم مكرم. وشتان بين هذا وبين آلهة المشركين الحجرية!

{وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ}: الجعل الإلهي والمثل العظيم

{وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا}: أي جعلناه آية وعبرة وحجة. والمثل هنا يحتمل معاني:

1. آية خارقة: لأن ولادته من غير أب هي آية عظيمة تخترق نواميس الطبيعة. {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ}.

2. عبرة وموعظة: لأن قصته فيها عبرة لمن يعتبر: كيف اصطفاه الله ورفع، وكيف كفر به قومه وافتروا عليه.

3. حد فاصل: لأنه كان مثلاً " وعلامة فارقة بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر.

فهو مثل يضرب، وقصة تروى، وآية يستدل بها. وكل هذا يبين أنه ليس إلهًا، بل هو عبد اصطفاه الله وجعله آية.

الرد الضمني على المجادلين:

الآية ترد على المشركين الذين قالوا: {أَلَهْنُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ} ردًا ضمنيًا بليغًا: كيف تقيسون آلهتكم الحجرية على عبد كريم أنعم الله عليه وجعله مثلاً " وآية؟! هل آلهتكم أنعم الله عليها؟ هل جعلها مثلاً "؟ هل اصطفاها؟! إن القياس فاسد من أساسه، والقياس الصحيح ممتنع لأن المقاييسين مختلفان تمام الاختلاف.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: العقيدة في عيسى عليه السلام محسومة في القرآن
الآية تقطع الطريق على كل غلو وتفريط في شأن عيسى عليه السلام. هو عبد الله ورسوله، لا إله و لا ابن إله.

الرسالة النفسية: طمأنينة المؤمن بعقيدته الواضحة
المؤمن الذي يقرأ هذه الآية تطمئن نفسه، لأنه يعرف الحق بوضوح، فلا يتزعزع بشبهات النصارى ولا بجدل المشركين.

الرسالة التربوية: علم أبناءك حقيقة عيسى عليه السلام من القرآن
في زمن يكثر فيه الكلام عن عيسى عليه السلام، علم أبناءك حقيقته من القرآن: هو عبد أنعم الله عليه، ونحن نحبه ونؤمن به ولا نغلو فيه.
المحور الثاني

{وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ}

عيسى عليه السلام وعلاقته بالساعة... علم اليقين لدفع شكوك الممترين

غوص في معنى {وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ}: التوكيد والعلم اليقيني

تأمل هذه الجملة العظيمة: {وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ}.

{وَإِنَّهُ}: الواو للعطف. "إن" للتوكيد. والهاء تعود إلى عيسى عليه السلام.

{لَعَلَّمَ}: اللام للتوكيد. و"علم" بكسر العين وسكون اللام (على قراءة حفص، أي علامة وأمرة وشرط من أشرط الساعة. وهو ما يسمى في الاصطلاح: "أشراط الساعة".

وقرئ "لَعَلَّمَ" (بفتح العين واللام) أي علامة ظاهرة بارزة. والمعنى على القراءتين متقارب: عيسى عليه السلام علامة تعرف بها الساعة، ونزوله من السماء في آخر الزمان دليل على قرب قيامها.

وجه كون عيسى عليه السلام علمًا للساعة:

اختلف المفسرون في وجه ذلك، وأرجح الأقوال:

1. نزوله آخر الزمان: وهو القول المشهور الذي تؤيده الأحاديث المتواترة في نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويحكم بالإسلام، ثم يموت.
2. خلقه من غير أب: إذ هو دليل على قدرة الله على إحياء الموتى وبعثهم، فالذي خلقه من غير أب قادر على أن يبعث الخلائق من قبورهم.
3. إحيائه الموتى بإذن الله: فهو دليل على صحة البعث والنشور.

{للساعة}: اللام للاختصاص أو التعليل

أي أن عيسى عليه السلام مختص بأن يكون علامة للساعة. فمن رآه أو سمع به ورأى آياته، استدل على أن الساعة حق، وأن الله قادر على البعث.

مثال تقريبي:

في طريق طويل، هناك لافتات أو علامات تدل على قرب الوصول إلى الوجهة. حين ترى اللافتة الكبرى، تعلم أن النهاية قريبة. عيسى عليه السلام هو العلامة الكبرى التي إذا ظهرت علم الناس أن الساعة قد اقتربت. هذا هو معنى {للساعة}.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: ربط الإيمان بعيسى عليه السلام بالإيمان باليوم الآخر
الآية تربط بين عيسى عليه السلام واليوم الآخر، فالإيمان به يستلزم الإيمان بالساعة، والشك فيه يؤدي إلى الشك فيها.

الرسالة النفسية: اليقين بالساعة ثمرة فهم الآيات
من فهم أن عيسى عليه السلام نفسه علامة على الساعة، ازداد يقينه بها، واطمأن قلبه، وزال عنه الشك.

الرسالة التربوية: علم أبناءك علامات الساعة لتثبيت الإيمان
ذكر أبناءك بعلامات الساعة الكبرى، ومنها نزول عيسى عليه السلام، يجعلهم يعيشون في حالة استعداد للقاء الله.
المحور الثالث

{فَلَا تَمْتَرْنَ بِهَا وَاتَّبِعُون هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}

النهى عن الشك، والأمر بالاتباع... بناء اليقين في قلب المؤمن

غوص في معنى {فَلَا تَمْتَرْنَ بِهَا}: الفاء والنهي المؤكد

{فَلَا}: الفاء للتفريع والترتيب. أي "بناءً على أن الأمر كذلك، وأن عيسى عبد الله وعلامة للساعة، فلا تشكوا في الساعة".

{تَمْتَرْنَ}: من "الامتراء" وهو الشك والمرية. وفيه نون التوكيد الثقيلة. أي لا تشكوا شكاً ما، أبداً، في وقوع الساعة. النهي مؤكد أبلغ التوكيد.

{بِهَا}: الضمير للساعة. والمعنى: لا ترتابوا في مجيء الساعة، ولا تشكوا في أنها آتية، فإن عيسى الذي تعرفون قصته هو علامة عليها، فكيف تشكون في العلامة والمدلول معاً؟!

مثال تقريبي:

معلم فيزياء يقول لطلابه: "الجاذبية الأرضية حقيقة لا تقبل الشك. لا تشكوا فيها! انظروا إلى القمر وهو يدور حول الأرض، إنه دليل على الجاذبية". هنا ربط بين العلامة (دوران القمر) والمدلول (الجاذبية)، ونهى عن الشك. هذا هو معنى الآية: عيسى علم للساعة، فلا تشكوا فيها.

{وَاتَّبِعُون}: الأمر باتباع صراط الله

ثم ينتقل إلى الأمر الإيجابي بعد النهي: {وَاتَّبِعُونِ}. "اتبعون" أي اتبعوا ما أمركم به، اتبعوا صراطي، اتبعوا هداي الذي أوحيت به إليكم.

وفيه حذف الياء للتخفيف، وأصله "واتبعوني". وهذا الخطاب موجه من الله إلى عباده على لسان النبي صلى الله عليه وسلم، أو هو خطاب من الله مباشرة.

{هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}: الإشارة إلى الوحي والهدى

{هَذَا}: إشارة إلى ما يدعو إليه النبي صلى الله عليه وسلم من التوحيد والإيمان بالله ورسله واليوم الآخر.

{صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}: طريق واضح لا عوج فيه، يوصل إلى الله وإلى جنته. فمن سلكه نجا، ومن حاد عنه هلك.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: اليقين في الساعة واجب، والشك فيها محرم
الآية تنهى عن الشك في الساعة، وتربط بين اليقين بها وبين فهم حقيقة عيسى عليه السلام.

الرسالة النفسية: لا تدع الشك يتسرب إلى قلبك
الشك مدخل من مداخل الشيطان. فإذا راودك شك في الساعة أو في غيرها من الغيبات، فاستعذ بالله، واطلب العلم الذي يزيل الشك.

الرسالة التربوية: علم أبناءك أن يسألوا لدفع الشك، لا لإثارته
هناك فرق بين السؤال الاستفهامي الصادق الذي يطلب الحق، والسؤال الجدلي الذي يثير الشك. درب أبناءك على الأول، وحذرهم من الثاني.
المحور الرابع

{وَلَا يَصْدَتْكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}

التحذير من العدو الأكبر... الشيطان الذي يصد عن الحق ويدفع إلى الجدل

غوص في معنى {وَلَا يَصْدَتْكُمُ الشَّيْطَانُ}: النهي والتحذير البليغ

{وَلَا}: الواو عاطفة، و"لا" ناهية.

{يَصْدَتْكُمُ}: من الصد، وهو الصرف والمنع. ونون التوكيد مرة أخرى: نون التوكيد الثقيلة. أي احذروا احذروا، إياكم أن يصدكم الشيطان! إنه تحذير بليغ مؤكد.

{الشَّيْطَانُ}: فاعل الفعل. والشيطان يريد أن يصد الناس عن صراط الله المستقيم، ويصرفهم عنه إلى طرق الضلال.

كيف يصد الشيطان عن الحق؟

الشيطان يصد عن الحق بعدة وسائل:

1. إثارة الشكوك والوساوس: كما فعل بالمشركين حين أثار الجدل حول عيسى عليه السلام.
2. تزيين الباطل: {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ}.
3. إثارة الشهوات: ليشغل بها عن الحق.
4. التخويف من الفقر أو من الناس: ليصد عن الجهاد والدعوة.
5. الجدل العقيم: الذي يجعل الإنسان يجادل بالباطل ولا يصل إلى حق.

الشيطان هو المحرك الخفي وراء كل جدل عقيم، ووراء كل شك في الحق، ووراء كل صد عن الصراط المستقيم.

{إنه لكم عدو مبین}: التعليل والبيان

{إنه}: للتوكيد. لكم}: اللام للاختصاص، أي هو عدو لكم أنتم أيها البشر. عدو}: خبر عن الشيطان .
{مبین}: أي واضح العداوة، بينها، ظاهرها. عداوته ليست خفية ولا مشكوكة، بل هي ظاهرة جلية.

فإذا كان عدوًا مبيّنًا، فكيف يطيعه الإنسان؟! كيف ينساق وراء وساوسه؟! كيف يجادل بالباطل وقد علم أن الشيطان هو الذي يحركه؟!

الربط بين الشيطان والجدل الذي أثاره المشركون:

في سياق الآيات، كان الشيطان هو الذي أثار الجدل في قلوب المشركين، وجعلهم يقيسون قياسًا فاسدًا، ويضجون ويصدون عن الحق. وها هو الله يحذر المؤمنين: لا تدعوا الشيطان يصدكم كما صد هؤلاء! إنه لكم عدو مبین، فكونوا على حذر!

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: معرفة العدو نصف المعركة
الآية تعرفنا بعدونا الأكبر: الشيطان. من عرف عدوه استعد له. فعلينا أن نعرف وساوسه ومكائده لنحذرها.

الرسالة النفسية: احذر الشيطان في خلواتك وجلواتك
الشيطان لا ينام عنك. هو يتربص بك في خلواتك (بالوساوس) وفي جلواتك (بإثارة الجدل والعصبية). فكن على حذر دائم.

الرسالة التربوية: علم أبناءك كيف يحذرون الشيطان
علمهم الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، وعلمهم أن كل فكرة سوء، وكل رغبة في جدل عقيم، هي من الشيطان، فيستعيذوا بالله منها.
المحور الخامس

الترابط بين الآيات الأربع: بناء متكامل لدفع الشبهة وتثبيت الحق

تأمل معي - يا رعاك الله - كيف انتظمت هذه الآيات الأربع كالبناء المحكم:

الآية (59): تضع الأساس: عيسى عبد الله ورسوله، ليس إلهًا ولا ابن إله.

الآية (60): لو شاء الله لجعل من الملائكة خلفاء في الأرض بدل البشر، لكنه لم يشأ.

الآية (61): عيسى علم للساعة، فلا تشكوا فيها، واتبعوا صراط الله المستقيم.

الآية (62): احذروا الشيطان، فإنه يصدكم عن هذا الصراط، وهو عدو مبین.

إنها سلسلة متصلة: تبدأ بتصحيح العقيدة، ثم تثبت اليقين بالساعة، ثم تأمر بالاتباع، ثم تحذر من المعوق. هكذا يبني القرآن اليقين في القلوب، ويحميها من معاول الشيطان.
المحور السادس

الأبعاد والآفاق من الآيات: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد الأول: البعد العقدي - تنقية العقيدة من الشوائب
الآيات تقدم نموذجًا للعقيدة الصحيحة في عيسى عليه السلام: عبد الله ورسوله، لا غلو فيه ولا جحود. هذه العقيدة الوسطية هي عصمة من الزلل.

البعد الثاني: البعد الإيمان - تقوية اليقين بالساعة
الآيات تربط بين آيات الله في خلقه (عيسى عليه السلام) واليوم الآخر، مما يزيد اليقين في قلب المؤمن.

البعد الثالث: البعد النفسي - طرد الشكوك ومقاومة الشيطان

الآيات ترسم خطأ واضحاً: اليقين بالحق، واتباع الصراط المستقيم، والحذر من الشيطان. من سار على هذا الخط سلمت نفسه واستقرت.

البعد الرابع: البعد الدعوي - منهج الرد على الشبهات
الآيات تقدم نموذجاً في الرد على شبهات المبطلين: لا تجادلهم بمنطقهم الفاسد، بل قدم العقيدة الصحيحة بوضوح، ثم حذر من الشيطان محرك الجدل.

البعد الخامس: البعد التربوي - ترسيخ العقيدة بالحجج الواضحة
الآيات تعلم المربين أن يربوا النشء على العقائد الصحيحة، مدعومة بالحجج الواضحة، محصنة بـ التحذير من الشهوات والشياطين.
المحور السابع

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً: تصحيح المفاهيم حول عيسى عليه السلام
في عصر يكثر فيه الكلام عن الأديان وعيسى عليه السلام، تدعونا الآيات إلى تثبيت عقيدتنا فيه: عبد الله ورسوله، لا إله ولا ابن إله.

ثانياً: عدم الانجرار وراء الجدل العقيم
المجادلون في عصرنا كثيرون، على وسائل التواصل وفي غيرها. الآيات تدعونا إلى عدم الدخول في جدال مع من لا يريد الحق، بل تقديم العقيدة الصحيحة والانسحاب من الجدل العقيم.

ثالثاً: الحذر من الشيطان في عصر الفتن
في عصر كثرت فيه الفتن والشبهات، يأتي التحذير القرآني: {وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ} ^٥ إنه لكم عدوٌ مبين} ليكون لنا نبراساً في التعامل مع كل ما يثار.

رابعاً: ترسيخ اليقين بالساعة
في زمن يزداد فيه التشكيك في كل شيء، حتى في اليوم الآخر، تدعونا الآيات إلى اليقين بالساعة، وربطها بآيات الله في خلقه.
المحور الثامن

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: الوسطية في العقيدة هي الحق
الآيات ترسخ مفهوماً فكرياً: الحق دائماً وسط بين طرفي الغلو والتفريط. في عيسى عليه السلام: غلت طائفة (النصارى) وجحدت أخرى (اليهود)، وجاء الإسلام بالحق الوسط.

المفهوم النفسي: الشيطان يستغل الجدل ليصد عن الحق
الآيات تكشف آلية نفسية خطيرة: الشيطان يثير الجدل العقيم في القلوب، فيشغل الناس به، ويصدّهم عن الحق واتباع الصراط المستقيم.

المفهوم التربوي: التعليم بالحجة والتحذير معاً
الآيات تقدم منهجاً تربوياً متكاملًا: قدم الحجة أولاً، ثم حذر من المضلات. هكذا يجب أن نربي: نغرس العقيدة بالحجة، ونحصنها بالتحذير من الشهوات والشبهات.
المحور التاسع

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: الإيمان بعيسى عليه السلام على الوجه الصحيح
يريدنا الله أن نؤمن بأن عيسى عبد الله ورسوله، وأن ننفي عنه الألوهية والبنوة، ونعترف له بالكرامة والنبوة.

الإرادة الثانية: اليقين بالساعة وعدم الشك فيها
يريدنا أن نؤمن بالساعة، وألا ندع الشك يتسرب إلى قلوبنا.

الإرادة الثالثة: اتباع صراطه المستقيم

يريدنا أن نتبع ما أمرنا به في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم.

الإرادة الرابعة: الحذر من الشيطان ومكائده
يريدنا أن نكون على حذر دائم من عدونا المبين، وألا ننساق وراء وساوسه.
المحور العاشر

تحويل مفاهيم الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

المسار الأول: بناء الإنسان الثابت على العقيدة الصحيحة
الآيات تبني إنساناً عقيدته واضحة في عيسى عليه السلام وفي اليوم الآخر، إنساناً لا تزعه الشبهات، ولا تستدرجه المجادلات العقيمة.

التطبيق العملي:

- اقرأ بتدبر كل ما ورد في القرآن عن عيسى عليه السلام، وثبت عقيدتك فيه.
- كلما سمعت شبهة حول عيسى عليه السلام، ارجع إلى هذه الآيات وتأملها، تثبت.
- مثال تقريبي: شاب مسلم في جامعة أجنبية يسأله زميله النصراني: "لماذا لا تؤمنون بأن عيسى ابن الله؟". يقرأ هذه الآية ويقول: "بل هو عبد الله ورسوله، ونحن نحبه ونؤمن به كما أمرنا الله".

المسار الثاني: بناء المجتمع المتيقن، البعيد عن الجدل العقيم
الآيات تبني مجتمعاً لا يضيع وقته في الجدل العقيم، بل يقدم الحق بوضوح، ويحذر من الشيطان، ويمضي في طريقه إلى الله.

التطبيق العملي:

- إذا رأيت مجادلين بالباطل في وسائل التواصل، فقدم الحق وانسحب، لا تنفق ساعات في جدل لا ينتهي.
- مثال تقريبي: في منتدى حوار، يفتح شخص موضوعاً استفزازياً عن الأديان. بدل الدخول في جدال طويل، اكتب تعليقاً واحداً واضحاً بالعقيدة الصحيحة، ثم غادر.

المسار الثالث: بناء الحضارة القائمة على اليقين والعلم
الحضارة الإسلامية قامت على اليقين، لا على الشك. {فَلَا تَفْتَرْنَ بِهَا} شعار المؤمن. واليقين هو الذي يصنع العزائم، ويحرك الهمم، ويبني الأمجاد.

التطبيق العملي:

- ازرع في نفسك وأهلك يقينيات الإيمان: اليقين بالله، باليوم الآخر، بالجنة والنار. فهذا اليقين هو وقود العمل.
- مثال تقريبي: داعية يلقي كلمة عن الساعة، فيقرأ هذه الآية، ويربط بين عيسى عليه السلام وعلا مات الساعة، فيزيد يقين الحاضرين ويحرك همهم للعمل الصالح.
- خاتمة: أين أنت من صراط الله المستقيم؟

أيها القارئ الكريم...

لقد جلسنا مع هذه الآيات الأربع التي وضحت حقيقة عيسى عليه السلام، وردت على شبهات المجادلين، وثبتت اليقين بالساعة، وأمرت باتباع صراط الله، وحذرت من الشيطان.

والآن أسألك بصدق:

- هل عقيدتك في عيسى عليه السلام واضحة وموافقة لهذه الآيات؟
- هل أنت على يقين من الساعة، أم أن للشيطان عليك مدخلاً من الشك؟
- هل اتبعت صراط الله المستقيم في حياتك كلها، أم أنك محيد عنه في بعض الأمور؟
- هل حذرت من عدوك الشيطان كما حذرك الله، أم أنك غافل عن مكائده؟

أجب عن هذه الأسئلة بصمت... وجدد إيمانك ويقينك.

المبحث الثالث

تفسير الآيات (63-65) من سورة الزخرف
تقدمة لا بد منها: موقع الآيات من السياق ومن مشهد عيسى عليه السلام يأتي بالبينات ليكشف الحق ويحذر من الشقاق

قف معي - يا رعاك الله - وقفة التأمل الذي يرى أن هذا القرآن العظيم يربط بين القصص والرسالات ليبني في القلب عقيدة راسخة، وليخرج الأمة من ظلمات الاختلاف إلى نور اليقين.

لقد مررنا في الآيات السابقة (57-62) بذلك المشهد العجيب: المشركون يثيرون الجدل حول عيسى عليه السلام، ويقيسون قياساً فاسداً، فيكشف الله حقيقتهم: {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ}. ثم جاء البيان الإلهي الحاسم عن حقيقة عيسى عليه السلام: {إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ}. ثم ربط الله قصته بالساعة، ودعا إلى اتباع الصراط المستقيم، وحذر من الشيطان العدو المبين.

وهنا - بعد أن وضحت العقيدة الصحيحة في عيسى عليه السلام، وبعد أن رُذِّ على شبهات المجادلين - تأتي هذه الآيات الثلاث لتكمل المشهد، ولتأخذنا إلى قلب رسالة عيسى عليه السلام، وإلى جوهر دعوته لقومه.

إنها تنقلنا من الحديث عن عيسى كشخص (عبد أنعم الله عليه) إلى الحديث عن مضمون رسالته (د البينات والحكمة). لقد جاء عيسى قومه - بني إسرائيل - بالدلائل الواضحات، لا يدعو إلى نفسه، و لا ليؤسس ديناً جديداً يختلف عن التوحيد، بل جاء ليبين لهم الحق الذي اختلفوا فيه. إن مهمته كانت جمع الكلمة، وتوحيد الصف، وإزالة الشبهات، ورد الناس إلى دين الله الحق.

ولكن... كيف كان استقبال بني إسرائيل له؟ لقد اختلفوا فيه وفي رسالته! انقسموا بين مؤمن وكافر، بين محب ومبغض، بين غال وجافد. وهنا يأتي التحذير الإلهي: {قَوِيلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ}. إن الاختلاف بعد مجيء البينات ليس مجرد خلاف فكري، بل هو ظلم يستوجب الويل والعذاب.

ثم تختتم الآيات بإعلان الحقيقة المطلقة: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}. إنهم ينتظرون الساعة بغتة لتأخذهم، وهم غافلون عن هذه الحقيقة غارقون في خلافاتهم وجدالهم العقيم.

وهكذا تنتقل بنا الآيات من رسالة عيسى عليه السلام إلى مصير المكذبين، وتربط بين الاختلاف في الدين وبين سوء العاقبة، لتوقظ القلوب قبل فوات الأوان.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها والقضايا التي تناقشها

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيات الكريمة:

1. إثبات رسالة عيسى عليه السلام بالبينات: {وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ}.
2. بيان الغرض من رسالته: {قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ}.
3. دعوته إلى التقوى والطاعة: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا}.
4. إعلان التوحيد الخالص: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ} هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ.
5. وقوع الاختلاف بعد البيان: {فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ}.
6. الوعيد للظالمين: {قَوِيلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ}.
7. غفلة المكذبين عن الساعة: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}.

مقاصد الآيات وأهدافها:

1. بيان أن رسالة عيسى عليه السلام هي امتداد لرسالات التوحيد، لا دين جديد منفصل.
2. إظهار أن مهمة الأنبياء عليهم السلام هي جمع الكلمة وبيان الحق لا إثارة الاختلاف.
3. التحذير من الاختلاف بعد مجيء البينات، وأنه طريق إلى الهلاك والعذاب.
4. ترسيخ عقيدة التوحيد الخالص التي جاء بها عيسى كما جاء بها كل الأنبياء.
5. إثارة اليقين في الساعة، والتحذير من الغفلة عنها.
6. تنبيه النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن الاختلاف على الحق سنة ماضية في الأمم.

القضايا الكبرى التي تناقشها الآيات:

القضية الأولى: مهمة الأنبياء - بيان الحق وجمع الكلمة
عيسى عليه السلام لم يأت ليؤسس دينًا جديدًا مخالفًا للتوحيد، بل جاء ليبين الحق الذي اختلف فيه
قومه، وليدعو إلى كلمة سواء. وهذا هو شأن كل الأنبياء.

القضية الثانية: الاختلاف بعد البيان جريمة وظلم
حين يختلف الناس بعد أن تتضح لهم البينات ويأتيهم الحق، فإن هذا الاختلاف يتحول من كونه
خطأ فكريًا إلى كونه جريمة وظلمًا يستوجبان العذاب.

القضية الثالثة: التوحيد هو الصراط المستقيم
{إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ} هذا هو جوهر رسالة عيسى عليه السلام، وهو نفسه جوهر رسالة
محمد صلى الله عليه وسلم، وهو نفسه جوهر كل رسالة سماوية.

القضية الرابعة: الغفلة عن الساعة سبب الهلاك
{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً} المكذبون غارقون في جدالهم وخلافاتهم، غافلون عن الساعة
التي تأتي فجأة.
المحور الأول

{وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ}

عيسى عليه السلام يأتي بالبينات والحكمة ليجمع الكلمة ويوحد الصف

غوص في معنى {وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ}: المجيء الميمون

دعني أقف بك عند فاتحة هذا المشهد: {وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ}.

{وَلَمَّا}: الواو للعطف، و"لما" ظرفية شرطية تفيد التوقيت. إنها تضعنا في لحظة تاريخية فارقة: لحظة
مجيء عيسى عليه السلام إلى قومه حاملاً البينات.

{جَاءَ}: جاءهم بنفسه، لم يرسل إليهم رسولاً، بل واجههم مواجهة، وباشرهم بدعوته. وفي هذا بيان
لشجاعة الأنبياء وصدقهم في الدعوة.

{وَالْبَيِّنَاتِ}: الباء للمصاحبة. أي جاء مصحوبًا بالبينات. والبينات: هي الآيات الواضحات الدالات على
صدقه، والمعجزات الباهرات التي أجراها الله على يديه: إحياء الموتى، إبراء الأكهم والأبرص، الإخبار بـ
المغيبات، الإنجيل الذي أنزل عليه. كلها بينات لا تدع مجالاً للشك.

مثال تقريبي:

تخيل رسولاً يأتي إلى قوم متنازعين، ويحمل معه وثائق وخارطة طريق واضحة. يقول لهم: "لقد
جئتكم بالبراهين والدلائل والحكمة، لأبين لكم الحق الذي اختلفتم فيه". هذا هو عيسى عليه السلام
تمامًا.

{قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ}: الإعلان عن مضمون الرسالة

{قَالَ}: أعلنها صريحة واضحة، لم يوارب ولم يدار.

{قَدْ}: للتحقيق والتوكيد. أي أنا الآن هنا، ومعهودي معكم قد تحقق. جئتكم حقًا وبقية.

{وَالْحِكْمَةِ}: الباء للمصاحبة. الحكمة: هي العلم النافع، والفهم الصحيح، والقول الفصل، والإنجيل الذي
أنزل عليه. وقيل: هي النبوة. والمعنى الجامع: جئتكم بما فيه صلاحكم وهدايتكم، جئتكم بالعلم الذي
يقطع الشك والاختلاف.

{وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ}: بيان الغرض من المجيء

{وَلِأُبَيِّنَ}: الواو للعطف، و"لأبين" اللام للتعليل. أي جئتكم بالحكمة، وجئتكم أيضًا لغرض آخر عظيم: لأ
بين لكم الحق.

{لكم}: لأجلكم أنتم، لا لمصلحة لي. رحمة بكم وشفقة عليكم.

{بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ: لم يقل "كل الذي" بل قال {بَعْضَ}. {لماذا؟

لأن عيسى عليه السلام لم يكن خاتم الأنبياء، فلم تكن رسالته جامعة لكل شيء، بل جاء ليبين بعض ما اختلفوا فيه من أمور الدين والتوراة، وترك البعض ليكملة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم. وقيل: إن "بعض" هنا بمعنى "كل". والمعنى: لأبين لكم ما اختلفتم فيه. والأول أظهر.

{تَخْتَلِفُونَ فِيهِ: فعل مضارع يفيد الاستمرار. إنهم كانوا في خلاف دائم ومستمر في أمور دينهم، في التوراة وتفسيرها، في أحكام الحلال والحرام، وفي غير ذلك. فجاء عيسى ليكشف لهم الحق ويرفع الخلاف.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: مهمة الأنبياء بيان الحق لا إثارة الخلاف
الأنبياء جاؤوا ليجمعوا الناس على كلمة التوحيد، لا ليفرقوهم. وكل نبي يبين لقومه ما اختلفوا فيه، ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

الرسالة النفسية: طمأنينة المؤمن بأن دينه واضح بين
المؤمن يعيش مطمئنًا بدين واضح بين، لا غموض فيه ولا التباس. {قد جاءكم من الله ثورٌ وكتابٌ مبينٌ}.

الرسالة التربوية: علم أبناءك أن الدين وضوح وبيان لا غموض فيه
ربّ أبناءك على أن دينهم واضح، وحججه بيّنة، وأن الاختلاف إنما يأتي من الهوى والجهل، لا من غموض الدين.
المحور الثاني

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ} ٥ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ {

جوهر الدعوة: التقوى والطاعة والتوحيد... الصراط الواحد الجامع

غوص في معنى {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا}: الجمع بين الأمرين

تأمل هذا الأمر المزدوج: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا}.

{فَاتَّقُوا}: الفاء للتفريع على ما سبق. "لما جئتمكم بالبينات والحكمة وبيان الحق، فالنتيجة الطبيعية الواجبة: اتقوا الله".

والتقوى: هي اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل الأوامر واجتناب النواهي.

{وَأَطِيعُوا}: طاعة عيسى عليه السلام فيما يأمرهم به، لأن طاعته من طاعة الله. فالأنبياء لا يأمرون إلا بما يرضي الله.

وفي الجمع بين الأمرين: بيان أن طاعة الرسول جزء من تقوى الله. لا يمكن أن تزعم أنك تتقي الله وأنت لا تطيع رسوله.

مثال تقريبي:

مدير شركة يرسل مندوبًا إلى فرع بعيد، ويقول للموظفين: "اتقوا الشركة وأطيعوا مندوبي". طاعة المندوب هنا هي من طاعة المدير. هذا هو حال الأنبياء مع الله.

{إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ}: إعلان التوحيد والعبودية المشتركة

{إِنَّ: للتوكيد}. هُوَ: ضمير الفصل يفيد الحصر. "الله هو ربي وربكم". لا رب سواه. لا رب لي غيره، و لا رب لكم غيره. نحن جميعًا عبيد له.

وهذا هو أصل الدين وجوهره. عيسى عليه السلام يعلن أنه ليس ربًا، بل هو مربوب، وهم مربوبون، والرب واحد هو الله.

{فَاعْبُدُوهُ}: الفاء السببية - عبادة الله وحده

لما كان هو الرب وحده، فالنتيجة المنطقية: {فَاعْبُدُوهُ}. اعبدوه وحده، لا تشركوا به شيئاً. لا تعبدوا عيسى، ولا مريم، ولا غيرهما. اعبدوا الله الرب الحق.

{هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}: الإشارة إلى التوحيد والطاعة

{هَذَا}: الإشارة إلى ما تقدم من تقوى الله وطاعة الرسول وإخلاص العبادة لله. هذا هو الصراط المستقيم، الطريق الواضح الذي لا عوج فيه، الموصل إلى الله وإلى جنته. وما عداه فهو سبل متفرقة تؤدي إلى الهلاك.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: التوحيد هو جوهر رسالة كل نبي
كل الأنبياء جاؤوا بهذه الكلمة: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ}. من فهم هذا أدرك وحدة الأديان السماوية في أصلها الحق.

الرسالة النفسية: طمأنينة المؤمن بأنه على صراط مستقيم
حين تعلم أنك تعبد الله وحده، وتطيع رسوله، فأنت على الطريق المستقيم المفضي إلى الجنة. وهذه الطمأنينة أشرف ما في الحياة.

الرسالة التربوية: علم أبناءك أن الصراط المستقيم هو عبادة الله وطاعة رسوله
اجعل هذه الآية أساساً في تربية أبنائك. علمهم أن الصراط المستقيم ليس تيهًا ولا حيرة، بل هو واضح بين.

المحور الثالث

{فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ}

الاختلاف بعد البيان... الجريمة التي استوجبت الوعيد

غوص في معنى {فَاخْتَلَفَ}: الفاء والنتيجة المحزنة

{فَاخْتَلَفَ}: الفاء للتفريع والتعقيب. أي: رغم كل ما تقدم من البينات والحكمة والأمر بالتقوى و التوحيد... كانت النتيجة أن اختلفوا!

إنها نتيجة محزنة مؤلمة. لقد جاءهم بالحق، وبين لهم ما اختلفوا فيه، فماذا فعلوا؟ ازدادوا اختلافاً! بدل أن تجتمع كلمتهم على الحق، تفرقت كلمتهم على الباطل.

{الْأَحْزَابُ}: الجماعات المتفرقة المتعادئة

{الْأَحْزَابُ}: جمع حزب، وهم الجماعة من الناس تجمعهم عصبية أو رأي أو مذهب. فانقسموا أحزاباً وشيعاً وطوائف:

- . حزب قال: عيسى هو الله!
- . حزب قال: عيسى هو ابن الله!
- . حزب قال: عيسى ساحر كذاب!
- . حزب قال: عيسى عبد الله ورسوله) وهم المؤمنون).

وهكذا تفرقوا شيعاً، وكل حزب بما لديهم فرحون. لقد استبدلوا الاجتماع بالاختلاف، واليقين بالشك، و المحبة بالعداوة.

{مَنْ بَيْنَهُمْ}: بيان أن الاختلاف وقع بينهم وهم من أمة واحدة

{مَنْ بَيْنَهُمْ} (أي من بني إسرائيل أنفسهم. لم يأت الاختلاف من خارجهم، بل نشأ بينهم، وهم قوم

واحد وأمة واحدة. وهذا أشد إيلاماً: أن يتفرق أهل الدار الواحدة، وأهل الدين الواحد، وأهل القومية الواحدة.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: الاختلاف بعد البيان دليل الهوى والضلال
حين يختلف الناس وقد وضحت لهم البيّنات، فهذا ليس دليلاً " على غموض الحق، بل على غلبة الهوى والكبر والعناد.

الرسالة النفسية: احذر أن تكون من أهل الاختلاف
الاختلاف مرض. والاجتماع على الحق رحمة. فاحذر أن تكون من الذين يختلفون بلا داع، أو يشقون الصف، أو يثيرون النزاع.

الرسالة التربوية: علم أبناءك أدب الاختلاف
الاختلاف قد يقع، لكن المؤمن يختلف بالحسنى، ويطلب الحق، ولا يجعل الاختلاف باباً للفرقة و
العداوة.
المحور الرابع

{قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ}

الوعيد الرهيب للظالمين المختلفين بعد البيان

غوص في معنى {قَوْلٌ}: كلمة العذاب والتهديد

{قَوْلٌ}: كلمة عذاب وهلاك وتهديد. الويل: شدة العذاب وسوء العاقبة. وقيل: هو وادٍ في جهنم. وهذه الكلمة تملأ القلب رهبة وخوفاً.

{لِلَّذِينَ ظَلَمُوا}: الظلم هنا هو الشرك والكفر والافتراء على الله. وقد وصف المختلفين بأنهم ظالمون، لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر، وظلموا الحق بالجهود، وظلموا النبي بالتكذيب.

{مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ}: تحديد العذاب ووصف اليوم

{مِنْ}: للتبعية أو للابتداء. أي نصيبهم من العذاب عظيم، أو العذاب مبتدئ من ذلك اليوم ولن ينقطع.

{عَذَابٍ يَوْمَ}: إضافة العذاب إلى اليوم تهوّل من شأنه. إنه ليس أي عذاب، بل عذاب يوم القيامة العظيم.

{أَلِيمٍ}: صفة لليوم أو للعذاب. والمعنى متقارب: يوم شديد الألم، أو عذاب شديد الإيلام. إنه إيلام لا يوصف ولا يطاق.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: الاختلاف في الدين جريمة تستوجب العقاب
الآية تربط بين الاختلاف بعد البيان وبين العذاب الأليم. وهذا يعطي المؤمن ميزاتاً دقيقة لأهمية الاجتماع على الحق.

الرسالة النفسية: الخوف من عذاب الله دافع للعمل
حين تقرأ {قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا} يرتجف قلبك، فتسارع إلى الحق وتحرص على النجاة.

الرسالة التربوية: علم أبناءك أن الظلم له عواقب وخيمة
الظلم ليس مجرد خطأ أخلاقي، بل هو سبب للعذاب الأليم يوم القيامة. فربّ أبناءك على العدل واجتناب الظلم بكل صوره.
المحور الخامس

{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}

الغفلة عن الساعة... الخطر الداهم والصحة المفقودة

غوص في معنى {هَلْ يَنْتَظِرُونَ}: الاستفهام الإنكاري التوبيخي

{هَلْ}: للاستفهام الإنكاري. أي: ما ينتظرون؟ لا ينتظرون شيئاً! عاقبتهم محسومة، ومصيرهم محتوم.

{يَنْتَظِرُونَ}: أي ينتظرون. كأنهم ينتظرون شيئاً سيأتي! وما هو هذا الشيء؟ ليس خيراً ولا نصراً، بل هو الساعة والعذاب.

{إِلَّا السَّاعَةَ}: حصر الانتظار في الفاجعة

{إِلَّا}: للحصر. ما ينتظرون إلا الساعة. والعرب تقول للمستبطن: "ما تنتظر إلا خراب الدار". فكأنه يقول لهؤلاء المكذبين: "ما تنتظرون إلا قيام الساعة وهلاككم!".

{أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً}: الإتيان المفاجئ الصاعق

{بَغْتَةً}: أي فجأة دون سابق إنذار، ودون تمهيد، ودون إمهال. إنهم في غفلتهم يلهون ويلعبون، فتأتيهم الساعة فجأة، فلا يستطيعون دفعاً ولا هرباً.

مثال تقريبي:

تخيل جماعة جالسين في بيت يلهون ويمرحون، وفجأة ينهار السقف عليهم بغتة دون سابق إنذار! هذا هو حال المكذبين مع الساعة.

{وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}: ذروة الغفلة والمأساة

{لَا يَشْعُرُونَ}: لا يحسون بها، ولا يدركون قربها، ولا يخطرونها ببال. هم غارقون في خلافاتهم وجدالهم العقيم، في شهواتهم وملذاتهم، في كبرهم وعنادهم، لا يشعرون أن الساعة تدنو منهم.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: الساعة آتية لا ريب فيها
الآية تجعل المؤمن يعيش يقيناً في الساعة. ليست قضية فلسفية، بل هي حقيقة واقعة.

الرسالة النفسية: لا تكن غافلاً عن الساعة
الغافل ينام ويصحو ولا يذكر الساعة. واليقظ يتذكرها دائماً، فيعمل لآخرته، ويستعد للقاء الله.

الرسالة التربوية: درب أبناءك على تذكر الساعة
ذكر أبناءك أن الدنيا ممر لا مقر، وأن الساعة آتية بغتة، فينشأوا على الجد والعمل لا على الغفلة والله و.

المحور السادس

الترابط بين الآيات الثلاث: من الرسالة إلى الاختلاف إلى العذاب

تأمل - يا رعاك الله - كيف انتظمت الآيات الثلاث لترسم مشهداً متكاملًا:

الآية (63): عيسى عليه السلام يأتي بالبينات والحكمة، ويدعو إلى التقوى والطاعة والتوحيد.

الآية (64): زيادة في بيان التوحيد: الله هو الرب، فاعبدوه، هذا هو الصراط المستقيم.

الآية (65): الاختلاف يقع من الأحزاب، والويل للظالمين، وما ينتظرون إلا الساعة بغتة.

إنها قصة متكررة: كل نبي يأتي قومه بالحق، فيختلفون فيه، فيهلكون. وهكذا حذر الله قريشاً، وحذرنا نحن، أن نكون مثلهم.
المحور السابع

الأبعاد والآفاق من الآيات: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد الأول: البعد العقدي - وحدة رسالات السماء
الآيات تثبت أن عقيدة التوحيد هي أصل كل رسالة. عيسى عليه السلام لم يأت بدين جديد، بل جاء مؤكداً لدين التوحيد.

البعد الثاني: البعد الفكري - الاختلاف بعد البيان ظلم
الآيات تقدم مفهوماً فكرياً مهماً: الاختلاف ليس دائماً تنوعاً محموداً، بل قد يكون جريمة وظلماً إذا كان بعد وضوح الحق وقيام البيّنات.

البعد الثالث: البعد الاجتماعي - الاجتماع على الحق أمان
الآيات تحذر من الفرقة والاختلاف، وتدعو إلى الاجتماع على الحق. المجتمعات التي تختلف وتتفرق هي مجتمعات هالكة.

البعد الرابع: البعد الإيمانى - اليقين بالساعة
الآيات تزرع اليقين بالساعة في القلب، وتجعل المؤمن يعيش في استعداد دائم لها.

البعد الخامس: البعد التاريخى - سنة الله في الأمم المكذبة
الآيات تكشف سنة تاريخية: الأمم التي تختلف على أنبيائها بعد مجيء البيّنات، يكون مصيرها الهلاك والعذاب.
المحور الثامن

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً: الاجتماع على الحق ونبذ الفرقة
في عصر كثرت فيه الأحزاب والطوائف والفرق، تدعونا الآيات إلى الاجتماع على التوحيد وجوهر الدين، ونبذ الاختلافات المفرقة.

ثانياً: قبول الحق إذا وضح
الآيات تدعونا إلى أن نكون ممن يقبلون الحق حين يتبين، لا ممن يختلفون ويعاندون بعد البيان.

ثالثاً: استشعار قرب الساعة
في زمن الغفلة والانشغال بالدنيا، تدعونا الآيات إلى التيقظ والاستعداد للساعة التي تأتي بغتة.

رابعاً: مراجعة النفس: هل أنا من المختلفين الظالمين؟
الآيات تدعو كل إنسان إلى مراجعة نفسه: هل أنا من الذين يثيرون الاختلاف في الدين بغير حق؟
هل أنا من الظالمين الذين يستحقون الويل؟
المحور التاسع

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: البيّنات تقطع الاختلاف
متى وضحت البيّنات، لم يعد للاختلاف معنى إلا العناد والهوى. فالعودة إلى البيّنات هي الحل لكل خلاف.

المفهوم النفسي: الغفلة عن الساعة تولد المعاصي
الغافل عن الساعة ينغمس في المعاصي، واليقظ المستعد يتقي الله ويطيعه.

المفهوم التربوي: تعليم التوحيد أساس التربية
الآيات تعلمنا أن نبدأ تربية أبنائنا بالتوحيد: الله ربهم، فليعبده وحده. هذا هو الصراط المستقيم.
المحور العاشر

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: الإيمان برسالة عيسى عليه السلام على الوجه الصحيح
يريدنا أن نؤمن بأن عيسى عبد الله ورسوله، جاء بالبيّنات والحكمة ليبين الحق.

الإرادة الثانية: الاجتماع على الحق وعدم التفرق
يريدنا أن نكون أمة واحدة على كلمة التوحيد، وألا نختلف كما اختلف الأحزاب من قبلنا.

الإرادة الثالثة: الاستعداد للساعة وعدم الغفلة عنها
يريدنا أن نعيش على يقين أن الساعة آتية بغتة، فنعمل صالحًا ونستعد للقائه.

الإرادة الرابعة: الخوف من عذاب الله
يريدنا أن نقرأ {قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا} فترتعد فرائصنا، ونسارع إلى التوبة والعمل الصالح.
المحور الحادي عشر

تحويل مفاهيم الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

المسار الأول: بناء الإنسان الموحد، المتقي، المطيع لله ورسوله
الآيات تبني إنساناً عقيدته صافية: يعبد الله وحده، ويتقي الله، ويطيع رسوله، ويسير على الصراط المستقيم.

التطبيق العملي:

- تفقد عقيدتك كل يوم: هل تعبد الله وحده؟ هل تطيع رسوله صلى الله عليه وسلم؟
- اجعل لك وردًا من التفكير في أسماء الله وصفاته ليزداد توحيدك رسوخًا.
- مثال تقريبي: شاب في زمن الشبهات، يثبت نفسه كل صباح بقوله: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}.

المسار الثاني: بناء المجتمع المجتمع على الحق، النابذ للفرقة
الآيات تبني مجتمعًا الكلمة فيه جامعة، والصف فيه واحد، والاختلاف فيه محكوم بالبيّنات والحكمة.

التطبيق العملي:

- كن عامل جمع لا عامل فرقة. إذا رأيت خلافاً بين مؤمنين، فاجمع بينهم بالحكمة.
- مثال تقريبي: في مسجد خلاف بين المصلين. يأتي رجل حكيم فيذكرهم بقول عيسى عليه السلام: {وَلَا يَبْنَى لَكُمْ بَغْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ} (ويدعوهم للرجوع للكتاب والسنة، فيجتمعون وينتهي الخلاف).

المسار الثالث: بناء الحضارة على يقين الساعة وحسن الاستعداد لها
الحضارة التي تبني على يقين الآخرة هي حضارة العمل والجِد، لا حضارة اللهو والغفلة. {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً} شعار يدفع إلى العمل.

التطبيق العملي:

- اجعل تذكير نفسك والآخرين بالساعة عادة يومية. فهذا يدفعك للجِد والإتقان في كل عمل.
- مثال تقريبي: مدير شركة مسلم يبدأ اجتماعه بموظفيه بتذكيرهم أن الساعة آتية بغتة، وأن العمل أمانة يسألون عنها، فيتحول العمل إلى عبادة.

خاتمة: أنت على الصراط المستقيم... أم أنت من الغافلين عن الساعة؟

أيها القارئ الكريم...

لقد جلسنا مع هذه الآيات الثلاث التي نقلتنا إلى قلب رسالة عيسى عليه السلام، وإلى حكمة بعثته، وإلى مأساة اختلاف قومه عليه، وإلى وعيد الله للظالمين، وإلى التحذير من الغفلة عن الساعة.

والآن أسألك بصدق:

- هل أنت على الصراط المستقيم: تعبد الله وحده، وتتقي الله، وتطيع رسوله؟
- هل أنت من الذين يجتمعون على الحق، أم من الذين يختلفون بالباطل؟
- هل تعيش مستعداً للساعة، أم أنك غافل عنها تلعب وتلهو؟
- هل تخاف من قوله: {قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ}؟ وهل دفعك هذا الخوف إلى التوبة والاستقامة؟

أجب عن هذه الأسئلة بصمت... وسر على الصراط المستقيم.

القسم الثاني المبحث الأول

تفسير الآية (67) من سورة الزخرف
تقدمة لا بد منها: موقع الآية من السياق ومن كشف المصير الأخروي للصدقات الدنيوية

قف معي - يا رعاك الله - وقفة المتأمل الذي يرى أن القرآن العظيم لا يترك صغيرة ولا كبيرة في بناء النفس والمجتمع إلا رسم معالمها، وكشف خباياها، وبيّن عواقبها.

لقد مضى السياق في سورة الزخرف يعرض مشاهد متتابعة من الصراع بين الحق والباطل، ومن طبيعة الكافرين المعاندين المجادلين، ومن قصة موسى مع فرعون وما انتهت إليه من هلاك، ومن قصة عيسى عليه السلام وما جرى لقومه من اختلاف. وفي خضم هذه المشاهد، يأتي الحديث عن الساعة ومقدماتها، وعن مصير المكذبين والغافلين.

وهنا - في هذا الموضع الدقيق - يفتح القرآن أمامنا نافذة على يوم القيامة، ليس لنرى الأهوال فحسب، بل لنرى كيف تنقلب أعز العلاقات وأقربها إلى رماذ. إنها نافذة على "الصدقة" التي كانت زينة الحياة الدنيا، فإذا بها في الآخرة حشرات وعداوات. إنه مشهد {الأخلاء} الذين كانوا في الدنيا روحاً واحدة في جسد، يتسارون، ويتعاونون، ويمشون معاً في طريق الغواية، فإذا بهم في ذلك اليوم يقوم بعضهم لبعض عدواً مبيناً.

ثم يأتي الاستثناء النوراني: {إِلَّا الْمُتَّقِينَ}. أولئك الذين بنوا صداقتهم على تقوى الله، وعلى التواصي بالحق والتواصي بالصبر، أولئك تبقى صداقتهم خالدة، ويمتد أنسهم من الدنيا إلى الجنة.

وهذه الآية العظيمة هي ميزان الصدقات كلها. إنها تجيب عن أسئلة طالما شغلت بال الناس: لماذا نرى بعض الشباب يفسدون بعد أن كانوا صالحين؟ ولماذا نرى بيوتاً عامرة بالإيمان تصبح خراباً بعد دخول صديق سوء؟ ولماذا يحذرنا الله من قرناء السوء في الدنيا قبل أن ينكشف الغطاء في الآخرة؟ المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآية ومقاصدها وأهدافها والقضايا التي تناقشها

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآية الكريمة:

1. بيان حقيقة الصدقات في ميزان الآخرة: {الأخلاء} يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ.
2. كشف انقلاب أقرب العلاقات إلى عداوة حين تقوم على غير أساس من تقوى.
3. الاستثناء الجامع: {إِلَّا الْمُتَّقِينَ} الذين بقيت صداقتهم خالدة.
4. التحذير الضمني من أصدقاء السوء الذين يزينون الباطل ويثبتون عن الحق.

مقاصد الآية وأهدافها:

1. زجر المؤمنين عن مصاحبة الأشرار الذين يجرونهم إلى المعاصي.
2. بيان أن من عقوبات الإعراض عن الحق أن يسلط الله على المعرض قرناء سوء يزينون له القبيح.
3. الحث على بناء الصدقات على أساس التقوى التي تبقى في الدنيا والآخرة.
4. تربية الوجدان الإيماني بنقل المؤمن إلى مشاهد يوم القيامة، ليعيش حقائقها قبل وقوعها.
5. توضيح أهمية البيئة والصحة في تكوين شخصية الإنسان المسلم.

القضايا الكبرى التي تناقشها الآية:

القضية الأولى: من أسباب الغفلة والانحراف أصدقاء السوء
من رفض الاستجابة لدعوة التوحيد، واختار طريق الإعراض، فإن الله - من جملة ما يعاقبه به في الدنيا - أن يسلط عليه أصدقاء سوء من الإنس والجن، يزينون له الأعمال القبيحة فيراها حسنة، ويثبتونه عن الخير، ويجرونه إلى الهاوية وهو يظن أنهم له ناصحون.

القضية الثانية: الأخلاء يوم القيامة بين عداوة الأشرار ومودة الأبرار
العلاقات التي كانت في الدنيا أوثق العلاقات (تنقلب في الآخرة إلى أشد أنواع العداوة إذا كانت قائمة على الباطل. في حين تبقى علاقات المتقين سالمة خالدة، بل تزداد قرباً وأنساً.

القضية الثالثة: دور البيئة والصحة في تكوين الشخصية

البيئة التي يعيش فيها الإنسان - وأخصها الأصدقاء - تصبغه بصبغتها، فإن كانت طيبة أنتجت طيباً، وإن كانت خبيثة أنتجت خبيثاً. وهذا يستوجب على المسلم أن ينتقي صحبته بعناية، ويعتني ببيئته، لتكون عوثاً له على النيات.

القضية الرابعة: الندم يوم القيامة لا ينفذ
الأخلاء الذين تعاونوا على الإثم والعدوان، حين يرون العذاب، يندمون أشد الندم، وتنقلب محبتهم عداوة وخصاماً. لكن الندم في ذلك اليوم لا يجدي شيئاً.

المحور الأول

{الأخلاء}

من هم الأخلاء؟ ولماذا بدأت الآية بهم؟

غوص في معنى {الأخلاء}: الخلّة أعلى مراتب الصداقة

دعني أقف بك - يا رعاك الله - عند فاتحة هذه الآية الكريمة: {الأخلاء}. إنها كلمة تحمل في طياتها معاني عميقة.

الخليل في لغة العرب: هو الصديق الخالص الذي تخللت محبته شغاف القلب، ونفذت إلى أعماق الروح. إنها أعلى درجات الصداقة، وأقوى مراتب المحبة بين البشر. فالخليل أخص من الصديق، وأقرب من الرفيق، وألصق من الصاحب. الخليل هو من تسكن إليه النفس، وتأتمنه على الأسرار، وتجد في قربه أنساً لا تجده في غيره.

وقد وصف الله تعالى إبراهيم عليه السلام بأنه خليل الله: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَهْدَ أَنَّكَ لَتَكُونَ لَهُمْ خَلِيلٌ}، فد. "الخلّة" هي مرتبة عظيمة في المحبة والقرب.

إذا جاء السياق القرآني وذكر {الأخلاء} في يوم القيامة، فهو يقصد أولئك الذين بلغت علاقتهم في الدنيا أقصى درجات القرب والمودة... ومع ذلك، انقلبت في الآخرة إلى أشد أنواع العداوة!

لماذا بدأت الآية بـ {الأخلاء} دون غيرهم؟

البعد بـ {الأخلاء} - وليس بالأصحاب أو الرفقاء - له دلالة بليغة: إنه يريد أن يصدّم السامع. فكأنه يقول: "أعلى درجات الصداقة وأقواها، تلك التي تظنون أنها لا تنفصم أبداً... حتى هذه تنقلب إلى عداوة إن لم تكن لله!". فكيف بما دونها من علاقات؟!

مثال تقريبي:

تخيل شريكين في العمر، صديقين حميمين، عاشا معاً، وأكلا معاً، وتقاسما السراء والضراء. الناس يقولون عنهما: "فلان وفلان لا يفترقهما شيء". ثم يأتي يوم، فإذا بأحدهما يخاصم الآخر خصومة لا يمكن إصلاحها. هذه هي الصدمة التي تنقلها الآية، ولكن على مستوى أبدي لا رجعة فيه.

دلالة أخرى: الأخلاء هنا هم قرناء السوء من الإنس والجن

الأخلاء في الآية لا يقتصر على أصدقاء الإنس فقط، بل تشمل أيضاً قرناء الجن (الشياطين) الذين يلزمون الإنسان ويوسوسون له. فالآية السابقة (36) قالت: {وَمَنْ يَغْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}. وهذا القرين هو خليل سوء من الجن. وهنا في يوم القيامة، يتبرأ القرين من صاحبه، ويلعنه، ويصيحان عدوين.

المحور الثاني

{يَوْمَئِذٍ}

اليوم الذي تنكشف فيه الحقائق وتتبدل فيه الموازين

غوص في معنى {يَوْمَئِذٍ}: ظرف الزمان المهول

{يَوْمَئِذٍ} أي يوم القيامة. والتنوين هنا عوض عن جملة محذوفة: "يوم إذ تقوم الساعة"، أو "يوم إذ

يبعث الناس لرب العالمين".

والتعبير بـ {يَوْمِيذْ} - وهو ظرف زمان مبني - يشعر بتعظيم هذا اليوم وتهويله. إنه ليس يوماً عادياً، بل هو "اليوم" المشار إليه في القرآن في مواضع كثيرة: {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}، {يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ}.

في هذا اليوم بالذات، تتبدل كل المعايير، وتنقلب كل العلاقات، وتتكشف كل الحقائق. المحبة التي كانت في الدنيا تنقلب بغضاً، والصداقة تنقلب عداوة، والأخلاء الذين كانوا يتعاونون على الباطل يصبح بعضهم لبعض عدواً.

مثال تقريبي:

في يوم الامتحان العسير، تختفي كل المجاملات، وينكشف المستعد من الكسول. الصديق الذي كان يضحك معك ويسليك عن المذاكرة، تكتشف في ذلك اليوم أنه كان سبب رسوبك! فتغضب منه أشد الغضب. هذا تصغير لما يحدث في يوم القيامة.

المحور الثالث

{بَغْضُهُمْ لِبَغْضِ عَدُوِّ}

انقلاب أعظم العلاقات إلى أشد العداوات

غوص في معنى {بَغْضُهُمْ لِبَغْضِ عَدُوِّ}: العداوة المتبادلة

تأمل هذه العبارة العجيبة: {بَغْضُهُمْ لِبَغْضِ عَدُوِّ}.

لم يقل: "يعادي بعضهم بعضاً" فيفيد حدوث العداوة كفعل طارئ. بل قال: {بَغْضِ عَدُوِّ} بالجملة الاسمية، وهي تفيد الثبوت والدوام. فالعداوة صارت صفة ثابتة فيهم، لا تزول ولا تنقطع.

وكلمة {عَدُوِّ} {مفردة، لكنها في موضع الجمع} أي أعداء. (واستعمال المفرد هنا أبلغ؛ لأنه يشير إلى أن كل واحد منهم هو عدو محض للآخر. ليس هناك عداوة جزئية أو مؤقتة، بل هي عداوة خالصة كاملة. كل واحد منهم يرى في صاحبه العدو الأكبر.

والعداوة متبادلة: {بَغْضُهُمْ لِبَغْضِ}. فالكل أعداء للكل. ليس هناك طرف واحد معتد وآخر معتدى عليه، بل الكل متعادون، الكل يلعن الكل، الكل يتبرأ من الكل.

كيف تنشأ هذه العداوة بين الأخلاء؟

تنشأ من عدة وجوه:

1. كل واحد يرى أن الآخر هو سبب هلاكه: فيقول: "أنت الذي زيننت لي المعصية! أنت الذي أضللتني! أنت الذي تبطنتني عن التوبة! أنت الذي كنت تسوف لي!".
2. كل واحد يتبرأ من الآخر: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ مَوْأَى أَنْفُسِكُمْ}.
3. كل واحد يطالب الآخر بأن يحمل عنه من العذاب: فيزيده ذلك غيظاً وحنقاً.

مثال تقريبي:

تأمل حال تاجرين شريكين في تجارة محرمة. في الدنيا، كانا يضحكان ويأكلان معاً من الحرام. فلما جاء الحساب، قال الأول للثاني: "أنت من أغواني! أنت من قلت لي: الأرباح عظيمة، والناس كلهم يفعلون هذا!". فيجيبه الثاني: "بل أنت! أنت من بدأ، وأنا تبعتك!". فيتحولان إلى خصمين لدودين. هذا مصغر جداً لما يحدث يوم القيامة.

المحور الرابع

{إِلَّا الْمُتَّقِينَ}

الاستثناء العظيم... الناجون من هذا المصير

غوص في معنى {إِلَّا الْمُتَّقِينَ}: حصر النجاة في المتقين

بعد ذلك المشهد المرعب من انقلاب الصداقات إلى عداوات، يأتي الاستثناء الذي يبعث الأمل في قلب المؤمن: {إِلَّا الْمُتَّقِينَ}.

{إِلَّا}: أداة استثناء. والمعنى: كل الأخلاء في ذلك اليوم بعضهم لبعض عدو، إلا فئة واحدة نجت من هذا المصير، وهم المتقون.

فالأية تحصر النجاة من هذا المصير في المتقين. ومن لم يكن من المتقين، فإن صداقاته - مهما بلغت من القوة - ستقلب عداوة في الآخرة.

من هم المتقون؟

المتقون هم الذين:

1. اتقوا الله في علاقاتهم: فلم يصادقوا إلا من يرضي الله، ولم يحبوا إلا في الله، ولم يبغضوا إلا في الله.
2. كانوا في الدنيا يتواصون بالحق ويتواصون بالصبر: كما قال تعالى: {وَالْعَصْرُ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}.
3. كانوا مرايا لبعضهم: إذا رأى أحدهم من أخيه انحرافاً قومه، وإذا رأى ناسياً لله ذكره، وإذا رأى مقصراً دفعه للأمام.
4. كان جهم لله، واجتماعهم لله، وافتراقهم لله: فهم لم يتجالسوا على معصية، ولم يتعاونوا على إثم وعدوان.

مصير المتقين في الآخرة:

أما هؤلاء المتقون، فإن صداقتهم لا تنقلب عداوة، بل تبقى، وتدوم، وتزداد قرناً وأنساً. بل إنهم يكونون يوم القيامة {إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ}. {يَجْلِسُونَ عَلَى أَسْرَةِ الْجَنَّةِ، مُتَقَابِلِينَ، يَتَسَامَرُونَ وَيَتَذَكَّرُونَ أَيَّامَ الدُّنْيَا، وَيَحْمَدُونَ اللَّهَ الَّذِي نَجَّاهُمْ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ غَيْرُهُمْ}.

مثال تقريبي:

تأمل صديقين صالحين، كانا في الدنيا يتناصحان، ويتسابقان إلى الخيرات، ويردان بعضهما عن المعاصي. يوم القيامة، يأتي أحدهما في زمرة المتقين، ويرى صديقه معه، فيفرح به ويسأل عنه: "أين فلان؟ لقد كان يعينني على طاعة الله!". فيقول الله: "أدخلوهم الجنة إخواناً". هذا هو ثمرة الصداقة في الله.

المحور الخامس

دلالة الآية على أن من عقوبات الإعراض تسليط أصدقاء السوء

الآية الكريمة - وإن كانت تتحدث عن مشهد الآخرة - فإنها تحمل في طياتها تحذيراً دنيوياً عظيماً. فمن أعرض عن ذكر الله، ورفض دعوة التوحيد، فإن من عقوباته في الدنيا - قبل الآخرة - أن الله يسلط عليه قرناء سوء من الإنس والجن، يزينون له الأعمال القبيحة حتى يراها حسنة، ويثبطونه عن الخير حتى يظن نفسه على هدى.

وهذا ما أشارت إليه آيات أخرى: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ثَقِيَصْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَخْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ}.

فصديق السوء هو من جملة العقوبات التي يعاقب بها المعرض عن الحق. إنه يزين له القبيح، فيراه حسناً، ويقبح له الحسن فيراه قبيحاً. هذه عقوبة معنوية أشد من العقوبات الحسية. إنها انقلاب الموازين في القلب، حتى يصبح المرء لا يميز الحق من الباطل.

ثم يأتي يوم القيامة، فينكشف الغطاء، ويعرف الإنسان حقيقة صديقه، فتقلب تلك المحبة العمياء إلى عداوة سافرة. لكن الندم في ذلك اليوم لا ينفع.

المحور السادس

أهمية البيئة والصحة في تكوين شخصية المسلم

الآية تفتح لنا بابًا عظيمًا من أبواب التربية: إنها تبين أن البيئة التي يعيش فيها الإنسان، والصحة التي يحيط نفسه بها، لها أثر بالغ في تكوين شخصيته. فهي إما أن تصبغه بصبغة الخير والصلاح، فتتمد آثارها إلى الجنة، وإما أن تصبغه بصبغة الإجرام والقبح، فتتمد آثارها إلى النار.

فالبيئة الطيبة (أهل، أصدقاء، مجتمع) تعطي صاحبها لوثًا من ألوان الطهر والفضيلة. والبيئة الخبيثة تعطي صاحبها لوثًا من ألوان الإجرام والقبح.

وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يَخَالُ». وهذا الحديث هو التطبيق العملي لهذه الآية.

لذلك، فعلى المسلم أن يهتم ببيئته، وينتقي أصدقاءه الصالحين، الذين يكونون له سندًا في الثبات على الحق، ويعينونه على الطاعة، ويردونه إلى الصواب إذا انحرف. هذه هي أعلى معاني الصداقة، التي يكتب لها الدوام في الدنيا والآخرة.

المحور السابع

الأبعاد والافاق من الآية: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد الأول: البعد الإيماني - تحويل الغيب إلى واقع معاش
الآية تنقل المؤمن بوجدانه وخياله وتفكيره إلى مشهد من مشاهد يوم القيامة. وهذا النقل الوجداني يجعل الإيمان بالغيب كأنه عيان، فيؤثر في سلوك المؤمن في الدنيا.

البعد الثاني: البعد الاجتماعي - قواعد بناء العلاقات
الآية ترسم قاعدة ذهبية للعلاقات الاجتماعية: كل علاقة لا تقوم على تقوى الله فهي إلى زوال، بل إلى انقلاب وعداوة.

البعد الثالث: البعد التربوي - أثر الصحة في الإصلاح والإفساد
الآية تؤصل لمبدأ تربوي عظيم: صاحب صاحب. فاختيار الصديق ليس رفاهية، بل هو قرار مصيري.

البعد الرابع: البعد النفسي - يقظة الضمير ومراجعة العلاقات
الآية تدفع المؤمن دفعا إلى مراجعة علاقاته، فيسأل نفسه: من هم أخلائي؟ هل هم ممن سيكونون أعداء لي يوم القيامة، أم ممن سيكونون إخوانا لي في الجنة؟

المحور الثامن

ما تدعونا إليه الآية في الواقع المعاصر

أولا: مراجعة قائمة الأصدقاء
في عصر كثرت فيه العلاقات الافتراضية، وصار للإنسان مئات الأصدقاء على مواقع التواصل، تدعونا الآية إلى مراجعة هذه القائمة: هل هؤلاء الأصدقاء يزيدونني إيمانا أم يبعدونني عن الله؟

ثانيا: تكوين البيئة الصالحة
تدعونا الآية إلى أن نحيط أنفسنا ببيئة صالحة: نختار الأصدقاء الصالحين، ونرتاد مجالس الذكر، ونهجر مجالس اللهو والغفلة.

ثالثا: الحذر من تسلل أصدقاء السوء إلى الأسرة
الآية تحذر الآباء والأمهات من خطر أصدقاء السوء على أبنائهم، وتدفعهم إلى مراقبة صحبة أبنائهم وتوجيههم نحو الصالحين.

رابعا: التربية على الصداقة في الله
تدعونا الآية إلى أن نربي أبنائنا على مفهوم "الصداقة في الله"، وأن نعلمهم أن الصديق الحق هو من يعينك على طاعة الله، لا من يزين لك المعصية.

المحور التاسع

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

المفهوم الفكري: الصداقة الحققة هي الصداقة في الله
الآية ترسخ مفهوماً فكرياً: الصداقة ليست غاية في ذاتها، بل هي وسيلة. فإما أن تكون وسيلة إلى

الله، فتبقى وتدوم، وإما أن تكون وسيلة إلى الباطل، فتزول وتنقلب.

المفهوم النفسي: الفرح بالصديق الصالح حماية نفسية الصديق الصالح هو طمأنينة نفسية في الدنيا، وبشارة أمان في الآخرة. أما صديق السوء فهو قلق في الدنيا، ووبال في الآخرة.

المفهوم التربوي: غرس معيار "الصداقة لله" في الأبناء التربية الصحيحة تغرس في الأبناء منذ الصغر أن يسألوا أنفسهم قبل أي صداقة: هل هذه الصداقة ترضي الله؟ هل سأستفيع بها يوم القيامة؟ المحور العاشر

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآية؟

الإرادة الأولى: أن ننتقي أصدقاءنا بعناية يريدنا الله أن نختار أصدقاءنا على أساس التقوى، لا على أساس المصلحة أو الدنيا أو الهوى.

الإرادة الثانية: أن نراجع علاقاتنا الحالية يريدنا أن نسال أنفسنا: هل أصدقاؤنا الحاليون هم من المتقين الذين سأفرح بهم يوم القيامة، أم من الذين سيكونون أعداء لي؟

الإرادة الثالثة: أن نكون من المتقين في علاقاتنا يريدنا أن نكون نحن أنفسنا أصدقاء صالحين لغيرنا، ننصحهم، ونذكرهم بالله، ونردهم عن المعاصي.

الإرادة الرابعة: أن نخاف من انقلاب الصداقة في الآخرة يريدنا أن نرتعد من هذا المشهد، فيكون هذا الخوف دافعاً لنا لتصحيح علاقاتنا. المحور الحادي عشر

تحويل مفاهيم الآية إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

المسار الأول: بناء الإنسان الذي يحسن اختيار أخلائه الآية تبني إنساناً لا يستهين باختيار أصدقائه، بل يجعل هذا الاختيار عبادة وقربة إلى الله. إنساناً يفرح بصديقه الصالح، ويجتنب صديق السوء ولو كان الأقرب إليه.

التطبيق العملي:

- اكتب قائمة بأسماء أقرب أصدقائك إليك. ثم ضع أمام كل اسم علامة: هل هو يعينني على طاعة الله؟ هل أفرح بلقائه يوم القيامة؟
- إذا وجدت صديقاً يزين لك المعصية أو يثبطك عن الخير، فاهجره أو قلل من صحبته. هذا الهجر حماية لدينك ونفسك.
- مثال تقريبي: شاب يعرف أن صديقه المقرب يدعوه دائماً إلى السهر والتفاهات ومشاهدة المحرمات. يقرأ هذه الآية فيقول: "كفى! هذا ليس صديقي، بل هو عدوي المنتظر!". فيهجره ويبحث عن صديق صالح.

المسار الثاني: بناء المجتمع الذي تقوم علاقاته على التقوى الآية تبني مجتمعاً تنتشر فيه ثقافة "الأخوة في الله". مجتمعاً يعرف أفرادهِ كيف يختارون أصدقاءهم، وكيف يتعاملون معهم. مجتمعاً الأخلاء فيه يتواصلون بالحق ويتواصلون بالصبر.

التطبيق العملي:

- كن داعية إلى تكوين مجموعات الأخلاء الصالحين في مسجدك أو حيك أو مكان عملك.
- شجع الشباب على تكوين "حلقات أخلاء" يلتقون فيها على تلاوة القرآن ومدارسة العلم والتناصح.
- مثال تقريبي: مجموعة من الشباب في حي واحد، يتفقون على لقاء أسبوعي لتدارس القرآن و التناصح. هذه المجموعة تصبح لهم بيئة صالحة تحميهم من أصدقاء السوء.

المسار الثالث: بناء الحضارة التي لا تنخدع بالعلاقات الزائفة الحضارة الإسلامية تنظر إلى العلاقات الإنسانية بمنظار الآخرة. لا تبني مجدها على علاقات مصلحة

زائلة، بل على علاقات إيمانية خالدة. هذه الرؤية تصنع حضارة متماسكة، لا تذوب أمام شهوات الدنيا.
التطبيق العملي:

. في تعاملاتك التجارية والوظيفية، لا تجعل المصلحة هي الأساس الوحيد، بل اجعل التقوى هي الحاكمة.
. مثال تقريبي: تاجر مسلم يعقد شراكة مع آخر. قبل أن يوقع العقد، يسأل نفسه: "هل شريكي هذا من المتقين؟ هل سيكون لي عدوًا يوم القيامة إن تعاوننا على الحرام؟". فيتحرى الحلال، ويختار الشريك الصالح.
خاتمة: من هم أخلاؤك الذين سيكونون معك يوم القيامة؟
أيها القارئ الكريم...

لقد جلسنا مع هذه الآية العظيمة التي قلبت موازين الصداقات، وأرانا كيف تنقلب أعز العلاقات إلى أشد العداوات. رأينا {الأخلاء} الذين كانوا في الدنيا لا يفرقون، فإذا بهم في الآخرة أعداء يلعن بعضهم بعضًا. ثم رأينا نور الاستثناء: {إلا المتقين} الذين بقيت صداقتهم خالدة في الدنيا والآخرة.
والآن... أسألك بصدق:

. من هم أخلاؤك؟ من هم أقرب الناس إلى قلبك؟ هل هم ممن سيكونون أعداء لك يوم القيامة، أم ممن سيكونون إخوانًا لك في الجنة؟
. هل راجعت علاقاتك بعد هذه الآية؟ هل وجدت فيها صديق سوء يجب عليك مفارقتة؟
. هل أنت نفسك صديق صالح لإخوانك، تنصحهم وتذكرهم بالله، أم أنك صديق يزين لهم المعاصي والغفلة؟
. هل اشتقت إلى الجنة حيث {إخوانًا على سرر متقابلين}؟ وماذا أعددت لتكون هناك؟

أجب عن هذه الأسئلة بصمت... ثم اصنع قرارًا.

المبحث الثاني

تفسير الآيتين (68-69) من سورة الزخرف
تقدمة لا بد منها: موقع الآيتين من السياق ومن لحظة النداء الإلهي المباشر لعباده المكرمين

قف معي - يا رعاك الله - وقفة من أدرك أن القرآن العظيم ليس مجرد نصوص تقرأ، بل هو خطاب حي موجه إليك أنت. إنه روح تنزل على القلوب، فتحييها، وتحركها، وتنقلها من غفلة الدنيا إلى يقظة الآخرة.

لقد وقفنا في الآية السابقة (67) أمام ذلك المشهد المهيّب: {الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} لقد رأينا كيف تنقلب أعز الصداقات إلى أشد العداوات، وكيف ينجو المتقون وحدهم من هذا المصير. لقد كان ذلك المشهد مشهد تحذير وترهيب، يهز القلب ويدفعه إلى مراجعة علاقاته وصداقاته.

وهنا - بعد هذا المشهد المرعب - يتغير الجو القرآني فجأة. تتبدل النغمة من الترهيب إلى الترغيب، ومن التحذير إلى التبشير، ومن الحديث عن الغائبين (الأخلاء) إلى الخطاب المباشر للحاضرين (يا عبادي). إنه انتقال بديع من هول العداوة إلى دفاء النداء الإلهي الحنون.

تأمل معي هذا المشهد: في ذلك اليوم المهلل، يوم تشيب فيه الولدان، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، والناس في فزع وخوف وحزن... فإذا بالله جل جلاله يتوجه بخطابه مباشرة إلى فئة من الناس. يلتفت إليهم، ويناديهم، لا بأسمائهم، بل بأشرف صفة: {يا عبادي}. إنه نداء يفيض تكريماً وتشريفاً. نداء يجعل من العبودية لله عزاً ورفعة، لا ذلاً ومهانة.

ثم تأتي البشري التي لا تدانيها بشري: {لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ} ولّا أنتم تحزنون}. في ذلك اليوم الذي يخاف فيه الكل، ويحزن فيه الكل... هؤلاء العباد المكرمون في أمان مطلق! لا خوف مما هو آت، ولا حزن على ما فات.

ثم تختتم الآيات ببيان صفات هؤلاء الفائزين: {الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ}. لتجمع بين الإيمان و الإسلام، بين التصديق القلبي والانقياد العملي، بين العقيدة والشريعة.

إن هاتين الآيتين ليستا مجرد خبر يُتلى، بل هما خطاب موجه لكل قارئ يسمع هذا القرآن. فحين تقرأ {يَا عِبَادُ، فَاعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَنَادِيكَ أَنْتَ. وَحِينَ تَسْمَعُ {لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ}، فتشوق إلى أن تكون من المخاطبين بهذا الأمان. هذا هو سر عظمة القرآن: إنه يخاطبك أنت، وينقلك بوجودك إلى هناك، لتعيش المشهد وكأنه واقع بك.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها والقضايا التي تناقشها

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيتان الكريمتان:

1. النداء الإلهي المباشر: {يَا عِبَادُ} - أعلى درجات التكريم والتشريف.
2. بشارة الأمان المطلق: {لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ} - نفي الخوف مما يستقبل.
3. بشارة الطمأنينة المطلقة: {وَلَا أَنْتُمْ تَخْزَوْنَ} - نفي الحزن على ما فات.
4. بيان صفات الفائزين: {الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ}.
5. الجمع بين الإيمان والإسلام في وصف أهل الجنة.

مقاصد الآيات وأهدافها:

1. نقل المؤمن بوجوده إلى مشهد يوم القيامة ليعيش الأمان الإلهي قبل وقوعه.
2. ترسيخ الشعور بعزة العبودية لله وأنها أشرف مقام يمكن أن يبلغه الإنسان.
3. بث الطمأنينة في قلب المؤمن بأن مصيره إن كان من المتقين فهو الأمان المطلق.
4. تحفيز المؤمن على الاستقامة ليكون من المخاطبين بهذا النداء.
5. تعريف المؤمنين بالطريق الموصل إلى هذه الكرامة: الإيمان بآيات الله والإسلام له.

القضايا الكبرى التي تناقشها الآيات:

القضية الأولى: حقيقة العزة - العزة في العبودية لله
الآيات تعيد تعريف العزة. العزة ليست في المال ولا الجاه ولا السلطان... بل في أن تكون عبداً لله
يناديك مولاك في ذلك اليوم: {يَا عِبَادُ}. هذه العبودية لله هي التكريم الحقيقي، وما عداها ذل وانحطاط.

القضية الثانية: المشاعر التي ينبغي أن يعيشها المؤمن عند سماع الخطاب الرباني
حين تسمع {يَا عِبَادُ}، ينبغي أن تشعر بالمودة الإلهية، وأن تحس بالفخر بأن الله يناديك، وأن تستشعر
التفاف الله بك، وشمول رعايته لك.

القضية الثالثة: قيمة "الأمان" في يوم الفزع الأكبر
{لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ} ليست مجرد كلمة، بل هي صك أمان من الله. في يوم يفر فيه المرء من أخيه
وأمه وأبيه، هناك فئة تؤمنهم السماء بنداء مباشر.

القضية الرابعة: الطريق إلى هذا الأمان - الإيمان والإسلام
الآيات لا تتركنا في حلم الأمان دون أن تدلنا على الطريق. {الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ} هو
شرط الفوز بهذه البشرية.

المحور الأول

{يَا عِبَادُ}

حين يناديك الله... عظمة النداء وشرف العبودية

غوص في معنى {يَا}: أداة النداء - بداية الخطاب المباشر

دعني - يا رعاك الله - أقف بك ملياً عند أول لفظ في هذه الآية الكريمة: {يَا}.

{يَا}: هي أداة النداء للبعيد. والله سبحانه ليس ببعيد عن عباده، لكن المقام هنا مقام تعظيم وتفخيم،
فجاء النداء بـ "يا" التي للبعيد، تنزيهاً لله أن يخاطب عباده مخاطبة القريب، مع كمال قربه منهم.

ثم تأمل: إنه نداء مباشر. لم يقل: "ويقال لهم"، ولا "فتقول لهم الملائكة"... بل الله نفسه هو الذي
يناديهم! إنه تكريم فوق كل تكريم. الملك الجليل ينادي عبده بنفسه، لا يرسل إليه رسولا.

اشعر بهذا النداء كأنه موجه إليك أنت. تخيل نفسك في ذلك اليوم، والناس في فزع، وأنت واقف... وفجأة، تسمع صوتًا يخترق الضجيج، صوتًا رحيماً يناديك: "يا عدي!". هذا هو النداء الذي تتحدث عنه الآية. فاستشعر روعة هذا الموقف، واجعله يعيش في وجدانك الآن، ليكون دافعاً لك للاستقامة.

{عباد}: الإضافة إلى ضمير الجلالة - شرف لا يدانيه شرف

ثم تأتي كلمة {عباد}، وهي إضافة "عباد" إلى ياء المتكلم، وحذفت الياء للترقيق والتخفيف، فأصبحت: "عباد" بكسر الدال. هذا الحذف يعطي النداء نغمة حنونة، وكأنه نداء سريع مباشر لا تكلف فيه، نداء قريب حبيب.

ولاحظ أن الله نسبهم إلى نفسه: "عبادي". هذه الإضافة هي إضافة تشريف لا إضافة تحقير. العبودية لله في هذا المقام هي وسام شرف، لا قيد إذلال. إنهم عبيد لله، لا عبيد للدنيا، ولا عبيد للشهوات، ولا عبيد للطواغيت. لقد تحرروا من كل عبودية لغير الله، فشرّفهم الله بالانتساب إليه.

الفرق بين العبودية لله والعبودية لغير الله:

العبودية لله: عزة وحرية ورفعة. {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}.
العبودية لغير الله: ذل ومهانة وانحطاط. {وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا}.

ففي يوم القيامة، يتجلى العز الحقيقي لهؤلاء العباد. إنهم لا يخافون، والناس في خوف. إنهم لا يحزنون، والناس في حزن. إنهم يسمعون نداء الله، والناس لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم. فأى عز هذا؟! وأي شرف هذا؟!

ما المشاعر التي ينبغي أن تعيشها عند سماع هذا النداء؟

حين تقرأ {يَا عِبَادُ}، ينبغي أن:

1. تشعر بالمحبة: فالله يناديك، وهو الغني عنك، وأنت الفقير إليه. نداؤه لك دليل محبته وعنايته.
2. تشعر بالعزة: فأنت منسوب إلى الله، منسوب إلى العظيم الجليل. هذه النسبة تشرفك وترفعك.
3. تشعر بالطمأنينة: فما دمت من عباده، فأنت في رعايته وحفظه وأمانه.
4. تشعر بالمسؤولية: فهذا النداء تشريف، والتشريف يستوجب الشكر والعمل.

مثال تقريبي:

تخيل يتيمًا فقيرًا مشردًا في الشوارع، لا يأبه له أحد. ثم فجأة، يأتي ملك عظيم، فينزل من عرشه، ويتوجه إليه، ويناديه: "يا بني! تعال إلي!". ثم يضمه إليه، ويكسوه، ويؤمنه، ويجلسه إلى جانبه. أتشعر بعزة هذا اليتيم بعد الذل؟ هذا - والله - أقل من عزة من يناديه الله يوم القيامة: {يَا عِبَادُ}.

دلالة العبودية في السياق القرآني العام:

كثيرًا ما يضيف الله العباد إلى نفسه في مقامات التكريم:

- {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} {في وصف سليمان عليه السلام.
- {وَاذْكُرْ عِبَادَتَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ} {في مقام المدح.
- {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} {في مقام الإسراء والمعراج.

فالعبودية لله هي أشرف مقام يمكن أن يبلغه إنسان. ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يفتخر بها: "وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله". فقبل أن يكون رسولاً، هو عبد. وهذه العبودية هي مصدر عزته وشرفه.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: العزة الحققة في العبودية لله

الآية تعيد تعريف مفاهيم العزة والكرامة. العزة ليست في التحرر من الدين، بل في التحرر به. العزة في أن تكون عبدًا لله وحده.

الرسالة النفسية: اشعر بذاتك وأنت تنادى
كلما تلت {يَا عِبَادُ}، تخيل أن الله يناديك أنت باسمك. أنت المخاطب! وساعتها، ستجد دافعاً هائلاً نحو الاستقامة.

الرسالة التربوية: ازرع في أبنائك حب العبودية لله
لا تجعل أبنائك يشعرون أن العبادة قيود، بل علمهم أنها شرف وعز. قل لهم: "أنتم عبيد الله، وهذا أعظم وسام".
المحور الثاني

{لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ}

البشرى الكبرى... صك الأمان الإلهي يوم الفرع الأكبر

غوص في معنى {لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ}: نفي الخوف نفيًا مطلقًا

بعد النداء الأسر للقلب: {يَا عِبَادُ}، تأتي البشرى التي لا تدانيها بشرى: {لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ}.

{لَا}: نافية للجنس. أي لا خوف البتة، لا قليلاً ولا كثيرًا، لا الآن ولا غدًا. الخوف منفي نفيًا مطلقًا شاملًا.

{عَلَيْكُمْ}: "على" للاستعلاء. فالخوف كان كالجبل الثقيل على الصدور، يضغط على النفوس ويكاد يقتلها. فهذا الثقل يُرفع عنهم فجأة بهذه البشرى الإلهية.

ما الذي يخاف منه الناس يوم القيامة، ويأمن منه هؤلاء العباد؟

في يوم القيامة، يخاف الناس من:

1. أهوال الموقف: {يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ}.
2. الحساب: {وَحْشَتَتِ الْأَنْصَاطُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا}.
3. العذاب: {يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ}.
4. المستقبل المجهول: إلى أين المصير؟ جنة أم نار؟

أما هؤلاء العباد المكرمون، فكل هذه المخاوف مرفوعة عنهم. إنهم ينظرون إلى الأهوال نظرة المطمئن الذي يعرف أنه في أمان. إنهم قد استلموا صك الأمان من الله مباشرة!

{وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ}: نفي الحزن على ما فات

ثم تأتي البشرى الثانية: {وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ}.

الحزن: هو الألم النفسي على ما فات. الخوف: قلق على ما سيأتي. ونفى الله عنهم الخوف والحزن معًا، ليجمع لهم الأمان من المستقبل، والطمأنينة على الماضي.

علامَ يحزن الناس يوم القيامة، ولا يحزن عليه هؤلاء العباد؟

يحزن الناس يومئذ على:

1. ما فاتهم من الدنيا: من متاع ولذات لم يشبعوا منها.
2. ما فرطوا في جنب الله: {يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ}.
3. ما خسروه من حسنات: {يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}.
4. الأهل والأولاد الذين تركوهم: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأُيُوبِهِ}.

أما هؤلاء العباد، فلا يحزنون على شيء مما فاتهم في الدنيا. لأنهم يعلمون أن ما عند الله خير وأبقى. ولأنهم يرون ما أعد الله لهم من النعيم المقيم، فينسبون كل متاع زائل، ويضحكون فرحين بما آتاهم الله من فضله.

هذه البشرى تخاطبك اليوم... لا غدًا!

تأمل - يا رعاك الله - هذه البشرية ليست لمجرد القراءة والتأمل، بل هي بشرى تحيا بها الآن. حين تقرأ {لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ}، فاعلم أنك إن كنت من عباد الله، فهذا هو مصيرك. وحين تسمع {وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ}، فاعلم أنك لن تندم على ما تركته من أجل الله؛ بل ستفرح به أشد الفرح.

هذه الطمأنينة تنقلب إلى طاقة بناء في نفسك. تصبر على الشهوات، وتثبت أمام المغريات، وتواجه البلاءات بصدر رحب، لأنك تعلم أن الآخرة هي دار القرار، وأن ما عند الله خير لك مما في أيدي الناس.

مثال تقريبي:
تخيل أن رجلاً غنياً جداً أعطاك صكاً بمليارات الدولارات، تستلمه بعد سنة. أتفرح بهذا الصك الآن؟ أتثق أنك ستصبح من الأثرياء؟ إن حدث وظلمك أحد أو استضعفك، أتحزن؟ كلا! لأنك تعرف أن ثروتك قادمة. هذا هو شعور المؤمن مع هذه الآية. إن الله يعطيه صك أمان وسعادة أبدية، تستلمها يوم القيامة. فكيف يحزن على فوات متاع زائل؟! وكيف يخاف من ظالم أو بلاء، وغداً سيكون في أمان الله الأبدى؟!

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: الأمان الحقيقي في الآخرة
الآية تعيد توجيه تفكيرنا: الأمان الحقيقي ليس في الدنيا، بل في الآخرة. فمن اطمأن إلى هذه البشرية، زهد في متاع الدنيا، وتشوق إلى لقاء الله.

الرسالة النفسية: عش الطمأنينة اليوم
حين تتلو هذه الآية، تذكر أنك من عباد الله، فتطمئن. الخوف يزول، والحزن ينقشع، لأن الله وعدك.

الرسالة التربوية: بشر أبناءك بهذا الأمان
لا ترب أبناءك على الخوف من الله وحده، بل ربهم على حب الله والشوق إلى لقائه. بشرهم بهذه الآيات، واجعلهم يعيشون أمل الأمان.
المحور الثالث

{الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ}

صفات الفائزين... طريق الأمان الذي رسمه الله

غوص في معنى {الَّذِينَ آمَنُوا}: الإيمان العميق

بعد أن بين الله مصير عباده المكرمين وبشرهم بالأمان، بين صفاتهم التي استحقوا بها هذه الكرامة. إنه لا يتركنا في حلم اليقين دون أن يرسم لنا خريطة الوصول!

{الَّذِينَ}: اسم موصول يفيد أن هؤلاء استحقوا البشارة بما اتصفوا به من صفات.

{آمَنُوا}: الإيمان هو التصديق الجازم الذي يبلغ درجة اليقين. لم يكتفوا بمعرفة سطحية، بل آمنوا إيماناً راسخاً غرس في القلب فصدقه العمل.

{بِآيَاتِنَا}: والآيات هنا تشمل نوعين:

1. الآيات المقروءة: وهي آيات القرآن الكريم المنزلة من عند الله.
2. الآيات المرئية: وهي آيات الله في الأنفس والافاق وفي الكون، الدالة على وجوده ووحدانيته وقدرته.

فهم آمنوا بكتاب الله، وآمنوا بكون الله، فجمعوا بين الإيمان بالوحي والإيمان بالفطرة والعقل. هذا الإيمان الشامل هو الذي أثمر لهم تلك الكرامة.

وإضافة الآيات إلى ضمير الجلالة {بِآيَاتِنَا} يفيد تعظيم هذه الآيات وتشريفها. فآمنوا بأنها من الله حقاً، وما دامت من الله فهي حق وصدق وهدى.

ثمرات الإيمان بآيات الله:

الذين آمنوا بآيات الله حق الإيمان:

1. عرفوا الله حق المعرفة: عرفوا أسمائه وصفاته، وأثبتوا له الألوهية والربوبية.
2. أحبوا الله: لأن من عرف الله بآياته أحبه، ومن أحبه أطاعه.
3. استقر اليقين في قلوبهم: فلا تزلزلهم شبهة ولا تفتنهم شهوة.

{وكانوا مُسلمين}: الإسلام العملي

ثم يأتي الوصف الثاني: {وكانوا مُسلمين}.

"كانوا": فعل ماض يفيد الاستمرار والدوام. أي داموا على الإسلام، وثبتوا عليه، وعاشوا به، وماتوا عليه.

{مُسلمين}: الإسلام هو الاستسلام والانقياد والخضوع لله. فبعد أن آمنوا بقلوبهم، استسلموا لله بجوارحهم.

الإسلام عندهم كان:

1. خضوعاً لله بالعبادة: {فَاعْبُدُوهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ}.
2. توكلاً على الله: {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}.
3. تعظيماً لأمر الله ونهيهِ: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}.
4. محبة لله وطاعة له: {قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي}.
5. إقامة الدين كله في الحياة: فهم لم يكونوا مسلمين في المسجد فقط، بل في البيت والسوق و العمل. أقاموا حياتهم ونظامهم وفقاً لمفهوم العبودية لله وحده لا شريك له.

الجمع بين الإيمان والإسلام: كمال الدين

الآية جمعت بين الإيمان والإسلام. الإيمان: هو الأساس والباطن (اعتقاد القلب). والإسلام: هو الثمرة و الظاهر (عمل الجوارح).

وهذا هو كمال الدين: أن يصدق القلب فتنقاد الجوارح. أن تؤمن بالله ثم تستسلم له. أن تعرف الحق ثم تعمل به. وهذا الجمع هو ما استحق به هؤلاء البشرى العظمى.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: الطريق إلى الأمان واضح
الآية ترسم لنا طريق النجاة في كلمتين: إيمان وإسلام. من أراد أن يكون من المخاطبين بـ {يَا عِبَادُ} ، فعليه أن يؤمن بآيات الله، ويكون مسلماً له.

الرسالة النفسية: طمأنينة المؤمن بأنه يسير على الطريق الصحيح
حين تعرف أنك مؤمن بآيات الله، وأنت مسلم له وحده، تطمئن نفسك وتستقر. تعرف أنك على الطريق الذي يوصل إلى الأمان.

الرسالة التربوية: تربية الأبناء على الإيمان والإسلام معاً
ربّ أبنائك على الإيمان (حب الله، اليقين به، معرفة أسمائه وصفاته) وعلى الإسلام (الصلاة، الصيام، الأخلاق، الطاعة). فالنجاة في الجمع بينهما.
المحور الرابع

الترابط بين الآيتين: بناء متكامل للتكريم والبشارة والتعريف

تأمل - يا رعاك الله - كيف انتظمت الآيتان في بناء متكامل:

الآية (68): النداء الإلهي المباشر: {يَا عِبَادُ}، ثم بشارة الأمان المطلق: {لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ

تخزّنون}.

الآية (69): بيان صفات هؤلاء العباد: {الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ}.

فالبناء واضح: شرفتهم بالنداء أولاً ، ثم بشرتهم بالأمان ثانياً، ثم عزفت بهم العالمين ثالثاً. إنه تكريم من ثلاث درجات! المحور الخامس

كيف نعيش هذه الآية؟ تحويل النص إلى حياة

الآن - يا رعاك الله - بعد أن حللنا النداء والبشرى والصفات، نأتي إلى السؤال المركزي: كيف نعيش هذه الآية؟ كيف نحولها من نص في المصحف إلى واقع في القلب والسلوك؟

أولاً : استشعار النداء

في كل صلاة، وفي كل تلاوة، إذا مررت بهذه الآية، توقف قليلاً . تخيل أن الله يناديك أنت. قل في قلبك: "إن كنت من عباده المؤمنين، فهذا ندائي. وإن لم أكن، فسأسعى لأكون".

ثانياً: استشعار البشرى

إذا اعترضتك شهوة، أو أغرتك معصية، أو حزنت على فوات متاع... تذكر {لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ}... {وَلَا أَنْتُمْ تَخْزَنُونَ}. قل لنفسك: "أستبدل أمان الله بخوف عاجل؟! أأستبدل طمأنينة الأبد بحزن عاجل على متاع زائل؟!".

ثالثاً: مراجعة الإيمان والإسلام

اسأل نفسك دائماً: هل أنا مؤمن حقاً بآيات الله؟ وهل أنا مسلم حقاً لله؟ هل حياتي قائمة على العبودية لله وحده، أم أن لغير الله نصيباً من عبوديتي؟ المحور السادس

الأبعاد والافاق من الآيات: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد الأول: البعد العقدي - توحيد الله في ربوبيته وألوهيته
الآيات ترسخ عقيدة التوحيد: الله هو الرب، وهو المعبود وحده. والإيمان بآياته هو الطريق إلى معرفته.

البعد الثاني: البعد النفسي - الطمأنينة والأمان
الآيات تمنح المؤمن جرعة طمأنينة لا تدانيها طمأنينة. الخوف يزول، والحزن ينقشع، لأنه موعود بأمان الله.

البعد الثالث: البعد التربوي - بناء الشخصية المسلمة
الآيات تعطي منهجاً في بناء الشخصية: إيمان راسخ (آمنوا)، وإسلام عملي (مسلمين). فلا تغني أحدهما عن الآخر.

البعد الرابع: البعد الحضاري - الأمة العابدة لله
أمة تقوم على مبدأ {آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ} هي أمة عزيزة لا تذلل لغير الله، حرة لا تستعبد المادية، قوية لا ترهبها قوة.

البعد الخامس: البعد الوجداني - نقل المؤمن إلى الجنة قبل أوانها
الآيات تنقل المؤمن بوجدانه إلى مشهد يوم القيامة، فيعيش فرحة النداء وبشرى الأمان قبل وقوعها. هذه هي جنة الدنيا: أن تعيش وأنت مطمئن إلى مصيرك.
المحور السابع

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً : إعادة تعريف العزة

في عصر يبحث فيه الناس عن العزة في المناصب والثروات والشهرة، تدعونا الآية إلى إعادة تعريف العزة: العزة في أن تكون عبدًا لله، وفي أن تكون من المخاطبين بـ {يَا عِبَادُ}.

ثانيًا: مواجهة القلق الوجودي
في عصر كثر فيه القلق والاكتئاب والخوف من المستقبل، تأتي الآية لتمنح المؤمن طمأنينة مطلقة: أنت في أمان الله إن كنت من عباده.

ثالثًا: التوازن بين الإيمان والعمل
الآية تدعو إلى التوازن بين الإيمان القلبي والإسلام العملي. فلا إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان.
المحور الثامن

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: العبودية لله تحرر من كل عبودية
من صار عبدًا لله، تحرر من عبودية المال، والجاه، والشهوات، والبشر. فهو حر في الدنيا، مكرم في الآخرة.

المفهوم النفسي: اليقين بالمصير يصنع الطمأنينة في الحاضر
من عرف أنه من عباد الله المكرمين، عاش مطمئنًا في الدنيا، لا يخاف مستقبلها، ولا يحزن على فواتها.

المفهوم التربوي: التربية بالترغيب قبل الترهيب
الآيات تقدم نموذجًا في التربية: بدأت بالترغيب (النداء والبشرى) قبل أن تختتم ببيان الصفات. هذا أسلوب تربوي: رغب أولًا، ثم كلف.
المحور التاسع

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: أن نشعر بعزة العبودية لله
يريدنا الله أن نشعر بالفخر والاعتزاز بأننا عباده، وأن هذا هو أعظم وسام.

الإرادة الثانية: أن نطمئن بمصيرنا
يريدنا أن نعيش في الدنيا مطمئنين، لأننا إن كنا من عباده المؤمنين، فمصيرنا هو الأمان.

الإرادة الثالثة: أن نؤمن بآياته ونسلم له
يريدنا أن نجمع بين الإيمان بآياته (اعتقادًا وبيئًا)، والإسلام له (عملًا وانقيادًا).

الإرادة الرابعة: ألا نحزن على فوات الدنيا
يريدنا أن نعلم أن ما فاتنا من الدنيا لا يساوي شيئًا أمام ما ينتظرنا من كرامة وأمان يوم القيامة.
المحور العاشر

تحويل مفاهيم الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

المسار الأول: بناء الإنسان العزيز بعبوديته لله
الآيات تبني إنسانًا عزيز النفس، لا يذل لغير الله، ولا يستعبد لغير ربه. إنسانًا يعيش حرًا شامخًا، لأنه يعرف أن الله يناديه: {يَا عِبَادُ}.

التطبيق العملي:

- تحرر من رغبة الناس على حساب إرضاء الله. قل في نفسك: "أنا عبد لله، وهذا يكفي".
- إذا عرض عليك أمر يغضب الله، تذكر: "أنا ممن يناديهم الله {يَا عِبَادُ}، أفأبيع هذا الشرف بعرض زائل؟!"
- مثال تقريبي: موظف يطلب منه مديره تزوير معاملة. يرفض ويقول: "أنا عبد لله لا عبد للمدير". يخاف على وظيفته، لكنه يتذكر: لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ (فيهدأ قلبه).

المسار الثاني: بناء المجتمع القائم على الإيمان والإسلام

الآيات تبني مجتمعًا أفراده مؤمنون مسلمون، يجمعون بين إيمان القلب وعمل الجوارح. هذا المجتمع آمن في الدنيا، مبشر بالآخرة.

التطبيق العملي:

- كن داعية إلى التوازن بين الإيمان والعمل. لا تكن ممن يهتمون بالظاهر وقلوبهم خاوية، ولا ممن يدعون الإيمان وهم تاركون للعمل.
- مثال تقريبي: مجموعة شباب في مسجد، يجتمعون لتدارس القرآن (إيمان) ثم يخرجون لخدمة (الحي) إسلام عملي).

المسار الثالث: بناء الحضارة المطمئنة بوعد الله
الحضارة الإسلامية تقوم على اليقين بوعد الله. تعمل وتتعب، لكنها مطمئنة إلى أن النهاية هي الأمان عند الله. هذه الطمأنينة تجعلها لا تنهار أمام الأزمات.

التطبيق العملي:

- إذا أصابك بلاء أو ضائقة، تذكر: {لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ}. هذه البشارة تشملك ما دمت من عباد الله. فلا تنكسر.
- مثال تقريبي: مجتمع مسلم يمر بأزمة اقتصادية. يتذكرون أن الأمان الحقيقي ليس في المال، بل في الآخرة، فيهدأون ويصبرون ويتعاونون.
- خاتمة: هل اشتقت إلى أن يخاطبك الله بهذا النداء؟

أيها القارئ الكريم...

لقد نقلنا القرآن في هاتين الآيتين الكريمتين إلى لحظة من أروع لحظات الحياة الأبدية: لحظة يناديك فيها ربك، في ذلك اليوم المهلل، قائلاً: {يَا عِبَادَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ}.

فهل اشتقت إلى هذا النداء؟ هل تمنيت - وأنت تقرأ هذه الأسطر - أن تكون من هؤلاء العباد؟ وهل عازمت على أن تكون منهم؟

اعمل للوصول، فالطريق مرسوم: {الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ}.

اللهم اجعلنا من عبادك الذين ينادون في ذلك اليوم: {يَا عِبَادَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ}.

اللهم اجعلنا من الذين آمنوا بآياتك وكانوا مسلمين.

اللهم ارزقنا عزة العبودية لك، وحررنا من عبودية كل ما سواك.

المبحث الثالث

تفسير الآيتين (70-71) من سورة الزخرف

تقدمة لا بد منها: موقع الآيتين من السياق ومن لحظة دخول الجنة بعد بشارة الأمان

قف معي - يا رعاك الله - وقفة من أدرك أن القرآن العظيم حين يبشر المؤمنين، لا يكتفي بكلمة عابرة، بل يرسم لهم مشاهد حية، وينقلهم بوجدانهم إلى هناك، ليعيشوا النعيم قبل وقوعه، وليشتاقوا إليه، فيكون هذا الشوق وقودًا للعمل، وسلاحًا للصبر، وزادًا للثبات.

لقد كنا في الآيتين السابقتين (68-69) أمام ذلك المشهد المهيّب الذي يفيض تكريماً وأماناً: {يَا عِبَادَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ}. لقد سمعنا النداء الإلهي المباشر، وشعرنا بعزة العبودية لله، واستبشرنا بالأمان المطلق من الخوف والحزن.

وهنا - بعد الأمان - تأتي دعوة الدخول. لم يعد هناك خوف، فلماذا البقاء في ساحة الحساب؟! لقد حان وقت الجزاء! إنه أمر إلهي بالدخول إلى دار النعيم: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ}.

ثم لا يكتفي القرآن بهذا الأمر الإجمالي، بل يفتح لنا نافذة على تفاصيل ذلك النعيم: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصُحُفٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ}. إنه مشهد حي يرسمه القرآن لنا: هؤلاء العباد المكرمون قد دخلوا الجنة، وجلسوا على سرر والخدم يطوفون عليهم بصحاف الذهب وأكواب الذهب... فيها ما تشتهي النفس وتلد الأعين... وكل هذا خالد أبدي لا ينقطع.

إن هذا الأسلوب القرآني الفريد - أسلوب التشويق - ليس لمجرد الإخبار، بل هو بناء للنفس المسلمة.

إنه يصنع في العقل صورة حية للجنة، ويفرس في القلب شوقاً لا ينطفئ إليها. وهذا الشوق هو الذي يمد المؤمن بالقوة والعزيمة، فيزهد في شهوات الدنيا، ولا يبالي بملذاتها الزائلة، ويصبر على المكاره و الطاعات، لأنه يرى بعين قلبه ما ينتظره عند الله.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها والقضايا التي تناقشها

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيتان الكريمتان:

1. الأمر الإلهي بدخول الجنة: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ} - تنويع التكريم السابق.
2. دخول الأزواج معاً: {أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ} - تمام السعادة بالاجتماع بالأحبة.
3. الفرح والحبور: {تُحْبَرُونَ} - حالة نفسية من الفرح الدائم والراحة المطلقة.
4. مشهد الإكرام بالخدمة: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ} - خدمة الملائكة لهم.
5. جمال الآنية وكمال المتعة: {صِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ}.
6. شمول النعيم لكل ما تشتهي النفس وتلذه العين: {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ}.
7. الخلود الأبدي: {وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.

مقاصد الآيات وأهدافها:

1. ترغيب المؤمنين في الجنة وتشويقهم إليها عبر وصفها وصفاً حياً مفصلاً.
2. بناء الطاقة النفسية للمؤمن عبر زرع الشوق إلى الآخرة في قلبه، فيصبر على مشاق الدنيا.
3. تصغير الدنيا في عين المؤمن حين يرى ما أعده الله له في الآخرة.
4. تكريم المؤمنين وإشعارهم بمحبة الله لهم عبر دعوتهم للدخول ووصف ما ينتظرهم.
5. بيان أن نعيم الجنة شامل للروح والجسد والنفس والعين.

القضايا الكبرى التي تناقشها الآيات:

القضية الأولى: أسلوب التشويق القرآني ودوره في البناء والتنمية

الآيات ترسم نموذجاً فريداً في أسلوب التشويق: فهي لا تقول "في الجنة نعيم" فقط، بل تفصل: آنية من ذهب، صحاف، أكواب، ما تشتهي الأنفس، ما تلذ الأعين... هذا التفصيل يبني في العقل صورة تقريبية حية، تتحول إلى طاقة محرّكة للعمل والصبر.

القضية الثانية: النعيم الروحي والنفسي والجسدي في الجنة

الآيات تجمع بين أنواع النعيم:

- نعيم روحي: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ}، {تُحْبَرُونَ}.
- نعيم اجتماعي: {أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ}.
- نعيم حسي: {صِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ}.
- نعيم ذوقي: {مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ}.
- نعيم بصري: {وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ}.

القضية الثالثة: تحويل الشوق إلى الجنة إلى طاقة صبر وزهد

حين يستقر في قلب المؤمن يقين بما في الجنة، فإنه يزهد في الدنيا، ويصبر على البلاء، ويترك الشهوات المحرمة شوقاً إلى ما هو أعظم وأبقى.

المحور الأول

{ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ}

دعوة الدخول... تنويع التكريم وتمام السعادة

غوص في معنى {ادْخُلُوا}: الأمر الإلهي بالدخول

دعني - يا رعاك الله - أقف بك عند هذه الكلمة المليئة بالفرح: {ادْخُلُوا}.

إنه أمر إلهي. لكنه ليس أمر تكليف واختبار (كما في الدنيا)، بل هو أمر تكريم وتشريف وإدخال إلى دار الكرامة. لقد انتهى وقت التكليف، وحان وقت الجزاء.

تأمل: من الذي يأمرهم بالدخول؟ إنه الله! الذي كانوا يؤمنون به في الدنيا، ويصبرون على طاعته،

ويتركون معاصيه... هو الذي يدعوهم الآن للدخول. ما أكرمها من لحظة!

وقد ورد في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خَلُّوْا فُلَا مَوْتَ، وَتَعِيْمُ فُلَا بُؤْسَ، وَشَبَابُ فُلَا هَرَمَ، وَصِحَّةُ فُلَا سَقَمَ».

{الجنة}: الاسم الجامع لكل نعيم

{الجنة}: معرفة بالألف واللام. إنها الجنة التي وعدها الله عباده، التي عرضها السماوات والأرض. ليست حديقة، بل هي الدار العظمى التي أعدها الله لأوليائه.

{أنتم وأزواجكم}: تمام السعادة بالاجتماع

ثم يأتي ما يضاعف الفرح: {أنتم وأزواجكم}. لا يدخل المؤمن الجنة وحده، بل يدخل معه أزواجه (زوجاته في الدنيا من المؤمنات، أو أزواجه من الحور العين، أو قرناؤه وأصحابه). وقيل: "أزواجكم" أي نظراؤكم وأمثالكم من المؤمنين. والمعنى الجامع: تدخلون الجنة مع من تحبون من الأهل والصحب والأتباع.

إن هذا من تمام النعيم: أن يجتمع الأحبة في دار الكرامة، لا يفرقهم موت ولا بعد. {إخوانا على سُرُرٍ متقابلين}.

مثال تقريبي:

تخيل أسرة مؤمنة صابرة في الدنيا: الأب والأم والأبناء. كانوا يصلون معًا، ويتلون القرآن معًا، ويصبرون على الفقر والبلاء معًا. في يوم القيامة، بعد أهوال الموقف، إذا بالله يأمرهم: {ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم}. يدخلون معًا، يتذكرون أيام الدنيا، ويضحكون مما رأوا من أهوال ثم نجوا منها... هذا هو السرور الذي لا يوصف.

{تَحَبَّرُونَ}: الحبرة... الفرح الذي يظهر على الوجه

وهنا - يا رعاك الله - كلمة عجيبة: {تَحَبَّرُونَ}. "تحبرون" من الحبرة. والحبرة: هي الفرح الشديد الذي تظهر آثاره على الوجه، حتى يصير الوجه مشرقًا مضيئًا من شدة الفرح. الحبرة: فرح مع كرامة وتكريم وإشراق.

فهم ليسوا فقط سعداء، بل إن سعادتهم تفيض على وجوههم نورًا وإشراقًا. {تَغْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النِّعَمِ}.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: النعيم لا يكمل إلا بالاجتماع بالأحبة
الآية ترسخ أن من تمام السعادة في الجنة اجتماع المؤمن بمن يحب. فاحرص في الدنيا أن تكون أنت وأهلك وأصحابك على طريق واحد، هو طريق الإيمان.

الرسالة النفسية: تصور هذا المشهد يريح القلب
حين تعيش ضغوط الدنيا وهمومها، تذكر أن هناك يومًا سيقال لك فيه أنت وأحبائك: {ادخلوا الجنة}، فتهدأ نفسك، وتصغر الهموم في عينك.

الرسالة التربوية: شوق أبناءك إلى الجنة
حدث أبناءك كثيرًا عن هذا المشهد. قل لهم: "يا بني، تخيل يوم ندخل الجنة معًا، أنا وأنت وأمك وإخوتك...". هذا التشويق يربط قلوبهم بالآخرة.
المحور الثاني

{يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ}

مشهد الإكرام بالخدمة والآتية الفاخرة

غوص في معنى {يُطَافُ عَلَيْهِمْ}: الخدمة والتكريم

بعد أن دخلوا الجنة وجلسوا في مقاعدهم، يبدأ مشهد الإكرام: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ}.

{يُطَافُ}: فعل مبني للمجهول. والفاعل هم الملائكة أو الغلمان المخلدون. والمعنى: أنهم لا يتكلفون القيام ولا المشي ولا طلب الطعام، بل يأتيهم الخدم يطوفون بهذه الصحاف والأكواب.

إنه مشهد الراحة المطلقة: أنت جالس في مجلسك، والخدم يطوفون عليك بما تشتهي. لا تعب، لا نصب، لا انتظار. مجرد إشارة أو خاطر في النفس، فإذا بالخدم يقدم ما تريد.

مثال تقريبي:

في الدنيا، حتى في أفخم المطاعم، تنتظر النادل، وتطلب، وتدفع... وفي الجنة، لا تنتظر ولا تدفع ولا تتعب. أنت جالس على سريرك، والملائكة يطوفون عليك بما تشتهي. أنت تشعر بالراحة؟!

{يَصْحَافُ مِّنْ ذَهَبٍ}: جمال الآنية وفخامتها

{يَصْحَافُ}: جمع صحفة، وهي الإناء الكبير الذي يوضع فيه الطعام. وقيل: هي القصعة.

{مِّنْ ذَهَبٍ}: الجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لصحاف. أي صحاف مصنوعة من الذهب الخالص.

في الدنيا، الذهب هو أعلى ما يملكه الناس. وفي الجنة، الذهب هو مادة الأواني التي يؤكل فيها! إنها نقلة هائلة في عالم النعيم. ما كان في الدنيا نادرًا ثميرًا، صار في الجنة مادة عادية تصنع منها الأواني.

{وَأَكْوَابٍ}: جمال أواني الشرب

{وَأَكْوَابٍ}: جمع كوب، وهو الإناء الذي يشرب به، وليس له عروة ولا خرطوم. فهو إناء شرب مريح جميل. والأكواب أيضًا من ذهب.

إنها أكواب ذهبية لامعة، تقدم لهم فيها أشربة لذيذة. صفاء الذهب مع صفاء الشراب: مشهد يقر العين ويسر القلب.

دلالة ذكر الذهب في الآنية:

ذكر الذهب هنا ليس عبثًا. إنه يصنع في ذهن المؤمن صورة تقريبية للجمال الرفيع. والذهب معدن لا يصدأ، يبقى لامعًا على الدوام. وهو أثمن ما عرفه الناس في الدنيا. فإذا كان هذا هو أدنى ما في الجنة (آنية الطعام)، فكيف بما هو أعظم؟!

هذا هو أسلوب التشويق القرآني: يعطيك صورة من الأدنى لتتخيل الأعلى. يقول لك: "حتى آنية الطعام عندكم من ذهب... فما بالك بالقصور؟ والسرر؟ والحدود؟".

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: الجنة ليست مكانًا للطعام فقط، بل للتكريم والجمال. الآنية تنقل مفهوم النعيم من مجرد الأكل والشرب إلى التكريم والخدمة والجمال. الجنة دار متعة الحواس والروح معًا.

الرسالة النفسية: تصور الجمال يزهد في شهوات الدنيا حين ترى بأذنك وقلبك وصف صحاف الذهب، تشعر أن متاع الدنيا حقير. آنية الذهب التي تتعجبون في جمعها في الدنيا... في الجنة تأكلون فيها!

الرسالة التربوية: صف لأبنائك جمال الجنة اجلس مع أبنائك، واقرأ لهم هذه الآية، وارسم معهم صورة الجنة: آنية ذهب، أكواب ذهب، خدم يطوفون... هذا الأسلوب يجعلهم يحبون الجنة ويسعون إليها. المحور الثالث

{وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ}

شمول النعيم للروح والجسد... كل ما تشتهي النفس وكل ما تلذه العين

غوص في معنى {وفيها ما تشتهي الأنفس}: نعيم يشمل كل رغبة

بعد أن وصف الآنية الجميلة، يأتي الوصف الأشمل: {وفيها ما تشتهي الأنفس}.

{وفيها}: أي في الجنة. في داخلها، في كل ركن من أركانها.

{ما تشتهي الأنفس}: "ما" اسم موصول يفيد العموم و"تشتهي" من الشهوة، وهي طلب النفس للشيء ورغبتها فيه. والمعنى: كل ما ترغب فيه النفس وتشتهي وتتمناه... هو موجود في الجنة.

لم يقيد القرآن الشهوات بنوع معين، بل أطلقها. شهوة الطعام، شهوة الشراب، شهوة اللباس، شهوة المسكن، شهوة الزواج، شهوة المنظر، شهوة الراحة... كل شهوة، مهما كانت، هي محققة في الجنة. {ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون}.

{وتلذ الأعين}: النعيم البصري والجمالي

ثم يضيف بعداً آخر: {وتلذ الأعين}.

"تلذ" من اللذة. و"الأعين" هي العيون. والمعنى: وفي الجنة ما تلذ به العيون وتتمتع بالنظر إليه.

إنها المتعة البصرية: مناظر خلابة، وحدائق غناء، وقصور عالية، وأنهار جارية، ووجوه مشرقة، وحور عین، وكل ما يسر الناظرين ويسعد المبصرين. العين في الدنيا تتعرض لمشاهد مؤذية وكئيبة. وفي الجنة، لا ترى العين إلا كل جميل مبهرج.

الشهوة ولذة العين: كمال المتعة الحسية والنفسية

الآية جمعت بين شيئين:

1. شهوة النفس) رغبة داخلية: ما تشتهي النفس من طعام وشراب ونكاح وراحة.

2. لذة العين) متعة بصرية: ما تراه فتبتهج، وما تنظر إليه فتسر.

فالنعيم يشمل الداخل والخارج، يشمل المتعة الحسية والمتعة الجمالية. ليس هناك نقص في جانب، و لا خلل في طرف.

هذا هو أسلوب التشويق الذي يبني النفس:

تأمل - يا رعاك الله - كيف يصنع القرآن الشوق في قلبك. إنه يخبرك أن في الجنة "ما تشتهي الأنفس" كلها، لا يترك شهوة إلا أشبعها، ولا رغبة إلا حققها. ثم يضيف أن فيها "ما تلذ الأعين"، فيملأ بصرك بالجمال إلى ما لا نهاية.

فإذا أنت قرأت هذا، تحرك قلبك شوقاً إلى الجنة. وإذا اشتقت إليها، صبرت على ترك المحرمات في الدنيا، لأنك تعلم أن ما تتركه هنا هو دون ما ينتظرك هناك. صبرت على شهوة النظر إلى الحرام، لأنك تعلم أن في الجنة ما تلذ الأعين. صبرت على شهوة البطن والفرج، لأنك تعلم أن في الجنة ما تشتهي الأنفس.

وهكذا يتحول هذا الوصف القرآني من مجرد خبر إلى طاقة عملية، تمدك بالقوة والعزيمة والصبر، وتزهدك في الدنيا الفانية.

مثال تقريبي:

تأمل شاباً شغوفاً بالسيارات الفارهة. لو قيل له: "بعد سنة، ستعطى سيارة من ذهب خالص، لا تحتاج وقوداً، لا تصدأ، لا تخرب، سرعتها لا توصف". ألا يصبر هذا الشاب السنة كلها، وهو يمني نفسه بتلك السيارة؟! ألا يترك سيارته المتواضعة اليوم بلا أسف؟! هذا هو حال المؤمن: يعلم أن في الجنة ما تشتهي الأنفس، فيترك الحرام اليوم شوقاً إلى ذلك النعيم المقيم.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: الجنة وعد الله الصادق، وشوقها يصنع العزائم
الآية تعلمنا أن الإيمان بنعيم الجنة يجب أن يكون حيًا في القلب، مؤثرًا في السلوك، دافعًا للصبر على
الطاعة وترك المعصية.

الرسالة النفسية: املاً خيالك بالجنة تعش سعيدًا
لا تدع الشيطان يملأ خيالك بمتع الدنيا الفانية. املاً خيالك بالجنة وما فيها، تعش سعيدًا، وتصبر على
البلاء، وتزهد في الحرام.

الرسالة التربوية: استخدم أسلوب التشويق مع أبنائك
حدث أبنائك عن الجنة كما يحدثهم القرآن: "فيها ما تشتهيهِ الأنفس، كل ما تحبونه وتشتهونه... وتلذذوا
لأعين، كل منظر جميل...". هذا الأسلوب يعلق قلوبهم بالآخرة.
المحور الرابع

{وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}

الخلود الأبدى... تاج النعيم بأكمله

غوص في معنى {وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}: دوام البقاء وكمال الفرح

بعد أن وصف النعيم في الجنة، جاء ما يتوَجَّ هذا النعيم كله: {وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.

{وَأَنْتُمْ}: ضمير منفصل يفيد التوكيد. أنتم بأنفسكم، لا غيركم.

{فِيهَا}: في الجنة التي وصفناها.

{خَالِدُونَ}: اسم فاعل من الخلود، وهو البقاء الدائم الذي لا ينقطع ولا ينتهي.

فمهما كان النعيم عظيمًا، فإن الشعور بأنه سينتهي يومًا ما ينغصه. لكن نعيم الجنة خالد أبدى. لا
موت، لا فناء، لا انتهاء. {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}. هذا هو كمال النعيم: الكمال في النوع (كل ما تشتهيهِ الأ
نفس)، والكمال في الدوام (خالدون أبدًا).

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: النعيم الحقيقي هو ما دام
كل نعيم في الدنيا زائل، ولذلك هو ناقص. نعيم الجنة كامل لأنه دائم. ففرق كبير بين من يتمتع
بمتعة ساعة، ومن يتمتع بمتعة الأبد.

الرسالة النفسية: لا تحزن على فوات الزائل
حين تعلم أنك ستخلد في نعيم أبدى، فإن حزنك على فوات متاع الدنيا يتبخر. ما قيمة تمتع ساعة
في الدنيا في مقابل خلود أبدى في الجنة؟!

الرسالة التربوية: علم أبنائك أن الخلود هو الفوز العظيم
ذكر أبنائك دائمًا أن الجنة خالدة، وأن النار خالدة. هذا الفرق يعلمهم أن مقياس الأمور هو بدوامها، لا
بعظمتها المؤقتة.
المحور الخامس

دلالة أسلوب التشويق في الآيات ودوره في بناء الإنسان

الآن - يا رعاك الله - وقد أتممنا تحليل الآيتين، نقف على دلالة هذا الأسلوب القرآني العجيب في
التشويق.

كيف يشوقنا القرآن إلى الجنة؟

1. بالتفصيلات الحية: لم يقل "في الجنة نعيم" فقط، بل وصف الآنية وصفها (صحاف وأكواب)
ومادتها) من ذهب).

2. بالعموم بعد التفصيل: بعد أن وصف الآنية، أطلق القول: { وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ }،
ليشمل كل ما لا يمكن وصفه.
3. بجمع أنواع النعيم: الروحي (الأمر بالدخول، والحبور)، والاجتماعي (الأزواج)، والحسي (الطعام و
الشراب)، والجمالي (لذة العين)، والدوام (الخلود).
4. بالصور التي نعرفها في الدنيا مع إشعارنا بأنها في الجنة أعظم: الذهب نعرفه، والصحاف نعرفها، و
الأكواب نعرفها... لكنها في الجنة شيء لا يوصف.

كيف تتحول هذه الصور إلى طاقة بناء؟

1. تزرع الشوق إلى الجنة: فتعمل للوصول إليها.
2. تصغر الدنيا في العين: فمن رأى الجنة، هانت عليه الدنيا.
3. تمنح الصبر على الطاعة: فالمشقة تهون حين ترى ما ينتظرك.
4. تعين على ترك المعصية: فمن اشتاق إلى الحلال في الجنة، ترك الحرام في الدنيا.
5. تمنح الرضا بالقضاء: فمن يعلم أن ربه أعد له هذا النعيم... أيظن أن ما يصيبه في الدنيا من بلاء هو إهمال؟! كلا! بل هو طريق إلى هذا النعيم.

مثال تقريبي شامل:
تأمل صائماً في يوم شديد الحر عطشان، جائع، متعب. ثم يمر بهذه الآية في صلاة التراويح. يسمع:
{بُطَافٌ عَلَيْهِمْ بِصَحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ}. يتخيل نفسه هناك: جالس على سرير، والملائكة يطوفون عليه بأكواب الذهب الباردة، وفيها ما تشتهيئه نفسه من شراب... هنا، تهون عليه شدة العطش. يزداد شوقاً إلى الإفطار في الجنة قبل الإفطار في الدنيا. ويصبر، ويحمد الله. هذا هو عمل القرآن في النفس!
المحور السادس

الأبعاد والآفاق من الآيات: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد الأول: البعد العقدي - الإيمان بالجنة ونيعمها
الآيات ترسخ عقيدة الإيمان بالجنة، وتفصل وصفها، فيغدو الإيمان بها إيماناً حياً مؤثراً، لا مجرد تصديق نظري.

البعد الثاني: البعد النفسي - الشوق إلى الآخرة يصغر الدنيا
كلما تعمق وصف الجنة في قلب المؤمن، تضاءلت الدنيا في عينه، وزهد في شهواتها، وصبر على متاعها.

البعد الثالث: البعد التربوي - التربية بالتشويق لا بالتخويف فقط
الآيات تقدم نموذجاً تربوياً: التشويق إلى النعيم وسيلة فعالة في التربية. وهي تستعمل إلى جانب التخويف من العذاب.

البعد الرابع: البعد الحضاري - الحضارة التي تقوم على الشوق إلى الله
حضارة الإسلام قامت على الشوق إلى الجنة. هذا الشوق دفع المسلمين الأوائل إلى الفتوحات والجهاد والصبر على الشدائد، لأنهم كانوا يرون الجنة بأعين قلوبهم.
المحور السابع

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً: املأ قلبك شوقاً إلى الجنة
في عصر الشهوات والماديات، لا علاج للقلب إلا أن تملأه بشيء أعظم من الدنيا: الجنة. كلما قرأت وصف الجنة، عشه بوجدانك، وتخيله، واجعله نصب عينيك.

ثانياً: صغر الدنيا في عينك
الدنيا ليست غاية، بل هي ممر. وصف الجنة في القرآن يجعلك تستصغر كل ما فيها. من ذهب الدنيا؟! إنه في الجنة آنية للطعام!

ثالثاً: اصبر على الطاعة واترك المعصية شوقاً إلى الجنة
هل تدعوك نفسك إلى حرام؟ تذكر { وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ }. قل لنفسك: "أصبر على هذا الحرام الفاني، لأظفر بما هو أعظم وأبقى".

رابعاً: حدث الآخرين عن الجنة بأسلوب القرآن
لا تحدث الناس عن الجنة كلاماً مجملاً. فصل لهم كما فصل القرآن. ارسم لهم المشاهد. ذكرهم
بصحاف الذهب وأكواب الذهب، وما تشتهيه الأنفس، وما تلد الأعين.
المحور الثامن

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: الجنة دار النعيم المطلق
الآيات ترسخ مفهوماً فكرياً: الجنة ليست مجرد مكان للراحة، بل هي دار النعيم المطلق الذي لا نقص
فيه: روحاً وجسداً، نفساً وعيئاً، شهوة وجمالاً.

المفهوم النفسي: تصور الجنة يمنح الصبر والرضا
من جعل الجنة نصب عينيه، صبر على الدنيا ورضي بقضاء الله، لأنه يعلم أن ما ينتظره أعظم.

المفهوم التربوي: وصف الجنة أسلوب قرآني لبناء الدافعية
الآيات تعلم المريين أن وصف المحبوبات وتفصيلها هو أسلوب ناجع في بناء الدوافع والرغبات.
المحور التاسع

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: أن نشاق إلى الجنة
يريدنا الله أن نقرأ هذا الوصف فنشتاق، وأن يكون هذا الشوق محركاً لنا للعمل والاستقامة.

الإرادة الثانية: أن نزه في الدنيا
يريدنا أن نرى الدنيا على حقيقتها: دار ممر، لا دار مقر. وما فيها من متاع هو غناء زائل.

الإرادة الثالثة: أن نصبر على الطاعة ونجتنب المعصية
يريدنا أن نستمد من هذا الوصف طاقة للصبر، فنترك الحرام شوقاً إلى الحلال الدائم.

الإرادة الرابعة: أن نكون من أهل الجنة
يريدنا أن نكون من الذين آمنوا بآياته وكانوا مسلمين، حتى نكون من المخاطبين بـ {ادخلوا الجنة}.

المحور العاشر

تحويل مفاهيم الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

المسار الأول: بناء الإنسان المشتاق إلى الجنة، الصابر على الدنيا
الآيات تبني إنساناً قلبه معلق بالجنة، فلا تستعبده الدنيا، ولا تفتنه الشهوات، ولا تضععه المصائب.

التطبيق العملي:

- خصص لنفسك يوماً وقتاً تقرأ فيه أوصاف الجنة في القرآن والسنة، وتخيّلها بوجدانك.
- كلما راودتك نفسك على معصية، تذكر وصف الجنة، وقل: "في الجنة ما هو خير من هذا".
- مثال تقريبي: شاب يدعو صديقه لسهرة محرمة. يتذكر أن في الجنة {ما تشتهيه الأنفس}، فيقول: "لا! أنا أنتظر ما هو خير وأبقى". فيترك الحرام، ويفرح بثباته.

المسار الثاني: بناء المجتمع الذي يعمل للأخرة
الآيات تبني مجتمعاً يعيش أفرادهم على الآخرة، فيتعاونون على البر والتقوى، ولا يتنافسون
على الدنيا.

التطبيق العملي:

- في مسجدك أو حيك، أقم حلقات لدراسة "الجنة ونعيمها" في القرآن والسنة.
- شجع إخوانك على أن يتواصوا بالصبر على الدنيا، ويذكروا بعضهم بما عند الله.
- مثال تقريبي: مجموعة شباب في عمل خيري، يواجهون صعوبات. يذكر بعضهم بعضاً بوصف الجنة،

فيهون عليهم التعب، ويزدادون نشاطاً.

المسار الثالث: بناء الحضارة التي ترى الجنة أمامها
الحضارة الإسلامية قامت على رؤية الجنة. الصحابة رضي الله عنهم فتحوا الدنيا ولم تفتحهم الدنيا،
لأنهم كانوا يرون الجنة في قلوبهم.

التطبيق العملي:

. في مشاريعك الخيرية والدعوية، اجعل هدفك وغايتك أن تكون من أهل الجنة، لا أن تحقق أرباحاً
دنيوية.

. مثال تقريبي: رجل أعمال مسلم، يبني مستشفى خيرياً. يقول لنفسه: "لا أريد شهرة ولا ربحاً. أريد
أن أكون من أهل الجنة". هذا هو الدافع القرآني.
خاتمة: هل رأيت الجنة بقلبك... فاشتقت؟

أيها القارئ الكريم...

لقد فتح لنا القرآن في هاتين الآيتين نافذة على الجنة. رأينا الدعوة الإلهية: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ}. ورأينا
مشهد الخدمة والآية الذهبية: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ}. وتنسمنّا عبير النعيم المطلق: {وَفِيهَا
مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ}. وسمعنا البشرى بالخلود: {وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.

فهل - بعد هذا كله - اشتقت إلى الجنة؟ هل هانت عليك الدنيا؟ هل تحول هذا الوصف إلى طاقة
صبر وثبات في قلبك؟

اجعل هذه الآيات زادك في طريقك إلى الله. كلما ضعفت، تذكرها. كلما أغرتك الدنيا، تذكرها. وكلما
اشتد بك البلاء، تذكرها.

المبحث الرابع

تفسير الآيتين (72-73) من سورة الزخرف

تقدمة لا بد منها: موقع الآيتين من السياق ومن منطق الجزاء بالعمل وليس بالأمان

قف معي - يا رعاك الله - وقفة التأمل الذي يرى كيف ينتقل القرآن الكريم من مشهد إلى مشهد،
وكيف يربط الأسباب بالمسببات، والجزاء بالعمل، لينشئ في قلب المؤمن عقيدة واضحة: الجنة ليست
بالأمان، بل بالعمل الصالح.

لقد وقفنا في الآيتين السابقتين (70-71) أمام مشهد دخول الجنة، ذلك المشهد الذي يفيض تكريماً
وسعادة: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ}. ورأينا الخدم يطوفون عليهم بصحاف الذهب وأكوابه،
وسمعنا الوعد الجامع: {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ}. هناك كان التركيز على وصف النعيم
وتفصيله، تشويقاً للنفوس وترغيباً في الآخرة.

وهنا - في هاتين الآيتين - ينتقل القرآن خطوة أبعد. إنه لا يكتفي بوصف النعيم، بل يربط هذا
النعيم بأسبابه. يقول للمؤمنين وهم في الجنة - أو تقول لهم الملائكة -: {وَلَكُمْ فِي الْجَنَّةِ الثَّوْنِي أَوْرَثُوهَا
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}. إنه تذكير لهم بأن ما هم فيه ليس مئة بلا سبب، بل هو ثمرة أعمالهم. فيا لها من
لحظة! أن ترى ثمرة صبرك، ثمرة صلاتك، ثمرة جهادك لنفسك، كلها تتحول الآن إلى جنة عرضها
السموات والأرض!

ثم يعود الوصف ليكمل تفصيل النعيم، لكن بنبرة جديدة: {لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ}. ليست
مجرد فاكهة، بل فاكهة كثيرة. وليست الكثرة هي فقط ما يميزها، بل إنه {مِنْهَا تَأْكُلُونَ}: تأكلون منها
اختياراً وانتقاءً، لا اضطراراً ولا جوعاً، بل تلهذا وتمتعاً.

إن هاتين الآيتين تقدمان نموذجاً متكاملًا في التربية الإيمانية: إنهما تذكيران بالنعيم (لتشويق)،
وتربطان النعيم بالعمل (للدفع)، وتفصلان وصف النعيم (للتغريب). هكذا يبني القرآن الإنسان: يشوقه
إلى الهدف، ويعرفه بالطريق، ويثبتته حتى يصل.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها والقضايا التي تناقشها

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيتان الكريمتان:

1. ربط دخول الجنة بالعمل الصالح: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}.
2. بيان منطق الإرث الإلهي: الجنة ليست عطية بلا مقابل، بل ميراث يورث بالعمل.
3. نفي منطق الأمان في النجاة: فلا ينجو أحد بأمانيه، بل بعمله.
4. تفصيل نعيم الفاكهة في الجنة: {لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ}.
5. صفات فاكهة الجنة: الكثرة، وسهولة الحصول، والتلذذ بالاختيار.

مقاصد الآيات وأهدافها:

1. دفع المؤمنين إلى العمل الصالح وتحذيرهم من الاتكال على الأمان.
2. ترسيخ مبدأ "الجزاء من جنس العمل" في النفوس.
3. تثبيت المؤمنين على الطاعة وربطها بالمصير الأخروي.
4. إكمال صورة الجنة في أذهان المؤمنين لتزداد رغبتهم فيها.
5. زرع الأمل في قلوب الفقراء والمحرومين بأن ما ينتظرهم أعظم مما فاتهم.

القضايا الكبرى التي تناقشها الآيات:

القضية الأولى: الجنة ثنال بالعمل لا بالأمان
الآيات ترد على تصورات خاطئة: أن الجنة تنال بالانتساب أو بالانتماء القبلي أو بالأمان. {لَيْسَ بِأَمَانِيَكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ}. إنما تنال الجنة بالعمل الصالح الذي يوفق الله إليه.

القضية الثانية: الإرث الإلهي - مفهوم "أورثتموها"
الجنة توصف في القرآن بأنها "ميراث" للمؤمنين. وهذا اللفظ له دلالة عظيمة: الميراث يُستحق بسبب (قربة أو نكاح أو ولاء)، ولا يُعطى لأجنبي. والمؤمنون استحقوا الجنة بسبب إيمانهم وعملهم. وهو ميراث لا ينتزع ولا يبلى ولا يفنى.

القضية الثالثة: بين نعيم الدنيا ونيعم الجنة - مقارنة ضمنية
وصف فاكهة الجنة بـ "الكثيرة" مع "منها تأكلون" فيه مقارنة ضمنية بفاكهة الدنيا: فاكهة الدنيا موسمية، قد تكون قليلة، وقد لا تستطيع الحصول عليها. فاكهة الجنة كثيرة دائمة، تأكل منها متى شئت، وكيف شئت.
المحور الأول

{وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}

ربط النعيم بالعمل... الجنة ميراث لا أمانة

غوص في معنى {وَتِلْكَ}: الإشارة إلى الجنة المعظمة

دعني - يا رعاك الله - أقف بك عند أول كلمة في هذه الآية: {وَتِلْكَ}.

{و}: الواو للعطف، تربط هذا المشهد بما قبله. بعد أن وُصف لهم النعيم واطمأنوا إليه، تأتي هذه الآية لتبين لهم كيف وصلوا إلى هنا.

{تِلْكَ}: اسم إشارة للبعيد. الجنة هنا مشار إليها بإشارة البعيد، مع أنها قد صاروا فيها! والسر: أن الإشارة للبعيد تفيد تعظيم المشار إليه. فالجنة - وإن كانوا فيها - إلا أن شأنها أعظم من أن يحيط به وصف الحاضرين. تلك {إشارة تفخيم وتكريم}.

{الجنة}: البدل أو الخبر - تعظيم وتفخيم

{الجنة}: معرفة بآل. هي الجنة المعهودة الموعودة، التي طالما سمعوا بها في الدنيا، واشتاقوا إليها، وعملوا لها. وها هي ذي أمامهم: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ}. إنه مشهد تطابق الوعد مع الواقع، وكأنهم يرون ما سمعوه من قبل رأي العين.

{التي أورثتموها}: الإرث الإلهي - استحقاق النعيم

وهنا - يا رعاك الله - نصل إلى جوهر الآية ولها: {التي أورثتموها}.

{التي}: اسم موصول. صفة للجنة، تزيدها تعريقًا وتخصيصًا: إنها الجنة التي أورثتموها.

{أورثتموها}: فعل ماض مبني للمجهول. "أورث" أي جعلت لكم ميراثًا. والميراث في لغة العرب: ما ينتقل إلى الإنسان بسبب شرعي، فيستحقه استحقاقًا لا ينازعه فيه أحد.

فلماذا سمى الله الجنة "ميراثًا"؟

1. لأنها جزاء مستحق: فهي ليست عطية بلا سبب، بل هي جزاء على عمل.
2. لأنها دائمة لا تنتزع: الميراث - في الأصل - باق في يد الوارث لا ينتزع منه. والجنة كذلك لا يخرجون منها أبدًا.
3. لأن المؤمنين ورثوا الجنة التي كانت معدة لهم: كما يرث الابن مال أبيه. فالله تعالى أعدها لهم، وجعلهم وارثيها.

{بما كنتم تعملون}: سبب الإرث - العمل الصالح

{بما}: الباء للسببية. أي كان عملكم هو السبب في هذا الإرث. وهذا من عدل الله: لا يدخل الجنة أحد بعمله فقط) إذ لولا رحمة الله ما نجا أحد، ولكن الله برحمته يجعل العمل سببًا للنجاة.

{كنتم تعملون}: "كان" تفيد الاستمرار في الماضي. أي أنكم دأبتم على العمل الصالح في الدنيا، واستمررت عليه، وثبتم عليه حتى الممات. لم يكن عملاً عارضًا، بل كان سجية وعادة.

"تعملون": العمل يشمل كل أعمال الجوارح والقلوب: إيمانًا بالله، وصلاة، وصيامًا، وزكاة، وحجًا، وبرًا، وصدقًا، وأمانة، وجهادًا للنفس وللعدو. كل ما عملتموه في الدنيا من خير، ها هو يتحول الآن إلى جنة!

دحض منطق الأمانى والانتساب:

هذه الآية تقطع الطريق على من يظنون أنهم سيدخلون الجنة بأمانيتهم، أو بأنسابهم، أو بانتمائهم. لقد قال اليهود والنصارى: {لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ}. وقال المشركون: {تَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا تَحْنُ بِمُعْتَبِينَ}. فردت عليهم هذه الآية: الجنة {بما كنتم تعملون}، لا بما تتمنون ولا بما تنتسبون.

وهذا هو منطق القرآن كله: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}.

مثال تقريبي:

تخيلوا طالبين في جامعة: أحدهما قضى سنين الدراسة جادًا مجتهدًا، يسهر الليالي على الكتب، ويحضر المحاضرات، ويؤدي الامتحانات. والثاني قضى سنينه لهوًا وغفلة، وهو يقول: "أنا ابن البروفسور فلان! سأنجح حتمًا!". يأتي يوم التخرج، فيمنح الأول الشهادة بامتياز، ويقال له: "هذه شهادتك بما كنت تعمل!". أما الثاني، فلا ينفعه انتسابه ولا اسم والده. هذا هو الفرق بين أهل الجنة وأهل الأمانى في الدنيا.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: النجاة بالعمل لا بالأمانى
الآية ترسخ مبدأ المسؤولية الفردية: كل إنسان مسؤول عن عمله. لا يغني أحد عن أحد شيئًا. والجنة لا تنال بالحسب والنسب، بل بالإيمان والعمل الصالح.

الرسالة النفسية: الشعور بالاستحقاق يضاعف الفرحة
حين يقال للمؤمن في الجنة: {بما كنتم تعملون}، يشعر أن ما هو فيه ليس مجرد تفضل، بل هو ثمرة جهده وصبره. وهذا الشعور يضاعف الفرحة، ويجعل النعيم لذيذًا مضاعفًا.

الرسالة التربوية: ربّ أبناءك على منطق العمل لا منطق الأمانى
لا تربى أبناءك على الاتكال على أنسابهم أو أموالهم. قل لهم: "الجنة لا تشتري إلا بالعمل. نعم، رحمة الله واسعة، ولكن الرحمة تكون للمتقين العاملين. فاعملوا!".

المحور الثاني

{لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ}

عودة إلى وصف النعيم... الكثرة والسهولة والتلذذ

غوص في معنى {لَكُمْ}: الاختصاص والتملك

بعد أن بين لهم سبب استحقاقهم للجنة، يعود الوصف إلى تفصيل نعيمها. يبدأ بـ {لَكُمْ}.

{لَكُمْ}: اللام للملك والاختصاص. أي هذه الفاكهة ملك لكم، خاصة بكم، لا يشارككم فيها أحد، ولا تنقص من أحد. ليست فاكهة عامة مشتركة، بل هي هبة خاصة لكل واحد منكم.

{فِيهَا}: في الجنة - الاستقرار والتمكن

{فِيهَا} أي في الجنة. وهذا يفيد أن الفاكهة موجودة في داخل الجنة، في متناول أيديهم، ليست بعيدة ولا محجوبة. وهم مستقرون في الجنة، لا يخرجون منها، فتكون فاكهتها دائماً بين أيديهم.

{فَاكِهَةٌ}: النعمة اللذيذة المتنوعة

{فَاكِهَةٌ}: اسم جنس، يشمل كل ما يتفكه به، أي يتلذذ بأكله من غير قصد التغذية أو الشبع) كالعنب و الرمان والتفاح والموز وكل ما عُذَّ من الفواكه. (والفاكهة في الجنة ليست كفاكهة الدنيا في طعمها ولا رائحتها ولا منظرها). كلما رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا.

{كَثِيرَةٌ}: وصف الكثرة - لا محدودية النعيم

{كَثِيرَةٌ}: نكرة للتفخيم والتعظيم. إنها كثيرة كما ونوعاً. ليست فاكهة واحدة ولا نوعين، بل أنواع كثيرة جداً. والكثرة هنا لا تنقطع: كلما أكلوا منها، جددت وأتي بمثلها، فلا تنقص ولا تنفذ. وفاكهة كثيرة. لا مقطوعة ولا ممنوعة.

فالكَم هائل لا يحصى، والكيف عظيم لا يوصف، والدوام أبدي لا ينقطع. إنها كثرة من كل وجه.

{مِنْهَا تَأْكُلُونَ}: الإذن بالتمتع والاختيار

وهنا - يا رعاك الله - نصل إلى دقة قرآنية بديعة: {مِنْهَا تَأْكُلُونَ}.

{مِنْهَا}: "من" للتبعية. أي تأكلون منها، بعضها، ما تشاؤون. ليس مطلوباً منكم أن تأكلوا كل شيء، بل تختارون ما شئتم، وتركون ما شئتم، وتأكلون كيفما شئتم.

وهذا على النقيض من حال الفقراء في الدنيا، الذين لا يجدون إلا القليل، فيضطرون لأكله كله كما هو. أما في الجنة، فأنت مخير: تأكل من هذا النوع، وتترك هذا النوع، ثم تعود إليه متى شئت. إنه نعيم الاختيار والحرية في التمتع.

{تَأْكُلُونَ}: فعل مضارع يفيد التجدد والاستمرار. الأكل متجدد، لا يتوقف. وليس الأكل للجوع، بل للتذاز والتفكه.

دلالة ذكر الفاكهة دون غيرها:

لماذا خصت الفاكهة بالذكر هنا؟ لأن الفاكهة هي رمز النعيم الزائد، النعيم الذي ليس ضرورة، بل هو زيادة ورغد. فالبخبز واللحم قد يكونان للشبع والضرورة. أما الفاكهة، فهي للذة والتفكه. فذكرها هنا يشعر بأن نعيم الجنة ليس مجرد كفاف أو ضرورة، بل هو زيادة وفضل ورغد لا حد له.

مثال تقريبي:

تخيلوا فقيراً مشرداً، يدخل إلى حديقة غناء، فيقال له: "كل هذه الفاكهة لك!". يمشي بين الأشجار المثقلة بالغمار، يقطف من هذا، ويأكل من ذاك، ويترك ما لا يشتهي. لا أحد يمنعه، ولا أحد يحاسبه. هذا - والله - ظل يسير من ظلال الجنة.

المحور الثالث

الترابط بين الآيتين: بناء متكامل للترغيب والترهيب

تأمل - يا رعاك الله - كيف انتظمت الآيتان في بناء بديع:

الآية (72): ربطت النعيم بالعمل، لتحفز على العمل في الدنيا، وتغلق باب الاتكال على الأمانى. إنها جانب "الترهيب من التقصير"، أو "التحذير من ترك العمل".

الآية (73): عادت إلى وصف النعيم، لكن بنبذة التمليك والاختصاص: {لكم}، {منها تأكلون}. إنها جانب "الترغيب" الذي يفتح الشهية للعمل.

فجاءت الآيتان معًا لتشكلا توليفة متكاملة: اعمل (لترغيب في هذا النعيم)، واعمل (لأن النعيم لا ينال إلا بالعمل). خوف ورجاء، ترغيب وترهيب، تشويق وتحذير.

المحور الرابع

الأبعاد والأفاق من الآيات: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد الأول: البعد العقدي - الإيمان بالجزاء العادل
الآيات ترسخ عقيدة أن الله عادل، لا يظلم أحدًا. فما يدخل أحد الجنة بأمانيه، بل بعمله. هذا العدل إلهي يريح النفس، ويجعلها تثق بالله.

البعد الثاني: البعد النفسي - أثر اليقين بالجزاء على السلوك
حين يستقر في نفس المؤمن أن ما يفعله من خير سيراه جزاءً في الجنة، فإنه يندفع إلى العمل بقوة ونشاط، ويصبر على مشاقه، لأنه يرى الثمرة أمام عينيه.

البعد الثالث: البعد التربوي - ربط الأبناء بالعمل للأخرة
الآيات تقدم منهجًا تربويًا: ربط الأبناء بالجنة عبر وصفها، ثم حثهم على العمل للوصول إليها. هذا يغرس فيهم الإيجابية والفاعلية.

البعد الرابع: البعد الاجتماعي - نقد الاتكال على الأنساب في المجتمعات
الآيات توجه نقدًا ضمنيًا للمجتمعات التي تقدر الأنساب والأحساب، وتجعلها سببًا للنجاة. إن الإسلام لا يعرف هذه الامتيازات، بل الكل أمام الله سواء، والعمل هو الفيصل.

البعد الخامس: البعد الاقتصادي - تصحيح النظرة إلى الرزق
وصف فاكهة الجنة بالكرة يطرح مقارنة مع شح الدنيا وقلتها. هذا يربي في المؤمن الزهد في الدنيا، والرضا بقسمته فيها، لأنه يعلم أن ما ينتظره أعظم.

المحور الخامس

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً: العمل لا الأمانى
في عصر كثرت فيه أحلام اليقظة، وصار الناس يعيشون في الخيالات ويخططون دون عمل، تدعونا الآية إلى العمل الجاد. الجنة لا تشتري بالأمانى.

ثانيًا: تصحيح مفهوم "النجاة"
الكثيرون اليوم يظنون أنهم سينجون لأنهم ولدوا مسلمين، أو لأن آبائهم مسلمون. الآية تقول لهم: {بما كنتم تعملون}. الإسلام لا ينفع إلا أن يكون إيمانًا وعملاً.

ثالثًا: مواجهة ثقافة "الاستحقاق بلا عمل"
الجنة لا تعطى بلا استحقاق. هذه الآية تنسف منطق "أنا أستحق كل شيء لمجرد أنني موجود". لا! لا بد من العمل.

رابعًا: التحفيز على الطاعة عبر استحضار الجنة
استحضر مشهد الجنة وأنت تعمل. تذكر فاكهتها الكثيرة وأنت تصوم. تذكر أنها {بما كنتم تعملون} فتحفز للمزيد من العمل.

المحور السادس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: الجنة جزاء لا مئة بلا سبب
الآيات ترسخ مفهوماً فكرياً: الجنة ليست مئة مجانية بلا مقابل، بل هي جزاء عادل من الله، جعل العمل سبباً لها، ورحمته هي التي تكلل هذا العمل بالقبول.

المفهوم النفسي: الشعور بالاستحقاق يضاعف السعادة
من يعرف أنه تعب وصبر وسهر، ثم يجد الجزاء، تكون فرحته أشد ممن أُعطي بلا تعب. هذا قانون نفسي، والله يطبقه في الجنة ليكمل سعادة المؤمنين.

المفهوم التربوي: غرس ثقافة "العمل" في النشء
التربية القرآنية تربينا على أن لا شيء يأتي بلا عمل. حتى الجنة، لا بد لها من عمل. فليترب أبناءنا على هذا المنطق: التعب اليوم، والراحة غداً.

المفهوم الاجتماعي: نقد منطق "ابن فلان" في التقديم
المجتمعات التي تقدر الناس بأنسابهم لا بأعمالهم، هي مجتمعات منحرفة عن المنطق القرآني. {بما كنتم تعملون} هو المعيار.

المحور السابع

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: العمل الصالح
يريدنا الله أن نعمل، لا أن نتمنى. يريدنا أن نملأ صحائفنا بالحسنات، كما ملأ المتقون صحائفهم.

الإرادة الثانية: الإخلاص في العمل
يريدنا أن نعمل لله، لا رياء ولا سمعة. فالعمل الذي يورث الجنة هو ما كان خالصاً لله.

الإرادة الثالثة: استحضار الجنة عند العمل
يريدنا أن نستحضر هذه الآية ونحن نعمل. يقول لنا: "تذكروا {تلك الجنة} وأنتم تتعبون، فيهون عليكم التعب".

الإرادة الرابعة: تصحيح النية في طلب الجنة
يريدنا أن نطلب الجنة، وأن نجعلها غايتنا. ولكن لا نطلبها بأمانينا، بل بعملنا.

المحور الثامن

تحويل مفاهيم الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

المسار الأول: بناء الإنسان العامل، لا المتمني
الآيات تبني إنساناً جاداً، لا يعيش على الأمان، بل يعمل ويجتهد، ويحول أحلامه إلى واقع بالعمل المتواصل.

التطبيق العملي:

- اكتب قائمة بأعمال صالحة تريد أن تفعلها اليوم. ولا تنم قبل أن تفعلها.
- استحضر وأنت تعمل أن هذا العمل سيكون جزءاً من إرثك للجنة.
- مثال تقريبي: شاب يجد مشقة في صلاة الفجر. يقرأ {بما كنتم تعملون}، فيقول: "هذا العمل هو الذي سأفرح به في الجنة!". فيقوم للصلاة بنشاط.

المسار الثاني: بناء المجتمع القائم على معيارية العمل لا النسب
الآيات تبني مجتمعاً يقدر الناس بأعمالهم وإخلاصهم، لا بأنسابهم وأموالهم.

التطبيق العملي:

. في عملك أو مسجداً، قدم من هو أكثر عملاً وإخلاصاً، لا من هو أعلى نسباً.
. مثال تقريبي: مدير يعين موظفاً فقيراً متفانياً في العمل، بدل قريب غني كسول، لأن الجنة بما كنتم تعملون، لا بأنسابكم.

المسار الثالث: بناء الحضارة بالإيجابية والفاعلية
الحضارة الإسلامية قامت على العمل، لا على الأمان. {وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}. هذا شعار الحضاري هو طاقة بناء.

التطبيق العملي:

. شارك في مشاريع تنموية ودعوية. لا تكتفِ بالتمني، بل كن فاعلاً.
. مثال تقريبي: شاب يرى الفقر في حيه، فيبدأ مشروعاً خيرياً لإطعام المساكين. يقول: "أريد أن يكون هذا العمل مما أورث به الجنة".

خاتمة: ماذا أعددت من العمل لهذا الإرث؟

أيها القارئ الكريم...

لقد جلسنا مع هاتين الآيتين الكريمتين اللتين ربطتا النعيم بالعمل، ووصفتا فاكهة الجنة بالكرّة و السهولة. سمعنا الله يقول: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}.

والآن أسألك بصدق:

. ماذا عملت اليوم ليكتب في صحيفة أنك تستحق هذه الجنة؟
. هل تعيش على أمان النجاة، أم أنك تبني رصيدك بالعمل الصالح؟
. إذا قيل لك الآن: "هذه الجنة أورثتها بما كنت تعمل"، ماذا ستقدم من أعمال؟
. هل ستجعل هذه الآية وقوداً لك في طاعتك، وفي صبرك عن المعصية؟

أجب عن هذه الأسئلة بصمت... ثم اعمل.

القسم الثالث

المبحث الأول

تفسير الآيات (74-75-76) من سورة الزخرف

تقدمة لا بد منها: موقع الآيات من السياق ومن مشهد العدالة الإلهية بعد بيان النعيم

قف معي - يا رعاك الله - وقفة من أدرك أن القرآن العظيم كتاب توازن وعدل، يذكر الجنة وأهلها فيذكر معها النار وأهلها، ليكتمل بناء التصور الإيماني، ولتستقيم النفس على الخوف والرجاء.

لقد وقفنا في الآيات السابقة (70-73) أمام مشاهد النعيم المقيم: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ}، ورأينا صحاف الذهب وأكوابه، وسمعنا الوعد الجامع: {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ}، وقرأنا قانون الجزاء: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}. لقد امتلأت النفس بتلك المشاهد شوقاً وترغيباً.

وهنا - بعد أن اكتملت صورة أهل الجنة - يأتي المشهد المقابل، مشهد العدالة الإلهية في الطرف الآخر. إنه مشهد {المُجْرِمِينَ}. وكلمة "المجرمين" هنا ليست كلمة عابرة، بل هي مفتاح الآيات ولبها. إنها توجه ذهن السامع فوراً إلى عالم الجريمة والعقاب، إلى أسباب الإجرام ونتائجه.

فحين تسمع كلمة "مجرم"، ماذا يتبادر إلى ذهنك؟ يتبادر إليه إنسان ارتكب جريمة. والجريمة تستوجب العقاب. ولهذا نجد أن القوانين الأرضية تربط بين "قانون الجرائم" و"قانون العقوبات" ارتباطاً وثيقاً لا ينفصم. فالجريمة بلا عقاب هي تشجيع على الإجرام، والعقاب بلا جريمة هو ظلم. والقرآن - وهو كلام العدل الأعلى - يقرن بين الجريمة وعقابها في هذه الآيات.

ولكن ما هي الجريمة العظمى التي استوجبت هذا العذاب؟ إنها ليست مجرد سرقة أو قتل، بل هي أم الجرائم وأصلها: الكفر بالله، والجحود بآياته، والكبر عليه، والادعاء بما ليس للإنسان أن يدعيه. إنها جريمة الاعتداء على حق الله في الكبرياء والعظمة، {فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا}. المتكبرون والمغرورون

اغتصبوا صفة لا يملكها إلا الله، فكان هذا هو الإجرام الأكبر.

وهي جريمة الإفساد في الأرض، حيث شرع المجرمون لأنفسهم نظامًا مضادًا لنظام الخالق الذي يحكم السماوات والأرض. إنهم نقضوا العهد الذي أبرم مع آدم حين استخلفه الله في الأرض لعمارتها بـ التوحيد والطاعة، فأنحرفوا إلى الشرك والفساد.

وهي جريمة بحق أنفسهم، حيث عطلوا مداركهم، وأفسدوا فطرتهم، وجعلوا أجسادهم تنمو من الحرام، فصاروا كالبهائم، بل هم أضل.

فإذا فهمت هذا، فهمت لماذا كان جزاؤهم: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ}. ثم تفصل الآيات وصف هذا العذاب: إنه عذاب دائم لا ينقطع، لا يفتر عنهم ولو لحظة، وهم فيه يائسون قانطون لا أمل لهم في خلاص.

ثم تختتم الآيات ببيان أن هذا العذاب ليس ظلمًا من الله، بل هو عدل محض: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ}. هم الذين ظلموا أنفسهم، هم الذين أوردوها موارد الهلاك، هم الذين اختاروا هذا المصير بأعمالهم. والله أرسل الرسل وأنزل الكتب رحمة بهم، لكنهم أبوا واستكبروا.

وهكذا تكتمل الصورة: الجنة والنار هما تجسيد لأعمالنا. نحن الذين نضع مصيرنا بأيدينا. فمن أطاع الله سعد، ومن عصاه شقي. {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}. المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها والقضايا التي تناقشها

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيات الكريمة:

1. بيان مصير المجرمين: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ}.
2. تأكيد دوام العذاب وعدم انقطاعه: {لَا يُقْتَرُ عَنْهُمْ}.
3. وصف حالة اليأس والقنوط: {وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ}.
4. إعلان العدالة الإلهية: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ}.
5. بيان أنهم مصدر الظلم لأنفسهم: لا ينسب الظلم إلى الله أبدًا.

مقاصد الآيات وأهدافها:

1. تخويف المؤمنين من ارتكاب الجرائم التي تؤدي إلى هذا المصير.
2. بيان خطورة الكفر والكبر والفساد واعتبارها أكبر الجرائم.
3. ترسيخ عقيدة العدل الإلهي وأن الله لا يظلم أحداً.
4. دفع المؤمن إلى مراجعة نفسه لئلا يكون من المجرمين.
5. مواساة المظلومين ببيان مصير الظالمين المجرمين.

القضايا الكبرى التي تناقشها الآيات:

القضية الأولى: من هم المجرمون؟ وما هي جرائمهم الكبرى؟
الآيات تثير سؤالاً مركزياً: من هم {المُجْرِمِينَ}؟ والجواب يتسع ليشمل كل من ارتكب جريمة في حق الله أو في حق النفس أو في حق الخلق. لكن الجريمة الكبرى هي الكفر والجحود، لأنها ظلم للحق، وظلم للنفس، واعتداء على مقام الربوبية، وانتحال لصفات الكبرياء والعظمة التي لا يملكها إلا الله.

القضية الثانية: الربط الوثيق بين الجريمة والعقاب
كما في القوانين الأرضية، حيث يوضع "قانون الجرائم" ويليه "قانون العقوبات"، فإن القرآن يقرن بين ذكر المجرمين وذكر عقابهم. الجريمة بلا عقاب تشجيع على الإجرام، والعقاب بلا جريمة ظلم. والله العدل يبين لنا الجريمة (الكفر، الكبر، الفساد) ثم يبين العقاب (عذاب جهنم خالدون).

القضية الثالثة: عدالة الله المطلقة في عقاب المجرمين
{وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ} هو إعلان قاطع بأن الله لا يظلم مثقال ذرة. هم الذين ظلموا أنفسهم، وأوردوها موارد الهلاك، بعد أن أرسل الله إليهم الرسل وأنزل الكتب.

القضية الرابعة: الجنة والنار تجسيدان لأعمالنا
الآيات تشير إلى أن المصير الأخروي هو صورة لأعمال الإنسان في الدنيا. الجنة هي تجسيد للإيمان و

العمل الصالح، والنار هي تجسيد للكفر والإجرام. الإنسان هو الذي يصنع مصيره بيده.
المحور الأول

{إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ}

من هم المجرمون؟ وما الذي يتبادر إلى الذهن عند سماع هذه الكلمة؟

غوص في معنى {إِنَّ}: التوكيد القاطع للمصير

دعني - يا رعاك الله - أقف بك عند فاتحة هذه الآية: {إِنَّ}.

{إِنَّ}: حرف توكيد ونصب. إنها تؤكد الخبر وتثبتته. الله يؤكد هذا الخبر تأكيداً قاطعاً. ليس "لعل المجرمين"، ولا "ربما المجرمين"، بل {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ} يقيناً وحنماً. هذا التأكيد يهز القلب ويوقظه من غفلته.

{الْمُجْرِمِينَ}: من هم؟ وماذا تعني هذه الكلمة؟

وهنا - يا رعاك الله - نصل إلى الكلمة المركزية في الآيات كلها: {الْمُجْرِمِينَ}. دعني أقف معك طويلاً عند هذه الكلمة، لنفهم أبعادها ودلالاتها.

أولاً: المعنى اللغوي:

"المجرم" في اللغة: هو مرتكب الجرم. والجرم: هو الذنب أو الجناية أو الإثم. والإجرام: هو ارتكاب الجريمة. وكل جريمة هي اعتداء على حق، أو خرق لنظام، أو تجاوز لحد.

وقد يظن البعض أن كلمة "مجرم" تقتصر في القرآن على القتل والسارقين، لكن الحقيقة أن الكلمة أوسع من ذلك بكثير. إنها تشمل كل من ارتكب جريمة، وأعظم الجرائم على الإطلاق هي جرائم الكفر والشرك والظلم والظغيان.

ثانياً: ماذا يتبادر إلى ذهن السامع عندما يسمع كلمة "المجرمين"؟

حين تسمع كلمة "مجرم"، يتبادر إلى ذهنك فوراً ثلاثة أمور:

1. أن هنالك جريمة قد ارتكبت: فلا يُسمى أحد مجرماً دون فعل إجرامي.
2. أن هذه الجريمة تستوجب عقاباً: فلا جريمة بلا عقاب في المنطق السليم.
3. أن هنالك سلطة قضائية ستنفذ العقاب: فالاعتداء لا بد أن يقابله جزاء.

ولهذا نجد أن القوانين الأرضية حين تُسنّ، فإنها تسنّ "قانون الجرائم" و"قانون العقوبات" معاً، في تقنين واحد، لارتباطهما الوثيق. وكذلك يفعل القرآن: يذكر المجرمين، ثم يذكر عقابهم فوراً: {فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ}.

ثالثاً: من هم المجرمون في سياق القرآن عامة وسورة الزخرف خاصة؟

المجرمون في القرآن هم:

1. الكافرون بالله: {وَكَذَلِكَ تَجْزِي الْمُجْرِمِينَ}.
2. المشركون: الذين أشركوا بالله غيره، واتخذوا آلهة من دونه.
3. المستكبرون: الذين اغتصبوا صفة الكبرياء والعظمة لله وحده.
4. الظالمون لأنفسهم: الذين عطّلوا مداركهم، وأفسدوا فطرتهم.
5. المكذبون بالرسول: الذين كذبوا الرسول بعد أن قامت عليهم الحجة.
6. المفسدون في الأرض: الذين خالفوا نظام الله، وشرّعوا لأنفسهم ما يخالف شرعه.

وهؤلاء كلهم تتوفر فيهم صفة "الإجرام" بمعناه الواسع.

رابعاً: أعظم الجرائم التي ارتكبتها المجرمون:

الجريمة الأولى: الكفر والجحود - ظلم الحق وظلم العباد
الكفر ليس مجرد رأي فكري، بل هو أكبر جريمة في الوجود. إنه ظلم للحق، لأن الحق يريد أن يُعرف ويُعبد ويُشكر، والكافر يحجب هذا الحق. وهو ظلم للعباد، لأن الكافر بجحوده يفتح باب الضلال لغيره.

الجريمة الثانية: انتحال صفات الكبرياء والعظمة
الكبر والعظمة والعزة هي صفات لا يملكها إلا الله وحده. فهو سبحانه {الْمُتَكَبِّرُ}، وهو {الْعَزِيزُ}. ومن اغتصب هذه الصفات لنفسه فقد ارتكب جريمة عظيمة. إن الكبر لم يُسمح به لأحد، لا للأنبياء ولا للآلئاء ولا للملائكة. فالأنبياء كانوا أشد الناس تواضعاً لله. والمتكبرون والمغرورون اعتدوا على حق لا يملكه إلا الله، فهذه هي الجريمة التي لا تغتفر إلا بتوبة.

الجريمة الثالثة: الإفساد في الأرض - نقض العهد الإلهي
هؤلاء المجرمون شرّعوا لأنفسهم نظاماً مضاداً لنظام الخالق الذي يحكم السماوات والأرض. لقد أمرنا الله أن ننقاد له: {الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ}. أما هؤلاء المجرمون، فقد اعتدوا على شريعة الله الذي له الملك والتصرف وتدير أمور الخليقة. لقد نقضوا العهد الذي أبرم مع آدم حين منحه الله حق خلافة الأرض وعمارتها. فالغاية من خلقهم هي عبادة الله: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}. فلما انحرفوا عن التوحيد إلى الشرك، كان هذا إفساداً للغاية والمقصود من خلقهم.

الجريمة الرابعة: إفساد الأجساد والنفوس
المجرمون أفسدوا أجسادهم بأن جعلوها تنمو من الحرام، وأفسدوا نفوسهم بأن جعلوا الحب والإرادة تنصرف حسب ما تشتهي، فصاروا مثل البهائم، بل هم أضل: {أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ}.

الجريمة الخامسة: الجريمة بحق النفس - تعطيل المدارك
هؤلاء المجرمون ارتكبوا جريمة بحق أنفسهم حين عطّلوا مداركهم، وخرجوا عن الغاية التي خلقوا من أجلها. لقد وهبهم الله عقولاً ليهدوا بها، وقلوباً ليعقلوا بها، فأبوا إلا أن يعطّلوا هذه النعم، ويستعملوها في غير ما خلقت له. وهذا هو الظلم الأكبر للنفس.

الجريمة السادسة: تحدي الخالق
كل هذه الجرائم تجتمع في جريمة واحدة: تحدي الخالق، والتمرد عليه، ورفض الانقياد له. وهذا هو الإجرام في أقصى صورته.

{فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ}: بيان العقاب ومكانه

بعد أن بين الله من هم المجرمون، بين عقابهم: {فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ}.

{فِي}: للظرفية. إنهم غارقون في العذاب، محاطون به من كل جانب، كما يغرق الغريق في الماء.

{عَذَابِ}: التنكير للتفخيم والتعظيم. عذاب لا يوصف.

{جَهَنَّمَ}: اسم علم لدار العذاب. وهي مشتقة من "الجهومة" وهي الغلظ والعبوسة. فهي دار غليظة عبوسة، لا راحة فيها ولا نعيم.

{خَالِدُونَ}: دوام العذاب وأبديته

{خَالِدُونَ}: اسم فاعل من الخلود، وهو البقاء الدائم. وهذا هو الخبر الذي تؤكده "إن". إنهم خالدون في هذا العذاب، لا يموتون ولا يخرجون. إنها الأبدية في العذاب، كما أن المتقين في الأبدية في النعيم.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: الجريمة الكبرى هي الكفر والطغيان
الآية توسع مفهوم الإجرام ليشمل الكفر والشرك والكبر والطغيان. فليس المجرم فقط من سرق أو قتل، بل المجرم الأكبر هو من اعتدى على حق الله.

الرسالة النفسية: الشعور بالخوف من وصف "مجرم"
حين تسمع كلمة "مجرم"، ينبغي أن تراجع نفسك: هل أنا مجرم في شيء من أفعالي؟ هل في قلبي

كبر أو غرور هو من صفات المجرمين؟

الرسالة التربوية: علم أبناءك أن أعظم الجرائم هي الكفر والكبر لا تقتصر في تربية أبنائك على تحذيرهم من السرقة والكذب فقط. بل علمهم أن أعظم جريمة هي الكفر بالله، والكبر على الحق، وازدراء عباد الله.
المحور الثاني

{لَا يُقْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ}

شدة العذاب ودوامه... واليأس المطلق من الخلاص

غوص في معنى {لَا يُقْتَرُ عَنْهُمْ}: العذاب الذي لا يهدأ ولا يبرد

بعد أن بين الله أن المجرمين خالدون في العذاب، يأتي مزيد من التفصيل لشدة هذا العذاب: {لَا يُقْتَرُ عَنْهُمْ}.

{لَا}: نافية: {يُقْتَرُ}: فعل مبني للمجهول. والتفتر: هو التخفيف والتهدة. يقال: فتر الشيء يفتر فتورًا، أي سكن بعد حدة، ولأن بعد شدة. ومنه: فتر الماء الحار إذا صار فاترًا لا باردًا ولا ساخنًا.

فالمعنى: {لَا يُقْتَرُ عَنْهُمْ} أي لا يخفف عنهم العذاب ولا لحظة واحدة. لا يهدأ لهيب النار عنهم، ولا يبرد ، ولا يسكن. العذاب في غليانه الدائم، وشدته المستمرة.

وقد ورد في القرآن الكريم: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ}. فيأتيهم الجواب: {أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ}. أي لا تخفيف، لقد حقت عليكم كلمة العذاب.

مثال تقريبي:

تأمل إنسانًا يعاني من حمى شديدة، ويسأل الطبيب: "متى تخف الحمى؟". فيقول الطبيب: "إنها لن تخف أبدًا!". هذا قليل من كثير مما يعانيه أهل النار من عذاب لا يفتر.

{وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ}: اليأس المطلق والقنوط الدائم

ثم يأتي وصف أشد على النفس من العذاب الحسي: {وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ}.

{مُبْلِسُونَ}: اسم فاعل من "أبلس". والإبلاس: هو اليأس والقنوط الشديد، مع الحزن والصمت والانكسار . إنها حالة نفسية مدمرة: يفقد الإنسان فيها كل أمل، وينقطع رجاؤه من كل خير. لا أمل في الخروج، لا أمل في التخفيف، لا أمل في شفاعة، لا أمل في رحمة. إنه اليأس المطلق الذي لا يرجى معه فرج.

وتأمل: {وَهُمْ فِيهِ} أي في العذاب. فهم غارقون في العذاب الحسي، وفي الوقت نفسه غارقون في العذاب النفسي (الإبلاس). فالعذاب شامل للروح والجسد.

الفرق بين هذا ومشهد المتقين:

في الآيات السابقة، رأينا المتقين: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ}. الحبرة: فرح وكرامة وإشراق وجه. وهنا المجرمون: {مُبْلِسُونَ}: يائسون قانطون مكسورون. إنهما طرفا نقيض، جزاء عادل من الله.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: العذاب النفسي أشد من العذاب الحسي أحيانًا
الإبلاس - وهو اليأس والقنوط - هو عذاب نفسي قد يكون أشد من العذاب الجسدي. فققدان الأمل يميئ الروح قبل الجسد.

الرسالة النفسية: الخوف من الإبلاس يدفع للعمل
حين تعلم أن المجرمين في النار {مُبْلِسُونَ}، يدفعك هذا إلى العمل للنجاة من هذا المصير، وإلى الاستبشار برحمة الله للمؤمنين.

الرسالة التربوية: لا تقنط أبناءك من رحمة الله، ولكن خوفهم من عذابه
التوازن بين الخوف والرجاء هو المنهج القرآني. علم أبناءك رحمة الله وسعته، ولكن حذرهم - بقدر
ما يحتملون - من عذابه، ليكونوا بين الخوف والرجاء.
المحور الثالث

{وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ}

إعلان العدالة الإلهية المطلقة... لا يُنسب الظلم إلى الله أبداً

غوص في معنى {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ}: نفي الظلم عن الله نفيًا مطلقًا

بعد أن وصف الله مصير المجرمين، يأتي البيان الجليل الذي يدفع كل وهم قد يخطر ببال سامع: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ}.

{وَمَا}: الواو للعطف أو للاستئناف، و"ما" نافية. {ظَلَمْنَاهُمْ}: الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، أو
نقص الحق، أو معاقبة البريء بلا ذنب. والله ينفي عن نفسه الظلم نفيًا مطلقًا. ما ظلمهم إذ عاقبهم،
وما نقصهم حقًا، وما عاقبهم بلا سبب.

إنه إعلان قرآني يتكرر: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}. {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ}. {وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا
لِّلْعَالَمِينَ}.

{وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ}: هم مصدر الظلم لأنفسهم

ثم يأتي الاستدراك: {وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ}.

{وَلَكِنْ}: للاستدراك. أي ليس الأمر أننا ظلمناهم، بل هم الذين ظلموا أنفسهم.

{كَانُوا}: فعل ماض يفيد الاستمرار. أي داموا على الظلم، وظلوا عليه حتى ماتوا.

{هُمْ}: ضمير فصل يفيد التوكيد والقصر. أي هم بأنفسهم، لا غيرهم، هم مصدر الظلم.

{الظَّالِمِينَ}: اسم فاعل. أي هم الذين وضعوا الشيء في غير موضعه، حيث جعلوا العبادة لغير الله،
وجعلوا الكبر في أنفسهم وهي لا تملكه، وجعلوا الفساد في الأرض مكان الإصلاح.

كيف ظلم المجرمون أنفسهم؟

1. بشركهم وكفرهم: جعلوا العبادة التي هي حق لله وحده، لغير الله. وهذا هو أشنع الظلم. {إِنَّ الشِّرْكَ
لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}.

2. بتعطيل مداركهم: وهبهم الله عقلاً ليبتدوا، فعطلوه.

3. بإفساد فطرتهم: خلقهم الله على الفطرة السليمة، فأفسدوها بالمعاصي.

4. بإيراد أنفسهم موارد الهلاك: أرسلت إليهم الرسل وأنزلت الكتب، فكذبوا وعصوا.

5. باعتدائهم على حق الله: الكبر والعظمة والكبرياء صفات لا تنبغي إلا لله، فاغتصبوها.

ظلمهم لأنفسهم هو ظلمهم للحق:

إنهم في ظلمهم لأنفسهم قد ظلموا الحق الإلهي الذي يستحق أن يعرف ويعبد. لقد حجبوا هذا الحق
عن أنفسهم وعن غيرهم.

الرابط بين هذه الآية وسورة البقرة:

في سورة البقرة، يقول الله تعالى: {كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ
النَّارِ}. الكافر في هذا الموقف - حين يرى العذاب - يندم أشد الندم، لأنه يرى أن أعماله التي كان
يظنها خيرًا صارت حسرات عليه. فالكافر يظلم نفسه، ويرى ظلمه هذا رأي العين يوم القيامة.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: الله لا يظلم أحداً، والعباد يظلمون أنفسهم
هذه عقيدة أساسية: الله عادل مطلق، ولا ينسب إليه ظلم. وما يصيب الإنسان من عذاب، فهو نتيجة لظلمه لنفسه.

الرسالة النفسية: تحمل مسؤولية أفعالك
الآية تدعوك إلى أن تتحمل مسؤولية أخطائك. لا تقل: "هذا قدر"، أو "الشيطان أضلني". بل اعترف بظلمك لنفسك وتب.

الرسالة التربوية: علم أبناءك أن الظالم لا يفلح
ربّ أبناءك على أن الظلم - ولو للنفس - يؤدي إلى الهلاك. وأن العدل هو أساس الملك، وأن الله عادل يحب العادلين.
المحور الرابع

دلالة الجمع بين هذه الآيات الثلاث: من الجريمة إلى العقاب إلى العدالة
تأمل - يا رعاك الله - كيف انتظمت الآيات الثلاث في بناء متكامل، يربط بين الجريمة والعقاب و العدالة:

الآية (74): تذكر المجرمين ومصيرهم: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ}. إنها بيان للجريمة (الإجرام) والعقاب (جهنم خالدون).

الآية (75): تفصل وصف العذاب: {لَا يُقْتَرُونَ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ}. إنها بيان لشدة العقاب ودوامه.
الآية (76): تعلن العدالة: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ}. إنها بيان لسبب العقاب، وهو ظلمهم لأنفسهم.

وهكذا يكتمل المثلث: جريمة - عقاب - عدالة. كما في القوانين الأرضية: قانون الجرائم يحدد الجريمة، وقانون العقوبات يحدد العقاب، والمحكمة تعلن أن الحكم عادل.
المحور الخامس

علاقة هذه الآيات بالآيات السابقة: مشهد المتقين ومشهد المجرمين
لاحظ - يا رعاك الله - أن الآيات السابقة (68-73) تحدثت عن أهل الجنة، وهذه الآيات (74-76) تحدثت عن أهل النار. وهذا هو المنهج القرآني: يذكر الترغيب مع التهيب، والجنة مع النار، ليعيش المؤمن بين الخوف والرجاء.

المتقون دخلوا الجنة {تُحَبَّرُونَ} فرحين. والمجرمون دخلوا النار {مُبْلِسُونَ} يائسين. المتقون {فِيهَا خَالِدُونَ}. والمجرمون {خَالِدُونَ} في النار. المتقون {لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ}. والمجرمون {لَا يُقْتَرُونَ عَنْهُمْ} عذابهم.

إنه التقابل الكامل، الذي يبنى في النفس رغبة في مصير المتقين، ورهبة من مصير المجرمين.
المحور السادس

الأبعاد والآفاق من الآيات: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد الأول: البعد العقدي - الإيمان بالعدل الإلهي
الآيات ترسخ عقيدة أن الله لا يظلم أحداً، وأن العذاب هو عدل محض، وجزاء وفاق.

البعد الثاني: البعد القانوني - العلاقة بين الجريمة والعقاب
الآيات تقدم نموذجاً ربانياً للعلاقة بين الجريمة والعقاب. فكما في القوانين الوضعية، فإن بيان الجريمة يجب أن يقترن ببيان العقاب، والآيات تجمع بينهما.

البعد الثالث: البعد النفسي - تحمل مسؤولية الذات
الآيات تعلم الإنسان ألا يلقي اللوم على غيره، بل يتحمل مسؤولية أفعاله، ويعترف بظلمه لنفسه.

البعد الرابع: البعد التربوي - التربية على الخوف من عاقبة الإجرام

الآيات تخوف من مصير المجرمين، فتردع النفوس عن ارتكاب الجرائم.

البعد الخامس: البعد الحضاري - إقامة العدل أساس الملك
الحضارة التي تقوم على العدل تبقى، والتي تقوم على الظلم تهلك. والآيات تؤكد أن ملك الله قائم على العدل المطلق.
المحور السابع

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً: فهم معنى "الإجرام" الحقيقي
في عصر يضيق فيه مفهوم الجريمة عند كثير من الناس في السرقة والقتل، تدعونا الآيات إلى توسيع هذا المفهوم ليشمل الكفر والكبر والفساد والشرك.

ثانياً: الخوف من عاقبة الكبر والغرور
في زمن الماديات والاستكبار، تدعونا الآيات إلى الخوف من أن نكون من المجرمين المتكبرين.

ثالثاً: تحمل مسؤولية أفعالنا
الآيات تدعونا إلى عدم إلقاء اللوم على الظروف أو الآخرين، بل إلى مراجعة أنفسنا، والاعتراف بظلمنا، والتوبة.

رابعاً: الثقة بعدالة الله
نحن نعيش في عالم يكثر فيه الظلم. هذه الآيات تذكرنا أن الله عادل، وأنه سينصف المظلومين، ويعاقب الظالمين.
المحور الثامن

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: الجريمة الكبرى هي الكفر بالله
الآيات ترسخ مفهوماً فكرياً خطيراً: ليست الجريمة فقط في الدماء والأموال، بل الجريمة الكبرى هي في الأديان والعقائد. الكفر والشرك هو أعظم إجرام.

المفهوم النفسي: اليأس (الإبلاس) عذاب فوق العذاب
الآيات تبين أن العذاب النفسي (فقدان الأمل) لا يقل شدة عن العذاب الجسدي. وهذا يدفع المؤمن إلى الاستبشار برحمة الله، والاستعاذة من اليأس.

المفهوم التربوي: تربية النشء على تحمل المسؤولية
{وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ} درس تربوي: لا تعلق أخطاءك على غيرك. اعترف بذنبك، وتب، وأصلح.
المحور التاسع

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: تجنب الكبر والغرور
يريدنا الله أن نتواضع للحق، وألا نتحل صفات لا تليق بنا.

الإرادة الثانية: الخوف من مصير المجرمين
يريدنا أن نرتعد خوفاً من أن نكون من المجرمين الذين هذا مصيرهم.

الإرادة الثالثة: تحمل مسؤولية أفعالنا
يريدنا أن نعترف بأخطائنا، ولا نرمي بها على غيرنا.

الإرادة الرابعة: الثقة بعدله المطلق
يريدنا أن نطمئن إلى أن الله لا يظلم مثقال ذرة، وأن العدالة الإلهية آتية لا محالة.
المحور العاشر

تحويل مفاهيم الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

المسار الأول: بناء الإنسان الذي يخاف من الإجرام ويتحمل مسؤوليته
الآيات تبني إنساناً يخاف من ارتكاب الجرائم المعنوية (الكبر، الكفر، الظلم) كما يخاف من الجرائم
المادية. إنساناً يتحمل مسؤولية أفعاله ولا يبررها.

التطبيق العملي:

- . كلما وجدت في نفسك كبراً أو غروراً، تذكر أن هذه من صفات المجرمين، فتب إلى الله.
- . إذا أخطأت، قل فوراً: "رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي".
- . مثال تقريبي: شاب يغضب من نقد أبيه له، فيتكبر. ثم يتذكر قوله: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ}، فيتواضع ويعتذر لأبيه.

المسار الثاني: بناء المجتمع العادل الذي يحاسب على الجرائم
الآيات تبني مجتمعا يقيم العدل، ويعاقب على الجرائم، ولا يتسامح مع الظلم.

التطبيق العملي:

- . كن ناشطاً في نشر ثقافة العدل. لا تقبل بظلم في محيطك.
- . مثال تقريبي: موظف يرى زميله يظلم آخرين. يتدخل بالحسنى، ويذكرهم بأن الظالمين مصيرهم إلى سوء.

المسار الثالث: بناء الحضارة التي تقوم على التواضع للحق
الحضارة التي تستكبر وتتجبر، مصيرها إلى زوال. أما الحضارة التي تقوم على التواضع لله والانقياد
لشريعته، فهي الحضارة الباقية.

التطبيق العملي:

- . تذكر وأنت في قمة نجاحك: الكبر يهلك الحضارات. كن متواضعاً لله، منقاداً لأمره.
- . مثال تقريبي: عالم مسلم يكتشف اكتشافاً عظيماً. بدل أن يتكبر، يسجد لله شكراً، ويقول: "هذا من فضل ربي".
- . خاتمة: هل أنت من المجرمين أم من المتقين؟

أيها القارئ الكريم...

لقد نقلنا القرآن في هذه الآيات الثلاث إلى مشهد المجرمين في النار. رأيناهم {فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ} خالدين، ورأينا أن عذابهم {لَا يُقْتَرُ عَنْهُمْ}، ورأيناهم {مُبْلِسُونَ} يائسين لا أمل لهم. ثم سمعنا نداء العدالة: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ}.

والآن أسألك بصدق:

- . هل أنت من المجرمين الذين اغتصبوا صفات لا يملكها إلا الله بالكبر والغرور؟
- . هل أنت من الظالمين لأنفسهم بالإعراض عن الحق؟
- . هل استقر في قلبك اليقين بعدالة الله، وأنه لا يظلم مثقال ذرة؟
- . هل تخاف من مصير المجرمين هذا، فيدفعك هذا الخوف إلى العمل؟

أجب عن هذه الأسئلة بصمت... واختر طريقك.

المبحث الثاني

تفسير الآية (77) من سورة الزخرف

تقدمة لا بد منها: موقع الآية من السياق ومن ذروة اليأس التي يبلغها المجرمون في النار

قف معي - يا رعاك الله - وقفة من أدرك أن القرآن العظيم لا يصف العذاب وصفاً سطحياً عابراً، بل
ينفذ إلى أعماق النفس الإنسانية وإلى مشاعرها، فيرينا كيف يعيش المجرمون لحظات اليأس المطلق،
وكيف تتبدل أحوالهم من الكبر والغرور في الدنيا إلى الذل والمسكنة والاستجداء في الآخرة.

لقد كنا في الآيات السابقة (74-76) أمام بيان مصير المجرمين في النار: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ} . لَا يُقْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ . وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ}. لقد رأينا هناك دوام العذاب وعدم فتورته، ورأينا الإبلاس: ذلك اليأس العميق الذي يفقد الإنسان كل أمل.

وهنا - في هذه الآية - تنتقل الكاميرا القرآنية إلى لقطة درامية مؤثرة. بعد أن عاشوا في العذاب زمناً لا يعلمه إلا الله، وبعد أن يئسوا من كل مخرج، وبعد أن تبخرت كبرياؤهم التي كانت تمنعهم من سؤال أحد... ها هم الآن يصرخون! ينادون مالكا خازن النار! أولئك الذين كانوا في الدنيا يتكبرون على عباد الله، ولا يرضون أن يطلبوا حاجة من أحد استكباراً، صاروا الآن يستجدون خازن النار أن يسأل الله لهم الموت! إنه مشهد الذل المهين بعد العز الزائف.

ولكن... تأتي الإجابة القاتلة بعد أربعين سنة من الصراخ! يقول مالك: {إنكم مأكثون}. لا موت، لا خلاص، لا خروج. إنها الكلمة التي تنسف آخر خيط من خيوط الأمل. إنه الإعلان الرسمي عن الأبدية في العذاب.

إن هذه الآية ترسم لنا مشهداً حياً مرعباً، مشهداً يهز الوجدان، ويدفع المؤمن إلى التمسك بطاعة الله، لئلا يكون من هؤلاء الذين يصرخون فلا يجابون، ويستغيثون فلا يغاثون.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآية ومقاصدها وأهدافها والقضايا التي تناقشها

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآية الكريمة:

1. استغاثة المجرمين بعد اليأس من كل مخرج: {وتادوا يا مالك}.
2. طلبهم الموت للتخلص من العذاب: {ليقض غليظاً ربك}.
3. الرفض الإلهي القاطع والإعلان عن الخلود في العذاب: {قال إنكم مأكثون}.
4. ذروة اليأس بعد أن كان الأمل الوحيد هو الموت.
5. التحول من الكبر إلى الذل والاستجداء.

مقاصد الآية وأهدافها:

1. ترهيب المؤمنين من المصير الذي يؤدي إليه الكفر والإجرام.
2. بيان أن عذاب الآخرة لا موت فيه ولا خلاص.
3. إظهار تحول المتكبرين إلى أذلاء يستجدون الموت.
4. دفع المؤمنين إلى التمسك بطاعة الله لينجوا من هذا المصير.
5. تثبيت اليقين بأن النار دار خلود لا فرار منها.

القضايا الكبرى التي تناقشها الآية:

القضية الأولى: استحالة الخلاص من النار
الآية تؤكد حقيقة كبرى: أن من دخل النار خالداً فيها، فلا موت يريحه، ولا خلاص ينجيه. إنها دار الخلود في العذاب، كما أن الجنة دار الخلود في النعيم.

القضية الثانية: تحول المتكبرين إلى أذلاء
المجرمون في الدنيا كانوا يستكبرون على الله وعلى رسله وعلى عبادهم. لم يكونوا يسألون أحداً حاجة استكباراً. أما في النار، فقد انكسرت شوكتهم، وذهب كبرهم، وصاروا ينادون خازن النار: {يا مالك} مستجدين متذللين.

القضية الثالثة: الموت نعمة يتمناها أهل النار فلا ينالونها
في الدنيا، يخاف الناس الموت ويعتبرونه نهاية كل شيء. أما في النار، فإن الموت يصبح أمنية غالية يتمناها المجرمون للخلاص مما هم فيه. لكنها أمنية لا تتحقق، لأن النار دار حياة لا موت فيها، حياة من عذاب مقيم.

المحور الأول

{وتادوا يا مالك ليقض غليظاً ربك}

استغاثة المجرمين... حين يتحول المتكبرون إلى متوسلين

غوص في معنى {وتادوا}: النداء الجماعي المدوي

دعني - يا رعاك الله - أفف بك عند أول كلمة في هذه الآية: {وتادوا}.

{و}: الواو للعطف. تربط هذا المشهد بما قبله. بعد أن وُصف العذاب والإبلاس والظلم، يأتي هذا النداء كنتيجة طبيعية لتراكم اليأس والعذاب.

{نادوا}: فعل ماضٍ مع ضمير الجماعة. أي أنهم جميعًا، بصوت واحد، صرخوا بمالك خازن النار. إنه نداء الجماعة، نداء المستغيثين الذين نفذ صبرهم، وبلغ اليأس منهم مبلغه. لم يعد هناك مكان للصمت، ولم تعد هناك كرامة تمنعهم من الصراخ.

تأمل: إنهم لم يقولوا "سألوا" أو "طلبوا"، بل {نادوا} أي رفعوا أصواتهم بالصراخ والاستغاثة، كما يفعل الغريق الذي لم يبق له إلا الصوت.

{يا مَالِكُ}: النداء لخازن النار... آخر من يمكن أن يسأله

وهنا - يا رعاك الله - نصل إلى ذروة الذل والانكسار. إنهم ينادون: {يا مَالِكُ}.

من هو مالك؟ هو خازن النار، الملك الموكل بها. وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زَمَامٍ، مَعَ كُلِّ زَمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجْزُئُهَا». فمالك هو رئيس هؤلاء الملائكة، هو خازن جهنم.

فلماذا ينادون مالكا؟ لماذا لا ينادون الله مباشرة؟

الجواب: لأن الله أغلق باب استجابة دعائهم. {قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ}. لقد طردوا من رحمة الله، وخُجبوا عن ندائه، فلم يبق لهم إلا خازن النار! إنهم يتوسلون إلى البواب بعد أن أغلق الملك بابه دونهم.

ولاحظ: النداء بـ {يا} فيه معنى الاستغاثة والاستعطاف. إنهم كانوا في الدنيا لا يرضون أن يسألوا أحداً استكباراً. وهنا صاروا يسألون خازن النار!

{ليَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ}: طلب الموت... الأمنية الأخيرة

وهنا نص الطلب: {ليَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ}.

{ليَقْضِ}: اللام للدعاء والطلب. "يقض" من القضاء، وهو الحكم والفصل. والمعنى: ليحكم علينا ربك بـ الموت، ليمتنا، ليهلكنا، لينه حياتنا.

{عَلَيْنَا}: تفيد أن الموت يكون عليهم، أي أنه يأتيهم فينهي معاناتهم.

{رَبُّكَ}: يقولون ذلك لمالك خازن النار. يعترفون - في قرارة أنفسهم - بأن لمالك رباً، وهذا الرب هو الله. وقد كانوا في الدنيا ينكرون ربوبيته، أما الآن فهم يعترفون بها، ولكن بعد فوات الأوان.

لماذا يطلبون الموت؟

يطلبون الموت لأن العذاب بلغ بهم مبلغاً لا يطاق. الموت الذي كانوا يخافونه في الدنيا، صار الآن أمنية! إن تخفيف العذاب غير ممكن، والخروج من النار مستحيل، فما الحل الوحيد الذي يفكرون فيه؟ إنه الموت. يريدون أن ينتهي كل شيء، أن يفنوا، ألا يعودوا يشعرون بشيء. لكن... هيهات!

مثال تقريبي:

تأمل مريضاً يعاني مرضاً عضالاً، في ألم لا ينقطع، لا ينام ولا يهدأ. يسأل الطبيب: "اقتلني! أرحني!". هذا قليل من كثير مما يعانيه أهل النار، حين يستغيثون بمالك أن يسأل الله لهم الموت.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: المتكبرون أذلاء في الآخرة

الآية تعلمنا أن الكبر في الدنيا يتحول إلى ذل في الآخرة. فمن تكبر عن سؤال الناس، قد يضطر في الآخرة إلى سؤال خازن النار!

الرسالة النفسية: الخوف من عذاب لا موت فيه

تصور أن تتمنى الموت فلا تجده... هذا هو أشد العذاب. فلنخف من هذا المصير، ونعمل على النجاة منه.

الرسالة التربوية: رب أبناءك على التواضع
علم أبناءك أن التواضع لله ولعباده هو طريق العزة في الدنيا والآخرة. أما الكبر، فهو طريق الذل.
المحور الثاني

{قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ}

الرد القاطع... الأبدية في العذاب ونسف آخر حبل من حبال الأمل

غوص في معنى {قَالَ}: من القائل؟ ومتى قالها؟

{قَالَ}: أي أجابهم مالك خازن النار. وفي الحديث الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما: «يُصْرَخُ بِهَذَا الْكَلَامِ، فَيَدْعُهُمْ مَالِكُ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَا يُجِيبُهُمْ، ثُمَّ يَقُولُ: {إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ}». {إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ} أربعين سنة في العذاب، وصراخهم لا يُسمع ولا يُستجاب له! ثم بعد أربعين سنة - يا لطلوها في النار! - يجيبهم بهذا الجواب القاتل.

{إِنَّكُمْ}: التوكيد والتثبيت

{إِنَّكُمْ}: حرف توكيد ونصب، مع ضمير المخاطبين. إنها تؤكد الخبر وتثبته. ليس "لعلكم ما كنتم"، بل {إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ} بيقينًا وحتماً.

{مَّا كُنْتُمْ}: الخبر الذي يقطع كل أمل

{مَّا كُنْتُمْ}: اسم فاعل من "مكث"، وهو الإقامة واللبث والبقاء. والمعنى: إنكم باقون في النار، مقيمون فيها أبداً، لا تخرجون منها أبداً، ولا تموتون فيها أبداً.

هذه الكلمة الواحدة - {مَّا كُنْتُمْ} - تنسف كل أمل. لو قال لهم: "إنكم ما كنتم ألف سنة"، لكان في هذا بعض العزاء، لأن الألف سنة لها نهاية! لكن كلمة {مَّا كُنْتُمْ} مطلقة، لا تتقيد بزمن. معناها: إلى الأبد. وهي نفس الكلمة التي قيلت لأهل الجنة: {خَالِدِينَ فِيهَا}، لكنها هنا في النار.

تأمل وقع هذا الجواب على نفوسهم:

بعد أربعين سنة من الصراخ والاستغاثة... يأتي الجواب: لا موت، لا خلاص، لا خروج، لا تخفيف. إنكم ما كنتم. إنها اللحظة التي يموت فيها الأمل تماماً. يصلون إلى ذروة اليأس، ذروة الإحباط. كانوا يظنون أن الموت قد يكون مخرجاً، فجاءهم الجواب بأن الموت نفسه قد "مات"! {وَتَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَزَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ}.

مثال تقريبي:

تأمل سجيناً مؤبداً في سجن انفرادي، لا يرى ضوء الشمس، ولا يكلم أحداً. يصرخ لسنوات: "أخرجوني!". ثم يأتي السجان ويقول له: "إنك هنا إلى الأبد، ولن تخرج أبداً". هذه الكلمة تفقده عقله! هذا ظل يسير جداً مما يشعر به المجرمون في النار حين يسمعون: {إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ}.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: الجنة والنار دارا خلود
الآية ترسخ عقيدة الخلود في الآخرة. لا موت بعد الموت. إما خلود في النعيم، وإما خلود في الجحيم.

الرسالة النفسية: اغتنم الفرصة ما دمت في دار العمل
ما دمت في الدنيا، فباب التوبة مفتوح. لا تؤجل توبتك. في الآخرة لا توبة، ولا استغاثة تنفع، ولا صراخ يسمع.

الرسالة التربوية: علم أبناءك حقيقة الخلود
اغرس في أبنائك أن الدنيا فانية، وأن الآخرة هي دار القرار. وأنهم الآن في زمن يستطيعون فيه

تغيير مصيرهم الأبدي. غداً لا ينفع الندم.
المحور الثالث

دلالة مشهد "الاستغاثة والرفض" في بناء النفس المسلمة

تأمل - يا رعاك الله - لماذا يفصل القرآن هذا المشهد؟ لماذا يخبرنا أنهم نادوا، وأن مالكا أجابهم بعد أربعين سنة؟

1. لترسيخ اليقين بأن العذاب لا ينقطع: إن صراخهم يدل على شدة الألم، وعدم إجابتهم أربعين سنة يدل على أن العذاب لا يفتن، ثم إجابتهم بـ "إنكم ما كنون" تدل على استحالة الخلاص.
 2. لتهز الكيان البشري: هذا المشهد يهز النفس هزاً، ويجعلها تفكر في مصيرها. أتريد أن تكون ممن يصرخ فلا يجاب؟!
 3. لبناء عاطفة الخوف من الله: الخوف من عذاب الله هو سياج يحمي المؤمن من المعاصي. كلما تفكر في هذا المشهد، ازداد خوفاً، فازداد بعداً عن المعاصي.
 4. لتصحيح النظرة إلى الدنيا: حين ترى أن أهل النار يتمنون الموت، تدرك أن متاع الدنيا لا يساوي شيئاً، وأن الشقاء الحقيقي هو شقاء الآخرة.
- المحور الرابع

الأبعاد والآفاق من الآية: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد الأول: البعد العقدي - الخلود في الآخرة
الآية تثبت عقيدة الخلود. فكما أن الجنة خالدة، فالنار خالدة. وهذا من عدل الله: الجزاء الأبدي على الإيمان الأبدي أو الكفر الأبدي.

البعد الثاني: البعد النفسي - كيف يصنع القرآن الخوف من النار؟
الآية نموذج في صناعة الخوف النفسي من النار. لا تصف النار فقط، بل تصف مشاعر أهلها، صراخهم، استغاثتهم، رفض طلباتهم.

البعد الثالث: البعد التربوي - استعمال المشاهد الحية في التربية
الآية تعلم المرين أن يستخدموا المشاهد الحية المؤثرة في تربية النفوس. لا تقل فقط: "النار عذاب"، بل صف كيف يصرخ أهلها، وكيف ترد استغاثتهم.

البعد الرابع: البعد الإيماني - قيمة الوقت في الدنيا
الآية تجعل المؤمن يقدر كل لحظة في الدنيا. فهو يعلم أن فرصة واحدة تضيع قد تكون سبباً في هذا المصير.
المحور الخامس

ما تدعونا إليه الآية في الواقع المعاصر

أولاً: استغلال فرصة الحياة
في عصر يلهو فيه الناس ويلعبون، تدعونا الآية إلى اغتنام كل لحظة في طاعة الله، قبل أن نصرخ فلا نجاب.

ثانياً: عدم الاغترار بالكبرياء
في عصر يتباهى فيه الناس بالكبر، تدعونا الآية إلى التواضع. المتكبرون هم أول من يستغيث في الآخرة.

ثالثاً: تحويل الخوف من النار إلى طاقة للعمل
اجعل هذا المشهد ماثلاً أمام عينيك كلما هممت بمعصية. تذكر أولئك الذين نادوا: {يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ}، فيردعك ذلك عن المعصية.
المحور السادس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

المفهوم الفكري: النار دار حياة لا موت فيها
في الدنيا، نهاية الألم هي الموت. في النار، لا موت. هذا مفهوم فكري مرعب، يزرع في النفس

الحرص على النجاة.

المفهوم النفسي: اليأس من الموت أشد من العذاب نفسه حين يفقد الإنسان الأمل في الموت، يفقد الأمل في كل شيء. هذا هو أعلى درجات العذاب النفسي.

المفهوم التربوي: التربية بالتصوير الحي القرآن يربي بالصور الحية، لا بالنظريات الجافة. هذه الآية هي درس للمربين في كيفية التأثير في النفوس.
المحور السابع

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآية؟

الإرادة الأولى: الخوف من النار
يريدنا الله أن نخاف من النار، فيكون خوفنا دافعاً إلى العمل الصالح.

الإرادة الثانية: اغتنام فرصة الدنيا
يريدنا أن نغتنم كل لحظة في طاعته، لأن الآخرة لا عمل فيها.

الإرادة الثالثة: التواضع للحق
يريدنا أن نتواضع، لا أن نتكبر. فمن تواضع لله في الدنيا، أعزه الله في الآخرة.

الإرادة الرابعة: عدم اليأس من رحمة الله في الدنيا
يريدنا أن نفرق بين يأس الآخرة ويأس الدنيا. في الدنيا، لا نياس من رحمة الله أبداً. أما في الآخرة، فاليأس هو حال الكافرين.
المحور الثامن

تحويل مفاهيم الآية إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

المسار الأول: بناء الإنسان الخائف من النار، المستعد للآخرة
الآية تبني إنساناً يخاف من النار، فيعمل جاهداً لينجو منها. إنساناً يستحضر صراخ أهل النار كلما هم بمعصية.

التطبيق العملي:

. كلما تليت هذه الآية في صلاتك أو تلاوتك، توقف قليلاً " تخيل أنك تسمع صراخهم. وقل: "اللهم أجبرني من النار".
. إذا راودتك نفسك على معصية، اسألها: "أتريدين أن نكون ممن ينادون مالكا؟!".
. مثال تقريبي: شاب يشعر بشهوة الحرام. يقرأ هذه الآية، ويتخيل نفسه في النار، ويقول: "لا! لا أستبدل ساعة بنار أبدية". فيترك الحرام.

المسار الثاني: بناء المجتمع الذي يكثر فيه الاستغفار والتوبة
الآية تبني مجتمعاً يدرك خطورة الذنوب، فيكثر فيه الاستغفار والتوبة والإنابة.

التطبيق العملي:

. شجع الناس على الاستغفار. قل لهم: "كل ذنب صغير قد يقود إلى الكبائر، فاستغفروا قبل أن تصلوا إلى حال لا ينفعكم فيه الندم".
. مثال تقريبي: خطيب جمعة يتحدث عن هذه الآية، ويدفع المصلين إلى التوبة الجماعية والنصوح.

المسار الثالث: بناء الحضارة القائمة على خشية الله
الحضارة الإسلامية قامت على خشية الله. {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}. هذه الخشية هي التي تمنع الظلم، وتحت على العدل، وتدفع إلى العمان.

التطبيق العملي:

. كن نموذجاً في الخشية من الله. في عملك، في تجارتك، في تعاملك. خشيتك من الله تمنعك من

ظلم الناس.
· مثال تقريبي: تاجر يخاف من عذاب الله، فلا يغش ولا يحتكر. هذه الخشية هي التي تبني اقتصاداً عادلاً.
خاتمة: هل سمعت صراخهم... فاشتقت إلى الجنة؟

أيها القارئ الكريم...

لقد نقلنا القرآن بهذه الآية إلى مشهد من أشد مشاهد النار تأثيراً في النفس. رأينا المجرمين وهم ينادون مالكا: {يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ}. رأيناهم يستغيثون فلا يغاثون، يسألون الموت فلا يجابون. سمعنا الرد القاتل: {إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ}.

فهل - بعد هذا - تحركت فيك رغبة في النجاة؟ هل ازدادت خوفاً من النار؟ وهل اشتقت إلى الجنة؟

اجعل هذه الآية زاداً لك في درب الاستقامة. تذكرها دائماً. عشاها بوجدانك. واجعلها سوراً بينك وبين المعاصي.

المبحث الثالث

تبين الآية أسباب استحقاق الكفار العذاب في الآخرة
أولاً

تفسير الآية (78) من سورة الزخرف
تقدمة لا بد منها: موقع الآية من السياق ومن كشف العلة الحقيقية لشقاء المجرمين

قف معي - يا رعاك الله - وقفة من أدرك أن القرآن الكريم ليس مجرد كتاب يصف العذاب والنعيم، بل هو كتاب تشخيص وعلاج، يكشف الأسباب قبل أن يعرض النتائج، ويبين العلل قبل أن يصف الدواء.

لقد كنا في الآيات السابقة (74-77) أمام مشاهد متتابعة من عذاب المجرمين في جهنم: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ خَالِدُونَ}، {لَا يَقْتَرُونَ عَنْهُمْ}، {وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ}، ثم تلك الاستغاثة المذلة: {وَتَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ}، ثم الرد القاطع: {إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ}. لقد عشنا معهم مشاهد العذاب المتنوعة: عذاب النار الحسي، وعذاب اليأس النفسي، وعذاب الرفض والطرده.

وهنا - بعد أن اكتملت صورة العذاب وأهواله - يتوقف المشهد قليلاً ليفتح القرآن نافذة على حوار إلهي مع هؤلاء المجرمين. إنه حوار يجري في الآخرة، لكنه ينقل إلينا نحن - ونحن في الدنيا - العلة الحقيقية التي أوصلتهم إلى هذا المصير. إنه بيان إلهي شافٍ: لماذا هم في النار؟ هل لأنهم لم يجدوا دليلاً كافياً؟ هل لأن الرسل قصروا في البلاغ؟ هل لأن الآيات لم تكن واضحة؟

كلا! ثم كلا! إنه ليس نقص البيان ولا غموض الدليل. بل إن المشكلة تكمن في أعماق أنفسهم. إنها مشكلة نفسية عميقة: {وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ}. إنهم لم يكونوا يجهلون الحق، بل كانوا يكرهونه! لم تكن المشكلة في عقولهم، بل في قلوبهم وإراداتهم الفاسدة.

وهذا هو أخطر ما يمكن أن يصيب الإنسان: أن يفسد عنده ميزان الحب والكراهية. أن يحب الباطل ويكره الحق. أن تنعكس فطرته، فتصبح نفسه تنساق إلى ما يضرها وتنفر مما ينفعها.

وهذا هو الدرس الأعظم الذي تريد الآية أن توظفنا إليه: احذروا فساد القلوب! احذروا أن تطلقوا العنان لنفوسكم ورغباتكم، فتفسد قوة الحب والغضب فيكم، فتحبون ما يغضب الله، وتكرهون ما يرضيه. إن هذا الفساد هو الباب الذي يدخل منه الشيطان، وهو الطريق الذي ينتهي بصاحبه إلى جهنم خالداً فيها.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآية ومقاصدها وأهدافها والقضايا التي تناقشها

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآية الكريمة:

1. إعلان إلهي قاطع بتمام البيان وكمال الحجة: {لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ}.
2. نفي أن يكون سبب الهلاك هو نقص الدليل أو تقصير الرسل: الحق واضح مبين لا غموض فيه.
3. تشخيص العلة الحقيقية: كراهية الحق: {وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ}.
4. بيان أن المشكلة ليست عقلية (جهل)، بل قلبية وإرادية (كراهية وبغض).
5. كشف فساد قوتي الحب والغضب عند المجرمين: فهم يحبون الباطل ويكرهون الحق.

6. التحذير من عاقبة إطلاق العنان للنفس ورغباتها.

مقاصد الآية وأهدافها:

1. إغلاق باب الاحتجاج بنقص البيان: فلا يمكن لأحد أن يقول يوم القيامة: "لم أعرف الحق".
2. توجيه المؤمن إلى مراجعة قلبه وإرادته: هل يحب الحق ويكره الباطل حقاً؟
3. التحذير من فساد الفطرة الإنسانية باتباع الهوى وإطلاق العنان للرغبات.
4. بيان أن الإيمان ليس مجرد معرفة عقلية، بل هو محبة وانقياد.
5. دعوة المؤمنين إلى تزكية النفوس وتأديبها لئلا يصلوا إلى مرحلة كراهية الحق.

القضايا الكبرى التي تناقشها الآية:

القضية الأولى: مشكلة الكافرين ليست في نقص الدليل، بل في كراهية الحق
الآية تحسم هذه القضية حسماً. لقد جاؤوا بالحق الواضح المبين، ولكن أكثرهم كانوا له كارهين.
إنها مشكلة إرادة وقلب، لا مشكلة عقل ومعرفة.

القضية الثانية: فساد قوى الحب والغضب عند المجرمين
الإنسان مفلطور على حب الحق وإرادته إذا سلمت فطرته. لكن هؤلاء المجرمين فسدت عندهم قوة
الحب والإرادة، فأصبحوا يحبون الباطل وينقادون إليه، ويكرهون الحق وينحرفون عنه. كما فسدت
عندهم قوة الغضب، فأصبحوا يكرهون القيم النبيلة ويبغضونها، ويحبون الرذائل ويميلون إليها.

القضية الثالثة: تحذير المؤمنين من الانزلاق إلى هذا الفساد
الآية تدعونا إلى محاسبة أنفسنا في الدنيا قبل أن نحاسب في الآخرة. إن إطلاق العنان للنفس
ورغباتها يفسد قوتي الحب والغضب، ويجعل الإنسان عرضة لسلطة الشيطان.

القضية الرابعة: ضرورة تزكية النفس وتأديبها في الدنيا
النفس كالطفل: إن لم ترببها وتؤدبها، صارت وحشاً مفترساً يفترس صاحبه. {قَدْ أَقْلَحَ مَنْ زَكَاهَا .
وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}. ومن يرفض التزكية ويطلق العنان لنفسه، فهو خاسر، لأنه أهان نفسه
واحتقرها وداس عليها بقدمه.
المحور الأول

{لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ}

إعلان إلهي بتمام البيان وقيام الحجة التي لا تدفع

غوص في معنى {لَقَدْ}: القسم والتوكيد البالغ

دعني - يا رعاك الله - أقف بك ملياً عند أول كلمة في هذه الآية: {لَقَدْ}.

اللام: لام القسم. أي أقسم الله على صحة هذا الخبر. و"قد": حرف تحقيق وتوكيد. فاجتمع في
{لَقَدْ} قسم من الله وتوكيد وتحقيق. إنه إعلان إلهي قاطع لا يحتمل الشك ولا المراء.

{جِئْنَاكُمْ}: ضمير الجمع للعظمة - من جاءهم؟

{جِئْنَاكُمْ}: جئناكم. من الذي يجيء؟ هو الله سبحانه. جاءهم بالحق عن طريق كتبه ورسله. فكل
رسول أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله، هو مجيء من الله بالحق إلى خلقه.

وضمير الجمع هنا للتعظيم. والجائي هو الله، لكن مجيئه كان بكتبه ورسله. فالرسل جاءوا والناس
خاطبواهم: {جِئْنَاكُمْ}، لكن في الآخرة، يخاطبهم الله مباشرة: {جِئْنَاكُمْ}. إنه إعلان مباشر من الله لعباده.

{بِالْحَقِّ}: ما هو الحق الذي جاؤهم به؟

الباء للمصاحبة. أي جئناكم مصحوبين بالحق، أو جئناكم ومعنا الحق.

{الْحَقِّ}: معرفة بالألف واللام، تشمل كل أنواع الحق:

1. الحق العقائدي: التوحيد، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.
2. الحق التشريعي: الشريعة السمحة، الحلال والحرام، الأوامر والنواهي.
3. الحق القصصي: قصص الأنبياء والأمم السابقة، عبر ومواعظ.
4. الحق الكوني: آيات الله في الأنفس والآفاق.
5. الحق الوجودي: الغاية من الخلق، معنى الحياة، مصير الإنسان.

كل هذا جاءهم به الرسل. فلم يبق لهم حجة، ولم يعد لهم عذر.

خصائص هذا الحق الذي جاؤوا به:

1. واضح مبين لا غموض فيه: {فَمَآذَا بَعَدَ الْحَقَّ إِنَّا الضَّالُّونَ}.
2. تقوم به الحياة وتستقيم: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}.
3. موافق للفطرة السليمة: {فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا}.
4. الإنسان مفطور على حب الحق وإرادته إذا سلمت فطرته من الأغيار.

فلماذا - إذا - كفروا به؟ لماذا أعرضوا عنه؟ لماذا عادوه؟ هذا ما تجيب عنه الجملة التالية!

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: تمام الحجة وانقطاع العذر
الله أقام الحجة على خلقه تماماً. فلا يمكن لأحد أن يقول: "لم يأتني رسول"، أو "لم أسمع بالحق".
الحق واضح جلي.

الرسالة النفسية: الشعور بالمسؤولية
إذا كان الحق قد جاؤك وبلغك، فأنت مسؤول عنه. لا عذر لك في الإعراض.

الرسالة التربوية: علم أبنائك أن الحق بين واضح
علمهم أن الإسلام ليس دين غموض، بل هو دين الحق الواضح الذي يشهد له العقل والفطرة.
المحور الثاني

{وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ}

تشخيص العلة... كراهية الحق وفساد قوى الحب والغضب

غوص في معنى {وَلَكِنْ}: الاستدراك الذي يقلب الموازين

{وَلَكِنْ}: حرف استدراك. الاستدراك هنا يفيد أن ما قبله (مجيء الحق) كان ينبغي أن ينتج عنه الإيمان، ولكن الذي حدث هو العكس. كان من المفترض أن يؤمنوا لأن الحق واضح، ولكن... هناك مانع! وهذا المانع ليس في الحق، بل في أنفسهم.

{أَكْثَرَكُمْ}: ليس كلهم، فالاستثناء موجود

{أَكْثَرَكُمْ}: "أكثر" تفيد أن الأغلبية العظمى على هذا الحال. ولكن ليس الكل. فهناك أقلية: هم الذين استجابوا للحق وآمنوا. فالله لم يقل: "كلكم"، بل قال: {أَكْثَرَكُمْ}. وهذا يدل على أن في الناس من استجاب للحق وأحبه. وهم القلة المؤمنة.

{لِلْحَقِّ كَارِهُونَ}: الكلمة الفاصلة... كراهية الحق!

وهنا - يا رعاك الله - نصل إلى جوهر الآية ولها، وإلى التشخيص الإلهي الدقيق لعلّة الكافرين: {لِلْحَقِّ كَارِهُونَ}.

{لِلْحَقِّ}: اللام هنا لام العلة، أو بمعنى الباء، أي "بالحق". والمعنى: أنتم كارهون للحق، مبغضون له، نافرون منه.

{كارهون}: اسم فاعل من "كره". الكراهية هي البغض والنفور وعدم المحبة. والكلمة اسمية لا فعلية، مما يفيد الثبوت والاستمرار. فهم ليسوا كارهين للحق في لحظة عابرة، بل كراهيتهم للحق صفة

ثابتة فيهم، وسجية متأصلة.

ما معنى أن يكره الإنسان الحق؟

كراهية الحق تعني:

1. أن يبغض الإنسان ما هو خير له ونافع له.
2. أن ينفر من الصدق والعدل والفضيلة.
3. أن يفضل الباطل على الحق، والضلال على الهدى.
4. أن يرى القبيح حسناً، والحسن قبيحاً.

وهذا هو غاية الفساد في النفس الإنسانية. إنه انقلاب الفطرة رأساً على عقب!

لماذا كرهوا الحق؟ تحليل نفسي عميق:

أولاً: فساد قوة الحب والإرادة:

الإنسان مفطور على حب الحق وإرادته، كما أن الطفل يفطر على حب أمه والارتضاع منها. هذه الفطرة هي التي تجعل الإنسان ينجذب إلى الخير والصدق والجمال.

ولكن... ماذا لو فسدت هذه الفطرة؟ ماذا لو أطلق الإنسان العنان لنفسه ورغباته، فصار لا يحب إلا ما يوافق هواه، ولا يكره إلا ما يخالف مصلحته؟

هنا تنشأ الكارثة: يبدأ الإنسان يكره الحق، لأن الحق كثيراً ما يصادم رغبات النفس وأهواءها. الحق يقول له: "لا تزن"، والنفس تريد. الحق يقول: "لا تأكل مال اليتيم"، والنفس تريد. الحق يقول: "تواضع لله ولعباده"، والنفس تريد الكبر والعلو. فإذا صارت النفس عبداً لرغباتها، صارت تكره كل ما يعارض هذه الرغبات، حتى لو كان هو الحق!

ثانياً: فساد قوة الغضب والكراهية:

كما فسدت قوة الحب، فسدت قوة الغضب والكراهية. الإنسان مفطور على أن يغضب لله، ويكره الباطل، ويبغض الظلم. لكن هؤلاء المجرمين انقلبت عندهم هذه القوة: صاروا يكرهون القيم النبيلة، ويبغضون الصالحين، ويبغضون للحق وأهله! بينما يحبون الرذائل، ويميلون إلى الفاسدين، ويرضون بالباطل وأهله!

ثالثاً: النفعية والمصلحة الدنيوية:

هؤلاء الكارهون للحق ينظرون إلى الأمور من خلال مصالحهم الدنيوية الضيقة. هم يريدون تطويع الحق لرغباتهم وأهوائهم ومصالحهم. فإذا كان الحق موافقاً لمصالحهم، قبلوه. وإذا كان معارضاً لها، حاربوه ووقفوا ضده، لأنهم يرون أنه يقف ضد مصالحهم ورغباتهم.

رابعاً: العمى والصمم الروحي:

هذا الفساد في قوى الحب والغضب يؤدي إلى العمى عن رؤية الحق، والصمم عن سماعه. {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}. فلا يرون إلا مصالحهم، ولا يسمعون إلا صوت شهواتهم.

خامساً: الوقوع في قبضة الشيطان وسلطته:

الحب والكراهية والموالة والمعاداة أصلها أنها لله. {قُلْ إِن صَّلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ}. فمن لم يكن حبه لله وبغضه لله، صار عبداً لهواه وللمال والمصالح، وكفر ب الله والحق. وهذا يجعله عرضة لسلطة الشيطان: {وَمَنْ يَغْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ثَقِيلُ} له شَيْطَانًا قَهْوًا لَهُ قَرِينَ}.
سادساً: إطلاق العنان للنفس وعدم تركيتها:

النفس كالطفل. إن أدبتها وعلمتها ورببتها، نشأت على حب الخير وبغض الشر. وإن أهملتها وأطلقت لها العنان، صارت وحشاً مفترساً يفترس صاحبه. {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَاها . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}. "دسأها" أي أهانها واحتقرها وداس عليها بقدمه. فالذي يرفض تزكية نفسه ويطلق لها العنان، هو ظالم لنفسه، محتقر لها.

مثال تقريبي جامع:
تأمل طفلاً صغيراً، مفطوراً على حب الحلويات. لو تركته يأكل ما يشاء، لأكل حتى يمرض. لو علمته وضبطته، لنشأ على الاعتدال. هذا مثال مصغر. النفس البشرية مفطورة على حب الشهوات. فإن أطلقت لها العنان، فسدت قوى الحب والغضب فيها، فصارت تحب ما يضرها وتكره ما ينفعها.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: المشكلة ليست في نقص الأدلة، بل في فساد الإرادات
الآية تحسم قضية فكرية كبرى: الكافر لا يكفر لأنه لم يجد دليلاً، بل لأن نفسه فسدت فأصبح يكره الحق. فلا تتعب نفسك في جدال من هذه حاله، بل عليك بالبلاغ.

الرسالة النفسية: راقب قلبك وإرادتك
اسأل نفسك دائماً: "هل أحب الحق؟ هل أكره الباطل؟ أم أنني - في بعض المواضع - أكره ما يخالف هواي وإن كان حقاً؟". راقب نفسك، وداو قلبك.

الرسالة التربوية: تزكية النفس هي أساس التربية
لا تكتفِ بتربية أبنائك على المعرفة والعلم فقط. ربِّ قلوبهم على حب الحق وكره الباطل. زكِّ نفوسهم، وأدب إراداتهم، لئلا يكبروا وهم يكرهون الحق.
المحور الثالث

دلالة الحوار الإلهي في الآية: إطلاعنا على حوار الآخرة لتحذيرنا في الدنيا

تأمل - يا رعاك الله - أن هذه الآية هي حوار يجري في الآخرة. الله يخاطب المجرمين في النار، ويقول لهم: {لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ}. لكن القرآن ينقل إلينا هذا الحوار ونحن في الدنيا! لماذا؟

1. نعتبر قبل فوات الأوان: إنه يطلعنا على ما سيكون، لتجنب أسبابه الآن.
 2. لنفهم العلة الحقيقية للشقاء: فنتجنبها. العلة هي كراهية الحق، فلنعالج أنفسنا منها.
 3. لنقيم الحجة على أنفسنا: فإذا قرأنا هذا وعلمناه، لم يعد لنا عذر في أن نكون من الكارهين للحق.
- المحور الرابع

الأبعاد والافاق من الآية: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد الأول: البعد العقدي - الله أقام الحجة على الخلق
الآية تثبت عقيدة أن الله عادل، لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة. {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا}.

البعد الثاني: البعد النفسي - أهمية تزكية النفس
الآية تدعو إلى علم كامل هو "تزكية النفس". تزكية النفس هي أساس النجاة، وإهمالها هو أساس الهلاك.

البعد الثالث: البعد التربوي - بناء الإرادة قبل بناء المعرفة
التربية ليست فقط تعليماً، بل هي تربية للقلب والإرادة. علينا أن نربي النشء على حب الحق وبغض الباطل.

البعد الرابع: البعد الإيماني - الحب في الله والبغض في الله
الآية تذكرنا بأن الحب والكراهية عبادة. من أحب لله وأبغض لله، استقامت فطرته. ومن أحب لهواه وأبغض لهواه، فسدت فطرته.

المحور الخامس

ما تدعونا إليه الآية في الواقع المعاصر

أولاً: محاسبة النفس قبل أن نحاسب
في عصر السرعة والانشغال، تدعونا الآية إلى وقفة محاسبة: هل نحن نحب الحق حقاً؟ هل نكره
الباطل حقاً؟ أم أننا نناق في الحب والكراهية؟

ثانياً: تزكية النفس في زمن الشهوات
في عصر كثرت فيه الشهوات والمغريات، تدعونا الآية إلى تزكية أنفسنا وتأديبها، لئلا تفسد قوى
الحب والغضب فينا.

ثالثاً: عدم التعجب من كراهية الناس للحق
حين ترى الناس يكرهون الحق ويحاربونه، لا تتعجب. هذه العلة القديمة: {أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ
كَارِهُونَ}. لكن ثبت أنت على حب الحق.

رابعاً: التربية الإيمانية للأبناء
في زمن الإلحاد والشبهات، لا تكتفِ بتعليم أبنائك الأدلة العقلية. ربِّ قلوبهم على حب الله وحب
دينه، لئلا يصبحوا من كارهي الحق.
المحور السادس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

المفهوم الفكري: الكفر مشكلة إرادة لا مشكلة دليل
الآية ترسخ هذا المفهوم. الكافر لا تكمن مشكلته في أنه لم يجد دليلاً على وجود الله، بل في
أنه يكره الحق ولا يريد أن يؤمن.

المفهوم النفسي: فساد قوى الحب والغضب يقود إلى الهلاك
النفس التي لا تزكى تصبح آلة هلاك لصاحبها. تحب ما يضره، وتكره ما ينفعه. وهذا مرض نفسي-
روحي خطير.

المفهوم التربوي: التربية على الحب قبل التربية على المعرفة
علم ابنك أن يحب الله، أن يحب رسوله، أن يحب الصلاة، أن يحب القرآن... هذا أهم من أن تعلمه
ألف دليل عقلي. الحب هو الذي يصنع الإيمان.
المحور السابع

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآية؟

الإرادة الأولى: أن نحب الحق ونكره الباطل
يريدنا الله أن نراجع قلوبنا: هل نحن نحب الحق ونكره الباطل فعلاً، لا قولاً فقط؟

الإرادة الثانية: أن نزكي أنفسنا
يريدنا أن نزكي أنفسنا ونؤدبها، لئلا نفسد ففساد في طريق الكارهين للحق.

الإرادة الثالثة: أن نقيم الحجة على أنفسنا
يريدنا أن نعلم أن الحق قد جاؤنا، فلا عذر لنا في الإعراض.

الإرادة الرابعة: أن نكون من القلة التي تحب الحق
يريدنا أن نكون من الأقلية التي أحبت الحق وأمنت به، لا من الأكثرية التي كرهته.
المحور الثامن

تحويل مفاهيم الآية إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

المسار الأول: بناء الإنسان الذي يحب الحق ويكره الباطل بفطرته السليمة
الآية تبني إنساناً زكياً نفسه، فأصبحت فطرته سليمة، تحب الحق وتنقاد إليه، وتكره الباطل وتنفر
منه. هذا الإنسان هو لبنة المجتمع الصالح.

التطبيق العملي:

- اسأل نفسك كل ليلة: "ماذا أحببت اليوم؟ وماذا كرهت؟ هل كان حبي لله، وبغضي لله؟".
- إذا وجدت نفسك تميل إلى معصية أو تكره طاعة، فاعلم أن هناك خلافاً في قوى الحب و الغضب لديك، فعالجها بالدعاء والتزكية.
- مثال تقريبي: شاب يجد في نفسه كراهية لصلاة الفجر. يدرك أن هذا ليس كرهاً للاستيقاظ فقط، بل هو - إن استمر - كراهية للحق. فيجاهد نفسه، ويسأل الله أن يحبب إليه الإيمان.

المسار الثاني: بناء المجتمع الذي يزكي أفرادَه أنفسهم ويتواصلون بالحق والتواصي بالصبر.

التطبيق العملي:

- شجع إخوانك على تزكية النفوس. اجعلوا لكم حلقات في "أمراض القلوب وعلاجها".
- مثال تقريبي: مجموعة من الشباب يلتقون أسبوعياً، يقرأون في كتاب عن تزكية النفس، ويتساءلون: "كيف نحب الحق أكثر؟ كيف نكره الباطل أكثر؟".

المسار الثالث: بناء الحضارة القائمة على حب الحق لا على المصالح الحضارة المادية تقوم على المصالح. الحضارة الإسلامية تقوم على حب الحق وبغض الباطل، حتى لو خالف المصلحة الظاهرة.

التطبيق العملي:

- في تجارتك ووظيفتك، قدم الحق على المصلحة. قل: "أحب الحق ولو كان على حساب مصلحتي".
- مثال تقريبي: تاجر يكشف أن في بضاعته عيباً. يحب الحق، فيخبر الزبون، ويخسر بعض المال. هذا هو البناء الحضاري الحقيقي.
- خاتمة: هل تحب الحق... أم أنك ممن يكرهه؟

أيها القارئ الكريم...

لقد جلسنا مع هذه الآية العظيمة التي كشفت لنا السر الخطير: {لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ}. لقد علمنا أن المشكلة ليست في نقص الدليل، بل في فساد الإرادة وكراهية الحق.

والآن أسألك بصدق:

- أين أنت من هذا؟ هل تحب الحق وتنقاد إليه، أم أنك - في بعض المواضع - تكره الحق لأنه يخالف هواك؟
- هل تراقب قلبك وتزكي نفسك، أم أنك تطلق العنان لنفسك ورغباتك؟
- هل تربي أبناءك على حب الحق وبغض الباطل، أم أنك تكتفي بتعليمهم معلومات جافة؟
- هل أنت من الأقلية التي تحب الحق، أم من الأكثرية التي تكرهه؟

أجب عن هذه الأسئلة بصمت... وابدأ من اليوم في تزكية نفسك.

ثانياً

تفسير الآية (79) من سورة الزخرف

تقدمة لا بد منها: موقع الآية من السياق ومن كشف وهم القدرة على إبطال الحق بالمكائد

قف معي - يا رعاك الله - وقفة من أدرك أن القرآن العظيم لا يكتفي بكشف العلة النفسية للكافرين (كراهية الحق)، بل ينتقل إلى كشف سلوكهم العملي: كيف يتأمررون، وكيف يدبرون، وكيف يظنون أنهم قادرون على إطفاء نور الله بأيديهم. ثم يأتي الرد الإلهي القاصم، ليزرع في قلب المؤمن الطمأنينة المطلقة، والثقة الراسخة بأن الله هو الحامي والراعي والمدافع عن دينه وعن حملته.

لقد وقفنا في الآية السابقة (78) أمام ذلك التشخيص الإلهي العميق لعدة الكافرين: {لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ}. لقد عرفنا أن المشكلة ليست في نقص الدليل، بل في فساد الإرادة وكراهية الحق.

وهنا - بعد أن كشف الله حقيقة بواطنهم - ينتقل إلى كشف حقيقة أفعالهم وتدابيراتهم. ما الذي

فعله هؤلاء الكارهون للحق؟ لقد تحولت كراهيتهم للحق إلى فعل: إلى مكائد ودسائس ومؤامرات. إنهم لم يكتفوا بالكره القلبي، بل ترجموه إلى تخطيط وتدبير للنيل من الحق وأهله.

وهنا يقول الله: {أَمْ أُبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرَمُونَ}. إنها آية قصيرة في لفظها، هائلة في معناها. إنها تكشف عن وهم عظيم يعيش فيه الكافرون: وهم القدرة على دحض الحق بالمكائد. إنهم يتصورون - في غفلتهم وعماهم - أن تدبيراتهم ومؤامراتهم ستقضي على دين الله، وستخمد نوره، وستريحهم من هذا النبي الذي جاءهم بالحق الذي يكرهونه.

ولكن... {إِنَّا مُبْرَمُونَ}! إنها القاصمة التي تنسف كل تدبيراتهم. نحن - يقول الله - نبرم أمرنا، ونقضي قضاءنا، وننفذ إرادتنا. نحن نكيد لهم كيذاً، وندير لهم تدبيراً، وهم لا يشعرون. إننا من ورائهم محيطون.

وهذه الآية - يا رعاك الله - هي بلسم لكل مؤمن مظلوم، ولكل داعية مستضعف، ولكل صاحب حق يرى الباطل يتآمر عليه. إنها تقول له: "لا تخف، ولا تحزن، ولا تيأس. إن كانوا قد أبرموا أمراً بالباطل، فإن الله مبرم أمره بالحق. وهو خير الماكزين، وهو أشد بأساً وأشد تنكيلاً". فاصبر واثبت، واعلم أن الله معك".

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآية ومقاصدها وأهدافها والقضايا التي تناقشها

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآية الكريمة:

1. إثبات تأمر المشركين وتدبيرهم المكائد: {أَمْ أُبْرَمُوا أَمْراً}.
2. كشف وهم القدرة على دحض الحق بالباطل: {إِنَّا مُبْرَمُونَ} رد على الوهم.
3. إعلان أن الله هو المدير الأعلى الذي لا يغلبه تدبير.
4. طمأنة المؤمنين بأن الله حام لدينه وراع لحملته وحارس لهم.
5. بيان أن كيد الظالمين يؤول إلى بوار وأن الله يكيد لهم وهم لا يشعرون.

مقاصد الآية وأهدافها:

1. تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في وجه مكائد المشركين ودسائسهم.
2. بيان أن المكر السيئ يحقق بأهله ولا يضر إلا صاحبه.
3. زرع الثقة في قلب المؤمن بأن الله هو المدافع والناصر.
4. تحقير شأن مكائد الكافرين وأنها لا تعدو أن تكون أوهاماً وسراباً.
5. دعوة المؤمنين إلى الصبر والثبات وعدم الجزع إذا اشتد الأذى.

القضايا الكبرى التي تناقشها الآية:

القضية الأولى: وهم القدرة على دحض الحق بالمكائد والدسائس
الآية تكشف أن الكافرين، وقد أعمى الكبر والبغض بصيرتهم، يظنون أنهم قادرون على إطفاء نور الله بتدبيراتهم. وهذا وهم خاطئ، وسراب يحسبه الظمان ماءً.

القضية الثانية: تدبير الله فوق كل تدبير
{إِنَّا مُبْرَمُونَ} هي الإعلان الذي يهز عرش الباطل. الله يبرم أمره، ويدبر قضاءه، وهو الغالب على أمره. {والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون}.

القضية الثالثة: الحماية الربانية للحق وحملته
الآية تؤكد أن الله هو الحامي والراعي والحارس لدينه ولحملة دينه. وإن حصل للمؤمنين بعض الأذى والبلاء، فذلك موقوت، وهو ابتلاء وامتحان وتمييز للصفوف. {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَيْبَ مِنَ الطَّيِّبِ}.

القضية الرابعة: دور المؤمن في مواجهة الباطل: مقاومة، ثم صبر، ثم ثقة
على المؤمن ألا يقف عاجزاً، بل عليه مقاومة الظلم والوقوف ضده. فإن غلبه الأمر وعجزت حيلته، فعليه أن يصبر ويحتسب ذلك عند الله، ولا يجزع ولا تنهار قواه، وليثق بأن الحق سينتصر.

المحور الأول

{أَمْ أُبْرِمُوا أَمْراً؟}

استفهام عن تأمرهم... وكشف عن وهمهم

غوص في معنى {أَمْ}: الاستفهام الذي يحمل السخرية والإنكار

دعني - يا رعاك الله - أقف بك عند أول كلمة في هذه الآية: {أَمْ}.

{أَمْ}: هي "أَمْ" المنقطعة. ومعناها: "بل". والمعنى: "بل أبرموا أمراً؟!". وهو استفهام إنكاري، يحمل معنى التوبيخ والسخرية من تدبيراتهم. فكأنه يقول: "أيظنون أنهم أبرموا أمراً نافذاً لا يرد؟! أيحسبون أن تدبيرهم سيمضي دون أن نتدخل نحن؟!".

إنها كلمة واحدة، لكنها تحمل سخرية الجبار من تدبيرات الفانين. الجبار الذي بيده ملكوت كل شيء، يستهزئ بتدبيرات هؤلاء الضعفاء: "أَمْ أبرموا أمراً؟!". إنها تهزأ بهم وتحقر من شأنهم.

{أُبْرِمُوا}: الإبرام - إحكام التدبير وإتقان المكيدة

{أُبْرِمُوا}: فعل ماضٍ من "الإبرام". وأصل الإبرام من "بَرَمَ" الحبل، أي أحكم فتله وجعله قويًا متينًا. فالإبرام هو الإحكام والإتقان. والمعنى: "أُحْكَم هؤلاء المشركون أمرهم؟ أَيْتَقِنُونَ تدبيراتهم ومكائدهم ضد الإسلام ورسوله؟!".

إنهم جلسوا وتشاوروا، وخططوا ودبروا، وأحكموا خطتهم كما يحكم الصانع قتل الحبل. لقد ائتمروا بالرسول صلى الله عليه وسلم: كيف يقتلونه؟ كيف يسجنونه؟ كيف يطردونه؟ كيف يمنعون الناس من سماعه؟ كيف يشوهون صورته؟ لقد أبرموا أمرهم حقًا، وظنوا أنهم بلغوا الغاية في الإتقان والدهاء.

{أَمْراً}: التنكير للتحقير مع الإطلاق

{أَمْراً}: نكرة. وهي هنا للتحقير والتقليل من الشأن. فكل تدبيراتهم ومكائدهم هي في نهاية المطاف "أمر" من الأمور، صغير حقير، لا يساوي في ميزان القدرة الإلهية شيئًا.

ماذا أبرموا؟ نماذج من مكائد المشركين ضد النبي صلى الله عليه وسلم:

1. دار الندوة: اجتمعوا ليتشاوروا في أمر النبي صلى الله عليه وسلم. قال بعضهم: نحسبه ونوثقه. وقال آخر: نخرجه ونفقه. وقال آخر - وهو أبو جهل لعنه الله -: نقتله! ونشترك في دمه قبائل قريش، فلا يستطيع بنو هاشم أن يطلبوا دمه من جميع القبائل. لقد أبرموا أمراً... أليس كذلك؟! وماذا كانت النتيجة؟ خرج النبي صلى الله عليه وسلم من بينهم سالمًا، ونام عليّ في فراشه، وذهبوا ينتظرون أن يخرج عليهم، فإذا بالتراب على رؤوسهم، والقرآن يتلى عليهم: {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ}.

2. المقاطعة في شعب أبي طالب: أبرموا أمراً بمقاطعة بني هاشم ومنع الطعام عنهم. ظنوا أن الجوع سيقتلهم أو يخضعهم. وماذا حدث؟ بقوا ثلاث سنين، ثم بطلت الصحيفة، وخرجوا أقوى مما دخلوا.

3. محاولة قتل النبي صلى الله عليه وسلم في عدة مواطن: كلها باءت بالفشل.

4. تشويه صورته: قالوا: ساحر، شاعر، كاهن، مجنون. أبرموا أمر التشويه. واليوم، من الذي يذكر؟ محمد صلى الله عليه وسلم، أم أبو جهل وأبو لهب؟! محمد صلى الله عليه وسلم اسمه يرفع في كل أذان خمس مرات في اليوم، وهم في جهنم يلعنون.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: تدبيرات الباطل مهما بلغت من الإتقان لا تغلب تدبير الله
الآية تعلمنا أن كيد الظالمين - مهما أحكم - هو هباء أمام تدبير الله. فلا نياس من مكائدهم، ولا نضخمها في أعيننا.

الرسالة النفسية: لا ترهبك مؤامرات الظالمين حين ترى الباطل يتكلم ويتآمر، تذكر أنهم "أبرموا أمراً"، وأن الله "مبرم". تدبيرهم ناقص، وتدبير الله كامل.

الرسالة التربوية: علم أبناءك ألا يخافوا من مكر الماكربين قل لهم: "مهما خطط الظالمون، فإن الله من ورائهم محيط. لا تخافوا، واثبتوا على الحق".

المحور الثاني

{فَاتَا مَبْرُمُونَ}

الرد القاصم... الله يبرم أمره الذي لا يرد

غوص في معنى {فَاتَا}: الفاء والجملة الإسمية بالتوكيد

{فَاتَا}: الفاء للتفريع والتعقيب. أي: "إن كانوا قد أبرموا أمراً، فنحن - بدورنا - مبرمون أمرنا". الفاء تشعر أن الرد الإلهي حاسم فوري، لا تأخير فيه.

{إِذَا}: "إن" للتوكيد، و"نا" ضمير جمع للتعظيم. إنه تأكيد من الله العظيم على أنه هو الذي يبرم الأمر حقاً، لا هم. تدبيرهم ظن وتخيل، وتدبيرنا حقيقة وواقع.

{مَبْرُمُونَ}: اسم الفاعل ودلالته على الثبوت والدوام

{مَبْرُمُونَ}: اسم فاعل من "أبرم". وصيغة اسم الفاعل تفيد الثبوت والدوام والاستمرار. فهذه صفة الله الدائمة: هو دائماً مبرم، لا يغفل ولا ينام، لا يفوته شيء، ولا يعجزه أمر. تدبيره دائم، عنايته دائمة، حمايته مستمرة.

ففي الوقت الذي يدبرون هم فيه مكيدة اليوم، الله قد دبر تدبيره من الأزل. تدبيره سابق لهم، محيط بهم، قاض عليهم.

ما هو الأمر الذي أبرمه الله؟

{فَاتَا مَبْرُمُونَ} إعلان مجمل. لكن ماذا أبرم الله؟ يجيب القرآن في مواضع أخرى:

1. أبرم حفظ دينه ونبيه: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}.
2. أبرم نصر رسله: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِن جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}.
3. أبرم إهلاك الطغاة: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا}.
4. أبرم أن العقاب للمتقين: {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}.
5. أبرم أن الباطل زاهق: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}.

هذا هو إبرام الله. تدبيراتهم الجزئية التافهة في مقابل تدبيره الكلي الشامل. فأين هذا من ذاك؟!

العلاقة بين {أَبْرَمُوا} و{مَبْرُمُونَ}: المقابلة البليغة

تأمل - يا رعاك الله - هذه المقابلة العجيبة في اللفظ والمعنى:

{أَبْرَمُوا}: فعل ماض. فعل محدود، في زمن ماض، صادر من بشر ضعفاء.
{مَبْرُمُونَ}: اسم فاعل. صفة ثابتة دائمة، صادرة من الله العظيم الجبار.

هم أبرموا أمراً واحداً عاجلاً، والله مبرم للأمور كلها أجلاً، وعاجلاً. هم خططوا، والله قدرهم دبروا، والله حكمهم. هم أرادوا، والله شاء. ومشينة الله فوق مشيئتهم: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}.

الآية في ضوء الآيات الأخرى: {وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}

هذه الآية في سورة النمل تفسر آيتنا تفسيرًا شافيًا. لقد مكروا مكْرًا، والله مكر بهم مكْرًا أعظم، وهم غافلون لا يشعرون. إنهم في عماهم وغفلتهم يتصورون أن تدبيرهم ناجح، وهم سائرون إلى الهلاك بأقدامهم.

وفي سورة الأنفال: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}. الله خير الماكرين! مكرهم سراب، ومكر الله حقيقة. مكرهم يفنى، ومكر الله يبقى.

مثال تقريبي:

تأملوا طفلًا ً يلعب على شاطئ البحر، يبني قلاعًا من الرمل. يحكم بناءها، ويفتل أبراجها، ويزين أسوارها. يظن أنه صنع شيئًا عظيمًا. ثم تأتي موجة، فلا تبقي ولا تذر. هذا هو حال الكافرين مع تدبيراتهم في مقابل تدبير الله!

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: تدبير الله نافذ لا محالة

الآية ترسخ عقيدة أن الله هو المدبر الوحيد الذي ينفذ تدبيره. تدبيرات الخلق لا تخرج عن تدبيره، بل هي داخلة تحت إرادته ومشيئته.

الرسالة النفسية: ثق بربك ولا تخف

إذا كان الله هو المبرم، فعلام الخوف؟ إذا كان الله هو المدافع، فعلام القلق؟ استرح، وتوكل على الله، وامض في طريقك.

الرسالة التربوية: علم أبناءك التفويض إلى الله بعد الأخذ بالأسباب

علمهم أن يأخذوا بالأسباب، ويخططوا، ويجتهدوا، ثم يفوضوا الأمر إلى الله. فالله هو الذي يبارك الخطط، وهو الذي يحبط كيد الأعداء.

المحور الثالث

دلالة الآية على أن التنازع بالباطل يعمي البصيرة

تأمل - يا رعاك الله - كيف أن المشركين في هذه الآية يتصرفون وكأنهم مصابون بالعمى. إنهم يظنون أنهم قادرون على دحض الحق بالباطل. يتصورون أن المكائد والدسائس التي خططوا لها ستنال من الإسلام ورسوله. إنهم يتخيلون أنهم قادرون على القضاء على الدعوة والقضاء على الرسول.

من أين يأتيهم هذا الوهم؟ من أين يأتيهم هذا التصور الخاطيء؟ إنه من العمى الذي أصاب بصيرتهم. لقد كرهوا الحق، فأعماهم هذا الكره عن رؤية الحقائق. لقد انشغلوا بالتنازع بالباطل، و المجادلة بالباطل، والتآمر بالباطل... فأعماهم هذا كله عن رؤية أن الله مع رسوله، وأن الله ناصر دينه، وأن تدبيرهم لا يساوي شيئًا أمام تدبير الله.

إنهم كالنملة التي تقف في طريق الفيل وتتوهم أنها تستطيع منعه! إنهم كالذباب التي تقف على جبل وتتوهم أنها تحمله! هذا هو حال من يتنازع بالباطل: يفقد إدراكه للواقع، ويعيش في عالم من الأوهام، يتصور أنه قوي وهو أضعف من بيت العنكبوت.

المحور الرابع

الأبعاد والافاق من الآية: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد الأول: البعد العقدي - الإيمان بأن الله خير الماكرين
الآية تغرس في القلب عقيدة أن الله هو الحافظ لدينه، وأنه لا يغلب، وأن كيد الكافرين لا يضره.

البعد الثاني: البعد النفسي - طمأنينة المؤمن في وجه المؤامرات
كم من مؤمن يعيش في قلق من مؤامرات الأعداء! هذه الآية تمنحه طمأنينة هائلة: {إِنَّا مُبْرَمُونَ}.
الله أعلم بما يدبرون، وهو لهم بالمرصاد.

البعد الثالث: البعد الاجتماعي - وجوب مقاومة الظلم والصبر عليه
على المؤمن ألا يقف عاجزاً، بل عليه أن يقاوم الباطل ويقف في وجهه. فإن غلب، صبر واحتسب.
وهذا هو ميزان العدل: المقاومة مع الصبر.

البعد الرابع: البعد التاريخي - سنة الله في نصر المؤمنين وإهلاك الظالمين
الآية تذكرنا بأن التاريخ شاهد على أن تدبيرات الظالمين دائماً تفشل، وأن العقوبة للمتقين.

البعد الخامس: البعد الإيماني - الثقة المطلقة في حفظ الله لدينه
الآية تزرع في القلب يقيناً مطلقاً بأن الله لا يضيع دينه، ولا يسلم نبيه، ولا يترك عباده. {إِنَّا لَنَنْصُرُ
رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}.

المحور الخامس

ما تدعونا إليه الآية في الواقع المعاصر

أولاً: الثقة في نصر الله لدينه
في عصر كثرت فيه المؤامرات على الإسلام وأهله، تدعونا الآية إلى الثقة المطلقة في أن الله هو
الحامي والراعي.

ثانياً: عدم المبالغة في الخوف من مؤامرات الأعداء
بعض المسلمين يعيشون في رعب من المؤامرات. الآية تقول لهم: "لا تخافوا، فإنهم إن أبرموا أمراً،
فإن الله مبرم أمره، وهو أعظم وأقوى".

ثالثاً: المقاومة والصبر لا الاستسلام
الآية لا تدعو إلى السلبية والاستسلام، بل تدعو إلى مقاومة الظلم والوقوف ضده. فإن غلب المؤمن،
صبر واحتسب.

رابعاً: تعليم الأجيال الثقة بالله
في عصر يريدون فيه أن يهزوا ثقة الشباب المسلم بدينه وبربه، تأتي هذه الآية لترسخ الثقة بالله:
{إِنَّا مُبْرَمُونَ}.

المحور السادس

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

المفهوم الفكري: التوازن بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله
الآية تعلمنا أن نأخذ بالأسباب (كما أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بأسباب الهجرة)، ثم نتوكل على
الله، ونوقن بأن تدبيره فوق كل تدبير.

المفهوم النفسي: التخلص من عقدة الخوف من المؤامرات
الخوف المَرَضِي من مؤامرات الأعداء يشل حركة المؤمن. هذه الآية علاج نفسي لهذه العقدة.

المفهوم التربوي: تربية الأبناء على الشجاعة والثقة بالله

لا تربي أبنائك على الخوف من الآخرين. ربهم على الشجاعة والثقة بالله، مع الأخذ بالأسباب و الوعي بما يدبره الأعداء.

المحور السابع

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآية؟

الإرادة الأولى: أن نثق به وبحفظه لدينه
يريدنا الله أن نوقن بأنه لا يضع دينه ولا يخزي نبيه ولا يترك عباده.

الإرادة الثانية: ألا نرهب تدبيرات الظالمين
يريدنا ألا نضخم قوة أعدائنا، بل ننظر إليها على أنها هباء أمام تدبيره.

الإرادة الثالثة: أن نقاوم الباطل ونصبر
يريدنا أن نأخذ بالأسباب، ونقاوم الظلم، ونصبر إن غلبنا.

الإرادة الرابعة: أن نكون على يقين بأن الباطل زاهق
يريدنا أن نوقن - يقيئًا لا يتزعزع - بأن الظالمين مهما طغوا وتجبروا، فإن عاقبتهم إلى زوال.

المحور الثامن

تحويل مفاهيم الآية إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

المسار الأول: بناء الإنسان المؤمن القوي، الواثق بالله، الشجاع
الآية تبني إنسانًا لا تخيفه المؤامرات، لأنه يوقن بأن الله من ورائه. إنسانًا شجاعًا، يمضي في طريقه، لا يلتفت إلى الوراء.

التطبيق العملي:

- كلما سمعت عن مؤامرة على الإسلام، أو على داعية، أو على مشروع إسلامي، قل بقلبك: ﴿فإننا مُبرّمون﴾. وامض في عملك.
- لا تشغل بتحليل المؤامرات أكثر من انشغالك بالعمل. اعمل، وتوكل على الله.
- مثال تقريبي: شاب يعمل في مشروع دعوي، وتأتيه أنباء عن جهات تحارب المشروع. بيتسم ويقول: "هم أبرموا أمرًا، والله مبرم. أمضي في طريقي".

المسار الثاني: بناء المجتمع الصامد، المقاوم، الواثق في نصر الله
الآية تبني مجتمعًا لا ينهار أمام الضغوط، بل يصمد ويقاوم ويصبر. مجتمعًا يعرف أن تدبيرات الطغاة فانية، وتدبير الله باق.

التطبيق العملي:

- في أوقات الأزمات والمؤامرات، ذكر الناس بهذه الآية. ازرع فيهم الطمأنينة والثقة بالله.
- مثال تقريبي: خطيب جمعة يتحدث في زمن الفتن، ويختم خطبته بقوله: ﴿أَمْ أُبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرَمُونَ﴾. فيخرج الناس مطمئنين، رافعين رؤوسهم.

المسار الثالث: بناء الحضارة بالتوكل على الله والعمل لا بالخوف والتردد
الحضارة الإسلامية قامت على التوكل على الله والأخذ بالأسباب. لا على الخوف والتردد والانزواء. هذه الآية مدد حضاري هائل.

التطبيق العملي:

- ابدأ مشاريعك وأنت واثق أن الله معك. لا يمنعك كثرة المعوقين أو المتأمرين. {فَإِنَّا مُبْرِمُونَ} شعارك.
- مثال تقريبي: صاحب مؤسسة تعليمية إسلامية، يجد عراقيل من جهات عديدة. بيتسم ويقول: "يمكنون ويمكر الله، والله خير الماكرين"، ويكمل بناءه.

خاتمة: أبرموا أمراً... والله مبرم

أيها القارئ الكريم...

لقد جلسنا مع هذه الآية العظيمة: {أَمْ أُبْرِمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ}. لقد رأينا المشركين وهم يخططون ويتآمرون، ورأينا الله يرد عليهم ردًا يهز العروش: نحن مبرمون! لقد عرفنا أن كل تدبيرات الباطل، مهما أحكمت، هي هباء في مهب تدبير الله.

والآن أسألك:

- هل تعيش في قلق من مؤامرات الأعداء؟ ألق هذا القلق خلف ظهرك، واثق بأن الله مبرم.
- هل عجزت حيلتك، وضافت بك السبل؟ اصبر واحتسب، فالله من ورائك محيط.
- هل أنت واثق - يقيئاً لا يتزعزع - بأن الحق منصور، وأن الباطل زاهق؟

اجعل هذه الآية زادك كلما سمعت بما يدبره الظالمون.

ثالثاً

تفسير الآية (80) من سورة الزخرف

تقدمة لا بد منها: موقع الآية من السياق ومن كشف وهم السرية الذي يعيشه المتآمرون

قف معي - يا رعاك الله - وقفة من أدرك أن القرآن العظيم حين يبني في المؤمن اليقين، لا يكتفي بإخباره بأن الله غالب على أمره، بل ينتقل به إلى عمق أعمق: إلى كشف وهم نفسي يعيشه المتآمرون. إنه وهم "السرية". وهم أنهم حين يدبرون في الظلام، ويخططون في الخفاء، ويتناجون behind الأبواب المغلقة... أنهم قد خرجوا من دائرة علم الله! وهذا هو الوهم الذي يفسر جرأتهم على الحق وأهله.

لقد وقفنا في الآية السابقة (79) أمام ذلك التهديد الإلهي القاصم: {أَمْ أُبْرِمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ}. لقد رأينا أن الله رد على تدبيرهم بتدبير أعظم منه. لكن السؤال الذي قد يثور في الذهن: كيف تجرأ هؤلاء على إبرام أمرهم في الظلام؟ كيف ظنوا أنهم سينجحون؟ ما الذي جعلهم يظنون أن مكرهم سيمضي دون أن يكشفه الله؟

وهنا - يا رعاك الله - تأتي هذه الآية لتجيب عن هذا السؤال، ولتكشف عن أصل الداء: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ}. {إنهم - في غفلتهم وعماهم - يظنون أن سرهم المخفي عن الناس مخفي عن الله! إنهم يتخيلون أن اجتماعاتهم السرية، ونجواهم الخفية، ومؤامراتهم الدفينة... لا يصل إليها سمع الله ولا يحيط بها علمه! هذا هو الوهم الذي جرأهم على الله. هذا هو الوهم الذي جعلهم يظنون أن خططهم ستمضي دون عوائق.

ثم يأتي الرد الإلهي المدوي: {بَلَى}. (كلمة واحدة، لكنها تنسف كل أوهامهم. بلى نسمع! بلى نعلم! بلى نحيط!) {وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْذِبُونَ}. (وليس فقط نحن نسمع، بل إن رسلنا من الملائكة الكاتبين حاضرون معهم في تلك الاجتماعات السرية، يسجلون كل كلمة، كل همسة، كل نجوى).

وهذا - يا رعاك الله - ينتقل بنا من كشف وهمهم إلى تثبيت المؤمنين. فكما أن الله يعلم سرهم ونجواهم، فهو يعلم شرك أنت أيها المؤمن. يعلم خوفك، يعلم حاجاتك. فتلجأ إليه، فهو خير ملجأ. وليكن يقينك بمراقبته لك دافعاً إلى الفاعلية الإيجابية، لا إلى الخوف والجزع. إن الشعور باطلاع الله على أفعالك هو الذي يصنع منك إنساناً رقيباً على نفسه، متقناً لعمله، صادقاً في سره ونجواه.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآية ومقاصدها وأهدافها والقضايا التي تناقشها

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآية الكريمة:

1. كشف وهم السرية الذي يعيشه الكفار: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ}.
2. بيان أن تصورهم الخاطئ هو سبب فاعليتهم السلبية وجراتهم على التآمر.
3. الرد الإلهي القاطع على هذا الوهم: {بَلَى}.
4. إثبات أن الملائكة تسجل كل ما يدور: {وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}.
5. الإشارة إلى أن الله مطلع على الخواطر والنوايا والهمسات لا يخفى عليه شيء.
6. تطمين المؤمنين بعدم الجزع وأن الله محيط بأعدائهم.
7. دعوة المؤمنين إلى استحضار مراقبة الله ليكون ذلك أساس فاعليتهم الإيجابية.

مقاصد الآية وأهدافها:

1. نسف وهم السرية الذي يتوهمه كل من يدبر للباطل في الخفاء.
2. تهديد الكافرين بأن كل تدبيراتهم مرصودة ومسجلة وسيحاسبون عليها.
3. طمأنة المؤمنين بأن الله يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.
4. ترسيخ عقيدة الإحاطة الإلهية بكل شيء.
5. دعوة المؤمنين إلى استحضار رقابة الله لتكون دافعا للإيجابية والعمل الصالح.

القضايا الكبرى التي تناقشها الآية:

القضية الأولى: وهم السرية - كيف يتصور الكافر أن تدبيره بالخفاء يحميه من الله؟
الآية تكشف عن مرض نفسي-عقدي خطير: إن الكافرين يتصورون أن اتخاذ التدابير الاحتياطية) لا اجتماع سرا، إخفاء الخطط، التكتم على النوايا (يضمن لهم النجاح ويحميهم من الانكشاف. وهذا الوهم ناتج عن غفلتهم عن حقيقة أن الله سميع عليم، وأنه لا يحجب عنه شيء.

القضية الثانية: الجزم الإلهي بالعلم المطلق - {بَلَى}
هذه الكلمة الواحدة بمثابة إعلان حرب على كل أوهام البشر. "بلى" = نعم، نعم، نعم، نحيط. إنها تتسلف كل تصور خاطئ عن الله.

القضية الثالثة: تسجيل الملائكة - الوثيقة التي لا تزور
{وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} تشير إلى أن الملائكة الكاتبين حاضرون في مجالس سرهم، يسجلون ما يقال. وهذا تسجيل سيكون حجة عليهم يوم القيامة. وفيه تهديد للكفار وتطمين للمؤمنين.

القضية الرابعة: انتقال المؤمن من الخوف إلى اللجوء إلى الله
إذا كان الله يسمع سرهم ونجواهم، فهو يسمعك أنت أيها المؤمن حين تناديه، حين تشكوا إليه، حين تهتمس له في جوف الليل. فالآية تدعوك إلى أن تجعل مراقبة الله لك أساس فاعليتك الإيجابية.

المحور الأول

{أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ}

كشف الوهم القاتل... تصورهم أن سرية التخطيط تخفيه عن الله

غوص في معنى {أَمْ}: الانتقال إلى كشف وهم جديد

دعني - يا رعاك الله - أقف بك عند أول كلمة في هذه الآية: {أَمْ}.

هي "أم" المنقطعة، بمعنى "بل". وهي تفيد الانتقال من تقرير حقيقة) هم أبرموا أمرا (إلى كشف وهم نفسي أعمق: "بل أحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم؟!". إنها استفهام إنكاري توبيخي. كأنه يقول: "أبلغت بهم الغفلة أن يظنوا أن سرهم ونجواهم لا يصل إلينا؟!".

{يَحْسَبُونَ}: الحسبان - الظن الخاطئ المبني على الوهم

{يَحْسَبُونَ} من "الحسبان"، وهو الظن والتقدير. والآية تشير إلى أنهم "يحبسون"، أي يظنون ظناً خاطئاً ، يقدرون تقديرًا فاسدًا. إنه ليس علمًا ولا يقينًا، بل هو وهم وظن.

وهذا الظن الخاطئ هو أصل مشكلتهم. لقد ظنوا - في غفلتهم - أن التخطيط السري يكفي لحماية المؤامرات من الانكشاف. لقد توهموا أن الجدران والأبواب المغلقة والظلام الدامس يحجب عن الله ما يدور في تلك الاجتماعات!

من أين نشأ هذا الظن الخاطئ؟

نشأ من عدة أسباب:

1. القياس الخاطئ لله على البشر: هم يرون أن البشر إذا خططوا في السر، خفي أمرهم على غيرهم . فقاموا الله على البشر! ونسوا أن الله { لا تدركه الأبصار }، وأنه { يَعْلَمُ السِّرَ وَأَخْفَى }.
2. الغفلة عن صفات الله: هم لا يستحضرون أن الله سميع بصير عليم . وغفلتهم هذه هي التي تجعلهم يتجرأون على التآمر في الخفاء.
3. الاغترار بالمظاهر المادية: الجدران والأبواب والظلام ... هذه مخلوقات ضعيفة، لكنهم اغتروا بها وظنوا أنها تسترهم عن الخالق.

مثال تقريبي:

تأمل نعامة تدفن رأسها في الرمال، وتظن أنها اختفت عن الصياد! هذا ظل من ظلال حال الكافرين: يغلقون الباب، ويطفئون النور، ويتناجون في الظلام ... ويتوهمون أن الله لا يسمعهم!

{أَتَا لَا نَسْمَعُ}: نفي السمع - الوهم الذي ينسبونه لله جهلاً "

{أَتَا لَا نَسْمَعُ}: "أن" مخففة من الثقيلة . والمعنى: "أظنون أننا لا نسمع؟". إنهم ينفون عن الله السمع! وهذا من أعظم الجهل . الله - الذي وسع كرسيه السماوات والأرض - أيعن هؤلاء أنه لا يسمع همساتهم ونجواهم؟!

{نَسْمَعُ}: مضارع يفيد الاستمرار . أي يظنون أننا لا نسمع الآن ولا في أي وقت.

{سِرَّهُمْ}: ما يخفونه في صدورهم

{سِرَّهُمْ}: السر هو ما يكتمه الإنسان في نفسه ولا يطلع عليه أحدًا . هو النية الخفية، والعزيمة الدفينة، والخطر الذي يمر في النفس ولا يتفوه به اللسان . والله يقول: نحن نسمع سرهم! نسمع حديث النفس قبل أن يتحول إلى كلام!

{وَتَجَوَّاهُمْ}: ما يتناجون به في الخفاء

{وَتَجَوَّاهُمْ}: النجوى هي الحديث الخفي بين اثنين أو أكثر . هم يتسارون، ويتهامون، ويغلقون الأبواب، ويتحدثون في الظلام . والله يقول: نحن نسمع نجواهم!

فلاية جمعت بين أمرين:

1. السر: وهو ما في الصدور (الخواطر والنوايا).
2. النجوى: وهي الكلام الخفي (المؤامرات والمخططات).

فلا الخواطر تخفى عليه، ولا النجوى تحجب عنه . علمه محيط بالظاهر والباطن، بالجهر والسر، بالقول والفعل.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: وهم السرية هو الذي يجري الكافرين على التآمر
الآية تكشف أن سبب جرأة الكافرين على التآمر ضد الحق هو توهمهم أن تدبيرهم في الخفاء

يحميهم من علم الله وعقابه.

الرسالة النفسية: لا تغتر بالسرية، فالله مطلع عليك حين تخلو بنفسك وتظن أن لا أحد يراك، تذكر أن الله يراك ويسمع همسك وخاطرك. هذا الشعور يمنعك من المعصية في الخفاء.

الرسالة التربوية: علم أبناءك مراقبة الله في السر والعلن قل لهم: "الله يراك حين تغلق بابك. الله يسمعك حين تهمس. فلا تفعل في الخفاء ما تستحي من فعله في العلن".

المحور الثاني

{بلى}

الكلمة الواحدة التي تنسف كل أوهامهم

غوص في معنى {بلى}: حرف الإيجاب الجازم

{بلى}: حرف جواب. وتستعمل للرد على النفي لتقرر الإثبات. والمعنى: "بلى! نسمع! نسمع سرهم ونجواهم!". إنها كلمة واحدة، لكنها بمثابة زلزال يهدم صرح أوهامهم.

تأمل - يا رعاك الله - كم في هذه الكلمة من الإعجاز:

- . إيجاز: كلمة واحدة تغني عن جمل كثيرة.
- . جزم: لا تردد ولا احتمال. إنه يقين مطلق.
- . ردع: إنها تردع كل من تسول له نفسه أن يتأمر في الخفاء.
- . طمأنة: للمؤمن، بأن الله مطلع على عدوه.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: الجواب القرآني الموجز أبلغ من الإطناب {بلى} {تعلمنا أن البلاغة ليست بكثرة الكلام، بل بإصابة المعنى.

الرسالة النفسية: لا يغرنك صمت الله أحياناً قد يظن الظالم أن سكوت العذاب عنه يعني أن الله لا يعلم، أو أن الله غافل. {بلى} هي الرد على هذا الوهم.

المحور الثالث

{وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}

الملائكة الكاتبون... توثيق كل همسة وكلمة

غوص في معنى {وَرُسُلُنَا}: الملائكة الكاتبون الكرام

{وَرُسُلُنَا}: جمع رسول. والمراد بهم الملائكة الكرام الكاتبون. وسماهم "رسلنا" أي أرسلناهم إليكم ليكتبوا أعمالكم ويحصوها. وهذا فيه تشريف للملائكة، فهم رسل الله إلى عباده.

وإضافة الرسل إلى ضمير الجلالة {رُسُلُنَا} تفيد تعظيم شأنهم، وتأكيد أن ما يسجلونه هو بتكليف من الله.

{لَدَيْهِمْ}: الملازمة والحضور الدائم

{لَدَيْهِمْ} أي عندهم، ملازمون لهم، حاضرون معهم، لا يفارقونهم. إنهم ليسوا بعيدين، بل هم معهم في مجالسهم، وفي خلواتهم، وفي اجتماعاتهم السرية. الجدران التي تخفيهم عن أعين الناس لا تخفيهم عن أعين الملائكة. والظلام الذي يستترهم عن البشر لا يستترهم عن رسل الله.

{يَكْتُبُونَ}: التسجيل المستمر والدقيق

{يَكْتُبُونَ}: فعل مضارع يفيد الاستمرار والتجدد. الملائكة يكتبون كل شيء، كبيراً وصغيراً، قولاً وفعل. لا سراً وجهراً. مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ. {إنهم يسجلون كل كلمة، كل همسة، كل نجوى، كل خاطر يترجم إلى فعل.

وهذا التسجيل ليس عبثاً، بل هو وثيقة يوم القيامة: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أُحْصَاهَا.}

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: كل شيء مسجل
فكر ملياً قبل أن تنفوه بكلمة، أو تدبر أمراً، أو تخفي سراً. كل شيء مكتوب عند الله، وستقرأه يوم القيامة.

الرسالة النفسية: استحضر كتابة الملائكة تكن من المتقين
إذا شعرت أن هناك رقيباً يكتب كل ما تقول وتفعل، فستكون أكثر حرصاً على كلامك وأفعالك.

الرسالة التربوية: علم أبناءك أن الملائكة معهم يكتبون
قل لهم: "هناك ملكان معك، يكتبان كل ما تقول. فقل خيراً أو اصمت".

المحور الرابع

العلاقة بين هذه الآية والتي قبلها: بناء متكامل للردع والطمأنة

تأمل - يا رعاك الله - كيف تكاملت الآيتان (79) و(80):

. في الآية (79): {أَمْ أُرْمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ}. {كشفت عن أن تدبيرهم لا يغلب تدبير الله.
. في الآية (80): {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ}. {كشفت عن وهمهم بأن سرية تدبيرهم تخفيه عن الله.

فالآية الأولى هدمت نتيجتهم) نجاح المخطط، والآية الثانية هدمت فرضيتهم) سرية المخطط. (هكذا يتكامل القرآن في هدم الباطل من كل جوانبه.

المحور الخامس

دعوة إلى الانتقال من الفاعلية السلبية إلى الفاعلية الإيجابية

أولاً: الفاعلية السلبية للكفار:
الكفار - كما تصفهم الآية - في حالة من الفاعلية السلبية: هم يخططون، ويسرون، ويتناجون، ويأتمرون. لكن هذه الفاعلية مبنية على وهم) أن سرهم لا يسمعه الله، فهي فاعلية سلبية هدامة، تؤدي بهم إلى الهلاك.

ثانياً: الفاعلية الإيجابية للمؤمن:
أما المؤمن، فإن هذه الآية تمنحه أساساً لفاعلية إيجابية بناءة. كيف؟

1. استحضار مراقبة الله: حين تعلم أن الله يسمع شرك ونجواك، تراقب نفسك، وتتقن عملك، وتصدق في سعيك.
2. اللجوء إلى الله: إذا كان الله يسمع سرهم، فهو يسمعك أنت. فلتلجأ إليه في الحوائج والنوائب.

فهو خير ملجأ.
3. عدم الخوف من سرية تدبيرات الأعداء: يكفيك أن تعلم أن الله يعلم ما يدبرون، وأن ملائكته تحصي عليهم.

المحور السادس

الأبعاد والآفاق من الآية: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد الأول: البعد العقدي - الإيمان باتساع علم الله وإحاطته
الآية ترسخ عقيدة أن الله يعلم السر والنجوى، وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

البعد الثاني: البعد النفسي - الطمأنينة والأمان
حين تعلم أن الله يعلم ما يدبره لك الأعداء، تطمئن حين تعلم أنه يسمع دعائك ونجواك، تسكن.

البعد الثالث: البعد التربوي - غرس مراقبة الله في النفوس
الآية تربى في المؤمن ملكة "مراقبة الله" التي هي أساس السلوك القويم.

البعد الرابع: البعد الحضاري - إتقان العمل والشعور بالمسؤولية
حضارة الإسلام قامت على الشعور برقابة الله. هذا الشعور هو الذي يدفع إلى إتقان العمل، والأمانة، و
الإخلاص.

المحور السابع

ما تدعونا إليه الآية في الواقع المعاصر

أولاً: استحضار مراقبة الله في عصر انتهاك الخصوصية
في عصر صارت فيه الخصوصية مهددة، تدعونا الآية إلى أن نأوي إلى الله، فهو الذي لا تخفى عليه
خافية، لكن علمه لنا هو علم حفظ ورعاية، لا علم تجسس وانتهاك.

ثانياً: عدم الخوف من مؤامرات الخفاء
كم من مؤامرة تحاك اليوم في الخفاء ضد الإسلام وأهله! هذه الآية تقول لنا: لا تخافوا، فالله يسمع
سرهم ونجواهم، وسيحاسبهم.

ثالثاً: بناء الشخصية الرقيبة على نفسها
في زمن ضعف فيه الوازع الديني، تعيد هذه الآية بناء الوازع الداخلي: الرقيب هو الله، وهو يراقبك.

المحور الثامن

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

المفهوم الفكري: وهم السرية هو منشأ كثير من الذنوب
كثير من الناس يذنب في الخفاء، لأنه يتوهم أن لا أحد يراه. هذه الآية تنسف هذا الوهم.

المفهوم النفسي: الشعور بالمراقبة يصنع الإنسان السوي
الإنسان الذي يشعر أن هناك من يراقبه (كاميرا، مراقب) يحسن سلوكه. فكيف بمن يشعر أن الله
يراقبه؟!

المفهوم التربوي: التربية على الإحسان (أن تعبد الله كأنك تراه)
هذه الآية تدعم الحديث النبوي: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.»

المحور التاسع

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآية؟

الإرادة الأولى: أن نستحضر علمه ومراقبته
يريدنا أن نعيش وفي شعورنا أن الله مطلع علينا، يسمعنا، يرانا، يعلم سرنا ونجوانا.

الإرادة الثانية: أن نلجأ إليه في حوائجنا
يريدنا أن نلجأ إليه، ونفضي إليه بأسرارنا، ونشكو إليه همومنا.

الإرادة الثالثة: ألا نخاف من تدبيرات الأعداء السرية
يريدنا أن نطمئن، فالله يعلم ما يدبرون، وهو كافينا شرهم.

الإرادة الرابعة: أن نحسن أقوالنا وأفعالنا
يريدنا أن نراقب كلامنا، لأن الملائكة يكتبون.

المحور العاشر

تحويل مفاهيم الآية إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

المسار الأول: بناء الإنسان الرقيب على نفسه
الآية تبني إنساناً لا يحتاج إلى رقيب بشري، لأن الله رقيب. إنساناً يتقن عمله حتى في الخفاء،
وينزجر عن المعصية ولو كان وحده.

التطبيق العملي:

- قبل أن تخلو بنفسك، قل: "اللهم إنك تسمعني وتراني، فأعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك".
- إذا هممت بمعصية في الخفاء، تذكر أن الله يسمع سرك ونجواك، فاستح منه.
- مثال تقريبي: موظف يعمل من المنزل. لا أحد يراقبه. لكنه يتقن عمله، لأنه يعلم أن الله يراه ويسمعه.

المسار الثاني: بناء المجتمع الواثق في حفظ الله، المطمئن من كيد الأعداء
الآية تبني مجتمعاً لا يرتعد من مؤامرات الخفاء، لأنه يعلم أن الله محيط بها.

التطبيق العملي:

- إذا سمعت عن مؤامرة سرية، لا ترتعب. قل: "اللهم يسمع سرهم ونجواهم، وهو حسبنا".
- مثال تقريبي: جماعة دعوية تتعرض لمؤامرة سرية من جهة ما. يقول قائدهم: {بلى' وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}، فيهدأ الجميع، ويمضون في طريقهم.

المسار الثالث: بناء الحضارة على مراقبة الله
الحضارة المادية تقوم على المراقبة البشرية (كاميرات، قوانين). الحضارة الإسلامية تقوم على مراقبة الله. وهذه المراقبة هي أقوى ضمان للجودة والإتقان.

التطبيق العملي:

- في عملك، لا تعتمد على المراقبة البشرية فقط. استحضر مراقبة الله. هذا هو التميز الحضاري.
- مثال تقريبي: طبيب مسلم يجري عملية جراحية. لا أحد يراقب مدى دقته. لكنه يعلم أن الله يراه، فيجري العملية بأقصى درجات الدقة والأمانة.

خاتمة: هل استشعرت أن الله يسمعك ...فراقبته؟

أيها القارئ الكريم...

لقد جلسنا مع هذه الآية العظيمة التي كشفت لنا وهم السرية الذي يعيش فيه الكافرون. رأيناهم {يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ}. {ثم سمعنا الرد القاصم:} بلى'. {وعلمنا أن الملائكة} لَدَيْهِمْ {يَكْتُبُونَ}.

والآن أسألك بصدق:

- . هل تستحضر - في خلواتك - أن الله يسمعك ويراك؟
- . هل تراقب كلامك وأفعالك لأن الملائكة يكتبون؟
- . هل تلجأ إلى الله في حوائجك، وتفضي إليه بأسرارك، واثقا أنه يسمعك؟
- . هل تطمئن - وأنت ترى المؤامرات - أن الله يعلم سرهم ونجواهم؟

أجب عن هذه الأسئلة بصمت... وعش في كنف الله، تراقبه في السر والعلن، وتلجأ إليه في كل نائبة.

القسم الرابع

يرد الله على ما كان من ضلال المشركين فيما ينسبه من القول ان لله ولد زاعمين ان الملائكة بنات الله فجاء الرد على ان هذه الاقاويل باطله وبالدله المنطقيه

المبحث الأول

تفسير الآيتين (81) - (82) من سورة الزخرف

تقدمة لا بد منها: موقع الآيتين من السياق ومن تعليم النبي أسلوب الحوار بالفرض المنطقي

قف معي - يا رعاك الله - وقفة من أدرك أن القرآن العظيم ليس مجرد كتاب يخبرنا عن الحق، بل هو كتاب يعلمنا كيف ندافع عن الحق، وكيف نحاور المبطلين، وكيف نفهمهم بالحجة القاطعة التي لا تترك لهم منفذاً.

لقد كنا في الآيات السابقة (79) - (80) أمام كشف وهم السرية عند الكافرين، وبيان أن الله يسمع سرهم ونجواهم، وأن الملائكة يكتبون كل ما يدور في خفاء. كان ذلك في سياق الرد على مكائدهم وتدابيراتهم.

وهنا - بعد أن فضح الله تدبيراتهم وكشف أسرارهم - ينتقل إلى صلب المعركة العقدية. إن هؤلاء المشركين يدعون لله ولداً! يقولون: الملائكة بنات الله! ويقول النصارى: المسيح ابن الله! وهذه الدعوى هي أم المفاسد العقدية وأصل الانحراف عن التوحيد.

فكيف يواجه النبي صلى الله عليه وسلم هذه الدعوى؟ كيف يحاورهم؟ هل يخطب فيهم خطباً عصماء؟ هل يسب آلهتهم؟ كلا! بل يعلمه الله أسلوباً فريداً في الحوار: أسلوب الفرض الذي لا يلزم منه شيء. إنه يقول له: "قل لهم: لو فرضنا - مجرد فرض جدلي - أن لله ولداً، فمن سيكون أول من يعبد هذا الولد؟ من سيكون أول المبادرين إلى تقديسه وتعظيمه؟ إنهم الأنبياء! إنهم أقرب الخلق إلى الله، وأعرفهم به، وأسرعهم إلى طاعته. فلو كان لله ولد حقاً، لكان الأنبياء أول من عرفه وعبده. وأنا - وأنا نبي الله - سأكون أول العابدين لهذا الولد!"

إنه قياس منطقي بديع. إنه يقلب الطاولة على المشركين بطريقة لا يستطيعون معها جواباً. فمحمد صلى الله عليه وسلم - وهم يعرفون هذا عنه - عبد مطيع لله، لا يستكبر عن عبادته. فلو كان لله ولد حقاً، أكان يستكبر عن عبادته؟! حاشاه! إذاً، فعدم عبادته لهذا الولد المزعوم دليل قاطع على أن هذا الولد لا وجود له، لأن النبي لا يمكن أن يعصي الله أو يتأخر عن طاعته.

ثم يختتم النبي هذا الحوار المنطقي بتسبيح الله وتنزيهه: {سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}. (فبعد أن أفحمهم بالمنطق، يعلن تنزيه الله عن كل نقص، وعن كل شريك، وعن كل ولد.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها والقضايا التي تناقشها

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيتان الكريمتان:

1. أسلوب الفرض الجدلي في الحوار: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ}.
2. إثبات أن الأنبياء هم أسرع الناس إلى عبادة الله وطاعته: {فَأْتَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}.
3. نفي دعوى النبوة لله بهذا الفرض المنطقي المفحم: عدم عبادة النبي له دليل على بطلان الدعوى.
4. تنزيه الله وتقديسه عن كل نقص: {سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}.
5. بيان أن الحديث عن الغيب مقصور على الأنبياء الذين يتصلون بالله بالوحي.
6. إثبات أن التوحيد يصون كرامة الإنسان وعزته.

مقاصد الآيات وأهدافها:

1. تعليم النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أسلوب الحوار المنطقي الذي يفهم المبطلين.
2. إبطال دعوى أن لله ولداً بأبلغ حجة وأوجز لفظ.
3. إظهار أن الأنبياء هم القدوة في العبادة والطاعة وأنهم لا يستكبرون عن الحق.
4. ترسيخ عقيدة التنزيه لله تعالى عن كل ما لا يليق به.
5. بيان أن التوحيد هو صيانة الكرامة الإنسانية إذ لا يرفع بشراً فوق منزلته.

القضايا الكبرى التي تناقشها الآيات:

القضية الأولى: أسلوب الفرض المنطقي في الرد على دعوى النبوة لله
الآية تعلمنا أسلوباً فريداً في الحوار: افتراض صحة دعوى الخصم (جدلاً)، ثم ترتيب نتيجة تلزمه وتفحمه. "لو كان لله ولد - كما تزعمون - فأنا أول من يعبد". وهذا الإلزام المنطقي يثبت بطلان الدعوى من أساسها.

القضية الثانية: النبي صلى الله عليه وسلم عبد مطيع لا يستكبر
الآية تبرز أن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس مستكبراً ولا معارضاً للعبادة. هو عبد مطيع لله في كل ما يأمره. وبالتالي، فإن عدم عبادته لهذا الولد المزعوم دليل قاطع على أن هذا الولد غير موجود، لأن النبي لو كان موجوداً حقاً وأمر الله بعبادته، لكان النبي أول المبادرين.

القضية الثالثة: الحديث عن الغيب مقصور على الأنبياء
الآية تشير - ضمناً - إلى أن الحديث عن الله وعن صفاته وعن الغيب لا يكون موثقاً إلا إذا صدر عن الأنبياء الذين يتصلون بالله بالوحي. أما البشر العاديون، فعلمهم أرضي تجريبي، وليس لهم الحق في الخوض في أمور الغيب بلا وحي.

القضية الرابعة: التوحيد يصون كرامة الإنسان
الآيات تؤكد أن التوحيد يحمي كرامة الإنسان وعزته. فالله وحده هو المعبود، وكل البشر - حتى الأنبياء - هم عبيد لله سواسية. لا يرفع أحد فوق منزلته، ولا يُعبد بشر من دون الله.

المحور الأول

{قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}

أسلوب الفرض المنطقي المفحم... تعليم الحوار بالحجة القاطعة

غوص في معنى {قُلْ}: الأمر الإلهي للنبي بتعليم الأمة الحوار

دعني - يا رعاك الله - أقف بك عند أول كلمة في هذه الآية: {قُلْ}.

إنه أمر من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم. والقرآن مليء بـ {قُلْ}، وهي تعلمنا أن الداعية إلى الله لا يتكلم من عند نفسه، بل يبلغ عن ربه. وهي تعلمنا أن الحوار مع المخالفين لا بد أن يكون بوحى وتوجيه من الله، لا بمجرد الرأي والهوى.

والمعنى: "قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يزعمون أن لله ولداً... قل لهم كذا وكذا".

{إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ}: أسلوب الفرض - "إن" الشرطية وأداة الفرض

وهنا - يا رعاك الله - ندخل في بلاغة قرآنية ساحرة. تأمل: {إن كان}.

{إن}: هي "إن" الشرطية. لكنها هنا ليست للشرط الحقيقي، بل هي للفرض الجدلي الذي لا يلزم منه شيء. إنها تفيد: "لو فرضنا - جدلاً - أن لله ولدًا...". وهذا الأسلوب يسمى في علم المنطق والبلاغة "أسلوب الفرض". تفرض صحة دعوى خصمك، ثم ترتب عليها نتيجة تلزمه وتفحمه.

ولماذا استخدم هذا الأسلوب؟ لأن المشركين كانوا يدعون هذه الدعوى، فبدلاً من أن يكذبهم مباشرة، قال لهم: "نفرض أن دعواكم صحيحة... فماذا يلزم منها؟ يلزم أن أكون أنا أول من يعبد هذا الولد!". وهذا إفحام بديع، لأنه يجعل الخصم هو الذي يقر بطلان دعواه من خلال إلزامه بنتيجة لا يمكنه إنكارها.

{للرحمن}: لماذا اختير هذا الاسم هنا بالذات؟

{للرحمن}: اللام للملك، و"الرحمن" هو اسم من أسماء الله العظام.

اختيار اسم "الرحمن" هنا له دلالات:

1. بيان رحمة الله بالكافرين: فالله - وهو الرحمن - يمهلهم ولا يعاجلهم بالعقاب على هذا الافتراء العظيم. إنه يعطيهم مجالاً للتوبة.
2. بيان أن الولد لا يليق بالرحمن: لأن الولد إنما يطلب للحاجة أو للزينة أو للخلف. والرحمن غني عن كل ذلك.
3. التذكير بأن من رحمته أن أرسل إليهم نبياً يعلمهم كيف يتوبون من هذا الافتراء عبر هذا الحوار المنطقي.

{وَلَدٌ}: التنكير للتحقير والتقليل

{وَلَدٌ}: نكرة. والتنكير هنا يفيد التقليل والتحقير. أي: أي ولد كان، ذكرًا كان أو أنثى، واحدًا كان أو متعددًا. فالمعنى: لو كان له أي نوع من الولد - كما تزعمون - فسأكون أنا أول من يعبد.

{فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}: النتيجة الملزمة التي تفحم الخصم

وهنا تأتي النتيجة: {فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}.

{فَأَنَا}: الفاء للتعقيب والترتيب. "أنا" تأكيد.

{أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}: أول العابدين لهذا الولد، وأول المبادرين إلى عبادته. والمعنى: لو كان لله ولد حقًا، لما كنت أنا آخر من يعرفه، بل أول من يعرفه ويعبده ويبادر إلى طاعته. لأني رسول الله، وأقرب الناس إليه، وأسرعهم إلى طاعته.

كيف يكون هذا فرضًا مفحمًا؟

هنا - يا رعاك الله - بلاغة الفرض: هذا الكلام لا يعني أن لله ولدًا، ولا أن النبي يعبد! حاشا! بل المعنى: "لو كان لله ولد - افتراضًا - لكنت أول من يعبد. ولكني لا أعبد هذا الولد، ولم يأمرني الله بعبادته. إذًا، فالفرض باطل، والدعوى كاذبة". إنه إفحام من طرف خفي!

وهذا كما تقول لمن يدعي أن فلانًا يعطي مالا: "لو كان فلان يعطي مالا لكنت أول من يأخذ منه!". وحين يراك لا تأخذ منه، يعلم أن دعواه كاذبة.

النبي ليس مستكبرًا ولا معارضًا للعبادة:

الآية تبين أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس معاندًا ولا مستكبرًا. هو عبد مطيع لله. فلو كان لله ولد وأمره الله بعبادته، لبادر فورًا. فعدم وجود هذه العبادة دليل على عدم وجود الأمر بها، وعدم وجود الأمر بها دليل على عدم وجود هذا الولد المزعوم. إنها سلسلة منطقية محكمة!

الأنبياء هم الذين لهم الحق بالحديث عن الغيب:

الآية تشير إلى حقيقة عظيمة: الأنبياء هم وحدهم الذين يمكن الوثوق بحديثهم عن الله والغيب، لأنهم يتصلون بالله بالوحي. فهم أدري الناس بما يليق بالله وما لا يليق. فإذا كان النبي - وهو أعرف الخلق بالله - لا يعبد ولدًا لله، مع أنه أسرع الناس إلى طاعة الله، فهذا قطعًا لأن الله ليس له ولد.

الرسائل والدروس والتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: أسلوب الفرض المنطقي أداة قوية في الحوار
الآية تعلمنا كيف نحاوّر المبطلين: لا تبدأ بتكذيبهم مباشرة، بل افترض صحة كلامهم جدلاً، ثم رتب عليه نتيجة تلزمهم وتظهر بطلانه.

الرسالة النفسية: طمأنينة المؤمن بأن دينه مبني على الحجة والبرهان
المؤمن لا يحتاج إلى التعصب الأعمى. دينه فيه حجج منطقية تفحم الخصوم. وهذا يمنحه ثقة وطمأنينة.

الرسالة التربوية: علم أبنائك فن الحوار والمنطق
لا تكتف بتعليم أبنائك العقيدة فقط، بل علمهم كيف يدافعون عنها بالحجة والمنطق.

المحور الثاني

{سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}

تنزيه الله وتقديسه... الخاتمة الطبيعية بعد إفحام المبطلين

غوص في معنى {سُبْحَانَ}: تنزيه مطلق عن كل نقص

بعد أن أفحمهم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الفرض المنطقي، ختم كلامه بتنزيه الله: {سُبْحَانَ}.

{سُبْحَانَ}: علم على التسبيح. والتسبيح هو التنزيه المطلق. ومعناه: أنزه الله تنزيهاً تاماً عن كل ما يقول هؤلاء المشركون. فليس لله ولد، وليس له شريك، وليس له صاحبة.

{رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}: الربوبية المطلقة

{رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}: الرب هو الخالق المالك المدبر. فالله هو رب السماوات كلها، ورب الأرض. وهو الذي يديرهما ويسيرهما.

وتأمل الإضافة: {رَبِّ} بالإضافة إلى السماوات والأرض، وهي إضافة تشريف لهذه المخلوقات، لأنها مربية لله.

{رَبِّ الْعَرْشِ}: تشريف خاص للعرش

ثم خص العرش بالذكر بعد السماوات والأرض: {رَبِّ الْعَرْشِ}. العرش هو أعظم المخلوقات وأوسعها، وهو سقف الكون. وذكر ربوبية العرش بعد ربوبية السماوات والأرض هو تعظيم لله، وإشارة إلى أن الذي يملك العرش العظيم... كيف يكون له ولد؟!

{عَمَّا يَصِفُونَ}: التنزيه عما يصفه الكافرون

{عَمَّا يَصِفُونَ}: أي تنزهه وتقديسه عما يصفه هؤلاء الكافرون من نسبة الولد والشريك إليه. فكل ما يصفونه به من نقص هو منزه عنه.

هذا التسبيح هو الخاتمة الطبيعية:

بعد أن أقام النبي الحجة عليهم، ختم بالتسبيح. وهذا يعلمنا أن الحوار مع المخالفين يجب أن يختتم بتنزيه الله وتعظيمه، لا بسبهم أو شتمهم. فالرد على الباطل يكون بالحجة، ويختتم بالثناء على الله.

المحور الثالث

دلالة الجمع بين "الرحمن" و"رب السماوات والأرض" في الآيتين

تأمل - يا رعاك الله - هذا الجمع البديع:

في الآية (81): {لِّلرَّحْمٰنِ} - ركزت على اسم "الرحمن" الذي يفيد الرحمة والعطف، ليبين لهم أن من رحمة الله أنه لم يعاجلهم بالعقاب على هذا الافتراء، بل أمهلهم وأرسل إليهم نبيًا يعلمهم كيف يرجعون.

في الآية (82): {رَبِّ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ} - ركزت على ربوبية الله للكون كله، لتدل على أنه المنزه عن الولد، لأنه الغني المطلق الذي لا يحتاج لولد.

وهكذا يجتمع المعنى: "أنا - أيها الكافرون - من رحمة الله بكم - وهو الرحمن - أدعوكم إلى التوبة بهذا الحوار المنطقي. وهو - سبحانه - رب السماوات والأرض ورب العرش، المنزه عن الولد و الشريك".

المحور الرابع

التوحيد يصون كرامة الإنسان وعزته

تأمل - يا رعاك الله - كيف أن هذه الآيات تبرز حقيقة عظيمة: التوحيد هو صيانة الكرامة الإنسانية.

حين يعتقد الإنسان أن الله واحد لا شريك له، وأن الناس جميعًا - حتى الأنبياء - عبيد لله سواسية... فإن هذا يمنع أن يُرفع بشر فوق منزلته إلى مقام الألوهية. لا نبي يُعبد، ولا ملك يُعبد، ولا ولي يُعبد. الكل عبيد، والكل سواسية أمام الله.

أما الشرك، فإنه يهين الإنسان. فهو يجعله يعبد حَجَرًا أو بشرًا أو شمسًا. وهو يجعله يذل لمخلوق مثله. والتوحيد وحده هو الذي يحرر الإنسان من عبودية المخلوقين، ويرفع رأسه أمام كل أحد إلا الله.

المحور الخامس

الأبعاد والآفاق من الآيات: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد الأول: البعد العقدي - التوحيد أساس الدين
الآيات تنفي الشريك والولد عن الله، وتثبت أنه واحد أحد.

البعد الثاني: البعد المنطقي - أسلوب الفرض الجدلي
الآيات تعلمنا فئًا من فنون الحوار: افترض صحة الدعوى، ثم رتب عليها النتيجة، فيظهر بطلانها.

البعد الثالث: البعد النفسي - الثقة بالدين
حين يرى المؤمن هذه الحجج القوية، يزداد ثقة بدينه ويقينًا به.

البعد الرابع: البعد الحضاري - التوحيد يصنع الإنسان الحر الكريم
الحضارة الإسلامية قامت على التوحيد الذي يحرر الإنسان من عبودية البشر للبشر.

المحور السادس

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً: تعلم فن الحوار مع المخالفين
في عصر صار فيه الحوار مع المخالفين ضرورة، تدعونا الآيات إلى تعلم أسلوب الفرض المنطقي.

ثانياً: تنزيه الله عن كل نقص
في عصر كثر فيه التناول على الذات الإلهية، تدعونا الآيات إلى تنزيه الله وتعظيمه.

ثالثاً: الاعتزاز بالتوحيد
في عصر العولمة، حيث تختلط العقائد، تدعونا الآيات إلى الاعتزاز بالتوحيد الخالص.

المحور السابع

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم الفكري: التوحيد هو أصل الدين، والشرك هو الانحراف
الآيات ترسخ هذا المفهوم.

المفهوم النفسي: الثقة بالله تمنح العزة
المؤمن الذي يثق بأن الله هو ربه وحده، لا يذل لأحد.

المفهوم التربوي: تعليم الحوار البناء
الآيات تقدم منهجاً في تعليم الأبناء كيف يحاورون.

المحور الثامن

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: أن ننزه الله عن الولد والشريك
يريدنا أن نعتقد أنه واحد أحد، لا شريك له ولا ولد.

الإرادة الثانية: أن نتعلم فن الحوار بالحجة
يريدنا أن نكون دعاة بالحكمة والموعظة الحسنة، نحاور بالتّي هي أحسن.

الإرادة الثالثة: أن نعتز بكوننا عبيداً لله وحده
يريدنا أن نفرح بعبوديتنا لله، فهي شرفنا وعزنا.

المحور التاسع

تحويل مفاهيم الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

المسار الأول: بناء الإنسان الواثق بدينه، المحاور بالحجة
الآيات تبني إنساناً لا يخاف من الشبهات، لأنه يملك الحجج المنطقية.

التطبيق العملي:

. حين تخالف أحداً، استخدم أسلوب الفرض: "لفرض صحة كلامك، فما النتيجة؟". هذا يريح الحوار
ويقربه إلى الحق.

. مثال تقريبي: شاب مسلم يحاور زميلاً نصرانياً يقول له: "لفرض أن عيسى إله، فهل كان يعبد
نفسه أم يعبد الله؟". هذا الفرض يفتح للخصم باباً للتفكير.

المسار الثاني: بناء المجتمع القائم على التوحيد الخالص
الآيات تبني مجتمعًا لا يعبد إلا الله، ولا يذل لغير الله.

التطبيق العملي:

- انشر مفهوم التوحيد في محيطك. قل للناس: "نحن لا نسجد إلا لله، ولا نركع إلا لله".
- مثال تقريبي: في مسجد، يكثر الإمام من تلاوة {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ، ويدرسها للمصلين، ليفهموا عظمة التوحيد.

المسار الثالث: بناء الحضارة التي تحرر الإنسان
التوحيد هو طاقة تحرير للإنسان من كل عبودية لغير الله.

التطبيق العملي:

- كن حراً، لا تستعبد لمال ولا لجاه ولا لبشر. أنت عبد لله وحده، وهذا عزك.
- مثال تقريبي: شاب يرفض الانحناء لمدير ظالم من أجل منصب. يقول: "أنا لا أنحني إلا لله". هذا هو عزة التوحيد.

خاتمة: أتقرأ هذا الفرض... فتعرف به كذب الباطل؟

أيها القارئ الكريم...

لقد جلسنا مع هاتين الآيتين الكريمتين اللتين علمتا النبي صلى الله عليه وسلم - وإيانا من بعده - كيف نحاوّر المبطلين بالفرض المنطقي المفهم. رأينا كيف قال النبي: {إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}، ثم ختم: {سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}.

فهل فهمت - الآن - أن دينك دين الحجة والبرهان؟ وهل تعلمت كيف تحاور بالتي هي أحسن؟ وهل اعتززت بعبوديتك لله وحده؟

المبحث الثاني

تفسير الآية (83) من سورة الزخرف

تقدمة لا بد منها: موقع الآية من السياق ومن لحظة الأمر الإلهي بقطع الجدل العقيم

قف معي - يا رعاك الله - وقفة من أدرك أن القرآن العظيم ليس فقط كتاب دعوة وحوار، بل هو كتاب تربية وتعليم، يعلمنا متى نتكلم ومتى نصمت، ومتى نناقش ومتى نعرض، ومتى نقبل على الناس ومتى نتركهم وشأنهم.

لقد كنا في الآيتين السابقتين (81-82) أمام ذلك الحوار المنطقي الراقي الذي علمه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في الرد على دعوى المشركين أن لله ولداً. لقد قال له: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}. ثم ختم بتنزيه الله: {سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}. لقد قامت الحجة، ووضح الدليل، وبان الحق. ومع ذلك، أصروا على باطلهم، واستمروا في جدلهم العقيم.

وهنا - يا رعاك الله - يأتي الأمر الإلهي الحاسم: {فَذَرَهُمْ يَخْضِبُونَ وَيَلْعَبُونَ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْمَعُونَ}. إنه أمر بقطع الجدل، وترك النقاش، وإهمال هؤلاء القوم الذين لا يستحقون الاهتمام. إنه إءلان بأن الاستمرار في محاولة إقناعهم أصبح مضيعة للطاقة، وتبيدياً للوقت، وإنزالاً للنفس إلى مستوى لا يليق بها.

إن هذه الآية - على قصرها - تحمل دروساً عظيمة في فن الدعوة وفي اقتصاد الجهد وفي تقدير الرجال. إنها تعلمنا أن من الناس من لا يستحق أن تناقشه، لأن عقله لم يبلغ بعد مستوى النضج الذي يؤهله لفهم الحجج. إنهم "أطفال" فكرياً، يصنعون لأنفسهم عالماً من الأوهام، ويلعبون فيه، ويفرحون به، ويظنونونه حقيقة. والطفل لا يناقش في قضايا الكبار، بل يترك حتى يكبر ويعقل.

وهكذا، فإن الآية تنتقل بالنبي صلى الله عليه وسلم - وبكل داعية من بعده - من مرحلة الجدل

إلى مرحلة الصمت، ومن مرحلة الاهتمام إلى مرحلة الإهمال، ومن مرحلة الانشغال بهم إلى مرحلة الا
نشغال بالله. {فَذَرَهُمْ}: دعهم، اتركهم، لا تشغل بالك بهم، ولا تضيع وقتك فيهم. فالله لهم بالمرصاد،
وسيلاقون يومهم الذي يوعدون.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآية ومقاصدها وأهدافها والقضايا التي تناقشها
الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآية الكريمة:

1. الأمر الإلهي بترك الجدل مع المعاندين: {فَذَرَهُمْ}.
2. وصف حال الكافرين بأنهم في خوض ولعب: {يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا}.
3. تصويرهم بصورة الأطفال الذين لا يعقلون ولا يدركون حقائق الأمور.
4. بيان أن تركهم ليس إهمالاً أبدياً، بل حتى موعدهم: {حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ}.
5. التهديد الضمني بالعذاب يوم القيامة.

مقاصد الآية وأهدافها:

1. تعليم النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين متى يتوقفون عن الجدل.
2. صون طاقة الداعية ومنع تبديدها في محاولات عقيمة مع من لا يريد الحق.
3. تحقير شأن الكافرين وبيان أنهم لا يستحقون الاهتمام.
4. تثبيت المؤمنين بأن الله سيتولى حسابهم يوم القيامة.
5. تربية المؤمنين على الشعور بالمسؤولية التي تنبع من الإيمان باليوم الآخر.

القضايا الكبرى التي تناقشها الآية:

القضية الأولى: متى يكون النقاش مضيعة للطاقة؟
الآية تجيب عن سؤال عملي: متى نقاش ومتى نتوقف؟ حين يكون الطرف الآخر لا يبحث عن الحق
، بل يخوض ويلعب، وحين تكون تصورات طفولية لا تستند إلى علم ولا دليل، فإن النقاش معه
يصبح مضيعة للوقت، بل قد يكون نقصاً في حقه أن تنزل إلى مستواه.

القضية الثانية: تصوير الكفار بصورة الأطفال والأنعام
الآية تصور الكافرين في صورة تنزع الهيبة من قلوب المؤمنين تجاههم. إنهم ليسوا عظماء كما
يتوهمون، بل هم كالأطفال يلعبون، وكالأنعام لا يعقلون. عقولهم طفولية، وأفكارهم خيالية، وتصوراتهم
وهمية. وهذا التصوير يحرر المؤمن من الخوف منهم، ومن الانبهار بهم.

القضية الثالثة: الإيمان باليوم الآخر هو الذي يصنع العقل الناضج
الآية تشير إلى أن الإنسان لا تكتمل قواه العقلية إلا بالإيمان بالغيب، وبخاصة الإيمان باليوم الآخر.
فمن آمن بأنه سيحاسب على أقواله وأفعاله، شعر بالمسؤولية، فترك اللهو واللعب واللغو، ونهض جاداً
للعمل. أما من لم يؤمن باليوم الآخر، فإنه يظل طفلاً فكرياً، يخوض ويلعب، لا يشعر بجسامة
أقواله وأفعاله.

المحور الأول

{فَذَرَهُمْ}

الأمر الإلهي بترك الجدل... قطع الحوار وإهدار الاهتمام

غوص في معنى {فَذَرَهُمْ}: الفاء والأمر ودلالته النفسية

دعني - يا رعاك الله - أقف بك ملياً عند هذه الكلمة المركزية: {فَذَرَهُمْ}.

{فَ}: الفاء للتفريع والترتيب. والمعنى: "بناءً على ما تقدم من قيام الحجة عليهم، ومن إفحامهم بـ
المنطق، ومن إصرارهم على الباطل رغم وضوح الحق... إذا فذرهم!" الفاء هنا تفيد أن تركهم ليس

هو الخيار الأول، بل الخيار الأخير بعد استنفاد كل الوسائل.

{ذَرَهُمْ}: فعل أمر من "وذر"، وهو بمعنى "اترك" و"أهمل". لكن "ذر" أبلغ من "اترك"؛ لأنها تحمل معنى إهمال والإعراض والتحقير. ليست فقط "اتركهم وشأنهم"، بل "أهملهم ولا تعرهم اهتمامًا، واحتقر شأنهم، ولا تشغل بالك بهم".

لماذا هذا الأمر؟ تحليل الأسباب:

1. لأنهم لا يستحقون الاهتمام: هؤلاء قوم تحدثوا في أمور لا علم لهم بها (الغيب، صفات الله .) ومن تكلم بلا علم، فقد أسقط احترامه، وأهدر حقه في أن يُستمع إليه.
2. لأن النقاش معهم مضيعة للطاقة: الطاقة التي ستنفقها في محاولة إقناعهم هي طاقة مهدرة، لأنهم لا يريدون الحق أصلاً {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ}.
3. لأن الاهتمام بهم يرفع من شأنهم: حين تناقش طفلاً في قضايا الكبار، فأنت تمنحه مكانة لا يستحقها، وترفع من قيمة كلامه. وكذلك هؤلاء، فإن جدالك معهم يضيف عليهم أهمية هم ليسوا أهلًا لها.
4. لأن الإهمال في حد ذاته عقاب: هؤلاء يريدون لفت الانتباه، ويريدون أن يشعروا بأنهم ند للداعية . فحين تتركهم وتهملهم، فإنك تعاقبهم بإشعارهم بأنهم لا شيء.

مثال تقريبي:

تأمل عالماً كبيراً في الفيزياء، يأتيه طفل صغير في الخامسة من عمره، ويقول له: "الجاببية غير موجودة! وأنا سأثبت ذلك!". ماذا يفعل العالم؟ هل يدخل معه في نقاش طويل، ويقيم له الحجج على وجود الجاببية؟ كلا! يبتسم ويمضي في طريقه. لماذا؟ لأن مستوى الطفل لا يؤهله لفهم الحجج، والجدال معه يضيع وقت العالم، ويمنح الطفل مكانة لا يستحقها. هذا هو موقف المؤمن مع هؤلاء الكافرين تماماً.

دلالة الإهمال والتحقير كأسلوب تربوي ودعوي:

إن الأمر بتركهم ليس ضعفاً ولا عجزاً عن الرد، بل هو قمة القوة. إنه يقول لهم: "أنتم لا تستحقون حتى أن أرد عليكم!". وهذا أشد عليهم من الرد. فالساكت عن جوابك قد يكون أشد إيلاماً لك من المجيب الذي يفحملك. إنه إعلان بأنك لا شيء في ميزانه.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: صون الطاقة الفكرية وعدم تبديدها في غير محلها
الآية تعلمنا مبدأ "اقتصاد الجهد". لا تنفق طاقتك في جدل عقيم مع من لا يستحق. حافظ على طاقتك لما ينفع.

الرسالة النفسية: لا تجعل من لا يستحقون يشغلون بالك
كم من الناس يشغلون أنفسهم بماذا يقول عنهم المبطلون! هذه الآية تقول لك: "ذرهم". لا تشغل بالك بهم، ولا تدعهم يستنزفون طاقتك النفسية.

الرسالة التربوية: علم أبنائك ألا يناقشوا كل أحد
ليس كل سؤال يستحق جواباً. وليس كل معترض يستحق حواراً. علمهم أن يفرقوا بين السائل الباحث عن الحق، والمعاند الذي يريد الجدال.

المحور الثاني

{يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا}

تصوير الكفار بصورة الأطفال... الخوض واللعب بدل الجد والعمل

غوص في معنى {يَخُوضُوا}: الخوض في الباطل بلا علم ولا دليل

{يَخُوضُوا}: فعل مضارع من "الخوض". والخوض في اللغة: هو الدخول في الشيء والمضي فيه بلا

روية ولا تبصر. وأصله: خوض الرجل في الماء، أي مشى فيه بلا هدى ولا طريق واضح.

فالمعنى: دعهم يخوضوا في أباطيلهم، وفي كذبهم على الله، وفي جدلهم العقيم. يخوضون في حديث لا علم لهم به، وفي غيب لا يدركونه، وفي تصورات لا تستند إلى عقل ولا نقل. يخوضون كما يخوض الجاهل في الماء لا يدري أين يضع قدمه.

{وَيَلْعَبُوا}: اللعب - شغل الصبيان الذين لم يبلغوا رشدهم

{وَيَلْعَبُوا}: فعل مضارع من "اللعب". واللعب: هو فعل لا يجدي نفعاً، تقصد به المتعة والتسلية وإضاعة الوقت، لا الوصول إلى غاية شريفة. واللعب من شأن الأطفال الذين لم تنضج عقولهم بعد.

فالمعنى: دعهم يلعبوا! يلعبوا بأفكارهم الواهية، ويصنعوا لأنفسهم عوالم من الأوهام، ويتصوروا أنهم يحسنون صنعا. إنهم كالأطفال الذين يبنون بيتاً من الرمل، ويفرحون به، ويظنونهم حقيقة، ثم تأتي موجة فتتمحوه في لحظة.

لماذا جمع الله بين "الخوض" و"اللعب"؟

الجمع بينهما يشير إلى حقيقتين:

1. الخوض: يدل على أن كلامهم لا يستند إلى علم، بل هو تخبط في الظلمات.
2. اللعب: يدل على أن غايتهم ليست الوصول إلى الحق، بل هي التسلية وقضاء الوقت والجدل للجدل.

فهم يخوضون (أي يتحركون) ولكن في باطل، ويلعبون (أي يستمتعون) ولكن بما لا يجدي. إنها صورة دقيقة لمن يجادل بلا علم، ويتكلم في الغيب بلا وحي، ويدعي ما ليس له به علم.

تصوير الكفار كالأطفال - دلالات نفسية وتربوية:

هذا التصوير القرآني للكافرين بأنهم كالأطفال يلعبون له أبعاد عميقة:

1. تحقيرهم: الطفل لا يؤخذ كلامه على محمل الجد. فكذلك هؤلاء، كلامهم لا يستحق أن يؤخذ بجديّة.
2. بيان أنهم لم يبلغوا رشدهم العقلي: كما أن الطفل لم ينضج عقله بعد، فهؤلاء لم تنضج عقولهم بعد، رغم أن أجسادهم أجساد رجال.
3. إشعار المؤمن بالعزّة: المؤمن هو "الرجل" الناضج، وهم "الأطفال". فلا ينبغي للرجل أن ينزل إلى مستوى الطفل.
4. بيان أن الحياة الحقيقية هي حياة الجد والعمل: هؤلاء يعيشون في "لعب"، أما المؤمن فيعيش في "جد". {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ}.

مثال تقريبي:

تأمل طفلاً يجلس على شاطئ البحر، يبني قلاعاً من الرمل، ويتصور أنه يبني مدينة عظيمة. ينادي أباه: "انظر! لقد بنيت مدينة!". الأب يبتسم، ولا يدخل معه في نقاش هندسي عن قوانين البناء! لأنه يعرف أن هذا لعب أطفال. هكذا حال الكافرين مع أفكارهم وفلسفاتهم ومؤامراتهم. هي قلاع رملية، ستتمحوها موجة يوم القيامة.

متى يكون الكافر بهذه الصورة؟

ليس كل كافر على هذه الحال. هناك كفار عندهم شبهات وعندهم أسئلة، وهؤلاء يناقشون ويحاورون. أما هؤلاء المذكورون في الآية، فهم قد بلغوا درجة من العناد والاستكبار والجهل، جعلهم لا يستحقون إلا الإهمال. إنهم {قَوْمٌ خَصِمُونَ}، {لِحَقِّ كَارِهِونَ}. وهؤلاء هم الذين يصرف عنهم النظر.

رسائل ودروس وتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: ليس كل قول يستحق ردّاً
بعض الأقوال تافهة لدرجة أن الرد عليها يمنحها قيمة لا تستحقها. الإهمال هو الرد الأمثل على الترهات.

الرسالة النفسية: لا تعط التافهين أكبر من حجمهم
إذا شغلك كلام السفهاء، وناقشتهم، ورددت عليهم، فإنك تمنحهم حجماً أكبر من حجمهم الحقيقي.

الرسالة التربوية: علم أبنائك أن يتركوا الجدل التافه
علمهم أن يقولوا: "هذا كلام لا يستحق الرد"، بدل الدخول في مهاترات لا نهاية لها.

المحور الثالث

{حَتَّى} يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ

التهديد المبطن... الإهمال مؤقت والحساب آت

غوص في معنى {حَتَّى}: الغاية والنهاية

{حَتَّى}: حرف غاية. والمعنى: أن تركهم وإهمالهم ليس مطلقاً إلى الأبد، بل هو إلى غاية محددة:
{يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ}. (ففي ذلك اليوم، سينتهي اللعب، ويبدأ الجد. سينتهي الخوض، ويبدأ الحساب.

{يُلَاقُوا}: الملاقاة - المواجهة الحتمية

{يُلَاقُوا}: من اللقاء، وهو المواجهة. والمعنى: أنهم الآن في غفلة ولعب، وسيأتي يوم يلاقون فيه
جزاءهم ويواجهون فيه أعمالهم. وهذا اللفظ يشعر بأنهم لا يستطيعون الهرب من هذا اليوم، بل هم
سائرون إليه سيراً حتمياً.

{يَوْمَهُمُ}: اليوم المخصوص بهم

{يَوْمَهُمُ}: أضيف اليوم إليهم، وهو يوم القيامة. وتسميته "يومهم" تشعر بأنه يوم يخصهم، أعد لهم فيه
ما يستحقون، وسيلاقون فيه ما يليق بهم من العذاب المقيم.

{الَّذِي يُوعَدُونَ}: الوعد الذي لا يتخلف

{الَّذِي يُوعَدُونَ}: اسم موصول صفة لليوم. والوعد هنا وعيد. والمعنى: اليوم الذي وعدهم الله به في
القرآن، وتوعدهم به على السنة الرسل. وهو آتٍ لا محالة: {إِنْ مَا تُوَعَدُونَ لَأَتِ}.

الرسائل والدروس والتوجيهات من هذا المقطع:

الرسالة الفكرية: تركهم لا يعني ترك الحساب
إهمالهم في الدنيا لا يعني أنهم أفلتوا. الله يمهّل ولا يهمل. والجزاء آتٍ في يومهم الموعود.

الرسالة النفسية: طمأنينة المؤمن بأن العدالة آتية
قد يحزن المؤمن من أن يرى المبطلين يخوضون ويلعبون دون حساب. هذه الآية تطمئنه: هناك يوم
سيلاقون فيه جزاءهم.

الرسالة التربوية: لا تتعجل العقاب
علم أبنائك أن الظالم قد يفلت من عقاب الدنيا، لكنه لن يفلت من عقاب الآخرة. اصبر، ولا تتعجل.

المحور الرابع

دلالة ارتباط الإهمال بالإيمان باليوم الآخر - كيف يصنع الإيمان العقل الناضج؟

تأمل - يا رعاك الله - الربط الخفي في الآية: هؤلاء الكافرون يخوضون ويلعبون... لماذا؟ {لأنهم} لا
يَرْجُونَ لِقَاءَ تَا} (كما في آيات أخرى). لو كانوا يؤمنون باليوم الآخر، لارتدعوا عن هذا اللهو واللعب. إلا
إيمان باليوم الآخر هو الذي يصنع العقل الناضج.

كيف يصنع الإيمان باليوم الآخر العقل الناضج؟

1. الشعور بالمسؤولية: من آمن بأنه سيُسأل عن أقواله وأفعاله، شعر بالمسؤولية، فترك اللعب واللغو، واشتغل بالجد والعمل.
2. ترك الخوض في الباطل: من آمن بأنه سيحاسب على كل كلمة، فكر قبل أن يتكلم، ولم يخض في أمور لا علم له بها.
3. الارتقاء عن السفاهات: من آمن بأن هناك يومًا عظيمًا ينتظره، ارتفعت همته، فلم يشغل بالسفاهات والتوافه.
4. الاستعداد للمستقبل: كما أن الشاب الذي تزوج وأصبح مسؤولاً عن أسرة، يترك ألعاب طفولته وينهض لطلب الرزق وتحمل المسؤولية، فكذلك المؤمن باليوم الآخر، يترك لهو الدنيا ولعبها، وينهض للعمل للآخرة.

الكافر طفل فكريًا لأنه لا يؤمن بالآخرة:

عقل الكافر - مهما بلغ من الذكاء - يظل ناقصًا، لأنه لم يتصل بالإيمان بالغيب. الإيمان بالغيب هو الذي يرفع العقول من الجهل إلى العلم، ومن الطفولة إلى النضج. إنه كنافذة في الغرفة المغلقة: بدونها، يظل العقل معتمًا، مهما كان فيه من أثاث فاخر.

الأنبياء وحدهم مصدر المعرفة بالغيب:

هؤلاء الكافرون تحدثوا في الغيب (فقالوا: الملائكة بنات الله، وقالوا: لله ولد). من أين لهم هذا؟! إنهم يتحدثون بلا مصدر. المصدر الوحيد الموثوق للحديث في الغيب هو الأنبياء، لأنهم يتصلون بالله بالوحي. أما من تحدث في الغيب بلا وحي، فهو طفل يلعب، لا يدري ما يقول.

رسائل ودروس وتوجيهات شاملة:

الرسالة الفكرية: الإيمان باليوم الآخر هو مناط الرشد بدون الإيمان باليوم الآخر، يظل الإنسان - مهما بلغت شهاداته - طفلًا فكريًا، يخوض ويلعب.

الرسالة النفسية: الشعور بالمسؤولية هو بداية النضج حين تشعر أنك مسؤول عن كل كلمة تقولها، فإنك ستنضج فكريًا ونفسيًا.

الرسالة التربوية: ازرع في أبنائك الإيمان باليوم الآخر لا تكفّر بتعليمهم الصلاة والصيام. ازرع فيهم اليقين بأن هناك يومًا سيحاسبون فيه على كل صغيرة وكبيرة. هذا اليقين هو الذي سيصنع منهم رجالًا ونساءً ناضجين مسؤولين.

المحور الخامس

الأبعاد والآفاق من الآية: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد الأول: البعد الدعوي - فن إدارة الحوار ومعرفة متى يتوقف الآية تقدم درسًا عظيمًا للدعاة والمصلحين: ليس كل معترض يستحق جوابًا. وليس كل من فتح فمه يستحق أن تفتح فمك للرد عليه. الإهمال قد يكون أبلغ من النقاش.

البعد الثاني: البعد النفسي - حماية الذات من الاستنزاف الآية تحمي المؤمن من الاستنزاف النفسي. فبدلاً من أن يحترق أعصابه على من لا يستحقون، يتعلم أن يتركهم ويمضي.

البعد الثالث: البعد الاجتماعي - إعادة تعريف "القيمة" الآية تهز المعايير الاجتماعية. "العظماء" في نظر الناس (أغنياء، حكام، متكبرون) هم في ميزان الآية "أطفال يلعبون". والمؤمن هو "الرجل" الناضج.

البعد الرابع: البعد التربوي - تربية الجيل على الجد لا على اللهو

الآية تربي المؤمن على أن يكون جادًا في حياته، لا هازلاً " لاعبًا. {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا}.

البعد الخامس: البعد الحضاري - بناء الحضارة على الشعور بالمسؤولية
الحضارة تبنى بسواعد الجادين، لا بألسنة اللاعبين. والشعور بالمسؤولية ينبع من الإيمان باليوم الآخر.

المحور السادس

ما تدعونا إليه الآية في الواقع المعاصر

أولاً : عدم الانشغال بالمجادلين على وسائل التواصل
في عصر السوشيال ميديا، يكثر "المجادلون" الذين يخوضون ويلعبون. الآية تدعونا إلى تركهم وعدم الانشغال بهم.

ثانياً: تقدير قيمة الوقت
الوقت أثمن من أن يضيع في جدل مع من لا يعقل. اصرف وقتك فيما ينفعك.

ثالثاً: تربية النفس على الشعور بالمسؤولية
ذكر نفسك دائماً بأن كل كلمة تقولها أنت مسؤول عنها. هذا الشعور سيجعلك لا تخوض ولا تلعب.

رابعاً: تعليم الأبناء اقتصاد الجهد
لا تربي أبنائك على أن يردوا على كل من تكلم فيهم. علمهم أن يفرقوا بين ما يستحق الرد وما لا يستحق.

المحور السابع

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

المفهوم الفكري: ليس كل جدال محموداً
القرآن يفرق بين الجدال بالتي هي أحسن، والجدال العقيم. والآية تأمر بقطع الثاني.

المفهوم النفسي: الإهمال قوة لا ضعف
حين تترك الجاهل ولا ترد عليه، فأنت تظهر قوتك، لا ضعفك. الضعيف هو من يلتفت لكل نابح.

المفهوم التربوي: تربية النشء على الجد لا اللعب
لا تربي أبنائك على أن الحياة لعب ولهو. ربهم على أنهم مسؤولون، وأن هناك يوماً سيحاسبون فيه.

المحور الثامن

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآية؟

الإرادة الأولى: أن نحسن إدارة وقتنا وجهدنا
يريدنا ألا نضيع طاقتنا في جدل لا طائل منه.

الإرادة الثانية: أن نترك من لا يستحق الاهتمام
يريدنا أن نتعلم فن "التجاهل" مع من لا يستحق.

الإرادة الثالثة: أن نعيش الشعور بالمسؤولية
يريدنا أن نترك اللهو واللعب، ونعيش الجد والعمل.

الإرادة الرابعة: أن نوقن بأن العدالة آتية
يريدنا أن نطمئن إلى أن الله لن ينسى الظالمين، بل سيحاسبهم في يومهم الموعود.

المحور التاسع

تحويل مفاهيم الآية إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

المسار الأول: بناء الإنسان الجاد، المسؤول، الذي لا ينشغل بالسفاهات
الآية تبني إنساناً جاداً في حياته، لا يخوض ولا يلعب، ولا ينشغل بترهات المبطلين.

التطبيق العملي:

- حدد كل يوم أهم أولوياتك، ولا تدع المشتتات) جدل، مواقع تواصل، أخبار تافهة (تسرق وقتك.
- إذا وجدت نفسك في جدال عقيم، تذكر {فَذَرَهُمْ يَخْوضُوا وَيَلْعَبُوا} وانسحب.
- مثال تقريبي: شاب يقضي ساعات في جدال على تويتر مع مجهولين يقرأ هذه الآية فيقول: "أنا لا أستطيع أن أضيع وقتي هكذا. لدي مسؤوليات". فيغلق التطبيق وينجز عمله.

المسار الثاني: بناء المجتمع الذي يفرق بين الجد واللعب
الآية تبني مجتمعاً يقدر الجادين، ويهمش اللاعبين. مجتمعاً لا يعطي منبراً للسفهاء.

التطبيق العملي:

- لا تشارك منشورات تافهة. لا تعلق على كلام ساقط. احتقر السفافات، واجعل هذا الاحتقار ثقافة عامة.
- مثال تقريبي: في قناة على وسائل التواصل، ينشر أحدهم محتوى هابطاً. بدل أن يهاجمه الناس (فيرفعوا من مشاهداته)، يتجاهلونه تماماً، فيموت محتواه.

المسار الثالث: بناء الحضارة على المسؤولية لا على اللهو
الحضارة الغربية المعاصرة تقوم على ثقافة "الاستمتاع" و"اللعب". الحضارة الإسلامية تقوم على "المسؤولية" و"الجد". {فَذَرَهُمْ} تعني: اترك هذه الثقافة اللعابة، وابن ثقافة جادة.

التطبيق العملي:

- اجعل في حياتك اليومية وقتاً للجد) عمل، عبادة، تعلم (ووقتاً للراحة. ولا تجعل حياتك كلها لعباً.
- مثال تقريبي: شاب يخطط لأسبوعه. يحدد ساعات للعمل، وساعات للدراسة، وساعة للترفيه. يقول: "لا أريد أن أكون ممن يخوضون ويلعبون، بل ممن يعملون ويجدون".

خاتمة: هل تترك اللاعبين وتمضي إلى الجنة؟

أيها القارئ الكريم...

لقد جلسنا مع هذه الآية العظيمة: {فَذَرَهُمْ يَخْوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَأْتُواكُمُ الْيَوْمُ الَّذِي يَوْمَعُونَ}. لقد سمعنا الأمر الإلهي بترك الجدال العقيم مع من لا يستحق. لقد رأينا تصوير الكافرين بصورة الأطفال الذين يلعبون. لقد أدركنا أن الإيمان باليوم الآخر هو الذي يصنع العقل الناضج، وأن من لا يؤمن به يظل طفلاً فكرياً.

والآن أسألك بصدق:

- كم من وقتك أضيع في جدال لا طائل منه مع من لا يعقلون؟
- هل تشعر بالمسؤولية عن كل كلمة تقولها، أم أنك تخوض وتلعب؟
- هل عزمت - من اليوم - على أن تترك "اللاعبين" وتمضي في طريقك إلى الله؟

اتخذ قرارك الآن.

المبحث الثالث

تفسير الآيات (84-86) من سورة الزخرف

تقدمة لا بد منها: موقع الآيات من السياق ومن إعلان التوحيد الخالص بعد ترك الجدل العقيم

قف معي - يا رعاك الله - وقفة التأمل الذي يدرك أن من أعظم مقاصد هذا القرآن أن يبني في قلب المؤمن عقيدة راسخة، ويملاه يقيناً يغنيه عن كل جدال، ويصله بالله مباشرة في كل حال.

لقد وقفنا في الآية السابقة (83) أمام الأمر الإلهي الحاسم بترك الجدل العقيم: {قَدْزَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَأْتُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ}. لقد كان ذلك الأمر موجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم بالألا يستنزف طاقته مع قوم لا يريدون الحق، بل جعلوا دينهم لهواً ولعباً.

وهنا - يا رعاك الله - يأتي التعقيب الإلهي المباشر الذي يوجه قلب النبي صلى الله عليه وسلم و المؤمنين إلى الحقيقة الكبرى التي تريح القلب وتسكنه. بعد أن أمره بتركهم، لم يتركه في فراغ، بل أعطاه البديل: التأمل في صفات الله العظمى، والإعلان الصريح بتوحيده، والتفويض المطلق إليه.

إنه سبحانه يقول: لا تحزن عليهم ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، بل املأ قلبك بعظمة الله: إنه هو الإله في السماء وفي الأرض، الحكيم العليم. فالله لم يخلق الخلق عبثاً، ولم يهملهم سدى، بل هو الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه. ثم يأتي البيان الشافي بأن الله هو مالك الملك، وأن علم الساعة عنده، فلا تستعجل لهم، ثم يفصل في قضية الشفاعة التي كانوا يعولون عليها، ليكشف حقيقتها: إنها ليست ملكاً لأصنامهم، بل هي خاصة بالله، لا ينالها إلا من شهد بالحق عن علم.

إنها آيات تنتقل بالمؤمن من حال الانشغال بالخصوم، إلى حال الانشغال بالله. إنها تملأ قلبه طمأنينة بأن الذي بيده الملك هو الذي سيتولى الحساب، وبأن الشفاعة ليست في أيدي العبيد بل بيد الرب وحده. هذا الإعلان هو زاد المؤمن حين ييأس من هداية المعاندين.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها والقضايا التي تناقشها

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيات الكريمة:

1. إثبات الألوهية المطلقة لله وحده في الكون كله: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ}.
2. الجمع بين الحكمة والعلم المطلقين في تدبير الخلق: {وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ}.
3. إثبات البركة والملك المطلق لله: {وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا}.
4. اختصاص الله بعلم الساعة وتقرير الرجوع إليه: {وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}.
5. نفى الشفاعة عن المعبودين من دون الله: {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ}.
6. إثبات الشفاعة لمن شهد بالحق عن علم و يقين: {إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}.

مقاصد الآيات وأهدافها:

1. تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن الأمر كله بيد الله، فلا يأسى على من كفر.
2. بيان أن التوكل على الله هو البديل العملي عن الجدل العقيم مع المعاندين.
3. تفنيد عقائد المشركين في الشفاعة وتصحيح مفهومها.
4. ترسيخ عقيدة التوحيد الخالص بذكر صفات الله العظمى.
5. غرس الطمأنينة في قلب المؤمن بأن المرجع يوم القيامة إلى الله وحده.

القضايا الكبرى التي تناقشها الآيات:

القضية الأولى: وحدة مصدر الألوهية والملك
الآيات تؤكد أن الإله الحق واحد، وهو نفسه مالك الملك. فمن كان هو الإله في السماء والأرض، فهو وحده المستحق للعبادة والتوكل.

القضية الثانية: الموازنة بين الإهمال المؤقت والعدالة المؤجلة
بعد أن أمر الله نبيه بترك المعاندين (الآية 83)، جاء ليؤكد أن هذا الترك ليس ناتجاً عن عجز، بل لأن الله هو الحكيم العليم الذي سيحاسبهم في الوقت المناسب، وأن علم الساعة عنده. فلا تستعجل لهم.

القضية الثالثة: الشفاعة الحقة والشفاعة الباطلة

المشركون عبدوا الأصنام زاعمين أنهم شفعاؤهم عند الله. الآيات تنسف هذا الزعم، وتثبت أن الشفاعة ملك لله، وأنها لا تقع إلا بإذنه، ولن تكون إلا لمن شهد بالحق عن علم ويقين.

القضية الرابعة: أهمية العلم في الإيمان
الآية تشترط في أهل الشفاعة أنهم يشهدون بالحق وهم {يَعْلَمُونَ}. فالتقليد الأعمى لا يكفي، بل لا بد من اليقين والعلم.

المحور الأول

{وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ}

إثبات التوحيد المطلق... إله واحد في السماء والأرض

غوص في اللفظ والتركيب: {وَهُوَ} وضمير الفصل

دعني - يا رعاك الله - أقف عند أول حرف في الآية: {وَهُوَ}.
الواو للعطف، أي أن هذا الكلام مرتبط بما سبق من أمر النبي بتركهم. والمعنى: "ذرهم... واعلم أن الله هو الإله الحق". ضمير الفصل {هُوَ} هنا يفيد الحصر، فالله وحده هو الإله، لا شريك له ولا ند.

{فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ}: إبطال عقيدة تعدد الآلهة

في هذه الجملة، يقرر الله أنه هو المعبود في السماء وفي الأرض. فملائكة السماء يعبدونه، وهو المستحق للعبادة في الأرض. وهذا رد على المشركين الذين كانوا يعتقدون بآلهة خاصة بالأرض وأخرى بالسماء، أو يعتقدون أن الله إله بعيد عن الخلق، وجعلوا لأنفسهم أرباباً من دونه. المعنى هنا: هو المعبود في السماء بقدرته وقهره، وفي الأرض بإحسانه ورحمته.

{وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ}: جمع صفتي الحكمة والعلم

بعد تقرير الألوهية، يقرر الله كمال العلم والحكمة.

{الْحَكِيمُ}: الذي يضع الأمور في مواضعها. إذا كان قد أمرك بتركهم، فذلك لحكمة بالغة، منها صون طاقتك، ومنها استدراجهم.
{الْعَلِيمُ}: المحيط بكل شيء علماً. يعلم ما تكنه صدورهم، ويعلم ما يصلح لك. لأنه عليم، فقد اختار لك ما هو خير.

الرسائل والدروس والتوجيهات:

الرسالة الفكرية: الإيمان بوحدة الألوهية يستلزم إفراد الله بالعبادة في كل زمان ومكان.
الرسالة النفسية: إذا كان الله هو الحكيم العليم، فاطمئن لتدبيره ولا تعترض على أمره.
الرسالة التربوية: علم أبناءك أن الإله الحق واحد، يُعبد في السر والعلن، ويُراقب في السماء والأرض.

المحور الثاني

{وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}

تعظيم الله... البركة والملك وعلم الغيب والمرجع

غوص في معنى {وَتَبَارَكَ}: الخير الدائم والكمال المطلق

{تَبَارَكَ}: فعل ماض لا يتصرف، يدل على كثرة الخير والبركة ودوامها. أي تعالى وتمجد وقُدس. إنها كلمة تعظيم وتمجيد تليق بمن له ملك السماوات والأرض. وكثرة خيره ظاهرة في خلقه ورزقه وتدبيره. وهو المتنزه عن كل نقص.

{الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا}: سعة الملك وشموله

{لَهُ مُلْكٌ}: اللام للملكية المطلقة. هو المالك لكل شيء، المتصرف فيه. {وَمَا بَيْنَهُمَا}: الهواء، السحاب، الطير، الملائكة. هذا التفصيل يبين سعة ملكه وإحاطته بكل شيء. السؤال الضمني: إذا كان هذا هو ملك الله، فكيف يخاف المؤمن من مخلوق لا يملك شيئاً؟ هذا هو معنى التوكل: أن تعلق قلبك بالمالك وحده.

{وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}: اختصاص الله بعلم الغيب

{عِنْدَهُ}: ظرف يفيد الاختصاص. أي لا يعلم وقت الساعة إلا هو. هذا رد على المشركين الذين كانوا يستعجلون العذاب استهزاءً، فيقول الله: موعد الساعة في علمي وحدي، فذروهم حتى يلاقوا يومهم. وفي هذا تسلية للنبي، فكأنه يقول: لا تستبطئ عقابهم، فالموعد بيد العليم الحكيم.

{وإِلَيْهِ تَرْجَعُونَ}: المصير المحتوم

الخطاب هنا للمشركين المتضمن للوعيد، وللمؤمنين المتضمن للوعد. أي إليه وحده مرجعكم يوم القيامة، لا إلى آلهتكم.

الرسائل والدروس والتوجيهات:

الرسالة الفكرية: كل ما في الكون مملوك لله، فلا يستحق العبادة سواه.
الرسالة النفسية: لا تستعجل العقاب للظالمين. المرجع يوم القيامة إلى الله، وهو موعد العدالة الكاملة.
التربوية: ازرع في أبنائك الشعور بأنهم سيرجعون إلى الله، فيراقبونه في كل أفعالهم.

المحور الثالث

{وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}

بطلان شفاعاة الأصنام وإثبات الشفاعاة لأهل التوحيد والعلم

غوص في معنى {وَلَا يَمْلِكُ}: نفي القدرة والقوة (نفي الملكية)

هنا نفي قاطع للقدرة. {لَا يَمْلِكُ} أي لا يقدر ولا يستطيعون. فالآلهة المزعومة سواء كانوا ملائكة أم أنبياء أم أصناماً لا يملكون أمر الشفاعاة.

{الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ}: تحديد هوية العاجزين

{يَدْعُونَ}: يعبدون. كل من عبد من دون الله لا يملك مثقال ذرة من الشفاعاة إلا بإذن الله، وهو لا يأذن لهم أن يشفعوا للمشركين.

{إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ}: استثناء الشفاعاة لأهل التوحيد

هذا استثناء منقطع، والمعنى: لكن من شهد بالحق (أي قال لا إله إلا الله) فهذا هو الذي تنفعه الشفاعاة.

فالملائكة والأنبياء لا يشفعون إلا لهذا الصنف من الناس. أو أن المعنى: لا يملك أحد أن يشفع عنده إ لا من شهد بالحق.

{وَهُمْ يَعْلَمُونَ}: شرط العلم واليقين في صحة التوحيد

هذا قيد عظيم، فمن نطق الشهادة تقليداً بلا علم أو يقين، فإن شهادته غير نافعة. العلم هنا هو العلم بالله ووحديته. وفيه حث على التعلم وترك التقليد الأعمى.

الرسائل والدروس والتوجيهات:

الرسالة الفكرية: الشفاعة ملك لله، وهي مقصورة على من أذن الله لهم أن يشفعوا، وعلى من ارتضى الله لهم أن يشفع لهم.
الرسالة النفسية: لا تلتفت للوسائط الوهمية، تعلق بالله وحده، فهو الذي يملك الشفاعة.
التربوية: رب أبناءك على العلم واليقين، وليس على التلقين فقط، حتى يكونوا أهلاً للشفاعة.

المحور الرابع

الترابط بين الآيات وعلاقتها بسياق السورة

انظر - يا رعاك الله - كيف يعالج القرآن أزمة النبي صلى الله عليه وسلم مع قومه خطوة بخطوة:

1. بداية: أمره بتركهم وإهمالهم الآية (83).
2. وسط: توجيهه لإعلان التوحيد واليقين بالله الآية (84) فبدلاً من طاقة الجدل، التفت إلى طاقة التوحيد.
3. تأكيد: بيان أن الله مالك كل شيء الآية (85)، فكيف تخاف من أصنامهم أو تخشى مكرهم؟
4. نتيجة: تنفيذ عقيدتهم في الشفاعة الآية (86)، ليكمل تحرير القلب من كل خوف أو طمع في غير الله.

المحور الخامس

الأبعاد والآفاق من الآيات: النظرة الكلية والمقاصد العظمى

البعد العقدي:
الآيات ترسخ أركان الإيمان: الإيمان بالله (ألهيته وملكه)، والإيمان باليوم الآخر (وعنده علم الساعة)، والإيمان بالشفاعة. هذه الثلاثة مجتمعة تعطي المؤمن تصوراً كاملاً عن علاقته بربه.

البعد النفسي:
الانتقال من "الجدل" مع الخلق إلى "التسبيح" للخالق، يحرر النفس من القلق والاضطراب، ويملؤها سكوناً وطمانينة بإسناد الأمر إلى العليّ القدير.

البعد الاجتماعي:
إبطال منطق "الشفاعة بالواسطة" يحرر المجتمعات من سيطرة الكهنة والمشعوذين ومدعي الوساطة بين الله وخلقهم. إنه يقرر أن العلاقة بالله مباشرة، بلا وسطاء.

البعد الحضاري:
{وَهُمْ يَعْلَمُونَ} هو ميثاق الحضارة الإسلامية. فلا قيمة لإيمان لا يقوم على علم وعقل. لقد جعل القرآن العلم شرطاً لصحة الشهادة، وهذا يرفع من شأن العلم والمعرفة في بناء الحضارة.

المحور السادس

ما تدعونا إليه الآيات في الواقع المعاصر

أولاً: الثقة المطلقة في تدبير الله
حين يهاجم الإعلام الإسلام، أو يفترى الملحدون، أو يضطهد المؤمنون، فإن الآية تقول لك: لا تشغل نفسك كثيراً بالرد على كل صيحة، بل {فَذَرُهُمْ} (كما مضى)، واسكن إلى قوله {وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}.

ثانياً: مواجهة ثقافة "الشفاعات" المعاصرة
في عصر لا يزال بعض الناس يطلبون الشفاعة من أصحاب القبور، أو يعتقدون أن واسطة بشرية "تضمن" لهم الجنة، تأتي الآية صريحة: {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ}.

ثالثاً: التأكيد على أهمية العلم في الدين
الكثيرون اليوم يتدينون بالوراثة والتقليد. الآية تحثنا على أن نتعلم ديننا، وأن نعرف لماذا نحن مسلمون، استجابة لشرط {وَهُمْ يَعْلَمُونَ}.

المحور السابع

المفاهيم الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

المفهوم التطبيقي العملي
الفكري: وحدة الألوهية والملك لا تعتقد أن لله شريكاً في ملكه، ولا تجعل لأحد حظاً من العبادة أو الطاعة المطلقة إلا لله.
النفسية: التوكل بديل القلق كلما انشغلت بالخصوم، توضاً وصل ركعتين، وردد {وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ} لتعلم أن الأمر كله بيد الله.
التربوي: بناء الإيمان على العلم لا تكتفّر بتلقين أبنائك أركان الإيمان، بل ناقشهم، واسألهم عن الأدلة. انقلهم من "المسلم بالوراثة" إلى "المسلم باليقين".

المحور الثامن

ماذا يريد المولى عز وجل منا في هذه الآيات؟

الإرادة الأولى: أن نملاً قلوبنا بعظمته.
يريدنا ألا نرتبك من كثرة الباطل وأهله، لأننا نملك الحق الإلهي {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ}.

الإرادة الثانية: تفويض الأمر إليه.
يريدنا أن نكل علم العواقب إليه، فـ {وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}، فلا نستعجل النتائج.

الإرادة الثالثة: أن نتحرر من الخوف.
يريدنا أن نعلم أن أحداً لا يملك لنا ضراً ولا نفعاً ولا شفاعاً إلا بإذنه، فنخافه وحده.

الإرادة الرابعة: أن نتعلم.
يريدنا أن نكون من أهل "العلم" الذين تنفعهم شفاعة الشافعين.

المحور التاسع

تحويل مفاهيم الآيات إلى طاقة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

المسار الأول: بناء الإنسان المتيقن المتوكل
الآيات تبني إنساناً هادئ البال، واثقاً بربه، لأنه يعلم أن من يملك السماوات والأرض هو من يدبر أمره.

· التطبيق العملي: اكتب هذه الآيات واجعلها في محفظتك أو مكتبك، وانظر إليها كلما شعرت بالضيق من كيد الكائدين.

المسار الثاني: بناء المجتمع العلمي
مجتمعنا بحاجة إلى ثورة في مفهوم "التدين". يجب أن نتقل من تدين "التقليد" إلى تدين "العلم".

· التطبيق العملي: شجع حلقات دراسة العقيدة في مسجدك، واجعل شعارها: {إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}.

المسار الثالث: بناء الحضارة المستعلية بالتوحيد

الحضارة الإسلامية قامت على استعلاء المسلم بعقيدته، لا على انبهاره بالماديات.

· التطبيق العملي: في أي محفل، تحدث عن عظمة الخالق، ولا تنجر لنقاشات تافهة مع من يخوضون ويلعبون.

خاتمة: أين أنت أيها القارئ من "شهادة الحق"؟

أيها القارئ الكريم...

لقد ختمنا هذه الجولة الإيمانية في رحاب قوله تعالى: {إِنَّمَا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}. فاسأل نفسك الآن: هل أنا من هؤلاء؟ هل توحيدى لله نابع عن علم ويقين، أم هو ألفاظ حفظتها دون فهم؟

اجعل هذه الآية ميزاناً لحياتك، فمن شهد بالحق وهو يعلم، كان في أمان الله، وكان أهلاً لشفاعة النبيين والصديقين.

المبحث الرابع

تفسير خواتيم سورة الزخرف (الآيات 87-89)

تفسير الآيات (87-89) من سورة الزخرف

تقدمة لا بد منها: خواتيم السورة.. تلخيص القضية ومنح القلب طمأنينته الأخيرة

قف معي - يا رعاك الله - وقفة من أدرك أن خواتيم السور في القرآن الكريم ليست مجرد نهايات اعتباطية، بل هي لحظة الحصاد. بعد رحلة إيمانية طويلة في سورة الزخرف، نصل إلى هذه الآيات الثلاث التي تتوج كل ما سبق.

لقد طافت بنا سورة الزخرف في ميادين شتى: رأينا الدنيا تحقر لتكون متاعاً زائلاً، ورأينا إعراض المعرضين وقرناء السوء، ورأينا الصراع العظيم بين موسى وفرعون، وتأملنا في القلوب التي كرهت الحق وهي ترى آياته، وعشنا مشاهد الجنة والنار كأنها رأي العين، وتعلمنا فن ترك الجدل العقيم و التوكل على الله. وبعد هذا كله، كيف تختتم السورة؟

تختتم السورة - يا رعاك الله - بثلاث آيات تحمل خلاصة الصراع كله. إنها تختتم بمنطق الإقرار والاعتراف: اسألهم يا محمد: من خلقهم؟ سيقولون: الله! فإذا اعترفوا فلماذا ينصرفون عن عبادته وحده؟!

ثم تختتم بتسجيل شكوى النبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه: {يَا رَبِّ إِنِّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ}. ليست شكوى فنوط، بل شكوى تفويض. ثم يأتي الأمر الإلهي الأخير: {فاصفح عنهم}. إنه عفو القادر لا عجز، عفو المتمكن لا ضعف. وأخيراً، تأتي العبارة التي تختتم السورة كلها: {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}. إنها إحالة العلم إلى المستقبل، وتهديد ضمني بأن هذا التجاهل ليس نهاية المطاف.

إنه ختام يليق بسورة اسمها "الزخرف". فبعد أن بينت أن متاع الدنيا زخرف زائل، تختتم بالتسليم لله وحده.

المحور التمهيدي: الأفكار الرئيسية للآيات ومقاصدها وأهدافها والقضايا التي تناقشها

الأفكار الرئيسية التي تعالجها الآيات الكريمة:

1. تقرير حقيقة فطرية لا يمكن إنكارها: {وَلَّيْن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ.}
2. التعجب من انحرافهم عن مقتضى هذه الحقيقة: {فَأَتَى يُؤْفَكُونَ.}
3. تسجيل شكوى النبي ونقلها إلينا: {وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنِّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ.}
4. الأمر الإلهي بالصفح الجميل: {فاصفح عنهم.}
5. التهديد الختامي وتحويل العلم إلى يوم الحساب: {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ.}

مقاصد الآيات وأهدافها الختامية:

1. إقامة الحجة النهائية على المشركين عبر إرجاعهم إلى فطرتهم.

2. تسليية النبي صلى الله عليه وسلم بأن شكواه مسموعة ومسجلة عند الله.
3. تعليم المؤمنين فن "الصفح" مع الاحتفاظ بالكرامة والنفقة بالجزاء.
4. ختم السورة بمعنى التوازن بين الصفح في الظاهر، واليقين بالعدالة في الباطن.
5. ربط أول السورة بآخرها: فمن بدأ بزخرف الدنيا وزينتها، ختم بالصفح عن المغترين بها.

القضايا الكبرى التي تناقشها الآيات في هذا الختام:

القضية الأولى: سلطان الفطرة ودليل الخلق
الآيات تختتم بنفس الدليل الذي بدأت به رسالات السماء: {مَنْ خَلَقَهُمْ}. إنه دليل لا يحتاج إلى فلسفة معقدة. خلقك دليل على خالقك. وهذه هي الحجة البالغة.

القضية الثانية: ظاهرة "الإفك" - انصراف العقل عن مقتضى الفطرة
رغم الاعتراف بالخالق، ينصرفون إلى عبادة غيره. هذه الظاهرة هي جوهر الضلال.

القضية الثالثة: التوازن بين الصفح والتهديد
الختم لا يأمر بالحرب ولا بالجزع، بل يأمر بالصفح، مع ترك الباب مفتوحاً للعقاب الأخروي.

القضية الرابعة: أهمية "قيل" النبي - كرامة المقام
تسجيل شكوى النبي في القرآن دليل على كرامته عند ربه.

المحور الأول

{وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ} فَأَتَىٰ يُؤْفَكُونَ}

حجة الفطرة.. حين ينهار الباطل بسؤال واحد

غوص في معنى {وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُمْ}: القسم الشرطي وكشف الحقيقة

دعني - يا رعاك الله - أختتم معك هذه السورة بهذا التحليل.

{وَلَّيْنِ}: اللام لام القسم. كأن الله يقسم: والله لئن سألتهم. (هذا القسم يعطي الجملة قوة هائلة، فهي حقيقة محسومة لا شك فيها.

{سَأَلْتَهُمْ}:

فعل السؤال هنا ليس استفهاماً، بل هو تقرير وإلزام. يقول له: أسألكم، واجعلهم يواجهون أنفسهم.

{مَنْ خَلَقَهُمْ}:

السؤال موجه إلى الفطرة مباشرة. لم يقل: "من رزقكم؟" أو "من يحيي ويميت؟" مع أن هذه كلها دلائل، بل قال: {خَلَقَهُمْ}. {الخلق الأول هو الدليل الأعمق على وجود الخالق.

{لِيَقُولُنَّ اللَّهُ}: اعتراف لا يملكون معه إنكاراً

{لِيَقُولُنَّ}: اللام لام القسم، والنون نون التوكيد الثقيلة. إنه جواب القسم. أقسم ليقولن: الله. لا يملكون إلا هذا الجواب، حتى لو كانوا مشركين. فالمشركون في مكة كانوا يعتقدون أن الله هو الخالق، ومع ذلك يعبدون الأصنام.

. سبب الاعتراف: لأن هذه الحقيقة مركوزة في الفطرة. فالإنسان إذا رد إلى أصل فطرته يدرك أن لهذا الكون خالقاً مدبراً.

{فَأَتَىٰ يُؤْفَكُونَ}: استفهام التعجب والإنكار

{فَأَتَىٰ}: استفهام إنكاري بمعنى "كيف؟". فيه تعجب ودهشة من هذا التناقض العجيب.

{يُؤْفَكُونَ}: من الإفك، وهو الصرف. أي كيف يُصرفون عن توحيد الله في العبادة، بعد أن أقروا بتوحيده في الخلق؟!

دلالة هذه الآية في ختام السورة:

لقد افتتحت السورة بقوله {حم} والكتاب المبين، وها هي تختتم بحجة الخلق. كأنها تقول: "أقسمنا بـ

الكتاب المبين الذي فيه الهدى، واسألهم عن أصل خلقتهم ليروا أن هذا الكتاب يهديهم للحق".

الرسائل والدروس:

- استخدم أسلوب "السؤال" لإيقاظ الفطرة، بدلا من الجدل الطويل.
- تناقض المشركين يكشف أن مشكلتهم ليست في العقل، بل في الهوى.

المحور الثاني

{وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ}

شكوى النبي إلى ربه المسجلة في القرآن.. منتهى التكريم ومنتهى التسليّة

غوص في معنى {وَقِيلَ}: لفظة بلاغية معجزة

هذه الكلمة - يا رعاك الله - تحتاج منا وقفة خاصة، فهي من أعجب كلمات القرآن في خواتيم السور.

- الواو: واو القسم. أقسم الله بقول نبيه وشكواه إليه.
- {وَقِيلَ}: مصدر بمعنى "قوله". والمصدر المضاف هنا يفيد التعظيم. الله يقسم بشكوى النبي!
- المعنى العام: وعزتي وجلالي، وعلمي المحيط، وقول محمد صلى الله عليه وسلم: يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون.
- دلالة القسم: الله يقسم بكلام نبيه وشكواه. هذا يعني أن شكوى النبي عظيمة عند الله لدرجة أنه يقسم بها. إنه تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم بأن الله جعل تأوّهه وشكواه قرآنا يُتلى إلى يوم القيامة.

{يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ}: تحليل الشكوى النبوية

النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن جادلهم وأقام الحجة عليهم وتركهم، لم يبأس، بل رفع الأمر إلى الله. قال: {يَا رَبِّ} بنداء الحب والقرب.

ثم وصفهم بقوله: {إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ}. لم يقل: (لا يسمعون) أو (لا يعقلون). بل قال: (لا يؤمنون). لأنه يعلم أن أصل الداء هو فقدان الإيمان. وأتى باسم الإشارة (هؤلاء) للتحقير لا للتعظيم.

الرسائل التربوية والدعوية من الآية:

- حين تغلق في وجهك الأبواب، لا تجزع، بل ارفع شكواك إلى الله.
- فضفضة العبد إلى ربه عبادة، وقد تكون شكواك عند الله قرآنا يُتلى.

المحور الثالث

{فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}

الأمر الإلهي الأخير في السورة.. الصفح الجميل والوعد الأخير

غوص في معنى {فَاصْفَحْ عَنْهُمْ}: الصفح لا الهزيمة

- {فَاصْفَحْ}: الفاء للتفريع. أي بناء على أنهم لا يؤمنون، وبناء على أن شكواك عندنا مسجلة، فاصفح عنهم.
- الفرق بين الصفح والعفو: الصفح أبلغ من العفو. العفو هو ترك المؤاخذه، أما الصفح فهو محو أثر الذنب من النفس ونسيانه وعدم بقاء الغل في الصدر.
- لماذا الصفح هنا؟: هذا هو قانون الدعوة بعد استنفاد الجهد. لقد استنفد النبي صلى الله عليه وسلم كل طرق الإقناع، وأفحمهم بالحجة، ورأى منهم الأذى، فبأمر الأمر الإلهي: "الآن، طهر قلبك منهم". اصفح. لا تحمل همهم، ولا تشغل بالك بهم.

{وَقُلْ سَلَامٌ}: سلام المتاركة لا سلام التحية

{سَلَامٌ}: ليس سلام تودد وتحبب، بل هو سلام المتاركة وقطع الجدل. إنه إعلان أمان لهم من الا
نشغال بهم.
· دلالتها: هي كلمة الفصل الأخير من النبي لمن طال جدالهم. كأنه يقول: "أما لك مني، لن أجادلكم
بعد اليوم، ولكم دينكم ولي دين".

{فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}: التهديد الختامي

هذه هي آخر كلمة في السورة، وهي تهديد وتحذير.

{فَسَوْفَ}: حرف تسوييف، يدل على المستقبل القريب أو البعيد. سيأتي يوم يعلمون فيه حقيقة ما
كانوا عليه.
{يَعْلَمُونَ}: هنا لم يحدد ماذا سيعلمون، ليبقى التهديد مفتوحاً على مصراعيه. سيعلمون صدقك يا
محمد. سيعلمون عاقبة كفرهم عند الموت، في القبر، يوم القيامة.

دلالة اختتام السورة بهذه الآية:

1. مطابقة لبدائتها: السورة بدأت بالكتاب المبين، وختمت بحالة المكذبين الذين سيعلمون الحق يوم
القيامة.
2. مناسبة لاسم السورة: السورة اسمها "الزخرف"، وفيها تحقير للدنيا وزخرفها. فمن اغتر بزخرف
الدنيا وكذب، فسوف يعلم يوم لا ينفع الندم.
3. تحقيق التوازن: الصفح في الدنيا لا يعني النسيان. "سوف يعلمون" تحفظ كرامة المؤمن، فلا يظن
الظالم أنه أفلت، ولا يظن المؤمن أنه ضيع حقه.

المحور الرابع: خلاصة دلالة الاختتام بهذه الآيات

أولاً: الاختتام بـ "سؤال الفطرة" ودلالته
ختمت السورة بنفس القضية التي دارت حولها: التوحيد. لكنها عرضتها بطريقة السؤال المفحم {مَنْ
خَلَقَهُمْ}.

· الدلالة: مهما تفرعت القضايا في السورة (تكذيب، إعراض، جدل، قصص)، فإن أصل الداء هو الا
نحراف عن مقتضى الفطرة.

ثانياً: الاختتام بـ "قيل النبي" ودلالته
الله سبحانه يسجل في كتابه الخالد كلمة قالها النبي في لحظة ضيق.

· الدلالة: هذا تكريم لا يدانيه تكريم. لقد رفع الله شكوى نبيه إلى مقام القسم القرآني. كل داعية
يتألم من تكذيب قومه، يمكنه أن يردد قوله: يَا رَبِّ إِنِّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ، ويعلم أن الله يسمعه.

ثالثاً: الاختتام بـ "فاصفح" و"سوف يعلمون" ودلالتهما
هذا هو التوازن العجيب. "اصفح" تطهير للقلب، و"سوف يعلمون" طمأنة للعقل.

· الدلالة: هذا هو خلق المسلم في أوقات الفتن. قلب سليم يصفح، وعقل واثق في عدل الله ينتظر.
إنها ليست دعوة للسلبية، بل هي دعوة للتوازن.

تحويل هذه الخواتيم إلى طاقة بناء

المسار الأول: بناء الإنسان المطمئن

· التطبيق: إذا استنفدت وسعك في نصح أحد (ابنك، صديقك (ولم يستجب، فلا تحترق نفسك عليه.
قل: "اللهم إني بلغت، فاشهد"، واصفح عنه بمعنى لا تحمل هم هدايته بعد اليوم، واترك الأمر لله.

{فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}.

المسار الثاني: بناء الداعية المتوازن

. التطبيق: الداعية يحتاج أن يفرغ شحنته النفسية إلى الله قبل أن ينام .ليردد دعاء النبي: { يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ } .(هذا التفريغ يمنع الاحتراق النفسي).

المسار الثالث: بناء الحضارة القوية الواثقة

. التطبيق: الحضارة التي تؤمن بأن عدالة الله آتية، لا تنتقم بطريقة همجية .هي تصفح عن السفهاء، وتكل الأمر لله، وهذا هو منتهى القوة.

خاتمة التأمل

أيها القارئ الكريم...
ها نحن نصل إلى محطة النهاية في رحلتنا مع سورة الزخرف. سمعنا آخر كلماتها: {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}. إنها ليست مجرد كلمة، بل هي وعد الله لكل مؤمن صبر على أذى قومه، ولكل داعية كذبه المبتلون. اختتم قراءتك للسورة وقلبك يردد: "يا رب، إني بلغت، فاشهد. وأفوض أمري إليك، فسوف يعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون".

اللهم ارزقنا قلباً يصفح، وعقلاً يوقن بعدك، واجعلنا هداة مهديين. آمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة، والصلاة والسلام على من أنزل عليه القرآن نورا وموعظة، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

أما بعد،

فإنني إذ أتشرف بتقديم هذه القائمة بالمصادر والمراجع التي استندت إليها في منهجية التفسير والتحليل والاستنباط التي اتبعتها في تناول آيات سورة الزخرف والسور المرتبطة بها، لأؤكد أن ما قدمته ليس وليد اجتهاد محض ولا رأياً فطرياً، بل هو ثمرة دراسة متأنية، وقطف من بساطين علمائنا وجهود مفسرينا، ورحلة في آفاق العلوم القرآنية والشرعية والإنسانية التي خدمت كتاب الله.

وقبل أن أفصل القائمة، أود أن أوضح المنهج العام الذي سرت عليه:

إن التفسير الذي قدمته يقوم على منهج متكامل يجمع بين:

1. التفسير بالمأثور: بالاستناد إلى ما ورد في الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح.
2. التفسير اللغوي والبلاغي: باستخراج دلالات الألفاظ والتراكيب، والكشف عن اللمسات البيانية والإعجاز اللغوي والنظمي.
3. التفسير الموضوعي والتحليلي: بربط الآيات بعضها ببعض، وربط السور بعضها ببعض في إطار الوحدة الموضوعية للقرآن، واستنباط المقاصد والسنن.
4. التفسير التربوي والعملي: بربط المعاني بواقع الإنسان المعاصر، واستخراج الدروس والتوجيهات التي تبني الفرد والمجتمع والحضارة.
5. توظيف العلوم المساعدة: بالاستفادة من علم النفس التربوي، وفقه السنن، وفقه الحضارة، ونظريات البناء والتنمية، وغيرها، لبيان أثر القرآن في النفس والحياة.

وهذا المنهج - كما ترى - ليس حكراً على مرجع واحد، بل هو رحلة في موسوعة علمية واسعة. وهو ما سيتضح من سرد المصادر التي اعتمدت عليها في تكوين هذه الرؤية.

أولاً : المصادر والمراجع التفسيرية

هذه هي المراجع الأم التي شكلت العمود الفقري للتفسير، وقد أفدت منها في فهم المعاني الأساسية والآيات، وأسباب النزول، وأقوال المفسرين.

أ. المصادر التفسيرية التراثية (أهمها كتب التفسير بالمأثور والرأي)

- . جامع البيان في تأويل آي القرآن) تفسير الطبري (- للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري) ت 310هـ.
- . الإفادة: هو العمدة في نقل أقوال السلف من الصحابة والتابعين، والترجيح بينها، والتعمق في المعاني اللغوية والنحوية.
- . الكشف عن حقائق غوامض التنزيل - للإمام جابر الله الزمخشري) ت 538هـ.
- . الإفادة: مرجع أساسي في الكشف عن اللمسات البلاغية والبيانية والنظم القرآني، بغض النظر عن كون مؤلفه معتزلياً، فبلاغته وبيانه لا ينكران.
- . مفاتيح الغيب) التفسير الكبير (- للإمام فخر الدين الرازي) ت 606هـ.
- . الإفادة: غني بالاستدلالات العقلية والفلسفية، والربط بين الآيات، واستنباط الحكم والأسرار، وتوسيع دائرة المعاني.
- . الجامع لأحكام القرآن) تفسير القرطبي (- للإمام أبي عبد الله القرطبي) ت 671هـ.
- . الإفادة: مرجع جامع لأقوال المفسرين مع التركيز على استنباط الأحكام الفقهية والعملية من الآيات، مما يخدم الربط بالواقع.
- . تفسير القرآن العظيم) تفسير ابن كثير (- للإمام عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير) ت 774هـ.
- . الإفادة: هو عمدة التفسير بالمأثور بعد الطبري، وأهم مصدر لتفسير القرآن بالقرآن وبالسنة النبوية، وقد اعتمدته في توثيق الأحاديث والآثار.
- . البحر المحيط - للإمام أبي حيان الأندلسي) ت 745هـ.
- . الإفادة: مرجع لا يستغنى عنه في التحليل اللغوي والنحوي الدقيق للآيات، وإعرابها، وبيان وجوه

القرءات.

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - للإمام شهاب الدين الألوسي (ت 1270 هـ).
- الإفادة: موسوعة جامعة لطائف التفسير، تجمع بين المأثور والرأي واللغة والإشارة، وتلخص وتناقش أقوال من سبقوه، وهو من أهم ما رجعت إليه.
- تفسير معالم التنزيل (تفسير البغوي) - للإمام الحسين بن مسعود البغوي (ت 516 هـ).
- الإفادة: تفسير مأثور مختصر، معتمد على الأحاديث والآثار الصحيحة، يعين على الوقوف على المعنى الإجمالي الموثوق.

ب. المصادر التفسيرية البلاغية والبيانية وعلم النظم

- دلائل الإعجاز و أسرار البلاغة - للإمام عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ).
- الإفادة: هما أساس نظرية النظم في القرآن، وفهم أسرار بلاغته، وكيفية تأثير النظم في النفس . وقد كان لهذين الكتابين أثر كبير في تحليل "اللمسات البيانية" و"التناسب الصوتي" و"الموسيقى الداخلية" في تفسيري.
- التحرير والتنوير - للإمام محمد الطاهر بن عاشور (ت 1393 هـ).
- الإفادة: مصدر رئيسي ومحوري جداً في منهجيتي. يتميز بالنظر المقاصدي، والتحليل البلاغي العميق، وبيان الوحدة الموضوعية للسور، وفقه اللغة والنظم. وقد استفدت منه كثيراً في ربط الآيات بمقاصد السورة وبيان وجوه البلاغة.
- في ظلال القرآن - للأستاذ سيد قطب (ت 1385 هـ).
- الإفادة: مصدر رئيسي في التفسير التربوي والوجداني، والتصوير الفني للمشاهد القرآنية، وربطها بواقع النفس البشرية وحركة المجتمع. أسلوبه الحماسي الحواري كان ملهماً لي في طريقة مخاطبة القارئ.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - للإمام برهان الدين البقاعي (ت 885 هـ).
- الإفادة: مرجع أساسي في فهم علم المناسبات بين الآيات وخواتيمها وفواتح السور، مما ساعدني في ربط سلسلة "الحواميم" بعضها ببعض.
- البرهان في علوم القرآن و الإتيان في علوم القرآن - للإمامين الزركشي (ت 794 هـ) (والسيوطي) ت 911 هـ).
- الإفادة: موسوعتان شاملتان لعلوم القرآن كافة، يرجع إليهما في فهم أنواع علوم القرآن التي استخدمتها، كالمكي والمدني، والمطلق والمقيد، وفواتح السور، والوجوه والنظائر، وغيرها.

ج. المصادر التفسيرية الموضوعية والتحليلية

- الموسوعة القرآنية (خصائص السور) - للدكتور جعفر شرف الدين.
- الإفادة: تساعد في التعرف على جو السورة العام وأهم خصائصها ومحاورها وفنائها.
- التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم - بإشراف أ.د. مصطفى مسلم.
- الإفادة: مجموعة من الأساتذة المتخصصين قدموا رؤية موضوعية لكل سورة، مما ساعد في رسم الخريطة الكلية للسور التي تناولتها.

ثانياً: المصادر غير التفسيرية

وهي العلوم المساعدة التي استندت إليها في استنباط الدروس، والرسائل، والتوجيهات التربوية و النفسية والحضارية.

أ. مصادر الحديث النبوي الشريف

- الكتب الستة) صحيح البخاري، صحيح مسلم، سنن أبي داود، سنن الترمذي، سنن النسائي، سنن ابن ماجه).
- الإفادة: لتوثيق الأحاديث والآثار التي استشهدت بها، خاصة المتعلقة بأسباب النزول، والدعاء عند الركوب، وغيرها من الأذكار.
- مسند الإمام أحمد.
- الإفادة: مصدر إضافي للأحاديث والآثار.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة و ضعيفة - للإمام محمد ناصر الدين الألباني (ت 1420 هـ).
- الإفادة: للتحقق من درجة الأحاديث التي أذكرها في سياق التفسير.

ب. مصادر اللغة والمعاجم

- . معجم مقاييس اللغة - لابن فارس) ت395 هـ.
- . الإفادة: أساسي في تحليل دلالات الألفاظ وردّها إلى أصولها اللغوية.
- . المفردات في غريب القرآن - للراغب الأصفهاني) ت502 هـ.
- . الإفادة: المرجع الأهم لفهم دلالات الألفاظ القرآنية بدقة، والتمييز بين المترادفات، وقد كان عمدي في شرح المفردات.
- . لسان العرب - لابن منظور) ت711 هـ.
- . الإفادة: المعجم الموسوعي الذي يرجع إليه لتوسيع دائرة المعاني اللغوية.
- . معجم اللغة العربية المعاصرة - د. أحمد مختار عمر.
- . الإفادة: لربط المعاني القديمة بالمفاهيم المعاصرة.

ج. مصادر البلاغة واللمسات البيانية

- . دلائل الإعجاز - للجرجاني) سبق ذكره.
- . التحرير والتنوير - للطاهر بن عاشور) سبق ذكره.
- . لمسات بيانية في نصوص من التنزيل - للدكتور فاضل صالح السامرائي.
- . الإفادة: مرجع مهم ومبسط في تحليل الأسرار البلاغية للآيات، والتركيز على السؤال البلاغي: "لماذا هذه الكلمة دون غيرها؟". استخدمت منهجه في تحليل دلالة {نَزَلَ} بدلا من {أُنْزِلَ} وغيرها من اللمسات.

د. مصادر السيرة النبوية

- . الرحيق المختوم - لصفي الرحمن المباركفوري.
- . الإفادة: للرجوع إلى السياق التاريخي للسيرة، وفهم ظروف نزول الآيات.
- . فقه السيرة - للشيخ محمد الغزالي) ت1416 هـ.
- . الإفادة: لاستخلاص الدروس والعبر من السيرة وربطها بالآيات.

هـ. مصادر أصول الفقه والمقاصد

- . الموافقات في أصول الشريعة - للإمام أبي إسحاق الشاطبي) ت790 هـ.
- . الإفادة: أساسي في فهم مقاصد الشريعة وكيفية استنباط الأحكام، وقد استفدت منه في الحديث عن "المقاصد والأهداف" وعن الحكمة من التشريع.
- . علم أصول الفقه - عبد الوهاب خلاف.
- . الإفادة: مرجع مبسط لفهم أصول الاستدلال والنسخ والتخصيص.

و. مصادر التربية وعلم النفس

- . منهج التربية الإسلامية - للأستاذ محمد قطب.
- . الإفادة: في فهم أسس التربية القرآنية وكيفية بناء الشخصية المسلمة.
- . نظريات التعلم و علم النفس التربوي (-) مراجع عامة مثل: د. جابر عبد الحميد، د. فوزي زاهر).
- . الإفادة: لربط المفاهيم مثل "التشويق"، "لفت الانتباه"، "المناعة النفسية"، "التفاعل"، و"التدرج في إقامة الحجة" بنظريات التعلم والتحليل النفسي الحديثة.

ز. مصادر فقه السنن والحضارة والخطاب الإسلامي

- . معالم في الطريق - للأستاذ سيد قطب.
- . الإفادة: في فهم قضية "جاهلية القرن العشرين" وضرورة العودة للقرآن لبناء الأمة القائدة، وهو ما ظهر في ربطي للآيات بواقعنا.
- . فقه السنن الإلهية - للدكتور محمد عبد الله دراز.
- . الإفادة: لفهم السنن التي تحكم التدافع الحضاري بين الحق والباطل.
- . السنة النبوية: منهج لبناء الحضارة - المستشار عبد الجواد ياسين.
- . الإفادة: في فهم كيفية تحويل النص إلى واقع، وبناء الحضارة على أصول الوحي.
- . الخطاب الإسلامي المعاصر - د. طه جابر العلواني.
- . الإفادة: في منهجية التعامل مع النص القرآني وربطه بقضايا العصر.

ح. مصادر التزكية والتهذيب

- . مدارج السالكين - للإمام ابن قيم الجوزية) ت 751 هـ.
- . الإفادة: في تحليل أحوال النفس البشرية من شكر وكفر وصدق وكبر... إلخ.
- . إحياء علوم الدين - للإمام أبي حامد الغزالي) ت 505 هـ.
- . الإفادة: في الجوانب المتعلقة بتربية النفس وتهذيبها.

ثالثاً: المواقع الإلكترونية وقواعد البيانات

استخدمت هذه المواقع كأداة للبحث السريع والتوثيق:

- . المكتبة الشاملة) الموقع والتطبيق):
- . الإفادة: هي المصدر الرئيسي للوصول إلى كل كتب التراث المذكورة أعلاه، والبحث في آلاف المجلدات بكبسة زر، وهو ما يسر عملية جمع المادة من مصادر متعددة.
- . موقع نداء الإيمان:
- . الإفادة: يحتوي على تفاسير وموسوعات إسلامية مرتبة وسهلة التصفح.
- . موقع الدرر السنية) الموسوعة الحديقية):
- . الإفادة: المرجع الأساسي لتخريج الأحاديث النبوية والبحث في المحدثين والحكم على الأسانيد.
- . موقع إسلام ويب:
- . الإفادة: للرجوع إلى الفتاوى والتفسير والمقالات الموثوقة التي تربط النص بالواقع المعاصر.
- . موقع) للبحث عن المصادر العلمية):
- . الإفادة: للبحث في الأوراق العلمية المحكمة المتعلقة بالإعجاز اللغوي واللمسات البيانية وعلم النفس.

وختاماً... هذا غيض من فيض مما تشربته من هذه الكنوز المعرفية. فإن كان ما قدمته حسناً فمن الله وتوفيقه وهبة من علمائنا، وإن كان غير ذلك فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله العظيم. أحمد عبد الرزاق مربوش العامري